رواية

FIFA WORLD CUP Qatar2022
5.12.2022

برنار فيربير



ثاناتونوتس

ترجمة: حسين عمر

برنار فيربير

ثاناتونوتس

ترجمة: حسين عمر

ثاناتونوتس

رواية

اسم المؤلف: برنار فيربير

عنوان الكتاب: ثاناتونوتس

ترجمة: حسين عمر

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2022

Author: **Bernard Werber**

Title: **Thanatonautes**

Translated by: **Hussein Omar**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2022**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 780 808 0800 · + 964 (0) 770 2799 999 · + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 706 15017 · + 961 175 2617 · + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2275 · + 963 11 232 2276 · + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

قاموس:

كلمة THANATONAUTE «مأخوذة من المفردتين اليونانيتين thanatos، التي تعني: الموت؛ وnautês، التي تعني: مستكشف»، أي تعني مستكشف الموت.

كتاب التاريخ المدرسي

بعض التواريخ للحفظ

1492: الخطوات الأولى على أرض القارة الأمريكية

1969: الخطوات الأولى على سطح القمر

2062: الخطوات الأولى على قارة الموتى

2068: الإعلانات الأولى على طريق تناسخ الأرواح.

كتاب مدرسي لتلاميذ المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

العصر الأول

عصر الهواة

1. كتاب التاريخ المدرسي

فيما مضى، كان جميع البشر يخافون الموت. الموت مثل ضوضاء دائمة لا ينساها أحدٌ للحظة واحدة، ويعرف كلّ واحدٍ أنّه في نهاية كلّ أعماله، سوف يَفنى. وكان هذا القلق المقيم يُفسد كلّ المسرّات.

لدى وودي آلن، وهو فيلسوفٌ أمريكي من نهاية القرن العشرين، جملة لوصف الحالة الذهنية المهيمنة في هذه الأزمنة: «طالما أنّ الإنسان سيَفنى، لن يسعه أن يكون مرتاح البال حقّاً».

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصف الثاني.

2. دفتر ذكريات مايكل بينسون

هل لي الحقّ في أن أروي كلّ شيء؟

حتى في الوقت الحاضر، وبعد فوات الأوان، يصعب عليّ التصديق أنّ ما حدث قد جرى بالفعل. يصعب عليّ التصديق أنّني قد شاركتُ في هذه الملحمة الرائعة. ويصعب عليّ التصديق أنّني قد نجوتُ منها لأكون شاهداً عليها.

بطبيعة الحال، ما كان لأحدٍ أن يتصوّر أنّ كلّ شيء سوف يذهب سريعاً جدّاً وبعيداً جدّاً. لا أحد.

ما الذي دفعنا إلى هذا الجنون؟ لا أدري. ربّما هو شيءٌ سخيفٌ جدّاً يُسمى الفضول. هو الفضول نفسه الذي يمنحنا الرغبة في أن ننحني على حافة الهاوية لكي نرى كم سيكون سقوطنا مروّعاً إذا ما خطونا خطوة إضافية.

ربّما هي أيضاً الحاجة إلى المغامرة في عالم يزداد عطالة وفتوراً للهمّة.

يقول بعض الناس: «كان ذلك مكتوباً، وهكذا كان يجب أن يتمّ الأمر». أمّا أنا، فلا أؤمن بالأقدار المكتوبة مسبقاً. أنا أؤمن بأن البشر يتّخذون خياراتهم، ويقومون بممارستها. هذه الخيارات هي التي ترسم الأقدار، وربّما خيارات البشر هذه هي التي ترسم الكون.

أتذكّر كلّ شيء، كلّ حلقة، كلّ كلمة، كلّ عبارة من هذه المغامرة العظيمة.

هل لي الحقّ في أن أروي لكم كلّ شيء؟

نقش: أروي. طرّة: أحتفظ بالسرّ.

نقش.

إذا كان عليّ أن أبحث عن جذور كلّ الأحداث التي تسلسلت، سيكون عليّ أن أرجع إلى الوراء، بعيداً جدّاً في حياتي الماضية.

3. استمارة شرطة

طلب معلومات وصفية أساسية

الكنية: بينسون

الاسم: مايكل

لون الشعر: بنّي

الطول: 175 سم

علامات فارقة: لا توجد

ملاحظات: رائد الحركة الثاناتونوتية

نقطة الضعف: الافتقار إلى الثقة بالنفس

4. عند ديبون كلّ شيء طيّب

كما هو الحال بالنسبة إلى جميع الأطفال، كان هناك بالنسبة إليّ أيضاً يومٌ معلوم، يوم اكتشاف الموت. كان الموت الأوّل بالنسبة إليّ هو بالضبط موت رجلٍ اعتاد العيش بين الجثث. إنّه السيّد ديبون، لحّام حيّنا. كان شعاره مكتوباً بأحرفٍ كبيرة على واجهة ملحمته: «عند ديبون كلّ شيء طيّب». ذات صباح، أخبرتني أمّي بأننا لن نستطيع أن نشتري من ملحمته (فيليه مينيون) من أجل يوم غدٍ، الأحد لأنّ السيّد ديبون قد مات. وكان قد سُحِقَ تحت جثّة ثورٍ من سلالة شاروليه الفرنسية، كان قد سقط فوقه على حين غرّةٍ.

كان عمري آنذاك أربع سنوات. سألتُ أمّي بعفوية وبراءة عما تعنيه هذه الكلمة: «م. و. ت». بدت أمي محرجة مثلما بدت في اليوم الذي سألتها إن كانت حبوب منع الحمل هذه تستطيع أن تعالج سعالي.

أسبلت عينيها.

– حسناً، آه، أن يكون المرء ميّتاً، هذا يعني أنّه «لم يعد موجوداً».

– مثلما يخرج من غرفة؟

– ليس أن يخرج من الغرفة فقط، بل ويغادر أيضاً البيت، والمدينة، والبلد.

– أن يسافر إلى مكانٍ بعيدٍ، إذاً؟ مثلما حين نسافر لقضاء عطلةٍ؟

– آه... كلا، ليس تماماً. لأنّه حينما يموت المرء، لا يعود يتحرّك.

– لا يعود يتحرّك، ويذهب إلى مكانٍ بعيد؟ هذا مذهل! كيف يمكن ذلك؟

ربّما عند هذه المحاولة الرعناء الهادفة إلى شرح وفاة اللحّام ديبون وُلِدتْ في داخلي التربة الخصبة للفضول، التي استطاع، بعد ذلك بزمنٍ طويل، أن يزرع فيها راؤول رازورباك بذرة هذيانه.

أو على الأقلّ، هذا ما يبدو لي.

بعد مضي ثلاثة أشهر، حينما أخبروني بأنّ والدة جدّتي آغلاي هي الأخرى قد ماتت، يبدو أنني قلت حينئذٍ: «جدتي آغلاي ماتت؟ هنا،

يُدهشني أن تكون قادرة على ذلك!»، فاغتاظ والد جدّي وبحلق بعينين مرعبتين وأطلق هذه الجملة التي لن أنساها أبداً:

- أنت لا تعرف إذاً أنّ *الموت هو الأمر الأكثر فظاعة الذي قد يحدث!*

كلا. لم أكن أعرف ذلك.

قلتُ متلعثماً:

- آه حسناً... كنتُ أعتقد أنّ...

أضاف لكي يُزيد في التأكيد:

- لا *مُزاح مع هذه الأمور!* إذا كان هناك شيءٌ لا يُمزَح معه، فهو الموت بالتأكيد!

ثمّ أخذ والدي زمام الأمور. أراد الجميع أن يجعلوني أفهم أنّ الموت محظورٌ مطلق. لا نتحدّث عنه، ولا نذكره، وإذا ما لفظنا اسمه، فينبغي أن يكون بوجلٍ واحترام. في كلّ الأحوال، لا يمكننا أن نلفظ هذه الكلمة عبثاً، فمن شأن هذا أن يجلب لنا النحس.

لقد هزّوني.

- لقد ماتت والدة جدّتك آغلاي. وهذا فظيع. ولو كان لديك قلب... لبكيت!

لا بدّ من القول هنا إنّ أخي كونراد قد بكى منذ الفجر وانهمرت دموعه مثل ممسحة حمّام تُعصَر.

آه حقّاً، حينما يموت الناس، يجب أن نبكي؟ لم يقولوا لي شيئاً على الإطلاق. إنّ الأمور التي تمضي من دون كلام، تمضي أفضل ممّا لو تحدّثنا عنها.

ولكي يساعدني على أن أبكي، كافأني والدي، المستاء من غطرستي الصبيانية، بزوجٍ من الصفعات. ولا بدّ أنّه قد تمنّى أنّني، بهذه الطريقة، سوف أتذكّر: أوّلاً، جملة «أنّ الموت هو الأمر الأكثر فظاعة الذي قد يحدث»، وثانياً، أنّه «لا مُزاح مع هذه الأمور».

ولمّا عاد والدي من مراسم دفن والدة جدّتي آغلاي، ألحّ عليّ بالسؤال:

- لماذا لم تبكِ؟

دافعت عنّي أمّي بفتور:

– دعه وشأنه، مايكل لا يبلغ من العمر سوى خمس سنوات. إنّه لا يعرف حتى ما هو الموت.

– إنّه يعرفه جيّداً، ولكنّه لا يفكّر إلّا بنفسه، وبالتالي لا يبالي بموت الآخرين. سوف ترين، حينما نموت، لن يبكي أيضاً!

هنا، بدأتُ أفهم جدّياً أنّه لا مُزاح مع الموت. بعد ذلك، ما إن يُعلن لي عن حالة انتقال من الحياة إلى الوفاة، كنتُ أرغم نفسي على التفكير بقوّة في شيءٍ محزنٍ للغاية... من قبيل السبانخ الأخضر المطبوخ، على سبيل المثال، فكانت دموعي تنهمر بلا مشكلة، وكان هذا الأمر يُسعد الجميع.

ثمّ أقمتُ علاقة أكثر مباشرةً مع الموت. في الواقع، حينما بلغتُ السابعة من عمري، أنا من مُتُّ. وقع الحادث في شهر فبرابر / شباط، في نهارٍ جميلٍ ومشرق. لا بدّ من القول إننا حظينا سابقاً بشهر يناير / كانون الثاني اللطيف للغاية، وكان من الشائع جدّاً أن يلي شهرَ يناير / كانون الثاني اللطيفَ شهرُ فبراير / شباط المشمس غالباً.

5. حيث يموت البطل بالتتالي

– انتبه!

– مصيبة...

– يا إلهي!

– احذر! أنت لا ترى إذاً أنّه سوف...

– كلاااا!!!!!!

دوّى صرير فرامل سيارةٍ طويلٌ. حدث اصطدامٌ بصوتٍ عالٍ، ثمّ ساد هدوءٌ. كنتُ أركض خلف بالوني الذي كان قد تطاير فوق مسار الطريق، وصدمتني الواقية الأمامية للسيارة الرياضية الخضراء في أسفل ركبتي تماماً، حيث يكون الجلد الأكثر رقّة. انفصلت قدماي عن الأرض، وانقذفتُ في السماء.

صفّر الهواء في أذنيّ، وكنتُ أحلّق فوق الأرض، واندفعت ريحٌ باردة في فمي الفاغر. وفي الأسفل، بعيداً عني، كان متسكّعون يحدّقون فيّ، بفزعٍ.

صاحت امرأةٌ صياحاً مدوّياً لمّا رأتني أنهض. تسرّب دمٌ من سروالي، وشكّل بركةً صغيرة على الإسفلت. جرى كلّ شيء كما لو أنّه مشهدٌ يُعرَض بطيئاً. لقد حلّقتُ عالياً على مستوى أسطح المنازل وأنا أرى أشباحاً تتحرّك في الغرف العلوية. للمرّة الأولى، لمع في ذهني السؤال الذي سوف يستحوذ على تفكيري غالباً فيما بعد: «ولكن ما الذي أفعله هنا، إذاً؟»

نعم، في تلك اللحظة، معلّقاً في السماء لبعض الوقت، أدركتُ أنّني لم أكن قد فهمتُ أيّ شيء.

من أكون؟

من أين أتيت؟

إلى أين أذهب؟

أسئلةٌ سرمديّةٌ. كلُّ امرئٍ يطرحها على نفسه، ذات يوم. وأنا طرحتها على نفسي في تلك اللحظة التي كنتُ أموت فيها.

كنتُ مرتفعاً لمسافةٍ عاليةٍ جدّاً. ونزلتُ سريعاً جدّاً. اصطدم كتفي بغطاء محرّك السيارة الرياضية الخضراء. وانقذفتُ مرّة أخرى وراح رأسي يرتطم بحرف الرصيف، فتعالى صوت ارتطامٍ قويّ. انحنت وجوهٌ ذاهلة فوقي.

رغبتُ في أن أتكلّم، ولكن لم يعد بوسعي أن أفعل أيّ شيء، ولا أن أقول أيّ شيء، ولا أن أتحرّك. أخذ ضوء الشمس يتضاءل ببطء. على أيّ حال، في شهر فبراير / شباط، تكون الشمس خجولةً، ونشعر بأنّ أمطار شهر مارس / آذار المفاجئة والغزيرة لن تتأخّر. انطفأت السماء تدريجياً، وسرعان ما غرقتُ في الظلام، والصمت. لم تعد هناك لا رائحة، ولا حواس، لم يعد هناك أيّ شيء. لقد أُسدلَ الستار.

كنتُ في السابعة تماماً من عمري، وكنتُ على وشك أن أموت للمرّة الأولى.

6. إعلان دعائي

الحياة جميلة. لا تُصغوا إلى الثرثرات الفارغة. الحياة جميلة. الحياةُ

منتجٌ مُجرّب وموافقٌ عليه من قبل سبعين ملياراً من البشر منذ ثلاثة ملايين سنة. هذا هو الرهان على جودتها الفريدة من نوعها.

هذه رسالة من ANPV، الوكالة الوطنية لتنمية الحياة

7. كتاب التاريخ المدرسي

إلى حين ظهور استكشاف الموت، كان الموت يُعتبر أحد المحرّمات الرئيسية للبشرية. ولكي يكافحوا صورته على نحوٍ أفضل، لجأ البشر إلى عمليات ذهنية سوف نصفها على أنّها معتقدات خرافية. كان بعض البشر يعتقدون، على سبيل المثال، أنّ ميدالية معدنية فيها تمثال القديس كريستوف، ومعلّقة بلوحة قيادة السيارة، سوف تتيح للبشر أن يتجنّبوا وقوع حوادث سير للسيارات.

قبل القرن الواحد والعشرين، كان الناس يسخرون بالعادة بهذه الطريقة: «في حال وقوع حادث سيارة، فإنّ السائق أو الراكب الذي يحمل أكبر ميدالية لتمثال القديس كريستوف، لديه فرص أكثر لكي يخرج سالماً من الحادث».

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

8. حينما يظنّ البطل أنّه مات

انتظار. لا شيء رهيباً يحدث.

كان والد الجدّ على خطأ. لم يكن الموت على هذه الدرجة من الفظاعة. لم يحدث أيّ شيء، وهذا كلّ ما في الأمر.

استمرّ الظلام والصمت لزمنٍ طويلٍ جدّاً.

وفي النهاية، فتحتُ عينيّ. ظهر طيفٌ نحيلٌ وسط هالة من الضوء المبهَم. لا بدّ أنّه ملاكٌ.

انحنى الملاك عليّ. كان الملاك امرأةً، لكن امرأة جميلة جدّاً لم نر مثلها قطّ على الأرض. شقراء، بعينين بنّيتين.

ولعطرها رائحة المشمش.

كان كلّ شيء من حولنا أبيض وصافياً.

لا بدّ أنني كنتُ في الفردوس لأنّ الملاك ابتسم لي.

– اويه ... أوديين... إياتو... آه.

لا بدّ أنّ الملائكة تتحدّث بلغة خاصّة بها. لغة عامّة للملائكة غير مفهومة لغير الملائكة.

– فو... نافهيه... لوديهين...إياتوهو.

ردّدت المرأة بأناة هذه الترنيمة ومرّرت يدها الناعمة والباردة فوق جبيني الأملس، أنا الطفل الذي تعرّض لحادث.

– لم... تعد... حرارتك... مرتفعة.

نظرت من حولي، مذهولاً.

– هل أنت بخير؟ هل تفهمني؟ لم تعد حرارتك مرتفعة.

– أين أنا؟ في الجنّة؟

ردّ الملاك وهو يطمئنني:

– كلا. في قسم الإنعاش في مستشفى سان لويس.

– أنت لم تمت. لديك فقط بعض الرضوض. لقد حالفك الحظّ في أنّ غطاء محرّك السيارة خفّف من وقع سقوطك. ليس لديك سوى خدشٍ كبيرٍ في ركبتيك.

– هل أُغمي عليّ؟

– نعم، مدّة ثلاث ساعات.

لقد فقدتُ وعيي مدّة ثلاث ساعات، ولم أتذكّر أيّ شيء من ذلك! لا أتذكّر حتى مجرّد مثقال ذرّة من فكرة أو إحساس. خلال الساعات الثلاث هذه، لم يحدث أيّ شيء.

وضعت الممرّضة الوسادة تحت خاصرتيّ لأستطيع الجلوس براحةٍ أكثر. ربّما أكون قد متُّ مدّة ثلاث ساعات، ولكن ذلك لم يُصبني لا بالحرارة ولا بالبرد.

بالمقابل، ما سبّب لي صداعاً شديداً هو وصول عائلتي إلى المستشفى. كان أفراد عائلتي الثلاثة في غاية الرقّة وأخذوا يجهشون بالبكاء كما لو أنني

أسلمتُ الروح بالفعل. لقد أثبتوا أنّهم يولونني الكثير من الاهتمام. كانوا يقولون في منتهى الرقّة: «نحن قلقون عليك للغاية». أحسستُ بأنّهم كانوا يتأسفون لأنني نجوت من الحادث. فلو متُّ، لتحسّروا عليّ للغاية. وعلى حين غرّة، كنتُ أنال كلّ الفضائل دفعةً واحدة.

9. استمارة شرطة

الموضوع: طلب معلومات عن الحالة النفسية لشخصٍ يُدعى مايكل بينسون

بدا الشخص المطلوبةُ دراسته طبيعياً بشكلٍ عام. ومع ذلك، تمّ تشخيص أنّ لديه بعض حالات الضعف من الناحية النفسية سببها جوٌّ عائلي خانق للغاية. يعيش على الدوام في حالة الشكّ. بالنسبة إليه، آخر من يتكلّم هو المحقّ دائماً. يجهل ما يُريده. لا يفهم عصره. لديه ميول ذهانية هذيانية خفيفة.

ملاحظة: لم يرَ الوالدان أنّه من المفيد الكشف للشخص المذكور أنّه طفلٌ متبنّى.

10. نسرٌ

هذه الرحلة الأولى خارج الحياة لم تعلّمني أيّ شيء مهمّ على نحوٍ حقيقي بشأن الموت، عدا أنها ظلّت لأمدٍ طويلٍ مصدر المتاعب مع عائلتي.

فيما بعد، حينما بلغتُ الثامنة، أو التاسعة من عمري، اهتممتُ أكثر بالموت، ولكن هذه المرّة، موت الآخرين. وهنا، لا بدّ من التوضيح أنّ التلفاز كان يبثّ كلّ مساء في نشرة أخبار الساعة الثامنة أخبار الوفيات التي كانت تحدث بكثرة. وكان هناك أوّلاً قتلى الحروب. وكان هؤلاء يرتدون بزّات موحّدة باللونين الأخضر والأحمر.

ثمّ، كان هناك قتلى حوادث الطرق خلال أيام العطلة: وهؤلاء يرتدون ثياباً مُبهرَجة. وأخيراً، يأتي دور المتوفين المشاهير: وهؤلاء يرتدون ثياباً لها بريقٌ.

في التلفاز، كان كلّ شيء أكثر بساطة ممّا هو عليه في الحياة. كنّا ندرك في الحال أنّ الموت محزنٌ لأنّ الصور مرفقة بموسيقى جنائزية. في التلفاز، حتى الأطفال والمغفّلون كانوا يستطيعون أن يفهموا. كان لقتلى الحروب الحقّ في إحدى سيمفونيات بيتهوفن، وكان لقتلى حوادث الطرق أثناء العطلة كونشرتو من معزوفات أنطونيو فيفالدي، بينما يحظى النجوم الضحايا بجرعة زائدة من أعمال موزارت الهادئة على التشيلو. لم تفتني الملاحظة أنّه ما إن يتوفّى نجمٌ، تصعد مبيعات أسطواناته كالسهم، وتُعرَض أفلامه مراراً وتكراراً على الشاشة الصغيرة، ويتحدّث الجميع بإيجابية عن المرحوم، كما لو أنّ الموت قد أزال كلّ خطاياه. والأنكى من ذلك: لم تكن وفاته تمنع الفنانين من أن يعملوا. لقد اشتهرت أفضل أسطوانات جون لينون أو جيمي هندريكس أو جيم موريسون بعد موتهم.

كان حضوري التالي لمراسم الدفن هو دفن الخال نوربير. وقد أكّد المشيّعون أثناء موكب الجنازة أنّه شخصٌ رائع. وهنا أيضاً، سمعتُ للمرّة الأولى العبارة الشهيرة: «دائماً ما يرحل أفضل الناس أوّلاً». لم أكن أبلغ من العمر سوى ثمانية أعوام، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير: «هل هذا يعني أنّه لم يبقَ هنا، في كلّ مكان، سوى السيئين؟»

في مراسم التشييع تلك، أظهرتُ نفسي في أفضل صورة لا تشوبها شائبة. منذ لحظة انطلاق موكب التشييع، ركّزتُ تفكيري على أوراق السبانخ المسلوقة. وكنتُ أجهش بالبكاء بلا هوادة من خلال إضافة الأنشوفة إليها. حتى أخي كونراد لم ينجح في أن يرقى إلى مستوى دموعي المنهمرة.

لدى وصولنا إلى مقبرة بير لاشيز، كنتُ قد أضفتُ إلى وجبة دموعي قطعاً من البروكولي ونخاع الخروف النيء. يا للقرف، كنتُ أوشك على التقيّؤ. من بين الحشد الصغير للحضور، همس أحدهم: «لم أكن أعلم أنّ مايكل كان متعلّقاً إلى هذه الدرجة بالخال نوربير». وقد لاحظت أمّي أنّ الأمر كان مدهشاً، ولا سيما أنني لم أكن قد التقيتُ به قط. ومع ذلك، كنتُ قد اكتشفتُ وصفة مراسم الدفن الناجحة: أوراق السبانخ المسلوقة، وأنشوفة، ونخاع الخروف.

كان ذلك اليوم يوماً للذكرى لأنّه، علاوة على ذلك، التقيتُ للمرّة الأولى راؤول رازورباك.

كنا مجتمعين أمام قبر خالي الراحل نوربير عندما لاحظتُ في مكانٍ أبعد بقليل ما بدا لي للوهلة الأولى نسراً يحطّ على مدفنٍ. لم يكن الأمر يتعلّق بطائر صيد. كان راؤول.

مستفيداً من لحظةٍ من الغفلةِ - ففي نهاية المطاف، كنتُ قد بذلتُ حصّتي من الدموع - ، اقتربتُ من الشبح الغامض. وجدتُ شخصاً طويلَ القامة أخرق يجلس وحيداً على حجرة مدفنٍ، يحدّق في السماء.

قلتُ بتهذيبٍ:

- صباح الخير، ماذا تفعلون هنا؟

ساد الصمت. حينما اقتربتُ منه أكثر، بدا النسر صبيّاً. كان نحيلاً، تغطّي خدّي وجهه الهزيل نظارات ذات إطارٍ عاجيّ. كانت يداه النحيفتان والدقيقتان موضوعتين على سرواله مثل عنكبوتين هادئين ينتظران أوامر صاحبهما. خفض الصبي رأسه وتمعّن فيّ بهدوءٍ وعمقٍ لم يسبق لي قط أن صادفتهما عند شخصٍ بنفس عمري تقريباً.

كرّرتُ سؤالي:

- إذاً، ما الذي تفعلونه هنا؟

رفعت يدٌ - عنكبوتٌ بكلّ ما أوتيت من سرعة الطرف الشمالي من معطفه ليظهر بأنفٍ طويلٍ ومستقيم. ثمّ قال، بنبرة رسمية:

- يمكنكَ أن تخاطبني بصيغة المفرد، دون تكلّف.

لقد تكلّم أخيراً:

- أنا على قبر والدي. أجهد لكي أعرف إن كانت هناك أمورٌ يودّ أن يقولها لي.

ضحكتُ. تردّد قليلاً قبل أن ينفجر ضاحكاً بدوره. ليس هناك ما تفعله سوى أن تتهكّم على طفلٍ نحيلٍ يمضي ساعات على قبر والده منتظراً، وهو ينظر إلى السحب تعبر السماء.

- ما اسمك؟

- راؤول رازورباك. يمكنك أن تناديني راؤول. وأنت؟

- مايكل بينسون. يمكنك أن تناديني مايكل.

عاينني، ثمّ قال:

- بينسون؟ تعني عصفور بِرْقِش. بالنسبة إلى عصفور بِرْقِش، تبدو لي طائراً غريباً.

حاولتُ أن أدافع عن نفسي. كانت هناك جملة شائعة كانوا قد علّموني إياها لاستخدامها في موقفٍ حرج كهذا.

- الكلام مردودٌ على قائله.

وانفجر ضاحكاً من جديد.

11. استمارة شرطة

طلب معلومات وصفية أساسية

الكنية: رازورباك

الاسم: راؤول

لون الشعر: بنّي

لون العينين: بنّي

الطول: 190 سم

علامات فارقة: يضع نظارات

ملاحظات: رائد الحركة الثاناتونوتية

نقطة الضعف: مبالغة في الثقة بالنفس

12. صداقة

فيما بعد، اعتدنا، راؤول وأنا، أن نلتقي في مقبرة بير لاشيز بعد ظهيرة كلّ يوم أربعاء. كنتُ أحبّ كثيراً المشي إلى جانب خياله الطويل والنحيل. وفضلاً عن ذلك، كانت لديه على الدوام قصص خيالية يرويها لي.

- لقد ولدنا بعد فوات الأوان، يا مايكل.

– لماذا؟

– لأنّه سبق أن اختُرِع كلّ شيء، سبق أن اكتُشِف كلّ شيء. كان من الممكن أن يكون حلمي أن أكون أوّل رجلٍ يخترع البارود أو الكهرباء، أو حتى أوّل من يصنع قوساً ونبالاً. كنتُ سأكتفي بشيءٍ تافهٍ.

ولكن سبق أن اكتُشِف كلّ شيء. الواقع يسير أسرع من الخيال العلمي. لم يعد هناك مخترعون، لم يعد هناك سوى مقلّدين. أناسٌ يطوّرون ما اكتشفه آخرون منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً. إنّ آخر رجل عرف هذا الشعور الخيالي بفضّ عذرية كونٍ جديدٍ هو آينشتاين بالتأكيد. هل تتصوّر حالة الدوار في الرأس عندما أدرك أنّه يمكن حساب سرعة الضوء!

كلّا لم أتصوّر. رمقني راؤول متأسّفاً.

– سيكون عليك أن تقرأ المزيد من الكتب، يا مايكل. العالم ينقسم إلى فئتين من الناس: الذين يقرأون كتباً والذين يصغون إلى الذين قرأوا كتباً. من الأفضل أن ينتمي المرء إلى الفئة الأولى، صدّقني.

قلتُ له إنّه يتحدّث تماماً مثل كتابٍ، وضحكنا معاً. لكلٍّ دوره: كان راؤول يقول حقائق أوّلية، وكنتُ أسخر منها، ثمّ كنّا نضحك معاً. في الواقع، كنّا نقهقه ساخرين من أيّ شيء.

بيد أنّ راؤول رازورباك كان قد قرأ الكثير من الكتب. كما أنّه هو الذي منحني حبّ المطالعة من خلال قيامه بتعريفي بكتّابٍ «غير مملّين» على حدّ تعبيره: رابليه، إدغار آلان بو، لويس كارول، هربرت جورج ويلز، جول فيرن، إسحاق أسيموف، فرانك هربرت، فيليب ك. ديك.

شرح لي راؤول:

– ليس هناك الكثير من الكتّاب «غير المملّين». أغلب الكتّاب يتصوّرون أنّهم كلّما كانوا غير مفهومين أكثر، بدوا أذكياء أكثر. فيمدّون جملهم على عشرين سطراً. ثمّ ينالون جوائز أدبية، ومن ثمّ يشتري الناس كتبهم لكي يزيّنوا بها صالونات منازلهم ويوهموا الذين يقومون بزيارتهم بأنّهم قادرون على قراءة أشياء متطوّرة إلى هذه الدرجة. بل تصفّحتُ كتباً لم يحدث فيها أيّ شيء. لا شيء البتّة. جاء فلان، ورأى امرأة، وغازلها. قالت له إنّها لا

تعلم إن كانت سوف تنام معه أم لا. بعد ثمانمئة صفحة، تقرّر في النهاية أن تعلن بحزم أنّها ترفض أن تنام معه.

سألتُ باندهاش:

– ولكن ما الفائدة من كتابة كتب لا يجري فيها أيّ شيء البتّة؟

– انعدام الأفكار. فقر في التخيّل. ومن هنا، كتب السير والسير الذاتية، السير الذاتية والسير المروية... إنّ كتّاباً غير قادرين على ابتكار عالمٍ، لا يستطيعون أن يصفوا سوى عالمهم، مهما بلغ من البؤس. حتى في مجال الأدب، لم يعد هناك مبتكرون.

وبسبب انعدام العمق والجوهر في كتبهم، ينمّق الكتّاب أسلوبهم ويعتنون بالشكل. صفْ في عشر صفحات معاناتك مع دمّلة، وسوف تكون لك فرص جيّدة لكي تحصل على جائزة غونكور.

تبادلنا ضحكات خافتة.

– صدّقني، لو أنّ أوديسة هوميروس نُشرت للمرّة الأولى الآن، لما ظهرت حتى في قائمة أفضل المبيعات. وكانت ستصنّف مع كتب الخيال والرعب. ولما كان هناك من يقرأها سوى الصبيان من أمثالنا، من أجل حكايات العملاق، والساحرة، وحورية البحر، والوحوش الآخرين.

كان راؤول قد ولِدَ وهو موهوبٌ بقدرة نادرة على الحكم على الأمور بنفسه. لم يكن يردّد بعلمٍ ومعرفة الأفكار التي تُلقّن كلّها في التلفاز أو في الصحف. وأعتقد أن هذا هو ما أغراني به، هذه الروح الحرّة، ومقاومته لكلّ أنواع التأثيرات. ويعود الفضل في هذا إلى والده. فقد كان أستاذاً للفلسفة وعلّمه حبّ الكتب. وكان راؤول يقرأ قرابة كتابٍ واحدٍ يومياً. وخاصّة الأعمال الخيالية، أو كتب الخيال العلمي.

كان يطيب له القول:

– المكتبة هي سرّ الحرّية.

13. لا يعتني المرء أبداً بما فيه الكفاية بأحشائه

بعد ظهيرة أحد أيام الأربعاء، حيث كنّا نجلس على مقعد، كنّا نمعن

النظر في صمتٍ إلى السحب وهي تنسلّ فوق المقبرة، أخرج راؤول كتاباً سميكاً من حقيبته المدرسية. ولمّا فتحه، أطلعني على صفحة لا بدّ أنّه كان قد اقتطعها من كتابٍ خاصّ بالميثولوجيا القديمة قبل أن يُلصقها بكتابه.

كانت في الصفحة صورة لقاربٍ مصريّ، وكذلك شخصيات مختلفة.

علّق على الصورة:

– في وسط السفينة الشراعية يقف رَع، إله الشمس. يركع ميّتٌ أمامه. وعلى كلا الجانبين، يقف إلهان آخران: إيزيس، ونيفتيس. بيدها اليسرى، تحدّد الإلهة إيزيس اتجاهاً، وفي يدها اليمنى، ترفع مفتاح الحياة، رمز الخلود الذي ينتظر مسافر العالم الآخر.

– هل يؤمن المصريون بوجود عالمٍ آخر؟

– بالطبع. هنا، على الطرف الأيسر للصورة، نتعرّف على أنوبيس، برأس ابن آوى الأفريقي. إنّه هو الدليل الذي سوف يرافق الميّت، الذي يمسك بيده صندوقاً يضمّ معدته وأمعاءه.

تمالكتُ شعوري بالغثيان.

تحدّث راؤول بلهجة الأستاذ:

– يقول مثلٌ مصريٌّ قديم: «على كلّ ميّت أن يسهر على ألّا تُسرَق منه أحشاؤه».

– هنا، يصعد الميّتُ بدوره إلى القارب. سواء استُقبِل من قبل رَع شخصياً، وسواء استقبِل من قبل خنزيرٍ. يلتهم الخنزير أرواح الملعونين الذين يقتادهم إلى جحيم اللعنات حيث يسيطر جلّادون قساة يخضعونهم لشتّى صنوف التعذيب والتنكيل باستخدام أصابعهم الكلّابية المنتهية بأظافر حادّة.

– يا للهول!

– إذا كان رَع بنفسه هو من يوافق على استقبال الميّت، يسير كلّ شيءٍ على نحوٍ أفضل. حينذاك، يأخذ المتوفى مكانه واقفاً إلى جانب الآلهة، ويبدأ القارب بالإبحار، مسحوباً على طول الضفّة بحبلٍ طويلٍ، هو في الواقع عبارة عن أفعى كبيرة حيّة.

- هذا رائع!

رفع راؤول عينيه إلى السماء. مع حالات الحماس والإشمئزاز التي انتابتني بالتناوب، بدأتُ بإغاظته. ومع ذلك واصل حديثه. ففي النهاية، كنتُ جمهوره الوحيد.

- هذه الأفعى هي ثعبانٌ لطيف يُبعد أعداء النور. لقد بذل أفضل ما لديه، ولكن كان هناك زاحفٌ آخر، وهذا شرير، وهو أبوفيس، تجسيد شيث، إله الشرّ. وهو يدور حول القارب لكي يجعله ينقلب. يخرج أحياناً من الماء لكي ينفث ناراً. يقوم بهزّ وتدوير السفينة ويقفز خارج الأمواج على أمل أن يبتلع روح الشخص الميّت. وإذا ما صمد هذا الأخير، تواصل سفينة الموت طريقها وتنزلق على طول النهر تحت الأرضي الذي يجتاز العوالم السفلية الاثني عشر. هناك الكثير من العقبات التي ينبغي تجنّبها. يجب عبور أبواب الجحيم، والالتفاف على الوحوش المائية، والاحتماء من الشياطين الطائرة. ولكن إذا نجح الميّت في كلّ اختباراته، فإنّه....

أمام تركيزي الشديد، قطع راؤول حديثه.

- سوف نكمل في الأسبوع القادم. لقد بلغت الساعة السابعة، ستقلق أمّي عليّ.

أمتعَتْه خيبة أملي.

- كلّ شيء في أوانه، لا تكن لجوجاً.

في الليلة التالية، حلمتُ للمرّة الأولى بأنني أطير، عابراً السحب. كنتُ مثل طائرٍ. كلا، كنتُ طائراً. وكنتُ أطير، كنتُ أطير... ومن ثمّ فجأةً، عند الانعطاف على سحبٍ ركامية عالية، رأيتُ امرأة ترتدي ثوباً أبيض من الساتان، وتجلس على غيمة، وكانت جميلة جدّاً. كان جسدها فتيّاً وأهيفَ. اقتربتُ منها وتبيّن لي أنّها تمسك قناعاً بيدها. اقتربتُ منها أكثر، وهنا، قفزتُ مذعوراً. لم يكن القناع سوى هيكلٍ عظمي لجمجمة، جمجمة ميّتٍ، فيها محجران فارغان، وفمٌ بلا شفتين بتكشيرةٍ جامدة. استيقظتُ وأنا أتصبّبُ عرقاً. قفزتُ من سريري، واندفعتُ مسرعاً إلى الحمّام، ووضعتُ رأسي تحت صنبور الماء البارد لكي أستيقظ من هذا الكابوس.

في صباح اليوم التالي، أثناء تناول الفطور، سألتُ أمّي:

- ماما، هل تعتقدين أنّه يمكن للمرء أن يطير مثل الطيور؟

تُرى هل يكون الحادث الذي تعرّضتُ له قد شوّش ذهني قليلاً؟ ألقت عليّ نظرة غريبة.

- كفّ عن التفوّه بحماقات وابتلع طبقك من حبوب الإفطار.

14. ميثولوجيا ميزوبوتامية

«يا جلجامش إلى أين أنت ذاهب؟

إن الحياة التي تبحث عنها

لن تجدها.

لمّا خلقت الآلهة

البشرية، قدَّرت لها الموت،

أمّا هي، فاستأثرت بالحياة الأبدية».

ملحمة جلجامش

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

15. راؤول مهبول

في كلّ مرّة كنّا نلتقي فيها في مقبرة بير لاشيز، كنّا، راؤول وأنا، نتحدّث عن الموت. أقصد، كان راؤول يتحدّث عن الموت، وأنا أُصغي إليه. لم يكن هناك أيّ شيء كئيب، أو قذر، أو بشع في تلك الأحاديث. كنّا نتناقش في موضوع الموت كظاهرة مثيرة للاهتمام، بنفس الطريقة التي كان يمكن لنا أن نتحدّث بها عن كائنات غير أرضية أو عن درّاجات نارية.

قلتُ له:

- لقد حلمتُ حلماً.

أردتُ أن أروي له حكاية المرأة المرتدية لثوبٍ من الساتان الأبيض، ذات

القناع الذي كان هيكلاً عظمياً لجمجمة، والجالسة في السماء، ولكنّه لم يتح لي الوقت. فقد قاطعني على الفور، قائلاً:

- أنا أيضاً حلمتُ حلماً. كنتُ أصنع عربةً من النار، وأصعد إليها، ويجرّني حصانان من نار نحو الشمس. كان عليّ أن أجتاز حلقات من النار لكي أقترب من الكوكب، وكلّما كنتُ أجتاز حلقاتٍ، كنتُ أشعر بأنني أفهم الأمور على نحوٍ أفضل.

علمتُ فيما بعد أنّه لم يكن من المصادفة أن يهتمّ راؤول بالموت. ذات مساء، لدى العودة من المدرسة، كان قد توجّه مباشرةً نحو المراحيض، واكتشف، هناك، والده معلّقاً بشفّاط المياه. كان فرانسيس رازورباك مدرّساً للفلسفة، في ثانوية جان جوريس في باريس.

تُرى هل كان فرانسيس رازورباك قد اكتشف شيئاً في غاية الأهمية حول العالم الآخر بحيث أراد أن يغادر هذا العالم؟

كان راؤول مقتنعاً بذلك. لا بدّ أنّ والده لم يكن قد قُتِلَ حزناً أو حقداً. لقد مات لكي يفهم على نحوٍ أفضل نظاماً ما. كان صديقي متأكّداً من ذلك لا سيما أنّ والده، منذ عدّة أشهر، كان قد انكبّ على كتابة أُطروحة بعنوان: *الموت ذلك اللغز.*

لا شكّ في أنّه قد اكتشف شيئاً جوهرياً، لأنّه في اللحظة التي سبقت إقدامه على شنق نفسه، أضرم النار في عمله الذي كان قد كتبه. كانت بعض الأوراق المحترقة لا تزال ترفرف في المدفأة عندما عثر راؤول على الجثّة. وكانت قرابة مئة صفحة لا تزال قابلة للقراءة، ومن بينها مسألة الميثولوجيات القديمة وطقوس الموت.

ومنذ ذلك الحين، لم يكن راؤول يكفّ عن التفكير في ذلك. ما الشيء المهمّ جدّاً الذي كان والده قد وجده؟ ما الذي كان يبحث عنه في الموت؟

لم يكن راؤول قد بكى في اليوم الذي تمّت فيه مراسم التشييع، ولكن لم يوبّخه أحد على ذلك، ولم يوجّه له أحدٌ أيّ لوم. وقد سمِع بكلّ بساطة من يقول: «لقد صُدِمَ هذا الصبي المسكين بشنق والده بشدّة بحيث بات غير قادرٍ على أن يبكي». لو أنني عرفته قبل الآن، لأعطيته وصفتي الأساسية

المكوّنة من أوراق السبانخ المغلية، ونخاع الخروف، ولجنّبه ذلك هذا النوع من التفكير.

ما إن دُفِن الأب، حتى تغيّر سلوك والدة راؤول رأساً على عقب. فقد لبّت له كلّ رغباته، واشترت له كلّ الألعاب، وكلّ الكتب، وكلّ الصحف التي طالب بها. كان حرّاً في وقته. أكّدت لي والدتي أنّه لم يكن سوى طفلٍ مدلّلٍ جدّاً لأنّه الابن الوحيد واليتيم لوالده. أنا بدوري رغبتُ في أن أكون طفلاً مدلّلاً، حتى لو اضطررتُ أن أتخلّى عن جزءٍ من أسرتي.

في بيتي، لا أحصل على أيّ شيء.

سألني والدي، وهو يُشعل إحدى سجائره التي كانت تنشر رائحتها النتنة في دائرة قطرها ثلاثين متراً من جميع الجهات.

- ما الذي لا يزال يجعلك تتسكّع مع هذا الصغير المدعو رازورباك؟

احتججتُ على كلامه بغضب.

- إنّه أعزّ أصدقائي.

أكّد والدي:

- إذاً، أنت لا تجيد اختيار أصدقائك. من الواضح أنّ هذا الصبي ليس طبيعياً.

- لماذا؟

- لا تتظاهر بالبراءة والسذاجة. لقد كان والده محبطاً ومكتئباً إلى درجة أنّه أقدم على الانتحار. مع وراثة كهذه، يمكن لأيّ صبي أن يكون مجنوناً. وعلاوة على ذلك، والدته لا تعمل وتكتفي بمعاشها التقاعدي. وكلّ هذا غير سليم. عليك أن تعاشر أناساً أسوياء أكثر.

أكّدتُ بقوّة:

- راؤول سويّ.

اعتبر أخي كونراد، الغدّار دائماً، أنّ الوقت قد حان ليحشر بنفسه في الحديث ويدلي برأيه، فقال:

- الانتحار مرضٌ وراثي. أبناء المنتحرين يميلون نحو الانتحار تماماً مثلما يفعل أبناء المطلّقين كلّ شيء لكي ينهار زواجهم.

تظاهر الجميع بأنّهم لم يسمعوا ملاحظات أخي الغبي.

لم تتوانَ أمّي عن الإدلاء بدلوها.

– هل تعتبر من الطبيعي قضاء ساعات كاملة في الجلوس في مقبرة، مثل راؤول على ما يبدو؟

– اسمعي، يا ماما، إنّه حرٌّ في أن يفعل ما يشاء بوقته. طالما أنّه لا يُزعج أحداً...

– دافع عنه! فالطيور على أشكالها تقع. والدليل هو أنّك شوهدتَ وأنت تتحدّث معه بين القبور!

– حتى وإن كان هذا صحيحاً، فما معنى ذلك؟

قال كونراد على نحوٍ قطعي، وهو لا يزال مستعداً لأن يغرقني عندما وضعتُ رأسي تحت الماء:

– معنى ذلك هو أنّ إزعاج الموتى يجلب الحظّ السيئ. يجب تركهم يرتاحون بسلام.

صرختُ غاضباً، وسدّدت لكمة إليه:

– كونراد، أيّها الغبي! كونراد، أيّها الغبي!

تدحرجنا على الأرض، وانتظر أبي أن يردّ لي الضربة لكي يفصلنا بعضنا عن بعض، ودون أن يترك لي ما يكفي من الوقت لكي أنتقم لنفسي.

– هدوء، أيّها الصبيّان، وإلّا سأتكفّل أنا بتوزيع الصفعات عليكما. كونراد على حقّ. إنّ التسكّع في المقابر يجلب الحظّ السيئ.

وبنوبةٍ من السعال العميق، بصق دخان سيجارته على هيئة سائلة، قبل أن يضيف:

– هناك أماكن مناسبة للنقاش، مثل المقاهي، والحدائق، والنوادي الرياضية. المقابر للموتى، وليس للأحياء.

– ولكن، يا بابا...

– مايكل، أنت تزعجني للغاية. كفّ عن التذاكي، وإلّا سوف أضربك.

ونلتُ زوجاً جديداً من الصفعات، فأجهشتُ في الحال بالبكاء لكي أتجنّب نيل زوجٍ آخر منها.

قال أبي، متهكّماً:

- أرأيت أنّك تجيد البكاء عندما تشاء.

ابتهج كونراد وشعّ وجهه. وأمرتني أمّي بالذهاب إلى غرفتي.

وهكذا بدأتُ أتعلّم كيف يسير العالم. يجب عليّ أن أبكي الموتى. يجب عليّ أن أطيع والديّ. يجب عليّ أن أتحمّل كونراد. لا يجب عليّ أن أتذاكى. لا يجب عليّ أن أتسكّع في المقابر. يجب عليّ أن أختار أصدقائي من بين الناس الذين يُقالُ عنهم إنّهم أسوياء وطبيعيون. الانتحار مرضٌ وراثي، بل ربّما معدٍ.

في عتمة غرفتي، ومع دموعي الأليمة التي كنتُ لا أزال أشعر بمذاقها المالح في فمي، أحسستُ فجأةً بأنني وحيدٌ جدّاً. في ذلك المساء، وبينما كانت لا تزال صفعة مطبوعة على خدّي المحمرّ، تحسّرتُ لأنني ولدتُ في كونٍ قمعي إلى هذه الدرجة.

16. وزن ريشة

- على الميّت أن يجتاز أبواب الجحيم، وأن يتجنّب الوحوش المائية، وأن يحمي نفسه من الشياطين الطائرة. وإذا ما نجح في ذلك، سوف يجد نفسه أمام أوزيريس، إله البعث والحساب، ورئيس محكمة الموتى، وكذلك أمام محكمة مشكّلة من اثنين وأربعين إلهاً مساعداً. وسيكون عليه آنذاك أن يُثبتَ طهارة روحه عبر اعترافٍ سلبي يصرّح فيه أنّه لم يرتكب قط آثاماً أو إهانات خطيرة خلال حياته التي غادرها لتوّه. سوف يقول:

لم أرتكب عسفاً ضدّ البشر

لم أُسئ معاملة الناس

لم أخفِ الحقيقة

لم أجدّف بالله

لم أُفقِر فقيراً

لم أفعل ما هو بغيضٌ للآلهة

لم أُضرّ بعبدٍ لدى سيّده

لم أُمارس الفاحشة في الأماكن المقدّسة في مدينتي
لم أجوّع أحداً
لم أجعل أحداً يبكي
لم أقتل
لم أعطِ الأمر بقتل أحدٍ
سألتُ راؤول:

- يستطيع إذاً أن يؤكّد ما يشاء، بل ويكذب أيضاً؟

- نعم. يتمتّع بحقّ الكذب. تطرح الآلهة عليه أسئلة، وللميّت أن يخدعها. لكنّ مهمته ليست سهلة لأنّ الآلهة تعرف الكثير من الأشياء. وهذا أمرٌ طبيعي، إنّها آلهة.

- وبعد ذلك؟

- إذا ما خرج منتصراً من هذا الاختبار، سوف يواجه الجزء الثاني للحكم، وهذه المرّة بحضور آلهة جديدة.

سكت راؤول لبرهةٍ لكي يحافظ على عنصر التشويق في سرده.

- سيكون هناك الإلهة ماعت، إلهة الحقّ والعدل، والإله توت، إله الحكمة، ذو رأس الطائر أبو منجل. وسيسجّل هذا شهادة الميّت على لوحٍ. ومن ثمّ، سوف يأتي أنوبيس، الإله الذي له رأس ابن آوى، مزوّداً بميزانٍ كبير يُستخدم في معرفة وزن الروح.

- كيف يمكن وَزْن روحٍ؟

- يضع أنوبيس قلب الميّت في كفّة ويضع في الأخرى ريشةً. إذا كان القلب أخفّ من الريشة، يُعلَن الميّت بريئاً. وإذا تبيّن أنّ القلب أثقل من الريشة، سوف يُرمى به إلى مخالب إلهٍ له جسد أسد ورأس تمساح، وهو مكلّف بالتهام الأرواح غير الجديرة بالخلود.

- وماذا سيكون المصير المقدّر للميّت... الفائز؟

- بعد أن يتحرّر من ثقل حيواته، سوف ينضمّ إلى نور الشمس المشرقة.

- رائع!

- ... وهناك، سوف ينتظره خِبري، الإله الذي له رأس خنفساء الجعل.

وهناك، سوف ينتهي دربه. وسوف تعرف الروح المبرّأة النعيم الأبدي. وعليها هي أن تنشد حينئذٍ نشيد المنتصرين الذين نجحوا في مسيرتهم على الأرض وفي العالم الآخر.

أصغِ إلى هذا النشيد.

انتصب راؤول واقفاً على بلاطة ضريحٍ، ويمّم وجهه نحو قمرٍ مضيء، وبدأ يُلقي بصوتٍ واضح الأقوال القديمة:

لقد فكّ الرابط

وألقيتُ على الأرض كلّ الشرّ الذي في داخلي

يا أوزيريس

ها أنا أُولَدُ أخيراً

انظر إليّ، أنا أولد.

أنهى راؤول قراءة الكتاب الضخم للميثولوجيا القديمة. لقد أنجز اكتشافه. تدحرجت نقاط العرق على جبينه، وابتسم كما لو أنّ أنوبيس قد أعلنه للتوّ فائزاً في حياته.

قلتُ باندهاش:

- إنّها حكايةٌ جميلة! هل تعتقد أنّ الأمور تجري هكذا بالفعل مع الموتى، هناك في العالم العلوي؟

- لا أعرف أيّ شيء عن ذلك. هذه استعارة رمزية. لا بدّ أنّ هؤلاء المصريين قد حصلوا على معرفة كبيرة حول هذه المسألة ولكن، بما أنّهم لم يشاؤوا أن يكشفوها بطريقة سيئة، لجأوا إلى الاستعارات المجازية والتعابير الشعرية. لا بدّ أنّ كاتباً لم يكن قادراً على اختراع كلّ هذا بوحيٍ وإلهامٍ من يومٍ جميل. لا بدّ أنّ هذه الأساطير تستمدّ أصلها من عقلٍ سليمٍ كوني. والدليل على ذلك هو أنّ جميع الأديان تروي تقريباً نفس هذه الحكاية، مستخدمة تعابير مختلفة. جميع الأديان تؤكّد أنّ هناك عالماً آخر ما وراء الموت. وأنّ هناك اختبارات، وأنّه، في النهاية، سيكون هناك تناسخٌ للأرواح أو خلاصٌ. وأكثر من ثلثي البشرية يؤمنون بتناسخ الأرواح.

- ولكن هل تعتقد حقّاً أنّ هناك قارباً مع آلهة...

أشار عليّ راؤول أنّ أسكت.

- صه! لقد جاؤوا.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، وكانت المقبرة قد أغلقت بطبيعة الحال أبوابها الشبكية. منْ عساه أن يأتي إذاً ويُعكّر صفوها؟ وكيف اجتاز آخرون البوابات المقفلة؟ بالنسبة إلينا، كنّا قد وجدنا معبراً من خلال تسلّق شجرة الدلب الكبيرة في الزاوية الشمالية - الغربية وهي التي تميل أغصانها فوق سور المقبرة. وكنّا مقتنعين بأننا الوحيدان اللذان يعرفان هذا الطريق.

تسللنا خلسةً باتجاه صخبٍ قويّ.

رأينا مجموعةً من الأشخاص في عباءات سوداء يمرّون عبر بابٍ شبكيّ مثل الأشباح.

17. كتاب التاريخ المدرسي

كان أسلافنا يعتقدون أنّ الموت هو انتقالٌ من حالة الكلّ إلى حالة العدم. ولتحمّل هذه الفكرة على نحوٍ أفضل، اخترعوا بعض الأديان (مجموع الشعائر القائمة على الأساطير). وكانت غالبية هذه الأديان تؤكّد وجود عالمٍ آخر فيما وراء هذا العالم الذي نعيشه، ولكن لا أحد آمن بذلك فعلياً. وكانتْ الأديان تشكّل بصفة خاصّة رموزَ جمعٍ لمصلحة مجموعات إثنية خاصّة.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

18. ضدّ الأغبياء

احتشدت الزمرة أمام قبرٍ، وأشعلت مشاعل، وبدأت بوضع كلّ أنواع الأشياء العشوائية فوق بلاطة ضريح. وقد ميّزتُ من بين الأشياء صوراً وكتباً وحتى تماثيل صغيرة.

اختبأنا، راؤول وأنا، خلف مدفنٍ يرقدُ فيه فنانٌ من نجوم الروك والبلاي بوي، كان ضحيّة حسكة سمكةٍ ابتلعها عرضاً. وفقط لإحاطتكم علماً، ظلّ النجم يسعل طيلة أكثر من ساعة كاملة، وهو يجهد لكي يتخلّص من هذا

الغزو الغريب لحلقه. لم يفكّر أحد في أن يأتي لمساعدته في مطعم كان يعجّ بالزبائن. اعتقد الجميع أنّ النجم المحبوب يؤدّي عرضاً همجياً، وهو يبتكر رقصات جديدة وطريقة جديدة في الغناء. صفّق الحضور تصفيقاً حارّا لقفزته الأخيرة وهو يحتضر.

على أيّ حال، من هذا المكان حيث كنّا نقف، كنا نتابع كلّ المشهد بالتفصيل. كان المرتدون للعباءات السوداء قد ارتدوا أيضاً أقنعة سوداء وأصبحوا يردّدون الآن تعاويذ غريبة.

همس لي راؤول:

- إنّهم يتلون صلوات بطريقة معكوسة.

فهمتُ بذلك أنّ عبارة «تكثالملا ما ميرم اي كيحا انا» كانت تعني في الحقيقة «أنا أحيّيك يا مريم، أمّ الملائكة».

أضاف صديقي:

- بالتأكيد هذه طائفة شيطانية.

وقد برّرت له بقية الصلوات استنتاجه.

يا بعل زبول العظيم، امنحنا قليلاً من سلطتك

يا بعل زبول العظيم، اجعلنا نلمح عالمك

يا بعل زبول العظيم، علّمنا أن نكون غير مرئيين

يا بعل زبول العظيم، علّمنا أن نكون سريعين مثل الريح

يا بعل زبول العظيم، علّمنا أن نُحيي الموتى

أنا ارتعشتُ، ولكنّ راؤول رازورباك بقي لامبالياً. كان هدوؤه وشجاعته معديين، وأثّرا فيّ، فاقتربنا من مجموعة الأشخاص. لمّا أصبحنا قريبين منهم، وجدنا أتباع الطائفة أكثر إثارة للذهول. كان بعضهم يحملون وشوماً على جبينهم هي عبارة عن رموز شريرة: تيوس مبتسمة، شياطين محلّقة، ثعابين تعضّ أذنابها.

بعد العديد من الصلوات والتعاويذ الأخرى، أشعلوا شموعاً كانت بحوزتهم وهي على شكل نجوم ذات خمس شُعَب. أحرقوا بعض رماد

العظام الذي اشتعل وسط سحابةٍ من الدخان البنفسجي. وأخيراً، أخرجوا من كيسٍ ديكاً أسودَ قاوم بكلّ ما أوتي من قوّة، وتناثر بعض ريشه.

– هذا الديك الأسود، يا بعل زبول العظيم، نُضحّي به لأجلك. روح ديكٍ مقابل روح مهووسٍ بالقتل!

ذُبِحَ الطائر وتناثر دمه على الشُعَب الخمس للنجمة. ثمَ أظهروا دجاجة بيضاء.

– هذه الدجاجة البيضاء، يا بعل زبول العظيم، نُضحّي بها لأجلك. روح دجاجة مقابل روح غولٍ.

ثمّ ردّدوا بصوتٍ واحدٍ وانسجام:

– روح دجاجة مقابل روح غولٍ. روح طائرٍ مقابل روح جلادٍ.

همس راؤول في أذني:

– هل خفتَ؟

بذلتُ جهدي لأبقى على مستواه من الهدوء والشجاعة ولكنني لم أعد أستطيع السيطرة على الارتعاش الذي اجتاح أعضاء جسدي. كان عليّ خاصّة أن أتجنّب اصطكاك الأسنان. لأنّ الضجيج سوف ينبّه هوّاة القدّاس الأسود هؤلاء.

قال رفيقي الشاب بهدوء:

– حينما نخاف في الحياة، فهذا لأننا لا نعرف أيّ قرارٍ نتّخذ.

هززتُ رأسي في إشارة إلى أنني لم أفهم مغزاه. فأخرج راؤول قطعة نقدية من فئة فرنكين. ثمّ واصل حديثه:

– في الحياة، لدى المرء دائماً الخيار. أن يتصرّف أو يهرب. أن يسامح أو ينتقم. أن يحبّ أو يكره.

تُرى هل كانت هذه اللحظة المناسبة للتفلسف؟ أمّا هو، فقد ظلّ هادئاً.

– نشعر بالخوف حينما لا نعلم في أيّ جانبٍ نقف، لأنّ عناصر كثيرة تدخل في الحسبان بحيث ينتهي بنا الأمر إلى ألا نعود نفهم ما يجري بالفعل من حولنا. كيف يمكننا أن نختار حينما يكون العالم معقّداً إلى هذه الدرجة؟ كيف؟ بقطعة نقدية. لا شيء يستطيع أن يؤثّر على قطعة نقدية. إنّها مقاومة

للأوهام، ولا تسمع الحجج الزائفة والمضلِّلة، ولا تخشى شيئاً. وبالتالي، يمكنها أن تمنحك الشجاعة التي تفتقر إليها.

وهو يقول هذا، رمى القطعة النقدية إلى أعلى ما يمكن في السماوات. وعادت وسقطت على الأرض على وجه الطرّة.

أفرج راؤول عن ابتسامة ظافرة.

– طرّة! طرّة، هذا يعني: نعم. هيّا بنا. إلى الأمام. الطرّة، هذا يعني «الضوء الأخضر».

ثمّ قال لي:

– هيّا، تعالَ. أنت وأنا ضدّ الأغبياء.

أصبحنا قريبين جدّاً، استمرّ الحفل المخيف.

ومن كيسٍ أكبر حجماً، أخرج عبدة بعل زبول جدياً صغيراً أبيض كان يثغو بحزن، وقد أعماه ضوء الشموع.

– نضحّي لك بهذا الجدي الأبيض لكي تفتح لنا كوّة في بلد الموتى. روح جَدْي مقابل روح...

دوّى صوتٌ خارجٌ من الحلق في المقبرة.

– روحُ جدي مقابل عصبة متصنّعين.

السكين الذي كان قد رُفِع لنحر الحيوان توقّف في الحال.

كان راؤول الواقف إلى جانبي هو الذي يصرخ بالثقة التي منحته الحقيقة البسيطة في أنّ القطعة النقدية سقطت على جانب الطرّة.

– اغربوا عن وجهي، يا خدم بعل زبول! لقد مات بعل زبول منذ زمنٍ طويلٍ. والذين يعبدونه سوف يُلعَنون. أنا أستاروث، الأمير التاسع للظلمات، وأنا ألعنكم. لا تعودوا مرّة أخرى أبداً إلى تدنيس المقابر المقدّسة بالدم الملوّث للحيوانات. أنتم توقظون الموتى وتُغيظون الآلهة!

تجمّد عَبَدة بعل زبول في مكانهم، مندهشين. بحثوا عن مصدر هذه الرسالة، ولكنهم لم يروا شيئاً. كان لراؤول صوتٌ. كان له صوتٌ لأنّ القطعة النقدية ضمنت له الفعل الذي ينبغي الشروع به. بات كلّ شيء واضحاً. بالنسبة إليه، بالنسبة إليّ، وبالنسبة «إليهم» أيضاً. كان راؤول هو القوّة. أمّا

هم، فلم يكونوا سوى مزعجين. لم يكن راؤول سوى طفلٍ، ولكنّه كان سيّدهم. أمام هذا الاقتحام المقلق، فضّل الرجال المقنّعون إخلاء المقبرة. وسار الجدي الصغير في اتجاهٍ آخر.

إذاً، كان من السهل الفوز في معركة. إذا جاءت القطعة النقدية على جانب الطرّة، سأكون الأقوى. أما إذا جاءت على جانب النقش، سأكون جباناً. القطعة النقدية هي التي تقرّر سلوكي نيابةً عنّي.

شدّ راؤول على كتفي، وسلّمني القطعة النقدية من فئة الفرنكين.

– أقدّمها لك هديّةً. من الآن فصاعداً، لن تعود تخاف من أيّ شيء وسوف تجيد تبنّي الخيار الصحيح. وسوف تُمنَحُ صديقةً لن تتخلّى عنك أبداً.

كانت القطعة النقدية تشعّ في كفّ يدي.

19. استمارة شرطة

طلب معلومات حول حالة راؤول رازورباك النفسية

يبدو أنّ الطفل المدعو راؤول رازورباك مصابٌ بهذيان نفسي. لقد سبق له أن دخل، مرّات عديدة، في نوبات غضب عنيفة وعرّض حياة المحيطين به للخطر. ومع ذلك، ترفض والدته رفضاً قاطعاً إدخاله إلى مركزٍ للرعاية النفسية. وحينما سألها أحد الاختصاصيين النفسانيين، صرّحت أنّ ابنها كان قد تأثّر للغاية بموت والده، وأنّه «يحتاج فقط إلى ما يعوّضه».

لم يعان الفتى راؤول في الوقت الحاضر من أيّ حالة هذيان ولا يبدو أنّه على وشك أن يغرق في عالم الجنوح والجريمة، وتقدّر المديرية كلّ إجراء فعّال مبكّر.

20. كتاب التاريخ المدرسي

موت أجدادنا

الأسباب الرئيسية للوفاة في فرنسا في عام 1965 (نحو نهاية الألفية

الثانية)، مصنّفة بترتيبٍ تنازلي حسب عدد الضحايا. سوف تلاحظون أنّ بعض الأمراض من تلك الحقبة قد قُضي عليها في أيامنا هذه.

أمراض القلب	98392
السرطانات	93834
إصابات الأوعية الدموية في الدماغ	62746
حوادث السيارات	32723
التليّف الكبدي	16325
التهابات الجهاز التنفّسي	16274
الالتهابات الرئوية	11166
حالات الكريب	9008
داء السكّري	8118
حالات الانتحار	7156
جرائم قتل واغتيالات	361
أسباب مجهولة	87201

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

21. السيّد أنا - أهذي - هذياناً صِرفاً

في السنوات التي تلت لقاءنا الأوّل في مقبرة بير لا شيز، أصبحت صداقتنا أوثق على نحوٍ متزايد. وقد علّمني راؤول الكثير من الأشياء.

- كم أنت ساذج، يا مايكل! تتصوّر أنّ العالم لطيفٌ وبالتالي فإنّ أفضل طريقة للانخراط فيه هي أن تجعل من نفسك دليلاً على اللطف. ولكنّك مخطئ. نشّط سحايا مخّك قليلاً. المستقبل ليس للطفاء، وإنّما للمبتكرين، وللجريئين، لأولئك الذين لا يخافون من أيّ شيء.

- هل أنت لا تخاف من أيّ شيء؟

- لا أخاف من أيّ شيء.

- ولا حتى من الأذى البدني؟

- يكفي أن ترغب فيه حتى لا تشعر به.

ولكي يثبت لي ذلك على نحوٍ أفضل، أخرج ولّاعته ودسّ سبابته في لهبها، حتى فاح الهواء برائحة قرنٍ محترق. اشمأززت وانبهرتُ لذلك في آنٍ واحدٍ.

- واو! كيف تفعل هذا؟

- أُحدِثُ أوّلاً الفراغ في ذهني، ومن ثمّ أقول في نفسي أنّ شخصاً آخرَ يتعرّض لهذا الألم وأنّ هذا الشخص لا يعنيني في شيء.

- ألا تخاف من النار؟

- لا من الماء، ولا من التراب، ولا من المعدن. من لا يخشى أيّ شيء هو كلّي القدرة ولن يعصى عليه أيّ شيء. ذاك هو درسي الثاني. الدرس الأوّل كان أنّ القطعة النقدية من فئة فرنكين سوف تكون مستشارك الأفضل. والثاني هو أنّ الخوف لا يكون موجوداً إلّا إذا سمحتَ له بالوجود.

- هل والدك هو من علّمك هذا؟

- كان يقول لي: لا تنظر أبداً إلى الخلف حينما تصعد جبلاً. فإذا نظرت، تُجازف بأن تأخذ بك الدوخة، أو الرعب، أو السقوط. أمّا إذا تسلقت مباشرةً نحو القمّة، سوف تكون على الدوام في مأمن.

- ولكن إذا كنتَ لا تخاف من أيّ شيء، ما الذي يدفعك إلى التقدّم؟

- اللغز. الحاجة إلى حلّ لغز موت أبي ولغز الموت بشكلٍ عامّ.

في الوقت الذي كان يلفظ فيه هذه الكلمات، غطّت يده اليمنى، التي كانت لا تزال تشبه عنكبوتاً، جبينه كما لو أنّه يريد أن يحتوي ألماً ما. وجحظت عيناه كما لو أنّ جمجمته تتآكل من الداخل.

سألتهُ بقلق:

- هل تشعرُ بأنّك لست بخير؟

استغرق وقتاً طويلاً حتى أجاب على سؤالي. ثمّ، كما لو أنّه يستعيد أنفاسه ويعود إلى رشده، قال بقسوة:

- لا شيء سوى صداعٍ. سأكون بخير.

كانت هذه المرّة الوحيدة التي أراه فيها يعاني من نوبة صداع. كان راؤول إنساناً خارقاً. كان معلّماً.

كنتُ معجباً براؤول. ولكونه يكبرني بعامٍ واحدٍ، بذلتُ جهداً كبيراً لكي أقفزَ صفّاً واحداً وأجد نفسي على نفس المقاعد الدراسية التي يجلس عليها. وبالتالي، أصبح كلّ شيء سهلاً. كان يسمح لي بأن أنسخ وظائفه المدرسية، وفي خارج الصفوف، ظلّ يروي لي قصصاً رائعة.

في الصفّ، لم يشاركني الجميع حماستي وافتتاني. كان مدرّس اللغة الفرنسية قد أطلق على التلميذ رازورباك لقب «السيد أنا – أهذي – هذياناً صِرفاً».

– انتبهوا جيّداً. اليوم، يطرح لنا «السيّد أنا – أهذي – هذياناً صِرفاً» نسخة مضحكة للغاية. أودّ أن أذكّركم بأنّ الموضوع الذي كنتُ قد طلبتُ منكم إعداده هو «تحدّثوا عن عطلتكم». تصوّروا! «السيّد أنا – أهذي – هذياناً صِرفاً» لم يذهب للتنزّه على شواطئ لو توكيه، ولا سان تروبيز، ولا لا بول، ولا حتى شواطئ برشلونة أو لندن. كلا، هرب حرفيّاً إلى بلاد الموتى. و... أرسل إلينا بطاقات بريدية منها.

عمّ الهرج والمرج والسخرية الجميع.

– أنا أقتبس من موضوعه: «بينما كان زورقي يتقدّم نحو النور، كنتُ أتعلّق بثعبان بوا، لأنّ ثعباناً من النار ظهر في مقدّمة المركب. نصحتني الإلهة نيفتيس بألّا أُصاب بالذعر وبأن أواصل السير على نفس المسار. ومدّت إليّ الأميرة إيزيس مفتاح الحياة عنخ خاصّتها لكي أردّ به الوحش».

قهقه التلاميذ وهم يتدافعون بالمرافق بينما ختم المعلّم، بلهجة مفخّمة:

– «السيّد أنا – أهذي – هذياناً صِرفاً»، لا يسعني سوى أن أنصحك باللجوء إلى تلقّي العلاج لدى محلّلٍ نفسانيّ ماهر، بل لدى طبيبٍ نفساني. وبانتظار ذلك، اعلم أنّك قد نجوت من نيل علامة الصفر، لأنني قد وضعتُ لك علامة واحدة من أصل عشرين، لا لشيء إلّا لأنّك قد جعلتني أضحكُ كثيراً، وأنا أقرأ موضوعك. من جهة أخرى، أبحث دائماً عن ورقتكَ أوّلاً لفرط ما أنا متأكّدٌ من أنني سأمضي وقتاً سعيداً معك. تابع، إذاً، وبهذه

الطريقة، يا سيّد رازورباك، سوف أضحك لوقتٍ أطول لأنّك سوف ترسب في هذا الصفّ دون أدنى شكّ.

لم يرفّ لراؤول جفن، فقد كان عصيّاً على هكذا نموذج من الملاحظات، خاصّة إذا كانت صادرة عن رجلٍ مثل معلّم اللغة الفرنسية هذا الذي لم يكن يُقيمُ له أيّ اعتبار. كانت المشكلة تكمن في مكانٍ آخر. في الصفّ نفسه.

مثلما هي الحال في أغلب المدارس، كان تلاميذ مدرستنا الثانوية من المراهقين القُساة، وكان يكفي لأن يشار لهم بالبنان إلى أحدٍ ما يُزعم أنّه «هامشي» حتى يبدأوا بالتهليل والهياج.

في صفّنا، كان زعيم العصابة صبيّاً متغطرساً يُدعى مارتينيز. كان يلاحقنا، عند الخروج من المدرسة، مع مساعديه، فيطوّقوننا، ويردّدون:

- الأميرة إيزيس، الأميرة إيزيس. هل تُريدين أن أضرب وجهكِ بمفتاح الحياة خاصّتي؟

خفتُ كثيراً منهم. ولكي أنقذ نفسي، سدّدتُ ركلةً قويّة على عظمة ساق مارتينيز الضخم، وفي المقابل، حطّم هذا الأخير أنفي بلكمةٍ. سال الدم على وجهي. كنّا اثنين في مواجهة ستّة، ولكنّ المشكلة كانت تكمن في أنّ راؤول، وعلى الرغم من أنّه كان أطول قامة منّي وأقوى منّي بكثير، بدا كأنّه قد تخلّى عن الدفاع عن نفسه. لم يكن يُقاتل، وكان يتلقّى الضربات دون أن يردّها!

صرختُ بأعلى صوتي:

- هيّا، يا راؤول! سوف نتغلّب عليهم كما تغلّبنا على عبدة بعل زبول. أنت وأنا ضدّ الأغبياء، يا راؤول!

لم يتحرّك. لم نتأخّر في الانهيار تحت وابلٍ من اللكمات والركلات. أمام هذا الغياب للمقاومة، انتهى المطاف بعصابة مارتينيز الضخم بأن تعبت وفرّت من المكان برفع شارة النصر. نهضتُ وأنا ألمس الكدمات المتروكة على كلّ أنحاء جسدي.

سألت:

- هل خفتَ؟

قال:

- كلّا.

- لماذا لم تقاتل، إذاً؟

- لماذا عليّ أن أفعل ذلك؟ ليست لديّ طاقة أهدرها في أمور تافهة.

ثمّ أضاف، وهو يلتقط نظّاراته المكسورة:

- على أيّ حال، لا أجيد القتال ضدّ عقول بدائية.

- ولكنّك عرفت كيف تُهزِم عبدة بعل زبول!

- كانت تلك لعبة. ومن ثمّ، ربّما كانوا من الأشرار، ولكنّهم كانوا أكثر دهاءً من هؤلاء المغفّلين بكثير. في مواجهة بشرٍ قادمين من أعماق الكهوف، أكون عاجزاً تماماً.

ساندنا بعضنا بعضاً.

- كنتَ تقول: أنت وأنا ضدّ الأغبياء.

- أنا آسف لأنني خيّبت أملك. يجب أيضاً أن يتوفّر الأغبياء على أدنى درجات الذكاء حتى أستطيع أن أدخل في حربٍ ضدّهم.

كنتُ مذعوراً، وقلت:

- حسناً، ولكنّ الرجال من طينة مارتينيز سوف يحطّمون على الدوام رأسنا.

قال بتحفّظ:

- هذا ممكن، ولكنّهم سوف يتعبون قبلي.

- وماذا لو قتلوك؟

هزّ كتفيه.

- حسناً! الحياة ليست سوى انتقالٍ.

سيطر عليّ هاجسٌ قاتم. كان الأغبياء قادرين على الانتصار. لم يكن راؤول هو الأقوى على الدوام. بل أثبت لتوّه منتهى الضعف. تنهّدتُ.

- مهما حدث، يمكنك مع ذلك أن تعتمد عليّ دائماً لكي أساعدك في الأوقات العصيبة.

في تلك الليلة، حلمتُ من جديد بأنني أطير لكي ألتقي بين النجوم امرأةً ترتدي فستاناً من الساتان الأبيض وتضع قناعاً من هيكلٍ عظمي لجمجمةٍ.

22. فلسفة باسكالية

«كان خلود الروح يهمّنا كثيراً جدّاً ويمسّنا بعمقٍ بحيث كان علينا أن نفقد كلّ إحساسٍ حتى لا نبالي بمعرفة ماهيته.

إنّ اهتمامنا الأوّل وواجبنا الأوّل هو أن نتنوّر حول هذ الموضوع الذي يتعلّق به كلّ سلوكنا.

ولهذا السبب، بين أولئك غير المقتنعين به، كنتُ أختلف اختلافاً كبيراً عن أولئك الذين يعملون بكلّ قواهم على تثقيف أنفسهم بذلك، أولئك الذين يعيشون دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء ذلك ودون أن يفكّروا فيه.

كان هذا الإهمال لأمرٍ يتعلّق بهم أنفسهم، وبهويتهم، وبكلّ شيء يخصّهم، يُغيظني أكثر ممّا يليّن موقفي. إنّه يُدهشني ويُخيفني: هذا وحشٌ بالنسبة إليّ. لا أقول هذا بدافعٍ من الحماسة التقيّة لإخلاصٍ روحي. بل على العكس من ذلك، أُدركُ أنّه علينا أن نمتلك هذا الإحساس من خلال مبدأ لمصلحة البشرية».

بليز باسكال
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

23. توضيح

كنتُ في الرابعة عشرة من عمري عندما جاء راؤول للقائي في البيت وهو يأمرني بأن أستعجل بالخروج. تذمّر والداي من ذلك، إذ لم يكن الوقت وقت العشاء فحسب، بل كانا لا يزالان يعتبران أنّ راؤول رازورباك يمارس عليّ تأثيراً سلبياً للغاية. وبما أنني كنتُ قد نلتُ في الفترة المنصرمة درجات ممتازة في الرياضيات، مستنسخاً من صديقي، بالطبع، فقد تردّدا في حرماني من الخروج.

ومع ذلك، فقد أمراني أن ألتزم الحذر وأن أبقى يقظاً. وهو يعقد لفحتي حول رقبتي، همس والدي في أذني بأنّ أسوأ مشاكلنا ومصاعبنا تأتي دائماً من أقرب أصدقائنا.

زادت والدتي بالقول، متكلّفةً:

- بالنسبة إليّ، أنا أعرّف «الصديق» كالتالي: هو الذي تُحدث خيانته أكبر مفاجأة.

أخذني راؤول نحو مستشفى سان لويس وهو يشرح لي أنّه قد أُحدِثَ فيه الآن قسمٌ يضمّ المحتضرين والذين في غيبوبة. وقد سُمّي باحتشام «قسم رعاية المحتضرين». وكان قد استُحدِثَ هذا القسم في الجناح الأيسر من مبنى مُلحَق. سألته عمّا يعتزم فعله في مكانٍ كهذا. فأجابني بكلّ وضوح بأنّ هذه الزيارة ستكون بالنسبة إلينا فرصة ممتازة لمعرفة المزيد.

- المزيد؟ وعن ماذا؟

- عن الموت، بالطبع!

لم تكن فكرة الدخول إلى مستشفى تُثير حماستي كثيراً. لا بدّ أنّ المكان سيكون مليئاً بالبالغين الجدّيين، وسوف يكون مثار دهشتي لو أنّهم تركونا نلعب هناك.

ومع ذلك، لم تكن الحجج تنقص راؤول رازورباك. روى لي أنّه قد قرأ في بعض الصحف أنّ هناك بعض الناس قد استفاقوا بعد الغيبوبة ورووا حكايات غير عادية. هؤلاء الناجون زعموا أنّهم شاهدوا مشاهد غريبة. لم يروا لا قوارب ولا ثعابين تنفث النار، بل رأوا أضواءً جذّابة.

- هل تتحدّث عن تجارب على تخوم الموت، ما يسمّيه الأمريكيون «تجارب الاقتراب من الموت»[1] NDE؟

- نعم هذا هو. تجارب الاقتراب من الموت (NDE).

كان الجميع يعرفون ما هي تجارب الاقتراب من الموت. وقد كانت دارجة جدّاً، في تلك الفترة. وكان هناك العديد من الكتب التي حقّقت أعلى

1- تجربة الاقتراب من الموت: Near Death Experiences (NDE)، هي ظاهرة غير طبيعية نادرة الحدوث. تتلخّص ماهيتها في أنَّ بعض مَنْ تعرّضوا لحوادث كادت تودي بحياتهم قد مرّوا بأحداث وأماكن مختلفة، منهم من وصفها بالطيبة والجميلة، ومنهم من وصفها بالشر والعذاب. من أكثر التشابهات التي رويت في تلك الحوادث مرور الشخص بنفق إما أبيض أو مظلم حتى يصل إلى نورٍ أبيضَ. المترجم

المبيعات حول هذا الموضوع. وكانت مجلات أسبوعية تقوم بتغطيتها إعلامياً. ومن ثمّ، ككلّ موضة، تلاشت هذه الموضة أيضاً. ففي النهاية، لم نكن نتوفّر على أيّ دليل، ولا على أيّ مؤشّر ملموس، وإنّما فقط بعض القصص الشيّقة المأخوذة من هنا وهناك.

تُرى هل سيؤمن راؤول بخرافات كهذه؟

فرش أمامي العديد من قصاصات مأخوذة من الصحف، وركعنا حتى نتفحّصها على نحوٍ أفضل. لم تكن هذه القصاصات مأخوذة من مجلّات معروفة بجدّيتها أو دقّة تحقيقاتها. بل كانت عبارة عن عناوين بالأحرف الثخينة والمطموسة تُعلن بالألوان: «رحلة إلى ما وراء الموت»، «شهادة ما بعد الغيبوبة»، «الحياة بعد الحياة»، «لقد عدتُ من الموت، ويُعجبني ذلك»، «الموت وما بعده»...

بالنسبة إلى راؤول، كانت هذه الكلمات تبدو مكلّلة بهالةٍ من شِعرٍ خاصّ. ففي النهاية، والده كان هناك...

على سبيل الإيضاح، لم يكن هناك سوى صور غير واضحة مع هالات مطبّقة عليها أو نسخ مقلّدة من لوحات جيروم بوش.

في النصوص، كان راؤول قد أشار باللون الأصفر الفاقع إلى بعض المقاطع التي اعتبرها جوهرية: «حسب استطلاعٍ للرأي أجراه معهد غالوب الأمريكي، يدّعي ثمانية ملايين أمريكي بأنّهم عاشوا تجربة الاقتراب من الموت NDE». «أظهر تحقيقٌ أجري في المستشفيات أنّ 37% من الذين دخلوا في حالة الغيبوبة يؤكّدون أنّهم قد طافوا خارج أجسادهم، وأنّ 23% منهم شاهدوا نفقاً، وأنّ 16% منهم قد تعرّضوا لضوءٍ مفيد».

هززتُ كتفيّ.

– لا أريدُ أن أنزع عنك أوهامك، ولكن...

– ولكن ماذا؟

– لقد تعرّضتُ لحادث سيارة. تطايرتُ في الهواء، ثمّ هويتُ مرتطماً بالأرض. مضت ثلاث ساعات وأنا غائبٌ عن الوعي. كانت غيبوبة حقيقية. ولم أرَ لا ظلّ نفقٍ ولا أيّ ضوءٍ مفيد.

بدا متفاجئاً.

- ماذا رأيتَ، إذاً؟

- لا شيء، تحديداً. لا شيء على الإطلاق.

اعتبرني صديقي كما لو أنني مصابٌ بمرضٍ ناجمٍ عن فايروس لم يُكتَشَف بعد.

- هل تؤكّد أنّك دخلت في غيبوبةٍ وأنّك لم تحتفظ بأيّ ذكرى منها؟

- نعم، أؤكّد ذلك.

حكّ راؤول ذقنه مُطرقاً في التفكير، ثمّ شعّ وجهه:

- أنا أعرف سبب ذلك!

لملم أغراضه قبل أن ينطق بجملةٍ سوف أتأمّل فيها زمناً طويلاً:

- أنت لم ترَ شيئاً لأنّك... لم تمت «بما فيه الكفاية».

24. في بلاد الرهبان البيض

بعد مضي ساعة على ذلك، أصبحنا أمام باب مستشفى سان لويس. كان المدخل مضاءً، ويقفُ أمامه حارسٌ بالزيّ الرسمي يراقب حركة الداخلين إليه والخارجين منه. مستفيداً من قامته الطويلة، كان راؤول قد ارتدى معطفاً بالياً على أمل أن يبدو أكبر سنّاً. أمسك بيدي، وهو يأمل في أن نمرّ معاً على أننا أبٌ وابنه جاءا لعيادة جدّة مريضة.

ولكن الحيلة لم تنطلِ على الحارس المُتعَب، فقال:

- أخبراني أيّها الصغيران، هناك ملاعب أفضل من هذا المكان.

قال راؤول، بصوتٍ حزين:

- جئنا لعيادة جدّتنا.

- وما اسمها؟

لم يتردّد راؤول، وقال في الحال:

- السيّدة ساليابينو. إنّها في غيبوبة. وقد أُودِعتْ في القسم الجديد الخاصّ بالعناية بالمُحتضرين.

يا له من ارتجالٍ عبقري! كان بوسعه أن يقول دوبوي أو دوران، وكان ذلك سيثير الشكّ في الحال، أمّا اسم «سالیابینو»، فقد كان غريباً بما فيه الكفاية بحيث لا يبدو حقيقياً.

عبس الحارس للحظةٍ. عكّرت عبارة «العناية بالمُحتضرين» مزاجه مباشرةً. من المؤكّد أنّه كان على علمٍ بإحداث هذا القسم الذي لا بدّ أنّ الناس قد تحدّثوا عنه في ممرّات المستشفى. غيّر رأيه وأشار إلينا بأن نمرّ، وهو يكاد يعتذر لنا عن أنه استوقفنا.

دخلنا إلى المتاهة المُضاءة. وسرنا في ممرّات، وممرّات... دفعنا أبواباً عديدة كانت تكشف لنا في كلّ مرّة عالماً مدهشاً.

كانت هذه هي المرّة الثانية التي أدخل فيها إلى مستشفى، ولكن الواقع ظلّ محيّراً ومربكاً بالنسبة إليّ كما في المرّة الأولى. كان الأمر كما لو أنني أدخل عنوةً إلى معبد بياضٍ يتحرّك فيه سحَرَةٌ يرتدون ثياباً بيضاء وكاهنات شابّات لا يرتدين شيئاً تحت بلوزاتهنّ النظيفة جدّاً.

كان كلّ شيء منضبطاً ومتناغماً مثل تصميم رقصة قديمة. كان مسعفون يضعون القرابين المحزّمة في شراشف ملطّخة. وكانت الكاهنات الشابّات يفردنها قبل نقلها إلى قاعاتٍ مربّعة حيث يقوم كهنة كبار، يتمّ التعرّف عليهم من خلال قناعهم المربّع وبقفازاتهم الشفّافة، بلمسها وتقدير وزنها باليد كما لو أنهم يستطيعون أن يقرأوا فيها تنبؤات.

من هذه الرؤية بدأت مقدّمات مهنتي الطبية. رائحة محلول الأثير، والممرّضات، والثياب البيضاء، والقدرة على النبش كما أرغب في أحشاء المعاصرين لي، هذا هو ما كان يهمّني بالفعل. هنا تكمن السلطة الحقيقية! أنا أيضاً، سوف أصبح ساحراً أبيضَ.

مبتهجاً مثل رجل عصابات عثر أخيراً على قاعة الخزائن، همس راؤول في أُذني:

- بسست... من هنا!

دفعنا باباً مزجّجاً.

وكدنا نرتدّ إلى الوراء أمام المشهد. كان أغلب المرضى الذين يستقبلهم

قسم رعاية المحتضرين في حالة سيئة للغاية بالفعل. على يميننا، كان رجلٌ عجوز أدرد، متجمّد فاغر الفم، يبعث رائحةً كريهة في الهواء ضمن دائرة قطرها عشرة أمتار من جميع الجهات.

وبالقرب منه تماماً، كان كائنٌ نحيلٌ وهزيلٌ جدّاً، لم نستطع تحديد جنسه، يحدّق دون أن يرمش إلى بقعة بنيّة اللون في السقف.

كان مخاطٌ شفّاف يسيل من أنفه دون أن يفكّر في مسحه. وإلى اليسار، كانت هناك سيّدة صلعاء لم يعد في رأسها سوى خصلةٍ من الشعر المصبوغ باللون الأشقر على جبينها المجعّد. كانت تحاول أن توقف الارتعاش المتواصل ليدها اليمنى من خلال الضغط عليها بيدها اليسرى. وبالطبع، لم تنجح في ذلك، وكانت تشتم العضو المتمرّد بلغةٍ باتت غير مفهومة لأنّ طقم أسنانها كان مخلوعاً.

إنّ الموت، مع كلّ الاحترام لراؤول، لم يكن عبارة عن آلهة ذكور وإناث، ووحوش، وأنهار مليئة بالثعابين.

الموت كان هذا: أناسٌ قيد التعفّن ببطء.

كان والداي على حق: الموت فظيعٌ. كنتُ سأهرع راجعاً على الفور، لو لم يسحبني راؤول نحو السيّدة ذات الخصلة الشقراء.

- اعذرينا على إزعاجك، سيّدتي.

تمتمت، وروحها ترتعش كما جسدها:

- صص... صباح... الخير.

- نحن الاثنين طالبان في مدرسة للصحافة. ونودّ أن نجري مقابلةً معكِ.

قالت بجهدٍ:

- لما... لماذا أنا؟

- لأنّ حالتكِ تهمّنا.

- أنا... لس... لستُ... مهمّة. غا... درا.

لم نحصل على أيّ ردّ فعلٍ من العجوز ذات المخاط. فتوجّهنا نحو الجدّ

ذي الرائحة الكريهة الذي اعتبرنا كبعوضتين صغيرتين مزعجتين. استشاط غضباً كما لو أننا أفسدنا عليه مشاغل ملحّة.

- ماذا، ماذا، ماذا تريدان منّي؟

استأنف راؤول خطابه:

- صباح الخير، نحن تلميذان من مدرسة للصحافة ونعدّ تقريراً حول أشخاصٍ نجوا من غيبوبة.

اعتدل العجوز في جلسته، وهو فخورٌ جدّاً:

- طبعاً نجوتُ من غيبوبة. بقيتُ خمسة أيام في غيبوبة وها أنّكما تريان أنني ما زلتُ حيّاً!

سأله راؤول كما لو أنّه يتوجّه بالسؤال إلى سائحٍ عائدٍ من الصين:

- وكيف كان ذلك؟

نظر إليه الرجل، متعجّباً:

- ماذا تُريد أن تقول؟

- أقصد، ما الذي شعرتَ به حينما كنتَ في غيبوبة؟

بدا واضحاً أنّ الآخر لم يعرف إلى أين كان يريد أن يصل.

- أقول لك إنني كنتُ في غيبوبة مدّة خمسة أيام. الغيبوبة هي بالضبط حينما لا نعود نشعر بأيّ شيء!

ألحّ راؤول عليه:

- ألم تهلوس؟ ألا تتذكّر ضوءاً، أو ممرّاً، أو أيّ شيء؟

قال المُحتضر غاضباً:

- كلا، فالغيبوبة ليست سينما. أوّلاً، نكون في حالة سيّئة جدّاً. ثمّ، نستيقظ والألم في كلّ أنحاء جسدنا. هذه ليست نزهة. في أيّ صحيفةٍ تَكتبان؟

ظهر ممرّضٌ فجأة كما لو أنّ الأرض انشقّت وخرج منها، وبدأ في الحال بالصراخ:

- من أنتما؟ ألا تكفّان من مضايقة مرضاي؟ من أعطاكما الإذن بالدخول

إلى هنا؟ ألا تُجيدان القراءة؟ ألم تريا الإعلان: «ممنوع دخول أيّ شخصٍ غريب إلى القسم»؟

قال راؤول:

- أنت وأنا ضدّ الأغبياء!

وانطلقنا، نعدو معاً، وضعنا في متاهةٍ من الممرّات المُبلّطة. عبرنا قاعةً مخصّصة للمصابين بحروقٍ شديدة، وأخرى مخصّصة لذوي الإعاقات الحركية، لنصل في النهاية بالضبط إلى حيث لا ينبغي أن نكون. إلى قاعة الجثث.

كانت جثث عارية ممدّدة في ما يُقارب عشرين حوضاً من الكروم، وقد تشنّجت وجوهها في اللحظة الأكثر إيلاماً.

كانت عيون بعض الجثث لا تزال مفتوحة.

متسلّحاً بكمّاشةٍ، كان طالبٌ شابّ يعكف على نزع الخواتم ذات الفصوص أو خواتم الزواج. كان أحد الخواتم يأبي الخروج من الإصبع، لأنّ الجلد قد انتفخ حول المعدن. فحصر الطالب، دون تردّد، الإصبع بين فكّي الكمّاشة، وضغط عليها، فبتر الإصبع الذي سقط مع الخاتم على الأرض، مصدراً ضجيج معدنٍ ولحمٍ.

أوشكتُ على أن يُغمى عليّ. سحبني راؤول إلى الخارج. كنّا مرهقين.

كان صديقي مخطئاً. وكان والداي على حقّ. الموت شيءٌ مقزّز. لا ينبغي النظر إليه، ولا الاقتراب منه، ولا الحديث عنه، ولا حتى التفكير فيه.

25. ميثولوجيا لابيّة

بالنسبة إلى اللابيين[1]، الحياة عجينة ليّنة تغطي الهياكل العظمية. والروح لا تكون إلّا في عظام هذا الهيكل العظمي.

ولذلك، عندما يصطادون سمكةً، يحرصون جيّداً على أن ينزعوا عنها اللحم دون أن يحطّموا أيّ حسكة فيها. ثمّ يرمون السويقات العظمية في

1- اللابّيون: سكان إقليم لابّي الفنلندي. المترجم

نفس المكان الذي اصطادوا فيه السمكة حيّة. إنّهم مقتنعون بأنّ الطبيعة سوف تتكفّل بإعادة إكساء عظم السمكة باللحم، وعندما يعودون بعد بضعة أيام، أو بضعة أسابيع، أو بضعة أشهر، سوف ينتظرهم طعامٌ جديد وطازج في نفس المكان.

بالنسبة إليهم، اللحم ليس سوى محض زينة حول العظام المشبعة بالروح الحقيقية. ونجد نفس هذا الاحترام للهيكل العظمي عند المغول والياكوتيين الذين يجهدون لكي يُعيدوا تشكيل الدببة التي قتلوها على نحوٍ سليم وفي وضعية الوقوف. ولكي لا يجازفوا بتحطيم العظام الرقيقة للجمجمة، يحرمون أنفسهم من تناول النخاعات، على الرغم من أنّها شهيّة.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

26. انفصال

بعد فترة قصيرة من فرارنا من مستشفى سان لويس، انتقلت والدة راؤول إلى الريف، ومضت سنوات طويلة قبل أن نلتقي من جديد.

توفّي والدي في نفس السنة بسبب إصابته بسرطان الرئة. لم يوفّره السيجار الذي كان يشتريه لقاء عشر فرنكات. لجأت من جديد إلى السبانخ، والبروكولي، والأنشوفة، وذرفتُ سيلاً من الدموع أثناء مراسم دفنه، ولكن لم يبدُ أحدٌ مهتمّاً بذلك.

حالما عادت والدتي من مراسم التشييع، تحوّلت إلى امرأة سليطة استبدادية. بدأت ترغب في أن تدسّ أنفها في كلّ شيء، وتراقب كلّ شيء وأن تتدخّل في حياتي وتسيطر عليها. وفي تدخّلٍ سافرٍ في خصوصياتي، كانت تفتّش أغراضي، واكتشفت بذلك دفتر مذكّراتي اليومية، الذي كنتُ أعتقد أنني أحسنتُ إخفاءه تحت حشيّتي. وشرعت في الحال في قراءة المقاطع التي تضمّ أهمّ مغامراتي السرّية بصوتٍ عالٍ أمام شقيقي كونراد، المبتهج بهذه الإهانة البالغة.

وقد استغرقتُ بعض الوقت حتى شُفيتُ من هذا الجرح. كان دفتر يومياتي دائماً بالنسبة إليّ بمنزلة صديقٍ أبوح له بأسراري دون أن أخشى

من أن أُحاكم. ربّما لم يكن ذلك خطأه، ولكن هذا الصديق خانني، الآن، بالفعل.

علّق كونراد، وبخبثه المعهود:

- انظر، لم أكن أعلم أنّك معجبٌ بهذه الفتاة الرعناء بياتريس. إنّها بصراحة بشعة بضفائرها المجدولة كذيل حصان، ومع كلّ البثور الموجودة في وجهها. أنت بالفعل فاجر.

حاولت أن أظهر بصورة حسنة، لكنّ والدتي كانت تعرف حقّ المعرفة أنّها تحرمني من حليفٍ. لم تكن ترغب في أن يكون لديّ أصدقاء، وكانت تعتقد أنّها وحدها كافية لأن تلبّي كل حاجاتي إلى التواصل مع الخارج.

قالت لي:

- أخبرني بكلّ شيء. أنا سأجيد حفظ كلّ أسرارك، وسألتزم الصمت كصمت القبور. أمّا دفترك، فيمكن لأيّ شخص أن يعثر عليه. ولحسن الحظّ، لم يقع بعد بين أيادٍ غريبة!

آثرتُ أن أتجنّب الجدال معها. ولذلك لم أقل لها إنّه عدا يديها، لن تعتقد أيّ أيادٍ غريبة أنّه من المسموح لها أن تفتّش تحت سريري وتتجسّس على خصوصياتي. وعلاوة على ذلك، كان من المستحيل أن أنتقم من استهزاء كونراد بإظهار دفتر يومياته، لأنّه لم يكن يحتفظ بدفترٍ، فهو لا يحتاج إليه. ليس هناك ما يقوله لأحدٍ، ولا حتى لنفسه. كان سعيداً بحاله، بمروره في الحياة حتى من دون محاولة فهمها.

وبفقداني لكاتم أسراري، أصبح غياب راؤول أكثر وطأةً عليّ. لم يكن أحدٌ سواه، في المدرسة الثانوية، يكنّ أدنى اهتمامٍ بالميثولوجيا القديمة.

بالنسبة إلى زملائي في الصفّ، لم تكن لكلمة «موت» أيّ سحر، وحينما كنتُ أحدّثهم عن الجثث، كانوا يميلون إلى ضرب جباههم براحة أيديهم.

«أنت تهرف، يا رجل، اذهب واجرِ تحليلاً نفسياً لنفسك عند اليونانيين!»

وبّختني بياتريس:

- ما زلتَ صغيراً على الاستغراق في الحديث عن الموت. انتظر إلى سنّ الستين. لا يزال الوقت مبكّراً، الآن.

أجبتُها بنفس طريقتها:

- حسناً، فلنتحدّث عن الحبّ! هذا موضوعٌ يناسب الشباب، أليس كذلك؟

تراجعت إلى الوراء، مذعورةً. فحاولتُ أن أُقنعها بالكلام اللطيف:

- ولكنني لا أطلب أكثر من أن أتزوّجكِ...

هربت جرياً. وقد أكّدت بعد ذلك صراحةً أنني لستُ سوى مهووسٍ جنسيّ، بل وأنني حاولتُ أن أغتصبها. فضلاً عن ذلك، كنتُ بكلّ تأكيد قاتلاً - مجرماً - سفّاحاً - مرتكب عدّة جرائم، وإلّا لماذا سأهتمّ كلّ هذا الاهتمام بالموت والجثث؟

لم يعد لديّ دفتر يوميات يُخفي أسراري، ولم يعد لديّ صديق، ولم تعد لديّ حبيبة، ولم يعد هناك مثقال ذرّة من الارتباط مع عائلتي، ولذلك بدت الحياة مملّة ورتيبة كثيراً. لم يكن راؤول يراسلني. كنتُ بالفعل وحيداً على سطح هذا الكوكب.

لحسن الحظّ، بقيت لديّ الكتب. لم يخدعني راؤول حينما قال لي إنّ الكتبَ أصدقاءٌ لا يخونون أبداً. الكتب تعرف الميثولوجيات القديمة. وهي لا تخشى الحديث عن الموت أو الحبّ.

ولكن كلّما كانت عيناي تقرأ كلمة «موت»، كنتُ أفكّر في راؤول من جديد. كنتُ أعلم أنّ موت والده قد ولّد لديه هذا الهاجس. كان يريد أن يعرف ما الذي كان سيقوله له قبل أن يموت. أمّا أبي، فقد قال لي كلّ شيء وهو على قيد الحياة: «لا ترتكب حماقات»، «قف مستقيماً، هذه والدتك»، «لا تثق بأولئك الذين يزعمون أنّهم يريدون لك الخير»، «اقتدِ بأخيك كونراد»، «ألا تستطيع أن تأكل وتحافظ على نظافتك؟ المناديل لم تُصنَع مِن أجل الكلاب»، «إذا استمررت هكذا سوف تتلقّى صفعة»، «أعطني علبة سَجائري»، «لا تضع أصابعك في أنفك»، «لا تنكش أسنانك ببطاقة المترو»، «خبّئ نقودك جيّداً»، «ما بك تقرأ كتاباً مرّة أخرى؟ من الأفضل لك أن تساعد أمّك في تنظيف المائدة»، إنّه الإرث الروحي الرائع. شكراً، يا أبي.

ومع ذلك، كان راؤول مخطئاً في تركيز كلّ اهتمامه على الموت. لا

يحتاج المرء إلى أن يكون عالماً حتى يفهم الموت: إنّه بكلّ بساطة نهاية الحياة. ونقطة على السطر. مثل فيلمٍ يتوقّف حينما نُطفئ التلفاز...

ومع ذلك، بقيتُ أحلم، في المساء، بأنني كنتُ أطير، وأنّه، هناك في العالم العلوي، أصادف دائماً امرأة ترتدي ثوباً من الساتان الأبيض وتضع قناعاً هو عبارة عن هيكلٍ عظميّ لجمجمة. ذلك الكابوس الذي كان يراودني، لم أكن قد دوّنته في دفتر يومياتي.

27. ميثولوجيا هندوسية

«هؤلاء الذين يعلمون هكذا وأولئك الذين يعلمون، في الغابة، أنّ الإيمان هو الحقيقة، هؤلاء يدخلون في اللهب، ومن اللهب إلى النهار، ومن النهار إلى الأيام الخمسة عشر الواضحة، ومن الأيام الخمسة عشر الواضحة إلى الأشهر الستة التي تصعد الشمس خلالها نحو الشمال، ومن هذه الأشهر إلى عالم الآلهةِ، ومن عالم الآلهةِ إلى الشمس، ومن الشمس إلى منطقة البروق. ولمّا يصلون إلى منطقة البروق، يأتي كائنٌ روحيّ ينقلهم إلى عوالم براهمان: في هذه العوالم، يسكنون في أقاصٍ غامضة. بالنسبة إليهم، نقطة العودة هناك».

(بريهادارانياكا – الأوبانيشاد)

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

28. عودة راؤول

منذ سنّ الثامنة عشرة، قرّرتُ أن أصبح طبيباً. بدأت بالدراسة المناسبة، وهل كان ذلك بمحض مصادفة بالفعل؟ وقد اخترتُ اختصاص التخدير والانعاش.

وجدتُ نفسي في قلب المعبد، مسؤولاً عن حياة البشر الحريصين على النجاة. ربّما أكون قد تمنّيتُ أيضاً أن أختلط بهؤلاء الكاهنات اللواتي قيل إنّهنّ لا يرتدين شيئاً تحت بلوزاتهنّ البيضاء. على أيّ حال، سرعان ما تبيّن

لي أنّ ذلك كان مجرّد أسطورة. كانت الممرّضات غالباً ما يرتدين قمصاناً قصيرة الكمّين.

كنتُ في الثانية والثلاثين من عمري عندما عاد راؤول دون سابق إنذارٍ إلى حياتي. اتّصل بي هاتفيّاً وأعطاني موعداً في مقبرة بير لاشيز بالطبع.

كان قد أصبح أطول قامةً، وأكثر نحافةً ونحولاً ممّا كان عليه في ذاكرتي. لقد عاد إلى باريس. بعد سنواتٍ طويلة جدّاً من الغياب، شعرتُ بالإطراء أن تكون أوّل مبادرة له معاودة الاتصال بي.

وقد اتّسم بلباقة ألا يتحدّث معي في الحال عن الموت. وكما هي الحال بالنسبة إليّ، كان هو الآخر قد نضج أكثر. لم يعد من الوارد أن يسخر من كلّ شيء خبط عشواء. ولم يعد هناك تلاعبٌ بالكلمات السخيفة، ولا بالألفاظ والعبارات.

فقد أصبح الآن باحثاً بيولوجياً في المركز الوطني للبحث العلمي، مع لقب بروفيسور. ومع ذلك، بدأ بالحديث عن عشيقاته. وقد قال إنّ النساء لا يفعلن سوى المرور في حياته على نحوٍ عابرٍ لأنّهنّ لا يفهمنه. ولذلك يقسون في الحكم عليه. بدا كئيباً، وراح يُثرثر:

– لماذا الفتيات الأكثر جمالاً يكنّ دائماً الأكثر غباءً؟

أجبته:

– لماذا لم تتحرّش بالقبيحات، إذاً؟

– وأنت يا مايكل، هل تخرج كثيراً مع الفتيات؟

– كلا في الحقيقة.

– أنت خجولٌ جدّاً، أليس كذلك؟

– ربّما أنا واسع الخيال جدّاً. أحلم في بعض الأحيان أنّ هناك أميرة ساحرة في مكانٍ ما، وأنّها تنتظرني، تنتظرني أنا ولا أحد سواي.

– هل تؤمن بالحسناء النائمة؟ ولكن إذا خرجت مع فتاةٍ قبل اللقاء بها، يكون الأمر كما لو أنّك تخونها مسبقاً.

– بالضبط. هذا هو الشعور الذي أحسّ به في كلّ مرّة.

كانت يد راؤول العنكبوتية ترفرف حولي، وهو يغطيني بحضوره الوقائي. كيف استطعتُ أن أعيش لزمنٍ طويلٍ جدّاً بعيداً عنه وعن جنونه؟

تنهّد:

– آه... أنت عاطفيٌّ للغاية يا مايكل. هذا العالم قاس جدّاً بالنسبة إلى الحالمين مثلك. عليك أن تتسلّح لكي تتعلّم كيف تكافح.

تحدّثنا بالكثير من الحنين عن مشاجرتنا مع عبدَة بعل زبول. ثمّ تحدّث لي عن أبحاثه. وأخبرني أنّه يعمل الآن على سُبات المراميط[1]. مثل الكثير من الحيوانات الأخرى، تستطيع السناجب أن تبقى ثلاثة أشهر، ونبض قلبها بطيء بنسبة 90%، دون أن تتنفّس، ودون أن تأكل، ودون أن تتحرّك، ودون أن تنام. كان راؤول قد ذهب بعيداً في دراسة هذه الظاهرة. بعد النوم، أراد أن يلامس حواشي الموت. لإحداث سُباتٍ اصطناعي أكثر عمقاً عند مرموطٍ، كان يكفي غطسه في حمّامٍ باردٍ بدرجة حرارة صفر درجة مئوية. فكانت درجة الحرارة الداخلية تنخفض سريعاً، ودقات القلب تتباطأ إلى درجة التوقّف التامّ، ولكن مع ذلك، لا يموت الحيوان من جرّاء ذلك. وكان من الممكن إنعاشه بعد ذلك بنصف ساعة، من دون الحاجة إلى أيّ شيء سوى تدليكه. راودني الشكّ في أنّ صديقي كان يصف بالسُبات ما نُطلق عليه، نحن الأطباء، تسمية «غيبوبة». ومع ذلك، كانت تجاربه قد تكلّلت بالنجاح، وفي المؤتمرات الدولية، كان بعض المشاركين قد أطلقوا عليه لقب «موقظ المراميط المجمّدة».

سألته، فجأةً، إن كان قد اكتشف نصوصاً أخرى حول العالم الآخر. دبّ النشاط والحيوية فيه على الفور. لم تكن الجرأة قد واتته في أن يتأمّل منّي أن أطرح بهذه السرعة موضوعه المفضّل.

صاح بشراهةٍ:

– اليونانيون! كان اليونانيون يؤمنون بأكوانٍ دائرية ومتداخلة. ينغلق كلّ كونٍ على كونٍ آخر أصغر منه، ينغلق بدوره على عالمٍ أصغر منه، على شكل دوائر دريئة الرمي. وكان في مركز هذا الأخير، العالمُ الإغريقي، العالم الذي يعيش فيه البشر.

كان راؤول مشهوراً.

– إذاً، في المركز، الإغريق في العالم الأوّل. ثمّ من حوله، الذين

1- مَرْموط: حيوان لبون قاضم ينام طيلة الشتاء. المترجم

يحومون حوله، يأتي برابرة العالم الثاني، وهؤلاء أنفسهم يكونون محاطين بعالمٍ ثالث، عالم الوحوش، التي تضم من جملة ما تضمّ، المخلوقات البشعة لمناطق النصف الشمالي من الكرة الأرضية.

أوجزتُ ما قاله:

- بشر، برابرة، وحوش، ثلاث طبقات، أليس كذلك؟

ردّ، مصحّحاً:

- كلّا، بل أكثر بكثير. بعد عالم الوحوش، يأتي البحر. وهناك توجد جزيرة السُعداء، الفردوس الذي يقيم فيه الخالدون. وهناك أيضاً، جزيرة الحلم، التي يعبرها نهرٌ لا يجري سوى في الليل. وهي جزيرة تغطّيها أزهار اللوتس. وقد شيّدت، في وسطها، المدينة ذات الأبواب الأربعة. يُتيح بابان منها دخول الكوابيس، بينما ينفتح الآخران أمام الأحلام السعيدة. ويتحكّم هيبنوس، إله الحلم، بالمخارج الأربعة.

- يا إلهي!

واصل راؤول حديثه:

- بعد البحر، هناك أرضٌ برية من جديد. وهي عبارة عن شاطئ قارة الموتى. لا تحمل الأشجار فيها سوى الثمار الجافّة. وهناك، تجنح كلّ السفن وينتهي كلّ شيء.

خيّم صمتٌ علينا، تناوبت خلاله في ذهننا مشاهد الديكور الفردوسي أو الجهنّمي.

قطع راؤول السحر حينما سألني حول مهنتي كمنعش ومخدّر. وقد أكثر من الأسئلة التقنية. أراد أن يعرف المواد التي أستخدمُها لمرضاي البشريين، معتقداً أنّه من الممكن أن يستخدمها أيضاً بالنسبة إلى مراميطه.

29. رأي الدكتور بينسون

أ. حالات الغيبوبة

حسب رأي صديقي الدكتور مايكل بينسون، هناك ثلاثة أشكال سائدة من الغيبوبة:

الغيبوبة 1: غيبوبة يقظة. يغيب المريض عن الوعي ولكنّه يستجيب للمحفّزات الخارجية. ويمكن لهذه الغيبوبة أن تستمر من ثلاثين دقيقة إلى ثلاثة أيام.

الغيبوبة 2: لا يعود المريض يستجيب للمحفّزات الخارجية، سواء تمّ قرصه أو وخزه. يمكن لهذه الغيبوبة أن تستمرّ حتى أسبوعٍ كامل.

الغيبوبة 3: غيبوبة عميقة. وهي عبارة عن توقّف جميع أشكال النشاط. حركات انحراف المراكز. الأطراف العلوية تبدو في حالة تشنّج. تصبح دقّات القلب غير منتظمة (تعديل الاختلاج). حسب رأي مايكل، من المستحيل أن يخرج المريض من هذا النمط من الغيبوبة.

ب. المؤثّرات الخارجية

1) تمدّد الحدقة (التوسّع التامّ لحدقة العين).
2) الشلل.
3) التواء الفم.

ت. كيف يُخرَج مريضٌ من حالة الغيبوبة؟

طرائق يستخدمها مايكل:

1) تدليك القلب.
2) إدخال أنابيب في المجاري التنفسية العلوية.
3) صدمات كهربائية بشدّة من 200 إلى 300 جول.
4) حقن القلب بالأدرينالين.

ث. كيف يُدخَلُ شخصٌ ما في حالة غيبوبة؟

المواد التي يستخدمها مايكل:

1) صوديوم
2) ثيوبتال (من المتوقّع أن يكون هناك اضطراب عند الاستيقاظ)، بروبوفول (نوم سريع، استيقاظ بلا مشاكل).
3) دروبيريدول (تأثيراتها أقلّ قوّة، فقدان مؤقّت للإحساس بالألم، إحساسٌ بالانفصال مدّة ساعة بعد الاستيقاظ، مخاطر توقّف في القلب والجهاز التنفّسي). يجب ضبط الجرعة الدوائية بما يتناسب مع وزن المريض.

4) كلورور البوتاسيوم (التسبّب باضطرابات قلبية واختلاجات بُطَينية).

ح. دقّات القلب عند الإنسان

في الحالة الطبيعية: بين 65 و80 دقّة في الدقيقة الواحدة.

الأكثر انخفاضاً: 40 دقّة في الدقيقة الواحدة.

عند بعض الزُهاد الهنود الممارسين لليوغا، تنخفض الدقّات إلى 38 دقّة في الدقيقة الواحدة، لكن الأمر يتعلّق هنا بحالات استثنائية.

الحدّ الأدنى: يكون النبض تحت 40 دقّة قلبية في الدقيقة الواحدة، ويحدث انخفاض حادّ في تدفّق الدم في شرايين المخ، ويكون هناك خطر التعرّض لإغماء (فقدان للوعي مدّة قصيرة تقلّ عن دقيقتين). لا يحتفظ الشخص بشكلٍ عامّ بأيّ ذكرى عن الحادث.

الحدّ الأقصى: يبلغ النبض 220 دقّة في الدقيقة ناقصاً عمر الشخص.

مذاكرات عمل للأبحاث الثاناتونوتية، راؤول رازورباك.

30. كتاب التاريخ المدرسي

وُلدت الثاناتونوتية من حادثٍ عرضي. يُعيد معظم المؤرخين تاريخها إلى يوم وقوع الهجوم ضدّ الرئيس لوسيندير.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

31. الرئيس لوسيندير

كان الرئيس لوسيندير، واقفاً في سيارته الليموزين السوداء، يُحيّي الجمهور، وعلِى شفتيه ابتسامةٌ مشوبةٌ بعدم الارتياح. في الواقع، كان يتعذّب لكثرة ما كان يتألّم بسبب ظفرٍ داخلٍ في لحم إصبع قدمه. ولم يكن يلقى العزاء بالتفكير في أنّ يوليوس قيصر أيضاً كان قد عانى من مواقف مماثلة أثناء استعراضاته العسكرية الضخمة. وماذا عن الإسكندر الأكبر ومعاناته مع داء السفلس؟ وفضلاً عن ذلك، في ذلك العصر، لم يكن الأطبّاء يجيدون معالجة هذا الداء...

كان يقف خلف يوليوس قيصر على الدوام عبدٌ مكلّفٌ بأن يرفع تاج الغار خاصّته وأن يردّد باستمرار في أذنه: «تذكّر أنّك إنسان». لم يكن لوسيندير في حاجةٍ إلى عبدٍ لكي يذكّره بذلك، كان ظفره كافياً لذلك.

حيّا الجمهور الذي كان يُصفّق له وهو يتساءل في الوقت ذاته عن كيفيّة التخلّص منه. كان طبيبه قد نصحه بإجراء عملية جراحية، ولكن زعيم الأمّة لم يكن قط قد تمدّد حتى هذه اللحظة على سريرٍ للعمليات. لم يكن يحبّذ فكرة أن يُخدَّر في حين سيعبثُ مجهولون مخفيون تحت أقنعة الغاز ومسلّحون بمباضع قاطعة بجسده المُختَلج. وبالطبع، كان بوسعه أيضاً أن يلجأ إلى طبيبه الاختصاصي بمعالجة الأقدام. وقد وعده هذا الأخير بأن يتغلّب على المشكلة من دون إدخاله إلى غرفة العمليات، ولكن سيكون عليه حينها شقّ إصبع قدمه شقّاً عميقاً من دون تخدير. لم يكن في الفكرة ما يُثير حماسته.

أيّ مصدرٍ للمشاكل مثل سقط المتاع البشري! هناك على الدوام خطبٌ ما في مكانٍ ما. حالات روماتيزم، حالات تسوّس الأسنان، التهاب ملتحمة العين... في الأسبوع الماضي، كان لوسيندير قد تعذّب من جرّاء اشتداد آلام إصبعه المتقرّح.

قالت له زوجته، ناصحة:

- لا تقلق يا جان. أنت منزعج بسبب أمريكا الجنوبية. سوف تتحسّن غداً. تقول حكمة رائجة ومعروفة في بلدي: «أن تكون بصحّة جيّدة يعني أن تعاني كلّ يوم من المرض في مكانٍ مختلف».

مضحك جدّاً! لا عليكم، قدّمت له القليل من الحليب الساخن وهدأ الألم. بدا الظفر المنغرز أكثر قوّةً.

صرخ المحيطون به: «عاش لوسيندير!». ردّدت مجموعةٌ كاملة: «لوسيندير، رئيس!» آه، هذه الولاية الرئاسية الجديدة! كانت الانتخابات وشيكة.

عدا هذا الإصبع اللعين، أمضى لوسيندير وقتاً سعيداً وسط هذه الهتافات. إذ كان يعشق الالتقاء بالتجمّعات الحاشدة. قبّل فتاة صغيرة ذات خدّين ورديين، رفعتها امرأة أمامه. سلّمته الصبيّة باقة من الزهور من النوع الذي يُثير الحساسيّة.

أقلعت السيارة من جديد. كان يجهد لأن يحرّك أصابع قدمه المحصورة

في حذائه الجديد الصلب عندما اندفع نحوه رجلٌ ضخم يرتدي بزّة من ثلاث قطع، وفي قبضته مسدّسٌ. ودوّى صوت طلقات نارية في أذنيه.

فكّر الرئيس في هدوء:

- ها قد تمّ اغتيالي!

كانت تلك هي المرّة الأولى، والأخيرة، بالطبع. سالت دماءٌ فاترة على سرّته. ابتسم لوسيندير. كانت هذه طريقة مناسبة للدخول في التاريخ من أوسع أبوابه. كان سلفه، الرئيس كونغوماس، قد عاش ولايته الرئاسية التي اختُصِرَت قبل أوانها بسبب إصابته بسرطان البروستات. الأمر الذي سوف يُضحك الأجيال القادمة.

لقد كان محظوظاً بوجود قاتله التقني ذي المسدّس الأسود. لقد حظي الرؤساء المغتالون على الدوام بحقّ التكريم في الكتب المدرسية. تتفاخر الكتب برؤاهم العظيمة وجرأة مشاريعهم، ويردّد أطفالٌ مدائحهم في المدارس. لا خلود يفوق هذا.

لمح لوسيندير قاتله الذي اندسّ بين الجمهور. وكذلك رأى مرافقيه الذين ظلّوا في أماكنهم دون أن يتصرّفوا! يا له من درس! ما كان عليه أن يعتمد على كلّ هؤلاء المحترفين الأغبياء.

إذاً، منْ هذا الذي يكرهه إلى هذه الدرجة حتى يُنظّم عملية قتله؟ باه، لم يعد يهتمّ بذلك الآن. إذ لم تعد هناك أهمية لأيّ شيء، بما في ذلك ظفره المنغرز اللعين. كان الموت هو أفضل دواء لكلّ شرور الحياة الصغيرة.

صرخ أحدهم بالقرب منه:

- أحضروا طبيباً! بسرعة، أحضروا طبيباً!

فليسكت هؤلاء الناس... لم يكن هناك طبيب عام قادر على مساعدته. لقد فات الأوان، إذ كانت رصاصةٌ قد اخترقت قلبه. لم تكن هناك حاجة إلى اَستدعاء طبيب، بل اختيار رئيسٍ جديد يحلّ محلّه في حين سيغادر هو إلى لقاء يوليوس قيصر وإبراهام لينكولن وكينيدي في سماء رجال الدولة العظام المغتالين.

لم تتوان أذرعٌ عن رفع لوسيندير على نقّالة، وحبسه في سيارة إسعاف

تطلق صفّارات إنذار مدوّية لا تُطاق. وضع اختصاصيون مقنّعون مرآةً فوق فمه، ودلّكوا صدره. بل كان هناك ما يكفي من الوقاحة ليقوموا بإجراء عملية تنفّس اصطناعي من خلال النفخ في فمه.

لم يمت في الحال. مرّت ذكريات بأقصى سرعة في ذهنه. في سنّ الرابعة: تلقّى أوّل صفعة غير مستحقّة، وأوّل فظاظة. في سنّ السابعة: أُدرج اسمه لأوّل مرّة في لوحة الشرف بفضل أحد جيرانه الذي سمح له بأن ينسخ موضوعه في الإنشاء. في سنّ السابعة عشرة: كانت أوّل علاقة له مع فتاة (وقد تكرّرت لقاءاته بها منذ ذلك الحين؛ وكان ذلك خطأً: إذ كانت الفتاة بشعة). في سنّ الحادية والعشرين: نيله إجازة في التاريخ، وهذه المرّة من دون غشّ. في سنّ الثالثة والعشرين: نيل شهادة الماجستير في الفلسفة القديمة. في سنّ الخامسة والعشرين: نيل شهادة الدكتوراه في تاريخ الآثار. في سنّ السابعة والعشرين: الانضمام إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي بفضل علاقات والده، وأصبح لديه شعارٌ لمهنته المستقبلية: «الذين يعرفون الماضي جيّداً هم أفضل منْ يبنون المستقبل». في سنّ الثامنة والعشرين: الزواج مع أوّل «فرّوجة» (ممثّلة نسي حتى اسمها). في سنّ التاسعة والعشرين: الحيل القذرة الأولى والخيانات الأولى من أجل الارتقاء داخل الجهاز الحزبي. في سنّ الثانية والثلاثين: انتخابه في بلدية تولوز، وثروة جناها من بيع أراضٍ تابعة للبلدية، والحصول على أولى اللوحات الفخمة، وأول التماثيل القديمة، والكثير من العشيقات. في سنّ الخامسة والثلاثين: انتخابه في الجمعية الوطنية، وامتلاكه لأوّل قصرٍ في لوزير. في سنّ السادسة والثلاثين: الطلاق والزواج من «الفروجة» الثانية (عارضة أزياء ألمانية، مخّها صغير بحجم حبّة حمّص، ولكن ساقيها توقعان بقدّيسٍ). في سنّ السابعة والثلاثين: تفريخ أطفالٍ في كلّ الزوايا. في سنّ الثامنة والثلاثين: قضاء فترة قصيرة من العزلة بسبب قضية تلقّي رشوة على بيع الطائرات الباكستانية. في سنّ التاسعة والثلاثين: العودة السريعة إلى المسرح السياسي بفضل زواجٍ جديد (ابنة الرئيس كونغوماس، وهو اختيارٌ صائب هذه المرّة). تعيينه في وزارة الشؤون الخارجية وأوّل مهمّة مثيرة للاشمئزاز حقّاً: تنظيم عملية اغتيال الرئيس البيروفي، الذي استُبدِل

برئيسٍ دمية. في سنّ الخامسة والأربعين: موت الرئيس كونغوماس. حملة لوسيندير الانتخابية لرئاسة الجمهورية الفرنسية الجميلة بفضل شركة مموّلة بالكامل من قبل بيرو. شعارٌ جديد: «لقد درس لوسيندير التاريخ، والآن يكتبه». الفشل في الانتخابات. في سنّ الثانية والخمسين: انتخابات رئاسية جديدة. الفوز في الانتخابات: السلطة. وأخيراً، الوصول إلى قصر الإليزيه. السيطرة على الاستخبارات السرّية. متحف خاصّ بالتحف الأثرية التي تمّ «اقتناؤها» سرّاً من الخارج. أصبح في أحسن حالاته. في سنّ الخامسة والخمسين: تهديدات الحرب النووية. خاف العدو، فتراجع، وفقد لوسيندير أوّل فرصة مناسبة له لدخول التاريخ. في سنّ السادسة والخمسين: أصبحت لديه عشيقات أصغر سنّاً على نحوٍ متزايد. في سنّ السابعة والخمسين: اللقاء مع أوّل صديق حقيقي له، فيرسينجيتوريكس، وهو كلب لابرادور أسود، بعيدٌ عن شبهة الوصولية.

وأخيراً، في سنّ الثامنة والخمسين، وخاتمة هذه السيرة الذاتية الجميلة، في هذه اللحظة: اغتيال الرجل العظيم في مكانٍ مزدحمٍ بالجماهير في فيرساي.

لاحت له المزيد من المرايا الزخرفية. ليست الحياة، حتى وإن كانت حياة رئيسٍ، سوى هذه الحقيقة البسيطة، فأنت من التراب، وستعود إلى التراب. أنت من الرماد، وستعود إلى الرماد. أنت دودة، وستنتهي في معدة الديدان.

ليتهم فقط سمحوا له بأن يموت بسلام! حتى الديدان لها الحقّ في الهدوء الأبدي. ولكن هيهات، رفعوا له جفنيه، ووضعوه على نقّالة... تفحّصوا جسده، ونزعوا عنه ثيابه، وأوصلوه بأجهزة معقّدة، وتصاعد من حوله الصياح والصراخ. ردّدوا: «افعلوا كلّ شيء من أجل إنقاذ الرئيس». يا لهم من أغبياء!

ما جدوى كلّ هذه الجهود؟ لقد أحسّ بتعبٍ شديد يجتاحه. كان يشعر كأنّ الحياة تغادره تدريجياً. هذا ما كان يحدث بالضبط. كان يخرج. أحسّ بأنّه يخرج. هذا غير ممكن! جان لوسيندير كان يشعر... بأنّه يخرج. كان يخرج من جسده. يا إلهي! كان يخرج فعلاً من جسده. هو، أقصد هل هو كان

يخرج أم شيءٌ من هذا القبيل؟ كان هناك شيءٌ آخر... كيف يمكننا أن نسمّي هذا؟ روحه؟ أهو جسده غير الماديّ؟ أهو إكتوبلازمه ما يخرج[1]؟ أهو فكره المتجسّد؟ كان هو، شفّافاً وخفيفاً. كان ينفصل، ويتخلّص من الشوّائب، ويتجزّأ. يا له من إحساس!

انطلقَ، وغادر جلده، كما لو أنّه ينزع ثياباً قديمة بالية، وارتفع، وصعد، صعد عالياً. لم يعد يشعر بالألم في أصابع قدمه، وكان خفيفاً جدّاً!

«الأنا» الجديدة... خاصّته تلكّأت لبرهةٍ في السقف. ومن هناك، تأمّل الجثّة الممدّدة وكلّ هؤلاء الخبراء الذين يبذلون كامل الرعاية العقيمة[2].. لم يكن هناك أيّ احترامٍ لرفاته. كانوا يفتحون قفصه الصدري، ويكسرون أضلاعه ويزرعون الأقطاب الكهربائية مباشرة في عضلة قلبه!

من العبث البقاء لوقتٍ أطولٍ هنا، فهو مطلوبٌ في مكانٍ آخر. خرج خيطٌ رفيعٌ شفّاف من حبل سرّته، وأوصله مرّة أخرى بهيكله العظمي البشري. وكان هذا الحبل الفضّي واللدن ينسحبُ كلّما ابتعد أكثر.

عبر السقف، ومرّ في عدّة طوابق مليئة بالأمراض. وأخيراً، وصل إلى السطح ومن ثمّ السماء. كان ضوءٌ ذو رونق يدعوه من بعيد. يا له من أمرٍ رائع! كان أناسٌ آخرون، يرفرفون بأعدادٍ كبيرة من حوله، وهم يسحبون مثله حبلهم الفضّي. راوده إحساسٌ بأنّه يشارك في احتفالٍ رائع.

ولكن فجأةً، توقّف حبله السُرّي الفضّي عن التمدّد، وأصبح قاسياً، واشتدّ. إنّه يُسحَب من الأسفل! لا بدّ أنّه عاد إلى الواقع: لم يعد لوسيندير يموت. كانت الإكتوبلازمات الأخرى تنظر إليه من دون أن تفهم: لماذا لم يعد يواصل التقدّم إلى الأمام؟ سحبه الحبل، وشدّه، وتراجع بغتة. عاد

1- إيكتوبلازم: مصطلح يتكوّن من إكتو أي «خارج»، وبلازم أي «شيء متشكل أو مُتخلق». وهو يستخدم في الروحية للإشارة إلى مادة أو طاقة روحانية «تتشكل خارجياً» عبر وساطة روحية. وحسب الروحية، فإن الإكتوبلازم يتشكل من خلال وساطة روحية عندما يكون الوسيط في حالة من الغيبوبة. المترجم

2- الرعاية العقيمة: وتُسمى أيضاً (العناد غير المنطقي)، وهي الاستمرار في تقديم الرعاية الصحية والعلاج لمريض على الرغم من عدم وجود فائدة معقولة أو أمل في الشفاء. المترجم

واجتاز السطح والأسقف، ورجع إلى غرفة العمليات ورأى الممرّضين الذين كانوا يصعقونه بصعقات كهربائية بشدّة مئات الفولتات في قلبه مباشرةً. كان قد أصدر بنفسه قانوناً بعنوان: «ممنوع فعل هذا!» قبل عامين، وذلك بهدف وضع حدّ للرعاية العقيمة.

تذكّر ذلك، كانت المادة 676 تقول: «حينما يتوقّف نشاط القلب، لا يجوز إجراء أي تلاعب، أو تجاوز، أو عملية من شأنها إرغام القلب المعطوب على إعادة الإقلاع». ولكن، بما أنّه كان رئيساً، فقد اعتُبِرَ بطبيعة الحال أنّ حياته فوق القوانين. آه، أيّها الأوغاد! آه، أيّها السفلة الصغار! لقد اكتشف مرّة أخرى منغصات أن يكون الرجل الأكثر أهمية في البلاد. في هذه اللحظة، لم تكن له سوى أمنية واحدة: أن يكون متشرّداً لا يهتمّ أحدٌ بأمره. أن يكون متشرّداً، أو متسوّلاً، أو عاملاً، أو ربّة منزلٍ، أو أيّ شيءٍ آخر، ولكن أن يدَعوه وشأنه. أن يُمنحَ هدوءَ الموت. هذا أوّل حقٍّ لكلّ مواطن: الموت بكلّ هدوء.

صرخ بأعلى صوته: «دعوني أموت! دعوني أموت!» ولكن لم يكن لإكتوبلازمه صوتٌ. كان الحبل السُرّي الفضّي مستمراً في سحبه نحو الأسفل أكثر. لم يعد بوسعه أن يرتفع. وفجأةً، عاد إلى جثّته السابقة. يا له من إحساسٍ مزعجٍ! أوي، لقد عاد وأحسّ بظفره الداخل في لحم إصبع قدمه! وأحسّ بأضلاعه التي كُسِرَت لكي يصل الأطباء إلى قلبه. وفضلاً عن ذلك، تمّ صعقه بصعقة كهربائية جديدة، وقد آلمته هذه المرّة ألماً شديداً.

فتح عينيه. وبطبيعة الحال، أطلق الأطباء والممرّضون صيحات الفرح وتبادلوا التهاني. يا لهم من حمقى...

– لقد نجحنا، لقد نجحنا!

– لقد عاد قلبه إلى النبض من جديد، إنّه يتنفّس، لقد نجا!

نجا؟ نجا ممّنْ؟ نجا من ماذا؟ ليس منهم، في كلّ الأحوال. كان يتألّم، كَان يتألّم. وقد غمغم مع تكشيرةٍ بشيءٍ ما غير مفهوم. «أوقفوا الصعقات الكهربائية، وأغلقوا القفص الصدري!»

لا بدّ أنّه قد أراد أن يصرخ: «أغلقوا الباب، هناك تياراتٌ هوائية». كان يتألّم أشدّ الألم في كلّ أعصابه. ها أنت هنا إذاً من جديد، يا جسدي المتألّم.

رفع أحد جفنيه، فوجد الكثير من الناس حول سريره.

كان يتألّم أشدّ الألم. كانت أعصابه كلّها ملتهبة ومتهيّجة. أغمض عينيه من جديد لكي يستمتع بلحظة إضافية من الراحة ويتذكّر البلدان المضيئة المدهشة هناك في السماء.

32. استمارة شرطة

طلب معلومات وصفية أساسية

الكنية: لوسيندير

الاسم: جان

لون الشعر: رمادي

لون العينين: رمادي

الطول: 178 سم

علامات فارقة: لا توجد

ملاحظات: رائد الحركة الثاناتونوتية

نقطة الضعف: رئيس الجمهورية

33. الوزير ميركاسيه

كان المكتب، المؤثّث بالكامل على طراز لويس الخامس عشر، فسيحاً جدّاً. وكانت القاعة مضاءة إضاءةً خفيفة، ولكنّها كافية لتمييز اللوحات الفنية النفيسة والتماثيل الإغريقية. كان الفن وسيلة ناجعة للتأثير في الأشخاص المبتدئين غير المثقّفين. ولم يكن بينوا ميركاسيه، وزير البحث العلمي، يجهل ذلك. كما كان يعلم أنّ الرئيس لوسيندير جالسٌ هنا قبالته، حتى وإن لم يرَ وجهه. لم يكن مصباح المكتب يُضيء سوى يديه ولكنّ الظلّ السميك كان مألوفاً بالنسبة إليه، وكلب لابرادور الأسود أيضاً بين قدميه.

كانت هذه أوّل مقابلة بين الرجلين منذ الهجوم الذي كاد يودي بحياة رئيسه، زعيم الأمّة. لماذا اتّصل الرئيس به هو بالتحديد، في حين أنّ هناك الكثير من الملفّات السياسية الداخلية أو الخارجية التي ينبغي حلّها بشكلٍ

عاجلٍ أكثر من مشاكل الباحثين الذين يطلبون على الدوام إعانات لتمويل أبحاثهم؟

ولأنّ ميركاسيه لم يعد يستطيع الاستمرار في الصمت الذي امتدّ طويلاً، فتجرّأ على إنهاء هذا الصمت وتكلّم أوّلاً. تردّد واختار بعض التفاهات الظرفية:

- كيف حالكم، سيادة الرئيس؟ يبدو أنّكم قد تعافيتم من العملية الجراحية التي خضعتم لها. لقد حقّق هؤلاء الأطباء معجزات.

فكّر لوسيندير بأنّه ما كان لهذا النوع من المعجزات أن يحدث بطيبة خاطر. تقدّم وسط الضوء. وتسلّطت عينان رماديّتان لامعتان على نحوٍ خاصّ على المتحدّث المتقوقع على نفسه في كرسيٍّ مطرّزٍ باللون الأحمر.

- ميركاسيه، لقد استدعيتُك لأنني في حاجةٍ إلى رأي خبيرٍ. أنت الوحيد الذي يمكنه أن يساعدني.

- سأكون سعيداً بذلك، سيادة الرئيس. بماذا يتعلّق الأمر؟

مال لوسيندير إلى الخلف، فغرق في الظلام من جديد. كان أمراً غريباً، فأقلّ حركةٍ من حركاته كانت تبعثُ هيبة غير عادية. أمّا بالنسبة إلى وجهه، فقد بدا أنّه قد غدا فجأةً أكثر... (اندهش ميركاسيه من الصفة التي راودت ذهنه)... أكثر إنسانية.

قال لوسيندير:

- أنت حاصلٌ على شهادتك كاختصاصي في علم الأحياء، أليس كذلك؟ أخبرني ما رأيك بتجارب ما بعد الغيبوبة؟

حدّق ميركاسيه فيه حائراً ومصدوماً. قال الرئيس بانزعاج:

- تجارب الاقتراب من الموت NDE، هؤلاء الناس الذين يخرجون في اللحظة الأخيرة من أجسادهم، ثمّ يعودون بسبب، أقصد بفضل التقدّم في علم الطبّ؟

لم يُصدّق بينوا ميركاسيه ما سمعت أُذناه. ها هو لوسيندير، الواقعي جدّاً عادةً، يهتمّ الآن بالظواهر الغامضة. ما معنى أن يكون المرء قريباً من الموت! تردّد قبل أن يقول:

- أعتقد أنّ الأمر يتعلّق بموضة، بظاهرة مجتمعية سوف تمرّ مثلما مرّت ظواهر كثيرة قبلها. يحتاج الناس إلى الإيمان بما هو مدهش، بما هو خارق للطبيعة، بأن يوجد شيءٌ آخر غير هذا العالم المادي هنا على الأرض. فيستغلّ بعض الكتّاب وبعض الشيوخ الروحيين والمشعوذين ذلك لكي يبنوا شهرتهم التجارية من خلال رواية تُرّهات. هذه الحاجة لطالما كانت لدى الإنسان. والأديان دليلٌ على ذلك. يكفي أن يكون هناك وعدٌ بالفردوس في مستقبلٍ خيالي حتى يبتلع الناس على نحوٍ أسهل مرارة الحاضر. إنّها مسألة سهولة تصديقٍ وحماقة وسذاجة.

- هل هذا هو رأيك في الأمر حقّاً؟

- بالطبع. وهل هناك حلمٌ أجمل من الحلم بعالمٍ آخر فردوسي؟ وهل هناك حلمٌ أكثر «زيفاً» من هذا؟

- ومع ذلك، ماذا لو كان هناك شيءٌ من الحقيقة في هذه... الثرثرات.

قال رجل العلم، ساخراً:

- منذ فترة طويلة، هناك أدلّة. إنّها حكاية الرجل الذي رأى الرجل الذي رأى الرجل الذي رأى الرجل الذي رأى الدبّ. في أيامنا هذه، كلّ شيء يعمل مقلوباً رأساً على عقب. على المشككين أن يقدّموا الدليل على أنّ شكوكهم مبنية على أسس. يكفي أن يُعلن أحد ما نهاية العالم غداً حتى يتطلّب من الاختصاصيين أن يُبرهنوا على أن ذلك لن يحدث.

حاول لوسيندير أن يُظهر الحياد:

- هل تقصد أنّه ليست هناك أدلة؟ هل يمكن ألّا تكون هناك أدلّة لأنّه لم يبحث أحدٌ عنها؟ هل هناك دراسة رسمية واحدة فقط حول هذا الموضوع؟

قال ميركاسيه، مرتبكاً:

- آه، ليس على حدّ علمي. لحدّ الآن، تمّ الاكتفاء بتسجيل الشهادات المشكّكة. ماذا يحدث؟ هل يهمّك هذا الموضوع؟

صاح لوسيندير:

- أوه ! نعم يا بينوا! بل يهمّني كثيراً، لأنّ الرجل الذي رأى الدبّ، كما تقول، بل ومباشرةً، هو أنا.

تأمّل وزير البحث العلمي في رئيسه بشكٍّ وريبة. تساءل في نفسه إن كانت محاولة الاغتيال قد تركت، في الواقع، لدى رئيسه عقابيل لا يمكن إصلاحها. حينما أصابت الرصاصة قلبه، انقطعت التروية الدموية عن دماغه لبضع دقائق. تُرى هل تعرّضت أجزاءٌ من الدماغ للتلف؟ هل هو الآن ضحية لهذيان ذهاني؟

صرخ لوسيندير بقسوة:

– كفّ عن التفرّس في وجهي بهذه الطريقة، يا بينوا! لقد أخبرتك للتوّ أنّني عشتُ تجربة الاقتراب من الموت، ولم أقل إنّني سأُقيم دولة شيوعية!

ردّ العالِم غريزيّاً:

– لا أُصدّقك.

هزّ الرئيس كتفيه.

– ما كنتُ لأُصدّق ذلك أنا بنفسي لو لم يحدث الأمر معي. ولكن العجيب هو أنّ الأمر قد حدث معي شخصياً. رأيتُ قارة مذهلة، وأودّ أن أعرف المزيد عن ذلك العالم العلوي.

– رأيتَ... رأيتَ بعينيك؟

– نعم.

– قبل الموت، يُنتج الجسم غالباً مورفينات طبيعية بكثرة. وهي التي ينتشي بها المُحتَضر قبل الرحيل الكبير، كشراهةٍ كيميائية طفيفة، بمنزلة ألعاب نارية أخيرة... هناك بالتأكيد في هذه اللحظة ما يُحدث بعض الهلوسات المذهلة، «قارة مذهلة» أو أمور أخرى. هذا هو بلا شكّ ما حدث معك على سرير العمليات.

وسط هالة مصباح المكتب، لم يبدُ لوسيندير أنّه يُهلوس. على العكس من ذلك تماماً. ولكن مع ذلك، هل يمكن أن يكون دماغه قد تضرّر؟ هل كان عليه أن ينبّه الوزراء الآخرين، والصحافة، وأن يوقِف الرئيس قبل أن يزجّ البلاد في عملية جنونية؟ لوى بينوا ميركاسيه يديه تحت كرسيه. ولكن محاوره استأنف حديثه، وهو في غاية الهدوء:

– أنا أعرف أثر المخدّرات، يا بينوا. لقد سبق لي أن تعاطيتُ المخدّرات،

وأعرف كيف أميّز بين بداية تعاطي جرعة زائدة وبين ما هو واقعي. كم من المرّات ردّدت عليّ بأنّه في أيّ مجالٍ علميٍّ، يكفي أن نستثمر بكثرة حتى نتوصّل إلى نتائج بسرعة؟

- بالتأكيد، ولكن...

- واحد بالمئة من ميزانية (المحاربين القُدامى)، المخصّصة سرّاً، هل هذا مناسبٌ لك؟

- أنا أرفض. أنا عالمٌ حقيقي ولا يمكن أن أقبل بهذه المهزلة.

- أنا أصرّ على موقفي.

- في هذه الحالة، أفضّل أن أستقيل.

- حقّاً؟

34. كتاب التاريخ المدرسي

موت أسلافنا

مصنّفةً حسب الفئات الاجتماعية - المهنية (في تلك الحقبة)، ها هي لوحة مُقارنة لعدد الأشخاص الذين تجاوزت أعمارهم خمسين سنة على أساس ألف رجل من كلّ فئة. إحصائيات عام 1970 (نهاية الألفية الثانية).

معلّمون وموظّفون:	732
موظّفون كبار ومهن حرّة:	719
مهندسون ورجال دين:	700
كاثوليك:	692
مزارعون:	653
أصحاب مشاريع وتجّار:	631
موظفو مكاتب:	623
موظّفو الطبقة المتوسطة:	616
عمّال:	590
عمّال زراعيون:	565

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

35. أستراليا الجديدة

شارد الذهن، جال بينوا ميركاسيه مطوّلاً في جادة الشانزيليزيه. كان مقتنعاً بعدم وجود تجربة الاقتراب من الموت، وها هو يُكلّف بأن يبرهن على حقيقتها غير القابلة للجدل. كما يُطلب من ملحدٍ أن يُبرهن على وجود الله أو من ناشر إعلاناتٍ لمنتجاتٍ نباتية أن يتفاخر بمزايا اللحم.

كان يعلم تماماً لماذا اختاره لوسيندير هو لهذه المهمّة. كان الرئيس مولعاً بإرغام رجاله على ممارسة التناقض الفكري. كان يُرغم وزراء يمينيين على تطبيق سياسات يسارية، وأنصار البيئة على مدح الاستخدام الكلّي للطاقة النووية، وأنصار الحمائية الاقتصادية على الثناء على التبادل التجاري الحرّ...

ومع ذلك منح مئتي ألف فرنك لتمويل مشروعه الشنيع «مشروع الفردوس». هنا، لم يعد الأمر يتعلّق بفكرة مجرّدة، وإنّما المطلوب هو البرهان على أنّ المرء يُحلّق خارج جسده في لحظة موته لكي يصل إلى «قارة مذهلة»...

لم يكن لوسيندير أوّل رئيس دولة ينخرط في مشاريع طائشة. تذكّر ميركاسيه أنّه كان هناك قبل زمنٍ طويلٍ جدّاً، في أعوام السبعينيات من القرن العشرين، رئيسٌ أمريكي غريب الأطوار يُدعى جيمي كارتر قاد مشروعاً من أجل الدخول في اتّصالٍ مع الأطباق الطائرة. كان يؤمن بالأطباق الطائرة على أنّها صلبة مثل الحديد. وقد أطلق برنامجاً يُدقّق في كلّ الشهادات حول هذه «الأجسام الطائرة المجهولة» الشهيرة. ولنا أن نتخيّل وجوه علماءٍ صارمين مرغمين على الإصغاء إلى مهلوسين ومتوهمين يتحدّثون على محطّات التلفزة! لقد أهدر أموال دافعي الضرائب من خلال بناء محطة إرسال واستقبال عملاقة مخصّصة لالتقاط رسائل أجهزة استخبارات لمخلوقات فضائية محتملة والتواصل معها. ومن ثمّ أبدى دهشته من أنّه لم يُنتخَب لدورة رئاسية ثانية!

كان لوسيندير هو الآخر يسير نحو معركة بيريزينا خاصّته، ولكن ميركاسيه، من جهته، لم يكن لديه خيار. كان عليه إمّا أن يساير رغبات

الرئيس أو يتخلّى عن محفظة نقوده، وبطبيعة الحال، تمسّك برقعة السلطة الصغيرة خاصّته. فليذهب المحاربون القدماء إلى الجحيم! سوف يجد طريقة لاستخدام مبلغ مئتي ألف فرنكٍ.

نعم، ولكن كيف؟ كما كانت حاله في كلّ مرّة يراوده الشكّ، فكّر ميركاسيه في الحال بالاتصال مع أفضل مستشاريه وأكثرهم قرباً منه: زوجته جيل.

وسط دهشته الكبيرة، لم تبدُ قط متفاجئة حينما عرض عليها، أثناء تناول العشاء، مشكلته مع تجربة الاقتراب من الموت. وهي تسكب في صحنيهما مهروسة البروكولي، قالت متفكّرة:

- ما عليك البدء به هو ابتكار بروتوكول اختباري. عليك أن تُجري اختباراً يُجيب على السؤال التالي: «أجب بنعم أو لا، هل هناك شيءٌ ما بعد الموت؟» ماذا لديك من معطيات لكي تتّخذها نقطة انطلاقٍ؟

تنهّد قائلاً:

- معطى وحيد، لكنّه مهمّ للغاية. الرئيس مقتنع بأنّه قد عاش تجربة الاقتراب من الموت!

وككلّ مرّة، طمأنته وأراحته:

- كن إيجابياً. لتحقيق النجاح، يجب أن تكون مقتنعاً مسبقاً بالنصر.

قال متشكّياً:

- ولكن لا يُمكن أن يُطلب منّي أن أقتنع بتجربة الاقتراب من الموت. سيكون هذا تجاهلاً لكلّ ما رُسِّخَ في ذهني في كلية العلوم!

قطعت تذمّره:

- أنت لم تعد عالماً، أنت رجل سياسة. فكّر إذاً كرجل سياسة، وإلّا فلن نتخلّص من هذا الأمر أبداً. ما الذي قاله رئيسك، إذاً؟

- إنّه يؤكّد على أنّه قد رأى «قارة مذهلة»...

- «قارة مذهلة»؟

قالت جيل، مقطّبةً حاجبيها:

- هذا غريب، هذه بالضبط نفس الكلمات التي استخدمها البحّارة الأوروبيون الأوائل حينما اكتشفوا القارة التي ولدتُ فيها: أستراليا!

سأل وهو يسكب كأساً من النبيذ:

– وما العلاقة بينهما؟

– لقد أعطيتُكَ قارةً جديدة لتقوم باكتشافها. عليك إذاً أن تتبنّى الحالة الذهنية لروّاد القرن السادس عشر. كانوا يجهلون أنّ هناك أرضاً في شرق إندونيسيا. والذين سيؤكّدون ذلك، سوف يُعتبَرون مجانين لطفاء تماماً مثلما تعتبرُ أنت تصريحات الرئيس خرافات وترّهات.

– مع ذلك، كانت هناك قارة ملموسة بالفعل، فيها مروجٌ، وأشجارٌ، وحيوانات، ومواطنون أصليون!

– من السهل قول هذا الكلام في القرن الحادي والعشرين، ولكن هل يمكنك أن تتخيّل ذلك، في تلك الحقبة؟ كان الحديث عن أراضٍ جنوبية أيضاً أمراً غريباً تماماً مثل الحديث اليوم عن وجود قارة فيما بعد الموت.

لو أنّه لم يحرص كثيراً على أن يحافظ على صفاء ذهنه، لأفرغ ميركاسيه بطيب خاطر كلّ قارورة نبيذ بورغوي. سنة سعيدة، أيضاً. تابعت جيل تعليلها:

– ضع نفسك في موقع وزيرٍ من تلك الحقبة. وخلال رحلة بحرية، غرقت السفينة بملكك وتخيّل أنّه قد رأى «قارة مذهلة». ثمّ أُنقِذَ من قبل سفينة أخرى من أسطوله البحري قبل أن يتمكّن من التقدّم في تلك القارة، ولكن، حالما عاد إلى عاصمته، أمر وزيره للمواصلات أن يقوم بما هو ضروري لكي يعرف المزيد حول الجزيرة الغامضة.

ومن هذا المنظور، بالطبع... ألحّت جيل ميركاسيه:

– ليس عليك سوى أن تسمّي بلد الموتى خاصّتك «أستراليا الجديدة» وأن تتبنّى بعد ذلك ذهنية مستكشف. التحدّي جديرٌ بحداثتنا. وتتخيّل، في القرن الحادي والثلاثين، أناس يقولون ساخرين: «هذا وهؤلاء المتخلّفون يجهلون كلّ شيء عن قارة الموتى!» في عام 3000، سيكون هناك أيضاً رئيسٌ لكي يذهب إلى أبعد من ذلك، ربّما العودة بالزمن. والوزير المكلّف بالمهمّة سوف يحسد ميركاسيه القديم هذا الذي كان قد تلقى، هو، مهمّةً أداؤها أسهل بكثير: فقط زيارة بلد الموتى...

كانت زوجته مقنعة كثيراً إلى درجة أنّ بينوا لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسأل:

- ولكن هل أنتِ تؤمنين بالفعل بقارة الموتى هذه؟

- وما أهمية ذلك؟ ما أعرفه هو أنّه لو كنتُ زوجة وزير المواصلات في القرن السادس عشر، لنصحته بأن يستأجر سفناً ويذهب للتحقّق إن كانت هناك أستراليا. على أيّ حال، سوف تكون إمّا الرجل الذي اكتشف هذه القارة المجهولة، وإمّا الذي سوف يُثبت وجودها. وفي الحالتين، ستكون أنت الرابح.

أمسكت جيل، بدورها، بقارورة النبيذ.

محدّقاً في مهروستها الخضراء، قال زوجها، متذمّراً:

- ممتاز، ولكن أيّ سفينة تُرسَلُ إلى مكان كهذا؟

أفرغت كأسها من النبيذ في جرعةٍ واحدة:

- نعود إذاً إلى مشكلة البروتوكول الاختباري. هل تُريد بعض السلطة؟

كلا. لم يعد جائعاً. لقد سدّت همومُه شهيّته. ولم تكن تلك حالة جيل التي راحت وجلبت من المطبخ زبدية خسّ وطماطم. بعد أن أصبحت في وضعٍ مريح، جلست من جديد وهي تلخّص فكرتها:

- حسناً، لقد اتّفقنا على أن نسمّي قارتك الجديدة «أستراليا الجديدة». ومنْ أُرسل لكي يستعمر أستراليا؟ سجناء محكومون بالأشغال الشاقّة وبعض سجناء الحقّ العام. وأسوأ فئات المارقين. ولماذا هم، بالتحديد؟

هنا، وجد ميركاسيه نفسه في أحسن حالاته.

- لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ أستراليا قد تكون بلداً خطيراً وأنّه من الأفضل عدم إرسال أشخاص سوف تشكّل خسارتهم نقصاً بالنسبة إلى المجتمع.

شعّ وجهه كلّما تحدّث. وكما العادة، لم تكن جيل قد أخطأت. لقد قدّمت له حلّاً.

- بينوا، لقد وجدت أيّ بحّارة سوف يغادرون للانقضاض على قارتك الجديدة. في الوقت الحالي، يجب تزويدهم بقبطان.

ابتسم وزير البحث العلمي، وقد هدأ:

- في هذا الشأن، لديّ فكرتي!

36. ميثولوجيا الأزتيك

عند شعب الأزتيك، ليست المزايا المكتسبة خلال الحياة على الأرض هي التي تحدّد الوجود في العالم الآخر، بل المزايا التي أحاطت بالموت.

إنّ أفضل طريقة للوفاة هي الموت أثناء المعركة. إنّها تقود كانتيكا (رفاق النسر) إلى تينوتشتيتلان، الفردوس الشرقي حيث سيستقرّ المتوفى إلى جانب إله الحرب.

أمّا الوفاة من جرّاء الغرق أو بسبب مرضٍ مرتبطٍ بالماء (مثل الجذام) فيتسبّب برحلةٍ نحو تلالوكان، حيث الفردوس الأرضي، فردوس تلالوك، إله المطر.

أمّا الذين لا يتعرّف إليهم أيٌّ من الآلهة، فيذهبون إلى ميكتلان، وهي الطبقة الدنيا للعالم السفلي حيث يقع الجحيم، وفيها يخضعون لأربع سنوات من المحن قبل الانحلال النهائي.

وهنا مجالُ ميكتلانتيكويتلي، أي العالم السفلي. يُدخَلُ إليه عبر كهوفٍ. يتعيّن على الروح أن تقضي ثمانية أيام في العالم السفلي قبل أن يبلغ العالم التاسع.

العقبة الأولى: شيكناهوابان، جدول ماء ينبغي على الميّت أن يعبره ممسكاً بذيلِ كلبٍ أصهب ضُحي به مسبقاً على قبره. الحيوانات التي يُضحّى بها أثناء مراسم التشييع تعمل مرشدة للأرواح، أي أنّها تُرشد الروح عبر بلاد الموتى.

العقبة الثانية: جبلان يصطدمان بعضهما ببعض بفواصل زمنية غير منتظمة.

العقبة الثالثة: تسلّق جبلٍ ذي مسالك شديدة الانحدار مغطّاة بحصى مدبّبة.

العقبة الرابعة: التعرّض لريحٍ بحجارة السُبَج، وهي عاصفة تحمل حجارة سوداء كريمة مدبّبة.

العقبة الخامسة: العبور من بين أعلامٍ عملاقة تخفق بالرياح على مدّ البصر.

العقبة السادسة: التعرّض لإطلاق سهامٍ تحاول أن تخترق المتوفى.

العقبة السابعة: هجومٌ واسع لحيوانات مفترسة ترغب في التهام قلبه.

العقبة الثامنة: ممرٌّ ضيّق يكون الميّتُ معرّضاً لخطر الضياع فيه.

وأخيراً، استحقّ الوصول إلى الانحلال.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

37. في الوقت المناسب

اتّصل بي راؤول رازورباك بعد بضعة أسابيع. كان مستعجلاً للقائي. كان صوته غريباً وبدا أنّه في مهبّ انفعالٍ شديد. لمرّة واحدة، حدّد لي موعداً ليس في مقبرة بير لاشيز، وإنّما في شقّته.

بالكاد تعرّفتُ عليه عندما فتح لي الباب، إذ وجدته وقد ازداد نحولاً وظهر على وجهه التعبير الذي أعرف أنّه يظهر عادة على وجوه المُصابين بالانفصام في الشخصية، المودعين في المستشفى الذي أعمل فيه.

- آه! مايكل، أخيراً!

أشار لي إلى أريكة وهو ينصحني بأن أستقرّ فيها براحةٍ. وسوف يفاجئني العرض الذي قدّمه لي. تُرى أيكون قد حصل على نتائج غير متوقّعة في أبحاثه حول سُبات المراميط؟ ولكن في ماذا تعنيني نتائجه هذه؟ فأنا طبيب، ولستُ عالم أحياء.

- هل سمعت بالهجوم الذي تعرّض له الرئيس لوسينديير؟

بالطبع كنتُ قد سمعتُ به. ليس هناك أحدٌ في البلاد لم يسمع به. فقد جعلت منه الصحافة وقنوات التلفزة ومحطّات الإذاعة العناوين الرئيسية لنشراتها. كان رئيس دولتنا قد تعرّض لإطلاق نارٍ من مسافة قريبة وسط

حشودٍ جماهيرية في فيرساي. وقد أنقذه من الخطر أمهر الاختصاصيين في اللحظة الأخيرة. وما علاقة هذا الحادث بانفعال صديقي وتوتّره؟

- بدءاً من اليوم التالي للحادث، كلّف الرئيس لوسيندير وزيره للبحث العلمي بـ ...

توقّف فجأةً، وأمسك بيدي، قائلاً:

- اتبعني.

38. كتاب التاريخ المدرسي

أُجريت أولى عمليات نقل الأعضاء بين الكائنات الحية نحو أواسط القرن العشرين، وعلى نحوٍ أكثر تحديداً في أعوام الستينيات والسبعينيات منه. ومنذ ذلك الحين، بات الإنسان المريض مثل سيارة يكفي تبديل قطع غيارها. ومن جرّاء ذلك، اتّخذ الموت هيئة حادث ميكانيكي بسيط. وإذا ما حدثت الوفاة، فهذا بسبب انعدام قطع الغيار المناسبة والكافية. ابتكر باحثون قلب خنزير مزوّداً بخصائص جينية متوافقة مع الأوعية البشرية التي سوف يُزرَع فيها. تسمح التقنيات المستخدمة بتحمّل أعضاء غريبة جرى تحسينها باستمرار. كلّ شيء بات قابلاً للاستبدال، عدا الدماغ. ولأكثر من مرّة!

بات من المنطقي التفكير بأنّه سيأتي يوم يتمّ التوصّل فيه إلى التغلّب على كلّ الأعطال، بما في ذلك العطل الأوّل: الموت. لم يكن هذا سوى مسألة تكنولوجيا. وفي الوقت نفسه، طالت مدّة الحياة. وغدت مظاهر الشيخوخة مرادفة للإهمال. وبات على كلّ شخصٍ أن يحافظ جيّداً على آليته البيولوجية.

أخفوا المسنّين الذين تغزوهم التجاعيد أو ذوي المظهر المثير لشيءٍ من التَقزّز لكي يعرضوا على نحوٍ أفضل أولئك الذين يُمارسون، بوجوهٍ مشرقة، رياضة التنس أو سباق المشي. في تلك الفترة، كان الاعتقاد هو أنّ أفضل طريقة للكفاح ضدّ الموت هي تمويه أعراضه المبكرة.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصف الثاني.

39. آماندين

دفعني صديقي راؤول إلى سيارته القديمة من طراز رينو 20 المكشوفة وأقلع مسرعاً.

- إلى أين تأخذني؟

- إلى هناك حيث يحدث كلّ شيء.

لم أستطع أن أعرف المزيد منه. حملت الريح أسئلتي كما حملت أجوبته. وعلى أيّ حال، خرجنا من باريس. ارتجفتُ عندما أبطأ سرعة السيارة أخيراً أمام لوحة كئيبة ومشؤومة: «سجن فلوري ميروغيس».

من الخارج، كان المكان يشبه مدينة صغيرة أو مستشفى أكثر من أن يكون سجناً. أوقف راؤول السيارة في موقف السيارات المجاور للسجن، وسحبني نحو المدخل. أظهر موافقةً بالدخول، وأبرزتُ بطاقتي الشخصية. عبرنا حُجرةً فاصلة، وسلكنا ممرّاً طويلاً، وطرقنا باباً.

فتح رجلٌ مستاء ومنزعج لنا الباب. وقد ازدادت ملامح وجهه عبوساً لرؤية رازورباك، الذي كان من جهته مبتسماً ومنشرحاً جدّاً.

- تحيّاتي، السيّد المدير. يطيب لي أن أقدّم لك الدكتور مايكل بينسون. سيكون عليك أن تمنحه إذن مرور في أقرب وقتٍ ممكن. وشكراً لك مسبقاً.

وقبل أن يتمكّن الطبيب من الردّ، كنّا قد أصبحنا في الممرّات الجديدة. أحسستُ بأنّ الحرّاس الذين صادفناهم ينظرون إلينا نظرة سيّئة.

وجدنا أنفسنا في باحةٍ. كنا في وسط المدينة الصغيرة - السجن. كان السجن كبيراً جدّاً، ويشغل مساحة واسعة، ويتكوّنِ من خمس كتل من الأبنية التي تمتدّ على مدّ النظر، وتحتوي كلّ واحدة منها في وسطها على ملعبٍ لكرة القدم. شرح لي راؤول أنّ المعتقلين يمارسون الرياضة على نطاقٍ واسع، ولكنّهم في هذه الساعة، لا يزالون محتجزين في زنازينهم.

وكان ذلك لحسن حظّنا، لأنّه بدا لي أنّ الكثيرين غاضبون من حضورنا. كانوا، وهم متشبّثون بالقضبان الحديدية للطابق الأوّل، يصرخون غاضبين:

- قاذورات، أوغاد، سوف نقتلكم!

وبدا واضحاً للعيان أنّ الحرّاس لا يبدون أيّ حماسة في إسكاتهم.

تميّز صوتٌ من بين أصواتهم:

– نحن نعلم ما الذي تصنعونه في المبني (دال اثنان). إنّ أناساً مثلكم لا يستحقون الحياة!

بدأتُ أشعر بالقلق. تُرى ما الذي فعله صديقي راؤول، الذي ظلّ يواصل طريقه غير آبهٍ، حتى يجعل هؤلاء الرجال في هذه الحالة من الحنق الشديد؟ كنتُ أعلم كم تستطيع أهواؤه أن تسحبه بعيداً، بعيداً جدّاً، حتى إلى أبعد ما يمكن عن أيّ منطق.

المبنى (دال اثنان). تبعتُ صديقي المنبوذ ليس رغبةً في معرفة المزيد بقدر ما كان حرصاً على ألّا أبقى وحدي، بين سجناء غاضبين وحرّاس هم أيضاً في غاية العدوانية. سلكنا المزيد من الممرّات وواجهنا الكثير من الأبواب الحديدية السميكة التي فُتِحَت أمامنا. ثمّ نزلنا سلالم، وسلالم أخرى.

تملّكني إحساسٌ بأننا ننزل إلى الجحيم. من الأسفل، كانت تأتي أصوات ضحكاتٍ عالية ممزوجة بأنينٍ حادّ وطويل. تُرى هل يحتجزون مجانين هنا؟

نزلنا أكثر فأكثر، وغرقنا في الظلام أكثر فأكثر، ففكّرتُ في الطريقة التي ابتكرها إيسكولاب لمعالجة الجنون. فقبل الآن بأكثر من ثلاثة آلاف سنة، في مرفقٍ صحّي يُدعى إيسكلابيون، ولا يزال بوسعنا أن نرى أنقاضه في تركيا، كان هذا الرائد في الطب النفسي قد أنشأ متاهةً من الأنفاق المظلمة. وبعد انتظارٍ طويل، يكون خلاله قد تمّ تهويتها بأفضل ما يكون، يتمّ إدخال المختلين عقلياً إليها. تُسمع أغان بدءاً من المدخل، وكلّما تقدّم المختلّ عقلياً في المتاهة، أصبحت الأغاني رخيمة وشجيّة أكثر. حينما يتوقّف المجنون، منبهراً، في المكان الأكثر عتمةً، يُصبّ عليه برميلٌ مليءٌ بثعابين لزجة يسقط التعيس تحتها، متفاجئاً عند ذروة السعادة. فإمّا أن يموت في الحال من الذعر، وإمّا يخرج وقد تَعافى تماماً. في الواقع، كان إيسكولاب قد ابتكر الصدمة الكهربائية.

أمّا أنا، وأنا أسير على غير هدى في أقبية سجن فلوري ميروغيس، فقد كنتُ أتساءل متى سأتلقّى برميلي من الزواحف المجمّدة.

كان ذلك بينما أخرج راؤول مفتاحاً صدئاً فتح باباً ضخماً محكم

الإغلاق. اكتشفتُ خلفه عنبراً واسعاً على هيئة كفرناحوم لشدّة ما كانت الفوضى فيه عارمة. كان هناك ثلاثة رجال يرتدون بزّات رياضية، وامرأة شابّة شقراء، ترتدي بلوزةً سوداء، أعطتني الانطباع أنّني رأيتها سابقاً. نهض الرجال وألقوا التحية باحترامٍ على صديقي.

قال راؤول:

– أقدّم لكم الدكتور مايكل، الذي سبق أن حدّثتكم عنه.

صاحوا بصوتٍ واحد:

– شكراً على مجيئك، يا دكتور.

تابع راؤول:

– الآنسة بالوس، ممرّضتنا.

صافحتُ الفتاة ولاحظتُ أنّها كانت تمعن النظر فيّ.

لا بدّ أنّ المكان كان عبارة عن محجرٍ صحّي مهجور. إلى يميني، كانت منضدة المختبر مليئة بالقوارير التي يتصاعد منها دخانٌ، لا شكّ أنّه من الأزوت السائل. في وسط الحجرة، كان يتربّع كرسيٌّ قديم لطبيب أسنان، ممزّق في بعض الأماكن منه، محاطٌ بآلات مكتظّة بأشرطة كهربائية متعرجة ومتشابكة وبشاشات وامضة.

كان المكان بكلّ ما فيه أشبه بورشة حرفي قليل الخبرة. لدى رؤية حالة الأجهزة والمفاتيح والأزرار والمقابض والعتلات الصدئة، تساءلتُ في نفسي إن كان راؤول قد قام بتنظيف حاويات الجامعات ولمّ ما فيها من أدوات وأجهزة تالفة. كانت شاشات أجهزة رسم الذبذبات متكسّرة، والأقطاب الكهربائية لأجهزة تخطيط القلب مسودّة بسبب قدمها.

مع ذلك، كانت لديّ أنا بنفسي غالباً عادة اللجوء إلى المختبرات لكي أعرف أنّ الرؤية المعصومة والطاهرة التي تعطيها على الدوام الأفلام عنها هي بشكل عام خاطئة. في الواقع، لم تكن هناك لا طاولات المختبرات المصنوعة من النيكل ولا ملابس العمل الخارجة للتوّ من المغسلة، وإنّما بالأحرى هناك بعض الرجال المرتدين لبلوزات متآكلة في مبانٍ مؤقّتة.

إنّ صديقاً عاملاً حول موضوعٍ بنفس أهمية مسار الفكرة، عبر تعرّجات الدماغ، لم يكن له من ملاذٍ سوى مرأبٍ يقع في أقبية مستشفى بيشات حيث يتصادم كلّ شيء عند كلّ ضجيجٍ ناجمٍ عن مرور مترو الأنفاق. ولانعدام الاعتمادات المالية، لم يستطع الحصول على دعامة معدنية لجهاز استقبال الموجات الدماغية خاصّته ولذلك عزم على إعداد آلة من خشب، تمّ لصقها باستخدام مادة لاصقة وتدعيمها بمسامير تثبيت. هذا صحيح، حتى في فرنسا، لم يعد البحث العلمي كما كان.

قال لي راؤول وهو ينتزعني من أفكاري التي كنتُ غارقاً فيها:

- عزيزي مايكل، هنا تجري أكثر تجارب جيلنا جرأةً. فيما مضى، وأنت تعلم ذلك، كنّا نتحدّث عن الموت خلال لقاءاتنا في مقبرة بير لاشيز. وكنتُ أتحدّث عنه آنذاك مثل قارة غير مكتشفة. أما الآن، هنا، فنحن نحاول أن نزرع فيه أعلاماً.

لقد قضي الأمر. فقد سقط برميل الثعابين فوق رأسي. كان راؤول، راؤول رازورباك، صديقي الأقرب والأقدم، قد أصبح مجنوناً. ها هو قد انكبّ على تجاربِ حول الموت! ولأنني بقيتُ مذهولاً مثل الأبله، شرح لي:

- لقد عاش الرئيس لوسيندير تجربة الاقتراب من الموت بمناسبة الهجوم الجديد عليه في فيرساي. ولذلك، فقد كلّف بينوا ميركاسيه، وزير البحث العلمي في حكومته، بإطلاق برنامج دراسات حول ماورائيات الغيبوبة. وقد تبيّن أنّ هذا الأخير كان قد قرأ في المجلّات العالمية مقالاتي حول «إجراء عمليات السُبات الاصطناعي المكثّفة للمراميط»، فاتّصل بي وسألني إن كان بوسعي أن أُجري تجارب مماثلة على البشر. سارعتُ إلى انتهاز الفرصة. إذ ربّما تكون مراميطي قد أصبحت جزءاً من عالمٍ آخر، ولكنّها غير قادرة على أن تروي لي ما كانت قد رأت فيه. أمّا البشر، فسوف يعرفون ذلك. نعم، يا عزيزي، لقد حصلتُ على الضوء الأخضر من الحكومة لكي أقوم بأبحاثٍ حول تجارب الاقتراب من الموت، بمساعدة متطوّعين، هم سجناء لارتكابهم جرائم جنائية عادية. هؤلاء السادة ليسوا طيّاري العالم الآخر. إنّهم همم...

فكّر لبرهةٍ كما لو أنّه يبحث عن إلهامٍ.

– إنّهم...

ثمّ شعّ وجهه، وقال:

– إنّهم ثا – نا – تو – نوتس. من اليونانية، ثاناتو، التي تعني الموت، ونوتس، التي تعني مستكشف. إنّهم مستكشفو الموت. إنّها كلمة جميلة في الواقع. ثاناتونوت.

كرّر الكلمة مرّة أخرى، وأردف:

– ثاناتونوت: إذاً، هي كلمة من نفس عائلة كوسمونوت أو أسترونوت. سوف يغدو هذا الاسم التسمية الشاملة المرجعية. لقد ابتكرنا أخيراً *المصطلح*. نحن نستخدم ثاناتونوتس لكي نجري بحثاً ثا – نا – تو – نوتياً.

كان يُصغي وحده، إلى حماسته التي أبداها بافتتان.

– في المحصّلة، عنبرنا هو محطّة إطلاق مستكشفي الموت، حيث من هنا ينطلق... مستكشفونا.

لقد وُلِدَت مفردة جديدة للتوّ في أعماق سجن فلوري ميروغيس هذا. وكان راؤول سعيداً بذلك. أحضرت الشابّة الشقراء قارورة من الشمبانيا وبعض البسكويت الجافّ. شرب الجميع نخب هذا التعميد. وحدي بقيتُ مكتئباً، ورفضتُ الكأس الذي مدّه راؤول نحوي.

– اعذرني. لا أرغب في أن أُفسد عليك متعتك ولكنني إذا ما فهمتُ على نحوٍ صحيح، هنا، يتمّ اللعب مع الحياة. لدى هؤلاء الرجال مهمّة الانطلاق في غزو بلاد الموتى، هل هذا صحيح؟

– هذا صحيح، يا مايكل. شيءٌ مذهل، أليس كذلك؟

قلت:

– ويا له من تحدٍّ رائع بالنسبة إلى جيلنا والأجيال القادمة: استكشاف العالم الآخر.

ثم أردفت بهدوء:

– راؤول، يا سيّدتي، يا سادة، أرى أنّه لزامٌ عليّ أن أغادركم. ليس عليّ سوى أن أعدّ انتحاريين، سواءً تمتّعوا أم لم يتمتّعوا بدعم حكومتهم. وبهذا، أودّعكم.

كنتُ أتوجّه بسرعة نحو المخرج عندما أمسكت الممرّضة بذراعي. وللمرّة الأولى، سمعتُ نبرة صوتها.

- انتظر، نحن بحاجةٍ إليك.

لم تكن تتوسّل إليّ، بل تستخدم نبرةً باردة تكاد تكون لامبالية. النبرة التي كانت لا بدّ أنّها تستخدمها في ممارسة مهنتها لكي تطالب بقطنٍ معقّم أو مبضعٍ طرفه من الكروم.

التقت نظرتي بنظرتها، فوجدتُ أنّ لعينيها لوناً نادراً: أزرق بحري مع القليل من اللون الصوفي في المركز، وحدقة شبيهة بجزيرة تائهة في محيطٍ. وغرقتُ فيها في الحال كما لو أنني أغرق في هاوية ظلماء.

أمّا هي، فقد واصلت التحديق فيّ، دون أن تبتسم لي، ودون كياسة فعلية. كما لو أنّها بمجرّد حديثها إليّ تقدّم لي أكبر التنازلات. تراجعتُ، وأسرعتُ بالفرار من هذا المكان المميت.

40. استمارة شرطة

طلب معلومات وصفية أساسية

الكنية: بالوس

الاسم: آماندين

- لون الشعر: أشقر
- لون العينين: أزرق بحري
- الطول: 169 سم
- علامات فارقة: لا توجد
- ملاحظات: رائدة الحركة الثاناتونوتية
- نقطة الضعف: مولعة بالجنس

41. ميثولوجيا أمازونية

لقد سبق أن قرّر المبدأ الخلّاق للعالم أن يجعل البشر خالدين: «اذهبوا

إلى ضفاف النهر. سوف ترون أنّ ثلاثة زوارق تسير متتابعة في مياهه. لا توقفوا الزورقين الأوّلين، بل انتظروا الثالث وعانقوا الروح التي سوف تجدونها فيه».

أمام الزورق الأوّل، المملوء باللحم الفاسد المغطّى بالحشرات والفائح بالروائح المثيرة للغثيان، يتراجع الهنود، مشمئزين. ولكن حينما ظهر الزورق الثاني، رأوا ميّتاً ذا هيئة بشرية واندفعوا مسرعين نحوه لكي يواسوه، ولكن كان قد فات الأوان عندما ظهرت روح المبدأ الخلّاق في الزورق الثالث. لقد تبيّن بذعر أنّ البشر كانوا قد عانقوا الموت. إذاً فقد اتّخذوا خيارهم.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

42. انزلاقٌ تدريجي نحو الجريمة

خلال ما يُقارب أسبوعين، لم أسمع أيّ خبر عن صديقي السابق، البروفيسور رازورباك وعن ثاناتو - آلية خاصّته. أعترف بأنني كنتُ محبطاً للغاية. لقد نجح راؤول، قدوتي في سنّ الشباب، في تحقيق تصوّراته التخيّلية الخادعة وأنا كنتُ مشمئزاً من ذلك. بل وصل بي الأمر إلى حدّ أنني فكّرتُ في إخبار الشرطة عنه. فإذا كان يجري تجارب «قاتلة» على فئران تجارب بشرية، كان يجب توقيفه لمنعه من إلحاق الأذى بالآخرين.

ولكنني امتنعت عن ذلك باسم صداقتنا القديمة. وكرّرتُ على نفسي أنّه إذا كان قد حصل على مساندة رئيس الدولة، مثلما زَعَم، فذلك لأنّه سيكون قد قدّم ضمانات كافية ومناسبة.

لقد قالت الممرّضة الشابّة: «نحن بحاجةٍ إليك». وقد ظلّت هذه الجملة تطاردني. في ماذا عساهم أن يحتاجوا إليّ في سبيل قتل الناس؟ يكفي القليل من مادّة السيانيد أو سمّ الفئران وينتهي الأمر! أمّا أنا، فقد أقسمتُ قسم أبقراط وأحد القوانين الرئيسية لمهنتي هي إنقاذ حياة الناس، لا تقصير أمدها.

حينما عاود راؤول الاتصال بي، أردتُ أن أخبره أنّني أتمنى ألا أعود أسمع عنه ولا عن تجاربه، ولكن شيئاً ما منعني عن ذلك، ربّما صداقتنا القديمة، وربّما كلمات الممرّضة التي كانت لا تزال ترنّ في أذنيّ.

زارني في شقّتي الصغيرة. بدا أنّه قد شاخ أكثر وبانت عصبيته في نظرته. من المؤكّد أنّه لم يكن قد نام منذ عدّة أيام. أشعل في سلسلةٍ متتالية سجائر رفيعة ملفوفة من ورق الأوكاليبتوس تُسمى «بيدي»، كان ينفثها في بضع نفثات.

– مايكل، لا تحكم عليّ.

– أنا لا أحكم عليك. أحاول أن أفهمك، ولكنني أفهمك.

– لا أهمية للفرد رازورباك. ما يهمّ هو المشروع. إنّه يتخطّى الكائنات. وهو تحدّ على مستوى جيلنا. أنا أصدمك، ولكن كلّ السبّاقين من الأسلاف اعتُبِروا صادمين من قبل معاصريهم. رابليه، الكاتب المرح رابليه كان يذهب في الليل إلى المقابر لكي يستخرج الجثث ويدرس تشريحها بغية تطوير الطبّ. في تلك الحقبة، كانت تصرّفات كتلك تُعدُّ جريمة. ولكن بفضله هو تمّ لاحقاً فهم الدورة الدموية، و أُنقِذَت حيوات بفضل عمليات نقل الدم. مايكل، لو أنّك عشت آنذاك، وإذا طلب منك رابليه أن تساعده في رحلاته الاستكشافية الليلية، بماذا كنتَ ستُجيب؟

وازنتُ في ذهني السؤال. وأخيراً، أجبت:

– كنتُ سأقول إنّني موافق. كنتُ سأوافق، لأنّ... زبائنه كانوا بالأصل موتى. ولكن فئران التجارب خاصّتك، يا راؤول، لأنّ مستكشفيك ليسوا سوى فئران تجارب، هم أحياء! وكلّ مناوراتك ليس لها من هدفٍ سوى نقلهم من الحياة إلى الموت، هل أنا مخطئ؟ نعم أم لا؟

تلاعب راؤول بولّاعته بيديه الطويلتين المضطربتين. لم يصدر عنها أيّ لهب. إمّا أنّه كان يرتعش كثيراً بحيث لم يستطع أن يُدير اللولب، أو أنّ حجر الصوان كان تالفاً.

قال، وهو يضبط نفسه:

– لستَ مخطئاً. حينما بدأنا بهذا المشروع، كان لدينا خمسة مستكشفين وكان اثنان منهم قد ماتوا. وقد ماتا بغباء، لأنني ببساطة لم أكن طبيباً ولم أُحسن إنعاشهما. أنا أعرف كيف أضع المراميط في حالة سُبات، ومن ثمّ أُعيدها إلى الحياة، أمّا فيما يتعلّق بالكائنات البشرية، فلستُ قادراً على ذلك. لا أعرف كيف أضبط كمية الجرعات من المواد المخدّرة. ولذلك، وبغية

وضع حدٍّ لهذه الخسارة في الأرواح، اتصلتُ بكَ مستنجداً بك وبعقلك الخلّاق والعبقري في آنٍ واحدٍ.

ناولته أعواد ثقابٍ.

- إنّ تخدير الناس هو بكلّ تأكيد مهنتي. لكنّ وضعهم في حالة غيبوبة هو أمرٌ مختلف تماماً.

نهض من مكانه وراح يسير في الحجرة جيئة وذهاباً.

- فكّر. ابتكر! أنا في حاجةٍ إليك، يا مايكل. لقد أكّدت لي ذات يوم أنني سأستطيع على الدوام أن أعتمد عليك. حسناً، لقد جاء ذلك اليوم. أنا في حاجةٍ إليك، يا مايكل، وأنا أطلب مساعدتك.

بالطبع كنتُ أرغب في أن أساعده، كما في الماضي. هو وأنا ضدّ الأغبياء. ولكن هذه المرّة، لم يكن هناك أغبياء في مواجهتنا. كان الأمر يتعلّق بمواجهة شيءٍ باردٍ ومجهول يُدعى الموت. كان يكفي ذكره، حتى يرسم الناس إشارة الصليب. وهو كان يرسل المساكين البائسين الذين وثقوا به إلى العالم الآخر، بمحض الفضول. من أجل تسوية مشاكله مع والده. لكي يُرضي غروره في استكشاف عالمٍ جديد. كان راؤول، «صديقي راؤول»، يقتل الناس الذين لم يؤذوه في شيء... يقتلهم باسم العلم. كان كلّ شيء في داخلي يصرخ «مجنون!».

نظر إليّ بعطف أخٍ كبير لأخيه الأصغر.

- هل تعرف هذا المثل الصيني: «من يطرح سؤالاً يجازف بأن يبدو أحمقاً مدّة خمس دقائق، أمّا الذي لا يطرح أسئلة، فسوف يبقى أحمقاً طيلة حياته»؟

بقيتُ أجادله بمنطقه:

- هناك جملة عبرية أكثر شهرةً من تلك: «لا تقتل قريبك». هذه واحدة من الوصايا العشر. نجدها مكتوبةً في الكتاب المقدّس.

قطع سيره في الحجرة لكي يُمسك بمعصميّ بحزم. كانت يداه الشبيهتان بالعنكبوت فاترتين ورطبتين. ثبّت نظرة عينيه في عينيّ لكي يُقنعني على نحوٍ أفضل.

– كان يجب أن تُضاف وصية حادية عشرة: «لا تمت جاهلاً». خمسة، عشرة، خمسون شخصاً ربّما سيقضون في ذلك، وأنا أقبل به. ولكن يا له من رهان! إذا ما نجحنا، سوف نعرف أخيراً ما هو الموت وسوف يكفّ الناس عن الخوف من أن يموتوا. كلّ هؤلاء الرجال المرتدين لألبسة رياضية والذين رأيتهم في مختبرنا هم سجناء، كما تعلم، وهم جميعاً متطوّعون. لقد اخترتهم بدقّة. ولهم جميعاً صفة مشتركة: لقد حُكِمَ عليهم جميعاً بالسجن المؤبّد وقد كتبوا إلى الرئيس يُطالبون بإعادة العمل بحكم الإعدام بدل أن يتعفّنوا مدى الحياة في السجن. وقد تناقشتُ مع ما يُقارب خمسين شخصاً من بين هؤلاء المنهكين. وقد احتفظتُ بالذين بدوا لي صادقين في رغبتهم في التخلّي عن الحياة لشدّة ما ينفرون من مصيرهم المشؤوم. لقد تحدّثتُ معهم عن مشروع «الفردوس». وقد تحمّسوا له مباشرةً أشدّ الحماسة.

قلتُ وأنا أهزّ كتفيّ:

– لأنّك خدعتهم. هؤلاء ليسوا علماء، وهم يجهلون أنّ هناك احتمالاً بنسبة 99.999% أن يفقدوا حياتهم خلال تجاربك الصغيرة. هم أيضاً يخافون الموت، حتى وإن أكّدوا عكس ذلك. في اللحظة الحاسمة، الجميع يخافون!

أمسك بيدي على نحوٍ أكثر حزماً. لقد أوجعني ولكنّه تجاهل محاولاتي للإفلات منه.

– لم أخدعهم. لم أخدعهم على الإطلاق. إنّهم يعرفون كلّ المخاطر التي يتعرّضون لها، ويعلمون أنّ الكثيرين منهم سوف يموتون قبل أن ينجح أحدٌ ما في يومٍ ما في العودة بعد أن يعيش تجربة الاقتراب من الموت التي خضعوا لها طَواعيةً. وهذا الذي سينجو بعد خوض التجربة سوف يكون رائداً حقيقياً. وسوف يُنجز الخطوة الأولى في غزو عالم الموتى. في الواقع، هذهَ المسألة تشبه عملية سحب اليانصيب، يكون هناك الكثير من الخاسرين ليكون هناك رابحٌ واحد...

عاد وجلس في مكانه، وأمسك بزجاجة الويسكي التي كنتُ قد وضعتها مع بعض الأكواب فوق طاولتي المنخفضة وصبّ لنفسه كأساً وارتشف منها

رشفةً. وباستخدام أعواد الثقاب التي قدّمتها له، أشعل من جديد واحدة من سجائره الرفيعة المسمّاة بيدي. ثمّ قال:

- مايكل، حتى أنت وأنا، سوف نموت ذات يوم، وعندئذٍ، سوف نتساءل عمّا فعلناه في حياتنا. على الأقلّ فلنجرّب أن نقوم بشيءٍ مبتكر! فلنفتح طريقاً، وإذا ما فشلنا، سوف يأتي من يُكمل الدرب من بعدنا. لا تزال الثاناتونوتية في مراحلها الأولى.

أذهلني عناده المفرط وأفزعني.

قلتُ متنهّداً:

- أنت تكلّف نفسك بمهمّة مستحيلة.

- المهمّة المستحيلة، لقد قيلت هذه الجملة لكريستوف كولومبس عندما أكّد أنّه قادرٌ على أن يوقف بيضةً على طرفها.

أفرجتُ عن ابتسامةٍ مريرة.

- في هذا السياق، كان الأمر سهلاً. كان يكفي أن يضرب قاعدة البيضة على الطاولة.

- نعم، ولكنّه اكتشف ذلك في البداية. تفضّل، سوف أُخضعك لمشكلة سوف تبدو لك بكلّ تأكيد بنفس الاستحالة التي كانت عليها مشكلة بيضة كولومبس في عصره.

أخرج من جيب سترته مفكّرة وقلم رصاصٍ.

- هل تستطيع أن ترسم دائرةٍ والنقطة المركزية لمحورها دون أن ترفع قلمك عن الورقة؟

قال بنبرة آمرة:

- افعل نفس الشيء، ولكن من دون أن ترفع قلمك.

- هذا مستحيل وأنت تعرف ذلك جيّداً!

- ليس أكثر صعوبة من إيقاف بيضةٍ على طرفها. وليس أكثر صعوبةً من غزو قارة الموتى.

وأنا أتفحّص الدائرة والنقطة، انتابني عبوسٌ مشوبٌ بالارتباك.

- هل لديك بالفعل حلٌّ لهذا اللغز؟

- نعم، وسوف أُثبت لك ذلك في الحال.

كانت تلك اللحظة التي اختارها أخي العزيز كونراد لكي يظهر دون سابق إنذار في شقّتي. كان الباب مفتوحاً وبالطبع لم يكلّف نفسه عناء الطرق عليه قبل أن يدخل.

قال بمرحٍ:

- مرحباً، يا جماعة!

لم أرغب في أن أواصل هذا النقاش أمام أخي الأهبل. وحاولتُ بصورة نهائية أن أضع حدّاً لهذا الجدل المقرف.

- أنا آسف، يا راؤول، ولكنّ الموضوع الذي تطرحه عليّ لا يهمّني. أمّا بالنسبة إلى مشكلتك، فلا توجد أيّ وسيلة لحلّها، عدا الغشّ.

صاح وهو واثقٌ للغاية بنفسه:

- يا لك من رجلٍ عديم الإيمان!

وضع بطاقة زيارة على الطاولة، وأضاف:

- سوف تجدني على هذا الرقم إذا ما غيّرت رأيك.

وعند هذا السهم الأخير الذي أطلقه عليّ، توارى عن الأنظار دون أن يودّعني.

قال أخي:

- يبدو لي أنني أعرف هذا الشخص.

أردتُ أن أغيّر الموضوع، فقلتُ له مبتهجاً وكما لو كنتُ سعيداً برؤيته:

- إذاً، يا كونراد، إذاً، يا كونراد، ماذا تفعل؟

كان سيُفرط في الحديث عن الموضوع، وكانت كلماته تزعجني مسبقاً. كنتُ أعلم تماماً ما الذي كان يفعله كونراد. كان يعمل في مجال استيراد وتصدير «كلّ ما يمكن حشوه في حاويات النقل». وكان قد اغتنى بعمله هذا. لديه طفلان. ويمتلك سيارة رياضية كورية رائعة. كان يمارس لعبة التنس، ويرتاد الصالونات التي لا شيء فيها سوى الثرثرة ويتّخذ من شريكته عشيقةً.

استعرض كونراد بمتعة وسرور آخر حلقات حياته السعيدة. فقد كان قد اقتنى لوحات فنية فخمة بسعرٍ زهيدٍ، واشترى منزلاً على الشاطئ البريتاني،

وسوف يكون مرّحباً بي فيه في حال رغبتُ في أن أساعده في إعادة ترتيبه. وكان طفلاه متفوّقين في المدرسة. أفرجتُ عن ابتسامة لطيفة، ولكن إذا ما كشف خبرين آخرين سعيدين من هذا النمط، فلن أتمالك رغبتي في توجيه قبضتي إلى وجهه. ليس هناك ما هو أكثر إغاظةً من سعادة الآخرين. خاصّة إذا ما استُخدِمت هذه السعادة كمقياسٍ لفشلك التامّ...

كانت والدتي تتّصل بي هاتفياً ثلاث أو أربع مرّات في الأسبوع، وتقول لي:

- أخبرني، يا مايكل، متى سيكون لديك أنت أيضاً شيء سارّ تُخبرني به؟ لقد آن الأوان لكي تفكّر في تكوين أسرةٍ. انظر إلى كونراد، كم هو سعيد.

لكنّ أمّي لم تكتفِ في الحقيقة بحثّي على الزواج، بل كانت تتصرّف بنفسها نيابةً عنّي. لقد فاجأتها ذات يوم وهي تكتب إعلاناً عن الرغبة في الزواج لتنشره في صحيفة: «طبيبٌ ناجح، وثريّ، وذكيّ، ووسيم وروحاني، يبحث عن امرأةٍ بنفس المستوى». أقصد، هكذا كانت روحية نصّها تقريباً. وقد أُصبتُ بواحدة من نوبات الغضب المُفاجئ تلك!

بينما كنتُ أُركّز على لغز الدائرة ومحورها، واصل كونراد عرض كلّ تفاصيل سعادته. وقد تحدّث بالتفصيل عن كلّ غرفة من غرف مزرعته على الشاطئ البريتاني وشرح كيف أنّه تلاعب بصاحب المنزل من السكان الأصليين وخدعه لكي يقتنيه بربع قيمته.

آه، يا لهذه الابتسامة المُتكبّرة! وكلّما كان يتكلّم أكثر، كنتُ ألمسُ الإحساس بالشفقة في صوته. كان يُفكّر، قائلاً في نفسه «هذا المسكين مايكل، أمضى كلّ هذه السنوات الطويلة في الدراسة لكي يصل إلى هذه الحياة المنعزلة، والحزينة، والبائسة».

وبالفعل لم تكن حياتي في تلك الفترة جيّدة.

كنتُ أعيش وحدي، عازباً، في شقّتي الصغيرة في شارع ريومور. وكانت الوحدة تُثقلُ عليّ أكثر من كلّ شيء، ولم أعد أجد أيّ رضا في عملي. كنتُ أصل صباحاً إلى المستشفى، وأراجع جدول العمليات التي ينبغي إجراؤها، وأقوم بإعداد موادي، وأركّب بعض المحاقن، وأراقب شاشات الأجهزة.

لم أكن قد عرفتُ لحسن الحظّ قط حادثاً بصفتي مخدِّراً ولكن حياتي ككائن أكبر في البلوزة البيضاء كانت بعيدة عن الردّ على جميع وعود مروري القصير السابق على مستشفى سان لويس. لم تكن الممرّضات عاريات الجسد تحت ثياب العمل خاصّتهنّ. كانت بعضهنّ بالتأكيد سهلات المنال ولكنهنّ لم يكنّ يستسلمن إلّا على أمل الزواج بطبيبٍ بهدف التمكّن أخيراً من الكفّ عن العمل.

لم تكن مهنتي تجلب لي في النهاية سوى خيبات الأمل.

لم أكن أتمتّع بتقدير رؤسائي، ولا بتقدير مرؤوسيّ، وكان أقراني يتجاهلونني. لم أكن سوى قطعة مكمّلة، سوى عنصرٍ مزوّد بوظيفة محدّدة بدقّة. يُجلَب لك مريضٌ، فتقوم أنت بتخديره، وأنا أقوم بإجراء عملية جراحية له، وهكذا دواليك. من دون أن يلقي أحدٌ تحية الصباح أو المساء.

ظلّ كونراد يُثرثر، وقلتُ في نفسي إنّه لا بدّ أن يكون هناك شيءٌ آخر غير حياتي الحالية وسعادته المزعومة. كان هناك بالتأكيد بديلٌ في مَكانٍ ما.

وكيف يمكن رسم دائرة ومحورها من دون رفع القلم؟ هذا مستحيل، هذا مستحيل حتماً.

كنتُ تعيساً وكان راؤول قد غـادر، حاملاً معه جنونه، وعاطفته، والمغامرة، وقد تركني في وحدتي وسط مشاعر التقزّز.

على الطاولة المنخفضة، كانت بطاقة الزيارة تلمع مثل سرابٍ. دائرة ومحورها...

هذا مستحيل!

43. فلسفة بوذية

«أيّها الرهبان، ما رأيكم؟ أيّهما أعظم:
مياه المحيطات الواسعة أم الدموع التي ذرفتموها بينما كنتم
تجولون في هذه الرحلة الطويلة، مندفعين بولاداتٍ جديدة
ووفيات جديدة، متّحدين فيما تكرهون،
ومتفرّقين فيما تحبّون؟

هكذا، ولأعمارٍ طويلةٍ، عانيتم العذابات، وسوء الطالع،
والألم، وابتلعتم تربة المقابر،
لزمنٍ طويلٍ يكفي لأن تملّوا من الحياة،
لزمنٍ طويلٍ يكفي لأن تتمنّوا النجاة من كلّ هذا».

خطاب بوذا
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

44. سنصل إلى هناك

احتجتُ إلى عدّة أسابيع إضافية من المبالغات الصغيرة، والإهانات الصغيرة والسأم الذي لا يمكن تقديره لكي أقرّر أن أنقلب إلى جانب راؤول وجنونه.

لقد لعبت الاتصالات الهاتفية المتواصلة لأمّي والزيارات المفاجئة لأخي دوراً كبيراً لمصلحة هذا القرار. أضيفوا إلى ذلك خيبة أملٍ عاطفية خفيفة (كانت زميلةٌ لي في العمل قد رفضتني لتخرج في النهاية مع طبيبٍ غبيٍّ مختصٍّ بأمراض الفم)، حتى لم يكن هناك كتابٌ جيّد ليواسيني، وستفهمون أنّني كنتُ مهيّأً للانضمام إلى العمل في سجن فلوري ميروغيس.

ومع ذلك لم يكن هذا التراكم البائس لخيبات الأمل هو الذي سيحسم خياري، وإنّما سيّدة عجوز متصلّبة تماماً في انتظار عملية جراحية عصبية.

كنتُ هناك، وفي يدي حقنة مخدِّرة، حينما جاءت طبيبة مساعدة لتخبرني أنّ الطبيب الجرّاح ليس حاضراً. كنتُ أعلم ما يعنيه هذا الأمر. كان ذاك المغفّل مستسلماً، بقصد الاسترخاء، لمضاجعة سريعة مع ممرّضته في غرفة تبديل الملابس. وما إن ينتهيا من مطارحة الغرام، حتى أتمكن من أن أخدّر مريضتي لكي يقوم الجرّاح باستئصال الورم من مثانتها، مع احتمال أن تستفيق من تأثير المخدّر بنسبة خمسين بالمئة.

كان ذلك في غاية... التفاهة! خمسة آلاف سنة من الحضارة من أجل

التوصّل إلى أن يصبر المرء بانتظار أن يرغب طبيبٌ جرّاح في أن يصل إلى لحظة القذف لكي يحاول بعد ذلك بخمس دقائق أن ينقذ حياة مريضةٍ!

سألت السيّدة العجوز بقلق:

– لماذا تضحك؟

– لا شيء البتّة. إنّه مجرّد توتّر.

– ضحكتك تذكّرني بضحكة زوجي قبل موته. كنتُ أحبّ كثيراً أن أسمعه يضحك. لقد توفّي بسبب تمدّد وتمزّق الأوعية الدموية. كان محظوظاً، إذ لم تسنح له الفرصة لكي يرى نفسه وهو يشيخ. لقد توفّي... وهو في حالة جيّدة.

أمّا ضحكتها هي، فقد دوّت مثل جلجلةٍ حزينة.

– بإجراء هذه العملية، سوف أذهب أخيراً للانضمام إليه.

– ماذا تقولين! الدكتور ليفو طبيبٌ بارع.

– ولكن هذا ما أودّ أن أصل إليه. لقد سئمتُ العيش وحدي، وأريدُ أن ألتقي بزوجي. ألتقي به هناك في العالم العلوي، في الفردوس.

– هل تؤمنين بوجود الفردوس؟

– بكلّ تأكيد. سيكون الأمر فظيعاً للغاية إذا ما توقّف كلّ شيء مع هذه الحياة. هناك حتماً «عالمٌ آخر» في مكانٍ ما. سوف ألتقي فيه مع عزيزي أندريه، هناك أو في حياةٍ أخرى، الأمر بالنسبة إليّ سواء. كنّا نحبّ بعضنا بعضاً كثيراً ومنذ زمنٍ طويلٍ!

– لا تتحدّثي هكذا. سوف يُعالج الدكتور ليفو ورمكِ الصغير.

قلتُ هذا غير مقتنعٍ تماماً لأنني كنتُ في مرّات عديدة شاهداً على عدم كفاءة هذا الطبيب.

نظرت إليّ بعينين أشبه بعيني كلبٍ وفيٍّ وعاشق.

– وحينها سيكون عليّ أن أجد نفسي أعيش وحيدة مع ذكرياتي في شقّتي الكبيرة جدّاً... يا للهول!

– ولكنّ الحياة هي مع ذلك...

- ممرٌّ شنيع، أليس كذلك؟ من دون الحبّ، الحياة هي بالفعل وادٍ للدموع.

- ولكن ليس الحبّ وحده، هناك أيضاً...

- هناك ماذا؟ الأزهار، العصافير الصغيرة؟ يا لها من ترّهات! أمّا أنا، ففي حياتي، لم يكن هناك سوى أندريه ولم أعش إلّا من أجله. إذاً، هذه العلّة في مثانتي، يا لها من فرصة!

سألتها:

- أليس لديك أبناء؟

- بلى. ينتظرون الإرث على أحرٍّ من الجمر. بعد العملية الجراحية، سوف يتّصلون بك هاتفياً بكلّ تأكيد، يا دكتور، ليعرفوا إن كانوا يستطيعون أن يوصوا مباشرةً على سيارتهم الجديدة أم أنّهم سيضطرّون للانتظار قليلاً.

التقت نظراتنا. ومن هذه النظرات نفسها، تشكّلت الكلمات على شفتيّ.

- هل تعرفين كيف يمكن رسم دائرةٍ مع مركزها دون رفع القلم؟

ضحكتْ.

- يا له من سؤال! يتعلّم المرء كلّ هذا في روضة الأطفال.

وعلى منديلٍ ورقيٍّ مستعمل، أرتني كيف يُرسَمُ ذلك. عبّرتُ عن إعجابي بما قامت به. كان من الواضح جدّاً أنّه من الطبيعي ألّا أفكّر في ذلك.

وغمزت لي السيّدة العجوز الضعيفة غمزةً لطيفة. لقد أدركت كم يمكنني أن أولي اهتماماً كبيراً بهذا النوع من سفاسف الأمور.

قالت لي:

- كان يكفي أن تفكّر في الأمر.

وإذ فهمت الأمر أخيراً، فكّرتُ أنّ راؤول كان بالفعل عبقرياً. إنّ عبقريّاً قادراً على أن يرسم دائرةً ومركزها دون أن يرفع القلم، قد يستطيع أن يخدع الموت...

وعندئذٍ، دخل ممرّضان مساعدان قويّا البنية من جزر الأنتيل وهما يدفعان عربة للأدوات يتبعهما الطبيب الجرّاح المبتهج.

بعد انقضاء خمس ساعات، كانت المريضة قد انتقلت من الحياة إلى الموت. ألقى ليفو بطريقة شريرة قفّازاته الشفّافة البلاستيكية. وراح يثرثر

ويشتكي معتبراً أنّ الخطأ خطأ الأدوات القديمة، وخطأ المريضة التي تأخّرت كثيراً قبل أن تقرّر إجراء العملية، وخطأ الحظّ العاثر...

ثمّ عرض عليّ، قائلاً:

– ماذا لو ذهبنا وشربنا كوباً من البيرة؟

رنّ الهاتف. وكما كان متوقّعاً، كان أبناء السيّدة العجوز الضعيفة هم من يتّصلون. أغلقتُ سمّاعة الهاتف في وجوههم. وكانت يدي قد بدأت تنبش في جيبي بحثاً عن بطاقة الزيارة خاصّة راؤول.

45. كتاب التاريخ المدرسي

نحن نجهل كيف بدأت الحركة الثاناتونوتية. حسب بعض المؤرّخين، كانت هناك في الأصل مجموعة من الأصدقاء الراغبين في إجراء تجربة غير مسبوقة. وحسب مصادر أخرى، لم تكن لدى المستكشفين الأوائل سوى دوافع محض اقتصادية. كانوا يريدون أن يغتنوا بسرعة من خلال إطلاق دُرجة جديدة.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

46. هيّا بنا

كنتُ مدركاً أنّ راؤول يعرض عليّ أن أصبح متواطئاً في جرائمه المستقبلية. جرائم سوف تُرتَكَب باسم العلم أو باسم أحلامٍ في غزو العالم الآخر، لا أدري ما هي.

إنّ فكرة إرسال أناسٍ إلى الموت بمحض الفضول كانت دائماً تصدمني كثيراً ولكن، في الوقت ذاته، كان كلّ شيء في داخلي يتوق إلى أن يكون لحياتي شيءٌ من المعنى.

ولكي أحسم قراري، لجأتُ على أيّ حال إلى ثلاث قطع نقدية من فئة فرنكين. لقد حسّنتُ منهج راؤول من خلال استخدام ثلاث قطع نقدية، من الآن فصاعداً، وليس قطعة واحدة. وكنتُ أتوفّر بهذه الطريقة على رأيٍ أكثر تبايناً. فقد

كان تصادف طرّة – طرّة – طرّة يعني: نعم بالمطلق. أمّا إذا تصادف طرّة – طرّة – نقش، فيعني: نعم على الأرجح. في حين أنّ تصادفَ نقش – نقش – طرّة يعني: لا على الأرجح. وتصادف نقش – نقش – نقش يعني: لا بالمطلق.

حلّقت القطع النقدية عالياً لكي تذهب وتسأل السماء. ثمّ تهاوت وسقطت على الأرض، الواحدة تلوى الأخرى.

جاءت النتيجة كالتالي: طرّة – طرّة – نقش: نعم على الأرجح.

رفعتُ سمّاعة هاتفي واتّصلت. في المساء ذاته، تحدّث إليّ راؤول بابتهاجٍ مطوّلاً عن المشروع. في شقّتي الصغيرة، كانت يداه تُرفرفان فوق رأسه مثل حمامتين سعيدتين.

كان ينتشي ثملاً بالكلمات.

– سوف نكون الأوائل! سوف نغزو هذه «القارة المذهلة».

قارة مذهلة ضدّ قسم أبقراط. جرّبتُ آخر قتال مشرّف. فيما بعد، إذا ما حدث الأسوأ، سوف أستطيع بهذه الطريقة أن أقنع نفسي دائماً أنّ راؤول قد أرغمني.

استخدم حججاً جديدة:

– لقد اعتُبِرَ غاليلي أيضاً مجنوناً.

بعد كولومبس، غاليلي! من المؤكّد أنّ هذا المسكين غاليلي سوف يُستخدَم ذريعةً لعددٍ من التخيّلات الهذيانية. إنّها مفيدةٌ جدّاً، ضربة غاليلي...

– حسناً، لقد اعتُبِرَ غاليلي مجنوناً وكان سليم العقل تماماً. ولكن مقابل شخصٍ مثل غاليلي، الذي اتُّهِم ظلماً، كم هو عدد المختلين عقلياً بالفعل؟

بدأ لكي يشرح رؤيته:

– الموت...

– الموت، أنا أراه يوميّاً في المستشفى. يموت الأشخاص ولا يتّخذون على الإطلاق هيئة المستكشفين. بعد بضع ساعات، يبدأون بإطلاق روائح كريهة، وتتيبّس أطرافهم تيبّس الجثّة. الموت، إنّه مثيرٌ للتقزّز. إنّه كومةٌ من اللحم الذي يتفسّخ.

قال صديقي بطريقة فلسفية:

- الجسد يتفسّخ، والروح تصعد.

- أنت تعلم أنني عشتُ تجربة الغيبوبة وأنّ روحي لم تصعد.

بدا متأسّفاً.

- صديقي المسكين مايكل، لم يحالفك الحظ قط.

ربّما كان عليّ أنِ أذكّر راؤول بأنني أعرف جيّداً سبب اهتمامه بالموت. والسبب دائماً هو والده وانتحاره. كان في الحقيقة في حاجةٍ إلى محلّلٍ نفساني ماهر أكثر من حاجته إلى مشروعه المُسمى «الفردوس». ولكنني كنتُ قد اتّخذتُ قراري بعد أن أسفرت رمية القطع النقدية عن طرّة - طرّة - نقش.

- حسناً، لنعد إلى بيت القصيد وصلب الموضوع. لقد سبق أن رويتَ لي أنّك قد تخلّفت عن أوّل تحليقين بسبب جرعة خاطئة من المواد المخدّرة، ولكن ماذا استخدمتَ لإحداث الغيبوبة؟

شعّ وجهه بابتسامة عريضة. ضمّني بين ذراعيه مثلما كان يفعل قبلاً، وانفجر ضاحكاً. لقد عرِفَ أنّه قد فاز عليّ.

47. فلسفة صينية

«هل تريد أن تتعلّم العيش جيّداً؟ إذاً، تعلّم أوّلاً أن تموت».

كونفوشيوس

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

48. آماندينَ جميلةٌ جدّاً

انخفضت رموش الممرّضة الجميلة على عينيها بلونهما الأزرق البحري، لكنّ صمتها بدا لي هذه المرّة تهنئةً خفيّة.

راودني إحساسٌ بأنني أعرفها منذ زمنٍ طويلٍ لكثرةِ ما كانت تشبه غريس كيلي في دورها في فيلم هيتشكوك، *النافذة الخلفية*. ولكنّها كانت أجمل منها بكثير بطبيعة الحال.

في عنبر فلوري ميروغيس، بدا الجميع سعداء لرؤيتي. لا بدّ أنّ حضور طبيبٍ، وعلاوة على ذلك اختصاصي في التخدير، قد طمأن في آنٍ واحدٍ الفريق والمرشّحين للانتحار.

عرّفنا راؤول بعضنا على بعض. قالت الممرّضة إنّ اسمها آماندين، أمّا مستكشفو المستقبل، فكانوا كليمان، ومارسيلان، وهيوغ.

ذكّرني قائدنا:

– عندما بدأنا، كان لدينا خمسة مستكشفين. مات اثنان منهم، ضحيّتين لخطأ علاجي. لا يجوز أن يرتجل المرء عملية التخدير. فأهلاً وسهلاً بك بيننا!

ألقى السجناء الثلاثة التحيّة عليّ وهم ينظرون إليّ بشكٍّ. سحبني راؤول نحو منضدة المختبر وقواريره.

– سوف تتعلّم في نفس الوقت الذي نتعلّم فيه. سوف ندخل، جميعاً ومعاً، إلى الأرض المجهولة. ليس لنا أسلافٌ في هذا المجال. حالنا كحال أولئك الرجال الأوائل الذين وضعوا أقدامهم سابقاً على أرض أمريكا أو أستراليا. علينا نحن أن نكتشف «أستراليا الجديدة» خاصّتنا، ونغرس في أرضها أعلامنا.

كان البروفيسور رازورباك قد استعاد كلّ جديته وحماسته. وفي حدقَتَي عينيه، حلّ الشغف بالعمل المنجز بأفضل ما يمكن محلّ الجنون الخالص.

قال:

– دعونا نُري الدكتور بينسون طريقتنا في إحداث غيبوبةٍ.

ومن دون أيّ تردّد، تقدّم مارسيلان، الأصغر سنّاً من بين المتطوعين، واستقرّ على الكرسي القديم الخاصّ بطبيب الأسنان. انشغلت الممرّضة بوضع الأقطاب الكهربائية على صدره وجبينه، ومن ثمّ أوصلت كلّ أنواع مجسّات الحرارة، والرطوبة، وسرعة النبض. وكانت هذه الأسلاك كلّها موصولة إلى شاشات تتتالى عليها خطوطٌ خضراء.

راقبتُ المشهد، ثمّ قلت:

– أبعدوا عنّي كلّ هذه الفوضى!

لقد قُضي الأمر. أصبحتُ طرفاً في خيالاتهم. درستُ محتوى منضدة المختبر، والرفوف التي تعلوها، وفككتُ رموز الملصقات الموجودة، وأنا أفكّر في الخليط الأكثر قدرةً على التسبّب بغيبوبةٍ.

محلولٌ ملحي لتوسيع وتمديد الأوردة، وشيءٌ من ثيوبينتال للتخدير وبعض كلوريد البوتاسيوم لإبطاء الحركات القلبية...

كانت بعض الولايات الأمريكية تفضّل سابقاً هذا المنهج باستخدام السيانيد أو الكرسي الكهربائي لإنهاء حياة المحكومين بالموت من قبل محاكمها. من جهتي، كنتُ أتمنى، من خلال تخفيف محلول كلوريد البوتاسيوم على نحوٍ أكثر، أن تنخفض سرعة دقّات القلب دون أن تتوقّف تماماً، متيحةً بذلك سيراً بطيئاً نحو الغيبوبة، ومُسيطراً عليه من قبل الدماغ إذا أمكن ذلك.

ومن قبَلي...

بمساعدةٍ من راؤول، ومن المستكشفين الثلاثة الآخرين، صمّمتُ جهازاً دقيقاً بما يكفي لإجراء التجربة: جهازاً يشبه مشنقة صغيرة من البلاستيك بارتفاع عشرين سنتيمتراً، علّقتُ عليه المحلول الملحي في عبوته الكبيرة، ثمّ محلول الثيوبينتال في عبوة أصغر، ومن ثمّ محلول كلوريد البوتاسيوم. وأوصلتُ جهاز التوقيت الكهربائي بصنابير الأنابيب لكي تنزل كلّ مادّة في اللحظة التي أعتبرها الأكثر ملاءمةً. سوف تتدفّق مادة الثيوبينتال بعد خمس وعشرين ثانية من حقن المحلول الملحي، ومن ثمّ كلوريد البوتاسيوم بعد ثلاث دقائق. وسوف تدور المواد كلّها عبر أنبوبٍ وحيد، تنتهي به الأنابيب الثلاث السابقة، وينصبّ على إبرة وحيدة مقوّرة.

أطلقتُ على كامل جهازي الكيميائي اسم بوستير[1]. وسوف يقوم المستكشف بتشغيله بنفسه من خلال الضغط على قاطعٍ كهربائي له مقبض على شكل حبّة كمثرى وهو الذي سيشغّل جهاز التوقيت. ودون أن أُدرك،

1- بوستير: صاروخ قويّ الدفع، ويستخدمه الكاتب هنا كناية عن المزيج الكيميائي المخدّر الذي يسبّب الغيبوبة، ولذلك سوف نستخدم الكلمة كما هي دون ترجمتها منعاً للالتباس. المترجم

كنتُ قد اخترعتُ أوّل «آلة موت» تهدف إلى غزو بلاد الموتى رسمياً. أعتقد أنّها موجودة حالياً في معهد سميثسونيان، في واشنطن.

لقد أثارت مهارتي وثقتي إعجاب الفريق المساعد. وقد كان راؤول على حقّ. فلكلّ مشكلة تقنية حلّها التقني. بالنسبة إليّ، كنتُ سعيداً على نحوٍ خاصّ بالقاطع الكهربائي الذي صمّمته. لن يكون لديّ زرٌّ ينبغي تشغيله. وبالتالي، ليست هناك مسؤولية مباشرة تقع على عاتقي. لم أكن أرغب في أن أكون جلّاداً.

سوف يقرّر الشخص المعني بنفسه لحظة انطلاقه، وفي حال فشل في ذلك، سوف تُعدّ المسألة انتحاراً لا أكثر.

طلبتُ من آماندين أن تغرز الإبرة في وريد ساعد مارسيلان. وبحركة واثقة، أمسكت بباطن مرفق المستكشف، وغرزت الإبرة الضخمة ولم يتسبّب ذلك سوى بنزف قطرة صغيرةٍ واحدة من الدم. لم يؤلم ذلك الرجل، حتى أنّه لم يعبس.

فوضعتُ حبّة الكمثرى للقاطع الكهربائي في يد مارسيلان الرطبة، ثمّ شرحتُ له:

- حينما تضغط على هذا الزرّ، سيؤدي ذلك إلى إطلاق المضخة الكهربائية.

وفي لحظةٍ، أوشكتُ على أن أقول له إنّ «هذا سوف يُطلق موتك».

أظهر مارسيلان هيئة من يفهم الأمر جيّداً، كما لو أنني كنتُ أتكلّم عن ميكانيك محرّك سيارة.

سأله راؤول:

- هل كلَ شيء يجري على ما يُرام؟

- أنا في أفضل حال. أنا أثق بالطبيب ثقة تامّة.

حاولتُ ألّا أدع نفسي تستسلم لهذا الهيجان الذي جعل راؤول عصبياً جدّاً.

سأل بقلق:

- وماذا بعد؟

حدّق فيّ بنظرة الطفل الساذج الذي يتعلّق بشدّة بوجود بابا نويل، ووجود رجل الثلج، وبإمكانية أن يكون بين الثلاثة الأوائل في السباق.

ارتبكتُ:

- حسناً، آه...

- لا تقلق، يا دكتور، بعد ذلك، سوف أعوّض كلّ شيء.

غمزني غمزة الشريك المتواطئ.

يا له من رجلٍ شجاع. لقد أراد حتى أن يجنّبني الإحساس بالذنب. كان يعلم أنّه أراد أن يخلي مسؤوليتي عن جميع النتائج الضارّة التي قد تسفر عنها هذه العملية. راودتني الرغبة في لحظةٍ أن أقول له «انصرف بسرعة، طالما لا يزال هناك متّسعٌ من الوقت». ولكن حينما رأى راؤول ارتباكي، تدخّل قائلاً:

- أحسنت! أحسنت، يا مارسيلان، لقد أحسنت قولاً!

فصفّق الجميع، بمن فيهم أنا.

صفّقنا لماذا؟ لا أدري... ربّما لجهازي «بوستير نحو العالم الآخر»، ربّما لشجاعة مارسيلان، ربّما لجمال آماندين التي لم يكن لها ما تفعله هنا. هذا صحيح، إنّ دميةً كهذه، ينبغي لها أن تكون عارضة أزياء. حقّاً إنّ «الشريك في القتل» ليست مهنة للمستقبل.

أعلن راؤول:

- سنُجري الآن عملية إطلاق روحٍ...

وأطفأ سيجارته.

كان مارسيلان مبتسماً مثل متسلّق جبالٍ قليل الخبرة يصعد قمّة إيفرست بحذاءٍ رسميٍّ جديد. ألقى تحية مرحة لم تكن لها أيّ علاقة بتحيّة رجلٍ محكوم. رددنا جميعاً تحيّته ونحن نبتسم ونشجّعه.

- هيّا، رحلة سعيدة!

قامت آماندين بتغطية سائحنا بغطاءٍ مبرِّدٍ بينما كنتُ أقوم بإجراء آخر عمليات تعيير وضبط الحواسيب.

- هل أنت جاهز؟

- نعم، أنا جاهز!

أدارت آماندين آلة التصوير التي سوف تصوّر كلّ المشهد.

رسم مارسيلان إشارة الصليب. أغمض عينيه وبدأ يعدّ ببطء العدّ التنازلي:

- ستّة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد... انطلاق!

ثمّ ضغط بقوّة شديدة على القاطع.

49. ميثولوجيا مايانية

عند شعب المايا، كان الموت يعني المغادرة إلى الجحيم، جحيمٌ يُسمى ميتنال. وفي هذا الجحيم، يقوم الشياطين بتعذيب الأرواح بالبرد، والجوع، والعطش، والبؤس.

كان لدى شعب مايا تسعة آلهة للظلام، يُناظرون بلا شكّ زيارات الطبقات التسع تحت الأرض عند الأزتيك.

كان على روح الميّت أن تعبر خمسة أنهارٍ من الدم، والتراب، والأشواك. وحينما تصل إلى تقاطع طرقٍ، تواجه بعد ذلك اختبار البيوت: بيت العنبر، وبيت السكاكين، وبيت البرد، وبيت النمور، وبيت مصاصي الدماء.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

50. مارسيلان فأر التجارب البشري

آماندين امرأة إلهية

تركّزت كلّ أنظارنا بشدّة على شاشات المراقبة. ربّما كان قلب مارسيلان ينبض ببطء ولكنّه لا يزال ينبض. كان النبض قد هبط إلى مستوى أدنى من نبض شخصٍ يغطّ في نومٍ عميق. وكانت درجة حرارته قد انخفضت قرابة أربع درجات.

سأل معتقلٌ:

- منذ كم من الوقت غادر؟

نظرت آماندين إلى ساعة يدها. أمّا أنا، فكنتُ أعلم أنّ مارسيلان كان قد

قفز القفزة الكبرى منذ أكثر من نصف ساعة. ومنذ أكثر من عشرين دقيقة، كان قد دخل في سباتٍ عميق.

كانت ملامح وجهه أشبه بملامح وجه رجلٍ نائم.

هتف هيوغ وكليمان، المستكشفان الآخران:

- أتمنى أن ينجح، أتمنى أن ينجح!

أردتُ أن أجسّ جسد مارسيلان لكي أكتشف على نحوٍ أفضل وضع أعضاء جسمه، لكنّ راؤول نهاني عن ذلك:

- لا تلمسه الآن. لا ينبغي إيقاظه سريعاً.

- ولكن كيف سنعرف إن كان قد نجح في التجربة؟

قال رئيس مشروع «الفردوس» بتحفّظ:

- إذا فتح عينيه، سيكون قد نجح.

كلّ عشر ثوانٍ، كان جرس جهاز تخطيط القلب يرنّ مثل الموجة الصوتية لغواصة نووية في طريقها نحو الأغوار العميقة. كان جسد مارسيلان لا يزال مسترخياً على كرسيّ طبيب الأسنان. ولكن تُرى أين يمكن أن تكون روحه؟

51. وانتهينا من واحد

منذ أكثر من ساعة، كنتُ منهمكاً في عملية تدليك لعضلة القلب. ما إن توقّفت رنّات جرس جهاز تخطيط القلب، عمّ الذعر الجميع.

كانت آماندين تفرك ذراعي وساقي مارسيلان، في حين كان راؤول يضع له قناع الأكسجين. عددنا معاً «واحد، اثنان، ثلاثة»، وضغطتُ على القفص الصدري، ويداي الاثنتان على منطقة القلب. ومن ثمّ مرّر راؤول هواءً في المنخرين لتشغيل المضخّة التنفسيّة.

لم يُسفر تطبيق الصدمات الكهربائية عن أيّ نتيجة عدا عن فتح عينيه وفمه دفعةً واحدة.

عينان ميّتتان، وفمٌ صامت.

لشدّة انهماكنا فوق جسد مارسيلان الخامل، غرقنا في العرق المتصبّب منّا.

كتمتُ في رأسي السؤال «ماذا أفعل هنا؟». ولكن كلّما كنتُ أنظر أكثر إلى ما كان عليّ أن أسمّيه جثّة، كان السؤال يلحّ عليّ أكثر. «ما الذي أفعله هنا، إذاً؟»

نعم، ما الذي كنتُ أفعله هنا، إذاً؟

تمنّيتُ لو أنني كنتُ في مكانٍ آخر، مشغولاً بشيءٍ آخر. تمنّيتُ لو أنني لم أشترك قط في هذه العملية.

لقد فات الأوان على إعادة مارسيلان إلى الحياة. لقد فات الأوان، وكنّا جميعاً نعرف ذلك، ولكننا كنّا نرفض الإقرار بذلك. وخاصّة أنا. بالنسبة إليّ، كانت هذه أوّل «عملية قتل» أقوم بها، ويمكنني أن أقسم لكم على أنّه أمرٌ يمزّق الأحشاء أن تسمعوا رجلاً على قيد الحياة يقول لكم «مرحباً!» ومن ثمّ تنظرون إليه بعد ذلك بقليل وقد تصلّب مثل شجرة يابسة!

تهرّب راؤول من المسؤولية، وغمغم غاضباً:

- لقد ذهب بعيداً جدّاً. لقد ذهب بعيداً جدّاً ولم يعد يُجيد العودة.

كانت آماندين قد أُنهِكَت من جرّاء فرك أطراف مارسيلان. وكانت قطراتُ من العرق تلمع على جبينها الأملس، وتسيل على طول خدّيها اللذين يتناثر عليهما النمش، وتنزلق أخيراً إلى داخل صدريتها المحتشمةِ جدّاً. كانت اللحظة مأساوية ومع ذلك، عشتُ آنذاك، ربّما، اللحظة الأكثر شهوانيةً في كلّ حياتي. يا له من منظر أن تكافح هذه الفتاة الرائعة ضدّ الموت، متسلّحةً فقط بيديها الناعمتين! إنّ إيروس، إله الحبّ والرغبة والجنس، قريبٌ دائماً من مستكشفٍ! أدركتُ حينذاك من أين يأتيني هذا الإحساس بأنني أعرفها منذ زمنٍ طويلٍ. لم تكن تشبه غريس كيلي فحسب، بل أيضاً الممرّضة التي كانت حاضرة بجانبي عند استيقاظي، بعد حادث السيارة الذي تعرّضتُ له في طفولتي. نفس الهيئة الملائكية، نفس النمش، نفس العطر برائحة المشمش.

كان رجلٌ يموت، وأنا كنتُ أختلس النظر إلى ممرّضة. تقزّزتُ من نفسي، وصرخت:

- ماذا سنفعل بالجثّة؟

لم يُجب راؤول على سؤالي في الحال. لقد أطال في البداية في تأمّل مارسيلان في أملٍ غير محتَمَل. ثمّ شرح لي بفتورٍ، وعدم اكتراثٍ:

– إنّ الرئيس يغطّينا. فكلّ سجنٍ يشهد نسبةً من الانتحار تبلغ 4%.

سيكون مارسيلان جزءاً من هذه النسبة، وهذا كلّ ما في الأمر.

صرختُ معترضاً:

– هذا جنونٌ إجرامي! كيف استطعتُ أن أدع نفسي أركب في سفينة هذه المغامرة المشؤومة؟ لقد خدعتني، يا راؤول، لقد خدعتني، لقد خنتَ صداقتنا لتذيبها في اختلالك العقلي. أنتم جميعاً تُثيرون اشمئزازي بما أنتم عليه. لقد مات شخصٌ بسبب جهلكم التامّ. لقد خدعتني، وخدعته.

نهض راؤول، وقوراً جدّاً، وفجأةً أمسكني من ياقة قميصي. كانت نظرته تبعث شرراً، وأرسل رذاذاً من لعابه على وجهي وهو يتكلّم:

– كلا، لم أخدعك. ولكنّ الرهان هائلٌ جدّاً إلى درجة أنّه من الإلزامي أن نعرف الفشل قبل النجاح. لم تُبنَ روما في يومٍ واحد. لم نعد أطفالاً، يا مايكل. وهذه ليست لعبة. علينا أن ندفع الثمن باهظاً. لكلّ شيء ثمن، وإلّا سيكون هذا سهلاً للغاية. لو كان الأمر أكثر بساطةً، لتوصّل آخرون إليه قبلنا. ولأنّ الأمر صعبٌ للغاية، سوف نحظى بجدارة النجاح.

دافعتُ عن نفسي بفتور:

– هذا إذا ما نجحنا ذات يوم. ويبدو لي أنّ هذا الأمر يغدو بعيد المنال على نحوٍ أكثر.

ترك راؤول ياقة قميصي. نظر إلى مارسيلان الذي كان فمه لا يزال مفتوحاً على نحوٍ واسع. كان النظر إلى هذا الفم الفاغر لا يُحتَمَل، فوضع مفكّاً للبراغي بين فكّي مارسيلان، وشدّ وبرم لكي يُرغمهما على الاقتراب بعضهما من بعض إلى حدّ الإطباق، ومن ثمّ بعد أن توصّل إلى إغلاق هذا الفم الذي يوجّه اتّهاماً، التفت نحو الآخرين.

– ربّما أنتم أيضاً تفكّرون مثل مايكل. إذا كنتم ترغبون في التخلّي عن هذا المشروع، فلا يزال هناك متّسعٌ من الوقت لذلك.

واجه راؤول كلّ واحدٍ منهم، منتظراً ردّ فعلٍ منهم. كنّا ننظر إلى جثّة

مارسيلان، وكان هذا يؤثّر فينا، لأنّ فمه، بفضل مفكّ الفكّين، كان يشبه الآن منقار عصفورٍ، غائر بين وجنتيه الهزيلتين.

أعلن كليمان:

- بالنسبة إليّ، أنا أنسحب! كنتُ أعتقد أنّه بوجود الطبيب، سوف يكون كلّ شيء أكثر أماناً، ولكنّه هو أيضاً ليس قويّاً بما فيه الكفاية ليكافح ضدّ الموت. إذا كان عليكم أن تقتلوا عشرة آلاف شخص مسكين قبل أن تنجحوا، أفضّل ألا أكون بينهم. ولا جدوى من تذكيري باتّفاقنا. أعدكم بألّا أتحدّث إلى أحد عن مشروعكم «الفردوس». إنّه يُخيفني خوفاً شديداً للغاية.

سأل راؤول بصوتٍ ثابت:

- وأنت، يا هيوغ؟

قال المتطوّع بفخر:

- أنا سأبقى.

- هل ترغب في أن تكون مستكشفنا المقبل؟

- نعم. أفضّل أن أموت أيضاً على أن أعود إلى زنزانتي.

وأشار بذقنه إلى جثّة مارسيلان، وأضاف:

- هو على الأقلّ لم يعد محبوساً في زنزانة حقيرة!

قال راؤول:

- ممتاز. وأنتِ، يا آماندين؟

أعلنت دون أن تُبدي أيّ انفعال:

- أنا سأبقى.

لم أُصدّق ما سمعته أذناي.

- ولكنّكم جميعاً مجانين! كليمان على حقّ. هناك خطر أن تقتلوا عشرة آلاف شخص قبل أن تحصلوا على أيّ نتيجة. على أيّ حال، لا تعتمدوا عليّ بعد الآن.

خلعتُ صدريتي البيضاء وألقيتُ بها على منضدة المختبر، محطّماً بذلك القوارير التي سرعان ما نثرت رائحة الأثير.

ثمّ غادرتُ مصفقاً الباب بقوّة خلفي.

52. مذكّرة إدارية

من: بينوا ميركاسيه

إلى: الرئيس لوسيندير

بناءً على توجيهاتكم، بدأت التجارب. يتكوّن فريق البحث من البروفيسور راؤول رازورباك، عالم الأحياء المختصّ بإجراء عمليات السُبات للقوارض، والدكتور مايكل بينسون، الطبيب المخدِّر، وبمساعدة الممرّضة آماندين بالوس.

وقد تطوّع خمسة معتقلين ليكونوا بمنزلة فئران تجارب بشريين. لقد أُطلق مشروع «الفردوس».

53. حالة ذهنية

عدتُ إلى شقّتي، وأنا أشعر بالصدمة والذعر. حالما وصلتُ إلى منزلي، صرختُ كما تعوي ذئاب البراري في الليالي المقمرة، دون أن أنجح مع ذلك في التخلّص من الضغط النفسي الذي أحدثه موت مارسيلان. ما العمل؟ إنّ متابعة العمل معهم خيارٌ سيّء، وكذلك التخلّي عن المستكشف الثاني خيارٌ سيّء. ولذلك، كنتُ أصرخ. دقّ بعض الجيران بالمكانس على جدران شقّتي، وقد حصلوا على النتيجة المنشودة. فقد سكتُّ، ولكنني مع ذلك لم أهدأ.

كنتُ حائراً ومشتّت الذهن. لم أكن قادراً على أن أتخلّى عن رؤية آماندين مرّة أخرى. كما أنني لم أعد راغباً في أن أُرسل أناساً آخرين إلى الغيبوبة. كانت أفكار راؤول تُسحرني وتُبهرني. وفي الوقت نفسه، كنتُ أرفض أن تكون هناك جثثٌ أُخرى في ذمّتي. لم أكن أرغب في مواصلة العيش في وحدةٍ أبدية. وكانت العودة إلى روتين عملي في المستشفى تُضايقني وتُشعرني بالسأم. كان راؤول على حقٍّ على الأقل في نقطة واحدة: ربّما يكون مشروعه فظيعاً، لكنّه أيضاً مغامرة عظيمة!

كان راؤول مجنوناً ومهووساً بانتحار والده. أمّا آماندين، ما الذي استطاع

أن يدفع بأنثى بهذا الجمال الفائق إلى أن تُبحرَ في هذا القارب؟ ربّما تكون هي الأخرى مقتنعة بأن تصبح رائدة لعالمٍ جديد. كان راؤول يثرثر كثيراً.

شربتُ كأساً من نبيذ بورتو الأبيض بعد كأسٍ من نبيذ بورتو الأبيض وهكذا حتى ثملت. حاولتُ أن أنام وأنا أقرأ روايةً. مرّة أخرى، كنتُ وحيداً في سريري، وما زاد الطين بلّة هذه المرّة هو أنّه كان في ذمّتي قتيلٌ. كانت أغطية سريري باردة جدّاً مثل غطاء تبريدٍ.

حينما تناولتُ في صباح اليوم التالي طبقي الصغير من القشطة في الحانة القريبة من منزلي، فكّرتُ بأنّه قد يكون الإفراط في جرعة كلوريد البوتاسيوم هو الذي أدّى إلى وفاة مارسيلان. فهذه المادة شديدة السمّية، وكان ينبغي تقليل جرعتها.

إلّا إذا كانت هذه مشكلة تتعلّق بالتخدير.

في الحالة الطبيعية، نحن نستخدم ثلاثة أنواع من المواد المخدّرة، وهي الناركوتيات، والمورفينات، ومركّبات الكورار. وكنتُ أفضّل عادة استخدام الناركوتيات. ولكن من أجل «موت جيّد»، كان من الأفضل استخدام مركّب الكورار.

همم. كلا. سوف أتابع باستخدام مركّبٍ ناركوتي.

شيئاً فشيئاً، لم أعد أنشغل سوى بالمشاكل التقنية. وقد انطلقت ردود فعلي المهنية على نحوٍ تلقائي. وعادت إلى ذاكرتي دروسي في الكيمياء.

همم. قلتُ في نفسي إنّه ربّما كان عليّ أن أستخدم بروبوفول. وهذه مادة مخدّرة جديدة، مع أفضل استفاقة بعد الخروج من تأثيرها. وفي الحالة الطبيعية، يستفيق المرء من تحت تأثيرها خلال خمس دقائق، ويكون صاحياً تماماً...

كلا، من المؤكّد أنّ البروبوفول سوف يتفاعل على نحوٍ سيئ مع الكلوريد. ولذلك يجب الإبقاء على استخدام الثيوبينتال. ولكن ما هي الكمية المناسبة؟ في الحالة العادية، يجب استخدام خمسة مليغرامات لكلّ كيلوغرام واحد. إنّ كمية خمسة مليغرامات هي الجرعة الأدنى، وكمية عشرة مليغرامات هي الجرعة الأقصى. كنتُ قد أعطيتُ ثمانمئة وخمسين

مليغراماً للمتطوّع مارسيلان الذي كان يزن خمسة وثمانين كيلوغراماً. ربّما كان عليّ أن أخفّض الجرعة...

في الساعة الثانية من بعد الظهر، اتّصلتُ مع راؤول. في الساعة الرابعة من بعد الظهر، كنّا جميعاً من جديد في محطّة إطلاق المستكشفين خاصّتنا في سجن فلوري ميروغيس. ومثل العادة، قام المعتقلون بشتمنا بكثرة لدى مرورنا أمام زنازينهم. بالنسبة إليهم، كان من العبث إقناعهم بأنّ مارسيلان قد انتحر طواعيةً. صادفنا مدير السجن الإصلاحي دون أن يُلقي علينا التحية، بل متجنّباً النظر إلينا.

وبالمقابل، استقبلنا هيوغ بلطف.

- لا تقلق، يا دكتور، سوف ننجح في مهمّتنا!

لم أكن قلقاً بشأني، بل كنتُ أقلق عليه هو...

قلّلتُ من كمية جرعاتي. فخصّصتُ ستمئة مليغرام من أجل هيوغ الذي كان يزن ثمانين كيلوغراماً. ولا بدّ أن هذا سيكون كافياً.

سجّل راؤول كلّ ما أقوم به من خطواتي. أفترضُ أنّه كان يرغب في أن يكون مؤهّلاً للقيام بنفس الخطوات إذا ما قرّرتُ أن أتخلّى عنه نهائياً.

قدّمت آماندين كوباً من الماء البارد لهيوغ.

سأل ساخراً:

- الكأس الأخيرة للمُدان؟

ردّت بجدّية:

- كلا.

أخذ المستكشف مكانه على كرسيّ طبيب الأسنان. بدأنا باتّخاذ الإجراءات: تركيب أجهزة الاستشعار، وأخذ النبض، وأخذ درجة حرارة الجسم، ووضع الغطاء المبرِّد.

- هل أنت جاهز؟

- أنا جاهز.

قالت آماندين بدورها وهي توصل كاميرا الفيديو:

- أنا جاهزة!

غمغم هيوغ بصلاةٍ. ثمّ رسم إشارة صليبٍ كبيرة، وقال بكلّ سرعة كما لو أنه يريد أن يتخلّص بسرعة:

- ستّة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، انطلاق!

عبس كما لو أنّه يبتلع قرص دواءٍ مرّ، وضغط على القاطع.

54. ميثولوجيا يابانية

يسمّي اليابانيون يومي[1] ببلد الموتى. يُروى أنّ الإله إيزاناغي غادر ذات يوم إلى منطقة يومي لكي يبحث فيه عن إيزانامي، شقيقته، التي كانت أيضاً زوجته. عندما قابلها، ترجّاها أن تعود إلى عالم الأحياء. أجابت الإلهة: «أوه، يا زوجي، لماذا جئت متأخّراً جدّاً؟ لقد تذوّقتُ الأطعمة المطبوخة في فرن آلهة يومي وأنا أنتمي إليها من الآن فصاعداً. ومع ذلك، سوف أحاول أن أقنعها بأن تحرّرني. صلِّ في هذا الأثناء واحرَص على ألا تنظر إليّ».

ولكنّ إيزاناغي كان يحرص على أن يرى من جديد أخته - زوجته. مخالفاً أمرها، أمسك بمعصمها، واستخدمه كأداة يكسر بها أحد أسنانه ثمّ حوّل هذا السنّ إلى مصباحٍ أوقده. فاستطاع أن يميّز إيزانامي. اكتشف جثّة نهشتها الديدان، وكانت آلهة الرعد الثمانية قد استحوذت عليها. فرّ مذعوراً وهو يصرخ أنّه قد وقع خطأً على مكانٍ للرعب والعفن. غضبت إيزانامي من أنه غادر دون أن ينتظرها، واعتبرت أنّها قد أُهينت. فأرسلت نساء يومي الشريرات الطائرات القبيحات في أعقاب إيزاناغي، ولكنّه نجح في الإفلات منهنّ.

فانطلقت إيزانامي بنفسها في أعقابه. احتجزها إيزاناغي في كهفٍ. في اللحظة التي كان الإلهان سيلفظان فيها جملة الطلاق، أعلنت إيزانامي: «كلّ يوم سوف أخنق ألف شخصٍ من بلدك لكي أجعلك تدفع ثمن جريمتك.

1- يومي: وتعني «النبع الأصفر» وهو مكان في الميثولوجيا اليابانية يُذكر في الكوجيكي أن مخلوقات مرعبة تسكنه وتحرسه حيث تذهب الأجسام الميتة إليه، وأن الجسد الذي يدخل إلى يومي يستحيل عليه العودة إلى أرض الحياة. يشابه يومي إلى حد كبير الجحيم أو جهنم ويقال إنه المكان الذي ذهبت إليه إيزانامي بعد موتها، وهي تسيطر عليه وتحرسه. المترجم

ردّ إيزاناغي دون أن يرتبك:

- وأنا، سوف أولّد كلّ يوم ألفاً وخمسمئة شخصٍ».

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

55. وانتهينا من عشرة

لم يعد هيوغ قط. لقد ظلّ في منتصف الطريق بين قارة الموتى وقارة الأحياء. لم يمت، ولكنّه خرج من الغيبوبة مستلقياً، ومحدّقاً بنظرة ثابتة، يكاد مؤشّر النشاط الدماغي أن يكون في خطٍّ مستقيم، وكانت ذبذبات النبض على الشاشة متقطّعة وتأتي بفواصل زمنية طويلة جدّاً. كان قد مات سريرياً، فالقلب والدماغ كانا يعملان، ولكنّه لم يعد قادراً لا على الحركة، ولا على الكلام.

قبلتُه في قسم العناية بالمحتضرين في المستشفى الذي أعمل فيه، ورُتّبت له غرفة خاصّة. وبعد مضي سنوات عديدة، نُقِلَ هيوغ مع كلّ الاحتياطات الممكنة إلى معهد سميثسونيان في واشنطن، قسم متحف الموت. واستطاع كلّ واحدٍ أن يرى ما كان يحدث لأولئك الذين يبقون عالقين بيت عالمين، عالم الأحياء وعالم الأموات.

عندما أُعيد التفكير في محاولة الإقلاع الثانية هذه، أعتبر أنّه كان يمكن لها أن تنجح تماماً. كانت التجربة على أيّ حال قيّمة لأنّها أتاحت لي أن أحدّد جرعة الثيوبينتال، وكلوريد البوتاسيوم في نطاقٍ معقول.

مهما يكن من أمر، لقد استنفدنا فئران التجارب خاصّتنا الخمسة. فقد مات ثلاثة منهم، وانسحب رابعٌ، بينما مات الخامس سريرياً. يا لها من حصيلة جيّدة! وسرعان ما باشر راؤول بخطواتٍ لدى الوزير ميركاسيه لكي يقدّم لنا عناصر جدداً.

حصل الوزير مرّة أخرى على الضوء الأخضر من الرئيس لوسيندير. فبدأت عملية فرزٍ واختيارٍ قاسية لا تعرف الرحمة. كنّا نريدُ الحصول على معتقلين محكومين بالمؤبّد، مستعدين لفعل أيّ شيء من أجل الإفلات

من السجن. كان يمكن أن تكون لديهم رغباتٌ في الانتحار، ولكن ليس بشدّة. كنّا نحتاج إلى رجالٍ سليمين عقلياً، لا يتعاطون لا المخدّرات ولا المشروبات الكحولية.

وعلى نحوٍ خاصّ، كان من الضروري جدّاً أن يكونوا في صحّةٍ جيّدة لكي يتحمّلوا كلوريد البوتاسيوم. لا يموت المرء جيّداً إلّا إذا كان في صحّة جيّدة، وكان هذا واضحاً وجليّاً.

وبمحض الصدفة، تقدّم إلينا مارتينيز الضخم، رئيس عصابة الأشرار الذي كان يعتدي علينا سابقاً لدى الخروج من المدرسة الثانوية. لم يتعرّف علينا قط. بالنسبة إليّ، فكّرتُ في عبارة لاوتزه: «إذا أهانك أحدهم، لا تسعَ إلى الانتقام، بل اجلس على ضفّة النهر، وسوف ترى عمّا قريب جثّته وهي تمرّ أمامك».

كان مارتينيز قد وصل إلى السجن عقب قيامه بعملية سطو على مصرفٍ. وبما أنّه كان سميناً، لم يهرب بنفس سرعة شركائه في العملية. لقد كان بارعاً في الملاكمة ولكنّه معدوماً في الجري. ولا بدّ أنّ الشرطي الذي أمسك به بينما كان يركض لاهثاً كان أكثر رشاقةً منه. وللأسف، قُتِلَ شخصان في ذلك الحادث المؤسف. لم يعترف المحلّفون بأي أسباب أو ظروف تخفيفية، وحُكِمَ على مارتينيز بالسجن المؤبّد.

اجتاز اختبارات انتقاء المستكشفين بتميّز. بل أبدى اهتماماً قويّاً بالمشاركة في تجربة قد تجلب له الشهرة. كان مؤمناً بحسن طالعه الذي سوف يسمح له بالنجاة من إجراءاتنا، مهما كانت خطيرة.

صرخ:

- أنتم تعلمون، أيّها السادة الأطبّاء، ليس هناك أيّ شيء يُخيف مارتينيز.

تذكّرتُ أنّه في الواقع لم يبد عليه أيّ أثر للخوف من قبضتيّ الصغيرتين، عندما انقضّ علينا مع مساعديه بخمسة أشخاص مقابل اثنين.

طلب راؤول ألّا يكون هناك أيّ حقد على مارتينيز، وقال إنّه سيكون فأر تجارب مناسباً جدّاً. من جهتي، فضّلتُ أن أشطبه من قائمة مرشّحينا. لأنني تذكّرتُ جيّداً ضرباته، فخشيتُ أن أُخطئ معه في مقادير جرعاتي الدقيقة.

كنتُ أحفظ لمارتينيز ضغينةً وأتهيّأ للانتقام منه. وإذ لم أستطع أن أحافظ على عقلٍ باردٍ، فضّلتُ أن أُقصيه.

صرخ رجل العصابات الراسب في الاختبار غاضباً وقال إنّنا لا نقبل سوى المدعومين وأنّه قد رُفِض منحه أيّ فرصة ليصبح ثريّاً ومشهوراً. وشتمنا.

ولحسن الحظّ أيضاً أنّه لم يتعرّف علينا! في نوبة غضبه، كان من الممكن أن يكون قادراً على أن يشتكي من المحسوبية والمعاملة التعسّفيّة.

لم يندرج اسم مارتينيز إذاً بين متطوعينا الخمسة المقبلين ليكونوا فئران تجارب. أو بالأحرى، ربّما عليّ أن أقول بين موتانا الخمسة المقبلين. لم يعد منْ ماتوا يؤثّرون فيّ. لقد ثلمت حساسيتي. كنتُ أشعر أنني أرسل صواريخ إلى الفضاء. وإذا ما انفجرت هذه الصواريخ عند الإطلاق، فعلينا، نحن، أن نُجري التعديلات الضرورية لكي تتكلّل عملية الإطلاق التالية بالنجاح.

حضرت السلسلة الثالثة من فئران التجارب البشريين، ومن بينهم شخصٌ يُدعى مارك.

بعد أن رُكِّبَت أجهزة الاستشعار، وقيس نبضه ودرجة حرارة جسمه، ووضِع الغطاء المبرّد، قال راؤول:

– هل أنتم جاهزون؟

أجبنا بصوتٍ واحد:

– نحن جاهزون!

وأجابت آماندين:

– أنا جاهزة!

تمنّيتُ ألا يموت صاحبنا من الخوف. كان يتصبّبُ عرقاً ويرتعشُ برداً في آنٍ واحدٍ. لم يتوقّف عن رسم إشارات الصليب.

غمغم متلعثماً، دون أن يكون مقتنعاً تماماً:

– ستّة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد ونصف... واحد وربع... واحد... انـ... انطلاق؟ حسناً، انطلا...ق!

وحاول مرّتين قبل أن يضغط على القاطع الذي انزلقت إصبعه المبلّلة بالعرق عليه.

56. ميثولوجيا ميزوبوتامية

في الميثولوجيا الميزوبوتامية، تُدعى بلاد الموتى «أرض اللاعودة». نشيد:

الذين يدخلون إليها لا يرون الضوء.
الغبار والطين طعامهم الوحيد.
يرتدون ثياباً مثل ريش الطيور.
يغطّي الغبار كلّ شيء، الأبواب والمزاليج.

ذات يوم، نزلت عشتار الجميلة، إلهة الحبّ، إلى الجحيم. أمرت الملكة إريشكيغال الحارسَ أن يُعاملها حسب العادات القديمة. كلّما كانت الإلهة تجتاز واحداً من أبواب الجحيم السبعة، كانت تتجرّد، على نحوٍ متعاقب، أوّلاً من ثوبها ومن تاجها، ثمّ من أقراطها، وقلائدها، ومن صدريتها، ومن حزامها، ومن أساورها، ومن خلاخيلها، وأخيراً، من ملابسها الداخلية. فوصلت عشتار عارية أمام إريشكيغال التي فرضت علامات التعذيب الستين على مختلف أنحاء جسدها.

ومع ذلك، البشر هم الذين يتحمّلون نتائج هذا الأسر لأنّه، من دون عشتار، فقدت الأرض خصوبتها. نشيد:

منذ أن نزلت عشتار إلى أرض اللاعودة،
لم يعل الثور البقرة، ولم يقترن الرجل بالمرأة.

بعث الرجال بخصيٍّ إلى إريشكيغال. وحينما طلب منها أن تسمح له بأن يشرب من القربة التي كانت تحتوي على ماء الحياة، لعنته. نشيد:

طعامك سيكون طعام مزاريب المدينة،
وسوف تبقى في ظلّ الأسوار
وسوف تسكن على عتبات البيوت
وسوف يلطم السكارى والعطشى خدّيك

يبدو أنّ المخصي قد أُرسِل إلى الجحيم لكي يُبَادل مع عشتار. في هذا المكان، كان يمكن إذاً مبادلة العقم بالخصوبة. وبالفعل، بعد مضي بعض الوقت، أمرت إريشكيغال أن تُرشّ عشتار بماء الحياة، وأن تُرافق إلى أبواب الجحيم. وكلّما عبرت الأبواب السبعة إيّاباً، عادت إليها كلّ ممتلكاتها. وهكذا استعادت الأمور مجراها الطبيعي على الأرض.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

57. خطأ في العملية

أجرينا عمليات تدليك، وإحماء، وصدمات كهربائية.

فتح مارك عينيه، ونحن فتحنا أعيننا واسعةً من الدهشة. تُرى هل نجحنا أخيراً؟

أخرجَنا بطلُنا من ذهولنا حينما نهض دفعةً واحدة، وهو يثور هائجاً، ومحطّماً كلّ شيء من حوله، ويُطلق صيحات جنونية.

– لقد رأيتهم! إنّهم هنا! إنّهم في كلّ مكان. من المستحيل الإفلات منهم، إنّهم في كلّ مكان!

سأل راؤول بلهجته الأكثر حزماً:

– مَنْ؟ ماذا تعني، من تقصد؟

– الشياطين! هناك شياطين في كلّ مكان ويُريدون أن يدفعوني إلى داخل مرجل لكي يحرقوني. لا أريد أن أموت. ولا أُريد أن أراهم مرّة أخرى أبداً. إنّهم مرعبون للغاية.

حدّق فيّ بحدقتي عينيه الغامضتين، وصرخ:

– أنت أيضاً، أنت شيطان. الشياطين في كلّ مكان.

ورمى بقارورةٍ على وجهي. طارد آماندين وفي يده محاقن وغرز واحدة منها في ردفها. وأحدث جرحاً على جبيني بضربةٍ مشرط عندما حاولتُ أن أتدخّل لإيقافه. ما زلتُ أحتفظ بتلك الندبة على جبيني. أخمد هذا التصرّف حماستنا بعض الشيء. فبعد الميّت سريرياً، ها هو مختلٌّ عقلياً! حتى راؤول

نفسه تأثّر بالعنف الذي بدر من مارك. وفي الوقت نفسه، كنّا نتساءل فيما بيننا. وماذا لو نجحنا؟ وماذا لو أنّ مارك قد جلب لنا بالفعل شاهداً على العالم الآخر؟ لم يكن خطأه هو إذا كان ينقل إلينا ما عاشه من رعبٍ فقط.

لم نتلف الفيلم الذي تمّ تصويره بالكاميرا عن العملية واحتُجِزَ مارك في ملجأ للمجانين. ومع ذلك، كان أوّل فأر تجارب بشري لنا يختبر تجربة الاقتراب من الموت. ربّما لم يجلب لنا عن تلك التجربة ذكريات جميلة عن أنفاق مضيئة، ولكنّه عاد على الأقل بجسده، عدا العقل، سالماً.

في ذلك المساء، رافقتُ آماندين إلى بيتها في سيارتي. لم تكفّ الممرّضة عن مصالبة ساقيها الجميلتين وفتحهما. كان جرحها في الردف خفيفاً، أما أنا، فاحتجتُ إلى تقطيب جرحي بخمس وعشرين غرزةً.

كان فستان آماندين الأسود – كانت ترتدي على الدوام اللون الأسود – يُصدر صريراً مثيراً وشهوانياً جدّاً.

لم ترغب في أن تستقلّ قطار الشبكة المحلية السريعة بعد هذه الجلسة المضطربة، وعلاوة على ذلك، لم نشأ، لا هي ولا أنا، أن نمضي تلك السهرة بمفردنا.

وأنا أقود السيارة، غمغمت:

– ربّما علينا أن نتوقّف هنا ولا نستمرّ في التجارب، أليس كذلك؟

ولكنّ آماندين ظلّت صامتة كما هي عادتها دائماً. لطالما قلتُ في نفسي: «لا بدّ أنّها تفكّر في أشياء مذهلة، لأنّها جميلةٌ جدّاً، ولا تقول شيئاً». ولكنني، اليوم، انزعجتُ كثيراً من صمتها. لم يكن حضورها شكلياً، فقد رأت مثلي هؤلاء الناس الذين ماتوا أو أصبحوا مجانين في سبيل تجربة عشوائية.

ألححتُ عليها:

– هناك الكثير من حالات الموت العبثية! ومن أجل نتائج سيّئة جدّاً... ما رأيكِ في ذلك؟ لم يسبق لي أن سمعتُكِ قط تنطقين بجملة من أكثر من ثلاث كلمات منذ أن عرفنا بعضنا بعضاً. نحن نعمل جنباً إلى جنب، ولذلك علينا أن نتكلّم بعضنا مع بعض. يجب أن تساعديني في إيقاف راؤول. هذه المسألة طالت كثيراً. من دون مساعدتكِ، لن أنجح أبداً في إقناعه.

رضيتْ أخيراً أن تنظر إليّ. حدّقت فيّ مطوّلاً، وأمعنت النظر فيّ بدقّة. انفتح فمها. سوف تتكلّم أخيراً.

– على العكس.

– ماذا، على العكس؟

– على العكس، علينا واجب الاستمرار في المشروع. بالضبط حتى لا تكون حالات الموت هذه كلّها عبثية. كان مستكشفونا جميعاً يعرفون المخاطر التي يعرّضون أنفسهم لها. كانوا كلّهم يعرفون أنّ موتهم سوف يمنح الشخص الذي يليهم فرصة أكبر في النجاح.

قلتُ متعجّباً:

– هذا المشروع أشبه بلعبة بوكر حيث يراهن اللاعب دائماً بمبالغ أكبر لكي يعوّض خسائره! وهكذا يسير المرء نحو تدمير ذاته. خمس عشرة ضحيّة! هذا ليس مشروعاً بحثياً، بل لعبة قتل، نعم إنّها لعبة قتل!

ردّت ببرودٍ شديد:

– نحن روّاد.

– أعرف مثلاً مناسباً بهذا الخصوص، يقول: «من السهل التعرّف إلى الرائد الحقيقي. إنّه ذاك الذي يرقدُ وسط سهل فار ويست وفي ظهره سهمٌ».

تضايقتْ أكثر من موقفي، وقالت:

– هل تعتقد أنّ موت كلّ هؤلاء لا يؤلمني أنا أيضاً؟ كان كلّ المتطوّعين للاستكشاف رائعين وشجعاناً

جدّاً...

انكسر صوتها. ولكن كانت هذه هي المرّة الأولى التي تلفظ جملتين متتاليتين. كان عليّ أن أنتهز الفرصة الذهبية، فقمتُ باستفزازها:

– لم يكن ذلك شجاعةً، بل سلوكاً انتحارياً.

– سلوكٌ انتحاري! وكريستوف كولمبس، ألم يكن انتحارياً تماماً لكي يذهب بعيداً جدّاً على متن سفينة تشبه قشرة جوز؟ ويوري غاغارين، بعلبته المصنوعة من الصفيح داخل صاروخه، ألم يكن انتحارياً؟ من دون الانتحاريين، لن يتقدّم العالم...

أوه... هذا هو إذاً! غاليلي، وكولومبس، والآن غاغارين، هناك سوابق لتبرير المذبحة!

أصبحت آماندين الآن طليقة اللسان. وأصرّت بعناد على أن تتكلّم معي دون أن ترفع الكلفة.

- أعتقد أنّك لا تفهم شيئاً، يا دكتور بينسون. ألا ترى أنّه من الغريب أن نجد متطوّعين بهذه السهولة؟ إنّ المعتقلين جميعهم على علمٍ بإخفاقاتنا، إذاً، لماذا يأتون؟ أنا سأخبرك بذلك: لأنّه، في محطّتنا لإطلاق مستكشفي الموت، ينتاب رعاع المجتمع هؤلاء شعورٌ مفاجئ بأنّهم قد تحوّلوا إلى أبطال!

- في هذه الحالة، لماذا يبصق الآخرون علينا كلّما نمرّ بهم؟

- إنّها المفارقة. إنّهم يحقدون علينا بسبب موت أصدقائهم، ومع ذلك، هم أيضاً جاهزون للموت. وذات يوم، سوف ينجح واحدٌ من بينهم، أنا على قناعة تامّة بذلك.

كان كلّ شيء في آماندين يُبهرني ويُسحرني. برودتها، وصمتها، وغموضها، والآن حماستها...

كان وجود الفتاة الشقراء، في ثيابها السوداء، في سيارتي حارقاً يُلهب كلّ مشاعري. ربّما لكثرة ما خالطت الموت، كانت رغباتي الحياتية قد ازدادت حدّة! لمرّة واحدة، كنتُ وحدي مع آماندين، وآماندين مؤثّرة ومتأثّرة. لقد فعلتُ كلّ ما عليّ فعله. كانت الفرصة فريدة. أزحتُ يدي عن ساعد ناقل الحركة، واستغللتُ اهتزازاً للسيارة لكي أضعها على ركبتها. كانت بشرتها ملساء وناعمة نعومةً لا تُصدّق.

دفعت راحة يدي كما لو أنّها تدفعُ جسماً ضارّاً.

- أنا آسفة، يا مايكل، ولكنّك حقّاً لست نموذجي المفضّل من الرجال.

وماذا كان نموذجها المفضّل من الرجال؟

58. استمرار الفشل في الحصول على أيّ نتيجة

يوم الخميس، الخامس والعشرين من شهر أغسطس / آب، زارنا وزير البحث العلمي متنكّراً في محطّتنا لإطلاق مستكشفي الموت في سجن

فلوري ميروغيس. كان بينوا ميركاسيه حريصاً على أن يحضر بنفسه عملية «إطلاق». كان يقدّم الوجه القلق لرجلٍ يتساءل ما لم يكن ماضياً في ارتكاب حماقة القرن. وفي هذه الحالة، هل لا يزال هناك متّسعٌ من الوقت لإنقاذ الموقف قبل استجوابٍ لا مفرّ منه في مجلس النوّاب؟

صافحني وشدّ على يدي، وهنّأني من دون قناعة حقيقية، وشجّع تشجيعاً خاصّاً المستكشفين الخمسة أعضاء الفريق الجديد. سأل خلسةً راؤول عن عدد تجاربنا الفاشلة، وجفل حينما همس هذا الأخير بالرقم في أذنه. فأقبل نحوي ونحا بي جانباً في زاويةٍ من الحُجرة:

- ربّما لأنّ بوستيراتكم شديدة السمّية؟

- كلا. أنا أيضاً اعتقدتُ هذا في البداية. ولكن المشكلة لا تكمن هنا.

- أين تكمن المشكلة، إذاً؟

- حسناً، بعد الكثير من التجارب، لدي انطباعٌ الآن بأنّه ما أن يصبحوا في حالة غيبوبة، يُوضعون أمام، كيف أقول هذا، أمام... أمام خيارٍ. الذهاب أو الإياب. وجميعهم يُفضّلون الرحيل.

غضّن ميركاسيه جبينه.

- في هذه الحالة، ألا يمكنكم استعادتهم بالقوّة، من خلال شحنات كهربائية أكثر قوّة، على سبيل المثال؟ أنت تعلم أنّ الاختصاصيين لم يوفّروا جهداً في سبيل إعادة الرئيس لوسيندير إلى هذا العالم. لقد ثبّتوا أقطاباً كهربائية في قلبه تماماً!

فكّرتُ بهدوء، فنحن نتحدّث كرجلي علم يتبادلان الاحترام، ولذلك وزنتُ كلماتي وانتقيتها بعناية:

- الأمر ليس بهذه السهولة. سيكون علينا أن نتمكّن من تحديد اللحظة المحدّدة التي يكونون قد «ذهبوا كفايةً» ولكن لم «يذهبوا كثيراً». إنّها أيضاً مشكلة التوقيت. هؤلاء الرجال حالفهم الحظّ مع حالة لوسيندير. لا بدّ أنّهم قد أعادوه بالضبط في الثانية الأخيرة التي كان كلّ شيءٍ لا يزال ممكناً فيها. وهذه بالتأكيد محض صدفة.

سعى الوزير إلى إظهار نفسه ذكياً في مجاله الذي لم يكن، في الجوهر، يعرف الكثير عنه.

- ومع ذلك، حاولوا أن تُزيدوا من الجهد الكهربائي، وتُقلّلوا كمية الناركوتي، وتخفّضوا جرعة كلوريد البوتاسيوم. وربّما إيقاظهم على نحوٍ أبكر.

كنا قد جرّبنا كلّ شيء في السابق، ولكنني هززتُ رأسي كما لو أنّه قد كشف لي للتوّ عن الوصفة المعجزة. ومع ذلك، لم أرغب في أن أخدعه، ولذلك أضفت:

- سيكون عليهم أن يختاروا طواعية العودة حينما لا تزال إمكانية ذلك متاحة لهم. لقد فكّرتُ في ذلك كثيراً. نحن نجهل كلّ شيء عمّا يدفعهم إلى الاستمرار على طريق الموت. ما الذي يُقدّم لهم، هناك في السماء؟ لو كنّا نعرف ما الذي يُقدّم لهم، لعرفنا أن نعرض عليهم ما هو أكثر إغراءً!

- إنّ مستكشفيكم يذكّرونني بأولئك البحارة في القرن السادس عشر الذين كانوا يفضّلون البقاء على الجزر الخلّابة في المحيط الهادئ، مع نساء رائعات وفاكهة ذات رائحة زكيّة، بدل أن يعودوا بمشقّة إلى موطنهم الأمّ أوروبا!

كان صحيحاً أنّ الوضع ينمّ تماماً عن نقاط مشتركة مع متمرّدي سفينة *باونتي* على سبيل المثال. كان مستكشفونا «مجرمين مدانين مثل بحارة تلك الحقبة ومتعطشين مثلهم إلى الفرار نحو بلدانٍ جديدة.

تساءل ميركاسيه:

- كيف يمكن الإبقاء على ميّتٍ؟ ما الذي يدفع الناس إلى المقاومة، والمرضى إلى تمنّي شفائهم؟

قلتُ، متنهّداً:

- طعم السعادة.

- نعم، ولكن ما الذي يجعل الناس سعداء؟ كيف يمكنكم التأثير على قومكم عندما يكونون في مواجهة معضلة «الرحيل أو العودة»؟ الدوافع متنوّعة جدّاً!

لقد سبق لي أن تأكّدتُ، في المستشفى، من أنّ الإرادة البشرية تتدخّل إلى حدٍّ كبيرٍ في حالات الشفاء التلقائي. كان بعضهم يرفضون بكلّ بساطة أن يموتوا وكانوا ينجحون في البقاء على قيد الحياة. في دراسةٍ حول الجالية الصينية في لوس أنجلوس، كنتُ قد قرأتُ أنّ نسبة الوفيات كانت قد هبطت عملياً إلى الصفر في يوم احتفالهم برأس السنة الجديدة. كان العجائز والمحتضرون قد برمجوا أنفسهم لكي يبقوا على قيد الحياة ويستمتعوا أيضاً بذلك اليوم. وفي اليوم التالي، يعود عدد الأموات إلى طبيعته.

إنّ قدرات الفكر البشري غير محدودة. أنا بنفسي، كنتُ قد تلهّيتُ بتطوير إمكانيات دماغي قليلاً من خلال برمجته لكي يجعلني أفتحُ عينيّ في الساعة الثامنة، دون أن أستخدم منبّهاً. وقد نجح ذلك في كلّ مرّة. وكنتُ أعلم أيضاً أنّني قد راكمتُ كمّيات من المعلومات في تلافيف دماغي وأنّه ليس عليّ سوى فتح أدراجٍ في جمجمتي لكي أحصل عليها. ستكون هناك بالتأكيد أبحاث مثيرة ينبغي إجراؤها حول قيام المرء بالبرمجة الذاتية لجهازه العصبي.

إذاً، لماذا لا يعود المرء من الغيبوبة بمحض إرادته وحدها.

إنّ مستكشف اليوم، على أيّ حال، لم يختر العودة. مذعورين من حركاته التشنجية، في لحظة وفاته، تراجع رفاقه الأربعة الآخرون عن التطوّع باتّفاقٍ بينهم. وقررنا بألّا نعتمد من الآن فصاعداً على تأثيرات المنافسة بين أفراد المجموعة. من الآن فصاعداً، سوف ينطلق روّادنا واحداً تلو الآخر وبحضورنا نحن فقط. ولكن ربّما كان قد فات الأوان على ذلك. حتى في سجن فلوري ميروغيس، بات يصعب علينا على نحوٍ متزايد أن نجنّد متطوعين.

59. ميثولوجيا تبتية

يعتَقد التبتيون أنّ المعبد البوذي الرئيسي مسكونٌ بتسع مجموعات من الشياطين:

1. الغودسباين: وهم حرّاس المعابد، ويعتبرون أصل الأوبئة العظيمة.
2. البدود: وهم شياطين الدوائر العليا. ويمكنهم أن يتّخذوا شكل

الأسماك أو الطيور أو الأعشاب أو الأحجار. يُقيم رئيسهم في قصرٍ أسود من تسعة طوابق.

3. السرينبو: وهم غيلان عملاقة.
4. الكلو: آلهة الجحيم على شكل ثعابين.
5. الباستان: آلهة تعيش في السماوات، والغابات، والجبال، والأنهار الجليدية.
6. اللها: آلهة سماوية باللون الأبيض. آلهة خيّرة، ويُفترض أنّها تقيم على كتف كلّ شخص.
7. الدمو: الشياطين الأشرار.
8. الدري: رُسل الموت، ويُعتَبرون غالباً مسؤولين عن الأمراض المميتة. وكلّ الشرور التي تُصيب البشر مصدرها شياطين الدري.
9. الغاندري: مجموعة الآلهة الشريرة.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

60. فيليكس كيربوز

لو تكلّمنا بدقّة، لم يكن فيليكس كيربوز شخصاً يتمنّى المرء أن يكون جاره. ولكن كان من الممكن أن يُمنح بعض الظروف التخفيفية.

في البداية، لم يكن طفلاً مرغوباً فيه. وحينما أظهرت مجلّة الدفاع عن المستهلكين (*نحن نجرّب من أجلك*) أنّ ماركة الواقيات الذكرية التي كان والده يستخدمها لم تكن موثوقة سوى بنسبة 96%، لم يستطع فيليكس أن يشكّ في أنّ والده سيكون جزءاً من نسبة الفشل البالغة 4%. ولا حتى والده استطاع أن يشكّ في ذلك. إنّ حقيقة أنه قد غادر منذ ثلاثة وخمسين عاماً لشراء السجائر تُظهر كم كانت هذه الخيانة قد أربكته.

بادئ ذي بدء، سعت سوزيت الأم إلى أن تُجهض نفسها، لكن فيليكس، وهو بالكاد قد أصبح جنيناً، تشبّث بالحياة مثل قشّةٍ عالقةٍ بشعرِ كلبٍ. لم تكن للجهود المتكرّرة لصنّاع الملائكة من نتيجة سوى تشويه وجه الطفل أثناء الحمل.

بعد ذلك، حاولت والدته لمرّتين أن تغرقه. تحت ذريعة غسل رأسه من الشامبو، غطست رأسه تحت ماء حوض الاستحمام. لكنّها أخطأت في حساب ضربتها ورفعت رأسه من المغطس باكراً. فيما بعد، دفعت إلى النهر الطفل الذي بالكاد كان يقف على ساقيه. ولكنّ فيليكس كان قد امتلك موهبة التخلّص من الأوضاع السيّئة. استطاع أن يتجنّب في اللحظة الأخيرة مروحة الزورق التي لم تتسبّب سوى بجرحٍ كبير على خدّه، ونجح في العودة إلى الضفّة من خلال الاستعانة بالمظلّة التي مدّتها والدته له خطأً وهي تضرب بها على رأسه.

طيلة فترة شبابه، كان فيليكس كيربوز يتساءل لماذا يكرهه جميع الناس كرهاً شديداً. هل لأنّه كان قبيحاً؟ هل لأنّهم كانوا يحسدونه على والدته الجميلة؟

لقد صرّ على أسنانه كثيراً، ولكن حينما ماتت سوزيت، انفجر باكياً. لقد تبيّن له أنّه فقد الشخص الوحيد الذي كان يحبّه على هذا الكوكب. الآن، ليس لديه سوى الحقد.

تجلّى هذا الحقد أوّلاً بالهجوم المنظّم على إطارات سيارة مركونة، نفّذه بطعنات سكينٍ. لم يكن أيّ شيء يهدّئه! تحالف مع عصابة من البلطجية وبدأ بابتزاز الصبيان الأثرياء، المحظوظين بكون أمهّاتهم على قيد الحياة. لقد قتل ثلاثة منهم أحجموا عن دفع أموالٍ له، وأصبح بذلك منفّذ العمليات القذرة لعصابته. ولكن حينما أصبح على مشارف الثامنة عشرة من عمره، وبدأ زملاؤه في إظهار بعض الاهتمام بالجنس الآخر، رفض فيليكس المشاركة في عمليات الاغتصاب. ما كان يُغريه هو اقتحام منازل البرجوازيين وغرز سكينه في أضلاعهم. كانت هذه طريقته في الانتقام لأمّه المحبوبة التي كانت قد كدحت دائماً في ظروفٍ قاسية لكي تربّيه.

وَحينما مثُلَ، في الخامسة والعشرين من عمره، أمام محكمة جنائية، لم ينجح في إقناع المحلّفين بالسعادة التي لا توصف التي يشعر بها في غرز سكينٍ طويلة وحادّة في البطن الرخو لضحيته المقبلة. لم يكن من الممكن الاطلاع على شغفه بالضربات المحكمة الموجّهة بالسلاح الأبيض. ووفقاً

لمرافعة المحامي العام، حُكِمَ عليه بمئتين وأربع وثمانين سنةً من السجن، قابلة للتخفيض إلى مئتين وست وخمسين سنة في حال أظهر حسن السلوك. وقد شرح محامي فيليكس له أنّ هذا الحكم يعادل السجن المؤبّد، «إلّا إذا مدّد التطوّر في مجال الطب عمر الحياة البشرية إلى ما أبعد من متوسّط العمر الحالي البالغ تسعين عاماً».

إنّ العمل من الصباح وحتى المساء في صنع فراش من شعر الخنزير البري لا يكفي لسعادة السجين. وكان قد أقسم على أن يخرج قانونياً من السجن. كان سلوكه الحسن قد أدّى إلى تخفيض مدة حكمه إلى مئتين وست وخمسين سنة. تُرى كيف سيُسرّع العملية أكثر؟

لم يكن مدير السجن الإصلاحي يعدم الأفكار في هذا المجال. في أيامنا هذه، كلّ شيء يُباع. وهذا هو ديدن المجتمع الحديث. وبالتالي لم يكن أمام فيليكس كيربوز سوى أن «يشتري» سنوات حرّيته.

تساءل ذو الحظّ العاثر، قائلاً:

– ولكن بأيّ مال؟

– منْ يتحدّث عن المال، هنا؟ إنّ التمتّع بجسدٍ قويّ وسليم، بالنسبة إلى شخصٍ مثلك قويّ البنية وطويل القامة، هو رأسمالٌ رائع!

وهنا بدأت حسابات رهيبة.

لكسب سنواتٍ من العمر، جرّب فيليكس منتجات دوائية لم تُعتَمَد بعد، ولا تُعرَف آثارها الجانبية.

منذ أن مُنِعَ إجراء الاختبارات على الحيوانات، وذلك تحت ضغط الجمعيات الصديقة للحيوانات، لم يبقَ أمام الشركات الصناعية خيارٌ آخر سوى اللجوء إلى السجناء لإجراء التجارب عليهم.

وبهذه الطريقة، حصل على تخفيضٍ لحكمه مدّة ثلاث سنوات مقابل تجربة منظّم لدقّات القلب عليه، تسبّب له باختلال في نبضات القلب وحالة من الأرق الليلي. وقد تسبّبت أنواعٌ من معاجين الأسنان المفلورة بإفراطٍ إلى إتلاف كبده (وحصل لقاء ذلك على تخفيضٍ في حكمه مدّة خمسة أعوام). وقد أدّى اختباره لصوابين تحتوي على كميات كبيرة من المواد المطهّرة إلى

تشقّقات في جلده في مناطق المفاصل (وحصل لقاء ذلك على تخفيضٍ في حكمه مدّة ثلاثة أعوام). وتسبّب اختباره لنوعٍ من الأسبرين ذي الفاعلية الزائدة بقرحة في معدته (وحصل لقاء ذلك على تخفيضٍ في حكمه مدّة عامين). وتركته تجربته لغسولٍ خاصّ بنمو الشعر، مُذيب على نحوٍ خاصّ، نصف أصلع (وحصل لقاء ذلك على تخفيضٍ في حكمه مدّة أربعة أعوام). حافظ فيليكس كيربوز على معنوياته العالية بل كان يندهش في بعض الأحيان حينما يتبيّن له أنّ بعض المنتجات كانت في الواقع غير مؤذية قط!

أثناء حدوث حالات تمرّد في السجن، كان يقف إلى جانب الحرّاس في قمع التمرد (وحصل لقاء ذلك على تخفيضٍ في حكمه مدّة عامين). لقد وشَى بمهرّبي المخدّرات الذين كانوا يعيثون فساداً داخل السجن (وحصل لقاء ذلك على تخفيضٍ في حكمه مدّة ثلاثة أعوام على حساب شراسة عدد من المعتقلين المشتركين المدمنين الذين عانوا من نقصٍ في المخدّرات).

– ما بك يا فيليكس، حتى تتظاهر بالتفاني هكذا على الدوام؟

– لا تُضايقوني. أنا لستُ متفانياً ولا مجنوناً، يا جماعة. أنا لديّ طموحات، وأريد أنا أخرج من هنا مرفوع الرأس.

– أُصدّق ذلك! استمرّ مع كلّ هذه القمامات الكيميائية وسوف تخرج من هنا في كيس الجثث.

كلّ يوم سبت، كان يتبرّع بدمه (وكان يحصل على تخفيضٍ لحكمه مدّة أسبوع لقاء كلّ ربع ليتر من الدم). يوم الخميس، كان يدخّن عشر علب سجائر من دون فلتر لدواعي دراسة لوزارة الصحّة حول مساوئ التبغ (وكان يحصل على تخفيضٍ في حكمه مدّة يومٍ واحدٍ لقاء كلّ علبة سجائر يُدخّنها). وفي يومي الاثنين والثلاثاء، كان يخضع لاختبارات الحرمان الحسيّ. كان يمضي كلّ النهار في حجرةٍ بيضاء معزولة، دون حركة ودون طعام. وفي المسَاء، يأتي رجالٌ في ثيابٍ بيضاء ويتحقّقوا إلى أيّ درجة كانت التجربة قد أثّرت فيه.

ومن بؤسٍ إلى بؤس، نجح فيليكس في إعادة حكمه إلى مدّة من مئة وثمانية وأربعين عاماً. ولكن من نتائج ذلك أيضاً، لم تعد لديه سوى كلية

واحدة صالحة، وأفقده مضادٌ للالتهابات، ذو أضرار بالغة، السمع بإحدى أذنيه. وكان يرمش بعينيه بلا توقّف بسبب عدسات لاصقة مرنة جدّاً وشديدة الالتصاق بحيث ما أن توضع في العين حتى تصبح مثبّتة ومن المستحيل نزعها. ورغم كلّ ذلك، كان مقتنعاً بأنّه سوف يخرج ذات يوم.

حينما تكلّم معه المدير عن مشروع «الفردوس» وعن ثمانين عاماً من التخفيض في مدّة الحكم من جرّاء مشاركته في اختبار المشروع، لم يفكّر للحظة واحدة في طلب المزيد من المعلومات التفصيلية. لم يسبق على الإطلاق أن عُرِضت عليه هدية ثمينة كهذه.

من المؤكّد أنّ إشاعة كانت تسري في السجن تقول إنّ المئات من السجناء قد ماتوا في الحجرة الواقعة في أقبية السجن حيث تجري التجربة. لم يهتمّ فيليكس بتلك الإشاعة. فبعد كلّ ما تعرّض له من اختبارات دون أن يموت، بات مؤمناً بحسن طالعه. كان الآخرون يفتقدون الحظّ، وهذا كلّ ما في الأمر! وفي النهاية، ليس هناك أيّ شيء من دون مقابل، ومن أجل الحصول على تخفيض الحكم مدّة ثمانين عاماً، لا بدّ أن تُطالَب ببذل جهدٍ هائل.

استقرّ عن طيب خاطر في كرسي طبيب الأسنان. ومدّ جذعه للأقطاب الكهربائية. وشدّ على نفسه غطاء التبريد.

- هل أنت جاهز؟

أجاب كيربوز:

- حسناً، أنا طوع أوامركم.

قال راؤول:

- أنا جاهز!

قالت آماندين بدورها:

- أنا جاهزة!

لم تكن هناك صلوات، ولا رسم للصليب، ولا أصابع متشابكة. اكتفى فيليكس بإيقاف مضغة التبغ التي كان لا يزال يحتفظ بها في خدّه الأيمن.

على أيّ حال، لم يكن قد فهم شيئاً عن كلّ هذا العرض العلمي ولم يهتمّ به على الإطلاق، مركّزاً فقط على المكافأة المدهشة الناجمة عنه. ثمانون عاماً من التخفيض في الحكم!

ومثلما أُمِر، بدأ بالعدّ العكسي ببطء:

– ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد... انطلاق.

ثمّ ضغط ببراءة على القاطع.

61. الميثولوجيا الهندية تشيبيوا

يعتقد هنود تشيبيوا، الذين يعيشون في ويسكونسن بالقرب من بحيرة سوبيريور، بأنّ الحياة، بعد الموت، تستمرّ تماماً كما كانت من قبل، دون نهاية ودون أيّ تقدّم في اتجاهٍ أو آخر. إنّه الفيلم نفسه يتكرّر باستمرار، دون أيّ هدف، ودون أيّ عبرة، ودون أيّ معنى.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

62. استمارة شرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة:

إنّ راؤول رازورباك، وبمساعدة فريقٍ من العلماء، يُجري حالياً بعض التجارب حول الموت. وقد وقع أكثر من مئة شخصٍ ضحية لتلك التجارب. هل ينبغي أن نتصرّف بأسرع وقت؟

جواب من الجهات المختصّة:

كلا. ليس بعد.

63. محاولة جديدة

قمنا، راؤول وآماندين وأنا، بنشر مجموعة الأدوات المعتادة الخاصّة بالإيقاظ بعد الغيبوبة. لم نعد نؤمن بها حقّاً. وحده راؤول كان يحدّق بانتباهٍ وتركيز في الجسد الذي بات هامداً وهو يكرّر دون توقّف ما يشبه صلاةً: «استيقظ، أرجوك، استيقظ».

شرعنا بالإجراءات الإنعاشية، ونحن نراقب بغموض شاشة جهاز تخطيط القلب الكهربائي، وجهاز تخطيط الدماغ الكهربائي.

ردّد راؤول بطريقة آلية:

- استيقظ، استيقظ!

قمتُ بكلّ الحركات المعتادة. كانت هناك حاجة إلى صرخة قويّة لإخراجي من غفلتي.

صاح راؤول:

- لقد حرّك إصبعاً! ابتعدوا! ابتعدوا جميعاً! لقد تحرّك!

لم أشأ أن أبني أوهاماً، ولكنني ابتعدت.

على حين غرّةٍ، أصدر جهاز تخطيط القلب الكهربائي صريراً. كانت رنّة خفيفة وخجولة، في البداية. ثمّ أصدر رنّتين متتاليتين، وأخيراً أصدر ثلاث رنّات حازمة. تحرّكت الإصبع من جديد. ثمّ تحرّكت جميع الأصابع.

على كرسي طبيب الأسنان، بعد اليد، بدأت الذراع، ومن ثمّ بدأت الكتف بالحركة. أتمنى ألا نكون لا نزال نتعامل مع مختلٍّ عقلي. توقّعاً لحادثٍ مزعجٍ جديد من هذا النوع، كنتُ أحمل في جيبي على الدوام هراوة مطاطية صغيرة.

ارتعشت أهدابه وانفتحت عيناه. التوى الفم بتكشيرةٍ تحوّلت إلى ابتسامةٍ. بينغ، بينغ، بينغ، كان الدماغ والقلب قد استعادا إيقاعهما الطبيعي.

بدا أنّ فأر التجارب البشري خاصّتنا لم يكن ميّتاً سريرياً ولا مختلاً عقلياً، بل كان سليماً ومعافى. لقد عاد المستكشف إلى محطّة الإطلاق سليماً ومعافى!

زمجر راؤول:

- يااااااهوووووووووه! لقد نجـ... حـ... نا!

تردّدت أصداء صيحات الفرح في العنبر. تعانقنا، آماندين وراؤول وأنا، في جنون وهيجان.

وبطبيعة الحال، كان راؤول أوّل من استعاد هدوءه. فانحنى نحو فيليكس وسأله:

- إذاً، كيف كان ذلك؟

كنّا نترقّب بتلهّف الكلمة الأولى التي سوف تصدر عن مسافرنا الاستثنائي. أيّاً كانت هذه الكلمة، سوف تدخل على الأرجح في كتاب التاريخ المدرسي، كلمة أوّل إنسان نجح في الذهاب إلى بلاد الموتى والعودة منها.

على حين غرّة، ساد الصمت المطبق في الحجرة. لقد انتظرنا كثيراً هذه اللحظة. حتى الآن، كنّا قد فشلنا على الدوام، وكان هذا الأرعن صاحب هيئة الإنسان البدائي هو الذي يستأثر بالأجوبة التي يحلم بها العالم منذ الأزل.

فتح فمه. كان سيتكلّم. كلّا، لقد عاد وأطبق شفتيه. ثمّ انفتح فمه من جديد في محاولةٍ ثانية للتكلّم. رمش بعينيه. خرج صوتٌ أبحّ بمشقّة من بين شفتيه.

- آه... اللعنة.

حدّقنا فيه باندهاش. مسّد جبينه.

- أووه، اللعنة!

ثمّ تفرّسنا، كما لو أنّه مندهشٌ لما نوليه من اهتمامٍ كبير.

- إذاً، هل حصلتُ على سنواتي الثمانين من الإعفاء من العقوبة؟

ربّما كان علينا أن نربّت بفرح على كتف زبوننا لكي نهنّئه، ولكننا أدركنا أنّه يجب أن نترك له المجال لكي يستردّ أنفاسه. ومع ذلك، ألحّ راؤول:

- كيف كان ذلك؟

فرك الرجل معصميه، ورمش بعينيه.

- حسناً، كيف سأقول لكم؟ لقد خرجتُ من لحم جسدي. في البداية، جعلني هذا الأمر أشعر بالقشعريرة. كنتُ مثل فرخ عصفورٍ دوري. اللعنة! لقد طرتُ خارج جسدي... لقد صعدتُ إلى الأعلى مع كلّ جثث اليوم الطازجة. كان هناك بينهم من يمتلكون هذه الوجوه القبيحة! حلّقنا هكذا لبرهةٍ، ومن ثمّ وصلنا إلى حلقة ضوء. كانت تشبه أطواق النار التي يجعلون النمور تقفز عبرها، كما في سيرك بيندر في التلفاز.

استعاد أنفاسه. كنّا نصغي بتلهّف إلى كلّ كلمة تخرج من فمه. منبهراً بكلّ هذا الاهتمام، تابع:

- شيءٌ لا يُصدَّق. في الوسط، كان هناك ما يشبه مصباح جيب. حلقة مصباح نيون مع ضوءٍ في الوسط، وهذا الضوء، كما لو أنّه كان يحدّثني. كان يقول لي أن آتي وأن أقترب. فأقبلتُ نحوه، ودخلت في حلقة النار مثل نمرٍ في السيرك. لقد اقتربتُ من ضوء مصباح الجيب...

لم يستطع راؤول الامتناع عن مقاطعته:

- إذاً، حلقة نار وضوء في الوسط؟

- نعم هذا صحيح. مثل دريئة. لا أدري إن كنتُ قد أخبرتكم إنّ هذا كان يتكلّم مباشرةً إلى دماغي. لقد قال لي أنّ أتقدّم أكثر. وأنّ كلّ شيء على ما يُرام.

سألت آماندين بلهفة، وهي منبهرة:

- وهل تقدّمت؟

- أجل. ورأيت حينئذٍ ما يشبه مخروطاً أو قمعاً مع أشياء تدور.

- أيّ أشياء؟

- حسناً، أشياء غريبة! نجوم، وبواخر، ودفقات من أشياء غريبة كانت تدور مثل دوّامةٍ لتشكّل هذا المخروط الشنيع الكبير مثل المئات من البيوت المكدّسة بعضها فوق بعض.

ضرب راؤول قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى. وصرخ مبتهجاً:

- قارة الموتى! لقد رأى قارة الموتى!

رجوته أن يُكمل:

- أكمل، أرجوك.

- حسناً، تقدّمتُ أكثر وكلّما تقدّمتُ أكثر، أزعجني هذا الضوء أكثر إلى درجة أنني أحسستُ بأنّه لم يعد بمقدوري أن أستدير نصف دورة. سأكون بخير، أنا وتخفيض مدّة عقوبتي! والضوء الذي كان يزنُّ في رأسي قائلاً إنّه لم يعد لهذا من أهمية وإنّ كلّ ما في الأسفل ليس سوى تفاهة وهراء...

آه! كان الضوء يتكلّم بالفعل. وفضلاً عن ذلك، يعتقد المرء نفسه في مغارة علي بابا، مليئة بالكنوز، لا أقصد ذهباً وفضّة، بل أقصد أنّها مليئة بالمشاعر الجميلة. كان شعوراً لذيذاً ودافئاً وحلو المذاق وعذباً. كما لو أنني التقيتُ والدتي من جديد. أليس لديكم كأس ماء؟ لقد جفّ فمي تماماً.

راحت آماندين لتحضر كوباً من الماء، فشربه في دفعة واحدة، قبل أن يستأنف حديثه، قائلاً:

- لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً آخر غير التقدّم إلى الأمام، تبّاً! ولكن هناك، رأيتُ ما يشبه جداراً شفّافاً. لم يكن جداراً من القرميد، بل كان جداراً من جلد المؤخّرة. كأنّه من الجيلاتين. حتى إنّني فكّرت بأنني في فتحة شرجٍ شفّافة. لقد أدركتُ أنّ هذا قد أصبح خطراً جدّاً. لو أنني عبرتُ الجدار، لما استطعتُ أن أعود أبداً، وكنتُ سأخسر إلى الأبد أعوامي الثمانين من تخفيض مدّة العقوبة. فتوقّفتُ عن التقدّم.

إذاً، لقد نجح هذا الرجل في حلّ مشكلتي في «الاختيار». لقد وجد أسباباً لكي يبقى على قيد الحياة. لم أستطع أن أصدّق. أمّا هو، فقد قال متنهّداً:

- اعلمْ أنّ ذلك لم يكن بالأمر السهل. كان عليّ أن أجهد كثيراً لكي أستدير نصف دورة مع روحي. ومن ثمّ، بعد برهةٍ، ظهر نوعٌ من خيطٍ طويل أبيض اللون ومائل إلى الفضّي أعادني بضربة إلى هنا وفتحتُ عيني من جديد.

شعرنا كما لو أننا نحن الثلاثة، راؤول وآماندين وأنا، قد زرنا السماء السابعة. فهكذا، لم تذهب كلّ هذه التضحيات سدى. وقد أثمرت جهودنا أخيراً. لقد تجاوز رجلٌ حاجز الموت وعاد لكي يصف لنا العالم الآخر. وماذا عساه أن يكون هناك أكثر من هذا العالم المضيء وغير المادّي؟

بعد أن شرب الماء البارد، طلب فيليكس رشفةً من شراب الروم.

هرعت آماندين من جديد لإحضار الروم. قلتُ متحمّساً:

- يجب أن نعقد مؤتمراً صحفياً. يجب أن يعرف الناس...

هدّأني راؤول بسرعة. قال:

– لا يزال من المبكّر إعلان ذلك. في الوقت الراهن، يجب أن يبقى مشروعنا كما هو عليه الآن: سرّي للغاية.

64. لوسيندير

داعب الرئيس لوسيندير رقبة فيرسينجيتوريكس، كلب اللابرادور. كان فرحاً.

– لقد نجحوا، إذاً، يا ميركاسيه؟

– نعم. لقد رأيتُ بعينيّ شريط الفيديو الذي يُظهر إقلاع وهبوط هذا... الثاناتونوت.

– ثاناتونوت؟

– إنّها الكلمة التي ابتكروها للإشارة إلى فئران التجارب البشرية التي استخدموها. وهي تعني «مستكشف الموت» أو شيئاً من هذا القبيل، باللغة اليونانية.

قطّب الرئيس حاجبيه، وابتسم:

– اسمٌ جميلٌ جدّاً، وشاعريٌّ جدّاً. أقصد، أحببتُ كثيراً هذا الاسم. إنّه اسمٌ تقني بعض الشيء، بالتأكيد، ولكن القليل من الجدّية لا يضرّ بتجربتنا في شيء.

في الواقع، كان لوسيندير مبتهجاً، وكان من شأن أيّ تسمية أن تُسعده: محبّو الجثث، مرشدو الموت، زوّار الفردوس... كان سيبتهج بنفس الأسلوب.

حاول ميركاسيه أن يُلفت انتباهه إليه. ففي النهاية، كان هو منظّم المشروع، وكان من حقّه أن يتفاخر بنجاحه. ومع بقائه وفيّاً لخطّ القيادة المرسوم من قبل زوجته، خاطر بالقول:

– وإجمالاً، إنّهم مثل روّادٍ اكتشفوا أستراليا جديدة.

– آه نعم، يا ميركاسيه. لقد فهمتَ أخيراً فكرتي.

سوف يسعى الوزير ليضمن لنفسه جدارة هذا الاكتشاف، ولكنّه هو،

الرئيس ذو الرؤية العظيمة، سوف يدخل إلى كتب التاريخ. لقد فكّر لوسيندير بأنّه قد نال الخلود. سوف يُنصَب تمثاله في الساحات، وسوف يُطلَقُ اسمه على شوارع... لقد عرّض نفسه لمخاطر. وقد دفع ثمن ذلك: العشرات من القتلى، بل ما يُقارب مئة شخص، على ما يبدو... ولكنّه حقّق النجاح!

قطع ميركاسيه أحلامه بالمجد:

- والآن، ماذا نفعل، سيّدي الرئيس؟

65. كتاب التاريخ المدرسي

منذ إطلاق المجموعات الأولى من المستكشفين، تجاوزت النتائج كلّ الآمال. نجح المتطوّع الأوّل، فيليكس كيربوز، في الإقلاع والهبوط مباشرةً. وقد اندهش الروّاد لقدرتهم على النجاح بهذه السرعة.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

66. ميثولوجيا سلتية

وفق الميثولوجيا السلتية، العالم الآخر هو مجالٌ غامض لا يعرف لا الموت، ولا العمل، ولا الشتاء. وهو مسكونٌ بالآلهة، وبالأرواح، وبأناسٍ يحتفظون بشبابهم إلى الأبد. يُطلق الويلزيون على هذه البلاد اسم أنون. وفي هذه البلاد يوجد مرجل الانبعاث، ومرجل الوفرة. يُعيد مرجل الانبعاث الحياة إلى المحاربين القتلى، في حين يقدّم مرجل الوفرة المادة التي تُخلّد من يستهلكونها.

بالنسبة إلى الويلزيين والإيرلنديين، تحظى أنون، أي العالم الآخر، بنفس حقيقة العالم المادي.

وبالتالي تكفي بعض الممارسات السحرية للتحوّل من أحدهما إلى الآخر.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

67. بعد الحفلة

– كم أودّ أن أكون فيليكس.

لم تعد آماندين، التي كانت في العادة متحفّظة جدّاً، تُخفي غبطتها وابتهاجها. وكما بعد كلّ جلسة، كنتُ أصحبها إلى بيتها. في ذلك المساء، كنّا ثملين بعض الشيء. في محطّة إطلاق المستكشفين، ونظراً لانعدام الوسائل، لم نستطع أن نحتفل بانتصارنا السرّي سوى بالشمبانيا. كانت الأكواب البلاستيكية قد طارت هي الأخرى إلى الأعلى.

– يا لها من لحظة رائعة عشناها! كم أتمنّى أن أكون هذا الرجل الأوّل، هذا المستكشف الأوّل الذي وضع قدمه على القارة الأعلى وعاد منها! آه نعم، كم أتمنّى أن أكون فيليكس!

بذلتُ جهدي لكي أُعيدها إلى أرض الواقع.

– الأمر ليس بهذه السهولة. يجب أن يكون هناك حافز. لقد سمعته، فهو بنفسه كان قد انجذب إلى الضوء. وقد تردّد في العودة إلى الأرض. وهو لم ينجح في ذلك إلّا لأنّه كان قد برمج نفسه قبل كلّ شيء على أن ينال تخفيضاً في مدّة عقوبته في هذا العالم السفلي.

أسرعتُ أكثر. خلف زجاج نوافذ السيارة، كان منظر الضواحي الكئيبة يمرّ وسط الظلام. ألقيتُ نظرةً جانبية على آماندين التي كانت تضع بعنايةٍ مسحوقاً على أنفها رغم المطبات الموجودة في الطريق.

بدأتُ أعرفها على نحوٍ أفضل. كان راؤول قد حدّثني عنها. كانت هذه المرأة الجميلة جدّاً ممرّضة حيّة الضمير وأمينة جدّاً. بل وحيّة الضمير للغاية. لم تعد تتحمّل رؤية المرضى الذين وثقوا بها وهم يموتون في المستشفى الذي تعمل فيه. حينما كانت في المدرسة، لم تكن تتحمّل نيل درجاتٍ سيّئة. وفي المستشفى، لم تكن أيّ حالة وفاة سوى درجة الصفر بالنسبة إليها. حينما يموت مريضها على طاولة العمليات، تشعر بأنّها مسؤولةٌ عن ذلك.

كانت زميلاتها يكرّرن عليها على الدوام أنّ ذلك ليس خطأها، ولكنّها

لم تكن تصدّق من ذلك شيئاً. كانت تبقى مقتنعة بأنّ كلّ حالة وفاة هي دليلٌ جديد على عدم كفاءتها.

كانت آماندين تعتقد أنّ الناس يموتون بسبب انعدام الحبّ. بالنسبة إليها، حتى الشخص الذي يكون في الطور النهائي من سرطانٍ منتشرٍ في عموم جسده، يكون هو من اختاره. وإذا كان قد اتّخذ خياره، فذلك لأنّ الوسط المحيط به قد أثبت له أنّه عاجزٌ عن أن يجعله يحبّ الحياة ويستمتع بها. وفي المحصلة، كانت تبذل كلّ جهودها لكي تحبّ بقوّة أكبر كلّ مريضٍ من مرضاها. وبما أنّهم كانوا يموتون رغم ذلك، كانت تلوم نفسها لأنها لا تجيد أن تمنحهم ما يكفي من المحبّة.

وغنيٌّ عن القول إنّه، في ظلّ هذه الظروف، كان من الأفضل لآماندين بالوس أن تغيّر مهنتها. لكن الإخفاقات كانت تحثّها على الدوام أن تعاود المحاولة، تماماً كما كانت الحال بالنسبة إلى راؤول، إلى أن تصل إلى الكمال في عملها أو تدمّر نفسها ذاتياً. حينما قرأت مصادفةً إعلاناً صغيراً يخصّ المشروع المتعلّق برعاية المحتضرين ويطلب ممرّضةً متحمّسة لذلك، أسرعت إلى الاستجابة له. وما كاد راؤول يحدّثها عن مشروع «الفردوس» حتى عقدت العزم على أن تكرّس نفسها جسداً وروحاً لهذا المشروع القائم على إعادة الموتى إلى عالم الأحياء.

وما يُثير الدهشة هو أنّ موت ضحايا المشروع الذين كان عددهم في البداية كبيراً جدّاً لم يزعجها قط. كان لآماندين منطقٌ غريب: لقد كانت على استعدادٍ تامّ أن تقتل بعض الأشخاص في الحال على أمل أن تنقذ الكثير منهم في مستقبلٍ غير محدّدٍ.

ردّدت مجدّداً:

– أودّ أن أكون فيليكس. إنّه شجاعٌ جدّاً ووسيمٌ جدّاً أيضاً.

عبستُ من كلامها. ما كان عليها أن تبالغ في الأمر على أيّ حال. ربّما يكون شجاعاً، ولكن أن يكون وسيماً، هذا الإنسان البدائي؟

– لا بدّ أنّه قد واجه محناً فظيعة، في الأعلى.

كانت هي الجميلة حينما تحدّثت عن فيليكس.

سألتُها لكي أغيّر الموضوع:

- ماذا سنفعل الآن؟

- سوف نُزيد عدد عمليات الإطلاق. لقد سبق أن زفّ راؤول الخبر السعيد إلى الوزير ميركاسيه. والرئيس يحرص على أن يُهنّئنا شخصياً. لقد اتّصل بمدير السجن الإصلاحي لكي يختار ما يُقارب مئة مرشّحٍ جديد من المستكشفين.

كانت آماندين سعيدة للغاية كما لو أنّ الأمر يتعلّق بتنظيم بعض الحفلات المفاجئة اللطيفة.

ثمّ تمتمت بعد أن تمالكت غبطتها:

- لقد فزنا.

68. استمارة شرطة

طلب معلومات وصفية أساسية

الكنية: كيربوز

الاسم: فيليكس

الشعر: لونه أشقر وخفيف

الطول: 195 سم

علامات فارقة: طويل القامة، ووجه مليءٌ بالندب.

ملاحظات: أوّل مستكشف موت عاد إلى عالم الأحياء

نقطة الضعف: حاصل ذكائي ضعيف

69. مقروء في الصحافة

فضيحة: الرئيس لوسيندير يُضحّي بسجناء عاديين من أجل تجارب علمية مزعومة

لقد احتجنا إلى إجراء تحقيقات طويلة حتى نقتنع أنّ الرئيس لوسيندير لم يكن سوى أحد أكبر مجرمي عصرنا. أكثر انحرافاً من لاندرو، القاتل المتسلسل الفرنسي، ومن بيتيو، الطبيب والقاتل المتسلسل الفرنسي، قتل

الرئيس لوسيندير، رئيس دولتنا، المُنتَخَب من قبل أغلبية الفرنسيين، بدمٍ باردٍ رجالاً لا يعرفهم حتى.

ضحاياه: سجناء عاديون لم يُطالبوا سوى بقضاء عقوبتهم في سكينة تامّة. ذريعته في ذلك، أو بالأحرى دافعه، كيفما تُريدون: دراسة الموت! لأنّ رئيس جمهوريتنا، في الواقع، يتعلّق بهواية خاصّة: لا لعبة الغولف، أو الطبخ بالزبدة، أو علم المسكوكات، بل الموت!

لقد قتل الرئيس بعنفٍ سجناء بمساعدة بعض المتواطئين المرتبطين بمصالحه، وزير البحث العلمي ميركاسيه، والبروفيسور راؤول رازورباك، عالم البيولوجيا، والدكتور مايكل بينسون، الطبيب - المخدِّر الفاسد، وآماندين بالوس، الممرّضة الوصولية.

يُقدّر عدد السجناء الذين لقوا حتفهم بفضل الرعاية الطبية الجيّدة التي قدّمته «فرقة الموت المبرمج» هذه بمئة وثلاثة وعشرين سجيناً، وهذا لا لشيء سوى إرضاء الفضول المرضي لرئيس دولة مستبدّ.

يكاد المرء يعتقد أننا قد عدنا إلى تلك العصور البربرية حيث كان يمتلك الأباطرة الرومان حقّ الحياة والموت على العبيد المغلوبين على أمرهم. كان بعضهم يقومون بقتل مجموعات منهم يؤخذون بشكلٍ اعتباطي ليروا إن كان رداء يسوع المسيح يستطيع أن يحييهم بعد قتلهم.

ومع ذلك، في أيامنا هذه، لم يعد هناك إمبراطورٌ (حتى وإن كان لوسيندير يعتبرُ نفسه في بعض الأحيان قيصراً)، لم يعد هناك عبيدٌ. على الأقلّ هذا ما كنّا نعتقده حتى اليوم. كنّا مقتنعين أننا نُقادُ من قبل رئيسٍ منتخبٍ بطريقةٍ ديمقراطية من قبل المواطنين. رئيس واجبه الأوّل هو السهر على حسن صحّة رعيّته وليس قتلها!

ما كاد مدير سجن فلوري ميروغيس، الذي أغضبته رؤية كلّ هذه الجثث المتراكمة كلّ يوم في أقبيته، أن يكشف الحقيقة المرعبة التي تسبّبنا بها حصرياً، حتى سارعت المعارضة إلى المطالبة برفع الحصانة الرئاسية. وشكّل البرلمان في الحال لجنة تحقيق خاصّة للتحقّق من الوقائع.

وقد رفض أغلب الوزراء المستجوبين مواجهة الحقائق، إلا أنّ بعضهم

أعلنوا أنّه في حال قدّمت اللجنة الدليل على عمليات القتل المتسلسلة هذه، فسوف يقدّمون في الحال استقالاتهم.

من جهته، لم ينتظر الوزير ميركاسيه نتائج التحقيق والكشف عن المزيد من المعلومات لكي يفرّ إلى أستراليا مع زوجته ويفلت بذلك من أيّ ملاحقة قضائية.

70. موعدٌ مع جماعة متكالبة ضدّنا

بعد الحماسة، تأتي المرارة. كنّا قد حلّقنا مع نجاح كيربوز، ومن ثمّ سقطنا بين كمية كبيرة من الشتائم والإهانات التي تبعتها وصمة العار العامّة.

كان مدير سجن فلوري قد أتقن عمله. وكانت القضية تأخذ كلّ يوم بعداً أوسع. أوغلت الصحف في التهجّم علينا. واقترح بعض المحرّرين في الصحف أنّ يتمّ إخضاعنا نحن أيضاً لتجاربنا التي أجريناها على السجناء. وكشفت استطلاعات للرأي أنّ 78% من السكان يرغبون في ردعنا بأسرع ما يمكن عن إلحاق الأذى بالآخرين من خلال وضعنا خلف القضبان الصلبة.

فتح قاض للتحقيق تحقيقاً في القضية. وقد قام باستدعائنا بالتناوب. وعدني بمعاملة تفضيلية إذا ما شهدتُ ضدّ شركائي. وأفترضُ أنّه قد تعهّد بالشيء نفسه تجاه الآخرين. وإذ ساورني الشكّ، آثرتُ أن أظلّ صامتاً.

أمر القاضي بإجراء تفتيشٍ، وقام رجال شرطة بتفتيش شقّتي، وقد فكّكوا أرضية الشقّة لوحاً بلوح كما لو أنني ربّما أكون قد أخفيتُ جثثاً تحتها!

أنذرتني جمعية شركاء الملكية بودّية أن أُخلي الشقّة قبل نهاية الفصل. وشرحت لي حارسة العمارة أنّ وجودي فيها يؤدّي إلى تخفيض ثمن المتر المربّع.

كنتُ بالكاد أجرؤ على الخروج من منزلي. في الشوارع، كان الأطفال يركضون خلفي وهم يصرخون: «جزّار فلوري ميروغيس، جزّار فلوري ميروغيس!» ولكي نشجّع بعضنا بعضاً، اعتدنا، مع آماندين، أن نلتقي بانتظام عند راؤول، الذي بدا أنّه يأخذ الأمور بلامبالاة. كان يرى أنّ هذه الانتكاسات المؤقّتة لن تُعيق سير التاريخ.

ومع ذلك، كانت له المقدرة على البقاء بهذا الهدوء. فقد أُقيل من منصبه كباحث في المركز الوطني للبحث العلمي، وفُجِّرَت سيارته من طراز رينو 20 المكشوفة في هجومٍ تبنّته «لجنة السجناء الناجين» التي ظلّت مجهولة حتى اليوم. وكان قد كُتِبَ على باب عمارته بأحرف ضخمة، حمراء اللون: «هنا يُقيم قاتل مئة وثلاثة وعشرين بريئاً».

وبما أننا كنّا نرفع بعضنا من معنويات بعض بشكلٍ متبادل من خلال تذكير بعضنا بعضاً بوثبة كيربوز، دقّ رجلٌ علينا الباب. كان يعتمرُ قبّعة وينزلها حتى تلامس عينيه. إنّه الرئيس لوسيندير شخصياً. كانت هذه أوّل مرّة أراه فيها. بعد تعارف سريع، نقل إلينا آخر المعلومات حول قضيتنا. لم يكن مشجّعاً كثيراً. منتصباً أمام الطاولة كما لو أنّه يُدير اجتماعاً، أعلن:

– أصدقائي، فلنستعدّ لمواجهة العاصفة. ما تعرّضنا له حتى الآن لا يساوي شيئاً أمام ما ينتظرنا في قادم الأيام. لقد تحالف الأصدقاء والأعداء السياسيون لكي يقوموا بتصفية الحسابات معي. هم لا يهتمون ببضعة سجناء مقتولين ولكنّهم يرغبون أشدّ الرغبة في أن يُزيحونا ويحلّوا محلّنا. وأنا لا اثق على نحوٍ خاصّ بأصدقائي، فهم يعرفون كيف ينالوا مني. يؤسفني أنني جررتكم إلى هذه الزوبعة، ولكن في النهاية كنّا نعرف المخاطر التي عرّضنا أنفسنا لها. ليت هذا الجاحد ميركاسيه وهذا المدير الغبي لم يخونانا!

استسلم الرئيس، وأنا كنتُ على حافة الرعب، أمّا راؤول، الوفي لنفسه، فلم يرفّ له جفن، حتى عندما جاءت بلاطةٌ وخلعت نافذةً من الصالون.

قدّم الويسكي في جميع الجهات، وقال:

– أنتم جميعاً تخدعون أنفسكم. لم يسبق قط أن كانت الظروف لمصلحتنا كما هي عليه الآن. لولا هذه التسريبات غير المتوقّعة، لكنّا لا نزال نعمل سرّاً في أقبية السجن. من الآن فصاعداً، سوف نعمل في وضح النهار. سيادة الرئيس، سوف ينحني العالم برمّته أمام جرأتكم وعبقريتكم.

بدا لوسيندير متشككاً.

– هيّا، هيّا، لم تعد لي أيّة قيمة. لا جدوى من مجاملتي.

أصرّ صديقي:

- بل على العكس. كان مايكل على حقّ عندما قال إنّه علينا أن نكشف بأسرع ما يمكن عن النتائج التي توصّلنا إليها للصحافة. فيليكس بطلٌ، وهو يستحقّ الشهرةَ والامتنان.

لم يفهم الرئيس إلى أين يُريد رازورباك أن يصل. أمّا أنا، فاغتنمت الفرصة في الحال، وقلتُ نيابةً عنه:

- علينا أن نبدأ بالهجوم بدل أن نكمن في موقع الدفاع عن أنفسنا. كلّنا معاً، فلنتّحد كلّنا معاً ضدّ الأغبياء!

في البداية، شعرنا بأننا مجموعة من المتآمرين على وشك السقوط في الفخّ. ومن ثمّ، شيئاً فشيئاً، تقابلنا ونظرنا بعضنا إلى بعض، فوجدنا أنّ عددنا قليلٌ ولكننا نمتلك الجرأة. لم نكن نحظى بمواهب وقدرات خاصّة ومختلفة عن الآخرين، ولكننا مع ذلك سعينا معاً إلى تغيير العالم. لا ينبغي لنا أن نتنازل.

آماندين، راؤول، فيليكس، لوسيندير. لم يسبق لي قط أن شعرتُ بأنني على هذه الدرجة من التواطؤ والتفاهم مع بشرٍ آخرين، مثلما شعرتُ به مع هذه المجموعة.

71. ميثولوجيا إغريقية

متروكاً للموت في ساحة معركة، وجد المحارب إير بامفيليان نفسه في حجرةٍ فارهة فيها أربع فتحات: فتحتان تطلّان على السماء، واثنتان تطلّان على الأرض. كانت الأرواح الفاضلة تصعد إلى السماء، بينما تنزل الأشباح نحو الأرض. تنزل الأرواح الآثمة إلى الأرض عبر شقٍّ، وتصعد الأرواح من شقٍّ آخر مغطاةً بالغبار.

لقد رأى المحارب إير العقوبات التي تعرّض لها الأشرار. لقد وصل إلى المكان المذهل حيث يرتفع العمود الذي هو محور العالم. مصحوباً بالأرواح، ذهب إلى سيتي حيث يجري نهر أميليس الذي تتيح مياهه النسيان.

حدث دويٌّ واستعاد المحارب إير الحياة على محرقة الجنازة وسط استياء البشر المحيطين به. وقد روى كيف رأى بلاد الموتى وعاد منها سالماً. لم يصدّق أحد حكايته، فأداروا له ظهورهم بغيظٍ.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

72. إلى الأمام بأقصى سرعة

أخذت الفضيحة أبعاداً عبثية. انتشرت صور ما أسموه «مختبر الموت المبرمج» خاصة على الصفحات الأولى لكلّ الصحف. تحت الأضواء الخافتة لعدسات الكاميرات، بدت الحجرة قاعة مخيفة للتعذيب. بل أضاف بعض الصحافيين الخبثاء على صدر الصفحات صور مباضع ملوّثة بالدم وملاقط لا تزال مغطاة بالشعر المقتلع.

ومن ثمّ كان هناك اكتشاف «المقبرة الجماعية الرئاسية»، التي هي، في الواقع، محرقة الجثث التابعة لسجن فلوري ميروغيس. ولأنّه لم يعد هناك أثرٌ لجثامين مستكشفينا البائسين، تخيّل الصحافيون صوراً مركّبة مع عارضات أزياء احمرّت وجوههنّ خجلاً.

لقد قاموا بالتصوير بطريقة غير واضحة لكي يضفوا على الصور جانباً أكثر مأساويةً وأكثر واقعيّةً. بدا كأنّ هذه الصور كانت قد التُقِطَت من قبل جاسوسٍ خلال نشاطنا. بل وصل الأمر بأحد الصحافيين بأن حظي بفرصة تصوير عملية انتحار حقيقية في سجن فلوري ميروغيس. كان الرجل قد شنق نفسه بعد أن كنّا قد مُنعنا من الوصول إلى محّطة الإطلاق. ولكن هذا لم يغيّر شيئاً. وسرعان ما شغلت صورة جثّته المنتفخة، وقد تدلّى لسانه وجحظت عيناه، الصفحة الأولى في كلّ المجلّات. وكانت عبارة «لقد تجرّأوا!» قد كُتِبَت تحت صورة هذا الرجل التعيس الذي لم نكن قد رأيناه قط. وتحتها مباشرةً، نُشِرَت صورنا نحن: القتلة. قدّمنا شكوى تشهير ولكن لم يكن لشكوانا أي جدوى.

وكجرذانٍ تقفز من السفينة، استقال الوزراء، واحداً تلو الآخر، وشُكِّلَت حكومة أزمة. وعُزِل الرئيس لوسينديير عن مهامه على رأس الدولة إلى حين توفّر معلومات أوفر.

من أستراليا، اتّهم ميركاسيه الرئيس لوسيندير بإرغامه على التصرّف دون مراعاةٍ لرفضه. غير أنّه لم يلمّح إلى تجربتنا الناجحة.

تجنّب لوسيندير الردّ عليه بالمثل، واكتفى بظهورٍ على التلفاز في برنامجٍ شعبي لكي يُعلن أنّ جميع الروّاد قد تعرّضوا للتحقير في عصرهم. وتحدّث عن تقدّم لا يمكن تصوّره، وعن غزو العالم الآخر، وعن قارة غير مكتَشَفة.

وظلّت الصحافية التي كانت تجري اللقاء معه متصلّبة في موقفها. وقد ذكرت أنّه حتى السجناء العاديون هم بشر وليسوا فئران تجارب، وأنّ الرئيس بنفسه قد انتهك القانون من خلال السماح بإجراء تجارب قاتلة.

تجاهل جان لوسيندير ملاحظاتها. ولكي يختم حديثه، توجّه إلى الكاميرا وأعلن في الحال:

– المشاهدون الأعزاء، المواطنون الأعزاء، نعم، أنا أعترف بذلك، لقد قتلنا باسم العلم، لكي نتجاوز شرطنا الإنساني. وقد نجحنا! لقد نجح أحد متطوّعينا في الذهاب إلى العالم الآخر والعودة منه سالماً. إنّه يُدعى فيليكس كيربوز. إنّه بطريقة ما طيّارٌ، إنّه مسافرُ الموت. لقد أسميناه ثاناتونوت، أي مستكشف الموت. ونحن على استعدادٍ لإعادة التجربة معه في نقلٍ مباشر. وإذا ما فشلت التجربة، أنا على استعدادٍ لكي أخضع لحكمكم وأنا أعرف تماماً مدّة هذا الحكم. غداً، بدءاً من يوم غد، أقترحُ عليكم أن نعاود مع فريقي محاولة إقلاع إلى العالم الآخر. يمكن لجميع قنوات التلفزة في فرنسا والعالم أن تكون حاضرة، وسوف يجري الحدث في قصر المؤتمرات، في تمام الساعة الرابعة من بعد الظهر.

73. ميثولوجيا هندية أمازونية

في الماضي، كان البشر لا يموتون.

ومع ذلك، صادفت شابّة، ذات يوم، إله الشيخوخة. فاستبدل جلده المجعّد والأشيب بجلدها، الذي كان مرناً وناعماً.

ومنذ ذلك الحين، يشيخ البشر ويموتون.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

74. المخاطرة بكلّ شيء

الساعة تشير إلى الرابعة من بعد الظهر. كان قصر المؤتمرات، في باريس، يضجّ بالناس. كان مشاهدون يتبادلون الصحف ويُدلون بتعليقاتٍ حول الشهادات الجديدة الدامغة، الصادرة عن ميركاسيه الذي لا يكلّ ولا يملّ، ومن مدير سجن فلوري ميروغيس العنيد، الذي كان في طريقه لأن يصبح نجماً لامعاً.

في الصفّ الأوّل، لم يخفِ نائبان برلمانيان انطباعاتهما:

– هذا المسكين لوسيندير، انتهى أمره. أراد أن يعرف بلاد الموتى، سوف يكتفي بما معه من أوراق! إنّ موته السياسي في كلّ الأحوال نهائيّ ولا رجعة فيه.

قال النائب الآخر:

– ومع ذلك، فإنّ كلّ هذا الإخراج المسرحي... لا بدّ أن بعض الأوراق في يده. إنّه عجوزٌ ماكر ومراوغ.

– فكّر في نفسك! هذه خاتمة إبداعه. إنّه لا يتوفّر على أكثر من 0.5% من الرأي العام المؤيّد له! هذا أمر طبيعي. هناك بكلّ تأكيد 0.5% من المجانين بين السكان لكي يؤمنوا بالأمور الخارقة وبتجارب الاقتراب من الموت.

هزّا أكتافهما.

مضاءةً بشدّة بضوء مصباحين للأضواء الكاشفة، كانت صحافية جميلة صهباء تتحدّث أمام الكاميرا:

– هناك ثمانية خبراء علميين في القاعة بغية مراقبة كلّ الإجراءات وتجنّب أي تلاعب. عبّر بعض الاختصاصيين عن الخشية من أن يستخدم الرئيس لوسيندير شقيقين توأمين، من خلال قتل أحدهما من أجل إحياء الآخر على نحوٍ أفضل. إنّها خدعة قديمة للشعوذة معروفة كثيراً. ولكن بوجود هذا الكمّ الهائل من الأعين ومن الأضواء المسلّطة على المسرح، فإنّ تمثيلاً كهذا سوف يكون مستحيلاً. من الصعب أنّ نتصوّر أنّ رئيس دولة، تدهورت شعبيته أصلاً في الرأي العام، مستعدٌ لتجريب هذه الخدعة!

في انتظار بدء «العرض»، تشكّلت مجموعات من الحضور. وكان الحاضرون يتناقشون ويتساءلون:

– هل قرأت مقالة صحيفة *لوماتان*؟ يشرح فيها أحد العلماء بطريقة ممتازة لماذا من المستحيل أن ينجو المرء من الموت. «ما إن يتوقّف وصول الدم إلى الدماغ، يُصاب بالنخر. ما إن تموت خلية عصبية، تفقد كفاءاتها الفيزيولوجية، وبالتالي قدراتها على التصوّر والتذكّر».

– وهذا الهُراء عن الجرعة الزائدة الطبيعية من سائل الغدد الصمّ التي قد تسبّب هلوسات السفر، هل تُصدّقه؟

دوّت ضحكات هازئة في القاعة.

هتف أحدهم:

– لا أرى لماذا سوف يستخدم جسدٌ محتضر طاقاته الأخيرة من أجل التقاط صور!

استقرّ النائبان في أريكتين، في الصفّ الأوّل.

قال آخر:

– أراد لوسيندير أن يدخل التاريخ. لم يعد هناك ما يستدعي القلق. لقد دخل إليه. ومن الباب الأوسع، أيضاً! مئة وثلاثة وعشرون قتيلاً على يده، ولا يحدث أن يتحمّل رئيس دولة مسؤولية كهذه كلّ صباح.

– ستكون هناك محاكمة ممتعة في المدى المنظور!

أُنيرت أضواء الدرابزين. على المسرح، كان يتربّع كرسي طبيب أسنان بسيط. كما كان هناك كدسٌ من الأشرطة الكهربائية المربوطة بشاشات عملاقة كانت تومض مثل عددٍ كبيرٍ من العيون الأحادية.

وسوف يُبثّ الحدث في إرسالٍ مشترك في ما يُقارب ستين بلداً. وإذ جعل رئيس جمهورية نفسه مسخرة على الهواء مباشرةً، كان المشهد يساوي حفلة روك آند رول أو مباراة كرة قدم!

وضع عمّالٌ في القاعة ثمانية كراسٍ حول كرسي طبيب الأسنان. وعلى هذه المقاعد سوف يجلس الخبراء الثمانية الذين عينتهم اللجنة البرلمانية. وهم عبارة عن أربعة أطباء، وثلاثة بيولوجيين، وأيضاً مشعوذٍ واحد.

ظهروا جميعاً تحت وابلٍ من التصفيق. كانت القاعة هائجة. فقد هتفت لهؤلاء الخبراء القدماء للأكاديمية كالعديد من مصارعي الثيران الذين نزلوا إلى حلبة المصارعة لكي يتغلّبوا على ثورٍ ضخمٍ مخادع. بدا عليهم بعض التوتّر والقلق. إذ لم يسبق لهم قط أن عرفوا شعبية كهذه خلال أعمالهم السابقة. حتى إنّ عدداً منهم مدّوا أياديهم نحو حشود الحاضرين. لو أنّهم استطاعوا أن يقطعوا أذني الرئيس وقضيبه، لما توانوا عن ذلك. وعلى سبيل الانتقام، أخرجوا أقلامهم وشرعوا في كتابة كلّ أنواع التعليقات والملاحظات حول المادة الموجودة على مفكّرات صغيرة ذات أغلفة صلبة.

صعد مقدّم برامجَ تلفزيونية شهير، ذو شعرٍ خفيفٍ وممشّط إلى الخلف، بدوره إلى المنصّة، برفقة مصوّرٍ ومهندس صوت. بعد بعض محاولات تجربة الصوت والصورة، ومض الضوء الأحمر في الكاميرا.

– أيّها السيّدات والسادة، طاب مساؤكم، وشكراً لكم على مشاهدتكم لقناة RTV1، القناة التي تعرض لكم المزيد. هنا، في هذه القاعة من قصر المؤتمرات، الجوّ متوتّر جدّاً. يتهيّأ الرئيس لوسيندير للمقامرة بكامل حياته المهنية برمية مذهلة للنرد: أن يُبرهن للعالم أجمع على أنّه من الممكن زيارة العالم الآخر كأنّ الأمر لا يتعلّق إلّا بقارة بعيدة.

بلغ الانفعال في وسط الحضور أوجه.

أردف المقدّم:

– تُرى هل سنشاهد، لا حول ولا قوّة لنا، عملية قتلٍ جديدة في بثٍّ مباشر؟ أم على العكس من ذلك، سوف نشاهد تجربة القرن؟

اشتدّت درجة التشويق والترقّب...

75. ميثولوجيا غرينلاندية

بالنسبة إلى سكان غرينلاند، يقع الفردوس في قاع المحيط، ويسوده الصيف الأبدي لشمس منتصف الليل. والذين عانوا هنا على الأرض، يمكنهم أن يرتاحوا أخيراً ويتمتّعوا بثمار جهودهم. المكان هناك عبارة عن

مملكة الوفرة، حيث لا ينقص لا الكلاب ولا الأيائل، ولا الأسماك، ولا الدببة. وتوجد فيه الفقمات مطهوّة وجاهزة للأكل.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

76. العائلة

كانت والدتي هي من اتّصل بي أوّلاً، وقالت:

– يا ولدي، لا تذهب إلى هناك!

أمّا كونراد، فقد نصحني بأن أفرّ بأسرع ما يمكن إلى الأرجنتين.

كلّ هؤلاء الناس الصالحين الذين كانوا يريدون لي الخير أثاروا اشمئزازي وعـزّزوا، على عكس رغبتهم، إرادتي في أن أغرق أكثر في هامشيّتي. أكّدتُ لهم أنّه ليس من الوارد بالنسبة إليّ أن أتخلّى عن أصدقائي في المحنة. كان لي نصيبي من المسؤولية في الأحداث الراهنة. وسوف أتحمّل هذه المسؤولية.

قالت والدتي:

– حسناً، إذا ذهبتَ إلى هناك، سوف أرافقك أيضاً. سوف أدافع إلى الأبد عن أبنائي، بضراوة، مهما حدث!

وهذا ما فعلته. حينما كشفها الصحافي في قناة **RTN1** الذي كان يسعى إلى ملء فترة البثّ المباشر في انتظار حلول اللحظة العظيمة، أفرغت والدتي قلبها على الهواء مباشرةً، أمام الملايين من المشاهدين.

– كما ترون، لقد كان مايكل على الدوام لطيفاً للغاية ومستعدّاً لإسداء الخدمة إلى الجميع. له بالتأكيد هفواته الصغيرة، ولكنّه ليس مجرماً. إذا كان رئيس الجمهورية قد استسلم لهؤلاء المجانين، فلمَ لا يستسلم ابني؟ إذا كان ابني قد وجد نفسه منخرطاً في هذه الحكاية، فهذا بسبب العزلة التي كان يعيش فيها. أن يعيش المرء وحده دائماً يدفعه إلى الجنون! لو أنّه فقط قد أصغى إليّ، لو أنّه فقط قد تزوّج، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن! لم يسبق لصغيري مايكل قط أن امتلك الكثير من الإرادة. لطالما كان تحت رحمة

أولئك الذين يتكلّمون بصوتٍ عالٍ وقويّ. مثل رازورباك هذا. (ثمّ، بصوتٍ أخفض) آه، أخبرني إذاً، لديّ سؤال. هل تعتقد أنني سوف أستطيع أن أوصِل إليه طروداً في زنزانته داخل السجن؟

أقرّ الصحافي ذو الشعر الخفيف الممشوط إلى الخلف بجهله حول هذا الموضوع، وشكر بلطف والدتي.

77. ميثولوجيا توراتية

حسب الكتاب المقدّس، تتلخّص حياة آدم في اثنتي عشرة مرحلة:

1. في الساعة الأولى، تجمّع التراب.
2. في الساعة الثانية، تحوّل التراب إلى كتلة طين.
3. في الساعة الثالثة، تشكّلت بعض الأعضاء.
4. في الساعة الرابعة، تولّدت روحٌ.
5. في الساعة الخامسة، وقف آدم منتصباً.
6. في الساعة السادسة، عرف أن يُسمّي من كان يحيط به.
7. في الساعة السابعة، تلقّى حواء كشريكة حياة.
8. في الساعة الثامنة، صعدا إلى سرير كشخصين، ونزلا منه وقد أصبحا أربعة.
9. في الساعة التاسعة، تلقّى الأمر بألّا يعود ويأكل فاكهة المعرفة.
10. في الساعة العاشرة، ارتكب الخطأ.
11. في الساعة الحادية عشرة، حُكِم عليه.
12. في الساعة الثانية عشرة، طُرِدَ من جنات عدن.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

78. أن تكون أو لا تكون

كنتُ أوّل من دخل إلى الحلبة – أي صعد إلى المسرح – ، وكنتُ قلقاً. رفض خبراء اللجنة مصافحتي، وخمّنتُ أنّ آماندين تقف خلفي وهي ممتلئة بالخوف.

ضجّ الحضور بصيحات الاستهجان والاستنكار.

خرج من بين الجمهور رجلٌ يرتدي بلوزة ويعتمر قبّعة لها واقية أمامية، وصاح:

- أيّها الوغد! لقد قتلت ولدي!

تمسكّتُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة بالميكروفون، وصرختُ بأعلى صوتي، إلى درجة كادت حنجرتي تتمزّق:

- لم نقتل أحداً! لم نقتل أحداً على الإطلاق. جميع السجناء الذين شاركوا في مشروع «الفردوس» خضعوا طواعيةً للتجربة. وكانوا يعرفون أخطارها، وفي كلّ مرّةٍ، كانوا يضغطون بأنفسهم على الزر الذي يُطلق عملية التحليق.

صرخ أحدهم بأعلى صوته، محتجّاً:

- عملية التحليق؟ عملية الموت، نعم! من عساه يكون متطوّعاً لكي يموت؟ هل هناك متطوّع، هنا؟

صرخ مشاهدون غاضبون، بسخط:

- الموت للقتلة أصحاب الصدريات البيضاء! الموت للقتلة أصحاب الصدريات البيضاء!

تضاعف الصفير وصيحات الاستهجان عندما اقترب الرئيس لوسيندير بدوره من الميكروفون. وأُلقيت عليه طماطم نزلت عند قدميه. تزايد طوق رجال الشرطة المضروب أمام المسرح بتعزيزات إضافية عاجلة.

حاول الرئيس أن يقوم بتهدئة الحضور بحركاتٍ من يديه. كانت عادته، التي اعتاد عليها منذ زمنٍ طويل في عقد التجمّعات السياسية العاصفة، قد علّمته كيف يفرض سطوته على صالةٍ هائجة ومضطربة.

خاطب الحضور، قائلاً:

- أيّها السيّدات والسادة، أصدقائي، اهدأوا! إنّ التجربة التي سنجريها أمامكم سبق لها أن نجحت، ولكن بغياب أيّ خبير رسمي جديرٍ بأن يكون شاهداً عليها. الآن، أنا أخضع لحكم الأمّة، بل لحكم الكوكب برمّته. إذا لم

يرجع الرجل الذي سوف نرسله أمامكم إلى العالم الآخر، أتعهّد بأن أمثل أمام أيّ محكمة عدل مناسبة لمساءلتي حول إخفاقاتي.

تردّدت أصداء بعض الشتائم الإضافية في الصالة، ولكن، سريعاً جدّاً، حلّ صمتٌ مطبق محلّ الصخب. ظهر فيليكس كيربوز على المسرح. سُلِّطَت أضواء المساليط في الحال عليه وعلى بدلته الرسمية التي لا تشوبها شائبة والتي كانت بزّته الجديدة بصفته مستكشفاً. كان رأسه المعصوب يتعارض مع ثيابه المتأنّقة. كان قد وصل بين دركيين. أدركتُ أنّ هناك شيئاً ما خاطئاً على وجه فيليكس المعذّب.

اندفع مقدّم البرنامج التلفزيوني مسرعاً نحوه، وقال بحماسة:

– وها هو فيليكس، الرجل الوحيد، حسب الرئيس لوسيندير، الذي أنجز المهمة المستحيلة في الذهاب والإياب بين عالم الأحياء وعالم الموتى. هذه المأثرة، سوف يجرّبها مرّة ثانية أمام عدسات كاميرات العالم أجمع وبشكلٍ حصري على المستوى الوطني عبر قناة RTV1، القناة التي تعرض لكم المزيد!

تبادل أعضاء فريقنا نظرات قلقة، إذ كنّا نعرف فيليكس بما فيه الكفاية لنفهم اضطرابه. تُرى هل كان الجمهور هو ما يُرهبه؟

ربّت الرئيس على كتفه بقوّة.

– هل أنت في حالةٍ جيّدة، يا فيليكس؟

شوّه عبوسٌ وجه فيليكس أكثر ممّا كان عليه. تساءل بعض المشاهدين الذين كانوا قد انضموا إلى البرنامج متأخرين بعض الشيء فيما إذا لم يكونوا قد اختاروا خطأً مشاهدة فيلم رعب.

تمتم ثاناتونوتنا:

– حسناً، يمكن للأمر أن يصبح أفضل.

– هل تشعر بالخوف؟

صرخ فيليكس:

– آه، كلا، ليس هذا هو الأمر. لديّ ظفرٌ داخلٌ في اللحم يُضايقني، ولذلك، اللعنة، لم يُغمَض لي جفنٌ طيلة الليل.

قفز لوسيندير من مكانه:

- ظفرٌ داخلٌ في اللحم؟ لماذا لم تقل ذلك من قبل؟

كان لوسيندير سيعنّفه، ولكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك.

- ظفرٌ داخلٌ في اللحم؟ لقد عانيتُ من ذلك. إنّه مؤلمٌ جدّاً، بيد أنّه يُعالج بسهولة.

- لقد تناولت أقراصاً من الأسبرين، ولكنني مع ذلك أتألّم. هذا مزعج للغاية!

اقترحتُ أن تؤجّل العملية، لأنّه إذا كان فيليكس يتألّم، سوف يستسلم لأن يسحبه الضوء بدل العودة إلى جسده المتألّم.

قال له الرئيس، راجياً:

- سوف تعود إلى الحياة، يا فيليكس، هل تعدني بذلك؟ لقد وقّعتُ مسبقاً على مرسوم العفو عنك. إذا ما نجحت، سوف تصبح حرّاً طليقاً، سوف تصبح حرّاً إلى الأبد. هل تفهم، يا فيليكس؟ سوف تصبح بعد ذلك مواطناً محترَماً!

لم يبدُ الرجل مقتنعاً بما قيل له.

كان الحضور يتردّد بين شتائم جديدة أو نوبة تصفيق، ولكنّه كان لا يزال يحبس أنفاسه. شرح مقدّم البرنامج أنّ الرئيس يقوم بتشجيع فتاه بالطريقة التي يشجّع بها مدرّبٌ لاعبه قبل بدء مباراة ملاكمة. أمّا نحن، وقد غزت الكآبة وجوهنا، كنّ نجهّز أدواتنا.

والآن، هزّ لوسيندير تماماً فيليكس:

- سوف تكون حرّاً! وسوف تُدعى السيّد كيربوز، وسوف تصبح غنيّاً ومشهوراً! سوف توضَعُ في سيارة مكشوفة ويُصفّق لك الناس وينثرون عليك النثار والقصاصات الورقية الملوّنة كما فعلوا مع نيل أرمسترونغ بعد خطواته الأولى على سطح القمر!

- صحيح، كان هذا سيسعدني كثيراً لولا هذا الظفر اللعين الداخل في اللحم.

- تبّاً، بعد كلّ الجرعات السامّة التي ابتلعتها، وقرحتك، وجلدك

المثقوب، لن تكون إصبعٌ بائسٌة متألّمة هي من تجعلك تتخلّى عن آمالك في حياةٍ أفضل!

- ولكنّ المكان في الأعلى ممتاز، يشعر فيه المرء بنفسه خفيفاً جدّاً ومرتاحاً، ولا يعود هناك أيّ إزعاج...

- يا فيليكس، الحياة مع ذلك ليست مزيّفة!

- أتساءل دائماً ما هو المفيد في هذه الحياة. المشكلة هي أنني لم أعد أتذكّرها.

بدأ لوسيندير يعدّد:

- المال، النساء، العطورات، غروب الشمس في البحر، السيارات، القصور.

ثمّ أضاف، وقد وضع نفسه، لغايات سياسية، في مكان فأر التجارب خاصّته:

- وإذا كنتَ تفضّل الكحول، والمخدّرات، والعنف، والسرعة... هيّا بنا، يا فيليكس! نحن في حاجةٍ إليك. لديك أصدقاءٌ الآن، رئيسٌ وعلماء مشهورون، وأروع الممرّضات وأكثرهنّ سحراً! الكثير من الناس ليس لديهم ما لديك من الحظّ! ونحن جميعاً نعتمد عليك.

أخفض فيليكس عينيه واحمرّ خجلاً مثل طفلٍ مذنب:

- هذا صحيح، أنا أعرف كلّ هذا. ولكن في الأعلى، هم أيضاً يُريدون لي الخير. لم أحظَ بهذا القدر من الحظّ في هذا العالم، وعلاوة على ذلك، هذا الظفر الداخل في اللحم، وهؤلاء الناس العدوانيون أمامي... في هذا العالم، لم أحظَ بالكثير من الرضا. لم أفكّر قطّ بهذا الأمر.

- لم تحظَ بالرضا، يا فيليكس؟ هل تعني أنّك... قط... لم يسبق لك قط...

أصبح الآن لون وجه صاحبنا الضخم قرمزيّاً.

- بالطبع. لم يحبّني أحدٌ قط عند والدتي، ووالدتي الآن في الأعلى، بالضبط.

عيل صبر الحضور وبدأ بالتململ.

صرخ صاحب دعابةٍ:

- الموت للقرد!

- فيليكس كيربوز، يبلغ طوله 195 سنتيمتراً، ويبلغ وزنه 100 كيلوغرامٍ، وهي قياسات متناسقة بالنسبة إلى رجلٍ في عمره. حسب مجموعة من المواد الصحفية، ليس للوزن والطول أيّ تأثيرٍ على نوعية الانتقال من الحياة إلى الموت، ولكن مع ذلك، من المفضّل أن يكون الشخص في ظروف بدنية جيّدة.

لم تفوّت آماندين شيئاً من الكلمات التي تبادلها فيليكس والرئيس. تقدّمت إلى الأمام، وقالت:

- هل أنت صبيٌّ بكر ولم يسبق لك أن جامعت امرأةً، يا فيليكس؟ هل هذا صحيح؟

مال لون وجهه نحو الأحمر البنفسجي.

تردّدت الممرّضة الشقراء، وفكّرت لبرهةٍ، ثمّ تمتمت بشيءٍ ما في أذن زبونها. وعلى حين غرّةٍ، تحوّل وجه فيليكس إلى عدّة ألوان من قوس قزحٍ. وشدّ شفتيه في حركة كاريكاتورية على شكل ابتسامة. وهما يقفان بعضهما بجانب بعض، بدا مثل كوازيمودو وإيزميرالدا. كوازيمودو وهو يتهيّأ للذهاب إلى التعذيب...

لم يعد يُشيح ببصره عن آماندين. استجمع شتات نفسه، وقال:

- حسناً، هيّا بنا. يبدو أنّ ظفري اللعين قد تركني وشأني للحظةٍ.

اقترح لوسيندير أن أُضيف مسكّن ألم إلى بوستيراتي لكي لا يعود فيليكس يشعر بإصبعه أبداً، ولكنني رفضتُ ذلك. لم يكن الوقت مناسباً لاختبار خلطات جديدة. سوف تكون جرعتي من ثمانمئة مليغرامٍ من الثيوبينتال، ولن يكون هناك دواءٌ آخر من خارج الجرعات المعتادة.

حلّ الرئيس لوسيندير عقدة ربطة العنق الفراشية التي كان كيربوز يرتديها مع بدلته الرسمية. ورفع كمّ قميصه ووضع اللواقط الكهربائية. وقد فعل ذلك بمهارة فائقة بحيث كنا لنُقسِم على أنّه كان يفعل ذلك طيلة حياته.

- لوسيندير، اذهب وارتدِ ثيابك، فأنت لست سوى قاتلٍ!

أقبلتُ لكي أقدّم له يد المساعدة، ففي نهاية المطاف، نحن الآن في نفس المركب.

كانت آماندين منهمكة في العمل بجدٍّ ومثابرة.

كانت تشعر بكلّ الإهانات والكلمات الماجنة تنهال عليها مثل عددٍ هائلٍ من الرماح. لكنّها آثرت أن تقامر بكلّ شيء. ضبطت جهاز تخطيط القلب الكهربائي، وجهاز تخطيط الدماغ الكهربائي، ومن ثمّ أهدتني ابتسامةً خفيفة متواطئة في حين كانت الشتائم والإهانات مستمرّة في الانهمار علينا.

- قَتَلة! قَتَلة!

تردّدت كلمة السر في كلّ أرجاء الصالة التي ردّدتها في إيقاعٍ ثابت.

كان فيليكس كيربوز يتنفّس ببطء، وراح يُزيد من بطء تنفّسه تدريجياً، مثلّما كان راؤول قد علّمه أن يفعل. كان يشهق من أنفه، ويزفر من فمه. كانت هذه الطريقة في التنفّس الاصطناعي قد ابتُكِرت، على ما يبدو، لمساعدة النساء على الولادة من دون آلام.

أعلن الرئيس لوسيندير الذي كان قد انتهى من وضع آخر لاقط كهربائي على الصدر المشعر للمستكشف:

- من جهتي، كلّ شيء بات جاهزاً!

قال راؤول وهو يضغط على حسّاسات النبض.

- أنا أيضاً جاهز.

قلتُ بدوري:

- وأنا جاهز!

صاحت آماندين:

- أنا جاهزة!

اِقترب علماء اللجنة لكي يتفحّصوا على نحوٍ أفضل كامل التجهيزات. لقد تحقّقوا من أنّ اللواقط الكهربائية مطابقة للمعايير السارية المفعول. أخذوا هم أيضاً نبض فيليكس. ضرب المشعوذ بكعبه على أرضية المسرح، بحثاً عن فتحة فيها أو جهازٍ ما للتحويل. غرز إبرةً في إسفنج الكرسي، الأمر الذي أبهر الحضور الذي كان يتوقّع أن يكتشف ربّما ممرّاً سرّياً في كرسي طبيب الأسنان

خاصّتنا. حينما أنهى ما قام به، أعطى إشارةً للآخرين. دوّنوا بكلّ عجالة كلّ أنواع المعلومات. ثمّ عادوا وجلسوا في أماكنهم، وقد بدا عليهم الارتياح للحظةٍ، وأعطونا إشارةً تعني أنّه يمكننا أن نباشر بالعملية. ساد الصمت.

في رحاب قصر المؤتمرات، كان يمكن سماع صوت روحٍ تحلّق.

زمجر راؤول، منزعجاً للغاية من هذا الحشد العدواني:

- هيّا بنا!

قال فيليكس محرّكاً أصابعه الضخمة والسمينة:

- حسناً، تشاو، يا أصدقائي!

داعبت آماندين شعره الخفيف جدّاً وطبعت قبلة في ملتقى شفتيه، تماماً في اللحظة التي كان سيغمض فيها عينيه.

تمتمت:

- عد إلينا!

كان فيليكس يبتسم وهو يعدّ:

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد... انطلاق!

وضغط بسرعة على القاطع، وانطلق إلى خارج هذه الحياة.

79. كتاب التاريخ المدرسي

نحو أواخر القرن العشرين، كانت القواميس والموسوعات تُعطي الموتَ التعاريف التالية:

الموت: التوقّف النهائي للحياة.

تعريف سائد: يُقال عن أحدهم إنّه ميّت عندما لا يعود قلبه ينبض، ويتوقّف عن التنفّس.

تعريف أمريكي، تمّ اقراره في عام 1981: يُعلَن موت فردٍ بعد التوقف الذي لا رجعة فيه لكلّ وظائف الدماغ.

تعريفٌ طبّي: توقّفٌ لا رجعة فيه للانقباضات القلبية. الطبيعة الاصطناعية للتنفّس المستمرّ من خلال رئة ميكانيكية. الإبطال التامّ لردود الفعل. غياب كلّ إشارة كهربية دماغية. تلفٌ تامّ للبنيات الدماغية.

إجراءات يتعيّن القيام بها في حالة الموت: الإبلاغ عن واقعة الوفاة في البلدية الأقرب. سوف يتحقّق الطبيب الشرعي من الوفاة ويُعدّ محضراً يقوم بتسليمه إلى عائلة الميّت أو إلى مندوبٍ عن شركة دفن الموتى. وسوف يودَع هذا المحضر، مرفقاً بالسجلّ العائلي للميّت، لدى مديرية السجلّ المدني في البلدية التي سوف تمنح بالمقابل إذناً بالدفن وموافقة على إغلاق التابوت. وفي حالة الموت العنيف أو وجود شبهة، يقوم الطبيب الشرعي بإخطار المدّعي العام للجمهورية الذي يستطيع أن يُطالب بتشريح الجثّة. والعائلة ليست مضطرّة لأن تُعلن عن أسباب الوفاة. ومن الإلزامي انتظار أربع وعشرين ساعة على الأقلّ قبل إجراء مراسم الدفن.

ثمن المدفن: وهو متغيّر، حسب المدّة، وسمعة المقبرة وثمن الأرض. من المؤكّد أنّ ثمن المتر المربّع في المدن أغلى ممّا هو عليه في الريف.

3000 فرنك ثمن تابوت عادي من الخشب الأبيض. ويزداد السعر إذا كان من خشب الأبنوس، والأكاجو، والتنجيد الداخلي.

1800 فرنك أجور خدمة دفن الموتى، وتزداد حسب عدد حاملي النعش الذين يوضعون في الخدمة.

3000 فرنك أجرة استئجار عربة دفن الموتى.

4800 فرنك قيمة العدّة الجنائزية، والزهور والزينة المختلفة.

700 فرنك أجرة صانع الرخام.

1000 فرنك من أجل تنظيف وترميم القبر.

200 فرنك قيمة بطاقات النعي، بالإضافة إلى النفقات البريدية.

1000 فرنك ضريبة القيمة المُضافة.

1300 فرنك ضريبة بلدية.

200 فرنك لقاء الخدمات الدينية (ويتوقّع أن تكون هناك نفقات إضافية حسب الطوائف والخدمات المطلوبة: قدّاس، جوقة موسيقى، إلخ.).

أي مبلغ إجمالي قدره 17 ألف فرنك في الحدّ الأدنى، لا تشمل المدفن.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

80. انتظار

منذ عشر دقائق مضت، يستمر خطّ في المرور على شاشة تخطيط القلب الكهربائي دون أيّ رنين! وفيّاً لعاداته، كان راؤول رازورباك يدوّن في مفكّرته جميع المعطيات: المدّة، درجة الحرارة، الأنشطة القلبية والدماغية والكهربائية، والانطباعات الشخصية، إلخ.

عاد راؤول، وبدا قلقاً.

سألته، مجازفاً:

– ماذا إذاً؟

هزّ كتفيه.

سكت الحضور وهم يراقبون الرجل الراقد تحت المساليط الضوئية. كان الخبراء يحومون حول الكرسي مثل ذبابٍ يحوم حول جيفةٍ، ودوّنوا بدورهم ملاحظاتهم، وأقلامهم تُصدر صريراً صاخباً على الورق الذي فيه مربّعات. كانت لديهم على الدوام نقطة جديدة ليقوموا بفحصها. كانوا يفعلون ذلك بشكلٍ أساسي لكي يسيروا على سيقانهم، ولكنّهم كانوا يتّخذون هيئات متوتّرة تجعل المرء يتوقّع الأسوأ.

كان المشعوذ الممثّل الأفضل: فقد كانت لديه كلّ أنواع الحركات الإيمائية المثيرة للشكوك.

لم يعد مقدّم البرامج في قناة RTV1 يعرف كيف يملأ الوقت الشاغر. ذكر حالة الطقس، الملائم لهذا النوع من التجربة، وتحدّث عن تاريخ قصر المؤتمرات الذي شهِدَ الكثير من الأحداث المؤثّرة.

كانت آماندين، مضمومة اليدين، ووجهها كوجه مريم العذراء، تُصلّي في صمت.

وأنا أيضاً كنتُ أفعل مثلها.

81. ميثولوجيا إسكندنافية

كان بالدر إلهاً إسكندنافياً محبّاً للخير. وهو ابن الإله أودين، وكان مشهوراً بعطفه وجماله. ذات ليلة، حلم بموته. انتاب الآلهة قلقٌ عظيم،

وأرغمت والدته، الإلهة فريغ، تقريباً كلّ الأشياء وجميع البشر على ألّا يؤذوا ابنها. وجعلت كلّ الأشياء الموجودة، من تراب، ونار، وأحجار، وأشجار، وأمراضٍ، وعصافير، وأسماك، وأفاعٍ، وكلّ أنواع الحيوانات، تُقسم على ألا تؤذي ابنها.

وإذ تأكّدت الآلهة من أنّ بالدر بات الآن غير معرّضٍ للخطر، أصبحت تتلهّى بإلقاء كلّ أنواع الأشياء الخطرة عليه والتي، مع ذلك، لم تكن تجرحه قط:

ومع ذلك، حدث أن تنكّر الإله الشرير لوكي، الغيور من سلطة بالدر، في هيئة امرأة، وزار منزل فريغ لكي ينتزع منها سرّها. وقد علِمَ بهذه الطريقة أنّ الإلهة كانت قد أهملت فرض القسم على نبتةٍ تُدعى (الدبق الطفيلي) لأنّها اعتبرتها ضعيفة وهشّة جدّاً وغير قادرة على إلحاق أدنى أذى بابنها.

فأقنع لوكي حينذاك هودر، الإله الأعمى، بأن يقتني هذه النبتة ويضرب بها بالدر. أصاب هودر، منقاداً بأوامر لوكي، بالدر بجراحٍ مميتة لأنّ النبتة كانت قد تحوّلت إلى رمحٍ.

فأعلن لوكي للجميع أنّه لا يمكن للمرء أن ينجو من الموت، حتى وإن كان مباركاً من قبل الآلهة.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

82. في قصر المؤتمرات

اقترب رجال الشرطة بالزيّ المدني، الذين تسلّلوا إلى الصالة بناءً على التماسٍ من القاضي المكلّف بالتحقيق في القضية، شيئاً فشيئاً من المسرح. أرادوا أن يمنعونا من الفرار بعد فشل عرضنا.

كانت قد مضت خمس دقائق ونحن ندلّك جسد فيليكس ونُصعقه بالكهرباء من دون أيّ نتيجة.

بدأ الجمهور الصامت يتخلّى تدريجيّاً عن صمته.

وكان الخبراء العلميون يُفرجون عن ابتسامات مفهومة بعد كلّ صدمة

كهربائية، واقتربوا بعلمٍ ومعرفة لكي يجسّوا رسغ فيليكس ويتحقّقوا من نبضه. وكانوا في غاية الارتياح لأنّهم لم يستشعروا أيّ شيء يدلّ على نجاحنا.

خلعتُ صدريتي البيضاء، وواصلتُ، وأنا في قميصي الداخلي وأتصبّب عرقاً، ممارسة التدليك القلبي. كنّا نعدّ معاً «واحد، اثنان، ثلاثة»، كنتُ أضغط على القفص الصدري بكلتا يديّ المنبسطتين على منطقة القلب، بينما كان راؤول ينفخ الهواء في المنخرين بمضخّة يدوية لإعادة إطلاق النشاط التنفّسي.

اقترب رجال الشرطة أكثر.

ردّد صديقي:

– واحد، اثنان، ثلاثة! هيّا، نحن نؤمن بذلك، نحن نؤمن بذلك.

كان محقّاً في ذلك. يجب الإيمان بذلك. يمكن لليد أن تبقى في النار إذا ما آمن المرء بذلك إيماناً لا يتزعزع. لقد أظهر لي ذلك. كنّا ندفع رجال الشرطة بقوّة في أصغر حركة من حركاتنا. وكلّما كان يتمَلّكنا التشاؤم أكثر، كنّا ندفعهم أكثر. بدا أنّهم لا يعيرون انتباهاً لذلك. فمن الطبيعي أن يحاول الثور أن يُصيب المصارعين بالجروح قبل قتله.

في القاعة، أعقبت الصخبَ الخفيف القادم من عمقها ثرثراتٌ وهمسات. بل كانت هناك ضحكات متواصلة.

بعد مرور برهةٍ أخرى، تحوّل كلّ ذلك إلى هياجٍ عام.

اتّخذ رجال شرطة آخرون مواقعهم خلفنا بحيث يمنعوننا من الفرار من خلال الكواليس.

الإيمان يحرّك الجبال من مكانها، لماذا لا يكون قادراً على تكرار معجزة صغيرة من لا شيء، ويُعيد فقط الحياة إلى هذا الكيس الجلدي المليء بالدم والأحشاء؟

قال راؤول:

– إذا كانت هناك خليّة واحدة حيّة في هذا اللحم، يجب أن تستجيب لندائي. يا هيه! يا هيه نحن هنا، نحن ننتظر. واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة.

وضغط على القفص الصدري لفيليكس.

صرختُ بدوري:

- تبّاً لك، استيقظ، يا فيليكس. لا تمزح!

صعد شرطيٌّ إلى المسرح. لا بدّ أننا كنّا في هيئة مجانين خطرين ينفسون عن غضبهم فوق جثّة، بالنسبة إلى كلّ المشاهدين المتابعين لمهاراتنا.

- واحد، اثنان، ثلاثة، استيقظ، يا فيليكس، تبّاً لك!

أخرج شرطيٌّ قيوداً لليدين.

- واحد، اثنان، ثلاثة! فيليكس، بحقّ السماء، لا تدعنا نسقط!

جاء الخبراء الثمانية ليتحقّقوا من الوفاة بملامح مرتاحة. مثل ذبابٍ متجمّعٍ على قطعة فاكهة مسحوقة.

أمسك شرطيٌّ بمعصمي. سمعتُ صريراً حادّاً لقيدٍ وصوتاً يُعلن: «باسم القانون، أقوم بتوقيفك بتهمة القتل العمد عبر التسميم».

كانت يدا راؤول وآماندين قد كُبّلتا قبلي. في حين لم يكن أحدٌ قد تجرّأ بعد على المسّ بالرئيس لوسينديير الذي ظلّ محصّناً بصفته رئيساً للجمهورية، غير قابلٍ للمسّ به.

صاحت جماهير القاعة السعيدة للغاية برؤية رئيسها في ورطة كبيرة:

- إلى الموت! إلى الموت أيّها المستكشفون!

لم يعد أيّ شيء ممتعاً بالنسبة إلى الشعب سوى رؤية زعمائه ممرّغين في الوحل.

- عقوبة الموت للمستكشفين!

في الصفّ الأوّل، صاح أخي: «لقد قلتُ لك ذلك». وحدها والدتي كانت تحاول أن تهدّئ كلّ من في القاعة. وقد بدأت بجيرانها المباشرين. ثمّ جالت بين صفوف المقاعد.

- لا علاقة لابني بأيّ شيء، توقّفوا، أنتم تخطئون، لا علاقة لابني بأيّ شيء، لقد تمّ توريطه في هذا الأمر.

كانت قد جهزّت كلّ شيء. فيما بعد، أثناء المحاكمة، كانت ستُخرِج مفكّراتي المدرسية التي تحتوي على درجات ممتازة منذ مرحلة الروضة

لكي تُثبتَ أنّني كنتُ صبيّاً جيّداً. كما أنّها كانت قد اشترت ثوباً لحضور الجلسة.

أمسك رجال الشرطة بأذرعنا لكي ينقلونا عبر القاعة المحمومة. وكان الناس قد اقتربوا لكي يقوموا بشتمنا والبصق علينا. يا له من شعورٍ فظيع أن يجد المرء يديه مكبّلتين بالأصفاد في حين يقوم الناس بشتمه. ألقى أحدهم ببيضةٍ فاسدة جاءت وتحطمت على جبيني. تلقّت آماندين من جهتها حبّة طماطم. نال راؤول أيضاً نصيبه في بيضة فاسدة، أكثر عفونةً ونتانةً من بيضتي.

عاد الرئيس لوسيندير وجلس في مكانه، منهاراً. لم يكن يفكّر في مساعدتنا أو مساعدة فيليكس، كان يفكّر فقط بأنّه قد خُدع، وأنّه بات يهذي ويندم على كلّ شيء. هو الذي أراد أن يكون مشهوراً، انتهى الآن تماماً. لم يُتقن تحقيق الانتصار في معركة أليزيا، مثل يوليوس قيصر. في اللحظة الأخيرة، تبيّن أنّ الموت، الحصن الأعلى، حصنٌ منيع.

أعطى صحافيّ قناة RTV1 إشارة إلى مصوّره بأن يُعدّد اللقطات المقرّبة على وجه فيليكس اللامبالي. قُرِّب مسلاط الضوء من الوجه لعدّة سنتيمترات، وتمّ تصوير أصغر مسامة من المسامات الجامدة وأرفع شعرة من شعراته المحترقة تحت الضوء الشديد جدّاً.

إلى اللقاء، يا فيليكس.

جرّني رجال الشرطة من الأصفاد التي في يديّ. وفي تلك اللحظة، حدث شيءٌ غير متوقّع. فقد سمع صوت كلمة «آخ» مدويّة.

توقّفت كلّ الأنفاس. وبقينا، جميعاً، جامدين في أماكننا. تعرّفتُ على الصوت الذي قال «آخ». هذا الصوت، هذا الصوت...

كان الرجل المسؤول عن الإضاءة قد تعثّر وترك مصباحه الكهربائي يسقط على عين فيليكس.

ابتهج مقدّم البرنامج.

– هذا لا يُصدّق، أيّها السيّدات والسادة، هذا بكلّ بساطة شيءٌ لا يُصدّق، شيءٌ مذهل وهائل. إنّ الرجل، الذي يمكننا أن نسميّه بدءاً من الآن

«أوّل رجل وضع قدمه رسمياً في العالم الآخر وعاد منه»، هو... على قيد الحياة. فيليكس كيربوز على قيد الحياة!

بناءً على طلب الخبراء، نزع رجال الشرطة الأصفاد من أيدينا بسرعة. عاد الصمت ليسود القاعة. ولم يعد يُسمع سوى مذيع التلفاز المثابر الذي فصّل تعليقاته، سعيداً جدّاً بأنّ يكون هناك أخيراً ما يستحقّ المشاهدة في برنامجه. كان يعلم أنّه في طريقه إلى المقامرة بحياته المهنية ولم تكن لديه النيّة في أن يفوّت فرصة نادرة. هو الآخر كان يعتزم من الآن فصاعداً أن يُكتَب اسمه في كتب التاريخ، وفي أسوأ الحالات في كتب تاريخ الصحافة.

– أودّ أن أُخبركم أنّ الانفعال والعاطفة عامّان. منذ أن بدأت أولى الرنّات تدوّي على شاشة جهاز التخطيط الكهربائي للدماغ، كانت هناك لحظة من عدم التصديق، ثمّ تصاعد صخبٌ في القاعة. صخبٌ مفزع، أيّها السيّدات والسادة، لأننا جميعاً أدركنا أنّ ميّتاً قد عاد إلى وسط الأحياء. إنّ قناة RTV1، القناة التي تعرض لكم المزيد، سوف تُعيد لكم عرضاً بطيئاً لأوّل حركة لأجفان فيليكس كيربوز. حركة أجفان حدثت بعد وقتٍ طويلٍ بعد توقّف قلبه. وحركة أجفان حدثت، ويجب أن نقول ذلك، بفضلنا نحن، بفضل... RTV1، القناة التي تُحيي حتى الموتى. سوف أحاول في الحال أن أحصل على مقابلة حصرية مع فيليكس، وبعد ذلك مباشرةً سوف ننتقل إلى فاصلٍ إعلاني. ومع ذلك، نذكّركم بأنّ كلّ هذه الأمسية كانت برعاية ملمّع التنين الأسود. ملمّع التنين الأسود، الوحيد الذي يخرجكم من الغيبوبة.

كنّا، لوسيندير، وآماندين، وراؤول، وأنا، بين الضحك والبكاء. ركضنا لكي نعود إلى المسرح. (يجب أن يستمر العرض). *The show must go*.

تراجع الأطباء والخبراء مذهولين، وهزّوا رؤوسهم كما لو أنّهم لم يكونوا يستطيعون أن يُصدّقوا ما رأته أعينهم، وسمعته آذانهم، ولمسته حاسة اللمس خاصّتهم.

واصلوا جسّ جسم فيليكس، والتحقّق من أجهزة التحكّم. حتى إنّه كان هناك عالمٌ متخصّص بالنظر إلى أسفل الكرسي، وذلك تحسباً لاحتمال استبدال أخٍ توأم بالجثّة.

فحصتُ نبض فيليكس، واستمعتُ إلى دقّات قلبه، وتفحّصتُ شبكية عينه، وأسنانه.

ولكنّ جميع الحاضرين كانوا يعلمون، ويرون، وكانوا مرغمين على الاعتراف بما هو غير قابلٍ للجدل. لقد نجحنا. راؤول، وفيليكس، وآماندين، ولوسيندير، وأنا ضدّ الأغبياء.

تأتأ فيليكس:

– اللعنة، الرحلة، اللعنة، لم يسبق أن حصل لي هذا، مثل هذا. إ... إذاً، هل حصلتُ على عفوٍ عنّي، أم لا؟

اندفعت آماندين مسرعةً نحوه، وهمست بكلماتٍ في أذنه. وفي الحال بدت الدهشة في نظرته.

انحنى نحو ميكروفون صحافي قناة RTV1، ونطق بلفظٍ سليمٍ:

– *هذه خطوة صغيرة بالنسبة إلى روحي، ولكنّها خطوة عظيمة بالنسبة إلى الإنسانية.*

زال التوتّر دفعةً واحدة. وقف الحضور إجلالاً واحتراماً للبطل. لا يمكن أبداً وصف أهمية شعارٍ مناسبٍ. دوّى التصفيق في القاعة. لم يعد هناك أحدٌ يتمالك هتافاته.

– مشاهدو قناة RTV1 الأعزّاء، هذه لحظة تاريخية والجملة التي أطلقها مستكشفنا الوطني للتوّ على مسامعنا هي جملة تاريخية. هذه خطوة صغيرة بالنسبة إلى روحي، ولكنّها خطوة عظيمة بالنسبة إلى الإنسانية. إنّ الغمز للتاريخ أمرٌ رائع. لقد أنجح هذا الرجل تجربة الاقتراب من الموت في بثٍّ حيّ وأمام أنظارنا. ما الذي سافر؟ لعدم وجود خيارٍ أفضل، سمّى فيليكس هذا «روحه». كانت الصورة شاعرية. وبقي إيجاد التفسير العلمي.

عانقنا فيليكس كيربوز بحرارة.

– هل انتهينا؟ أوه... وبالنسبة إلى العفو عنّي، ألا يزال ساري المفعول؟

أعلن الرئيس لوسيندير:

– لقد حصلتَ عليه. لقد حصلتَ عليه، أنت حرٌّ، من الآن فصاعداً!

- بعد وقتٍ طويل. اللعنة، على المرء أن يجدّ ويجتهد في أيامنا هذه حتى يصبح بورجوازياً!

لم تكن آماندين تبتعد عنه.

- أنت هنا! أنت هنا، هذا يعني أنّك حيّ.

- حسناً... هذا صحيح، ها أنتم ترون أنّني قد عدتُ. لقد عدتُ، يا زملاء. هذه المرّة، نظرتُ جيّداً، لقد نظرتُ جيّداً إلى كلّ شيء. وإذا أردتم، يمكنني أن أرسم لكم صورةً لكي أُظهر لكم كيف كان ما رأيته. اللعنة، يمكنني أن أقول لكم إنّ هذا لا يُصدّق.

اقترب راؤول رازورباك، منفعلاً.

- خريطة! سوف نرسم خريطةً لقارة الموتى، وكلّما تقدّمنا أكثر في معرفتها، أضفنا التفاصيل الجديدة إلى هذه الخريطة.

كانت القاعة صاخبة وهائجة.

لحق بنا مقدّم البرنامج في قناة RTV1، مدّعياً:

- هاي! السيّد كيربوز، هذا اللقاء لمصلحة قناة RTV1. من حقّ مشاهدينا أن يعرفوا كيف كان العالم الآخر! السيّد كيربوز، أنت بطل القرن، يا سيد كيربوز!

توقّف فيليكس، بحث عن كلماته، ثمّ قال:

- حسناً... أستطيع أنّ أقول لكم، اللعنة، أنّ هذا أمرٌ لا يُصدّق، هذا مختلف تماماً عمّا كان يُعتقَد، هناك الكثير من الألوان، الكثير من الزخارف، الكثير من... إنّه يتحرّك بأقصى سرعة! أوه، ومن ثمّ، لا أدري كيف أتحدّث عن ذلك، هذا كثير جدّاً.

تعلّق صحافي قناة RTV1 بأذيالنا. كان عليه أن يملأ فترة زمنية لملّمعه الراعي للبرنامج ولم يكن قد بلغ ذلك تماماً بعد. كان يتوسّل الحصول على أدنى تعليقٍ منّا.

ضربني راؤول بكوعه على أضلاعي.

- هيّا يا مايكل، ألقِ عليهم خطاباً!

- أيّها السيّدات والسادة، لقد حصلنا على أجمل المكافآت. لقد نجحنا في إرسال مستكشفٍ واستعادته.

ساد صمتٌ مطبق في القاعة. طرح صحافيٌّ سؤالاً عليّ:

- دكتور بينسون، أنت أحد أكبر صنّاع انتصار اليوم. ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

اقتربتُ أكثر من الميكروفون:

- هذا اليوم يومٌ عظيم.

كان الجميع يصغون إليّ، فأردفت:

- لقد انتصرنا على الموت. بدءاً من اليوم، لم يعد أيّ شيء كما كان. يجب أن نغيّر وجهات نظرنا تماماً. نحن ننتقل الآن إلى كونٍ جديد. سوف يكون هناك على الدوام قبل وبعد اليوم. أنا بنفسي يصعب عليّ تصديق ذلك. ومع ذلك، لقد أثبتنا للتوّ أنّ...

وفي هذه اللحظة ظهرت من جديد العبارة الشريرة. (ولكن، في الواقع، ما الذي أفعله هنا؟)

- لقد أثبتنا للتوّ أنّ...

فجأةً، أدركتُ أنني هنا، هنا والآن، وقد أنجزتُ شيئاً تاريخياً. ما إن تترسّخ هذه الفكرة في الذهن، لا يمكن لأيّ شيءٍ أن يطردها.

استمرّ الحضور في الإصغاء إليّ، وركّزت عدسة التلفاز على وجهي. كان الملايين من الأشخاص يشاهدونني بشكلٍ مباشر، فاغر الفم دون أن أنبس ببنت شفة.

- دكتور بينسون؟

لم أكن قادراً على أن أنطق بحرفٍ إضافي. بذل الصحافي، منزعجاً جدّاً، جهوده لمواصلة البثّ.

- امم... وأنتم، سيدي الرئيس... لقد أثبتم حسن نيّتكم، هل سوف يُغيّر هذا سياستكم قبل الانتخابات التشريعية المقبلة؟

لم يعر الرئيس لوسيندير انتباهاً لذلك. همس لنا:

- تعالوا، يا أصدقائي، دعونا لا ننشغل بهذه الدهماء. لقد خرجنا الآن من القضية، فلنتابع جهدنا. هيّا بنا نرسم أولى خرائط قارة الموتى.

- أين نفعل هذا؟

- في محطّة إطلاق المستكشفين في سجن فلوري ميروغيس. لن نحظى بالهدوء إلّا في ذلك المكان.

أصبح فريقنا الصغير متماسكاً أكثر فأكثر.

83. ميثولوجيا فارسية

«سألت سمكةٌ بطّةً وهما في المقلاة:
«هـل تعتقديـن أنّ ميـاه النهر سـوف تعود
ذات يوم إلى مجراها بعد جريانها؟»
أجابـت البطّة: «عندما يتمّ شـيّنا، ما أهمية
أن يكون العالم بحراً أو سراباً؟»
من الأرض إلى زحل،
حللتُ جميع المشكلات،
تجنّبتُ الفخاخ والكمائن،
فككتُ كلّ لغزٍ، إلّا لغز الموت».

عمر الخيام (1050–1123)، الرباعيات.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

84. خريطة

تصاعدت موجةٌ صاخبة من التهاني من الزنازين. كان السجناء قد تابعوا على الهواء مباشرةً عبر قناة RTV1 «رحلة» فيليكس. كان مستكشفنا يحيّي المشاهدين في جميع الاتجاهات، وعيناه ترمشان، كما لو أنّه يريد أن يقول هذه المرّة: «كنتُ أعرف ذلك جيّداً، لقد قلتُ لكم ذلك».

في المحجر الصحي المحوّل إلى محطّة لإطلاق المستكشفين، اقتنى

راؤول ورقة مقوّاة وأقلام تخطيط ملوّنة. شكّلنا حلقة من حوله بينما كان فيليكس يحاول أن يصف بدقّة مشاهداته عن العالم الآخر.

كان مؤثّراً تأمّلُ هذا الإنسان الفظّ البدين، وهو يبحث عن كلماته وينبش في ذهنه بحثاً عن التعبير الدقيق، راغباً بشدّة أن يُرضينا، نحن، أصدقاءه الأوائل.

فرك جبينه، وحكّ ظهره، وحكّ تحت إبطيه. جعّد جبينه. عيل صبر رسّام الخرائط، فسأله:

- إذاً، كيف كان؟

- حسناً، قبل كلّ شيء، هناك المخروط وعلى حوافه ما يُشبه تاجاً من الزبد أو القطن، شيءٌ من هذا القبيل.

بدأ راؤول برسم مخطّطٍ:

قال فيليكس:

- كلا. المخروط أوسع.

- مثل إطارٍ من النيون يتناثر على شكل شبكاتٍ من الدانتلا. شيءٌ ما سائل... كيف أشرح لكم؟ أمواج كبيرة من مسحوق نجوم مائلة للزرقة، دفقاتٌ من الضوء المائي. يشعر المرء بالفعل بأنّه معلّقٌ في الأجواء وسط محيطٍ، محيط يدور حول نفسه لكي يشكّل تاجاً من الضوء والشرارات.

لقد أصبح الإنسان البدائي شاعراً.

مسح راؤول ما رسمه، وبدأ من جديد برسم رسمة تشبه خسّة نُزِعت أوراقها على نحوٍ خفيف.

وافق فيليكس على ما رسمه راؤول، وقال:

- هذا أفضل. مفهوم؟ يعوم المرء وسط نوعٍ من الهلام الناري، ومع ذلك يشعر بإحساسٍ مريح بالبرودة البحرية. لقد ذكّرني هذا بالفعل بأوّل مرّة رأيتُ فيها البحر.

- ما هو بالضبط لون كلّ هذا؟

- حسناً، أبيض - أزرق... ولكنه متوهّج أكثر ويدور مثل دوّامةٍ. وكان

يشفط أكواماً من الجثث من حولي. كان لدى جميعهم خيوطٌ بيضاء مربوطة بسرّاتهم، كانت تنقطع على الفور عندما تغوص أعمق في داخل المخروط.

سأل لوسيندير مندهشاً:

- التي كانت تنقطع على الفور؟

- نعم، هذا صحيح. لذا، كانوا متحرّرين من الأسفل وكانوا يستطيعون أن يسرعوا أكثر في الغوص.

سألت آماندين:

- من كان هؤلاء الناس؟

- جثثاً من كلّ البلدان، ومن كلّ الأعراق، شباباً، وشيوخاً، طوال القامة، قصار القامة...

أمرنا راؤول أن نلتزم السكوت. كان من شأن أسئلتنا أن تتسبّب بتشتيت تركيز المستكشف. وقال إنّه سيزوّدنا فيما بعد بالتفاصيل التي نرغب في معرفتها.

- تابع، مع مخروطك الأبيض - الأزرق.

- حسناً، كان يضيق على نفسه قليلاً لكي يتحوّل إلى أنبوبٍ عملاق. وهنا، كانت الألوان تصبح غامقة أكثر ومن ثمّ تتحوّل إلى الفيروزي. أنا لم أذهب إلى حدّ الوصول إلى اللون الفيروزي، ولكنني رأيتُ أين يتلوّن الأنبوب بهذا اللون.

- هل يدور المخروط طيلة الوقت؟

- نعم، وتكون حركتهُ بطيئة عند الحواف، ثمّ تزداد الحركة سرعةً كلّما تقدّمنا فيه أكثر. ومن ثمّ يتقلّص ويصبح ضوؤه أكثر سطوعاً. ويوجد كلّ هذا الحشد في منطقة اللون الفيروزي، وحتى أنا بنفسي تغيّر شكلي.

- كيف أصبحت؟

- ظلّ لي نفس جسمي كمستكشف موت، ولكنّه أصبح شفّافاً، شفّافاً جدّاً بحيثُ كنتُ أرى من خلال جسمي. كان بهيّاً جدّاً. نسيتُ جسمي تماماً، بل لم أعد أحسّ قطّ بظفري الداخل في اللحم. كنتُ مثل...

قلتُ، وأنا أُفكّر في *كتاب الموتى* المصري الذي كان راؤول قد حدّثني عنه.

- ... ريشةٍ؟

- صحيح. أو تيار هوائي تجمّد قليلاً.

كان راؤول منكبّاً على ورقته، وكانت رسمته تأخذ شكلها. المخروط، اللون، وأناسٌ شفّافون يقطعون حبالهم السُرّية الطويلة... تُرى هل كشف الموت أخيراً مظهره؟ كان هذا يشبه من بعيد رأساً ضخماً أشعث الشعر.

سألتُ:

- هل كان ذلك كبيراً؟

- كان شاسعاً. المكان الأكثر ضيقاً الذي رأيته كان قطره يبلغ عشرات الكيلومترات! تصوّرا أنّ كل جثث الكوكب كانت تندفع بمعدّل مئة جثّة في الساعة إلى داخله! آه نعم! ولم يكن هناك لا أعلى ولا أسفل. ربّما كان بوسع المرء أن يسير فوق الجدران، ولكن لم يكن هناك داعٍ لذلك، طالما كان يحلّق.

سألت أماندين:

- هل كانت هناك حيوانات أيضاً؟

- كلا، لم تكن هناك ماشية. لم يكن هناك سوى الكائنات البشرية. ولكن كانت هناك قطعان كاملة من البشر. لا بدّ أنّه كانت هناك حربٌ في مكانٍ ما قدّمت أكواماً من الناس. وكان كلّ هؤلاء ينسلون في الممرّ بصعوبة، دون أن يصطدموا بعضهم ببعض، على الرغم من السرعة التي كانوا يتقدّمون بها. كان الجميع ينجذبون إلى الضوء مثل الفراشات.

رفع راؤول قلمه الرصاص.

أبديتُ ملاحظةً:

- إذاً، كلّ هؤلاء الموتى الشفّافين سوف يصطدمون بعضهم ببعض حتماً في لحظة معيّنة.

سأل لوسينيدير:

- أين توقّفتم، بالضبط؟

على الورقة، أشار فيليكس بإصبعه إلى مكانٍ يقع على الحافة الواسعة للمخروط الأبيض - الأزرق، وقال:

- هنا.

أذهلتنا هذه الدقّة البالغة.

شرح فيليكس:

- لم أستطع الذهاب أبعد من ذلك. لو أنني اقتربتُ سنتيمتراً أكثر، لانقطع حبلي الفضّي هو الآخر ولكان «تشاو الصحبة».

أبدى الرئيس ملاحظةً:

- ولكنّك قلتَ إنّ الحبل كان مرناً إلى ما لا نهاية.

- هذا يحدث في الذهن. كلّما انجذبنا إلى الضوء أكثر، غدا الحبل أكثر قساوة وقابلية للانقطاع، وأكثر هشاشةً. اللعنة، لو أنني ذهبت أبعد سنتيمتراً واحداً، لما عدتُ راغباً على الإطلاق في رؤية هذا العالم مرّة أخرى. تلك النقطة، كانت حدّي الأخير.

وضع إصبعه في نفس المكان. وبقلم التخطيط الأسود، رسم عليه راؤول رازورباك خطّاً طويلاً متقطّعاً، وكتب تحته: «جدار الغيبوبة».

سألته:

- وماذا يعني هذا؟

- اعتقد أنّ هذا يشبه جدار الصوت في وقته. إنّه الحدّ الذي لا يمكن للمرء أن يتجاوزه حتى الآن من دون التعرّض للخطر. الآن وقد أصبحت بحوزتنا هذه الخريطة الأوّلية، أصبح لدينا هدفٌ أيضاً: تجاوز هذا الخطّ.

فكتب راؤول خلف الخطّ الذي يشير إلى جدار الغيبوبة بالأحرف العريضة: *Terra incognita*، *أي الأرض المجهولة*.

نظرنا إلى الورقة باحترام. وهكذا شرعنا في استكشاف قارة جديدة. كان الاتصال الأوّل مع الشاطئ، ومن ثمّ بعد ذلك، كلّما تقدّم الروّاد في الأراضي، أخذت جبالٌ وسهولٌ وبحيرات تأخذ مكانها على الخريطة، وكانت *الأرض المجهولة* تتراجع دائماً بعيداً نحو أطراف الورقة. وبذلك،

امتدّت الورقة إلى أفريقيا، وإلى أمريكا، وإلى أستراليا. وعلى نحوٍ تدريجي، مسح بشرٌ الكلمتين، اللتين كانتا علامة الجهل.

الأرض المجهولة... لقد اعتقد شهود تجربة قصر المؤتمرات أنّهم قد شاهدوا إنجاز مشروعٍ سياسيّ - علمي. أما نحن الأربعة، لوسينديرِ، وآماندين، وراؤول، وأنا، فكنّا نعلم تماماً أنّه، على العكس من ذلك، هذه ليست نهاية، بل بداية.

كان لا بدّ من استكشاف هذا النفق البنفسجي الذي كان يغدو فيروزياً. كان لا بدّ من استكمال الخريطة وإرجاع الكلمتين: *الأرض المجهولة*.

ضمّ راؤول يديه.

تمتم، دون أن يكتم ابتسامةً فاتحٍ مجيد:

- في خطٍّ مستقيم، دائماً في خطٍّ مستقيم نحو المجهول.

كان هذا شعاراً جديداً لتحفيزنا.

نظرنا بعضنا إلى بعض، وفي أعيننا جميعاً نفس البريق. لم تكن المغامرة سوى في بدايتها.

إلى الأمام نحو المجهول.

العصر الثاني

عصر الروّاد

85. مقتطفات من الصحف

صحيفة باريس: أمرٌ مدهش في قصر المؤتمرات:

رجلٌ فرنسي يضع قدمه في قارة الموتى

أوّل رجل تمكّن من وضع قدمه رسمياً في العالم الآخر رجلٌ فرنسيّ ويُدعى فيليكس كيربوز. كنّا نؤكّد منذ زمنٍ طويل، في مقالاتنا الافتتاحية، على ثقتنا بالمشاريع الطموحة لرئيسنا لوسينديز. بفضل جهوده، تمكّن فريقٌ وطني من التفوّق على جميع منافسينا العالميين، من خلال التقدّم، كفريقٍ رائدٍ، على قارة الموتى. لقد اختارت مجلّتنا منذ الآن فيليكس كيربوز رجل العام، وأطلقت عريضة لكي يُمنَح له في أقرب وقتٍ ممكن وسام جوقة الشرف.

صحيفة لندن: رجلٌ أوروبي في العالم الآخر

من الممكن زيارة الموت. لقد توصّل فريقٌ من الباحثين الأوروبيين إلى إرسال رجلٍ إلى العالم الآخر وإعادته منه سالماً. ومثلما يحدث في كثيرٍ من الأحيان، للأسف، سبق النجاح العديد من المحاولات الفاشلة. ويُعتقَد أنّ ما يُقارب مئة فأر تجاربٍ بشري قد تحمّلوا في فرنسا وطأة هذا المشروع غير العادي. أمّا فيليكس كيربوز، فقد نجا بشكلٍ مجيد من هذه المذبحة على الرغم من سخرية وتهكّم الرأي العام الفرنسي، المُجمِع على إدانة ما وصفوه

بـ «مختبر الموت المبرمج». إنّ فريقاً بريطانياً على وشك الانخراط بدوره في هذه المغامرة. وهي مسألة سوف نتابعها، بالتالي، في أعمدة صحيفتنا.

صحيفة طوكيو: في البحث عن أسلافه

أراد رجلٌ أن ينطلق بأيّ ثمن بحثاً عن أجداده. حاول رجلٌ غربي يُدعى فيليكس كيربوز أن ينضمّ إلى أسلافه من خلال الانتحار بمادة كلوريد البوتاسيوم، المادة الشديدة السمّية. وقد استفاق بعد عشرين دقيقة، سليماً معافى. ويجهد باحثون يابانيون الآن للإجابة على الأسئلة الأكثر جرأةً: تُرى هل يمكننا أن نزور بلد أجدادنا، بل (وربّما تصويره) تماماً مثل أيّ بلدٍ سياحيٍّ آخر على الكرة الأرضية؟

صحيفة نيويورك: فرنسيون مُحترَمون

أجرى فريقٌ حرفيٌّ صغير من الباحثين الفرنسيين تجربةً غريبة: التسمّم بهدف زيارة العالم الآخر. قبل بضعة أسابيع، كان الفرنسيون، بعد أن علموا بالمشروع، يشتكون من رئيس جمهوريتهم، جان لوسيندير، ويتّهمونه بأنّه ليس سوى قاتلٍ متسلسل، لأنّ المشروع الذي يتمّ تحت رعايته السامية تسبّب بوقوع ما يُقارب مئة ضحيّة قبل أن يُحقّق النجاح. أمّا بالنسبة إلى الباحثين المبتكرين، فقد هُدّدوا بالملاحقات القضائية طالما أنّه من الشائع في فرنسا أنّ للعلماء أجنحة مقصوصة بسبب البيروقراطية المفرطة. (وهذا هو السبب في أنّ أفضل العلماء الفرنسيين اعتادوا على الانتقال إلى الولايات المتّحدة الأمريكية التي يمكنهم العمل فيها بسلام من أجل نيلهم لجائزة نوبل في المستقبل). هذه المرّة، نجح أربعة مواطنين شجعان في إثبات قيمة أعمالهم لأمّةٍ وحتى لخبراء عدوانيين، وهذا أمام عدسات كاميرات قنوات التلفزة العالمية الحاضرة لكي تشهد أنّ فيليكس كيربوز غادر إلى قارة الموتى وعاد منها دون أضرار. إنّ الأمر يتعلّق بمجرمٍ سابق، محكومٍ بالسجن المؤبّد، ومن ثمّ تمّ العفو عنه كمكافأة له على هذا الاكتشاف وهو بدأ الآن وظيفةً كرجلٍ عصامي. وقد عرضت عليه عدّة شركات أمريكية مبالغ ضخمة لكي يجسّد شخصيته في فيلمٍ بميزانية ضخمة. لم يعطِ بعد ردّه ولكن يتمّ التفكير الآن في كارول توركسن لكي تقوم بدور الممرّضة

آماندين وفي فريد أوبانون ليؤدّي دور الرئيس الفرنسي لوسيندير. سيكون الفيلم قريباً على شاشاتكم.

صحيفة روما: البابا غاضب

في الوقت الذي يعقد فيه الفرنسيون العزم على غزو قارة الموتى، أعلن البابا أنّه غاضبٌ من أن يسعى العلم إلى تجاوز نطاق حقوقه. وقد ذكّر قداسة البابا أنّ «الموت شأنٌ لا يخصّ سوى الله والله يعبّر عن رأيه عبر صوت الفاتيكان»، مضيفاً: «ولا يمكننا أن نشجّع إرسال أشخاصٍ إلى العالم الآخر. نحثّ السلطات الفرنسية على التواصل مع أسقفية باريس قبل إجراء أي رحلة جديدة من هذا النوع». والآن، من المنتظر أن يصدر مرسومٌ بابويّ فاتيكاني في أيّ لحظة.

صحيفة مدريد: لوسيندير الظاهرة

لقد تحوّل رئيس الجمهورية الفرنسية السيّد جان لوسيندير منذ بضعة أسابيع في بلاده إلى مجنونٍ خالص. والحال أنّه قد تبيّن أنّه رجلٌ متنوّر وذو عقلٍ نيّرٍ ربّما سيكون علينا أن نقتدي به ونتبع مثاله. من المؤكّد أنّ لوسيندير افتقر في غالب الأحيان إلى حسّ الدعابة، ولم يُظهر قط الكثير من التعاطف حيال الأمم التي تعاني من صعوبات. وبالإضافة إلى ذلك، لقد سبق لنا أن انتقدنا في أعمدة صحيفتنا سياسته الحمائية والمتّسمة بقصر النظر. وبالتالي لا يسعنا سوى أن نعبّر عن المزيد من الإعجاب بهذا العزم العظيم الذي يُحافظ عليه في السرّ الأكبر: غزو قارة الموتى! وعلى عكس كلّ التوقّعات، نجح فأر التجارب البشري الفرنسي فيليكس كيربوز في الذهاب إلى القارة الأخيرة وفي العودة منها. تفكّر حكومتنا في إطلاق برنامجٍ دراسي سوف يسعى إلى فهم هذه الظاهرة على نحوٍ أفضل.

صحيفة برلين: مناورة إلهاء وتحويل الأنظار

بكلّ تأكيد، يتميّز الفرنسيون بسعة الحيلة والدهاء. ففي حين أن اقتصادهم يتخبّط في مشاكله، والاضرابات تعقب المظاهرات العنيفة، وفي الوقت الذي يسعون فيه عبثاً إلى كبح جماح انتشار المخدّرات وأمواج الهجرة السرّية، يسعى رئيسهم، السيّد جان لوسيندير، إلى تحويل الأنظار عن الأزمة

من خلال انخراطه في تجارب حول الموت. يُقال إنّه قد توصّل إلى إرسال رجلٍ إلى العالم الآخر. إنّ فريقاً من الخبراء الألمان سوف يتحقّقون قريباً من هذه التجربة المشكوك فيها.

صحيفة بكين: الموت، المُستعمَرة النهائية

ضوءٌ أخضر من أجل غزو قارة الموتى. كما الحال في عهد سياسة القوّة، لا تُخفي القوى العظمى أطماعها الاستعمارية. منذ بضعة أيام، وعلى الرغم من الكتمان والإنكار اللذين أحاطا بمناوراتهم، فقد شرع خبراء أمريكيون وإنكليز، وألمان، وإيطاليون، ويابانيون في بناء محطّات إطلاق مستكشفي الموت. لقد علمنا من مصادر موثوقة أنّ الفرنسي فيليكس كيربوز قد بلغ منذ الآن ما يشبه نقطة الصفر، غير المرئية والمستحيلة على العبور. سيتمّ وضع هذا الحدّ الفاصل في حالة الغيبوبة لمدّة عشرين دقيقة.

86. بعد الانتصار

لم يعد من الممكن الشكّ في التجربة. كان الوسط العلمي، والرأي العام، والصحافة يحيّون نجاح مشروع «الفردوس». أمّا لجنة الخبراء، التي جاءت إلى قصر المؤتمرات لكي تُحبطنا، فقد سلّمت تقريراً إلى البرلمان يقرّ، على عكس تصوّرها السابق، بجدارتنا وجدّيتنا.

لم يعد يجرؤ أحدٌ على الحديث عن «مختبر الموت المبرمج» أو عن «المقبرة الجماعية الرئاسية».

«ما هو الموت؟ ما هو الموت؟ ما هو الموت؟ ما هو الموت؟ ما هو الموت؟...»

يمكنني أن أكتب هذه الجملة ملء عشرين صفحة. كان ينبغي فعل هذا على الأقلّ من أجل ترميم درجة الشراهة للمعرفة التي كانت تسكنني.

حينما لا نعرف، لا نطرح الكثير من الأسئلة، ولكن حينما نبدأ بامتلاك بداية تفسيرٍ، نريد بأيّ ثمن أن نعرف كلّ شيء، وأن نفهم كلّ شيء.

كان الموت قد أصبح سرّاً في متناول خلاياي العصبية، وكان دماغي يُطالب بالمزيد من المعلومات بشأنه.

كان من شأن حقيقة الاقتراب منه، وهو يكاد يكون تحت السيطرة، أن يُطمئنني. «الموت ليس سوى هذا. بلدٌ يمكن للمرء فيه أن يقوم بالذهاب والإياب!» كان قد سبق أن ذهب هرقل، الرائد، إلى الجحيم لكي يواجه سيربيروس[1] حارس بوابة العالم السفلي. لماذا لا نفعل نحن ذلك؟

كان راؤول قد وجد ضالته، فقد أصبحتُ من الآن فصاعداً أتحرّق رغبة في معرفة ما يحدث للبشر بعد موتهم. وما الذي سوف يحصل لي أنا حينما سينتهي كلّ شيء؟ ففي النهاية، إذا كانت الحياة عبارة عن مسلسلٍ، لا بدّ أن نعرف الكثير عندما ستنتهي الحلقة الأخيرة منه.

من جهتي، كنتُ لا أزال تحت تأثير الصدمة. كانت الأسئلة تتزايد في ذهني. هل يمكن للإنسان، بقوّة الخيال والاقتناع، أن يغزو كلّ الأبعاد؟ ما هي حدوده؟ وعلى نحوٍ خاصّ، ما هو الموت، الموت، الموت؟...

اجتمع بنا الرئيس لوسينديير في مؤتمرٍ في قصر الإليزيه. استقبلنا في قاعة العمل الخاصّة به، وهو المكان الذي يعجّ بالحواسيب وشاشات المراقبة، وهو مكتب كئيب تقريباً ويبدو عليه التقشّف، وبعيدٌ جدّاً في كلّ الأحوال عن المكتب البديع في مظهره حيث يستقبل عادةً زواره الرسميين في فخامةٍ تُضاهي فخامة عصر لويس الخامس عشر.

شرح لنا رئيس الدولة أنّه علينا الآن أن نبذل جهوداً مضاعفة. لقد انتهينا من الشكوك، ونحن الآن نواجه خصوماً جدداً: المقلّدون. في الواقع، مقابل مجدنا في كلّ أنحاء العالم، كانت تُبنى محطّات إطلاق مستكشفي الموت.

ثرثر، قائلاً:

– ليس من الوارد أن ندع الأمريكيين أو اليابانيين أن يتجاوزونا. لقد سبق أن رأينا هذا في مجال الطيران. لقد زعم الأخوان رايت أنّهما قد صنعا أوّل طائرة في حين أننا جميعاً نعلم أنّ أوّل من صمّم طائرة كان كليمن آدر! لقد نجحتم في عملية إقلاع، ولكن احذروا، سوف يكون هناك بالتأكيد من يطالبكم بالتقدّم في العالم الآخر.

1- سيربيروس: في الأساطير اليونانية والرومانية، هو كلب حراسة مُتوحش ذو ثلاثة رؤوس يحرس باب العالم السُفلي، أو مثوى الأموات، ويتألف شعر عنقه أو ذنبه من الأفاعي. المترجم

بعد انتصارنا في قصر المؤتمرات، الذي شاهده جمهورٌ واسع، لم أكن أتصوّر أنّ فريقاً أجنبياً غامضاً يقدّم نفسه لنا لكي يطعن في أولويتنا بالبحث.

اعترضتُ، قائلاً:

– نحن نمتلك الصيغة الكيميائية المحدّدة للبوستير، الصيغة الكيميائية «لبطلٍ» لتقديمه في وجه العالم، بل اخترعنا المفردة الدالة على الرحلات بين العالمين. إنّ سابقتنا التاريخية لا تُدحَض وإن تقدّمنا كبيرٌ جدّاً بحيث سيحتاج الآخرون إلى الكثير من الوقت لكي يلحقوا بنا.

رفع لوسيندير ذراعيه إلى السماء.

– تذكّروا! بينما يُدقّق نواب برلماننا في أتفه تفاصيل اعتماداتنا المالية، تضع جامعات أمريكية مبالغ طائلة تحت تصرّف باحثيها، وهم لا يعملون في أقبية سجنٍ! ومع كرسي طبيب أسنان جدير بصالة متحفٍ أكثر منه بمكانٍ لتجارب علمية! كلا، إنّهم يسبحون في الرفاهية، وبحوزتهم كلّ الأجهزة الأحدث في العالم! بالإضافة إلى ذلك، سوف ننتقل، نحن أيضاً، إلى السرعة القصوى. لا أرى سوى وسيلة واحدة لتوفير حاجاتكم: البروفيسور رازورباك، والدكتور بينسون، والآنسة بالوس، والسيّد فيليكس كيربوز، أنتم من الآن فصاعداً مرتبطون مباشرة برئاسة الجمهورية. لقد عيّنتكم موظفي دولة برتب عالية.

إنّ كونراد لن يكون سعيداً حينما أعلن له هذا الخبر.

قال راؤول، مهنّئاً نفسه:

– ممتاز. سوف نستطيع أن نحسّن مختبرنا.

قاطعه لوسيندير:

– آه كلّا، يا رازورباك، لن يعود هناك ترميم! إنّ الأمر يتعلّق بمنافسة عالمية. لدى بلدنا مكانته التي ينبغي له أن يحافظ عليها في العالم. وعلاوة على ذلك، لم يعد لدينا أيّ سبب يجعلنا نخفي أنفسنا. على العكس تماماً، نحن بحاجة إلى أن نقوم بعملنا في وضح النهار. وبالتالي، سوف نبني محطّة إطلاق مستكشفين جديدة، أكثر حداثةً وأكثر سعةً. يجب أن نبني مكاناً «تاريخياً». علينا أن نبني قوس نصرٍ جديداً. قوس نصر فاتحي الموت.

مثل الكثير من رجال السياسة، كان لوسيندير ينتشي بأقواله. وفي الوقت

نفسه، كان يستلذّ بتحفيز فرقةٍ كان يعتبرها فرقته. كنّا نشكّل فرقته النخبوية، فرقة الكوماندوس الشخصية له من المستكشفين المستعدين لكلّ شيء لمساعدته في الدخول إلى التاريخ.

ومع ذلك، لم نكن نتقاسم نفس الطموحات. فإذا كان هو باحثاً عن الخلود، كنّا، نحن، نبحث عن المغامرة ونريد أن نكشف عن سرٍّ قديمٍ قدم الإنسانية نفسها.

فتح حاجبٌ، يطوّق رقبته طوقٌ ذهبي، الباب بصخبٍ كبير. كانت الجلسة قد انتهت. وكانت أمورٌ أخرى في انتظار الرئيس. لقد حان الوقت لصرفنا من المكان.

قال الرئيس:

- إنّ أجهزتنا المختصّة صوف تُطلعني على التقدّم الذي يحقّقه خصومنا.

وعلى سبيل توديعنا، أضاف:

- والآن، أيّتها الآنسة، أيّها السادة، هيّا إلى العمل بثقة!

87. فلسفة يهودية

«بالنوم، تعوّدنا الحياة على الموت. بالحلم، تُخبرنا الحياة أنّ هناك حياةً أخرى».

إيليفاس ليفي

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

88. شأنٌ عائلي

بعد هيجان قصر المؤتمرات، أمضيتُ أسبوعاً وحدي في شقّتي. وتأكّدتُ من أنّ العزلة أكثر سهولة على التحمّل في حالة النشوة منها في حالة الهزيمة، ولكن مع ذلك، لم تخفّ معاناتي. وبالإجمال، ماذا كنتُ أنتظر؟ هل أنتظر جحافل المعجبين الذين يترقّبون ذهابي وإيابي أسفل عمارتي؟ كنتُ لا أزال مايكل بينسون، الرجل الوحيد، وسواء كانت صورتي في الصحافة أم لا، فأنا أبقى مايكل بينسون، الرجل الوحيد.

وعلى سبيل شاهدة قبري، تصوّرتُ بطريقة ممتازة على بلاطة ضريحي العبارة التالية: «يرقد هنا مايكل بينسون، بسيطاً ووحيداً مثل الجميع».

واسيتُ نفسي بنبيذ بورتو الأبيض وكرّستُ بعض الساعات لإعادة قراءة كتبٍ قديمة عن الميثولوجيا.

وبعد أن أنهكتني قراءة تلك النصوص التي غالباً ما تكون رتيبة ومملّة، تصفّحتُ بشكلٍ عشوائي بعض المجلّات. كانت كلّ المجلّات مزيّنة بتلك المقالات حول سعادة الممثلين والممثلات الوسيمين جدّاً والمبتسمين دائماً، الذين يتزوّجون ويخونون بعضهم بعضاً كما أُفرقع بأصابعي. كانت كلّ صفحة تعرض صورةً فاضحة لزوجين يشعّان بسعادة الزواج أو الولادة. كان الكتّاب الرديئون يؤكّدون في مقالاتهم أنّ هؤلاء الممثّلين عباقرة، ومتميّزون، وحاصلون على جوائز، ومتواضعون رغم كلّ شيء، ومرتاحو البال ولُطفاء باستمرار، وأنّهم يساندون الكفاح ضدّ شلل الأطفال، ويتبنّون أطفال العالم الثالث، ويتحدّثون عن الحبّ كما عن القيمة الوحيدة التي لا غنى عنها، ويقدّمون أصدقاءهم الجدد الذين هم أيضاً عباقرة ومبتسمون. كان المستكشفون جميعهم سعداء الآن. أصبح فيليكس نجماً، وعثر راؤول على طريق والده، وبات الرئيس لوسيندير مشهوراً، وتعتقد آماندين أنّ بوسعها أن تنقذ البشر، ولكن ماذا عنّي أنا؟

أمّا أنا، فقد كنتُ عاطلاً عن العمل. لم يكن هناك أحدٌ أتحدّثُ إليه، ولم يكن هناك أحدٌ أبوح له بحزني وفرحي الممتزجين.

من جديد، تملّكتني الرغبة في العواء نحو القمر مثل الذئاب البرية في الصحراء. أووووووو! توقّفتُ عن العواء ما أن احتجّ الجيران. أرغمتُ نفسي على أن أقرأ بغضب كلّ مقالة من المقالات التي تتحدّث عن سعادة الممثّلين والفنانين والسياسيين.

كان يجب أن أتمالك نفسي، إذ كنتُ متلهفاً للغاية وفاقداً للصبر.

بلغت الساعة العاشرة والنصف، وفي هذه اللحظة، لم أستطع أن أمتنع عن التعبير عن أمنية. أمنية أن أكون محاطاً ببشرٍ أتحدث معهم.

- تحية للصحبة!

لم أكن محظوظاً، لم أجد سوى أمّي وأخي. ارتميا عليّ.

قالت أمّي:

– يا عزيزي، يا ولدي العزيز، أنا فخورةٌ جدّاً بك. لطالما عرفتُ أنّك سوف تنجح! إنّ أمّاً تشعر بهذا...

قال أخي:

– أحسنت، يا أخي الصغير، لقد ضربتَ ضربتك في الوقت المناسب!

لقد استحوذا على أريكتي كما لو أنّهما في بيتهما، ووضع أخي يده على ما تبقى من نبيذ بورتو الأبيض.

وشرع كونراد بعد ذلك يحدّثني عن مصالحي المالية التي يجب عليّ من الآن فصاعداً أن أُديرها بمساعدة مستشارٍ حكيمٍ. وأشارت أمّي إلى أنّه مع الشهرة التي بتُّ أحظى بها الآن، سوف أتمكّنَ من دون شكّ في أن أتزوّج ممثّلة جميلة أو وريثة رفيعة المستوى. كانت قد اقتطعت مقالات من مجلّات حول العديد من الفتيات الساحرات اللواتي قد يناسبنني.

قالت وعينها مليئة بالنهم:

– جميع النساء سيرتمين على قدميك.

قلتُ بكلّ تلقائية، ورغبةً منّي في الاحتماء من اهتمامها المزعج:

– ولكن لدي... لديّ أصلاً صديقة.

استشاطت أمّي غضباً في الحال، وقالت ساخطةً:

– ماذا! كيف! لديك صديقة، وتُخفيها عن والدتك!

– هذا لأنّ...

قال كونراد، مبتهجاً:

– أمّا أنا، فأستطيع أن أخمّن من هي. صديقة مايكل، هي الممرّضة! الدمية الناعمة الرائعة الشقراء ذات العينين الزرقاوين التي كانت بالقرب منك على مسرح قصر المؤتمرات! تُرفَع لك القبّعة، يا أخي، إنّها تشبه غريس كيلي، بل أجمل منها. ولكنّ الأمر غريبٌ. فمن خلال الطريقة التي ارتمت بها بين ذراعي فأر التجارب البشري خاصّتكم، كنتُ سأعتقد أنّها مغرمة به!

ومثل العادة، وضع أخي اللعين إصبعه على نقطة ضعفي الأبرز، واستمتع بغرس السكين عميقاً في جرحي. أسكتته أمّي، وقالت مستفهمةً:

- ممرّضة. ولمَ لا؟ العمل ليس عيباً. متى ستتزوّجها؟ سوف أكون سعيدة حقّاً برؤيتك وأنت تتزوّج. أنت تحتاج بالفعل إلى امرأةٍ لكي تنظّم حياتك. انظر كم ثيابك رثّة! سوف تُصاب بنزلة برد ما لن تتغطّى جيّداً. وعلاوة على ذلك، من المؤكّد أنّك تتناول طعامك دائماً في المطاعم. المطاعم تقتصد قدر المستطاع وتبخل على الزبائن، ولا تُقدّم لهم سوى بقايا الطعام والمنتوجات الأكثر رداءةً. أتمنى ألا تأكل فيها أبداً لحماً مفروماً.

وافقتها الرأي في مسعى منّي لاحتواء وابل الأسئلة والنصائح.

- أعرف ذلك، يا أمّي، أعرف.

- إذاً، هذا أفضل. سوف تعلّمك ممرّضتك أن تتغذّى بشكلٍ جيّد وأن تلبس ثياباً أنيقة. أصغِ إليّ، على الأقلّ. لا تبدأ بالتباهي والتفاخر بذريعة أنّك شوهِدتَ على شاشة التلفاز!

قلت:

- كلا، يا أميّ.

- كلا، ماذا؟

- كلا، لن أتفاخر.

- آه، أنا أحذّرك، لا تبدأ بالتحذلق والتعالي علينا لأنّك أصبحت نجماً عالمياً! لا تفعل ذلك معنا، نحن، اتّفقنا؟

كان من الأجدر بي أن أستسلم على أن أدخل في جدلٍ عبثي! ضحك كونراد ساخراً أمام ما ناله مقابل استسلامي.

وهو يتصفّح الكتب الموضوعة على طاولتي المنخفضة، صرخ، متسائلاً:

- هه! هل تحوّلت إلى الأدب الساحر، الآن؟

قَلتُ بعصبية:

- أنا أقرأ ما يعجبني، وليس عليّ أن أشرح أفعالي لأيٍّ أحد.

أردتُ أن أنحني تماماً أمام والدتي، ولكن أن أنحني أمام كونراد، فكان هذا طلباً مبالغاً فيه.

قال متلعثماً:

- *البوبول فو* أو *كتاب الأحداث*، هل هذا كتاب السحر للساحر؟

انتزعتُ من بين يديه الكتاب القيّم، وصرختُ في وجهه:

- هذا الكتاب المقدّس للهنود من شعب المايا الكيتشي في المكسيك.

- آه صحيح! وهذا الكتاب: *يي كينغ*، *كتاب التحوّلات*، ثمّ هذا، *باردو ثودول*، *كتاب الموتى*. وذاك الكتاب، *رامايانا*. يا للهول، يوجد كلّ شيء هنا. لم يعد ينقصك سوى كتاب *الكاماسوترا!*

- كونراد، إذا كنتَ قد جئت لكي تستفزّني، انصرف من هنا قبل أن أحطّم وجهك! عد وتباهَ بأموالك، وبسياراتك القديمة، وبنسائك ودعني وشأني بسلام!

همهم كونراد:

- سلام المقابر!

كنتُ أتقدّم نحوه رافعاً قبضتيّ، حينما تدخّلت أمّي، قائلةً:

- لا تتحدّث مع أخيك بهذه اللهجة. هو لم يجلب لي سوى الرضا. لقد تزوّج، ومنحني أحفاداً. ليس هناك ما يُعاتَبُ عليه! هو لم يتعالَ ويتكبّر لأنّه ظهر على شاشة التلفاز.

بلغ غضبي ذروته وكدتُ أشدّ شعري حنقاً، فتنفّستُ ببطء لكي أستعيد هدوئي.

- إذا كنتما لم تأتيا إلى هنا إلّا لإغاظتي، أفضّل أن لا تمكثا طويلاً هنا. هل كنتما تخشيان من أن أكون سعيداً؟ هل تُريدان إفساد سعادتي؟

لاحظت والدتي أنني كنتُ، كما هي عادتي دائماً، قد تركتُ أوّل زرٍّ في قميصي مفتوحاً لكي أكون أكثر راحةً، وكما هي عادتها دائماً، سارعت إلى إغلاقه، وهي تقرص رقبتي بشكلٍ عرضيّ. استغلت اللحظة التي كنتُ أكاد أختنق فيها لكي تستلم زمام الحديث. وقالت، غاضبةً:

- كيف تجرؤ على أن تتكلّم معنا بهذه اللهجة؟ لقد شجّعناك على الدوام. حتى عندما كنت تمضي وقتك في التسكّع في المقابر مع رازورباك،

لم أعاتبك قطّ على ذلك، ومع ذلك، كنتُ أعرف الكثير من الأمّهات اللواتي لم يكن يسمحن لأطفالهنّ بمخالطة المجانين الصغار.

- راؤول ليس مجنوناً!

- ومع ذلك هو على شيءٍ من الخصوصية، سوف تقبل بذلك و...

- هل يجري الحديث عنّي؟

في يومٍ من الأيام، ربّما سيكون عليّ أن أفكّر بوضع أقفال متينة على باب شقّتي. يدخل أحدهم إلى هذا المكان كما يدخل إلى طاحونة. سأضع أقفالاً، وعيناً ساحرة، وجرساً، وأهلاً بحرمة الحياة الخاصّة!

وبانتظار ذلك، لا يهمني إن كان راؤول قد سمع كلمات أمي المهينة والمحبطة! هو الآخر، لم يكن عليه أن يظهر دون سابق إنذار.

قلتُ ببرود:

- طاب صباحك يا راؤول.

قال أخي بصوتٍ ملؤه الاحترام:

- أجل، يا بروفيسور رازورباك، كنّا نتحدّث عنكم بالضبط. نعتقد أنّكم، لكونكم الآن أثرياء ومشاهير، بحاجةٍ إلى مستشارٍ مالي لكي يسهر على مصالحكم. ففي نهاية المطاف، أنتما والفتاة تشكّلون ما يشبه فرقة للروك. يلزمكم مدير أعمال، شخصٌ يتولّى أمور علاقاتكم العامّة، ويهتمّ بعقودكم، والذي...

كنتُ أتوقّع أن يوبّخ راؤول بجفاء هذا الشقيّ المراوغ، ولكنّه لم يفعل ذلك على الإطلاق، بلّ أصغى إليه بانتباه.

سأل:

- هل هذا شقيقك؟

اعترفتُ بشكلٍ بائس:

- نعم.

قالت أمّي بتفاخر:

- وأنا والدته!

وضع راؤول إحدى يديه على ذقنه، وقال:

- شقيقك لديه أفكارٌ، فنحن سوف نحتاج بالفعل إلى إدارة محطّتنا الجديدة لإطلاق المستكشفين بالطريقة الأكثر دقّة.

تفاخر كونراد، وهو يوضّح مشاريعه:

- بالضبط، فكّرتُ بأنّه سيكون من المثير للاهتمام افتتاح حانوتٍ للتذكارات إلى جانب محطّتكم الجديدة لإطلاق المستكشفين. سيكون من الممكن أن تُباع فيه قمصان كهذه.

واستطعنا أن نقرأ على القميص الذي أخرجه من جيبه العبارة التالية: «الموت مهنتنا».

أنا الذي انزعجت، وليس راؤول. تفحّص القماش، وقال:

- فكرةٌ حسنة! هل ينكمش القميص بعد غسله؟

قالت أمّي:

- كلا. إنّه مكفول من جهة ثبات اللون أيضاً، وقد تحقّقتُ من ذلك.

تُرى هل راؤول على استعدادٍ لأن يبيع مشاريعنا المقدّسة لتجار الهيكل؟ لم أستطع أن أصدّق ذلك.

- ولكن...

فرض عليّ الصمت:

- شقيقك على حقّ، يا مايكل. إنّ وجود حانوتٍ سوف يسمح بالتعريف بعملنا على نحوٍ أفضل، وبترسيخ علامتنا التجارية لدى جموعٍ كبيرة.

صاحت أمّي الحنونة:

- وأنا سأكون ملحقكم الإعلامي! وبهذا، سوف أستطيع أن أرى مايكل في غالب الأحيان. وسوف أهتمّ به على نحوٍ أفضل.

فركتُ عينيّ. كلّا، لم أكن أحلم. كنّا قد بدأنا بالكشف عن ألغاز الموت، وبالتالي تغيير الحياة، وتغيير العالم، وتغيير الإنسانية... وها نحن نجد أنفسنا على وشك تنظيم افتتاح مخزن يضمّ «تذكارات المستكشفين». كنّا نعيش بالفعل عصراً مذهلاً! ربّما لو أنّ يسوع المسيح عاد إلى الأرض، لاضطرّ هو أيضاً أن ينشر رسالته، «أحبّوا بعضكم بعضاً»، على قمصان بنفسجية. و«طوبى للمساكين بالروح، لأنّ لهم ملكوت السماء»، على

بلوزات بيضاء، 70% قطن، و30% أكليريك، تُغسَل بالماء الفاتر. وسوف يُناسب هذا كونراد تماماً.

تصوّرتُ بنفس الأسلوب لاوتزه منشوراً في متجرٍ للأدوات. «من يعرف كثيراً لا يتكلّم، ومن يتكلّم لا يعرف كثيراً». على ملابس سباحة مثيرة!

أخيراً، إذا كان راؤول، صديقي البروفيسور راؤول رازورباك، لا يجد في ذلك عيباً، فمنْ أنا حتى أعترض على ذلك؟ سوف يفتتح أخي المتجر، وسوف يطلب ألبسة مستعملة وخردوات بالجملة من تايوان، وسوف تُدير أمّي المتجر.

هززتُ كتفيّ وأنا أردّدُ في نفسي أنّ أخي المثير للسخرية على الأقل لم يقتل أحداً.

وسألت أمّي لكي تقضي عليّ:

– وممرّضتكَ، متى سوف تعرّفني عليها.

89. ميثولوجيا أسترالية

تستحضر ميثولوجيا السكان الأصليين في أستراليا نومبكولا، «إله السماء الذي خلق نفسه»، وهو منبثق من العدم. نومبكولا كائنٌ مخلوقٌ قادمٌ من العدم ظهر فجأةً على الأرض الجرداء. توجّه نحو الشمال، وولِدتْ جبالٌ، وأنهارٌ، وبالمناسبة سهولٌ وحيواناتٌ في طريقه.

وهو يمشي، كان ينشر أطفال – أرواح الذين كانوا أرواحاً خالدة منبثقة من جسده. وقد نحت في كهفٍ رموزاً مقدّسة تُدعى شورنجا، موهوبة بالقدرة على بثّ الطاقة. وقد وُلِد السلف الأوّل من اقتران شورنجا بطفلٍ – روحٍ.

ومن ثمّ، ولِدَ أسلافٌ آخرون بنفس الطريقة وتكفّلوا بتربية البشر الأوائل.

ذات يوم، نصب نومبكولا عموداً وسط أرضٍ، ودهنه بالدم قبل أن يصعد إليهَ ومن ثمّ أشار إلى السلف الأوّل بالانضمام إليه. ولكن لأنّ الدم كان قد جعل العمود زلقاً جدّاً، سقط السلف على الأرض.

فأصبح نومبكولا وحيداً في وصوله إلى السماء، وسحب العمود وراءه. ومن ثمّ لم يُرَ بعد ذلك مرّة أخرى قط.

وقد أدرك البشر منذ ذلك الحين أنّ الخلود قد أفلت منهم إلى الأبد. لقد ظلّ العمود هو المحور الذي يدور حوله نظام العالم السفلي، مثلما أراد نومبكولا له أن يكون.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

90. محطّة إطلاق المستكشفين في بوت شومو

بفضل الاعتمادات المالية الخاصّة لرئيس الجمهورية، بنينا محطّة إطلاق مستكشفين رائعة. لم تكن المحطّة عبارة عن قوس نصرٍ جديد، بل عمارة صغيرة بمظهرٍ حديث، في حيٍّ هادئ. لقد اخترنا مكانها بعناية فائقة. كانت تقع في شارع بوتزاريس، على مرتفعٍ في حديقة بوت شومو.

وجد راؤول أنّه أمرٌ مسلٍّ أن يدرس الموت بالقرب من الموقع الذي كانت تنتصب فيه سابقاً مشنقة مونتفوكون، وهي الذكرى المشؤومة. في هذا المكان، شُنِقَ أبرياء ولصوص وقطاع طرق في العصور الوسطى، باسم الملك.

وفي غضون شهرين، أصبح كلّ شيء جاهزاً.

كانت لدينا بناية من سبعة طوابق تطلّ على حديقة بوت شومو. كانت الطوابق الأربعة الأولى تضمّ اثنتي عشرة شقّة صغيرة، أيّ ثلاث شقق في كلّ طابق. هدمنا الجدران على المستوى العلوي منها. وأقمنا بذلك مختبراً مساحته مئتان وعشرون متراً مربّعاً في الطابق الخامس، وقاعة للتحليق بنفس المساحة والأبعاد، في الطابق السادس. أمّا الطابق السابع، فقد حوّلناه إلى طابقٍ علوي، مغلق تماماً بزجاجٍ شفّاف في الشتاء، وشرفة في الهواء الطلق في الصيف.

وقد رتّبت آماندين هذا الطابق وزيّنته بزرع نباتات خضراء بأعداد كبيرة، وفرشت قاعة الاستقبال فيه على ذوقها. وقد أضفنا إلى هذا الديكور الكولونيالي آلة بيانو من طراز شتينواي، بيضاء اللون، وباراً للمشروبات أسود اللون.

لقد كان المكان بالفعل أنيقاً للغاية!

في أسفل العمارة، كانت لوحة بسيطة جدّاً وغامقة تحمل عبارة «محطّة إطلاق مستكشفي الموت في باريس» وبأحرف أصغر، عبارة «الدخول خاصّ للموظفين فقط». وقد اقترح راؤول أن نضيف أيضاً: «احذر، تحليق مستكشفي الموت»، كما يُشار عادة بعبارة «احذر، مدارج إقلاع» بالقرب من المطارات. وقد راقت لنا الفكرة كثيراً.

افتتح الرئيس لوسيندير بطريقة كلاسيكية المبنى بفتح قارورةٍ على بابه. قارورة شامبانيا حقيقية هذه المرّة، وليست مجرّد رغوة، إذ لم نعد نبخل على أنفسنا.

لقد نُظِّمَت سهرة استقبال وتعارف في الطابق العلوي دُعيت إليها الصحافة. وقد ألقى رئيس الدولة خطاباً مقتضباً هنأنا فيه على جهودنا وشجّعنا على أن نحافظ على الصدارة في السباق إلى غزو «القارة الأخيرة».

واقفاً على منصّةٍ مطوّقة بنباتات غراسية، عدّد المستعمرات التي فقدتها فرنسا: كندا، الهند، أفريقيا الغربية، فقط لأنّها لم تعرف كيف تحافظ على تقدّمها.

ختم حديثه بعزيمة صلبة:

– هذه المرّة، سنبقى الأوائل.

ثمّ، تحت وميض عدسات المصوّرين الصحافيين، كرّمنا نحن الأربعة بوسامٍ متميّزٍ كان قد أحدثه خصيصاً من أجلنا: وسام جوقة الشرف الخاصّ بالثاناتونوتية. كانت الميدالية تمثّل رجلاً له أجنحة ملائكة يقتحم حلقة نارية.

ربّما، في نفس هذه اللحظة التي كنّا نتدفّأ فيها بحرارة النجاح والمجد، كان الموت يتأمّلنا من الأعلى، تماماً مثل أسماك البيرانا التي تتسلّى بالنظر من نهرٍ موحلٍ إلى أطفال قريةٍ على ضفاف بحيرةٍ منهمكين في صناعةِ منصّة غطسٍ مؤقّتة من ألواحٍ خشبيةٍ متّصلة.

طردتُ هذه الأفكار من ذهني وعدتُ إلى الجوّ الصاخب لحفلتنا الخاصّة بالاستقبال. كان صحافي قناة **RTV1** لا يزال حاضراً، ويطرح أسئلةً على آماندين، ولكنّ هذه الأخيرة لم تكن متحمّسة للإجابة على

أسئلته. آماندين الصموتة. كان يجب النظر إليها، فحسب. ولكنّ هذا الصحافي لم يعد يُجيد النظر. كان يطرح أسئلةً ولا يُصغي إلى الأجوبة، كان يصوّر دون أن يرى. لفرط استخدام الحواس الاصطناعية للميكروفون والكاميرا، كان الضمور قد أصاب حواسه الطبيعية. ومع ذلك، كانت آماندين جميلة جدّاً. كانت ترتدي في ذلك المساء فستاناً ضيّقاً مقصّباً أسود اللون، ولكنني كنتُ أتجنّب النظر إلى عينيها الزرقاوين اللتين كانتا تجذبانني مثل هاويتين لا قاع لهما.

استغلّت والدتي لحظة من استراحة صحافي قناة **RTV1** لكي تزوّدها بالأجوبة على أسئلةٍ لم يكن قد فكّر في طرحها عليها. «نعم، سوف يُفتتح متجرٌ ثاناتونوتيّ»، «نعم، هذا المتجر سوف يعرض قمصاناً وأدوات تذكّر بالتجارب الثاناتونوتية»، «كلّا، لن تكون هناك تخفيضات قبل حلول فصل الصيف».

واصل الرئيس إلقاء خطبته على المنصّة، متحدّثاً عن اكتشافاته الخاصّة.

قال لوسيندير وهو يلوّح بالميدالية:

- هذا الوسام مخصّصٌ لمكافأة كلّ أولئك الذين سوف يساهمون في تقدّم الثاناتونوتية، بمن فيهم زملاؤنا الأجانب الذين سوف يمكنهم أن يأتوا إلى هنا للتعاون معنا. حظّاً سعيداً للجميع!

لوسيندير المُهيب. لقد كان بالفعل مستعداً لفعل أيّ شيءٍ لكي يُدوّن اسمه في كُتب التاريخ. بالنسبة إليه، لم يكن كافياً له أن يكون الرئيس الذي شجّع التجارب على الموت. ولكي يكون متأكّداً من خلق الانطباع والتأثير في الأذهان في الزمان والمكان، كان بحاجة إلى أن يبتكر أيضاً ميدالية خاصّة به، تحمل اسمه «ميدالية لوسيندير» ومحطّة إطلاق مستكشفين خاصّة به، وهو مكانٌ سوف يتّخذ، ممّا لا شكّ فيه، اسم محطّة لوسيندير لإطلاق مستكشفي الموت، مثل مطار جون كينيدي أو مطار شارل ديغول.

أمّا بشأن فكرته في جلب كلّ المستكشفين الناجحين إلى هنا، فسوف تسمح لنا بألّا يتمّ تجاوزنا أبداً من قبل الأجانب. فكرةٌ رائعة. شربتُ نخبه.

91. ميثولوجيا تبتية

«اعلم أيضاً:
خارج هلوساتك
لا يوجد لا ربّ يحاكم موتى
ولا شياطين
ولا قاهر الموت، يا ماجوسري.
افهم ذلك وكن متحرراً.»

باردو ثودول،
كتاب الموتى التبتي
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

92. في العمل

بدءاً من اليوم التالي للافتتاح الرسمي، أخذنا أماكننا بأسلحتنا وأمتعتنا في قصر الموت خاصّتنا.

كان الرئيس قد جهّز شققاً خاصّة لكلّ منّا. بالإضافة إلى مختبر ذي مداخل متعدّدة لكي نستطيع أن نعمل خلال الليل. في الواقع لأننا كنّا جميعاً قد واجهنا مشاكل تتعلّق بالجيرة خلال حملة القدح والذمّ التي سبقت جلسة قصر المؤتمرات، انتقلنا ببهجةٍ وسرور إلى هذا الجوّ الجديد.

اخترتُ مكان إقامتي في الطابق الثالث. ومن ثمّ ضممتُ إلى المختبر راؤول المنزعج جدّاً من رغبة التجاوز لدى الرئيس لوسيندير.

قال، ممتعضاً:

- الأمريكيون، اليابانيون، الإنكليز... لا يوجد سوى هذه الكلمات على فمه. إنّه لا يفهم شيئاً من هذا الأمر. هذا عملٌ بعيد الأمد. لا يمكننا أن نتقدّم إلّا خطوة بخطوة، وعلاوة على ذلك، بإحاطتنا لأنفسنا بأقصى درجات الحذر والاحتراس.

اندهشتُ لرؤية صديقي وهو يُبدي هذا الطبع الهادئ والمعتدل، وهو الذي لطالما كان يحثّنا على الذهاب بسرعة إلى الأمام رغم الكثير من المخاطر والشدائد.

- لا ينبغي الخلط بين السرعة والتسرّع.

في البداية، يجب كبح جماح وحماسة فيليكس الذي يرغب في أن يقوم بعدّة رحلات تحليق.

كان مستكشفنا قد تغيّر كثيراً منذ الانتصار الذي تحقّق في قصر المؤتمرات. بات يُدلي بمقابلة صحفية تلو الأخرى، وغدا ضيفاً دائماً في التلفاز في برامج ألعاب أو برامج حوارية، وأيّاً كان البرنامج، كان يعشق المشاركة فيه.

بعد ثلاثين سنة عامل نفسه خلالها كنكرة، أدركتُ هذه الشهيّة إلى الانتقام. لقد قام جرّاحٌ اختصاصي في التجميل بترميم وجهه ذي الندوب، كما نجح طبيبٌ اختصاصي في العيون في تخليصه من تلك العدسات اللاصقة التي كانت تُرغمه على أن يرمش بعينه باستمرار. أمّا بالنسبة إلى جمجمته الصلعاء، فقد لجأ إلى عملية زرع للشعر. وكان أكبر مصممي الأزياء يغطون جسمه بثيابٍ على سبيل الدعاية والإعلان. كان فيليكس، الوسيم والأنيق، يجسّد بطل الموت الممتاز.

كان يُشاهَد في كلّ مكان، ودائماً في المقدّمة، في كلّ حفلات الافتتاح، وفي كلّ السهرات الكبيرة في النوادي الليلية العصرية. وكانت دعوة المستكشف الوحيد للموت في العالم إلى المائدة امتيازاً تتشاجر من أجله ربّات المنزل الأكثر رقيّاً. وكان فيليكس قد دخل إلى كتاب غينيس للأرقام القياسية كرجل معروف بأنه قد تقدّم إلى أبعد ما يمكن في عالم ما بعد الحياة الأرضية. بين أقوى لافظٍ لبذور الكرز وأضخم شاربٍ للبيرة، كان يظهر في كتاب غينيس بزي سوبرمان، إلى جانب عارضة أزياء فاتنة تلوّح بمنجلٍ.

كان فيليكس قد أصبح بالفعل اجتماعيّاً جدّاً.

من جهة، كنّا منبهرين، لأنّه من شأن هذا الأمر أن يحثّه على العودة إلى الأرض بدل أن يستسلم للتسكّع في الأعلى بمقاصد لم نكن نعرفها تماماً.

ومن جهةٍ أخرى، كنّا ننزعج من تأخّره الدائم الذي كان ينجم من كلّ بد عن لياليه الحمراء. كان يقضي في بعض الأحيان أياماً كاملة في سريره لاستعادة قواه التي أهدرها في ليالي السهر بدل المجيء إلى محطّة إطلاق المستكشفين، التي حولّها إلى مجرّد مكتبٍ له. وفضلاً عن ذلك، كان قد اعتاد كثيراً على إعجاب الرأي العام به بحيث لم يعد يعير أذناً صاغية لنصائحنا ولم يعد يهتمّ كثيراً بأعمالنا.

بيد أنّ فيليكس كيربوز كان يحافظ على بقايا من شرف المهنة. في الأسبوع الأوّل من استقرارنا في بوت شومو، نجح في القيام برحلتي ذهاب وإياب. وأكّد على وجود جدار «الغيبوبة لمدّة إحدى وعشرين دقيقة». نوعٌ من الغشاء البخاري الذي قارنه مع فتحةٍ شفّافة ورقيقة.

كان يعتبر أنّ «بعد هذا الجدار، ينقطع الحبل الفضي الذي يرتبط بالعالم ولا تعود لإرادة المرء الرغبة في العودة إلى الوراء». وقد نشرت جميع الصحف هذا المصطلح: «جدار الغيبوبة» على صدر صفحاتها. كما سمّاه بعضهم «جدار الموت»، أو حتى «مولوخ 1»، أو أيضاً «موخ 1»، وذلك في محاكاةٍ لمصطلح جدار الصوت، ماخ 1.

مولوخ، جعلني هذا أفكّر في بعل، الإله الفينيقي القرطاجي. خلال رحلةٍ إلى سيدي بوسعيد، في تونس، رأيتُ تمثاله الرمزي. وهو تمثالٌ كبير منحوت من المعدن، تُوقَدُ نارٌ في بطنه. ويُرمى الأطفال والعذارى في فمه الفاغر كأضاحٍ.

وفي الأسفل تماماً، في الطابق الأرضي، كانت والدتي قد افتتحت متجرها الصغير وتبيع، كما تمّ الاتفاق عليه، قمصاناً، وحمّالات مفاتيح وقبّعات. وكان متجرها قد سمّي بقناعة «إلى غزاة الموت».

كان فيه كلّ أنواع المواد الغريبة: أكواب بيرة مكتوبٌ عليها: «الموت مهنتَنا». وكانت على كلّ الأدوات الأخرى، عبارة مدوّنة بأحرف كبيرة: «الرماد، أنت تعود إلى الرماد» على منافض السجائر؛ و«الأخيرة تقتل» على ساعات اليد؛ «لا شيء يضيع، لا شيء يُخلَق، كلّ شيء يتحوّل» على ورق التواليت؛ «أنا أموت، وهذا يعجبني» على الشموع؛ و«السماء لا تنتظر»

على الطائرات الورقية. كما توجد فيه أدوات الطفل فيليكس، وأشرطة فيديو لتحليقه في قصر المؤتمرات، ومجموعة ألعاب الطبيب المخدّر - المستكشف أثناء طفولته، مع صورتي.

كان ذلك بنكهة...

في النهاية... يختار المرء أصدقاءه، ولا يختار عائلته.

93. استمارة الشرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة

إنّ الحركة الثاناتونوتية بصدد اتّخاذ أبعادٍ من المستحيل إيقافها بالطرق العادية للتدخّل. لقد غدت الثاناتونوتية واقعاً لا مفرّ منه. ونظراً لعدم توفّر إمكانية التحرّك ضدّ الحركة نفسها، يمكننا أن نُطيح بفاعليها الرئيسيين (وحتى ملفّاتهم الشخصية) وخاصّةً راؤول رازورباك، ومايكل بينسون وآماندين بالوس. نحن نعتبر أنّه من الخطر أن ندعهم يتصرّفون لوقتٍ أطول. يمكن لهم أن يتسبّبوا باضطرابات خطيرة. نطالب بمنحنا الإذن بالتصرّف.

جواب من الجهات المختصّة:

نوصي بأن ننتظر ونرى. من المبكّر جدّاً التدخّل

94. مشكلة لاهوتية

- إنّ «جدار الغيبوبة» خاصّتكم جميلٌ جدّاً، ولكن إن لن تقدّموا تفسيراً منطقيّاً للرأي العام، فلن يتأخّر في اعتباركم دجّالين، وسيسري هذا عليّ أنا أيضاً!

في مكتبه المليء بالحواسيب وشاشات المراقبة، كان الرئيس لوسيندير منفعلاً جدّاً. وكان محقّاً في ذلك: إنّ الخطاب الذي ينقل تجربة غالباً ما يكون أكثر أهميةً من التجربة نفسها. بالمناسبة، في زمانه، لم يكن باستور يتوانى عن تفسير نتائج تجاربه قبل أن يتحقّق من صحّتها بالفعل. لقد حقّقنا اكتشافاً رائعاً، ومن واجبنا نحن أن نشرح مفهومه للجمهور.

أشعلت يدا راؤول الطويلتان واحدة من سجائره الملفوفة من ورق الأوكاليبتوس، المسمّاة بيدي. نفث، مطرقاً في التفكير، الدخان قبل أن يصرّح:

- لديّ ربّما شرحٌ أعرضه على جمهوركم.

استقرّ الرئيس بارتياح في أريكةٍ ذات عجلات. وشغّل نظام التمسيد الآلي للظهر.

قال بحسن نيّة:

- أنا أُصغي إليك.

شهق راؤول نفثةً من سيجارته الملفوفة من ورق الأوكاليبتوس وزفر بتلذّذٍ دوائر دخانها.

- هناك التفسير الأوّل، الذي سيكون التالي: الموت هو انحدارٌ بيولوجي. في «موتٍ كلاسيكي»، بعد أن تحترق القشرة الدماغية المُحدَثة، يسقط الوعي في مسيخ الأنف، وفي هذه اللحظة، يمكننا مراقبة تجربة الاقتراب من الموت. في هذه المرحلة، لا تزال توجد علاقات كيميائية بين القشرة الدماغية المُحدَثة ومسيخ الأنف، وهو الأمر الذي يجعل الناس يستطيعون أن يتذكّروا هذا النفق. ومن ثمّ، يسقط الوعي إلى المُخيخ. هنا أيضاً، تبقى علاقات بين القشرة الدماغية المُحدَثة ومسيخ الأنف، ولكن لا تكون هناك علاقات بين القشرة الدماغية المحدثة والمُخيخ، وبالتالي لا يعود المرء يتذكّر. لم يتحدّث أحد عن هذا الطور. بالمقابل، تمّ تحفيز هذا المُخيخ، الأمر الذي أدّى بالشخص المتوفى إلى أن يحلم أحلاماً، ويعاني من هلوساتٍ، ويرى مشاهد خارجية لنفسه مع شخصيات قزمة. ومن ثمّ يذهب الوعي من المُخيخ إلى الخلايا، ومن الخلايا نحو نواة الحمض النووي. وبما أنّ الحمض النووي قد تكوّن منذ بداية العالم، يُدرك المرء، بالتالي، في هذه اللحظة، العالم الأصلي في نوعٍ من حالة ثانية للوعي.

رفع لوسينديير يده والتفت نحوي.

- لم أفهم شيئاً. وأنت، يا مايكل، هل لديك تفسيرٌ؟

- تتحدّثُ نظريةٌ جديدة عن «تاكيونات». إنّها جسيمات جديدة تماماً

اكتُشِفَت مؤخّراً في المسرّع النووي للجسيمات في جامعة ساكلاي. لدى التاكيونات خصوصية استثنائية، فهي أسرع من الضوء. وهذا ما يمكنه أن يكون موجوداً في حقل الوعي. حينما نكون، في الصباح، متلعثمين بعض الشيء ولا يكون ذهننا صافياً، يبدو أنّ تاكيونات الوعي هي التي لم تعد بعد إلى جلدنا. يعتقد منظّرو التاكيون أنّه جُسيمٌ ليس له لا ماضٍ ولا مستقبل. قد تكون التاكيونات هي التي تشكّل «مادة» الروح.

داعب لوسينديز كلبه.

– إنّ حكايتك عن جسيمات الوعي مغرية، ولكن كلمة «تاكيون» لا تبدو لي مناسبة للإعلام كثيراً وجاذبة لاهتمامه. ثمّ هناك ما يكفي من هذا الهراء العلمي، وهذا سيزعج الجميع. أنت يا راؤول، أعتقد أنّك تهتمّ بالعلوم الروحانية. ما هو العلم الروحاني الذي يعطي الرواية الأكثر «مصداقيةً»؟

– حسناً، حسب كتاب *باردو ثودول، كتاب الموتى التبتي*، نحن نتشكّل في الواقع من ثلاثة أجسام.

جفل رئيس الدولة، قائلاً:

– هل تمزح؟ هل تُريدني أن أقول هذا لناخبيّ؟

– أنا أُردّد على مسامعكم ما يؤكّده باردو. وبالتالي، لدينا ثلاثة أجساد. الأوّل يُدعى «الجسد المادّي». وهو يتشكّل من مادّة صلبة، فيزيائية وغازية، كلّ مكوّن جهازنا العضوي. ولكونه موصولاً مع الحواس الخمس، يزوّدنا بكلّ مداركنا البصرية، والسمعية، والحسّية، إلخ. عند موتنا، تتحلّل المادة الصلبة وتتحوّل إلى تُراب. الجسد الثاني هو «الجسد الحيوي». وهو عبارة عن غلافٍ مغناطيسي يُغلّف الجسم المادّي الذي يحدّد له خطوط القوّة وخطوط الضعف. وهنا تقع الأجزاء التي تولّد الطاقة في الجسد والتي تحدّث عنها الصينيون وأتباع مفهوم شاكرا الذين أشار إليهم الزُهاد الهنود. هنا تتدفّق طاقتنا الطبيعية، الطاقة التي نبثّها نحن، والطاقة التي نتلقّاها من الخارج. هذه الطاقة، يُطلق الهنود عليها اسم برانا، ويُطلق الصينيون عليها اسم كي.

تثاءب الكلب فيرسينجيتوريكس مطلقاً خيطاً رفيعاً من اللعاب. وحينها فقط لاحظتُ أنّه كان من المستغرب أن يُسمّي رئيسٌ، يعتبر نفسه بمنزلة

يوليوس قيصر، كلبه فيرسينجيتوريكس. إنّ السيطرة على كلبٍ من فصيلة لابرادور هو انتصارٌ أجوف!

حيال خطاب صديقي الذي مزج العلم الروحاني بالعلم المحض، بدا البراغماتي المُنتَخَب من قبل الشعب غير مرتاحٍ.

ومع ذلك، أمر:

- تابع!

- يتعلّق بـ «جسدنا الحيوي» إشعاعنا، وذبذباتنا، وهيبتنا. كلّ ما يجعلنا محلّ إعجاب الناس أو عدم إعجابهم دون سببٍ ظاهرٍ وواضح. علاوة على ذلك، لا يكون المرض في المحصّلة سوى اختلال التوازن بين جسدنا المادي وجسدنا الحيوي. ومن هنا يأتي علاج الوخز بالإبر الصينية الذي يُوقف الطاقة في بعض النقاط من الجسد ويجعلها تسري في نقاطٍ أخرى منه...

جسد مادي، جسد حيوي... كنتُ أخمّن أفكار لوسيندير. تُرى هل كان عليه أن يتخلّص بأسرع ما يُمكن من هذا العالِم المجنون، الآن وقد انتهينا من العمل القذر، واستبداله بخبيرٍ علميٍّ ما «مقبولٍ» أكثر؟

في لحظةٍ، تحوّلت نظرة الرئيس إليّ كما لو أنّها تتحوّل إلى خليفة محتمل. في نهاية المطاف، كنتُ متورّطاً في هذا المشروع منذ البداية ولا تزال روحي تبدو سليمة.

رغم كلّ شروحاته، لم يُدرك راؤول شكوك محدّثه. واصل بكلّ رصانة:

- في الحقيقة، لم يكن ديكارت يفكّر في شيءٍ مختلف حينما صرّح: «الفرق بين الجسد والروح هو أنّ الجسد قابلٌ للقسمة في حين أنّ الروح ليست قابلة للقسمة». الأمر الذي يُظهر أنّ كلّ شيء يتقاطع... حسناً، إذاً، يمكن أن يحدث أنّ الجسد الحيوي والجسد المادي ينفصلان بعضهما عن بعض.

- في ظلّ أيّ ظروف؟

- همم، تحت تأثير المخدّرات على سبيل المثال، أو عندما يُغمى على المرء، أو أثناء رعشة الجماع، أو حينما يتعرّض المرء لصدمة نفسية قويّة جدّاً.

- أو إذا وجد المرء نفسه غارقاً في غيبوبة؟

- بالضبط. كان والدي، الذي أجرى الكثير من البحوث حول هذه المسألة، يعتبر أنّ الوسطاء الروحانيين وبعض العلماء الروحانيين قادرون تماماً على أن يفصلوا بإرادتهم جسدهم الحيوي عن جسدهم المادي. كان أستاذاً للفلسفة، ولكنّه كان يمتلك مقاربة للأمور علمية جداً... كان يرى أنّ الأمر سيكون أشبه بالتخلّص من قفّازٍ شفّافٍ ملتصقٍ بجلدنا.

داعب الرئيس كلبه.

- كما أنني عثرتُ على بعض النصوص المكتوبة من قبل أستاذٍ يُدعى روبيرت شيلدراك في نهاية القرن العشرين. كان هذا الفيزيائي يؤكّد أن الأشياء تمتلك أشكالاً مستقلّة عن مادتها، فالشجرة المستقبلية موجودة أصلاً في البذرة، والرجل العجوز كان مطموراً في جنين، وكانت الأشكال تنتقل مثل بنوكٍ ذات بيانات متنقّلة. كان شيلدراك قد قدّم الدليل على وجود هذه الأشكال غير المادية من دون أن يُعطي أيّ تفسيرٍ مقنعٍ لها. تُرى هل يمكن أن تكون ظاهرة كهرومغناطيسية؟ في نهاية المطاف، نحن جميعاً نمتلك بصمتنا الكهرومغناطيسية الخاصّة. وبالكاد نشعر بهذه الطاقة عندما نقرّب راحات أيدينا بعضها من بعض. ومع ذلك فهي موجودة، على شكل كرة صغيرة نراها أحياناً مثل شمسٍ صغيرة عندما نمدّ أيدينا إلى الأمام، أو أيضاً عندما نلامس جلد شخصٍ غريب، وعندما نتلقى فجأةً ما يُشبه شحنة كهربائية. نكون هنا قد داعبنا غلافاً غير مرئي. في الواقع، ربّما نكون قد لامسنا روحاً!

عيل صبر لوسيندير، فسأل:

- وماذا عن الجسد الثالث؟

95. مقابلة صحافية

مقابلة مقروءة في *المجلة النسائية*

إم. إف: هل قلت: الروح؟

كيربوز: نعم. إنّه مثل قفازٍ غير مرئي يُغطّينا ويُنزَع.

إم. إف: كن أكثر تحديداً ودقّةً.

كيربوز: هناك، يشبه جسدي سحابةً شفّافة، مليئة بانعكاسات لونية مختلفة. وهو يُلائم جسدي الطبيعي ولكن لا يعود له لا قوام ولا وزن وينتقل بسرعة التي يُريدها. ويمكنه أن يعبر الأشياء تماماً مثلما يُمكن للأشياء أن تعبره.

إم. إف: هل هو إكتوبلازم؟

كيربوز: أنا لا أعرف ما هو الإكتوبلازم. أنا أُحدّثكم عن جسدي الذي يغدو شفّافاً. لا يعود بوسع البشر أن يروه، وهو لا يعود يستطيع التواصل معهم. بالمقابل، يمكنه أن يفهم أفكار الأحياء. يا له من إحساسٍ غريب!

إم. إف: وماذا عن السفر؟

كيربوز: يتمّ السفر بسرعة الفكرة. عندما أكون شفّافاً [أكمل وهو يُقلّد حركة سباحة]، يمكنني أن أعبركم هكذا. ومع ذلك أبقى مرتبطاً بجسدي المادي بوساطة حبل سُرّي فضّي، وهو نوعٌ من حزام الأمان، مضيءٌ ومرن.

إم. إف: وهل من الممتع أن يطير المرء بـ «جسده الشفّاف»؟

كيربوز: نعم. يشعر المرءُ بأنّه لا تعود هناك حدودٌ له. ولا يعود المرء يخاف من أن يُجرَح أو يتعب. لا يعود له سوى فكرة واحدة عالقة بذهنه، وهي أنّه قادر على الانتقال بسرعة الأفكار.

إم. إف: ومع ذلك، يلزم المرء الكثير من الشجاعة لكي يعود فيما بعد إلى جسده المتألّم.

كيربوز: بالضبط. خاصّة حينما يكون لدى المرء ظفرٌ داخلٌ في اللحم!

96. فلسفة يابانية

«الموت هو طريق الساموراي. إذا كان عليك الاختيار بين الموت والحياة، اختر دون تردّد الموت. لم يعد أيّ شيء بسيطاً. استجمع شجاعتك وتصرّف. وفقاً لما يقوله بعضٌ، إنّ موت الإنسان من دون إنجاز مهمّته سيكون عبثاً. هنا يكمن تزييفٌ لأخلاق الساموراي، التي تُخالف الروح الماكرة لتجار أوساكا المتغطرسين.

في وضعٍ كهذا، يصبح من شبه المستحيل اتّخاذ الخيار الصحيح. إذ سوف نختار جميعاً أن نعيش.

حينئذٍ، لا شيء أكثر طبيعيةً من البحث عن سببٍ للبقاء على قيد الحياة. ولكنّ الذي يختار أن يستمرّ في الحياة في حين أُخفق في مهمّته، سوف يتحمّل ذاك الشخص الاحتقار الذي يستحقّه الجبناء والبؤساء».

هاغاكوري

قانون الشرف للساموراي، القرن السابع عشر.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

97. الجسد الذهني

كان الرئيس لوسيندير يركّز تفكيره في أقوال البروفيسور رازورباك. أنا بنفسي، وقعتُ مرّة أخرى تحت تأثير صديقي. كان راؤول يعرف الكثير من الأشياء! كم مجلّداً كان قد خزّن إذاً في جمجمته؟

حينما نُصغي إلى راؤول، نعتقد أنّ مكتبةً جيّدة تُعادل كلّ الشيوخ الروحيين والحكماء المشرقيين في العالم!

ردّد لوسيندير:

– لقد قلت: ثلاثة أجساد. الجسد المادي، والجسد الحيوي، ومن ثمّ؟

– الجسد الذهني. وهو يقدّم لنا أفكارنا وآراءنا ووعينا. الجسد الذهني يحوّل ما هو نفسي إلى ما هو فيزيولوجي ويخلّ، بالمناسبة، بتوازن طاقات الجسد الحيوي. وهو الذي يجعلني أتحدّث إليكم الآن. إنّه يحلّل ويولّف كلّ المعلومات الصادرة عن حواسنا ويمنحها دلالة فكرية. إنّ الجسد الذهني هو الذي يقع في الحبّ، وهو الذي يضحك، وهو الذي يبكي.

بات رئيس الدولة من الآن فصاعداً منبهراً.

– جسدٌ مادّي، جسدٌ حيوي، جسدٌ ذهني. الأمر ليس بسيطاً بالتأكيد، ولكن هذا هو الذي ربّما يفسّر أنّنا ذهبنا إلى العالم الآخر ونحن نبدو نائمين!

98. عشاءٌ على ضوء الشموع

اكتشفنا مقابل محطة إطلاق مستكشفي الموت مطعماً تايلاندياً صغيراً تحوّل شيئاً فشيئاً إلى ندوةٍ لنا. كان يُدار من قبل السيد لامبيرت، وهو تايلاندي قحّ من شيانج ماي، ومختصّ بتقديم أطباق المعكرونة المقلية بالريحان. بينما كنّا نتناقش مع أماندين وفيليكس حول حديثنا الخاصّ مع الرئيس، وعن الأغراض الجديدة للثاناتونوتية، التصق صبيٌّ بطاولتنا. سأل فيليكس:

- هل حضرتك السيّد فيليكس كيربوز؟

ردّ بطلنا بالإيجاب بإشارةٍ من رأسه، مزهوّاً، وسعيداً دائماً بكونه معروفاً.

طلب منه الطفل توقيعاً على تذكارٍ وطوّقنا مباشرةً بكتلةٍ من المعجبين الذين أقسموا جميعاً على أنّه أكثر جمالاً في الواقع ممّا يظهر عليه في التلفاز.

دفعتُ على عجلٍ الحساب وأسرعنا في الانسحاب من المكان.

أمّا فيليكس، فتأخّر بمحض إرادته، وهو يشعّ تحت شمس المجاملات. كان يوقّع باسمه على قوائم الطعام، والمناديل الورقية، وعلى بطاقات الوجبات، وكانت عيناه تتلألآن بالسعادة. شعر بأنّه قد أصبح، أخيراً، محبوباً من قبل الناس.

99. ميثولوجيا كينية

بالنسبة إلى البانتويين، كان الإنسان في الأصل خالداً. ولكي يؤكّد الله له ذلك، بعث في البداية حرباء. ثمّ، وبعد تفكير، غيّر الله رأيه وكلّف رسولاً ثانياً، وهذه المرّة كان عبارة عن عصفور لكي يُخبره بأنّه على الإنسان أن يموت من كلّ بد.

كانت الحرباء قد وصلت قبل العصفور بكثير. للأسف، كان يتلكّأ ولم يكن قد أنجز مهمّة تسليم رسالته إلى البشر. وبالتالي، لم يلقَ العصفور أيّ صعوبة في الإفصاح عن رسالته: سوف يموت البشر ولن يعودوا أبداً إلى الأرض في هيئة شبيهة بالهيئة التي نالوها في حياةٍ سابقة.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

100. فيليكس يذهبُ بعيداً جدّاً

بعد شهرٍ من افتتاح محطّة استكشاف الموت في بوت شومو، أعلنت آماندين رسمياً خطبتها مع فيليكس. أمّا أنا، الغبي المسكين الذي كنته، لم أرَ شيئاً أو أنني لم أشأ أن أرى شيئاً.

ومع ذلك، تكلّمنا، راؤول وأنا، عن آماندين. وقد اتّفقنا في الرأي على أنّ الطريقة الوحيدة لنيل إعجاب هذه الفتاة هي الموت. لم يكن هناك من يجذب اهتمامها سوى مستكشفٍ. ومع هذا، ما الذي وجدته في فيليكس الفظّ البدين هذا؟ حسناً، كان مشهوراً، وماذا بعد ذلك؟ في كلّ الأحوال، مرّة ثانية، أفلتت منّي زميلتنا آماندين الغامضة كليّاً.

أعترفُ بأنني أحسستُ بانقباضٍ خفيف في قلبي حينما انتقل الثنائي للسكن معاً، وبذلتُ جهدي لكي لا أدع الغيرة تتغلّب على صداقتي.

أمّا فيما يخصّ العمل، فقد صرّح فيليكس عبثاً للصحافة في كلّ مكان بأنّه سوف يجتاز موخ 1 عمّا قريب، فهو لم يكن قد نجح في ذلك حتى الآن. والأسوأ من ذلك هو أنّه بات يتردّد على نحوٍ متزايدٍ في القيام بعملية الإقلاع.

في الوقت الراهن وقد حصل على آماندين، وأصبح ذائع الصيت في باريس بأكملها، لم تعد لديه الرغبة في الاستغراق في حالات من الغيبوبة الاصطناعية العشوائية.

لم نستطع أن ندع آمالنا تقع لوقتٍ أطول على هذا المستكشف الوحيد، المتقلّب. كان علينا أن نعيد بأسرع ما يمكن تشكيل مجموعةٍ من المتطوّعين. وكان فيليكس أوّل من اقتنع بذلك. وبمحض المصادفة، نشرنا إعلاناً صغيراً في بعض الصحف اليومية: «محطة استكشاف الموت في باريس تبحث عن متطوّعين».

اعتقدنا أنّ المرشحين مهما بلغ عددهم سوف يُعدّون على أصابع اليد الواحدة. لكن حدثت مفاجأة كبيرة: لقد تقدّم إلينا أكثر من ألف مهووس. كانت عملية الانتقاء من بينهم شديدة الصعوبة. قمنا، راؤول، وآماندين، وفيليكس، وأنا، بإجراء المقابلات الاختبارية معهم. من بيننا، كان فيليكس الفاحص الأكثر صرامةً وشراسةً. مما لا شكّ فيه، كان هو الذي يعرف جيّداً

المخاطر، وكان يفضّل أن يفتّر من همّة هؤلاء المتحمّسين بدل أن يُسدي لهم نصائح: «هيّا! خذوا لأنفسكم مكاناً في الجوّ! سوف ترون كم هذا سيذهلكم!»

كان رياضيون من المستوى الرفيع ومجازفون سينمائيون أفضل المؤهّلين لاجتياز اختباراتنا لانتقاء المرشّحين. كان هؤلاء الصبيان يعرفون جيّداً أجسامهم، وكانوا يعلمون، علاوة على ذلك، ماذا يعني تحمّل المخاطر والمجازفة إلى حدّ الوصول إلى حافة الموت. متهوّرون ولكن ليس بإفراط!

لانتقاء المستكشف الثاني، اخترنا جان بريسون. هذا المجازف السينمائي الخبير أقلع وهبط بكلّ سهولة. لم يقترب من موخ 1 إلّا من بعيدٍ جدّاً، ولكن حسب الوصف الذي وصفه به، أقرّ فيليكس بنفسه بأنّه قد نجح في المهمّة.

لقد بلغ بريسون «الغيبوبة لمدّة ثماني عشرة دقيقة». وتوقّف ثلاثة مستكشفين آخرين فيما بعد عند حدّ «الغيبوبة لمدّة سبع عشرة دقيقة». لم نكن قد اجتزنا حدود الأرض المجهولة، التي تقع في «الغيبوبة لمدّة إحدى وعشرين دقيقة»، لكننا أصبحنا نعرف الآن تماماً ما الذي يوجد حولها: ممرّ غازيّ كبير متعدد الألوان وحائم.

مقابل هذه النجاحات النسبية الأربعة، تعرّضنا لثلاث وعشرين محاولة فاشلة. لقد ضاعفنا من الإجراءات الاحترازية، ومع ذلك، تسرّب الكثير من المتلهفين الشبّان والمندفعين للغاية من بين أشراك شبكتنا. شدّدنا شروط اختباراتنا لانتقاء المرشّحين، بحيث لا يتمّ الاحتفاظ سوى بالأشخاص الناضجين كفايةً والموهوبين بقوّة شخصية كبيرة، كافية للقدرة على مقاومة جاذبية الضوء المميت.

إلى الخارج أيّها المغرورون، الذين لا يسعون سوى إلى التأثير على زملائهم أو حبيبتهم من خلال الدخول إلى أخويتنا النبيلة! إلى الخارج أيّها اليائسون، الذين ينظرون إلى الثاناتونوتية كأحدث صيحة في مجال الانتحار! إلى الخارج أيّها الذين يشعرون بالسوء تجاه أنفسهم، والذين يريدون أن يعرفوا إن كان هناك مكانٌ أفضل من هنا! إنّ المستكشف الجيّد هو رجلٌ سعيد وسليم جسدياً وعقلياً سيكون عليه أن يخسر كلّ شيء من خلال السعي إلى الموت.

انتهينا في اختياراتنا إلى تفضيل آباء الأسر الكبيرة!

«بقوّة التجارب والخبرات، أصبح لدينا الآن في الواقع العديد من الثوابت:

1. كان الجسد يبقى في المكان. وحدها الروح تسافر.
2. عند الانطلاق، كانت الروح تأخذ شكل إكتوبلازم مائل للبياض، قادر على المرور عبر كلّ المواد والطيران على الأقلّ بسرعة الضوء.
3. في لحظة الموت، كان الإكتوبلازم يرتفع في السماء إلى أن يصل إلى مخروطٍ أزرق اللون ينتهي بضوءٍ.
4. كان الإكتوبلازم مرتبطاً بالغلاف الجسدي عبر حبلٍ سُرّي فضّي.
5. إذا ما انقطع الحبل، تصبح أي عودة إلى الحياة مستحيلة.
6. في حالة «الغيبوبة لمدّة إحدى وعشرين دقيقة»، هناك جدار.

كشف صحافيون علميون عن هذه المعلومات القليلة وأخذنا نحصي، بالآلاف، الحرفيين الذين حاولوا القيام بعملية إقلاع، مستخدمين بوستيرات أقل أو أكثر حرفيةً. كان بعضهم يتعاطى الثيوبينتال، وآخرون يتعاطون الكلوريد. ولكنّهم كانوا يجهلون الجرعات الصحيحة. وكان لكلّ أسبوع نصيبه من ضحايا الثاناتونوتية. كان بعضهم يتراسلون في العالم الآخر بمهدّئات الباربيتورات وحتى بمبيدات الأعشاب الضارّة. وكان المصابون بالهوس الشبقي يستخدمون لذّة الجماع.

كان كلّ شيء مناسباً كوقود: النبيذ الأحمر، الفطريات المهلوسة، الفودكا، الكوكايين، القفز بالحبال المطاطية، ثمار البحر المغشوشة، الصدمات الكهربائية... إجمالاً، كلّ ما كان بوسعه أن يفصل كائناً بشرياً عن الواقع! لم يكن هناك ما هو أكثر شيوعاً من «استكشاف الموت». وأصبحت عبارة «أنت لا تجيد الانفصال عن جسدك حتى» الشتيمة الأكثر ابتذالاً. كانت تلمّح إلى أنّ الفرد ليس سوى جسدٍ مادّي، وأنّه غير قادرٍ حتى على التعبير عن جسده الحيوي أو جسده الذهني.

وفي سبيل إيقاف هذه المذبحة، أصدر الرئيس لوسيندير قانوناً يُعاقب

بعقوبات قاسية بالسجن كلّ من يحاول ممارسة الثاناتونوتية خارج المبنى الرسمي لمحطّة الاستكشاف في باريس.

بعد فترةٍ من التوقّف، قرّر فيليكس أن ينطلق من جديد في محاولة لتحطيم رقمه القياسي الشخصي. في مرّات عديدة، استطاع أن يُقنع صحافيين ومصوّرين، ولكنه رغم المحاولات المتكرّرة لم ينجح في اجتياز موخ 1. وفي النهاية، كلّت الصحافة من محاولاته. في كلّ مرّة من مرّات عودته إلى عالم الأحياء، كان فيليكس يرى تقلّص حشد المعجبين به. ولكي لا يُصاب بالإحباط تماماً، ذهبنا، آماندين، وراؤول، وأنا، إلى حدّ دفع أموال إلى بعض ممثّلي الكومبارس لكي نملأ قاعة المؤتمرات الصحافية. لم يكن فيليكس مغفّلاً: لقد تعلّم أن يُميّز منْ كان يعمل في عالم الإعلام.

ولأنّه أصبح حزيناً وكئيباً على نحوٍ متزايد، نصحناه بأن يُحال إلى التقاعد. ففي نهاية المطاف، لقد فعل ما يكفي في سبيل انطلاق الثاناتونوتية. ولكنّه لم يقتنع بذلك، وأصرّ على أنّه لن ينسحب إلّا بعد أن يتجاوز موخ 1. وقد أصبح هذا الأمر بالنسبة إليه فكرة ثابتة.

101. ميثولوجيا فيدية

تقدّم، تقدّم عبر الدروب القديمة التي رحل عبرها آبائي الأوائل! الملكان، يوما والإله فارونا، اللذان كانا ينغمسان في الطقوس الجنائزية، سوف تراهما.

ريغ فيدا 14،10

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز.*

102. فترة توقّف قصيرة

فجأةً، ساءت جميع الأحوال. أصبح فيليكس سريع الغضب ومتهوّراً على نحوٍ متزايد. أرجأ زواجه من آماندين إلى أجلٍ غير مسمّى. وقد أخبرتنا كدمات مريبة بأنّه كان يضربها. بالإضافة إلى ذلك، في المساء، كان صخب مشاجراتهما العائلية يبلغ حتى الشقق المجاورة.

كان فيليكس يعزو إلى آماندين نهمه للربح، ويتّهمها بأنّها لا تُريد منه سوى نقوده. وكان بالفعل ينعم بواردات ممتازة، وخاصّة منذ أن منحه الرئيس لوسيندير منحة في الثاناتولوجيا. كما أنّ مقابلاته الإعلامية كانت تدرّ عليه دخلاً جيّداً. وكان قد وظّف وكيلاً أدبياً لكي يبيع مذكّراته للناشر الذي يدفع أكثر، وهو عقدٌ دسمٌ سوف يناله. وكان أخي أيضاً يمنحه نسبة مئوية من مبيعات جميع القمصان التي تحمل صورته. في الواقع، كان هناك ما يُغذّي حساباً ضخماً في البنك!

كانت آماندين تتعرّض للضرب وتواجهه، ولكنّها كانت تضبط نفسها. كان إعجابها بالمستكشف هو الأقوى. ولم يتكسّر طلاء رباطة جأشها إلّا حينما بدأ فيليكس بالظهور مع نساءٍ ذوات سمعة سيئة. حينئذٍ، جاءت تبكي على كتفي.

واسيتها بأفضل ما لديّ. منذ اللحظة الأولى أُغرمتُ بها بجنون، ولكنني كنتُ أتجنّب مع ذلك الإدلاء بأيّ كلمة مريبة عن خطيبها. ما كانت لتسامحني على الملاحظات المسيئة التي كانت تدلي بها بغزارة في المطعم التايلاندي لصاحبه السيّد لامبيرت.

بين كأسين من كحول الأرزّ، والمياه المعدنية كانت تنبثق لُججٌ زرقاء داكنة.

– تمالكي نفسكِ.

– إنّه جائرٌ جدّاً. وكأنّه يضع اللوم عليّ أنا في عدم قدرته على تجاوز الجدار الأوّل للموت. أريدُ بالفعل أن أساعده، ولكن يجب عليه أيضاً أن يخبرني كيف أساعده.

قلت:

– يجب أن تفهميه.

لم تعد ترغب في الكلام. كانت آماندين عبارة عن عالمٍ كاملٍ من الأشياء المكبوتة، من الأشياء المخفية. في اليوم الذي ستفتح فيه هذه الفتاة خزائن دماغها، سوف نكتشف فيه بكلّ تأكيد كفرناحوم مقدّسة. في الوقت الراهن، كانت تفضّل أن تراكم الأشياء في ذهنها ولا تُظهر شيئاً منها. وحدها هذه الأزمة وهذه الدموع كانت شاهدة على لحظة ضعفٍ عندها.

اقترحتُ عليها أن نتمشّى قليلاً. بعد مضي ساعة، وجدنا نفسينا في مقبرة بير لاشيز.

– هنا في هذه المقبرة، التقيتُ راؤول.

قالت آماندين، متنهّدةً:

– أنتما صديقان حقيقيان، وهذا شيءٌ جميل.

– حينما كنّا صغيرين، كنّا ندع الزملاء الضخام في الصفّ يحطّمون وجهنا.

اقتربت شيئاً فشيئاً منّي، وقالت:

– أعتقد أنني لم أعد أرغب في الزواج من فيليكس.

– أنتِ تمزحين، لن يتقبّل هذا الأمر أبداً.

– لا تقلق بشأنه. لديه حاشية كاملة من الإناث اللواتي يدرن حوله. لن يبقى لوقتٍ طويلٍ وحده. كان فيليكس بكراً، وأنا علّمته ما هي المرأة. لقد زار الحبّ والموت في نفس الوقت. الآن، بوسعه أن يطير بجناحيه. لم أكن بالنسبة إليه سوى مقدّمة.

– هل أنتِ نادمة على ذلك؟

– كلا. ولكنني أعلم أنّنا لم نُخلَق لكي نعيش معاً.

– أنتِ مخطئة. حتى إذا كان فيليكس يركض يميناً وشمالاً، ليس هناك سواكِ من يحبّها حبّاً حقيقيّاً. أنتِ فوق الأخريات بكثير. لديكِ مرتبة...

أفرجت عن ضحكةٍ خفيفةٍ بائسة.

– أخبرني، ألم تكن أنتَ من أوشكت على أن تغازلني؟

الآن حان دوري في أن أُطبق شفتيّ على أسراري.

ضمّت نفسها إليّ، واثقةً، وبقينا هناك، في حديقة القبور الباردة تلك، ليس بعيداً عن قبر نيرفال، ونحن نتأمّل النجوم. كان قلبها الصغير الفاتر ينبض على صدري. وكانت أنفاسٌ لطيفةٌ تدغدغ أذنيّ.

وددتُ أن أقضي، طواعيةً، حياتي هكذا، وأنفي مدسوسٌ في الفراء الذهبي لشعرها.

بضوءٍ ساطعٍ جدّاً من مصباحه الكهربائي، انتزعني حارسٌ باحثٌ عن مخرّبين من فرحتي، وانتزعها من سباتها. هزّت رأسها، وقالت:

- أنت على حقٍّ، يا مايكل. لا ينبغي أن أدع نفسي أتأثّر بمشاجراتٍ عابرة أو بمغامرات لا مستقبل لها. أنا غير منصفة حيال فيليكس، وسوف أتزوّجه عندما يشاء ذلك.

في سيارة الأجرة، لدى العودة، لم تعد لدينا الرغبة في أن نتكلّم بعضنا مع بعض، لا هي ولا أنا.

103. مشاجرة

في اليوم التالي، في محطّة الاستكشاف في بوت شومو، كان الجوّ عاصفاً. كان فيليكس قد عاد في حالة ثمالة مثل العادة، وبرفقةِ عاهرة ليزيد الطين بلّةً. وقد ناما مباشرةً على السجاد بعد أن تقيّآ على كرسي الإطلاق.

وحينما وصل راؤول إلى البيت عند الفجر، طرد الفتاة قبل أن تُباغتها آماندين، وغسل ما يُمكن غسله، بمساعدة جان بريسون.

رغم احتساء العديد من أكواب القهوة الساخنة، ظلّ فيليكس يعاني من صداع الكحول.

- لا تلقوا عليّ محاضرة في الأخلاق، عليكم اللعنة! هل تعلمون من أنا؟ أنا أوّل مستكشف موت في العالم. في العالم. احشروا هذا في جمجمتكم. أمّا الآخرون، فليسوا سوى مساعدين، ليسوا سوى مساعدي طيّارين من الدرجة الثانية.

بمحض الصدفة، وصلتُ في نفس الوقت الذي وصلت فيه آماندين. وفي الحال وجّه فيليكس إصبع الاتّهام نحونا.

- وها قد حضر عاشقانا! إذا كنتما تعتقدان بأنني غافلٌ عن لعبتكما الدنيئة، فهذا لأنّكما تعتبراني ملك الأغبياء!

أطلق راؤول تنهيدة استياء.

- اصمت، يا فيليكس! لديّ أخبار سيّئة لنا جميعاً. لقد وصلت برقية عبر الفاكس هذا الصباح: لقد نجح الإنكليز في الوصول إلى موخ 1. إنّهم وصلوا إلى «الغيبوبة لمدّة تسع عشرة دقيقة». وبالتالي، يا فيليكس، كفّ

عن الهراء ودعونا نشرع بالعمل بنفس الجدّية والصرامة اللتين بدأنا بهما. النهوض، في الساعة السابعة. الغداء: فاكهة وحبوب. فحص شامل قبل كلّ عملية إقلاع. الانضباط وثمّ الانضباط في العمل، ولا يمكننا أن نتجنّب تجاوز هؤلاء الرجال لنا سوى بهذه الطريقة الجادّة.

تمتم فيليكس:

– من جهة الإنكليز، هذا يثير دهشتي. منذ يوم غد، سوف أنجح في تحقيق «غيبوبة لمدّة ثلاث وعشرين دقيقة» بشكلٍ رائع.

أمر راؤول بجفاء:

– آه نعم! وبانتظار ذلك، يا أوّل مستكشف موت في العالم، عد وإسكر في منزلك.

عندما كان راؤول يتحدّث بنبرته الآمرة هذه، كان فيليكس نفسه يتوقّف عن لعب دور النجوم المشاهير ويُطيع رئيس الفريق بلا جدال. وبعد أن خضع للأمر، خرج من المكان عند آخر جشأة.

في نفس المساء، استدعانا راؤول، آماندين وأنا، إلى الشقّة العلوية، فوق السطح. وسط ذلك الديكور الاستوائي، بين النباتات الغراسية، كانت مشاكلنا تبدو في أغلب الأحيان، أقلّ ضرراً. ولكن في هذه المرّة، كان راؤول خطيراً. قال بادئ ذي بدء:

– فيليكس ليس على ما يُرام. انتبها جيّداً أنتما الأثنان. أنا أعرف تمام المعرفة أنّه ليس هناك أيّ شيء بينكما، ولكنّه وضع أفكاراً في رأسه، وهذا يزعجه!

لم أشأ أن أدخل في جدالٍ مرير من أجل آماندين، فأسرعتُ إلى تغيير الموضوع.

– هل ما رويته لنا هذا الصباح صحيحٌ؟ هل وصل بريطانيون بالفعل إلى موخ 1؟

– هذا مؤكّد تماماً. لقد سبق رجلٌ يُدعى بيل غراهام صاحبنا فيليكس بنجاحه في «غيبوبة لمدّة تسع عشرة دقيقة». وبالتالي، لا بدّ أنّكم تدركون أننا في مشكلة خطيرة.

أشعل إحدى سجائره الرفيعة واستأنف حديثه:

- الرهان كبيرٌ جدّاً. نحن في سباقٍ عالمي. لم يعد هناك مجالٌ للأخطاء. وبالتالي، يا آماندين، سوف تُسعدينني إذا ما تبادلتِ حديثاً صريحاً مع فيليكس. أظهري له أنّكِ تقدّمين له الدعم والمساندة، وأنّه لا يثير اشمئزازكِ حتى حينما يكون ثملاً.

بدأت المعنية بالأمر بالدفاع عن نفسها.

- ولكن... ولكن...

- افعلي ما أقوله في سبيل الثاناتونوتية، إذا لم تفعلي ذلك بدافع عاطفة الحبّ.

وافقت الممرّضة الشابّة بخضوع. في وقتٍ مبكّرٍ من صبيحة اليوم التالي، تصالح الثنائي. وكان فيليكس هو الذي اعتذر على تصرّفه خلال الليلة الماضية. قرّرا المحافظة على وعد الزواج، واستأنفنا إجراءات التحليق.

في حين كان فيليكس على كرسي الإطلاق، توسّل راؤول إليه أن يكون حذراً.

- لا تقلق، أخي العزيز. كما قلتَ: «في خطٍّ مستقيم، دائماً في خطٍّ مستقيم نحو المجهول».

ركّب بنفسه البوستيرات في أوردته. ثمّ بدأ العدّ التنازلي.

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق.

قبل إغماض العينين، أطلق مرّة أخرى جملة باتجاه آماندين.

- سامحيني.

104. ميثولوجيا صينية

«في جزيرة كو - شي البعيدة، يعيش بشرٌ شفّافون، بيضٌ بياض الثلج، وأطرياء العود مثل الأطفال. لا يستهلكون أيّ نوعٍ من الأطعمة، وإنّما يستنشقون الريح ويشربون الندى. يتنزّهون في الفضاء، يستخدمون السُحب كعربات والتنانير كمطايا وخيول. لا يقلقون من الأمراض أو من الرياح الموسمية. إنّهم لامبالون بكلّ شيء. إذ لن يغمرهم طوفانٌ عارم، ولن

يصيبهم حريقٌ عالمي، فهم يرتفعون عن كلّ شيء. إنّهم يصعدون الهواء كما لو أنّهم يتسلّقون سلالم، ويتمدّدون في الفراغ كما لو أنّهم يستلقون على سريرٍ. تحملهم روحهم المحلّقة إلى كلّ مكان».

جوانغ زي

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

105. نقطة ختامية

لن يعود فيليكس أبداً إلى هذا العالم السفلي مرّة أخرى. لن يتزوّج ولن يروي لنا أبداً ما كان قد رآه خلف موخ 1. لم يسمح له قابض الأرواح أن يُطلق سهاماً جديدة في حلبة مصارعة الثيران. كان سيربيروس قد التهمه. وكان بعل قد امتصّه. كان الموت... قد غيّبه.

هناك، في العالم العلوي، نزع قناع غورغون. ربّما كان قد رأى الوجه المخفي خلف جمجمة المرأة التي ترتدي الساتان الأبيض. لقد رآها ولم يعد لكي يخبرنا بما رآه. لم يكن ذلك ممكناً بالنسبة إليه، أو رّبما لم يرغب في ذلك بما فيه الكفاية. كان الضوء الجذّاب في قاع الممرّ الأزرق أكثر قوّة من صداقتنا. كان أقوى من الشهرة، وأقوى من حبّ آماندين، وأقوى من المشروبات الكحولية، ومن العاهرات، ومن المغامرة الثاناتونوتية. لقد حفظ الموت سرّه.

نشرت بعض صحف الفضائح إشاعات تزعم أنني قد تلاعبتُ بمقادير البوستيرات لكي أتخلّص من منافسٍ مزعج. لقد عشقتُ فعلاً ممرّضتنا بجنون، ولكن مع ذلك، ما كان بوسعي قط أن أقتل أحداً بإرادتي، وخاصّةً فيليكس.

وفي المقابل، تساءلتُ في نفسي إن لم يكن فيليكس قد اختار بمحض إرادته أن يختفي. كان يعلم أنّه قد استسلم لأشراك الشهرة، وأنّه بدأ يدمّر نفسه شيئاً فشيئاً. وأكثر من كلّ شيءٍ آخر، أعتقد أنّه كان يشكّ في أنّه سيخسر آماندين. وعلى الرغم من علاقاته الجنسية، كان يحبّها حبّاً حقيقيّاً، فهي المرأة الأولى والوحيدة بالنسبة إليه.

ربّما في النهاية، أحسّ بأنّه غير جديرٍ بها. مع العاهرات، كان مرتاحاً. كان يجد نفسه في وسطه الاجتماعي المتواضع الذي ينتمي إليه في الأصل. كانت آماندين الجميلة جدّاً والمثقّفة تؤثّر عليه. كان فيليكس يعتقد أنّه لا يستحق زوجة بهذه الرقّة وهذه اللطافة.

كانت كلمة «سامحيني» آخر كلماته الرهيبة بالنسبة إلى آماندين.

كان لرجل العام، بل ورجل العقد الأخير، الحقّ في أن يحظى بمراسم دفن وطنية. لقد دُفِن غلافه الجسدي في مقبرة بير لاشيز، في ضريحٍ فاخرٍ من الرخام. وكانت شاهدة قبره تحمل العبارة المنحوتة التالية: «هنا يرقد أوّل مستكشف موتٍ في العالم».

106. ميثولوجيا أمريكية هندية

المحتال، أو الإله كيوتي، هو إحدى الشخصيات الأكثر دهشةً في الميثولوجيا الهندية في أمريكا الشمالية. وهو في آنٍ واحد مهرّجٌ ساخر وإله فاسق وقاتل، ويُصوّر غالباً بقضيبٍ ذكريٍّ ضخم وأمعاء ملفوفة حول جسده.

في فكاهات الهنود، يكون الإله كيوتي غالباً أضحوكة. تسمح له الروح العظيمة بشكلٍ عام بارتكاب كلّ الحماقات والشرور التي يرغب فيها ومن ثمّ يتدخّل لترتيب الأمور. في أغلب الأحيان، يتخيّل المحتال نفسه أنّه يؤذي، ولكن، في الواقع، تُثير أفعاله آثاراً متعارضة بالضبط مع ما كان يتوقّعه. ولذا، يتبيّن أنّ المحتال، وهو الشيطان الصغير المنافس للروح العظيمة، أقلّ شرّاً مما كنّا نعتقد.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

107. بيل غراهام

أصبح جان بريسون ثاني أكبر مستكشف فرنسي. بعد اختفاء فيليكس كيربوز، استلهم إجراءات أمنية كان قد وضعها من أجل مخاطراته السينمائية قبل أن يجرّب قفزة كبيرة جديدة.

وهكذا راودته فكرة تزويد كرسي الإقلاع بجهاز توقيتٍ كهربائي يُتيح له عودة فورية. كان يعمل بطريقة حزام أمانٍ. قبل الإقلاع، وكان المستكشف يُبرمج على سبيل المثال موقّته على «غيبوبة لمدّة عشرين دقيقة». فكان الموقّت يُطلق لاحقاً في الوقت المحدّد صدمة كهربائية خفيفة تُرغم الحبل على أن يتراجع فجأةً وبالتالي إعادة المستكشف إلى الأرض.

كان جان بريسون محترفاً حقيقيّاً، يحدد على الخريطة بدقّة متناهية المنطقة التي يستهدفها ومن ثمّ يُرسل إلينا رسومات تخطيطية في غاية الدقّة عن مشاهداته وملاحظاته.

استفدتُ من هذا الطيّار الموثوق في محاولتي تحسين تركيبة البوستيرات. وقمتُ باختبار عملية جديدة.

وبدل أن أصبّ المادّة المخدّرة دفعة واحدة، قمتُ بإرسالها بجرعة أقلّ وبطريقة تدريجية ومتواصلة. استخدمتُ البروبوفول (100 ميكروغرام لكلّ كيلوغرام واحد وفي الدقيقة الواحدة) مقرونة ببعض المورفين وغازٍ (ديسفلورين، بين 5 و10% في البداية، ولكنني حصلتُ على أفضل النتائج لاحقاً مع إيزوفلورين بين 5 و15%). وأخيراً، لتحقيق الاستقرار في النشاط العضوي، أضفت أحد مشتقات الفاليوم ألا وهو فينوفيل (0,01 مغ / كغ). هذه الوسائل الجديدة جعلت عمليات الطيران أكثر أماناً بقليل.

كنّا مقتنعين الآن أنّه بإمكان أيّ شخصٍ أن يخرج من جسده، وينخرط في عملية خروج الروح من الجسد. المسألة مسألة جرعة بسيطة. ولكنّ جان بريسون كان يتحمّل بشكلٍ ممتاز جميع وصفاتي.

كان يتقدّم بإيقاعه الخاصّ. لقد استكشف «غيبوبة لمدّة ثماني عشرة دقيقة وعشرين ثانية»، «غيبوبة لمدّة ثماني عشرة دقيقة وثمان وثلاثين ثانية»، «غيبوبة لمدّة تسع عشرة دقيقة وعشر ثوانٍ». كان يعتني بعضلاته وغذَائه ويدرس إيقاعاته البيولوجية، ويأخذ بالحسبان كلّ العوامل التي من شأنها التأثير على عملية خروج الروح من الجسد، بما في ذلك درجة حرارة الغرفة. (كانت أفضل عمليات الإقلاع تجري في درجة حرارة من 21 درجة مئوية، مع نسبة رطوبة متدنية وسطيّاً).

كانت هذه التحليقات ممتازة ولا تشوبها شائبة. كان يتحقّق بدقّة من سلامة بوستيراته ويركّز خلال دقائق طويلة على الهدف الذي ينبغي الوصول إليه، طبقاً لخرائطنا.

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق!

كنّا ننتظر عودته وعيوننا شاخصة نحو مؤشرات جهاز التخطيط الإلكتروني للقلب، وجهاز التخطيط الكهربائي للدماغ. ثمّ يشرع الموّقت بالعمل، وتُخبرنا أجهزة المراقبة بوصوله الوشيك.

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. هبوط!

كان جان بريسون دقيقاً جدّاً ومنهجيّاً في عمله. يتقدّم خطوةً فخطوة، بصرامة وانضباط، على قارة الموتى. يرفض الإدلاء بأيّ مقابلة للصحافة. وقد تخلّى عن أيّ حياة عاطفية لكي يكرّس نفسه فقط لأنشطته المهنية. كلّ يوم، كان يدوّن الخطوات التي حقّقها في دفترٍ، ويقرّر بواسطة آلة حاسبة صغيرة الهدف المعقول لليوم التالي.

في ما وراء بحر المانش، كان بيل غراهام يبدو متمتّعاً بنفس النوعية. لقد وصل إلى «غيبوبة لمدّة تسع عشرة دقيقة وثلاث وعشرين ثانية».

كان الرجلان قد انخرطا الآن في سباقٍ رهيبٍ وخطير. وأيّ خطوة خاطئة منهما ستجازف بأن تكون مميتة وكانا يعيان ذلك جيّداً. وقد صوّرت مجلّة بريطانية ساخرة غراهام وبريسون على شكل عصفورين صغيرين ينكشان أسنان تمساحٍ. كان الفرنسي يسأل: «هيا أخبرنا، يا بيل، هل تعتقد أنّه سيُبقي شدقيه مفتوحين لوقتٍ أطول؟»، فيردّ الإنكليزي: «كلا. ولو كنتُ في مكانك، لتركته وشأنه».

ولكنّ العصفورين الصغيرين كانا يغوصان، كلّ يوم، وسنتيمتراً بعد سنتيمتر، على نحوٍ أعمق في حلق الزاحف المرعب.

«غيبوبة لمدّة تسع عشرة دقيقة وثلاث وعشرين ثانية» بالنسبة إلى غراهام.

«غيبوبة لمدّة تسع عشرة دقيقة وخمس وثلاثين ثانية» بالنسبة إلى بريسون.

«غيبوبة لمدّة عشرين دقيقة وثانية واحدة» بالنسبة إلى غراهام.

كان البريطاني قد وصل الآن إلى نفس المستوى الذي بلغه فيليكس، ويقف أمام الجدار موخ 1. وبعناده المعهود، كان من دون أدنى شكّ سوف يتجاوز، في التحليق المقبل، هذا الباب الأوّل.

كان راؤول غاضباً:

– سوف يتجاوزنا البريطانيون على خطّ الوصول، ونحن الروّاد! هذه حماقةٌ منّا ما بعدها حماقة!

كان لمخاوفه ما يُبررها. لم يكن بيل غراهام مستكشفاً عاديّاً. لتعلّم الثاناتونوتية، كان قد عرف مدرسة جيّدة: مدرسة السيرك. بكونه بهلواناً سابقاً في السيرك، كان يعلم جيّداً كيف يُبرمج نفسه للقفز في الهواء بدون شبكة. ومن خلال مقابلة مع صحيفة *ذا صن*، علمتُ أيضاً أنّه كان يعزو موهبته إلى تحكّمٍ جيّدٍ بجرعات المخدّرات. وهو بنفسه كمدمن سابق على المخدّرات، كان يعتبر أنّ المخدّرات، في حدّ ذاتها، ليست لا جيّدة ولا سيئة، ولكنّها تولّد ببساطة طاقةً يكفي أن يتحكّم المرء بها.

كان غراهام يشرح في مقالةٍ: «لماذا لا يُـدرَج الاستخدام المفيد للماريجوانا، والحشيشة، والهيروين في منهاج الجامعات؟ في المجتمعات التي يُقال عنها بدائية، يقوم كلّ شخص بتعاطي المخدّرات من خلال نبتات أثناء الاحتفالات الرامية إلى إعطاء طابعٍ مقدّسٍ لتعاطي المخدّرات. في الغرب، يتحطّم مدمنو المخدّرات لأنّهم يستخدمونها كيفما كان. والحال أنّ هناك قواعد ينبغي الالتزام بها: على المرء ألّا يتعاطى أبداً مخدّراً لكي يتغلّب على إحباطٍ أو اكتئابٍ، أو بسبب مجرّد بطالةٍ أو من أجل الهروب من الواقع. إنّها تتطلّب دائماً احتفالاً! ومن ثمّ عليه دراسة آثار كلّ مادة على جسده والجرعة حسب احتياجاته. وعلى الهامش، يمكننا أن نتصوّر إذناً بتعاطي المخدّرات مخصّصاً للمطّلعين».

لقد استنتجتُ من ذلك أنّ بهلوان السيرك السابق البريطاني لا بدّ أنّه كان يحضّر لنفسه يدويّاً شراباً منشّطاً مناسباً له قبل كلّ عملية انطلاق. أثار هذا الافتراض استياء جان بريسون الذي تأسّف لكون الثاناتونوتية لا تُعتبَر رسمياً

رياضة أولمبية. إذ كان سيمكن في هذه الحالة إقصاء غراهام بسبب تعاطيه المنشّطات.

مرّرت آماندين ذراعاً حنونة حول كتفي جان.

– إذا كان هناك تعاطٍ للمنشطات، فأنت الأكثر موهبةً. أنت لا تتخلّف عن بيل سوى بست وعشرين ثانية ودون مادّة محظورة!

ردّ المُجازف، مستاءً:

– ست وعشرون ثانية، أنتِ تعلمين ماذا تعني ست وعشرون ثانية.

نشر راؤول الخريطة التي لا تزال تحمل خطّ *الأرض المجهولة* بالقرب من المخروط الكبير.

– ست وعشرون ثانية في الأعلى، لا بدّ أنّ هذا يعني بلداً كبيراً بحجم فرنسا. إنّ جغرافية القارة الأخيرة تفوق بكلّ تأكيد جغرافية قارتنا!

تقرّبت آماندين من بريسون وتمسّحت به. تفتّحت عيناي فجأةً. كانت آماندين تحبّ المستكشفين كلّ المستكشفين، ولا أحد سوى المستكشفين. لم تكن صفات فيليكس كيربوز أو جان بريسون الشخصية تهمّها. وحدها صفتهما كرائدي الموت تُثير اهتمامها. وطالما لن أصبح أنا بنفسي مستكشفاً، لن ترفع نظرها أبداً نحوي. كان لديها حسابها لتصفيته مع الموت وكانت تحتفظ بحبّها لمقاتليها الشجعان.

متحفّزاً بلمسة آماندين اللطيفة، أعلن المُجازف:

– غداً، سوف أذهب إلى حدّ «غيبوبة لمدّة عشرين دقيقة».

علّق راؤول على كلامه:

– فقط لو أنّك واثقٌ من نفسك بما فيه الكفاية...

كانت المجلة البريطانية قد نشرت صورة كاريكاتورية جديدة: كان العصفوران الصغيران لا يزالان منهمكين بين أسنان التمساح. يسأل العصفور جان: «ماذا سيحدث لي إذا ما غصتُ عميقاً جدّاً في حلقه؟»، فيُجيب العصفور بيل: «سوف تتناسخ». «ولكن كلا، سوف يبتلعني ويحوّلني إلى كتلة ضخمة من الروث. – بالضبط، يا جان. وهذا هو... التناسخ!»

ألهمتني الرسمةُ الكاريكاتورية فكرةً. نتيجة المبارزة ليست دائماً مميتة.

– لماذا الانخراط بأيّ ثمنٍ في منافسةٍ قاتلة؟ إذا كان غراهام هذا فطيناً جدّاً، أيّاً كانت الوسائل التي يستخدمها، ليس لنا سوى أن ندعوه إلى هنا. ألم يتمنّى الرئيس لوسيندير أن نستقبل المستكشفين الأجانب لتقاسم معارفنا؟

شعّ وجه راؤول، وقال:

– فكرةٌ ممتازة، يا مايكل!

في ذلك المساء، رافق جان آماندين إلى بيتها بدلاً عنّي. وحيداً في شقّتي، انكببتُ على حاسوبي لإعداد صيغة كيميائية جديدة للبوستير.

لقد خمّنّا جميعاً أنّ الإنكليز على وشك أن يتفوّقوا علينا في السباق. وفي الحقيقة، في اليوم التالي، علمنا أنّ بيل غراهام قد تجاوز موخ 1.

حسب صحف الصباح، كان قد حقّق هذا الإنجاز أثناء الليل، في نفس اللحظة التي كنّا نفكّر فيها بدعوته إلى محطّتنا لإطلاق المستكشفين. كانت المشكلة تكمن في أنّ بيل غراهام لم يستطع أن يتوقّف في الوقت المناسب. لقد ابتلعه موخ 1.

108. ميثولوجيا جنوب أفريقية

في الحقبة التي كانت فيها الحيوانات كلّها لا تزال كائنات بشرية، كان هناك ذات مرّة أرنبٌ برّي صغير يبكي موت أمّه.

هبط القمر يواسيه: «لا تقلق، سوف تعود والدتك. انظر، أنا بنفسي، أظهر وأختفي، فيعتقد الناس أنني قد متّ، ولكنني أعاود الظهور دائماً. سوف يحدث الأمر ذاته مع والدتك».

لم يُصدّقه الأرنب البري الصغير. بل ذهب إلى حدّ المشاجرة مع القمر لكي يدعه يبكي بسلام. وقد خدشه بقوّة بمخالبه إلى درجة أنّه لا يزال يحتفظ بآثار الخدش. وحينئذٍ، غضب القمر وشقّ شفة الأرنب: «طالما أنّ الأمر هكذا وأنّ الأرنب لا يصدّقني، لن يولدَ من جديد مثلي، أنا القمر، وإنّما سوف يبقى ميّتاً».

أمّا بالنسبة إلى الأرنب البريّ الصغير الذي كان في الواقع كائناً بشرياً، فقد حوّله إلى حيوانٍ مذعورٍ قابل تماماً لأن يُصطاد. ولكن لا ينبغي تناول منطقة معيّنة من لحم الأرنب البريّ لأنّ هذه المنطقة تُذكّر بأنّه كان كائناً بشرياً.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

109. موخ 1

وإذ اختفى بيل غراهام، بقينا دائماً على رأس الحركة الثاناتونوتية العالمية. ولكن من خلفنا، كانت كتيبة كاملة تتجمّع لكي تلحق بنا، وربّما تتجاوزنا.

لقد تحطّم جان بريسون على الجدار الأوّل. وإذا كان ما يوجد خلف الأرض قد ظلّ مجهولاً، فإنّ تويج المخروط، قد بات، بالمقابل، معروفاً على نحوٍ متزايد. كان مستكشفو العالم برمّته ينقضون على الجدران سنتيمتراً بعد سنتيمتر ويحاولون الولوج إليها مثل حيوانات منوية مستعجلة.

واصلت المجلّة اللندنية نشر صور كاريكاتورية تُصوّر روّاد الموت مثل عصافير صغيرة تنقر فكّي التمساح المتثائب. «اقتربوا أيّها الصغار، فما زلتُ جائعاً»، هكذا كان يقولُ تعليقُ رسمةٍ ثالثة، تُظهر الزاحف العملاق، فاغر الشدقين، وبعض حراشفه مغطّاة بالدم والريش من المفترض أنّها تصوّر المسكين بيل.

ومع ذلك، لم يفقد جان بريسون هدوءه. مثله مثل راؤول، كان يعتقد أنّه لن ننجح في قضم جدار الغيبوبة إلّا شيئاً فشيئاً.

بدافع الدعاية أو الرغبة في تشجيع العلم، خصّص الرئيس لوسيندير جائزة مصحوبة بقيمة نقدية كبيرة: كأس «موخ 1» وخمسمئة ألف فرنكٍ للبطل الذي سوف يجتازه أوّلاً ويعود سالماً ليروي رحلته.

وُلِدَت مواهب.

لقد دقّت ساعة «الرياضيين». كان الأمر يتعلّق بشبّانٍ مقتنعين بعجز وعدم جدوى المحطّات الرسمية لإطلاق المستكشفين لفرط الحذر والخوف.

كانوا يتقدّمون بطلباتهم للذهاب والإياب كما يحلو لهم. ففي نهاية المطاف، كانت الحركة الثاناتونوتية، وقد كوفِئت بكأسٍ، ترقى الآن إلى مصاف رياضة القفز بالزانة أو سباق الحواجز. فدخلنا إلى ما أسميه طور «الجمباز».

وقد أعدّت أندية رياضية، وشركات خاصّة حلباتها الخاصّة بالتحليق، مع بوستيرات منسوخة عن بوستيراتنا. وقد استوحى عقلٌ عبقري فكرة تأسيس صحيفة، سُميّت *المستكشف الصغير المُصوّر*، تقدّم نصائح عملية وتعرض آخر المخطّطات لقارة الموتى. وكان معجبون يتبادلون عبر إعلانات صغيرة وصفات من أجل إقلاع أفضل، ويبيعون قوارير البروبوفول أو كلوريد البوتاسيوم المسروقة من المستشفيات، وحتى كراسي أطباء الأسنان.

كانت الإعلانات تشتمل بكلّ تأكيد على ملصقات تحمل صور المستكشفين الأكثر شهرةً، فيليكس كيربوز، وبيل غراهام، وجان بريسون.

وكلّ يوم كان الوحش يأخذ جرعته من «الرياضيين» غير الحذرين. لم تكن الثاناتونوتية نشاطاً كغيره من الأنشطة. إنّ من يمارسها لا يسقط سوى مرّة واحدة. وكنّا نكرّر ذلك في كلّ مناسبة في لقاءاتنا الإعلامية، ولكن المخاطرة هي التي كانت على وجه التحديد تُثير الشباب.

بالنسبة إليهم، كانت هذه المخاطرة هي أوج القشعريرة. كانت تشبه إلى حدٍّ ما فنّ الدفاع عن النفس الياباني هذا الذي يُسمى *ياي*، حيث يتقابل مصارعان وجهاً لوجه في وضعية القرفصاء، يكون الفائز في النزال هو أوّل من ينجح في امتشاق سيفه من الغمد ويفلق جمجمة خصمه إلى فلقتين.

لم تؤدّ الحوادث التي وقعت إلى إحباط الروّاد ذوي الطموح. أمّا بالنسبة إلى الجائزة، فقد جذبت عدداً من المحتالين.

كنّا نتلقّى عدداً من المكالمات الهاتفية.

ادّعى رجلٌ بأنّه قد تجاوز موخ 1 ورأى ممرّاً أزرق يمتدّ على نحوٍ متواصل باتجاه ضوءٍ أبيض. ولكن حينما قمنا باستدعائه واستجوبناه تحت مصل الحقيقة، أقرّ بأنّه قد اختلق هذه الحكاية لكي ينال المكافأة. حاول عددٌ كبيرٌ من مهرّجين آخرين أن يُزيّفوا تحليقاً ناجحاً. من بين السرديات الأكثر هذياناً التي تلقيناها، كانت هناك حالة الشخص الذي أخبرنا أنّه قد رأى

خلف موخ 1 حماته، وحالة الرجل الذي اكتشف يسوع المسيح من دون لحية، وصاروخ أبولو 13، وتقاطعاً مع مثلّث برمودا، ومخلوقات فضائية، بل وحتى ... العدم. هذا الأخير أضحكنا كثيراً. أكّد لنا: «خلف الموت، هناك ... «العدم»!». وحينما سألناه: وما هو العدم؟ أجاب بوقاحة: «حسناً، العدم هو العدم».

الكثير من الناس الشرفاء أيضاً تركوا حياتهم هناك.

من جانبه، كان جان بريسون يتقدّم، بهدوء ودون صخب، ثانية فثانية، ومليمتراً بمليمتر. وقد وصل الآن إلى «غيبوبة لمدّة عشرين دقيقة وثانية واحدة».

كانت رحلاته تزداد نجاحاً دون أن تشوبها شائبة. كان قلبه يتباطأ تدريجياً، وكنتُ قد أعددتُ صيغة لبوستير أكثر لطفاً بكثير كانت تسمح بأفضل أداءٍ للإرادة (بفضل مادّة جديدة: الفيكيورونيوم، ولكن من دون أن تُرهقوا أنفسكم بالصيغ الكيميائية، اعلموا أنّ الفيكيورونيوم 0.01 مليغرام للكيلوغرام الواحد، ليس سيئاً).

أعلن جان بريسون برزانة، بينما كان يستقر للمرّة الألف على كرسي الطيران:

– اليوم، سأحاول تجاوز موخ 1.

أجابت آماندين التي لم تعد تخفي محبّتها للمُجازف الشابّ:

– لا، لا، لا تفعل ذلك!

– لا تخافي. لقد أعددتُ نفسي جيّداً، وأنا أعرف إمكاناتي، وأعرف الآن أنني أستطيع النجاح في ذلك.

كان صوته هادئاً وحاسماً. لم يكن هناك أيّ شيءٍ في تصرّفه يشي بأدنى تردّد.

في تلك الليلة، مارس الحبّ بعنفٍ مع آماندين، وفي صباح اليوم التالي، بدا في كامل لياقته.

غرز بنفسه الإبر في أوردته وراقب الشاشات مثل طيّارٍ منهمكٍ في عملية فحص شاملة لقمرة القيادة قبل الإقلاع.

قلتُ:

– انتظر، إذا نجحت، وأعتقد أنّك سوف تنجح، يجب أن تكون الصحافة حاضرة.

فكّر جان بريسون. لم يكن يهتمّ بعدسات المصوّرين وأضوائهم وبالمجد. كان قد رأى إلى أين أوصل هذا السراب المسكين فيليكس. ولكنّه كان يُدرك مع ذلك أنّ اعتماداتنا، من دون الدعاية والإعلان، ستنخفض وأنّه، في كلّ الأحوال، فيما يتعلّق بمستقبل الحركة الثاناتونوتية، كان من المهمّ امتلاك الحدّ الأقصى من الشهود.

فنزع الإبر وانتظر.

في الساعة الثامنة مساءً، كانت كلّ الصحافة العالمية تتكدّس في موقع الإقلاع في الطابق الثامن. كنّا قد أقمنا حواجز بين كرسي الإطلاق ومنطقة «الزوّار»، المفروشة بمقاعد سينمائية لتأمين راحة ضيوفنا. كان بعضهم قد جاءوا فقط لكي يحضروا بأنفسهم موت مستكشفٍ.

خلال ثانية واحدة، هنا، كان أحدهم سينسلخ عن غلافه الجسدي ربّما لكي لا يعود إليه أبداً. كانت الإثارة تسود صفوف الحاضرين.

منذ بدء الخليقة، ظلّ الموت يُسحر البشر باستمرار.

تعرّفتُ على مقدّم البرامج في قناة RTV1، منفعلاً جدّاً، وكان قد قام بالتغطية الإعلامية في قصر المؤتمرات، وعلى فيلان، الأكثر هدوءاً، وهو الصحافي الذي يمثّل مجلّة *المستكشف الصغير المُصوّر*.

كنّا، راؤول، وجان، وأنا، قد ارتدينا من جديد البدلات الرسمية الخاصّة بالمناسبات الكبرى. مع آماندين، كنّا قد نظّفنا تنظيفاً كاملاً محطّتنا لإطلاق المستكشفين التي كانت قد بدأت تأخذ هيئة كراجٍ مهمَلٍ.

على كَرسيّ الانطلاق، بدا جان بريسون مركّزاً جدّاً. كان كلّ شيء فيه يوحي بالقوّة والثقة والحزم. كنّا قد علّقنا فوقه خريطةً للقارة النهائية، وقد حدّق فيها مطوّلاً كما لو أنّه يريد أن يتذكّر على نحوٍ أفضل هدفه المقصود موخ 1. اجتياز موخ 1. صرّ على أسنانه.

أفلتت من فمه عبارة: «موخ 1، سوف أجتازك». تنفّس لعدّة مرّات أخرى.

ضبط موقّته على «غيبوبة لمدّة خمس وعشرين دقيقة»، ثمّ جلس على كرسيّ طبيب الأسنان، وبنفس الهدوء، غرز الإبرة في تجويف كوعه.

دارت كلّ الكاميرات في حين كان المراسلون يهمسون همساً بتعليقاتهم لكي لا يزعجوا جان بريسون في تركيزه.

«... إيه نعم، سيّداتي، سادتي، جان بريسون سيجرّب المستحيل، ويعبر جدار الغيبوبة الأوّل. إذا ما نجح في ذلك، سوف يحصل على الكأس والجائزة التي قيمتها خمسمئة ألف فرنكٍ. منذ عدّة أيّام، يستعدّ المُصارع، وتركيزه شديد...»

قال جان بلهجة جافّة وباللغة الإنكليزية:

- حسناً، أنا جاهز.

فحصنا للمرّة الأخيرة جميع شاشات المراقبة.

قلتُ:

- من جهتي، أنا جاهز.

تبعتني آماندين بالقول:

- أنا جاهزة.

قال راؤول:

- أنا جاهز.

مدّ إبهامه مثل طيّارٍ مستعدٍّ للإقلاع.

غمغم راؤول:

- في خطٍّ مستقيمٍ دائماً، في خطٍّ مستقيمٍ نحو المجهول.

بدأ جان بريسون بالعدّ العكسي ببطء:

- ستّة ... خمسة (أغمض أجفانه) ... أربعة ... ثلاثة (أرجعَ رأسه إلى الوراء) ... اثنان (أغلق قبضتي يديه) ... واحد. انطلاق!

شابكنا أصابعنا. حظّاً سعيداً، يا جان. قلتُ في نفسي: «اللعنة! هذا الوغد المحظوظ سيكتشف أخيراً ما هو موجودٌ ما وراء الموت. سوف يعرف أعظم الأسرار. السرّ الأعظم، السرّ الذي سوف نواجهه جميعاً. سوف يجده ويقول

لنا: «الموت هو هذا» أو بالأحرى «الموت ليس سوى هذا». وغدٌ محظوظ. التهمته آماندين بعينيها. وغدٌ محظوظ. ربّما كان عليّ أن أنطلق بدلاً عنه. نعم. كان عليّ أن أفعل ذلك» كنتُ أفكّر في نفسي، بينما كانت الكاميرات تدور بسرعة كبيرة حتى لا تفقد جزءاً من الألف من الثانية من المشهد.

110. استمارة شرطة

طلب معلومات وصفية أساسية

الكنية: بريسون

الاسم: جان

لون الشعر: بنّي

الطول: 178 سم

علامات فارقة: لا توجد

ملاحظات: رائد الحركة الثاناتونوتية

نقطة الضعف: لا توجد نقطة ضعف

111. كتاب التاريخ المدرسي

ما إن فُتِح الطريق من قبل فيليكس كيربوز، تواصلت رحلات الطيران إلى بلد الموتى من دون توقّف. وكانت نسبة الفشل قد هبطت إلى مستوى متدنٍّ لأنّ طريق العالم الآخر بات الآن مباشراً وآمناً.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

112. ما وراء موخ 1

انتظار.

نظرت إلى ساعة يدي: كان جان قد أقلع منذ عشرين دقيقة وخمس وأربعين ثانية. لا بدّ أنّه الآن هناك، يرى ما يحدث ما وراء موخ 1. لقد نجح، وتجاوز العقبة، وهو الآن يُراكم معرفةً جديدةً تماماً. كان يرى، ويعرف،

ويكتشف. كنّا نتطلّع جميعاً إلى رؤيته يعود لكي يروي لنا ما شاهده. ما الذي عساه أن يكون موجوداً خلف جدار الغيبوبة؟ مَنْ أو ما هو الموت؟

غيبوبة منذ إحدى وعشرين دقيقة، وهو لا يزال هناك، ولم ينقطع حبله السُرّي ولا يزال من الممكن إنقاذه. إنّه أمرٌ رائع.

غيبوبة منذ إحدى وعشرين دقيقة وخمس عشرة ثانية. لا بد أنّه يلتهم إلى حدّ التخمة المعلومات الرائعة. يا له من رجلٍ سعيد.

غيبوبة منذ إحدى وعشرين دقيقة وست عشرة ثانية.

تحرّك الجسد الأرضي في رعشة فجائية، لا شكّ أنّها ناجمة عن ردّ الفعل العصبي.

غيبوبة لمدّة أربع وعشرين دقيقة وست وثلاثين ثانية. تعدّدت الرعشات الفجائية، كما لو أنّ الجسد بأكمله يهتزّ بفعل شحنات كهربائية. انكمش الوجه كثيراً إلى درجة أنّه لم يعد يمثّل سوى تكشيرة ألم فظيعة.

سأل صحافيٌّ:

- هل يستيقظ؟

أشار إليّ جهاز التخطيط الكهربائي للقلب إلى أنّ المستكشف لا يزال هناك. كان قد اجتاز الجدار الأوّل للموت. كان نشاط دماغه يتزايد في حين ظلّ نشاط قلبه في الحدّ الأدنى.

لا بدّ أنّ ذلك يعود إلى المفاجأة أمام السرّ المكتَشَف الكبير. لأنّه كان قد تجاوز بكلّ تأكيد عتبة الباب. ولا بدّ أنّه قد فهم كلّ شيء. بل وربّما كان على وشك أن يموت من جراء سعادته بمعرفة منْ هو قابض الأرواح. أمّا الموت، فكان يعرف حتماً كلّ شيء عنه. تُرى هل تفاجأ باكتشاف السرّ؟

غيبوبة لمدّة أربع وعشرين دقيقة واثنتين وأربعين ثانية. كان ينتفض ويُكشّر كما لو أنّه في كابوسٍ.

كانت اليدان تصدران صريراً على ساعدي كرسي الإقلاع. وحينما ارتفع كمّا القميص الرسمي، كشفا عن جلدٍ مقشعرٍّ.

بدرت منه حركات خفيفة ماهرة كما لو أنّه يقلّد معركةً مع وحشٍ كاسر.

حشرج، وخرج لعابٌ مع رغوة من فمه، بدأ يضرب بقبضتي يديه، ويركل بقدميه. لحسن الحظّ، كان حزامُ أمانٍ يُبقيه مثبّتاً على كرسي الإقلاع، وإلّا كان سيسقط من جرّاء كلّ هذه الحركات، وكان سيفصل بضربةٍ واحدة الأنابيب والأشرطة الكهربائية التي كانت تربطه بالأرض.

كان الصحافيون يراقبون المشهد، مذهولين. كانوا جميعهم يشكّون في أنّ فضّ عذرية قارة الموتى محفوفٌ بالخطر، ولكن هنا بدا أنّ المستكشف يواجه ظواهر مرعبة. لم تعد ملامح وجهه سوى تعبيرٍ عن رعبٍ كلّي.

غيبوبة منذ أربعٍ وعشرين دقيقة واثنتين وخمسين ثانية. خفّت حدّة عراكه، وكنّا جميعاً قد تراجعنا إلى الوراء لكي نتجنّب يديه. لم تبدُ لي هذه الحركة العنيفة أمراً إيجابياً جدّاً. كان راؤول يعضّ على شفته السفلى. وكانت آماندين تزمّ فمها وعينيها.

تقدّمتُ نحو آلات المراقبة.

غيبوبة لمدّة أربع وعشرين دقيقة وست وخمسين ثانية. كان جهاز التخطيط الكهربائي للقلب قد تحوّل إلى جهاز قياس الزلازل وسط ثورانٍ بركاني. خلال لحظةٍ واحدة، أدركتُ أنّ جان بريسون سيموت قريباً إن لم نفعل شيئاً. كانت الإشارات الضوئية تومض، والآلات تصدر ما يشبه النواح. ولكن موّقته الكهربائي كان قد نشط وأعادت إليه شحنة قوية جسده على نحوٍ مفاجئ. اهتزّ من جديد منتفضاً. ثمّ عاد كلّ شيء طبيعيّاً. وهدأ جهاز التخطيط الكهربائي للدماغ. انطفأت الإشارات الضوئية وهدأت الآلات.

لقد نجا بريسون. استعدناه إلى وسط الأحياء. كان يشبه رجلاً معلّقاً فوق الفراغ، نجحنا في رفعه دفعةً واحدة على الجرف الصلب. كان حبل استرجاعه، وفي الحقيقة حبله الإكتوبلازمي، قد صمد جيّداً لحسن الحظّ.

كان قد تجاوز جدار القدر.

اقتربنا بهدوء.

صرخ من خلفنا صحافي قناة RTV1 الذي لا بدّ أنّه قد استفاد من مدّة الانتظار لكي يكتب تقريره.

– لقد نجح! في أوّل بثٍّ حصري، جعلتكم القناة التي تعرض لكم

المزيد تشاهدون عملية إقلاع وهبوط أوّل مستكشف للموت استطاع أن يجتاز موخ 1. في بثٍّ مباشر، شاهدتم لحظةً تاريخية إذ بعدما يستيقظ جان بريسون سوف يروي لنا الحكاية المثيرة.

أصبح النبض طبيعيّاً، وأصبح النشاط العصبي شبه طبيعي، وكذلك بات النشاط الكهربائي طبيعياً.

فتح جان بريسون إحدى عينيه، ثمّ فتح الأخرى.

لم يعكس أيّ شيء على وجهه الحالة الطبيعية التي كانت الشاشات تُظهرها. إلى أين ذهب الهدوء الأسطوري للمُجازف؟ كان منخراه يخفقان، وجبينه مغطّى بالعرق، ولم تكن تعابير وجهه سوى ذعرٍ. فكّ حزام الأمان خاصّته بقوّة ونظر إلينا تباعاً كما لو أنّنا غرباء عنه.

كان راؤول أوّل منْ بادر إلى التحدّث إليه:

– كيف حالك؟

كانت كلّ أعضاء جسم بريسون ترتجف. لم يكن على ما يُرام تماماً.

– لقد تجاوزتُ موخ 1 ...

ضجّت القاعة بالتصفيق الذي سرعان ما هدأ أمام الرجل الذي لوى على نفسه مذعوراً.

واصل حديثه:

– لقد تجاوزتُ موخ 1 ... ولكن ما رأيته بعده كان ... رهيباً!

لم يعد هناك هتافات وتصفيق. لم يعد هناك أيّ شيء غير الصمت. دفعنا جان لكي يهرع نحو لاقط صوتٍ. أمسك باللاقط وقال بأنينٍ:

– لا ... لا ... لا ينبغي للمرء أن يموت. هناك في العالم الآخر، بعد الجدار الأوّل، إنّه شنيع، شنيع. لا يمكنكم أن تعرفوا إلى أيّ درجة. أرجوكم جميعاً: لا تموتوا بعد الآن!

113. شعر إيطالي

«سيربيروس، الوحش الشرس والقبيح

ينبح، ويصدر النباح عن حناجره الثلاث، على
التعساء الغارقين في هذا الجحيم

عيناه من نار، وشعر رقبته قذرٌ ومخضّبٌ بالدم،
وإذ يشقّ عليه تحمّل حلقه اللاهث،
يمزّق أولئك البائسين وينهشهم بمخالبه المريعة.

فيعوون تحت العاصفة الْمطرية،
يدورون ويلفّون هرباً منها ويعرّضون جانباً من جسدهم
ثمّ الجانب الآخر للألم.
يدور ويلفّ الآثمون البائسون غالباً!

حين رآنا سيربيروس ندخل إلى الملاذ المعتم
هرّنا وفغر أشداقه مكشّراً عن أنيابه المتوعّدة!
وارتجفت أطرافه فلم يبق طرف إلا وتحرّك».

دانتي:
الكوميديا الإلهية، «الجحيم» النشيد السادس.
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

114. خطوة زائدة

لا داعي للإشارة إلى أنّ هذا «النجاح» غير المألوف قد ألقى برودةً على كلّ أنشطتنا الثاناتونوتية.

شرح جان، الذي كان لا يزال يهلوس ذعراً، للصحافيين أنّ خلف الجدار الَأوّل بلداً للهلع المحض. الرعب الكلّي.

سأل أحد الصحافيين:

– أهو الجحيم؟

أجاب بوقاحةٍ يائسة:

- كلا، لا بدّ أنّ الجحيم أكثر لطفاً.

وكما كان متوقّعاً، أقام الرئيس لوسيندير حفلةً صغيرةً لكي يسلّم جان جائزته البالغة خمسمئة ألف فرنك وكأس الفوز، ولكن جان لم يأتِ لاستلامهما.

كان يستفيض في إجراء المقابلات الإعلامية، وهو يسخر منّا. كان يُطلق علينا خلال أحاديثه للصحافيين تسمية «طيور الشؤم»، ويقول إنّه ينبغي التوقّف عن استكشاف قارة الموتى، وإنّنا قد خطونا خطوة زائدة، وينصح الجميع بألّا يموتوا أبداً.

وقد اعترف بنفسه بأنّه يشعر بالذعر لكونه سيضطرّ ذات يومٍ إلى العودة إلى العالم الآخر.

- أنا أعرف ما هو الموت ولم يعد يُخيفني أيّ شيء عدا الموت. آه! ليتني أستطيع أن أتجنّب هذا.

حبس نفسه في منزلٍ صغيرٍ حوّله إلى مخبأ. ولم يعد يرغب في لقاء أحدٍ.

أصبح يرتدي على الدوام سترة واقية من الرصاص، ويراجع الطبيب في الأسبوع مرّتين تحسّباً لأيّ شيء. ولكي يتجنّب جميع الأمراض المعدية عن طريق الجنس، هجر النساء تماماً. ولأنّ عدد الوفيات من جراء الحوادث المرورية على الطرقات كان كبيراً، تخلّى عن سيارته وتركها في أرضٍ بور. وخوفاً من حدوث كارثة جويّة، امتنع عن حضور أيّ مؤتمر في الخارج حتى لا يستخدم الطائرة في الأسفار.

دقّت آماندين مراراً وتكراراً على باب بيته المصفّح ولكن من دون جدوى. وعندما توسّل إليه راؤول عبر الهاتف أن يزوّده على الأقلّ ببعض المعلومات والمؤشّرات من أجل خريطته، قال: «إنّه مظلم، مظلمٌ جدّاً ونتألّم فيه ألماً فظيعاً»، ثمّ أغلق السمّاعة بجفاء.

كانت لهذه التجربة عواقب وخيمة. حتى هذه اللحظة، كان الجمهور شغوفاً بما فيه الكفاية ببحثنا عن العالم الآخر لأنّ كلّ واحدٍ كان يأمل في أننا سوف نكتشف بلاد السعادة الأبدية. لم يكن عبثاً أنّ الرئيس لوسيندير ورازورباك كانا قد سمّيا مشروعنا منذ انطلاقته مشروع «الفردوس». كان

الجنس البشري قد أقنع نفسه بأنّه بعد الممرّ الأزرق للنشوة، سوف نجد نور الحكمة. ولكن إذا كان الممرّ المذهل لم يكن يُفضي إلّا إلى الألم والعذاب...

إنّ الأقوال اليائسة والمحبطة التي أدلى بها بريسون سريعاً قد تركت أثرها، وأصبح القلق عامّاً. كان الأطبّاء يستخدمون اللقاحات بكثافة، وشهدت مبيعات السلاح صعوداً مثل السهم، وأصبحت محطّات إطلاق المستكشفين خالية تماماً.

في السابق، كان الموت بالنسبة إلى بعضهم مجرّد نهاية بسيطة للحياة، باختصار هو مجرّد إخماد للنيران. وبالنسبة إلى آخرين، كان الموت وعداً بالأمل. والآن يعلم الجميع أنّه العقاب النهائي. لقد أصبح الوجود فردوساً عابراً سوف نضطرّ جميعاً أن ندفع ثمنه الباهظ ذات يوم.

كانت الحياة عيداً، أمّا في العالم الآخر، فليس هناك سوى الظُّلمات! إنّ ما استكشفه بريسون كان نجاحاً عظيماً! لقد أكّدت تجاربنا على الحقيقتين المرعبتين اللتين كان والدي قد ردّدهما: **«الموت هو الشيء الأكثر فظاعةً»** و**«لا مزاح مع هذه الأمور»**...

115. ميثولوجيا ميزوبوتامية

«لقد طوّفتُ في كلّ البلاد
واجتزتُ الجبال الوعرة
وعبرتُ كلّ البحار
ولم أنعم قط بالسعادة
حكمتُ على نفسي بحياةٍ
بائسة، وحلّ بجسمي
التعب والضنى».

ملحمة جلجامش.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

116. الثاناتوفوبيا

بعد قضية بريسون، دخلنا في مرحلة طويلة وثقيلة من الركود. كان الجميع يخافون من الموت والكوابيس التي لا توصف، والتي تحدّث عنها جان.

ومع ذلك، كان هناك مستكشفون آخرون عبروا الجدار. ولكن شهاداتهم لم تكن أكثر طمأنةً. كان بعضهم يتحدّث عن لقائهم مع قابض الأرواح، وهو عبارة عن هيكلٍ عظمي مسلّح بمنجلٍ يجعل سلاحه يصفّر لكي يقطع الحبال السُرّية للمستكشفين المتهوّرين الذين كانوا قد غامروا بالذهاب بعيداً جدّاً.

وقد ادّعى مستكشفٌ - ناسك أفريقي بأنّه قد تجنّب ثعباناً عملاقاً كان ينفث ناراً. كما زعم كاهنٌ أيسلندي أنّه قد اصطدم بتنينٍ ضحّاك ذي أسنانٍ مطلية بالدم.

- الغريب في الأمر هو أنّ رؤية الموت تختلف حسب الثقافات.

اكتفى راؤول بقول ذلك، وبدا أنّه ينهمك في إجراء حسابات بفرجاره.

ولكنني كنتُ أعلم أنّ الملاحظة التي أبداها لم تُطمئنه تماماً.

كانت شهادات المستكشفين الجديدة تصبح أكثر رعباً على نحوٍ متزايدٍ. كانوا يتحدّثون عن المئات من العناكب العملاقة التي تبثّ سموماً عفنة وكريهة، وعن جرذان طائرة لها قواطع حادّة. تخيّلنا أنّنا وسط حكاية من حكايات الرعب للكاتب الأمريكي هوارد فيليبس لافكرافت. وكانت مشاهد وصف الوحوش تتراكم دائماً على نحوٍ أكثر جنونيةً.

روى مستكشفٌ برتغالي، لا يزال منذهلاً بهبوطه، أنّه قد صادف وطواطاً رأسه مزيّنٌ بطوقٍ من جماجم بشرية. والروايات أصبحت أكثر رعباً وهولاً يوماً بعد يوم.

بدأتُ أنا نفسي أخاف من الموت. لقد سيطرت عليّ حالةٌ يمكن أن تُدعى بحقّ «ثاناتوفوبيا» السائدة، أي الخوف المرضي من الموت. وقد زادت مجلّة *المستكشف الصغير المُصوّر* من درجة بشاعة الموت وصوّرته دمويّاً وكريهاً، من خلال عروضها المفرطة في الواقعية. لقد صوّرت

الموت على أنّه بالفعل ما يجعلكم تموتون لمرّة ثانية من الخوف في لحظة وفاتكم! أين كانت الراحة الأبدية المكتسبة إذا كان على المرء أن يواجه، حالما يموت، كلّ هذه الوحوش الكامنة خلف موخ 1؟ لأننا إذا ما صدّقنا شهادات المستكشفين الدوليين، يبدو أنّ كلّ هذه الوحوش كانت مختبئة خلف موخ 1 وتنتظرنا، وهي التي تُسمّى الشيطان ذا الأرجل المتفرّعة، وكثولو البخاري، والتنين اللزج، والكلب غريفون المشتعل بالنار، والكمّيَر الخرافي الضاحك، وشيطان الجنس إنكوب، وشيطانة الجنس سكيوبس، والمينوتور، وملتهم الأرواح.

الموت فخٌّ. الضوء يجذبنا والعفاريت تظهر عند ستاره الأوّل.

لا داعي هنا لأن أقول إنّ عدد المنتحرين قد هبط بين ليلةٍ وضحاها. كلّ الرياضات المشهورة والخطيرة - سباق السيارات، الملاكمة، القفز بالمظلّات، سباق الدرّاجات النارية، القفز بالحصان، أو القفز التزلّجي، أو القفز بالحبال - هُجِرَت من قبل الهواة من ذوي الأحاسيس القويّة الذين تناقصت أعدادهم تدريجيّاً. ولم يعد بوسع تجّار المخدّرات تصريف بضاعتهم. وأغلق تجّار التبغ أبواب متاجرهم. وانتعشت مبيعات الصيدليات.

ولمزيدٍ من الأمان، خُفِّضَت استطاعة المقابس الكهربائية.

الكثير من شرفات المنازل شُبّكت بِشِباكٍ حديدي، وانتُصِب العديد من موانع الصواعق على أسطح المنازل. وصمّم مصمّمو الأزياء ألبسة مُبطّنة بحشوةٍ تمنح منْ يرتدونها هيئة دمى ولكنّها تحميهم في حالة سقوطهم. وبُنيتْ أسوارٌ على طول المنحدرات البروتانية في شمال غرب فرنسا.

في المختبر، رسم راؤول، الذي جهد لكي يبقى هادئاً وسط هذه العاصفة، على الخريطة خلف الجدار الأوّل ممرّاً أسود اللون مزخرفاً بإشارة استفهام.

- ما الذي يمكن أن يكون خلف هذا الجدار وقد أرعب بريسون وَالآخرين إلى هذه الدرجة؟

كانت تجاربنا قد عُلّقت الآن لعدم وجود أيّ مستكشف متطوّع. كنّا نجتمع على نحوٍ منتظم في مقبرة بير لا شيز، بقصد الحصول على بعض الهواء النقي والتفكير معاً في الأمر.

سألت آماندين:

- ما رأي لوسيندير في الأمر؟

أجاب راؤول:

- إنّه يكتفي بترداد هذا السؤال: «وماذا لو كان بريسون على حقّ؟» فهو قد سرّ بالعالم الآخر مرئياً من بعيد. ويقول في نفسه الآن إنّ ذلك العالم قد لا يكون مشوّقاً وممتعاً إذا ما شوهِد عن كثب.

قلتُ بإلحاح:

- ولكنّ جميع الأشخاص الذين حلّقوا من حوله بدوا متلهّفين للإسراع إلى هناك.

- إنّها أوهامٌ وهلوسات! حينما يصبح المرء قريباً جدّاً يُدرك أنّه ما كان عليه أن يذهب إلى هناك. لم يعد لوسينديرمقتنعاً على الإطلاق بأنّ الموت مجرّد نزهة.

كنّا، آماندين، وراؤول، وأنا في غاية القلق والاضطراب. لقد واجهنا الكثير من المتاعب لكي نكشف النقاب عن رعبٍ كان ينبغي له أن يبقى إلى الأبد المفاجأة الأخيرة من بين المفاجآت.

كلّ أفعالنا، جيّدة كانت أو سيئة، لم تكن تقودنا إلّا إلى هذه الشناعة الأخيرة. تُرى هل يمكن أن يكون هذا الجحيم الذي لا مفرّ منه، وحديقة الحيوان هذه التي تعجّ بالثعابين الملتوية وبمصاصي الدماء الضاحكين هو ما كانت كلّ أديان العالم تسعى إلى إخفائه؟ أيّ صندوق باندورا[1] فتحناه؟ أيّ قوى شريرة أطلقناها بفضولنا غير الصحّي؟ أردنا أن نعرف لغز الموت... فلقّننا هذا الأخير درساً حقيقيّاً.

قال راؤول:

1- صندوق باندورا: في الميثولوجيا اليونانية، صندوق باندورا هو صندوق حُمِلَ بواسطة باندورا، ويحتوي على كلّ شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب، وحسد، ووهن، ووقاحة، ورجاء. وباندورا هي أول امرأة يونانية وجدت على الأرض طبقا للعقيدة اليونانية. المترجم

- يرغب لوسيندير في ترك كلّ شيء. بل إنه حتى يفكّر في تقديم استقالته. إنّه ليفضّل أن تتجنّب كُتب التاريخ ذكر غزواته الصغيرة الكئيبة.

- وأنت؟

- سيكون من الصعب جدّاً الاستسلام من أوّل تعثّرٍ يصادفنا. لدى الإبحار إلى أفريقيا، وأستراليا، وإندونيسيا، لا بدّ أنّ المستكشفين الأوائل قد واجهوا القبائل الآكلة للحوم البشر، وغابات عدوانية مليئة بالعقارب القاتلة وحيوانات أخرى متوحّشة ومجهولة. ومع ذلك لم يتراجعوا. كلّ عملية استكشاف تتضمّن حصّتها من الخطر. إنّ الأمر لا يتعلّق بالخروج في نزهةٍ في حديقة وردٍ، على جانبها أراجيح للأطفال. المغامرة هي مرادف الخطر!

كان العقل الخصب لراؤول قد تكوّن بأسباب المثابرة. هو لا يهتمّ بالتخلّي عن الثاناتونوتية. لقد حرّك العصافير التي تخدمه كأيادٍ.

- كل هذه الرؤى حول ما بعد موخ 1 لا تتطابق فيما بينها، وأن تكون كلّ الشهادات سلبية لا تعني الشيء الكثير. لا يزال جان بريسون غامضاً وغير واضح. هو الذي كان قد عوّدنا على الجدية والمنهجية في العمل، لا يفعل الآن سوى مراكمة الصفات: رهيب، فظيع، شنيع ... مع توضيحٍ وحيد وهو أنّ كلّ شيء أسود!

- والخلاصة؟

أشعل إحدى سجائره الملفوفة من ورق الأوكاليبتوس، ونهض من مكانه، ومطّ ساقيه الطويلتين وزفر دخان الأوكاليبتوس. ثمّ قال:

- الخلاصة هي أننا لا نستطيع أن نسمح لبعض الجبناء الرعاديد أن يوقفوا أعمالنا.

صرّحت آماندين الوفيّة دائماً:

- جان ليس جباناً رعديداً ولا يمكن أن يكذب.

أبدى راؤول ملاحظةً:

- لقد تمكّنت حواسه من أن تخدعه. ثمّ قد يأتي بعد طورٍ من الإغراء طورٌ آخر من النفور...

- أنا أيضاً أعتقد أنّه صادق، ولكن ما يُزعجني هو كلّ هذه الرؤى المختلفة، إلى درجة أنّه قد يعتقد المرء أنّ العالم الآخر، بعد اجتياز الجدار الأوّل، يتّخذ طابعاً شخصياً. هل تتذكّر *كتاب الموتى* المصري، يا مايكل؟ كان يروي أنّه على الميّت أن يواجه وحوشاً، ولكنّه إذا ما نجح في قهرها، سوف يواصل طريقه حينئذٍ بهدوء. باختصار، إنّها محنة تمهيدية أظهر جان أنّه غير قادر على التغلّب عليها! ومن هنا تأتي استنتاجاته البسيطة بعض الشيء التي تفيد بأنّ كلّ شيء بعد موخ 1 ليس سوى رعبٍ.

نظرتُ إلى آماندين. كانت رؤيتها فردوسي، وعيناها الزرقاوان الداكنان رحلتي العظيمة. لماذا البحث عن مكانٍ أبعد؟ لقد أخفت النظرة التي كانت تشلّني تحت النظارات السميكة غير الشفّافة.

- ماذا إذاً، يا راؤول؟

- إذاً، سوف نوقف أعمالنا، وندع الوقت يمرّ. إنّ خبراً يُزيح خبراً آخر. وسوف ينسى الناس الثاناتوفوبيا. وسوف نواصل عملنا حبّاً بالعلم!

في غضون ذلك، ألغى لوسينديز قانونه الذي كان يمنع العناية العقيمة. لم يعد يرغب أحدٌ في المخاطرة بفصل أجهزة الإنعاش عن مريضٍ من أجل إرساله نحو مكانٍ غير معروف. وقبل الدخول إلى غرفةٍ للعمليات، كان المرضى يتركون شيكات بمبالغ طائلة تضمن لهم البقاء لأطول وقتٍ في حالة موت دماغي، إذا ما فشلت العملية.

لم ترَ آماندين قط جان بريسون مرّة أخرى. والواقع، لم يعد أحدٌ يراه. وكان قد صرف أخيراً قيمة جائزة لوسينديز التي استخدمها من أجل بناء ملجأ مضادٍ للإشعاع الذري. وقد اختفى فيه بين رفوفٍ مليئة بالمعلّبات والمؤن ومخزون المياه المعدنية ولم يعد أحدٌ يسمع عنه شيئاً.

117. تعليم اليوغا

أربع سلوكيات داخلية تحدّد جهل وعذابات البشر:

- الإحساس بالفردانية. أمام النجاح: «أنا ذكيّ» .... أمام الفشل: «لن أنجح في ذلك أبداً».

- التعلّق بالمتعة: السعي إلى المسرّة الدائمة كهدفٍ وحيد.

- التهاون في الاكتئاب: وسواس الذكريات الحزينة التي تحثّ المرء على الانتقام ومعارضة محيطه.

- الخوف من الموت: الحاجة المرضية للمرء إلى التمسّك بحياته، دليل فردانيته. بدل القبول بالحياة حتى الموت من خلال الاستمتاع بالحياة هنا على الأرض في سبيل تنمية أفضل لشخصيته ووجوده.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، الموت ذلك اللغز.

118. ستيفانيا

استمرّت الثاناتوفوبيا قرابة ستة أشهر. ستة أشهر من البطالة القسرية، ومن المناقشات والأسئلة المكرّرة في المطعم التايلاندي لصاحبه السيّد لامبيرت، ومن التسكّع في مقبرة بير لاشيز، ومن الغبار المتراكم في محطّاتنا لإطلاق مستكشفي الموت التي ظلّت متوقّفة عن العمل. في الشقّة العلوية على السطح، كانت النباتات قد غزت آلة البيانو. لم نعد نرى لوسيندير تقريباً. حتى كلبه فيرسينجيتوريكس كان مكتئباً. في حين انهمكت آماندين في الاهتمام بالطبخ، وحاولت أن تواسينا من خلال إعداد أطباق مشبعة بالتوابل. كنّا نلعب بالورق، ولكن ليست لعبة البريدج، إذ لم يكن أحدٌ من بيننا يرغب في إبداء الاستعداد ... للموت.

وأخيراً، انبعثت بارقة الأمل التي كان راؤول يترقّبها، ولكن من مكان لم نكن نتوقّعها منه. ليس من الولايات المتّحدة الأمريكية حيث كنّا نعلم أنّ وكالة ناسا منخرطة في أبحاث في غاية السرّية، ولا من بريطانيا العظمى حيث كان بيل غراهام قد ترك خلفه مقلّدين راغبين في السير على خطاه. جاء خلاصنا من إيطاليا.

كنّا على علم بوجود محطّة إطلاق مستكشفين في بادوفا، ذات كفاءة عالية، ولكننا كنّا نعتقد أنّها هي الأخرى، مثل محطّتنا، في حالة ركود حالياً. والحال أنّ الإيطاليين كانوا قد وضعوا برنامجهم في حالة خمود، إلّا أنّهم لم يتخلّوا تماماً عن إطلاق المستكشفين. في السابع عشر من أبريل / نيسان،

أعلنوا أنّهم هم أيضاً قد نجحوا في إرسالِ مستكشفٍ إلى ما وراء جدار الغيبوبة الأوّل وأنّ مستكشفهم قد عاد إلى غلافه الجسدي، مقدّماً شهادة أكثر اطمئناناً بوضوح من شهادة جان بريسون.

ومن المفارقة أنّ الصحافيين الذين أولوا سريعاً الثقة للأهوال التي سردها جان بريسون، أظهروا شكوكهم حيال حيوية الإيطاليين المفرطة وتفاؤلهم.

كان المستكشف الإيطالي في الحقيقة امرأة، وتُدعى ستيفانيا جيجيلي.

تفحّص راؤول مطوّلاً صورتها المنشورة في الصفحة الأولى من صحيفة *كوريري ديلا سيرا* الإيطالية. كانت المرأة الشابّة المبتسمة تشرح في المقالة التي خُصِّصَت لها أنّها قد اكتشفت بعد موخ 1 مستنقعاً واسعاً مظلماً ومائلاً إلى السواد حيث اضطرّت لأن تكافح فيه ضدّ فقاعات ذكريات فاقعة جدّاً. كان زملاؤها مندهشين ويردّدون لها أقوالها تحت مصل الحقيقة، وقد ظلّ سردها متطابقاً.

قلتُ:

– إذاً، إنّها لا تكذب.

قفز راؤول، قائلاً:

– بالطبع لا. ما ترويه متماسك تماماً.

بقيتُ مطرقاً في التفكير.

– في هذه الحالة، لا بدّ أنّ بريسون قد واجه ماضيه ووجده مرعباً جدّاً بحيث لم يستطع تحمّله.

كانت آماندين تعلم أنّ مُجازفنا لم يسبق له قط أن خضع لتحليلٍ نفسي. في بعض اللحظات، كانت قد اعتقدت أنّه بحاجة إلى تحليلٍ نفسي لشدّة ما كان يبديه من تكتّم حول ماضيه. قرّرنا أن نستقصي عن الأمر وقد اكتشفنا أنّ جان بريسون كان قد عاش في الواقع طفولة مؤلمة جدّاً. وكان يُخفي تلك الحياة التي عاشها في طفولته تحت ستارٍ من الصمت ولكن كلّ حماياته كانت قد انفجرت لدى عبوره موخ 1. لقد عادت إلى ذاكرته الكثير من الذكريات المرعبة التي لم يتحمّل صدمتها.

لا بدّ أنّ آماندين أرادت أن تواسيه. ولكنّ بريسون كان قد تخلّى عن العالم مرّة واحدة وإلى الأبد. لم يردّ على الطرقات المتكرّرة على باب حصنه، وأغلق هاتفه نهائياً.

دفعنا فضولنا إلى أن ندعو المستكشفة الإيطالية إلى القدوم إلى باريس وتلقّي ميدالية وسام الشرف الثاناتونوتي التي أنشأها لوسيندير. جرت الحفلة من دون أيّ ضجّة أو دعاية. فقد آثرنا في الوقت الراهن تجنّب أيّ ضجّة إعلامية.

كانت ستيفانيا جيجيلي امرأة قصيرة القامة أنيقة وذات وجه طفوليٍّ جميل. ينساب شعرٌ طويلٌ أسود اللون ومتموّج حتى أسفل ظهرها. كان سروالها الجينز وقميصها يبدوان دائماً على وشك الانفجار، لكنها أيضاً لم تكن تفتقر إلى السحر بخدّيها المدوّرين الناعمين وابتسامتها الطفولية.

منذ لحظة استقبالها في المطار، احتضنتنا بين ذراعيها، كما لو أنّها أرادت أن تُظهِر لنا أننا ننتمي جميعاً إلى عائلة كبيرة واحدة، وهي عائلة «المستكشفين الذين لا يخشون الموت». ثمّ انفجرت في ضحكة مجلجلة ومفاجئة.

اصطحبناها إلى المطعم التايلاندي. وكما كان متوقّعاً، فضّل لوسيندير أن يعتذر عن الحضور.

ولأنّ ستيفانيا كانت قد عاشت لسنوات عديدة في مدينة مونبلييه، كانت تتحدّث بلغة فرنسية لا تشوبها شائبة، وبالكاد فيها أثر لكنة لذيذة لسكان فيما وراء الألب. بدأت بالتهام أطباقٍ من الشعرية بالفطر الأسود. كانت، وفمها مليءٌ بالطعام، تتبع جملها بضحكتها الصارخة. لم يكن قد سبق لي قط أن رأيتُ راؤول مهتمّاً بأحدٍ إلى هذه الدرجة.

وهو يُصغي إليها، مهملاً طبقه من الطعام، كاد أن يلتهمها بعينيه.

لخّصت ستيفانيا شهادتها، وقالت إنّه كانت هناك، خلف الجدار الأوّل، منطقة معتمة وذات رائحة نتنة، من غير المحبّذ الانتظار فيها. تهاجمكم فقاعات ذكريات مثل عددٍ كبيرٍ من العفاريت وتسعى إلى صرفكم عن النور الجميل. مع ذلك، ولأنّها كانت قد صعدت وهي عاقدة العزم تماماً على أن

تنزل بعد ذلك، لم تدع ستيفانيا نفسها أسيرةً لا لبارقة الضوء المدهشة ولا لعفاريت الماضي.

ولأنني كنتُ دائماً مهتمّاً بتقنيات الإقلاع - ففي نهاية المطاف، هذا كان اختصاصي - ، سألتُ عمّا استخدمته من موادٍ للتحليق.

- التأمّل التبتي زائداً بعض البوستيرات الخفيفة من كلوريد البوتاسيوم. لم أرغب في إتلاف كبدي!

قال راؤول، مندهشاً:

- التأمّل التبتي!

كاد يختنق، دفع بتهذيب خلف يده ثلاثة براعم فتية للصويا مائلة للاصفرار، وسأل:

- هل أنتِ ... روحانية؟

قالت المستكشفة، ضاحكةً:

- بالتأكيد. إنّ الذهاب نحو الموت يُعتبَر في جوهره فعلاً دينياً، أو روحانياً على أقلّ تقدير. إنّ مادّة سامّة تسمح بالإقلاع، ولكن كيف يمكننا أن نذهب بعيداً من دون انضباطٍ للروح؟ كيف يمكن الإقلاع بشكلٍ صحيح من دون إيمانٍ بالله؟

بقينا فاغري الأفواه. حتى هذه اللحظة، كنّا قد نجحنا في عدم الخلط بين الدين وتجاربنا العلمية. كنّا، راؤول وأنا، نهتم على نحوٍ طبيعي بكلّ الميثولوجيات القديمة وبمختلف معتقدات العالم، ولكن من الناحية العملية، لم نكن نرغب في أن نُثقِل كاهلنا بالمعتقدات الخرافية، أيّاً كانت مصادرها.

في الواقع، كان راؤول في جوهره ملحداً. وكان يتباهى بذلك، معتبراً أنّ الإلحاد هو السلوك الوحيد الممكن بالنسبة إلى رجلٍ معاصرٍ راغبٍ في أن يحافظ في كلّ شيء على موقفٍ علمي. بالنسبة إليه، كانت الشكوكية تمثّل تقدّماً بالمقارنة مع التصوّف. لم يكن الله قد ظهر، إذاً هو ليس موجوداً.

من جهتي، كنتُ أقرب إلى اللاأدرية. في الواقع، كنتُ أعترف بجهلي. بل كان الإلحاد يبدو لي مثل سلوكٍ ديني. إن تأكيد عدم وجود الله هو بالفعل اعتناقٌ لرأيٍ بهذا الخصوص. لم يسبق لي قط أن كنتُ على هذا القدر من الغطرسة. لو أنّ إلهاً تفضّل بالظهور لدينا، نحن المخلوقات الأرضية البائسة، لغيّرتُ من دون شكّ موقفي. وإلى أن يحدث ذلك، سوف أبقى في حالة انتظار.

كانت لاأدريتي تتطابق مع رؤيتي للعالم، التي لم تكن سوى علامة استفهام كبيرة. لأنّه إذا لم يكن لديّ أي رأي عن الله، لن أدّعي كذلك بأنني أمتلك رأياً أقوى عن العالم أو عن البشر. لم أفهم جيّداً على الإطلاق الكائنات المحيطة بي، وما يحصل لي يبدو لي أنّه يحدث بالصدفة. ومع ذلك، كنتُ أشعر في بعض الأحيان بأنّ الطبيعة موهوبة بذكاءٍ خاصٍّ يتجاوزني.

أكثر راؤول على ستيفانيا بالأسئلة:

– ما هي عقيدتك؟

– أنا بوذية تبتية!

– بوذية؟

– نعم، وهل هذا يزعجك؟

قال، معتذراً، وحريصاً على ألّا يغضب زميلتنا القديرة:

– لا، لا، أبداً! بل على العكس، الميثولوجيا التبتية تستهويني. فقط، لم أكن أتصوّر أنّ البوذيين التبتيين مثل ... مثلكِ!

قالت أماندين بلطف:

– أمّا أنا، فلا أعرف شيئاً عن البوذيين التبتيين. أنتِ أوّل بوذية تبتية ألتقي بها.

غطست ستيفانيا ثلاث شوكات مليئة بالدجاج في حليب جوز الهند وفي الكَزبرة.

– نحن، البوذيين التبتيين، لم ننتظركم حتى نهتمّ بالموت. منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ونحن نعكف على هذا الموضوع. إنّ كتابنا حول الموتى، *باردو ثودول*، يشتمل على كرّاسة صغيرة ممتازة للانخراط في

تجربة الاقتراب من الموت. لقد سبق لي أن غادرتُ نحو العالم الآخر قبل أن يسمع أحدٌ بمستكشفكم فيليكس كيربوزا!

لمحتُ فجأةً تضايقاً تحت القناع اللطيف لآماندين. للمرّة الأولى، في حلقتنا الصغيرة، لم تكن في مركز جميع الاهتمامات. لم تعد المرأة الوحيدة بيننا، وكانت ترى، في غيرةٍ، راؤول وهو يقع تحت سحر ستيفانيا، وقد أغوته الكلمات غير العادية لهذه الفتاة الإيطالية - التبتية.

ومع ذلك، استمرّ تناول الطعام في جوٍّ مرحٍ. وقد أظهر راؤول رازورباك غبطة لم أعهدها فيه من قبل. لقد اكتشف أخيراً امرأةً ليس لديها، مثله، إلّا موضوعاً وحيداً يشغل اهتمامها الحقيقي: الموت.

119. استمارة شرطة

طلب معلومات وصفية أساسية

الكنية: جيجيلي

الاسم: ستيفانيا

لون الشعر: أسود

الطول: 163 سم

علامات فارقة: لا توجد

ملاحظات: أوّل امرأة مستكشفة للموت

نقطة الضعف: زيادة في الوزن

120. فلسفة يابانية

لقد قال ناوشيج:

«إنّ طريق الساموراي معبّد بالشغف بالموت.

إذا ما اعتاد رجلٌ على شغف كهذا، فلن يستطيع عشرة رجال التغلّب عليه.

يجب أن يكون المرء مأخوذاً بالتعصّب وبالشغف بالموت حتى يُحقّق

إنجازات. إذا ما ترك المرء نفسه يستسلم للحنكة، حينها يفوت الأوان على استخدام هذه القوّة. حسب طريق الساموراي، الولاء والطاعة البنوية لا داعي لهما، وحده الشغف بالموت هو الشيء الأهمّ».

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

121. ستيفانيا، وحكايتها

كانت ستيفانيا تعشق الثرثرة. أسرّت لنا طواعيةً بحكايتها. قالت إنّها حينما كانت طفلة صغيرة، كانت أكثر بدانة مقارنة بما هي عليه الآن. كان والداها يملكان مطعماً، ولم يكونا يبخلان على العائلة بالطعام. في المساء، كان يجب إنهاء ما لا يستطيعان حفظه حتى صباح اليوم التالي. والمسألة كانت مجرّد مسألة اقتصادية. وإذ كانت السابعة من بين أربعة عشر طفلاً، كانت هي الأكثر بدانةً، وأضحوكة أخوتها وأخواتها.

كانوا يسمّونها «كمثرى بالكراميل». ولم تكن والدتها تفعل شيئاً لفكّ عقدتها. كانت تشتري لها مسبقاً ثياباً فضفاضة، وتقول مستسلمة للقدر: «تحسّباً للمستقبل».

ولكن هذه الثياب الفضفاضة والواسعة جدّاً لم تتّسع عليها أبداً لوقتٍ طويل، فسرعان ما كان جسمها يملأها وتضيق عليها الثياب.

في المدرسة أيضاً، كان الجميع يسخرون من «كمثرى بالكراميل» وكلّما كانوا يسخرون منها أكثر، كانت تجوع أكثر. ومع ذلك كانت تشعر بأنّها تتغذّى بشكلٍ طبيعي، مكتفيةً بالخبز مع المعكرونة، والزبدة مع خبزها، والصلصة البولونية مع زبدتها. ولكن حينما دهمها فجأةً القلق من أن تبقى قبيحة وبدينة إلى الأبد، لم يعد لديها الوقت حتى لتسخين الأطباق. كانت تلتهم طبقها من السباغيتي نيئاً، وتفتح بأقصى سرعة عُلب مخلل الملفوف أو الفاصولياء التي كانت تلتهمها في الحال.

كانت تصوّر جسمها مثل حاويةٍ واسعة لم تستطع قط أن تملأها إلى آخرها. في طورها الأكثر قلقاً، وصل بها الحال إلى أن تزن أكثر من مئة وثلاثين كيلوغراماً.

بالطبع، كانت قد شرعت لأكثر من مئة مرّة على الأقلّ في اتّباع نظام غذائي للتنحيف، ولكن حاجتها إلى تناول الطعام كانت أقوى من حاجتها إلى الاستمتاع بتنحيف نفسها.

تلت مرحلة «ابتلاع الطعام النيء» فترة من الاضطراب المرتبط بالطعام. كانت تأكل، وتأكل، ومن ثمّ ترغم نفسها على التقيّؤ لكي تُفرغ معدتها. وبالتزامن مع ذلك، اتّخمت بالمسهّلات. وإذ أدرك والداها أنّها تعرّض حياتها للخطر، حاولا أن يتفاهما معها ويُقمعاها، ولكن إذا كان الوزن غير الطبيعي لابنتهما يحبطهما، فقد كانا في غاية الإعجاب بعقلها الذي كان سريع البديهة جدّاً. لأنّ الطفلة ستيفانيا قد برهنت، منذ نعومة أظفارها، على ذكاءٍ متوقّدٍ حقيقي. كانت تُنجز سنتين دراسيتين في سنة واحدة، وتنال أفضل الدرجات في كلّ المواد، من الرياضيات إلى الفلسفة مروراً بالجغرافيا والتاريخ.

لقد تخلّى آل جيجيلي عن إسداء النصح لفتاة كان من الواضح أنّها أذكى منهم: «إذا كانت تتصرّف بهذه الطريقة، فهذا لأنّه لا بدّ أنّ لديها دوافع نحن لا نُدركها»، هكذا قال والدها متنهّداً، بعد أن باغتها وهي ترشّ سميد الكسكس النيء المُحلّى بالسكر بشراب الرمان.

كانت بدانة ستيفانيا حتماً تمنعها من التحرّك بحريّة في الفضاء. عند سنّ البلوغ، كانت حريصة على إغراء الجنس الآخر على الرغم من وزنها الزائد، ولذلك باشرت باكتساب منهج شهواني. حتى الآن كانت تمشي منفرجة الساقين على طريقة بطّة حتى تتأكّد من أنّها تقف بشكلٍ جيّدٍ على الأرض دون أن تسقطها كيلوغراماتها الزائدة. ولذلك كانت تُرغم نفسها على إبقاء ربلتي ساقيها بشكلٍ متوازٍ حتى تستطيع أن تنتعل أحذية عالية الكعب دون أن تخشى من فقدان توازنها أو كسر كعبيها. وبذلك حصلت على مشيةٍ آمنة.

بدأ الرجال ينظرون إليها بشهوانية. كان كلّ شيء يتوقّف على فن تحريك جسدها. بعد المشي، تعلّمت أن تجلس بكياسة، وأن تتمدّد بشكلٍ نصفي بشبقٍ على الأريكة، وأن تُبقي رقبتها مستقيمةً بدل أن يغوص رأسها بين كتفيها. لم تكن تقوم بأيّ حركة تافهة.

ولكي تسيطر بشكلٍ أفضل على حركاتها، امتلكت ستيفانيا هرّة صغيرة قلّدت بها كلّ الحركات. كانت قد أدركت أنّ تقنية جيّدة سوف تسمح لها بأن تتعامل على نحوٍ أفضل مع الخلل الموجود لديها.

لم تكن القطّة تعرف أن تتحرّك على نحوٍ مثيرٍ للإعجاب فقط، ولكن أن تتخّذ بطريقة طبيعية تماماً عند الاستراحة وضعيات في غاية الأناقة أيضاً.

كرّست ستيفانيا بعد ذلك نفسها لممارسة اليوغا والرياضات التي تتطلّب قوّة بدنية كبيرة مثل تسلّق الجبال. بكلّ تأكيد، كانت عظامها لا تزال تتحمّل مئة كيلوغرامٍ من الشحوم، ولكنّها كانت هي نفسها تغطّي عضلات قويّة وهيكل عظمي يتمتّع الآن بالكثير من الرشاقة.

تسلّق الجبال. كانت حالياً بصدد تسلّق الجبال.

لم تعد اليوغا كافية. ظهر بوذيّ تبتي في الوقت المناسب وعرفت أن تتّخذ منه صديقاً لها. لم يكن ذلك صعباً جدّاً. فالرجل كان يحبّ النساء البدينات. في العديد من بلدان العالم الثالث، يكون السِمان مرغوبين بسبب ثرائهم الذي يتيح لهم أن يتغذّوا بوفرة ويُعتبرون نصف آلهة. ولكن لكونه قد أُعجِبَ أيضاً بعقل ستيفانيا ويرى جيّداً أنّ شكل جسمها جعلها تعيسة، علّمها الروج التبتي أنّ الجسد ليس سجناً مغلقاً بإحكام وأنّه من السهولة الفرار منه. من خلال التأمّل، يمكن للمرء أن يغادر هذا «الغلاف» المؤقّت ويعود إليه برغبته.

علّم الفتاة بعض التقنيّات الخاصّة بالخروج من الجسد التي استوعبتها بطريقة أسهل بكثير مما اعتادت سابقاً أن تتحكّم بانضباطٍ جسدي كبير.

وأخيراً، تخلّصت ستيفانيا من شحومها! كان التأمّل قد أنقذها، من خلال سماحه لها بأن تخرج من جسدها.

ولتجنّب أيّ مظهر من مظاهر التشكيك من جهتنا، أعلنت أنّها غير مهتمة بمعَرفة ما إذا كنّا نصدّقها أم لا. ولكن أكّدنا لها سريعاً أنّ كلّ ما يهمّنا بالفعل هو على نحوٍ خاصّ أن نفهم كيف كانت تتصرّف.

مع ضحكةٍ مجلجلة، وافقت على أن توضّح لنا الأمر.

في الوقت الذي كان سكان شبه الجزيرة يستمتعون بشكلٍ عامّ بالقيلولة،

كانت ستيفانيا تجلس في وضعية اليوغا وتركّز على تحليقها. فكانت هبّة قويّة تجتاح غرفتها، وتقتلع إكتوبلازمها وتحمله إلى الخارج. كان يخرج عموماً من النافذة، وعلى نحوٍ أقلّ من السطح، ولم يكن يخرج من الباب قط.

شرحت لنا:

- كانت الأبواب مخصّصة لدخول وخروج الأجسام الفيزيائية. لا ينبغي الخلط بين كلّ شيء.

في البداية، عانت من بعض المخاوف. ولكن حالما تجتاز النافذة، كانت في الواقع تدخل في اتّصالٍ مع كلّ أنواع الأرواح، التي كانت هي الأخرى تحلّق. والحال أنّه كانت هناك أرواحٌ خيّرة وأخرى شرّيرة. وكانت تهتمّ بالتمييز بينها.

- في العموم، تحلّق الأرواح الشريرة منخفضة بحيث تكاد تلامس الأرض، ولكن إن لم تنجحوا في البقاء على ما يكفي من الارتفاع فوق الأسطح، يمكن لهذه الأرواح أن تصبح مصدر تهديدٍ وتهاجمكم. ما إن يصبح المرء على علوٍّ منخفض، عليه حينئذٍ أن يعود بسرعة كبيرة إلى جسده لكي ينجو من خطر الأرواح الشريرة.

ماذا كانت بالضبط هذه الأرواح الشريرة؟

قالت ستيفانيا إنّها غير قادرة على تحديدها. كان يجب الأخذ بكلامها. ومع ذلك، بفضل التأمّل، كانت تثبتُ أنّها مؤهّلة لأن تطوف كلّ الكوكب بسرعةٍ مذهلة.

حسناً، كانت روحها قد أصبحت خفيفة ولكنّ جسدها ظلّ بنفس الثقل. كانت تهرب من مشكلتها، ولم تكن تواجهها. ومع ذلك كانت مرغمة على ذلك بفعل يومٍ مرعبٍ من شهر فبراير / شباط. حينما كانت تلميذة داخلية، وجدت نفسها، في المدرسة الثانوية، محصورة في قاع حوض استحمامٍ بفقاعة هوائية كانت تحبس كتلها الدهنية. وقد صارعت مثل سلحفاةٍ مقلوبةٍ على ظهرها.

تشجّعت زميلاتها في المدرسة الداخلية بمضايقات أستاذها، فاستفدن من عجزها لكي يُلقوا عليها بكلّ أنواع القاذورات بعدما تعبنّ وتركنّها

لمصيرها، وهي ترتعش في الماء الذي بات الآن بارداً جدّاً، لم ينفعها تقدّمها في التأمّل في أيّ شيء. كانت قد قاومت عبثاً، فقد كان جسدها سجين قوقعةٍ من الصفيح وكانت روحها مذعورة للغاية بحيث لا تستطيع النهوض.

أنقذتها عاملة نظافة بعد ذلك بعدّة ساعات. بمساعدة العديد من زميلاتها، استخدمت المكانس كعتلات لانتزاع ستيفانيا من حوض الاستحمام خاصتها.

وقد ظلّت هذه الإهانة تطبع حياتها إلى الأبد. لقد قرّرت ستيفانيا أن تنتقم لنفسها، وبفضل سلاحها السرّي: بفضل إكتوبلازمها!

إذا كان الإيكتوبلازم يعبر الجدران، فبوسعه أيضاً أن يعبر الأجساد! فكانت، كلّ مساء، تشرع بالمطاردة، عاقدة العزم على ضرب كلّ اللواتي قمن بإغاظتها. وقد استغلت نومهنّ لكي تنقضّ على ضحاياها، مبتدئةً بأصابع أرجلهنّ وصولاً إلى جماجمهنّ. وكانت تستيقظ فريسةً لآلام صداعٍ نصفيٍّ فظيعة، بعد أن تكون قد عانت من كوابيس رهيبة.

وقد احتفظت بأفضل ما عندها من أجل النهاية. هجمت على معلّمتها في الجمباز، الشخصية الوحيدة البالغة التي كانت حاضرة أثناء محنتها، والتي انضمّت إلى معذّباتها بدل أن تطردهنّ. دخلت ستيفانيا إلى أعمق أعماق قلبها، محدثةً فيه اضطرابات في النبض. في بعض اللحظات، كانت العضلة القلبية تنبض بسرعة كبيرة، وفي لحظاتٍ أخرى، كانت تكاد تتوقّف عن النبض.

استيقظت المرأة غارقة في العرق، وأجرت عبثاً بعض التمارين التي كانت تعرفها خاصّة بتهدئة خفقان القلب. وإذ أدركت أنّ ظاهرةً غريبةً تتولّد في داخلها، جثت بحيويّةٍ على ركبتيها وصلّت بحماسةٍ لكي تتحرّر من الشبح الذي كان قد استحوذ عليها.

انصرفت ستيفانيا قبل أن تردي أزمة قلبية المرأة البائسة قتيلةً. ومع ذلك، كانت تعود بانتظام لكي تضايقها.

ثملت بالقوة التي منحها التحكّم بإكتوبلازمها، واستخدمتها لتحقيق انتقامها، وبالتالي من أجل الشرّ، ويُسمّى هذا، في الكثير من الأديان، بالسحر الأسود.

وقد تباهت أمام صديقها التبتي الذي توسّل إليها لكي تتخلّى عن ذلك.

قال لها إنّ السحر الأسود ينتهي دائماً بالانقضاض عليك والسيطرة عليك إلى درجة أنّكِ لا تعودين تستطيعين التحكّم به.

كان يجب على ستيفانيا أن تتخلّى نهائياً عن الانتقام. الانتقام من أعدائها، والانتقام أيضاً من جسدها.

لكنّها ثابرت على ممارساتها، وكانت جميع زميلاتها في الصفّ تحت تأثير الأسبيرين. تعرّضت معلّمة الجمباز للإجهاض. وغدت نظرة عيني ستيفانيا أكثر سواداً يوماً بعد آخر! ولم يعد يجرؤ أحدٌ على أن ينظر إليها وجهاً لوجه. وعلى نحوٍ مبهم، شعر الجميع أنّها سبب حوادث غامضة. فيما مضى، اتّهِمَت بممارسة السحر. في غمرة القرن الحادي والعشرين، كان من شأن زعم كهذا أن يجعل القائلين به مضحكين.

قدّمت لها بعض الفتيات الاعتذار، فرفضته ستيفانيا بهزّة من كتفيها. واستمرّت في الضرب. من خلال مهاجمتها للأجهزة الهضمية، تسبّبت بالقرحة لمعدات الفتيات المكروهات.

وكملاذٍ أخير، وإذ أدرك أنّ ستيفانيا تجازف بالسقوط بشكلٍ نهائي من جهة «الغضب الكبير»، أسرّ لها صديقها البوذي التبتي بسرّ التناسخ. كان دينه يؤكّد أنّ كلّ شخصٍ، في حيواته المستقبلية، سيُحاسب على أفعاله الحسنة والسيئة التي قام بها خلال حياته الحالية. على كلّ حياةٍ أن تُفيد في تعليمنا شيئاً ما. الحبّ. العاطفة. الفن. هذا هو ما ينبغي على المرء أن يكرّس طاقته لأجله، أن يكرّسها من أجل التحسّن لا التدمير. إنّ التهجّم على الآخرين هو بالفعل منحهم الكثير من الأهمية!

سدّت ستيفانيا أذنيها، فوقع حدثٌ صدمها وأرغمها على الإصغاء. هاجمت زميلاتها في الصف معاً عاملة التنظيف التي أنقذتها. كنّ يعرفن أنّها كانت صديقة «الكمثرى بالكراميل» الوحيدة. بالتأكيد، لم يردن من ذلك سوى دفعها قليلاً، ولكنّ قفا رأس سيئة الحظ اصطدم بزاوية جدار، وأُصيبت بكسرٍ في الرقبة. وماتت على الفور.

قال صديقها البوذي التبتي:

- لقد ماتت وتيتّم أطفالها بسبب خطأكِ. لقد أفسدتِ كارماكِ[1]. إذا لم تعقدي العزم في الحال على التخلّي عن انتقامكِ، سوف تدفعين ثمنه ألف مرّة!

وعند هذا التحذير الأخير، غادرها مستاءً. أدركت ستيفانيا، فزعةً، أنّ الوقت قد حان لتغسل روحها من كلّ العتمة العالقة بها. بعد هذه الشراهة المرضية، أُصيبت بفقدان الشهية. كانت لا تزال تكره جسدها، حتى هذه اللحظة التي تذوب فيها تحت تأثير الجوع.

ولاستعادة سلامها الداخلي، قرّرت ستيفانيا أن تحقّق المزيد من التقدّم في الحكمة البوذية التبتية. استقبلها أحد أديرة اللاماوات البوذية في مدينة بادوفا. كانت تأمل أنّ صديقها سوف يظهر من جديد، ما إن تستعيد صفاءها الذهني. ولكنها لم تره قط، وأصبحت بدينة من جديد.

تزوّجت لكي تُرضي عائلتها وتُنجز مهمّتها كامرأة إيطالية. ولكنّها ما لم تعد قط امرأةً مثل جميع النساء. كانت قد تقدّمت كثيراً على درب التأمّل.

وقد مرّت سنواتٌ كثيرة قبل أن تسمع بهؤلاء الفرنسيين الذين اخترعوا الثاناتونوتية. فأرادت هي أيضاً أن تنطلق في اكتشاف قارة الموتى. لا لشيء سوى أن تلتقي مرّة أخرى بعاملة النظافة التي كانت قد أنقذتها.

كان أصدقاؤها من اللاما البوذيين التبتيين يعرفون حكايتها، ويعلمون كم كرّست نفسها في البداية للشرّ لكي تعود نحو الخير. أطعموها أطباق اللازانيا والبولانتا لكي يمنحوها الطاقة الكافية للرحلة.

وبهذه الطريقة، اجتازت موخ 1!

نظرنا إليها بإعجابٍ. نظرت إلينا بالتناوب، ثمّ قالت:

- لقد رأيتُ كارماواتكم. بالنسبة إليّ، أنتم جميعاً كتب مفتوحة. أنت يا راؤول، أنت محارب. أنت تجد نفسك في منتصف دورة التناسخ خاصّتك. وأنت غاضب لأنّك شرعت، في حياتك السابقة، بأمرٍ ما لم تحظَ بالوقت الكافي لإنجازه. ومن هنا يأتي نفاد صبرك وإلحاحك على النجاح في هذه الحياة.

1- كارما: أو قَدَر، وهي عقيدة أساسية في الديانات الهندية تقول إنّ كل عمل أو تصرّف يصدر عن الإنسان مقدّر له. المترجم

أقرّ راؤول بذلك:

- أنتِ على حقّ. ولكن هناك أمراً ما في هذه الحياة عليّ أن أحسمه.

أعلنت ستيفانيا جازمةً أنني كنتُ روحاً شابّة ونقيّة، وغير قادرٍ على فعل الشرّ لأنني لم أكن أرى فيه أيّ فائدة. لم أكن إلّا في بداية حلقتي للتناسخ وبالتالي على حافة الجهل.

وأشارت:

- أنت ذكيٌّ بما فيه الكفاية لكي تُدرك ذلك. وهذا ليس بالشيء القليل. ولذلك لقد اخترتَ طريق المعرفة وهذا هو الطريق الصحيح.

أجبتُ، وقد انزعجتُ من أن تُلخّص شخصيتي بهذه الطريقة في ثلاث جملٍ في تعميمها.

- هذا ممكن.

- أمّا أنتِ، فما يهمّك قبل كلّ شيء هو ممارسة الحبّ، أليس كذلك؟

احمرّت آماندين حتى أذنيها خجلاً حينما سمعت هذه الجملة.

سألت:

- وماذا في ذلك؟ وفي ماذا يهمّكِ ذلك؟

هدّأتها ستيفانيا، قائلةً:

- أنا أعرف. هذا الأمر لا يعني أحداً سواكِ. ولكنكِ، كما ترين، أنتِ تمنحين الآخرين الكثير الكثير. أنتِ تتصوّرين أنّكِ لا تستطيعين تحقيق ذاتكِ بالكامل إلا من خلال الحب الجسدي. ويا له من خطأ! إنّ الطاقة الجنسية هي أقوى الطاقات. وفي حال لم تستخدميها سوى في رعشة الجماع، فسوف تستنفدينها عبثاً. عليكِ أن تتعلّمي كيف تُديرين هذا الرأسمال وتُوجّهين هذه الطاقة.

122. كتاب التاريخ المدرسي

كان المستكشفون أناساً أشدّاء بدمٍ بارد ونظرة ثابتة. كانوا يعلمون تماماً إلى أين يذهبون. «في خطٍّ مستقيم، دائماً في خطٍّ مستقيم نحو المجهول»، كان هذا شعارهم، المحفور على ميدالية يحملها جميعهم في رقابهم.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

123. تعليم اليوغا

كيف يتعلّم المرء التأمّل:

- من خلال فرض الانضباط على جسده من خلال تمرينه على البقاء ساكناً بلا حراك؛
- من خلال ضبط تنفّسه؛
- من خلال ضبط عقله.

يكفي أن ينعزل المرء في غرفة، وأن يتّخذ وضعية مريحة وأن يركّز تفكيره على نقطة تقع بين الحاجبين.

وحينها تزول كلّ الأفكار المشوّشة، ويصبح ذهنكَ شاغراً وفي حالة إصغاءٍ إلى العالم المحيط. يمكنك أن تصنع الفارق بين ما أنت عليه وبين ما هو منتمٍ إلى العالم. لن يعود على «ذاتك» سوى أن تفرّ من جسدك لتزور الكون.

تقنية التأمّل لراجاز يوغا.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

124. ستيفانيا مرّة أخرى

هكذا كانت ستيفانيا.

طيلة فترة تأمّلها، ظلّ راؤول ملتزماً السكوت، يأسره فقط حضورها. للمرّة الأولى، رأيتُ صديقي مغرماً. وبدا أنّ السحر يفعل فعله في الطرفين. كانت نظراتهما تلتقي وتبتعد بعضها عن بعض مثل زوجٍ من اليمام عند حلول فصل الربيع. وبالمقابل، لم تكن يدا راؤول تظهرانِ، وهما تغوصان جيّداً في جيبي سرواله.

كان من الواضح أنّ آماندين لم تكن تقاسمنا افتناننا بالفتاة الإيطالية. لم تحبّ تلميحاتها إلى نشاطها الجنسي. لم يكن من حقّ فتاةٍ مجهولة أن ترمي في وجهكِ هكذا ملاحظة وأيضاً بحضور آخرين. في عينيها الضيّقتين، التهم الأوقيانوس الأزرق البحري اللجج السوداء.

علاوة على ذلك، كانت آماندين على الدوام الممثلة الوحيدة للجنس

اللطيف في مجموعتنا. وكانت قد اعتادت على هذا الحضور الحصري. وأصبحت ستيفانيا تمثّل الآن منافسة أكثر خطراً بكثير منها، إذ كانت قد تجاوزت أوّل جدارٍ للموت. وها هو علاوة على ذلك، يستسلم راؤول، راؤول البارد، لإغرائها!

غادرنا، متخمين بالطعام، المطعم التايلاندي لصاحبه السيّد لامبيرت لكي نذهب إلى شقّتنا العلوية التي كنّا نرتاح فيها أكثر في أحاديثنا. طلبتُ من ستيفانيا أن تعرض لنا كيف تتصرّف لكي تأخذ وضعية التأمّل.

جلست القرفصاء، وعمودها الفقري مستقيم تماماً. أغمضَت عينيها، وخلال عشر دقائق، ظلّت في مكانها بنفس الوضعية، ساكنة بلا أدنى حركة. وأخيراً فتحت أجفانها.

قهقهت قائلةً:

– هذا هو! لقد قطعتُ التدفق الصاخب لأفكاري، وتركتُ نفسي لأتنفّس من خلال عمودٍ من فراغ. ولم يعد عليّ سوى أن أدع نفسي أرتفع لكي أنطلق من النافذة.

– بماذا شعرتِ؟

– هذا أمرٌ لا يُحدّد، هذا أمرٌ يُشعَرُ به. هذا السؤال كما لو أنّكم تسألونني ما هو طعم الملح. سوف أشعر بالحرج كثيراً إذا ما شرحتُ ذلك لشخصٍ لا يعرف سوى طعم السكّر. ما هي الكلمات التي سأستخدمها لتحديد ذلك؟ لا بدّ للمرء من أن يتذوّق الملح حتى يعرف ما هو مذاقه. لا بدّ للمرء أن يتأمّل حتى يعرف ما هو التأمّل.

كان الجواب على أقلّ تقدير غامضاً.

ألححتُ عليها بالسؤال:

– ولكن من الناحية العملية؟

– لقد رأيتموني وأنا أمارس التأمّل. لقد اتّخذتُ وضعيةً وحافظت عليها. وركّزتُ على صورةٍ ولا شيء آخر سواها. يمكنكم أن تبدأوا من خلال تدريب أنفسكم على التفكير فقط في لهب شمعةٍ. سوف يتراقص خلف أجفانكم المغمضة إلى أن تنفخوا عليها لكي تُطفئوها وتُغادروا.

– ونذهب إلى أين؟

- إلى السماء. إلى قارة الموتى. والمشكلة تكمن بالطبع في تقبّل فكرة الموت. سوف تتردّدون في ترك عائلتكم، وأطفالكم، وأصدقائكم. وسوف تعتقدون أنّه لا غنى عنكم بالنسبة إليهم، ويا له من خطأ، ويا لها من غطرسة! إنّ حالة ذهنية كهذه تجعل المرء غير ملائمٍ للتأمّل، بما أنّ التأمّل هو القيام بخطوةٍ نحو الموت. يجب القبول بالموت بطريقة طبيعية طالما أنّ الموت ربّما هو الأكثر أهمية في الحياة.

تلألأت عينا راؤول. قالت آماندين وهي عابسة ومتجهّمة:

- لم أفهم كلمة واحدة ممّا قلتِ.

- في الواقع، سيكون من الأفضل أن أعرض لكِ كيف تعلّمنا، نحن البوذيين التبتيين، أن نموت. بالنسبة إلينا، ومنذ آلاف السنين، الموت علمٌ وليس قدراً. سوف أصحبكِ غداً إلى المعبد التبتي في باريس لحضور جلسة من الممارسات العملية. لحسن الحظّ، لدينا في كلّ مكانٍ تقريباً فرعنا المحلّي!

125. فلسفة مسيحية

«مثلما تستحق الروح الواقعة تحت عبودية الجسد أن تُدعى روحاً جسدية، كذلك يستحقّ الجسد بحقّ أن يُقال عنه إنّه جسدٌ روحيّ حينما يخضع تماماً للروح».

جيروم،
تعليقٌ على أشعيا.
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

126. ستيفانيا مرّة أخرى

أمضينا ليلة جنائزية في معبد باريس التبتي، بين أبخرة بخورٍ حلزونية متصاعدة، وتماثيل ضخمة لأشخاصٍ بُدْنٍ ذوي نظرة ماكرة تراقبنا، ستيفانيا، وراؤول، وآماندين، وأنا. أدركتُ كيف أغرت هذه العقيدة زميلتنا الإيطالية: كانت الديانة البوذية تكرّس عبادة أشخاصٍ ضخامٍ ضاحكين.

علمتُ فيما بعد أنني كنتُ قد استسلمتُ لهذا التفسير بسذاجةٍ مفرطة. ففي الواقع، كانت تماثيلُ بوذا هذه تماثيلُ بوذا صينية وليست تماثيلُ بوذا تبتية. تماثيلُ بوذا التبتية أكثر نحافةً بكثير وأكثر جدّية. ربّما كان هذا خطأً من وزارة الشؤون الدينية، ولكن، وبما أنّ التبتيين لم يكونوا في بلدهم، لم يتجرّأوا على الاعتراض واعتادوا تدريجيّاً على العيش بين تماثيل بوذا الصينية. تماثيل بوذا المرعبة الخاصّة بمحتليهم. الخاصّة بمضطهديهم. الخاصّة بأولئك الذين دمّروا شعبهم.

ألقى رجالٌ صلعان ذو جماجم خشنة كما لو أنّها حُكّت بورق زجاج علينا التحية دون أن يعرفونا. كانوا متنكّرين في عباءات مصبوغة بالأصفر ويدوّرون أسطوانات من الخشب المحفور. كانوا يرنّمون بنصوصٍ لم أفهم معناها.

ثمّ كانوا يتجمّعون حول شخصٍ ممدّد. اقترحت ستيفانيا علينا أن ننضمّ إليهم. باشر لاما في إلقاء قصيدة شعرية ترجمتها لنا الفتاة الإيطالية، التي تتقن عدّة لغات، ترجمة فورية.

«أيّها الابن، يا ابننا، ما يُسمّى الموت قد وصل الآن! ستغادر هذا العالم ولكنك لستَ وحيداً في هذه الحالة، الموت يأتي للجميع.

لا تبقَ متعلّقاً بهذه الحياة برابط الضعف.

وحتى لو بقيت متعلقاً بها، بدافع الضعف، لن تحظى بالقدرة على البقاء في هذا العالم. لن تحصل على أيّ شيء آخر سوى التشرّد في سامسارا[1]. فلا تكن مرتبطاً بها، ولا تُظهر نفسكَ ضعيفاً. تذكّر الثالوث القيّم.

أيّها الابن النبيل! بعض الذعر أو الرعب الذي قد ينقضّ عليك في شونييد باردو [هل هي المنطقة التي تقع بعد موخ 1 التي تهاجمكم فيها فقاعات الذكريات؟]، المكان الذي سوف تلتقي فيه بالواقع، لا تنسَ هذه الكلمات واحفظ معناها في قلبك: امضِ قُدماً. فيهم، يوجد السرّ الحيوي للمعرفة.

واحسرتاه، حينما ستضغط عليّ تجربة الواقع، كلّ فكرة خوف، أو فكرة

1- سامسارا: مصطلح باللغة السنسكريتية يشير في البوذية إلى مفهوم دورة الميلاد، ويترتّب على ذلك الانحلال والموت. المترجم

ذعر، أو فكرة الخشية من المظاهر المرفوضة، ليكن بمقدوري أن أتقبّل أنّ كلّ ظهورٍ ليس سوى انعكاسٍ لوعيي الخاص، ليكن بمقدوري أن أتعرّف عليها كونها أشباح باردو[1].

في اللحظة الأكثر جوهريةً لتحقيق غاية عظيمة، هدفٍ، ليكن بمقدوري ألّا أخشى فُرق الآلهة الهادئة والهائجة التي تشكّل أفكاري الخاصّة.

أيّها الابن النبيل! إذا لم تعترف بأفكارك الخاصّة، على الرغم من التأمّل والتعبّد اللذين انخرطت فيهما في هذا العالم، لو لم تفهم هذا التعليم الحالي، سوف تستعبدك البوارق، وتُخيفكَ الأصوات، وتُرعبك الإشعاعات.

إذا جهلت هذا المفتاح المطلق لكلّ التعاليم، وكنتَ عاجزاً عن التعرّف على الأصوات والأنوار والإشعاعات، سوف تتوه في سامسارا!»

كانت كلمات اللاما تُقدّم تفسيراً تامّاً لما كان قد حدث للمستكشفين جان بريسون وستيفانيا، بعد تجاوز جدار الغيبوبة الأوّل. فقد سقط الأوّل في شونييد باردو، بينما كانت الثانية قد تعلّمت الإفلات منه.

اقترب كاهنٌ من المُحتَضر وأخذ يلمسه بلمسات غريبة.

أوضحت لنا ستيفانيا:

– لقد ضغط على شريانيه السباتي والوداجي حتى توقّفا عن النبض وحصل الرقاد. حينما انسحب التنفّس من القناة المركزية لدوران الدم، ولم يعد يستطيع أن يسلك الأقنية الجانبية، يضطرّ لأن يرتفع ويخرج من خلال فتحة براهما.

صرختُ مذعوراً:

– من الواضح أنّ هذا الرجل على وشك أن يُقتَل تحت أنظارنا!

عِبست آماندين باشمئزاز.

1- باردو: في بعض المدارس البوذية، يعتبر باردو حالة متوسطة أو انتقالية أو حدية بين الموت والولادة الجديدة. إنّه مفهوم نشأ بعد وفاة بوذا بفترة وجيزة، حيث قبلت عدد من الجماعات البوذية السابقة وجود مثل هذه الحالة المتوسطة، بينما رفضتها مدارس أخرى. المترجم

نظرت إليّ ستيفانيا بلطف. فكّرت على حين غرّة أنني أنا أيضاً كنتُ قد تصرّفتُ مثل هذا اللاما. باسم الثاناتونوتية، كنتُ قد قتلتُ أناساً لكي أرسلهم إلى قارة الموتى. وقد التزمتُ السكوت بسبب مئة وثلاثة وعشرين فأر تجارب من البشر ماتوا تحت إشرافي.

سأل راؤول:

– ما هي فتحة براهما؟

تابعت مرشدتنا:

– فتحة براهما هو الباب الذي تخرج منه الروح من جسدنا. في الواقع، هي نقطة تقع في قمّة الجمجمة، على بعد ثماني أصابع من جذر الشعر.

دوّن راؤول مكان «فتحة براهما» في مفكّرته الصغيرة. إجمالاً، كان الأمر يتعلّق بميناء مغادرة إلى القارة الأخيرة.

أمام المحتضر، ذكر اللاما باردو الأوّل، العالم الأوّل للموت الذي سوف يصل إليه عمّا قريب. وقد وصفه له على أنّه «عالم الحقيقة في ذاتها».

وشوشت لنا ستيفانيا:

– في هذه اللحظة، يندفع النفس في القناة المركزية، في الفاصلة الواقعة بين توقّف التنفّس الخارجي وإيقاف التيار الداخلي. لم يعد هناك أيّ وعي في هذا الجسد. وكلّما كان الفرد سليماً، طالت هذه المدّة. ويمكن للإغماء أن يستغرق ثلاثة أيام ونصف عند إنسانٍ في صحّة جيّدة. ولهذا السبب نحن لا ندفن ولا نشرّح أيّ جثّة قبل مرور أربعة أيام على وفاة صاحبها. في مقابل ذلك، إذا كان الميّت غارقاً في الخطايا وهذه القنوات المخفية غير طاهرة، فإنّ المدّة لا تستغرق سوى ثانية واحدة.

سألتُ:

– في ماذا تُفيد هذه الأيام الأربعة؟

– في التعرّف تدريجياً على الضوء.

كانت البوذية التبتية قد أجابت على نحوٍ حاسمٍ على كلّ شيء. من جهتي، تذكّرتُ بفزع قصص الناس الذين كانوا يستيقظون، محبوسين في

توابيتهم الغائصة عميقاً تحت الأرض. كانوا قد دُفنوا باكراً جدّاً! كان بعضهم يدقّون طويلاً على جدران التابوت، يائسين، قبل أن يقضوا فعلياً بسبب انعدام الهواء. بينما كان لبعضهم الآخر الحظّ في أن يسمع أحد المارّة أو حارسٌ نداءاتهم فكانوا يُعتبَرون من المعجزات. بل إنّ بعضهم طالبوا بأن يُدفَنوا مع جرسٍ لكي يشير حسب الاقتضاء إلى يقظتهم. وماذا لو استيقظ أحدهم في قلب فرنٍ لمحرقة؟ كان بالفعل من الأفضل الانتظار أربعة أيام...

في السابق، كان هناك سوء في التمييز بين الموت والغيبوبة العميقة. ولذلك كان هناك الكثير من الأشخاص الذين دُفنوا وهم أحياء. واليوم؟ كنتُ في وضعٍ يسمح لي بأن أعرف أنّه لا تزال هناك شكوكٌ في بعض الأحيان. توقّف القلب، توقّف الدماغ، توقّف الحواس، ما هو الدليل الحقيقي للحسم التامّ في أمر الموت؟

لدى الخروج من المعبد التبتي، ذهبنا نتنزّه في مقبرة بير لاشيز لكي نرتاح. كان راؤول وستيفانيا يمشيان في الأمام وهما يمزحان. وكنّا، آماندين وأنا، نسير خلفهما.

كانت زميلتي الشقراء الجميلة تثرثر:

- هذه الطريقة في إغواء راؤول، بذيئة! وعلاوة على ذلك، امرأة متزوّجة! لا أعلم ما الذي يفعله زوجها هناك في إيطاليا، ولكن كان من الأولى به أن يراقب زوجته.

لم يسبق لي أن رأيتُ آماندين على هذه الدرجة من السخط والاستياء. هكذا كانت الحال، بالنسبة إليها، كان غزو العالم الآخر قد فقد فجأةً كلّ أهميته، كما لو أنّه لم يعد هناك ما هو مهمّ سوى غيرتها فقط!

كانت قد خرجت مع فيليكس. وكانت قد خرجت مع جان. أمّا الآن، فكانت ترغب في راؤول، وقد أسرّت لي بذلك بفظاظة، أسرّت بذلك لي أنا الذيَ لم أكن أحلم بغيرها وهي لم تكن تراني!

ومع ذلك، كان حبّي قويّاً جدّاً بحيث أرغمتُ نفسي على طمأنتها. قلتُ لها:

- لا تقلقي. راؤول صاحب عقلٍ راجح.

- هل تعتقد أنّه يشعر بشيءٍ ما حيالي، أم أنّه لا يعتبرني سوى مجرّد مساعدة له؟

لماذا يجب أنّ تختارني النساء دائماً ككاتم أسرارهنّ؟ والأنكى من ذلك، النساء اللواتي أرغب فيهنّ! بكلّ التأكيد، لفظتُ الجملة الأسوأ:

- أعتقد أنّ راؤول في قرارة نفسه ... يحبّكِ.

لا بدّ أن يكون المرء غبيّاً مثلي لكي يتفوّه بحماقات كهذه.

استعادت في الحال بهجتها.

قالت لي وقد بدا الفرح على محيّاها:

- هل تعتقد ذلك حقّاً؟

أوغلتُ في حماقتي أكثر. ففي النقطة التي وصلتُ إليها، كان من الصعب القيام بما هو أسوأ. ومع ذلك، نجحتُ في ذلك.

- بل أنا مقتنعٌ بذلك. ولكن .... هو لا يجرؤ على أن يعترف لك بذلك.

127. إعلان

«تكون الحياة في بعض الأحيان عبارة عن وادٍ من الدموع، ولكنني أحبّها. البارحة أيضاً، لم أجد سوى فواتير في علبة رسائلي. لم يكن هناك أيّ برنامج مهمّ في التلفاز. كانت زوجتي تسعى طوال الوقت إلى التشاجر معي. كان موظّفون متعاقدون قد وضعوا على سيّارتي إيصال مخالفة، وكان مخرّبٌ قد حزّ فيها خطوطاً بمفاتيحه. كدتُ أُصاب بنوبة عصبية، ثمّ تجاوزت ذلك، لأنّ الحياة ليست سوى هذا التراكم للشرور. الحياة هي لذّة استنشاق هواء خفيف، واكتشاف مناظر في منتهى التنوّع، واللقاء مع كلّ أنواع البشر الطيبين والأذكياء. ولذلك، حسبتُ حساب الأشياء. ومع ذلك، الحياة منتوجٌ عالي الجودة. بالنسبة إليّ، كنتُ آخذ منها كلّ صباح، وأطلب منها كلّ مساء. افعلوا مثلي! أحبّوا الحياة، سوف تُبادلكم الحياة ذلك!»

هذه كانت رسالة من الوكالة الوطنية لتنمية الحياة، ANPV.

128. حكاية القلب

كنتُ أذوب حزناً وغمّاً في شقّتي ضمن محطّة إطلاق المستكشفين في بوت شومو، وحيداً كما كنتُ في شقّتي الصغيرة السابقة.

عادت ستيفانيا بصورة مؤقّتة إلى شبه الجزيرة. استفدنا، آماندين، وراؤول، وأنا، من غيابها لكي نتفحّص أجهزتنا ونتيح لها، عند عودتها، أفضل الانطلاقات الممكنة.

كانت وجبات الطعام المشتركة قد أصبحت عبئاً ثقيلاً علينا. وكانت آماندين تندسّ بانتظام وتلتصق براؤول وتحدّق فيه بشراهةٍ تفوق شراهتها حيال طبقها من الطعام. بكلّ تأكيد، كان راؤول لا يزال تحت سحر المستكشفة الإيطالية ولكن، يوماً بعد آخر، كانت ملاطفات آماندين الإغرائية تؤتي ثمارها.

وسط قلقي الشديد وارتباكي، كانا يحرصان أشدّ الحرص على أن يُطلعاني باستمرار على تطوّر مشاعرهما بعضهما حيال بعض. كنتُ أختنق في دوري كرجل محلّ ثقة وبيت أسرار، ويستبدّ بي الإحباط والمرارة.

قال لي راؤول:

– كما ترى، أجد أنّ آماندين بدأت ترتدي ثياباً أكثر أناقة.

– إنّها ترتدي دائماً ثياباً سوداء ...

لم يكن يُصغي إليّ.

– تزداد جمالاً أكثر فأكثر، أليس كذلك؟

أجبته بنبرة حزينة:

– لقد وجدتُها على الدوام رائعة.

في المساء نفسه، علمتُ أنّهما كانا يتناولان العشاء بمفرديهما. ولم يعودا للنومِ في محطّة الإطلاق. فبقيتُ وحيداً في المحطّة، وحيداً تماماً في المبنى الكبير.

جلستُ على كرسي التحليق، ومن هناك، في ملتقى كلّ طاقات محطّة الإطلاق، حاولت أن أضع موضع التنفيذ كلّ نصائح ستيفانيا. أردتُ أن أنجح في تخاطرٍ ذهنيٍّ لكي أغادر جلدي كرجلٍ مسكينٍ وبائس.

أغمضتُ عينيّ، وجهدتُ لكي أخلق الفراغ في داخلي، وأنا بالكاد أغمض أجفاني، ظهر لي وجه آماندين النضر كما لو أنّه يُعرَضُ على شاشة بانورامية. كانت على جمالٍ ملائكي، وكانت تنظر إليّ برأفةٍ وشعرها الأشقر يُخفي شفتيها الممتلئتين.

ما فائدة أن أكون مشهوراً ومُحترَماً إن لم أكن قادراً حتى على الظفر بالمرأة التي أرغب فيها؟ كنتُ غاضباً جدّاً. كان الاعتقاد أنّ آماندي تنام بسهولة مع أحدٍ غيري أنا الذي كنتُ أحبّها فكرة غبيّة. فتحتُ عينيّ من جديد. تخيّلتهما يُمارسان الجنس في فندقٍ ... «لعدم مضايقة هذا المسكين مايكل» ... أفرجتُ عن ضحكة خفيفة غاضبة. «اللعنة على الثاناتونوتية!» مثلما كان فيليكس يقول. يا لها من خسارة أن تغادر ستيفانيا، كانت هي وحدها تستطيع أن تمنع تشكّل هذا الزوجي، في حين أنني ... في الواقع، لم أفعل سوى مساعدتهما على ارتكاب ما هو أسوأ.

لا بدّ أنني كنتُ فاقداً للوعي حتى أساعد صديقي المقرّب في الخروج مع امرأة كلّ رغباتي!

كلّا، كنتُ أعلم أنّ هذا سوف يحدث، في كلّ الأحوال، ولذلك قلتُ في نفسي إنّه كلّما حصل هذا في وقت أبكر، استقررتُ بشكلٍ أسرع.

من هناك حيثُ كنت، في كرسي الإقلاع، كنتُ أرى المشنقة التي تتدلّى منها قوارير المواد الخليطة الخاصّة بإحداث الغيبوبة. فما الجدوى من الحياة؟ وماذا لو أنني حاولتُ أنا أيضاً عبور جدار الغيبوبة الثاني؟ ففي نهاية المطاف، لم يكن هناك في حياتي الماضية ما هو على أهمية كبيرة لأخشى عليه. في أسوأ الأحوال، سوف ألتقي مع فيليكس. بدأتُ بلفّ كمّ قميصي إلى الأعلى. وفي لحظةٍ، قلتُ في نفسي إنّني على وشك أن أنتحر بالحبّ، مثل مراهقٍ مبتذلٍ تغطّي وجهه البثور...

كانت خطوتي تلك حماقة بالغة.

غرزتُ الإبرة في الوريد الضخم لمعصمي الذي كان ينبض كما لو أنّه يحاول تجنّب هذا الاختبار.

«خذ، خذ هذه الإبرة، يا وريدي الضخم، فهذا سوف يعلّمك ألا تضخّ

ما يكفي من الدم إلى دماغي لكي يجد الكلمات التي لا بدّ أنّها تستطيع أن تُغري آماندين».

أوصلتُ كلّ الأجهزة، وأمسكتُ بالكمثرى الصغيرة للقاطع الكهربائي.

كانت آماندين تُعجَب بمستكشفي الموت، وتنام مع مستكشفي الموت، وكانت تُريد أن تعرف ما هو الموت من خلال التقرّب من مستكشفي الموت، وبالتالي كان لا بدّ أن أكون مستكشفاً لكي أحظى بمزيدٍ من الاهتمام من عينيها.

لم أصدّق أنني كنتُ قد ساهمتُ قليلاً جدّاً في كلّ هذه المغامرة. على الأرجح أنني كنتُ مثل أولئك البحّارة الأسبان الذين كانوا يرون السفن تُغادر وتعود إلى أمريكا ولم يكونوا يغادرون قط بأنفسهم. ومع ذلك، لا يمكن للمرء أن يعرف شيئاً ما من خلال الإشاعات. بل عليه أن يقوم بنفسه بزيارة إلى الموقع.

كانت كمثرى القاطع الكهربائي دبقة قليلاً في راحة يدي لكثرة ما كانت مبلّلة بعرق القلق والخوف.

ما الذي كنتُ أُقدِمُ عليه؟

عادت كلمات الكاهن التبتي إلى مسامعي مثل أغنية للأطفال.

«يا بني، يا بني النبيل، ما يُسمى الموت قد وصل الآن!

سوف تغادر هذا العالم ولكنّك لست الوحيد في هذه الحالة، الموت يأتي للجميع.

لا تبق متعلقاً بهذه الحياة برابط الضعف».

لا تبق متعلقاً بهذه الحياة برابط الضعف ... كارماي ليست رهيبة بالفعل، خلال هذا الوجود. في حياتي القادمة، سوف أحاول أن أكون زير نساء سافراً، أخدع كلّ الفتيات. حياةٌ لأتعلّم فيها السيطرة على الحبّ، وأخرى للاستفادة منه.

أجل، سوف أموت خجولاً، وأحيا لعوباً مستهتراً.

نظرتُ مرّة أخرى إلى كمثرى القاطع الكهربائي. ابتلعتُ ريقي، وبدأتُ، من دون ثقة، بالعدّ العكسي الشعائري:

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد... انط...

أُنيرت القاعة.

صاح كونراد:

- إنّه هنا، يا ماما! ماذا تفعل في هذه الأريكة؟ لقد بحثنا عنك في كلّ مكان.

قالت أمّي:

- دع أخاك وشأنه. إنّه بكلّ تأكيد يجري اختباراته. لا تزعج نفسك من أجلنا، يا مايكل، تابع. كنّا نريد فقط أن نستعرض معك النشاط الاقتصادي للمتجر. ولكن يمكن تأجيل هذا الأمر.

كان كونراد على وشك أن يلمس جميع أزرار أجهزة قياس الجهد. في العادة، لم أكن أحتمل أن يلمس كلّ شيء وكنتُ أغضب سريعاً. في ذلك المساء، ولا أدري لماذا، بدا لي كونراد، كونراد البغيض، بدا لي فجأةً كأنّه المثال الممتاز للرجل الشجاع.

بشكلٍ غير مرئي، غادرت إصبعي قاطع الانطلاق.

قال أخي موضّحاً:

- نودُّ أيضاً أن نحصل على رسومات ما هو موجودٌ بعد الجدار الثاني لكي نحضّر الموسم الجديد للقمصان!

اقتربت أمّي وطبعت على جبيني قبلة كبيرة رطبة.

- وإذا كنتَ لم تحدّد بعد موعد تناول الطعام - أنت تنسى دائماً أن تتغذّى - ، ففي البيت طبق من اللحم المطبوخ مع العظم النخاعي، على الطريقة التي تحبّها. لكثرة ما تتناول العشاء في المطعم، تُلحق الأذى بصحّتك. إنّهم لا يُقدّمون في المطاعم سوى بقايا الطعام والمنتوجات الفاسدة. لا شيء يُضاهي طبخ أمٍّ!

لم يسبق لي قط أنني أحسستُ بهذا القدر من المودّة لهذين الشخصين. لم يسبق لي قط أنني سُررتُ بهذا القدر برؤيتهما. على حين غرّةٍ، انتزعتُ الإبرة من معصمي. سالت قطراتٌ من الدم لم يلاحظاها.

لم يعد يراودني سوى قلق وحيد: هل سيكون هناك بالفعل ما يكفي من النخاع الساخن جدّاً لكي أمدّه على شطيرة من الخبز الطازج مع الكثير من الملح؟ وقليل من الفلفل. ليس الكثير منه، وإلّا فسوف يفسد المذاق.

129. ميثولوجيا مسيحية

«ثمّ أراني الملاكُ نهراً صافياً من ماء حياةٍ لامعاً كبلورٍ، خارجاً من عرش الله والخروف. في وسط الساحة وعلى النهر من هنا وهناك، أشجار حياةٍ تُثمرُ اثنتي عشرة مرّة، تُعطي ثمرها مرّة واحدة كلّ شهر، وتُشفي أوراقها الأمم».

سفر الرؤيا للقديس يوحنا، *22*.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

130. ستيفانيا هنا

نسيتُ مشاكلي الشخصية. وحاولتُ في الأيام التالية أن أتجاهل نزعتي الفردية، فلا رغبة ولا ألم. كنتُ أعلم أنّ رغبتي في آماندين يمكنها أن تتحوّل سريعاً جدّاً إلى هوس. هوس يصبح أكثر خطراً طالما أنّها كانت، من الآن فصاعداً، بعيدة عن متناولي.

عادت ستيفانيا إلى فلورنسا، وقلتُ في نفسي إنّه، الآن وقد كان راؤول يهتمّ بامرأةٍ أخرى، سيكون علينا ربّما أن نتشارك في وحدتنا. من جهة أخرى، بدت الفتاة الإيطالية تراني مناسباً لذوقها. كانت تضرب على ظهري بصفعات قويّة، وتضحك وتناديني «*stupido Michaelese*»، وهذه عبارة محلية للمجاملة، بلا شكّ.

كانت المشكلة تكمن في أنني كنتُ أتساءل حول كيفية تعاملي معها. لطالما كنتُ معدوماً في مغازلة النساء. لقد عرفتُ بكلّ تأكيد العشرات من النسَاء حتى الآن، ولكن كنّ على الدوام هنّ من يتدبّرن أمرهنّ لكي يسحبنني إلى سريرهنّ وليس العكس. فضلاً عن ذلك، لم أكن أجهل أنّ ستيفانيا متزوّجة، حتى وإن لم تكن قد تحدّثت في هذا الموضوع قط.

ومن المدهش أنّ راؤول وآماندين لم يتركا شيئاً يظهر عن علاقتهما

الغرامية. لم يكونا يمسكان أيدي بعضهما قط، ولم يكونا يتبادلان قبلاً خاطفة. وحده كان صفاء تصرّفهما يدلّ على أنّهما قد وجدا مؤقّتاً صفاء الحواس بعضهما حيال بعض.

لم تلاحظ ستيفانيا شيئاً. بل استمرّت في إظهار نفسها استفزازيةً مع راؤول. من الطبيعي أن ينشر رجلٌ سعيدٌ بزواجه نوعاً من الهالة التي تجعله أكثر إغراءً لدى النساء الأخريات. أمّا أنا، مع قلقي المستمرّ وعزلتي الدائمة، لم يكن بوسعي سوى مجافاتهنّ.

بقي لي فقط العمل، فانهمكتُ فيه بإرهاقٍ نفسي. بالنسبة إلى مستكشفتنا، كنتُ أحلم بكلّ الإنجازات.

وكلّما كنتُ أفشل في علاقتي مع الحبّ، كنتُ أريدُ أن أنجح في علاقتي مع الموت. من جهة أخرى، كان حلمي المتكرّر بالمرأة المرتدية للساتان الأبيض ذات القناع المصنوع من الهيكل العظمي لجمجمة يصبح أكثر حضوراً في هذه الفترة. ربّما لم أكن قد نجحتُ في تعرية آماندين من ثيابها، ولكنني كنتُ أنوي أن أفضّ بكارة قابضة الأرواح.

أيّها الموت، سأعرف ما هو موجودٌ خلف قناعك!

أيّها الموت، استعدّ لكشف سرّك الأخير.

سوف يكون رأس حربتي علاوة على ذلك امرأة: ستيفانيا. ستيفانيا، مطرقتي التي سوف تحطّم باب القصر الأسود.

حسّنتُ أكثر البوستيرات، وكرسي الإقلاع، وأضفتُ مستشعرات حسّية جديدة. وبالتزامن مع ذلك، كنتُ أتعلّم اللعب بأوراق شاكرا لممارسي اليوغا وخطوط الطول للوخز بالإبر الصينية. حاولتُ أن أرسم شكل الجسد الحيوي الذي تحدّثت عنه الكتب التبتية حول هيكل الإنسان. لكثرة دراسة هذا الغلاف، تفاجأتُ حتى بمطاردته في الوسط المحيط بي.

درستُ قليلاً الظواهر الفيزيولوجية المرتبطة بالتأمّل. لطالما كان لديّ هذا الانشغال بشرعنة الغموض من خلال العلم. حسب بعض المؤلّفات، يبثّ الدماغ أمواجاً بأطوالٍ مختلفة حسب نشاطه. يمكنها أن تُلتَقَط بجهازٍ عاديّ للتخطيط الكهربائي للدماغ.

حينما يفكّر المرء «بطلاقة» على سبيل المثال، يبث دماغه من ثلاثين إلى ستين ذبذبة في الثانية الواحدة، ويُسمى هذا وجود الدماغ في طور إيقاع أمواج البيتا. وكلّما كان المرء يقظاً أكثر، كان أكثر تركيزاً، وكانت الذبذبات أكثر عدداً.

عندما يغمض المرء عينيه، يحصل على الفور على بثٍّ للذبذبات أكثر بطئاً، ولكن بقوّة أعلى في بعض الأحيان. ويبلغ عدد الذبذبات حوالي اثنتي عشرة ذبذبة في الثانية الواحدة. ويكون المرء حينئذٍ في طور الألفا.

في طور النوم من دون أحلام، يكون الدماغ في حالة بثّ أمواج الدلتا. ويتراوح عدد الذبذبات بين ذبذبةٍ ونصف وثلاث ذبذبات في الثانية الواحدة.

جرّبت ذلك على ستيفانيا، فأر التجارب خاصّتي. وضعتُ أجهزة الاستشعار على صدغيها، وقذالها، والعظمين الجداريين لجمجمتها، وتتبّعتُ خلال التحليق نشاطاً لبث أمواج الألفا. وكان هذا يدلّ على أنّ الدماغ بكلّ سطحه كان في حالة يقظة هادئة.

ومع ذلك، لم يُستثمَر هذا الاكتشاف. كان واقع رؤية ستيفانيا في طور أمواج ألفا يُخبرنا بكلّ بساطة بأنّها كانت تُسيطر تماماً على تأمّلها.

خلال هذه الفترة، حقّق فريقنا المعزّز معجزة، فقد انفصلت ستيفانيا عن زوجها البعيد واستقرّت في باريس لكي تعمل معنا على نحوٍ أفضل. وقد وجدنا لها في الطابق الثالث شقّة مجاورة لشقّتي.

كلّ صباح، كانت تُقلع من الشقّة فوق السطح في رحلةٍ وهي لا تستخدم سوى التأمّل بغية التعرّف عن بعد على الأمكنة التي يسحبها إليها نفس التأمّل في المساء، يساعدها هذه المرّة القليل من الكيمياء. كانت جميلة، فاتنة ومركّزة في تفكيرها، بين النبتات الخضراء، بالقرب من آلة البيانو.

كنتُ أراقبها وهي تغادر إلى هناك وكنتُ أتناقش معها مطوّلاً بعد ذلك حول خرائط القارة الأخيرة. كنتُ أضيف بعض التفاصيل، وألوّن مناطق، وأتلاعب بكلمات *Terra incognita (الأرض المجهولة)، كما لو أنني كنتُ أتحرّق لدفعها إلى الخلف.*

قامت ستيفانيا في غضون أسبوعين بثلاث غزوات على ما وراء الجدار

الأوّل، واستطعنا بذلك أن نكمل خريطتنا للعالم الآخر بشيءٍ من الدقّة على الرغم من أنّه كان واضحاً أنّ فقاعات ذكريات ماضي ستيفانيا لم تكن شاملة وأنّها، في كلّ الأحوال، لن يكون بوسعها أن تُستخدم معياراً ومرجعيّة لمستكشفٍ آخر.

في انتظار الحصول على نتائج موثوقة، كنّا قد تخلّينا الآن عن كلّ دعاية أو إعلان. ففي كلّ الأحوال، منذ التسريبات الرهيبة التي كشف عنها جان بريسون، كانت غالبية محطّات إطلاق المستكشفين في العالم قد أغلقت أبوابها، ولم نعد نخشى من منافستها لنا.

– ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق.

رحلة تحليق قصيرة في المساء. كانت الشابّة الإيطالية ممدّدة على الكرسي الأحمر ذي الحواف المعدنية السوداء. فينساب شعرها الطويل المتموّج فوق قميصها. كانت تشبه لوحة فنية من عصر النهضة للفنان الإيطالي تيتيان.

شربتُ فنجاناً من القهوة الثقيلة. كانت مدة رحلات ستيفانيا تزداد طولاً تدريجيّاً. حتى الآن كانت قد مضت قرابة أربع وثلاثين دقيقة، وكانت لا تزال غارقة في غيبوبتها – تأمّلها.

سألتُ راؤول الذي عاد ودخل إلى المختبر وهو يزرّر قميصه:

– ماذا نفعل؟

نظر إلى موقّت المنبّه الكهربائي وانتبه إلى أنّها كانت قد برمجت المنبّه على غيبوبة لمدّة ثمان وثلاثين دقيقة! وثب من مكانه.

– هذا محض جنون! لن تستطيع الاستيقاظ أبداً. لم أنتبه إلى ذلك.

أدار مفتاح الموقّت لكي يضعه دفعةً واحدة على الدرجة صفر. وفي الحال، انطلق التيار الكهربائي في هزّات استقرّت تدريجياً مثل فرامل مضمونة لنظام مانعٍ للانزلاق.

– عودي، يا ستيفانيا، لقد ذهبتِ بعيداً جدّاً!

كنّا قلقين. ومع ذلك سار كلّ شيء سيراً حسناً. تمّت العودة تدريجيّاً.

فتحت ستيفانيا فجأةً عينيها، ورمشت بأجفانها كما لو أنّها كانت تنزع نفسها من حلمٍ. نظرت إلينا، وابتسمت، ثمّ قالت بلهجة حاسمة:

- لقد رأيته.

- رأيتِ ماذا؟

- لقد كنتُ في القاع. ورأيته. هناك جدارٌ ثان! موخ 2.

استردّت مستكشفتنا أنفاسها في حين كان راؤول يُمسك بخريطة القارة الأخيرة. قال لها:

- اروي لنا.

- في البداية، وكما هي العادة، وصلتُ إلى ممرٍّ أسود حيث انقضّت عليّ فقاعاتٌ ضوئية. كانت في كلّ فقاعة ذكرى مؤلمة، وأمورٌ كنتُ قد أسأتُ معالجتها. إذا أردتم أن تعرفوا كلّ شيء، رأيتُ فتاة صغيرة، كنتُ قد سرقتُ حقيبتها المدرسية، ورأيتُ أمّي التي كانت تبكي لأنني كنتُ قد حصلتُ على درجات سيّئة في المدرسة، ورأيتُ رجلاً شابّاً كنتُ قد رفضته وقد انتحر قهراً وغيظاً. وبالطبع رأيتُ مرّة أخرى اللحظة التي كنتُ فيها سلحفاة مقلوبة على ظهرها، واليوم الذي علمتُ فيه بموت عاملة النظافة في المدرسة.

جابهتُ كلّ هذه الذكريات السيئة وبرّرتُ أفعالي حيال كلّ واحدة منها. لقد سرقتُ الحقيبة المدرسية للفتاة الصغيرة لأنّ والديّ لم يكونا ثريين بما فيه الكفاية لكي يشتريا لي حقيبة، وقد حصلتُ على درجات سيّئة في المدرسة لأنّ والدتي لم تكن تترك لي أيّ لحظة من الوقت لكي أعمل على وظائفي المدرسية، فقد كانت تطلب منّي دائماً أن أقوم بغسل الصحون أو تكنيس البيت، والرجل الذي رفضته كان يُغازلني في الوقت الذي كنتُ فيه مغرمة بشابٍّ آخر كان يُثير إعجابي. ولم أكن أنا المسؤولة عن موت عاملة النظافة في المدرسة.

من حولي، رأيتُ الموتى الآخرين وهم يُقاتلون ضدّ ذكرياتهم من دون أن ينجحوا في تبريرها. فكانت الذكريات تغمرهم شيئاً فشيئاً، مثلما تُهاجم الكُريّات البيضاء ميكروباً. الذين كانوا قد قتلوا تلقّوا ضرباتٍ من ضحاياهم، والذين كانوا من المهملين تلقّوا صفعاتٍ. وكان الكُسالى يُرمون في الطمي.

أمّا الغاضبون، فكانت الأمواج تحملهم. وقد ذكّرني هذا المشهد على نحوٍ غريب بالكوميديا الإلهية لدانتي.

الذين ارتكبوا الآثام بدافع الجشع والطمع كانوا يرون أعينهم وقد خيطت. والذين ارتكبوا الخطايا بدافع الفسق والشهوات كانوا يرون جسدهم وقد احترق. على أي حال، الموت مرعب.

حينما هزمتُ عفاريتي وحضرتُ معارك جيراني، تابعتُ تقدّمي في الممرّ الأسود الذي أصبح الآن بنفسجيّاً. كان كلّ شيء من حولي يذكّر بكلمتين: خوف وظلام. كانت للجدران مادة من مسحوق ورائحة أرض تمّت حراثتها حديثاً.

حسبما قالت، كان الممرّ الواسع يضيق على نحوٍ متواصل ولكن قطره كان لا يزال يبلغ مئات (وربّما الآلاف؟) من الكيلومترات.

كان له شكل حوضٍ أو قُمع، يتصارع الناس بذكرياتهم على حوافه الشديدة الانحدار، وهو يشبه في شكله «جُرفاً أسطوانياً». ويواصل الضوء خفقانه في قاع الحوض. ولكن لم يعد هناك لا أعلى ولا أسفل.

أمسكت بخريطة راؤول ولفّتها على شكل مخروط موجّهةً رأسه نحو الأرضية.

قالت مؤكّدةً:

- لم يكن المخروط أفقيّاً، بل عموديّاً، تتقلّص جدرانه كلّما نزلنا الحواف الرملية.

خربشت:

1. إقلاع.
2. زوال أيّ إشارة على الحياة الطبيعية.
3. غيبوبة.
4. خروجٌ من العالم.
5. ثماني عشرة دقيقة من الطيران في الفضاء.
6. ظهور حلقة كبيرة من الضوء تدور على نفسها، أوّل صورة للقارة الأخيرة. القطر التقريبي: الآلاف من الكيلومترات في منطقتها الواضحة. متاهات. شاطئ أزرق.
7. رسو على الشاطئ المضيء. الوصول إلى المنطقة رقم 1.

المنطقة رقم 1:

- الموقع: غيبوبة لمدّة ثماني عشرة دقيقة.
- اللون: أزرق. أزرق فيروزي يميل تدريجياً إلى الأزرق البنفسجي.
- الأحاسيس: إغراء لا يُقاوَم، أزرق، ماء. منطقة منعشة ومريحة. ضوءٌ جذّاب.
- تنتهي: على موخ 1 (قطر أكثر ضيقاً على نحوٍ خفيف).

المنطقة رقم 2:

- الموقع: غيبوبة لمدّة إحدى وعشرين دقيقة.
- اللون: أسود.
- الأحاسيس: ظُلمات، خوف، تراب. منطقة باردة ومخيفة يواجه فيها الميت، على الحواف التي تزداد انحداراً، مخاوفه وذكرياته الأكثر صعوبةً. لا يزال الضوء موجوداً ولكنّ الخوف يصرف عنه الانتباه.
- تنتهي: على موخ 2.
- تُفضي ربّما إلى ... المنطقة رقم 3 (؟).

محت ستيفانيا خطّاً، ورسمت خطّاً آخر، ودفعت إلى الوراء كلمتي *Terra incognita* (الأرض المجهولة). حدودنا الجديدة تُدعى موخ 2. الآن، بات بوسعنا أن ندعو الصحافة. كان للإعلان صدى دوليّ.

شرحت المستكشفة أنّ جان بريسون قد هُزِم من دون أدنى شكّ على يدِ ماضيه. لقد رفض كلّ طلب من الصحافيين الذين حاولوا الوصول إليه لإجراء لقاءٍ معه. في حبسه، لم يكن الرجل المسكين يعرف قط ما الذي كان قد حصل له بالفعل في العالم الآخر.

ومع ذلك، كان لا بدّ من قهر الثاناتوفوبيا التي كان قد أثارها. فبحثنا عن عائلته، وبعض أصدقائه السابقين. رووا أنّ جان كان قد عاش في الواقع طفولةً مرعبة في مدرسة داخلية يديرها شخصٌ كان يعتدي على التلاميذ.

ولكي يُبرهن لنفسه على أنّه قد سيطر على مخاوفه، كان جان قد أصبح أوّلاً مجازفاً ومن ثمّ مستكشفاً للموت. وكان قد فعل كلّ شيء لِكي ينسى سنوات فتوته ولكنّ جدار الغيبوبة الأوّل قد ظهر لكي يُذكّره بها ويُغرقه من جديد في جحيمها.

كان قد انكشف أمر مدير المدرسة الداخلية، وأوقِفَ، وأُغلِقَت المؤسسة التعليمية.

ولكن مع ذلك، لم يكن الخوف من الموت قد تلاشى كلّياً. وأصبحنا نعرف من الآن فصاعداً أنّ الموت لم يكن لا فردوساً خالصاً، ولا جحيماً كاملاً. كان الموت «شيئاً مختلفاً». وظلّ اللغز مستمراً.

إلى الأمام. بخطٍ مستقيم، دائماً بخطٍّ مستقيم نحو المجهول!

الهدف المُقبل: موخ 2.

131. ميثولوجيا يهودية

حينما ظهر آدم على الأرض، فوجئ كثيراً، في البداية، حينما رأى أنّ النور كان يتغيّر. حينما غابت الشمس وغزت الظلمات السماء، اعتقد آدم أنّ كلّ شيء قد انتهى. اعتقد أنّ حياته والعالم كانا يبلغان نهايتهما. صاح: «يا لبؤسي! لا شكّ أنني قد ارتكبتُ إثماً حتى أظلم العالم هكذا. سوف نعود الآن إلى الفوضى الأولى. هذا هو الموت الذي حكمت به السماء عليّ». فتوقّف عن تناول الطعام وظلّ يبكي طيلة الليل.

حينما بزغ الفجر، صاح: «هكذا يسير العالم إذاً! ينطفئ ومن ثمّ يُضاء ثانية». فرِح فرحاً عظيماً حينما علِم أنّ كلّ شيء لم ينتهِ، فنهض من مكانه، وصلّى وقدّم القرابين للربّ.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

132. تعديد الحِرَف

في حين كنّا نتقدّم بخطوات صغيرة، سنتيمتراً بسنتيمتر، في القارة

الأخيرة، بدأت محطّات إطلاق المستكشفين في كلّ أنحاء العالم تقريباً بالاستيقاظ. بل كانت المحطّات تنمو مثل الفطر.

عاد الموضوع ليصبح دُرجةً. ما إن عُلِم أنّ ستيفانيا قد فكّرت في أن تربط السرّ بالعلم، حتى بُنيت محطّات إطلاق مستكشفي الموت إلى جانب المعابد، وبعد السجناء، وبعد المُجازفين، ظهر جيلٌ جديد من مستكشفي الموت، الذين تشكّلوا بشكلٍ أساسي من رجال الدين والرهبان من جميع الديانات والطوائف.

بالتوازي مع ذلك، بعد المشكّكين والمتحمّسين، اضطررنا لأن نواجه العلمانيين الذين اعتبروا هذا المزيج من الخرافة والبحث العلمي على أنّه مركّبٌ انفجاري. لقد أطلقوا علينا تسمية «غزاة الإيمان» لأننا كنّا ننطلق لاحتلال أرضٍ باسم المبادئ الروحية المحدّدة مسبقاً.

والواقع أنّ كلّ قسيس كان يعبر الجدار الأوّل كان يزعم أنّه قد رأى رموز دينه. وكان ذلك أمراً طبيعياً طالما أنّ المستكشف، في الأرض السوداء، كان محاطاً بذكرياته الخاصّة.

صرّح الرهبان البينيديكتيون بأنّهم قد اكتشفوا أصل هالة القديسين. حسب زعمهم، هذه الهالة عبارة عن ظهور الإكتوبلازم الذي يشرع بالخروج من أعلى الجمجمة. وسيكون رسّامو العصر قد أرادوا بهذه الطريقة أن يُشيروا إلى قدرة القديسين المختارين على الخروج من أجسادهم.

غضب المعادون للأديان، مؤكّدين أنّ كلّ هذا ليس سوى دعاية للإكليروس.

كان هناك الكثير من المصالح، والكثير من المقدّسات والمحرّمات على المحكّ. كنّا، آماندين، وستيفانيا، وراؤول، وأنا، نعرف أننا كنّا نلعب بقنبلة يمكنها أن تنفجر في وجهنا. ربّما كانت «حادثة» جان بمنزلة إنذارٍ بالنسبة إلينا.

لكن الفضول ظلّ على الدوام هو الأقوى تأثيراً علينا. كنّا نرغب أشدّ الرَغبة في أن نعرف ما الذي يوجد ما وراء موخ 2.

حدّثتنا ستيفانيا عن ذلك بعد كلّ رحلة طيران. كانت قد لامست هذا الجدار الشهير، ولكنّها لم تشعر للوهلة الأولى بأنّها قادرة على اجتيازه. كان لا يزال ينقصها شيءٌ ما لم تستطع أن تحدّده.

لم تكن هي الوحيدة. فإذا كان بوذيون تبتيون آخرون، ثمّ الرهبان الطاويون، ومن ثمّ الدراويش الـدوّارون، والزرادشتيون، وشهود يهوه، ورهبان دير مونت لويس، ويسوعيو دير سان بيرتران قد تجاوزوا جميعاً من دون صعوبة كبيرة جدار الغيبوبة الأوّل، فإنّه لا أحد منهم استطاع أن يتجاوز الجدار الثاني.

لقد زرنا مختلف أماكن عبادتهم وتعلّمنا الكثير من طقوسهم. لقد احتفظت الأديان جميعها في الواقع في ذاكرتها بتقنيات الطيران. وبالتالي، ما الضير إذا ما سمّاها مستخدموها «صلاة خالدة» أو «اتصالاً مع العالم الإلهي».

133. علم الفلك

لكي يتطوّر قدر الإنسان لا بدّ له من المرور بالأبراج الفلكية الاثني عشر. حسب بعض التقاليد المشرقية، على المرء أن يتناسخ على الأقلّ اثنتي عشرة مرّة في كلّ برجٍ من هذه الأبراج، أي مئة وأربعاً وأربعين مرّة إجمالاً. وهذا هو الحدّ الأدنى. وبذلك سوف يجول على طالع كلّ برجٍ من هذه الأبراج وسوف يعرف جميع الشخصيات التي يمكن الوصول إليها خلال حياة بشرية. ولكي يستحقّ الإنسان أن يصبح روحاً طاهرة، من الضروري اختبار جميع الطباع، أي جميع أشكال الوجود.

ولكنّ مئة وأربعاً وأربعين تناسخاً روحياً لا تكفي لغالبية الكائنات. لقد عرف بوذا خمسمئة منها قبل أن يفهم العالم، ونحن في معظمنا نعيش ما بين ألف تناسخٍ بشري وألفي تناسخ بشري.

يؤكّد علم الفلك أنّ الأبراج الفلكية الاثني عشر مناظرة للساعات الاثنتي عشرة المدوّنة في مينا ساعة جدارية. يشير العقرب الكبير في الساعة إلى برجنا، بينما يحدّد عقرب الدقائق طالعنا. ويحدّد العقربان معاً العقد الذي يتعيّن علينا الوفاء به أثناء تناسخنا الحالي.

إذاً، نحن في أيّ ساعةٍ من حياتنا «الكليّة»؟

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

134. تدويل

قام لوسيندير بزيارتنا ونصحنا بألّا نستعجل كثيراً في إظهار سعادتنا البالغة. كان عددٌ من المتديّنين في حالة جيشان شديدة. وكان البابا، على غرار بعض الجماعات الأصولية، ينظر بعينٍ سلبية إلى تدخّل الثاناتونوتية في الحياة الرهبانية.

عندما احتجّ راؤول قائلاً إنّه لم تكن لنا أيّ علاقة بذلك، ردّ الرئيس بأنّه، مع ذلك، انتقل أكثر من مئة متديّن من مختلف الطوائف من الحياة إلى الفناء من خلال رغبتهم في اتّباع تجاربنا. أعلن صديقي أنّه كان عليهم أن يهتموا أكثرَ بالشروط العلمية للخروج من الجسد بدل الثقة فقط بإيمانهم. قبِلَ لوسيندير بالحجّة ولكننا شعرنا بأنّه مشغول البال.

تُرى هل كان من المحتمل أنّه في القرن الحادي والعشرين لا يزال يخشى من سلطة رجال الكنيسة؟

في محطّتنا لإطلاق المستكشفين في منتزه بوت شومو، كنّا نعمل من جهتنا على جعل عمليات الإقلاع أكثر أماناً باستمرار. كانت ستيفانيا قد وجدت أنّ التحليق يحدث على نحوٍ أفضل عندما تُبقي عمودها الفقري مستقيماً تماماً، وظهرها مثبّتاً، وذقنها مثبّتاً على صدرها، وكتفيها متحررتين. وفي المحصّلة، صمّمنا كرسياً عبارة عن نسخة طبق الأصل عن الكراسي السويدية التي تفرض هذه الوضعية الملائمة.

نصبنا حول الكرسي فقاعة زجاجية كبيرة تعزله عن ضجيج العالم الخارجي. في الواقع، كانت حوادث عديدة قد وقعت لأنّ أحدهم أزعج من دون قصد مستكشفاً في حالة التحليق. كان الحبل السُرّي الفضي للطيّار ينقطع قبل أن يتمكّن من سحبه. كانت حوادث بسيطة من قبيل ورود مكالمة هاتِفية عشوائية، أو بابٍ يُصفق بفعل تيارٍ هوائي، تتسبّب في بعض الأحيان بالموت المحقّق! لا مجال للعب مع هكذا أمور.

ولتيسير الانطلاق على نحوٍ أفضل، أقمنا نظاماً لمكبّرات الصوت متعدّد الأصوات فائق الجودة لكي تحلّق الروح بطريقة مريحة على أنغام الموسيقى الطقوسية أو الروحية.

تعاون خيّاطٌ كبير وعالم في الإلكترونيات في تصميم بزّة مريحة بالفعل. من الآن فصاعداً، لن يعود زيّ المستكشف مجّرد بدلة رياضية أو بزّة رسمية. وإنّما سيكون شبيهاً ببزّة الضفادع البشرية. في باريس، اخترنا قماشاً أبيض اللون.

لاقت الفكرة الكثير من النجاح. وسجّلت موضة الملبوسات دخولها إلى مختلف محطّات إطلاق المستكشفين على الكوكب. انحاز المستكشفون اليابانيون إلى اللون الأسود، والأمريكيون إلى اللون البنفسجي، بينما اختار البريطانيون اللون الأحمر. كان مصوّرو الصحافة سعداء: وأخيراً أصبح لديهم مشهد بصري بارز.

كان منطقيّاً أن يتبع الزيّ الشعار. كان شعارنا يمثّل طائر فينيق يعبر حلقات ألسنة النار وهو ينطلق منكمشاً.

كانت لكلّ محطّة إطلاق خصوصياتها الدينية والثقافية. إذ كان الأفارقة ينطلقون في زيّ المراسم وسط قرع الطبول الصغيرة. وكان شعارهم عبارة عن أفيال وفهود وببغاوات. أمّا الجامايكيون ففضّلوا موسيقى الزنوج والماريجوانا. في حين اختار الروس أغاني الأرثوذكس والفودكا. بينما كان البيروفيون يمضغون أوراق الكوكا ويطيرون تحت سحر آلات بان فلوت. وكان شعارهم قناع الموت للإنكا العظيم.

كان الأبطال العالميون يشغلون الصفحة الأولى في الصحف. وكان لكلّ صحيفة نجمها المفضّل. ومنحت المراهنات لنفسها تدفّقاً حرّاً لدى مستلمي الرهانات اللندنيين. تُرى منْ سيكون أوّل مَنْ يعبر جدار الغيبوبة الثاني؟ كان الإسباني (شعاره رأس ثور) قد مُنِح اثنتي عشرة نقطة مقابل نقطة واحدة للأمريكي الذي كان (شعاره يمثّل رأس ثور). كانت الشهادات حول الفقاعات - الذكريات تتراكم، جميعها مختلفة، وجميعها مؤثّرة. وصعدت مبيعات *المستكشف الصغير المُصوّر* كالسهم.

في متجرهما، كان أخي ووالدتي يتاجران بكراسي الإطلاق المصنوعة في بوت شومو وكذلك ببوستيرات (كنتُ قد طوّرتُ تركيبة بديلة مريحة جدّاً للكبد والكليتين) وكذلك أدوات مع مستشعرات كهربائية، فتتدفّق الأموال عليهما.

انتشرت الثاناتونوتية سريعاً في العالم أجمع، وقد غدت مريحة أكثر، وعملية أكثر، ودقيقة أكثر. بفضل الكرسي ذي الفقاعة الزجاجية الحامية والبزّة الخاصّة، بدا العالم الآخر في متناول كل شخصٍ أياً كان.

135. ميثولوجيا سلتية

حسب الميثولوجيا السلتية، عبرت قبائل توتا دي دانان، التي تشكّل شعب الإلهة دانو، جزر شمال العالم لكي تحتلّ إيرلندا. كما أنّها خاضت معركة ضدّ الفوموري، الآلهة - الشياطين ذوي العين الواحدة والطرف الواحد. فاضطرّ هؤلاء للجوء إلى الأعماق: البحيرات، اللجج، الآبار. كانوا يعيشون في العالم السفلي، في كونٍ موازٍ كانوا يسمونه سي (السلام) أو أيضاً تير نا نوغ (أرض الشباب). ومن هناك، كانوا يساعدون البشر على الإغماء. وكانوا يمنحون لكاهنٍ، يأتي لاستشارتهم، التعويذات السحرية الأربع: قِدرُ داغدا الذي يُشبعُ إلى الأبد منْ يتذوّقون طعاماً منه، ورمح لوغ الذي يقتل العدو حتى ولم مرّ مروراً بجانبه، وسيف نوادا الذي يجعل حامله مقاتلاً لا يُقهر، وأخيراً، يأتي حجر فال الذي يؤكّد، من خلال «صرخته»، ملكية كلّ من يضع قدميه فيه.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

136. جدار الغيبوبة الثاني

على الرغم من المحاولات التي تضاعفت، ظلّ موخ 2 بعيد المنال. بيد أنّ سوكومي يوكا، الكاهن في طائفة زن البوذية، نجح في ملامسته وزعم أنّه قد رأى شيئاً ما خلف الأضواء الحمراء التي وصفها على أنّها «شبيهة بفتيات الغيشا»[1]. وهو تعبيرٌ غريب بالنسبة إلى رجلٍ منذورٍ للروحانية! وقد رفض أن يقدّم توضيحات مستفيضة، مكتفياً بتكرار أنّه قد استعجل المغادرة، الأمر الذَي منعه من الالتقاء بهنّ.

1- فتيات الغيشا: هن فنانات تقليديات في اليابان، يمارسن دور مضيفات يمتلكن مهارات في الفنون المسرحية اليابانية المختلفة مثل الموسيقى الكلاسيكية والرقص والألعاب. المترجم

لم يحظَ بالفرصة لكي يقول المزيد عن ذلك. وكانت انطلاقته الثانية هي الأخيرة. كان يرقد في بركةٍ من السائل المنوي، وجسده متوتّر كما لو أنّه في حالة عناقٍ غرامي، عندما عزم رفاقه على فصل الأجهزةِ عنه.

ظلّت المعلومة سرّيةً على نحوٍ صارم. وإذا ما تصوّر أناسٌ أنّهم سيجدون في الموت متعة جنسية أبدية، فإنّ الثاناتونوتية سوف تُحدثُ مذابح جديدة!

ترقّبنا الرائد الذي سوف يقدّم لنا، من خلال أوّل رحلة ذهاب وإياب، شهادة أكثر دقّةً ووضوحاً. كان ممارس يوغا هندياً يُدعى راجيف بينتو. وقد وصف ما حدث له في كتابٍ سرعان ما أصبح أحد الكتب الأكثر مبيعاً في العالم، وقد اختار له العنوان التالي: *أكثر قرباً من النهاية* (منشورات القارة الجديدة).

كما حدث مع فيليكس سابقاً، سقط راجيف بينتو في فخّ النجاح. لم يعد بوسعه التركيز على قدراته الروحية. وللقيام بعملية إقلاع، كان يضطرّ إلى استخدام أعشاب مهلوِسة، وعند العودة، لم يكن يتذكّر أيّ شيء.

لسوء الحظ، لم تكن أمام محطّة باريس لإطلاق المستكشفين الفرصة قط لاستقبال راجيف بينتو. وخلال تجربة أخيرة، انتظره فريقه من دون جدوى لأكثر من خمس وأربعين دقيقة قبل الإقرار بفقدان روحه. وقد أودعوا غلافه الجسدي في معهد سميثسونيان في واشنطن حيث حُفِظَ بعناية في محلول الميثانال.

اضطررنا لأن نكتفي بالشِعْر الذي كان يتخلّل مؤلّفه لكي نحدّد منطقة ما وراء موخ 2 بلونٍ أحمرٍ مثير جنسياً.

هذا مقتطف من كتاب *أكثر قرباً من النهاية*:

«أيّها العالم المحيّر الراكد
بعد جدار الغيبوبة الثاني
لآلئ متعتك تشبه
زنابق الماء.
تُعلن انتصاب الثاناتونوتية!
كلّ تحليقٍ سيكون مثل نشوة جماعٍ.

غـزوة المـوتـى سـوف تسـمح بكتابـة تتمّـة *الكاماسوترا*.
هذا الكتاب ليس سـوى الفصـل الأوّل لكونٍ من المتعة يعدنا الموت بمئة مجلّدٍ منه.
أيّها العالـم الآخر المحيّر.
هكذا، تنتهي أرواحنا في النشوة.
إنّه أمرٌ منطقي طالما أننا ولدنا وسط الألـم».

بعد مضي ثلاثة أشهر، طالت قائمة الموتى. قامت الأديان جميعها بتجنيد رهبان مستكشفين وضحّت بهم على مذبح معرفة العالـم الآخر. وقد جعلتها جميعاً مسألة كبرياء. كان ينبغي على الدين أن يُثبِتَ أنّ تفسيره للعالـم هو التفسير الحقيقي الوحيد. وكانت كلّ الوسائل مشروعة من أجل إحاطة عمليات الإطلاق هذه بكلّ الطقوس الضرورية لفعلٍ ديني.

أيّ فعلٍ كان يمكن اعتباره دينياً أكثر، طالما أنّ الإقلاع كان بالتحديد اقتراباً من العالـم الآخر؟

لقد دخلنا إلى طور «الروحانية الهائلة»، مع رحلات منطلقة من كنيسة القلب المقدّس في باريس أو من أهرامات خوفو في مصر. أمّا نحن، فكلّ ما كنّا نعرفه عن البلد الذي يقع بعد موخ 2، فهو أنّه «أحمر ومليءٌ بالملذّات».

لم تعد ستيفانيا قادرة على تحمّل انتظار الذهاب إليه. انهمكت في الكثير من التأمّل وتمارين التحكّم بالتنفّس وبدقات القلب، وأخيراً، في الساعة الخامسة من مساء اليوم السابع والعشرين من شهر أغسطس / آب، ومن كثرة العمل وفرط الإرادة، وصلت إلى هناك.

مع ضحكات خافتة خارجة عن السيطرة، استيقظت ستيفانيا، وقد أصبح كلّ جسمها قرمزيّ اللون ومثيراً، غارقة في العرق في كرسيها.

صاحت، وهي لا تزال مثارةً جدّاً:

– أواه!

ولما كان راؤول قد انحنى عليها لكي يسمع على نحوٍ أفضل سردها، أمسكته من رقبته وقبّلته ملء فمها.

تركها صديقي تفعل ما تشاء دون مقاومة تذكّر في حين كانت عاصفةٌ تسوّد عيني آماندين الزرقاوين. قال راؤول، وهو يستجمع قواه بمشقّة:

– هيّا بنا، اروي لنا.

قالت:

– واو، واو، واو. لقد كان شيئاً مذهلاً. بعد الجدار الثاني، يأتي الجنس واللذّة والمتعة، يأتي ذو القدم الكبيرة البيغ فوت *the big foot*[1]، والحفلة الجنسية الجماعية الرومانية الكبيرة، المضاجعة، إنّه أمرٌ رائع!

وجدنا صعوبة في فهم ما سردته. لم تكن تتكلّم إلا من خلال التعابير. كانت كلمة «اللذّة المطلقة» هي التي تتردّد في غالب الأحيان. «اللذّة، المتعة، النشوة» ومن ثمّ على نحوٍ خاصّ رغبة تكاد تكون هوساً في العودة إلى هناك لممارسة الجنس.

حاولنا أن نسألها المزيد عن ذلك.

قالت إنّ الأمر كان مثل رعشة الجماع ولكن أقوى بألف مرّة.

بدت أنّها تتحدّث عن إحساسٍ بالانشراح لم تكن قد شعرت به قط حتى باستخدام المخدّرات، وحتى أثناء ممارسة الجنس مع أفضل عشّاقها، بهذا القدر من القوّة والتنوّع في النشوة.

احمرّ وجهي خجلاً.

في تلك الليلة أيضاً، حلمتُ بالمرأة المرتدية للساتان الأبيض بقناعها المصنوع من الهيكل العظمي لجمجمة. الموت. كانت ترتدي جوارب موصولة بشرائط بالسروال الداخلي، وتعدني بأشياء غير ممكنة. اللذّة أكثر من كلّ تصوّر.

137. ستيفانيا تستلذّ جنسياً

كنّا في المطعم التايلاندي، وكنّا نجد صعوبة في منع ستيفانيا، المغرية جدّاً على الدوام بسحرها، من التحدّث بصوتٍ عالٍ، ومن احتواء حماستها.

1- بيغ فوت: كائن أسطوري شبه بشري. المترجم

وكانت علاوة على ذلك، تُظهر هالة جنسية فاضحة للغاية بحيث كانت كلّ أنظار الذكور الحاضرين شاخصة نحوها ومثبّتة عليها.

بل حتى أنظار النساء أيضاً. حتى آماندين نفسها لم تعد تستطيع البقاء لامباليةً حيال حركات ستيفانيا الهستيرية وكلماتها الماجنة.

لم تكن تتحدّث إلّا عن اللذّة الجنسية!

اللذة الجنسية! في نهاية المطاف، ما هو دافعنا الرئيسي هنا في العالم الأرضي؟ عمّا نبحث في هذه الحياة؟ لماذا نعمل، ولماذا نهتمّ بالآخرين، ما الذي يجعلنا نركض في هذه الحياة؟ إنّها اللذّة الجنسية!

احتاج الأمر إلى عدّة أطباق من أرزّ بسمتي حتى هدأت الفتاة الإيطالية واستعادت، لدى عودتنا إلى الطابق العلوي على السطح، سلوكاً علمياً، ووافقت على الانكباب على خريطتنا.

إذاً، وماذا بعد موخ 2؟ حسناً، في حدود «غيبوبة لمدّة أربع وعشرين دقيقة»، غُمِرَ الإكتوبلازم بأحاسيس مريحة. بعد المنطقة الزرقاء، والمنطقة السوداء، تأتي المنطقة الحمراء. منطقة اللذّة. تزداد إثارة المستكشف في هذه المنطقة، فيُسرع نحو الضوء. وتكون جدران النفق الأحمر ليّنة وطريّة مثل المخمل الناعم. تشعر الروح بأنّها قد عادت إلى رحم الأمّ، وتتهيّأ للولادة من جديد. إنّه أمرٌ مذهل!

وعلى حين غرّة، كانت التخيّلات الأكثر سرّية تتحقّق. الرجال الذين اشتهتهم ستيفانيا جنسياً ولم تستطع أن تُغريهم كانوا هناك، يمدّون لها أذرعهم ويُكثرون من العروض الفاجرة. وكانت تنخرط معهم في ألعاب شبقية لم تكن قد تجرّأت حتى على أن تتخيّلها. ولكن لم يكن هناك الجنس فقط، بل تذوّقت أيضاً بتلذّذ الأطعمة التي لطالما أغرتها ولكنّها كانت تمنع نفسها عن تناولها. لقد اكتشفت في داخلها رغبات لم تكن تعرفها من قبل. حتى إنّ بعض النساء انشغلن بها مع أكثر المداعبات عذوبةً. لقد وجب عليها أن تتشبّث بقوّة شديدة بصلواتها التبتية لكي تتخلّى عن هذه الملذّات وتعود إلى محطّة الإطلاق. وقد اضطرّت لأن تلجأ إلى كامل إرادتها لتحقيق ذلك. وكانت قد فكّرت فينا نحن الذين كنّا ننتظرها لنعرف ما الذي جرى معها. ولكن لم يكن هذا هو الأمر الأهمّ.

كانت قد لمحت جداراً ثالثاً للغيبوبة، ألا وهو موخ 3.

أمسكت بالخارطة وخطّت بالقلم عبارة «هل من الممكن أن يؤدّي هذا إلى المنطقة رقم 3؟» ثمّ مدّت لسانها مثل تلميذة مجدّة، وكتبت في المكان:

المنطقة رقم 3:

- الموقع: غيبوبة لمدّة أربع وعشرين دقيقة.
- اللون: أحمر
- الأحاسيس: لذّة، نار. منطقة حارّة ورطبة يواجه فيها المرء تخيّلاته الأكثر هذيانيةً. ومنطقة شاذّة

أيضاً، لأنّها تكشف لنا عن رغباتنا الأكثر كبتاً. ولا بدّ من النظر إليها وجهاً لوجه والاستسلام لها لكي تغزونا، وإلّا سنبقى ملتصقين بالجدار اللزج. يظلّ الضوء موجوداً، كما لو أنّه يأمرنا بأن نواصل دربنا.

- تنتهي على: موخ 3.

بعد هذه المداخلة، تغيّرت الحياة في محطّة إطلاق المستكشفين قليلاً. بعد أن عادت من البلاد القرمزية بحواس متأجّجة، ارتمت ستيفانيا على رأس راؤول بالمعنى الحرفي للكلمة. وفي الواقع كادت تُسقطه أرضاً. منذ اللقاء الأوّل، لم يخفِ صديقي انبهاره بالمفاتن الشهوانية لجسد الفتاة الإيطالية.

وعلى عكس ما حدث مع آماندين، أظهر علاقته الغرامية للعلن وفي وضح النهار. لم أعد أجرؤ على الدخول إلى مغاسل قاعة الطيران خشية أن أزعج الثنائي في لهوهما.

كانت آماندين في غاية الضيق والانزعاج، وبالطبع، وكما اعتادت دائماً، جاءت تبحث لديّ عن العزاء والمواساة. وإذ تخلّت عن الذهاب إلى المطعم التايلاندي لصاحبه السيّد لامبيرت حيث كنّا نجازف أشدّ المجازفة بأن نصادف فيه العاشقين متعانقين، دعت نفسها ذات مساء إلى شقّتي دون سابق إنذار. كان هناك بعض البيض في ثلاجتي. فارتجلتُ إعداد طبقٍ من البيض المخفوق بالكراث المحمّر. لستُ طبّاخاً ماهراً وتبيّن أنّ البيض المخفوق قد تقمّر أكثر من اللازم، ولكنّ آماندين لم تهتمّ بذلك.

- أنت يا مايكل الرجل الوحيد الذي يفهمني حقّاً.

كنتُ أكره هذا النوع من العبارات. خافضاً رأسي، أزلتُ سرّاً بعض القطع من قشرة البيض التي كنتُ قد تركتها سهواً تسقط في الطبق.

وضعتُ اثنين من أجمل صحوني على طاولة المطبخ. جلستْ بطريقة تلقائية إلى المائدة. قسّمتُ قرص البيض المقلي بدقّة إلى نصفين. ظلّت آماندين في مكانها وهي تحدّق في طبقها دون أن تراه.

سألتها:

- ألا تأكلين؟ الطبق ليس بهذا السوء.

أجابت، متنهّدة:

- أنا مقتنعة بأنّه لذيذ، ليست هذه هي المشكلة. ولكنني لستُ جائعة.

أمسكت بيدي وحدّقت فيّ مثل كلبٍ مهجور.

- صديقي المسكين مايكل... بما أنني أضطرُّ إلى إزعاجك بقصصي الغرامية...

نظرتُ إليها، فلاحظتُ أنّها كانت أكثر جمالاً حينما تكون حزينة. في ذلك المساء، اضطررتُ لأن أُصغي بالتفصيل المملّ إلى كلّ سرد قصّة حبّها مع راؤول. كم كانت لطيفة، وكم كانت مليئة بالمبادرات وعطوفة. لقد أكّدت لي أنّ راؤول رجل حياتها، وأنّه لم يسبق لها قط أن كانت مغرمة إلى هذه الدرجة. أجبتها بأنّه لا ينبغي عليها أن تقلق، وأنّ ستيفانيا ليست سوى مغامرة، وسوف ينتهي به المطاف بالعودة إليها.

لم أكن أستطيع أن أفهم كيف يمكن لرجلٍ ألا يكون عاشقاً مجنوناً لهذه الغزالة اللطيفة والناعمة ذات العينين الزرقاوين الداكنين. حتى من أجل الفتاة البدينة والجريئة للغاية، القادمة من وراء جبال الألب.

- أنت لطيفٌ للغاية معي، يا مايكل.

ولكن لم يكن هناك أيّ شيء في هالتها يتردّد صداه مع هالتي. كانت تعتبرني صديقاً لها، أو زميلاً مخصياً.

ربّما كانت رغبتي الجامحة إلى هذا الحدّ هي التي كانت تجعلها تنفر منّي. ربّما كانت تحسّ بشغفي الهادر وكانت تخشى من آثاره.

- أنت لطيفٌ جدّاً، يا مايكل! دعني أنام معك هذا المساء، أرجوك. أنا أخاف كثيراً من أن أجد نفسي وحيدةً تماماً بين شراشف سريري الباردة!

اخضرّ وجهي واحمرّ خجلاً، وسعلت. ثمّ تمتمت:

- حسناً.

ارتديتُ منامةً قطنية زررتُها حتى رقبتي. وهي احتفظت بقميصها الداخلي الحريري. شعرتُ بالقرب منّي ببشرةٍ ناعمة، بجسدٍ رقيق يبعثُ رائحة الرغوة والعنبر. كنتُ أتعذّب. لم يسبق قطّ أن أثارت امرأةٌ فيّ اضطراباً كهذا.

مرتعشاً من الانفعال المتواصل، قرّبتُ يدي من كتفها ولمستُ بشرتها الناعمة.

كانت آماندين، المتكوّرة على نفسها بلطفٍ بين شراشفي، تعبيراً عن الملذّات الموعودة. كان دماغي في حالة غليان. لو أتيتُ بحركةٍ خفيفة إضافية، لعشتُ ما كانت ستيفانيا قد عاشته في العالم العلوي.

انفجارٌ قويّ. لا بدّ أنّها غدّتي النخامية هي التي كانت تُثير لديّ هذا الإحساس بالألم. سارت أصابعي لبضع خطواتٍ أخرى على هذا الطريق الخطير.

أمسكت براحة يدي ودفعتها مع ابتسامةٍ حزينة.

غمغمت:

- دعنا لا نفسد صداقة جميلةً جدّاً. أنت صديقي الوحيد، ولا أُريد أن أخسرك.

138. تعليم اليوغا

يتكوّن الجسم البشري من شاكرات[1] هي أيضاً عبارة عن نقاط طاقة.

1- شاكرا: مفهوم الشاكرا وفقاً للطب الهندي التقليدي يُعزى إلى الدوامات التي تشبه العجلة، ويطلق على الشاكرات «مراكز القوة» أو جدلات الطاقة. وهي تُستخدم لاستقبال ونقل الطاقات. تطرح الأنظمة المختلفة عدداً من الشاكرات، لكن النظام الأشهر في الغرب هو سبع شاكرات. المترجم

الشاكرا الأولى: تقع فوق الأعضاء التناسلية، فوق العصعص وفتحة الشرج. وإذا كانت في حالة جيّدة، تقدّم طاقة حيوية.

الشاكرا الثانية: تقع أسفل منطقة السرّة تماماً. وإذا كانت في حالة جيّدة، تمنع القدرة على التصرّف.

الشاكرا الثالثة: تقع أسفل الضفيرة الشمسية. وإذا كانت في حالة جيّدة، تسمح للطاقات الأرضية والفضائية بجعل الجسم يشعّ.

الشاكرا الرابعة: تقع في مركز الضفيرة الشمسية. وإذا كانت في حالة جيّدة، تسمح للمرء بأن يشعر بالراحة في جلده.

الشاكرا الخامسة: وتقع أسفل الحنجرة. وإذا كانت في حالة جيّدة، تسمح بإقامة اتّصالٍ ممتاز.

الشاكرا السادسة: تقع بين الحاجبين. وإذا كانت في حالة جيّدة، تسمح للمرء بأن يشعر بطاقته الداخلية وتمنح الرؤية الثاقبة.

الشاكرا السابعة: وتقع في وسط قمة الجمجمة. وإذا كانت في حالة جيّدة، تسمح للمرء بأن يُدرك في الحال الأشياء الجوهرية.

قاعدة تعليم هاثا يوغا.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

139. ستيفانيا في غمرة اللذّة الجنسية

طلب عددٌ كبير من الصحافيين إجراء مقابلة مع ستيفانيا بحيث نظّمت أمّي مؤتمراً صحفياً في القاعة الخاصّة بهذا الأمر، في محطّة إطلاق المستكشفين في بوت شومو. استلذّت والدتي لذّة خبيثة في تعقّب كلّ ممثلي المجلات الجنسيةِ أو الإباحية ومطاردتهم في الميدان. كانت تغمغم، حانقة: «لم يعد ينقصنا سوى أن تظهر صغيرتنا ستيفانيا على أغلفة صحف الدعارة!»

جلست المستكشفة، مثل مغنّية كبيرة وشرسة، على المنصّة وفاجأت الحضور الذي كان ينتظرها منذ أكثر من ربع ساعة بإعلانها أنّها لن تتحدّث عن الملذّات التي وجدتها بعد الجدار الثاني إلّا للمؤهّلين لفهمها.

والحال أنّها لم ترَ أمامها سوى صحافيين من ذوي العقلية الصبيانية، غير القادرين على التخلّص من محرّماتهم.

قالت مع ضحكتها القويّة المدمّرة، مُحيلةً الحضور والكوكب برمّته إلى حيائهم الزائف:

– في البداية لا بدّ من تحليلٍ نفسيٍّ مناسبٍ للجميع، ومن ثمّ نستأنف حديثنا عن ذلك!

سرت همهمة احتجاجات مشوبة بالدهشة. كانت والدتي مستاءة جدّاً من إزعاج الكثير من الناس من دون سبب. في المرّة القادمة، لن يستجيب أحدٌ لدعواتها وهذا الأمر لن يكون جيّداً للتجارة!

إنّ اكتشاف أرضٍ مكرّسة للنشوة كان حدثاً مهمّاً للغاية بحيث لا يبقى سرّياً لوقتٍ طويل. ولم تتوانَ بعض الإشاعات عن السريان، وكانت تزداد سخونةً كلّما افتقرنا إلى معلومات دقيقة.

قامت أحزاب رجعية وحركات محافظة أو أصولية بإدانتنا. كتبوا عبارة «وكر الساحرات»

على باب محطّتنا لإطلاق المستكشفين، التي كان يتجمّع أمامها على نحوٍ دائم متظاهرون غاضبون يلوّحون بلافتات من نوع «أوقفوا الدعارة»، «أغلقوا بيت الدعارة هذا» أو «الموت ليس ماخوراً».

ردّت على فئة من المحتجين العدوانيين الذين كانوا يلوّحون بقبضتهم:

– لم أقل قط إنّ الموت ماخورٌ. أنا بكلّ بساطة أوضّح أنّ إحدى مناطق القارة الأخيرة كانت مكاناً للذّة. ولكنني أجهل ما يوجد خلف الجدار الثالث. لقد بقي علينا الكثير من الأشياء التي يجب علينا اكتشافها.

صرخ سيّدٌ عجوز وقورٌ جدّاً، عروة سترته مزيّنة بالأوسمة:

– اصمتي، أيّتها الفتاة اللعينة!

أراد أن يصفع المستكشفة، فتدخّلنا، راؤول وأنا. تطور الشجار إلى حرب شوارع. «نحن الاثنين ضدّ الأغبياء»، غمغمتُ بهذه العبارة لكي أشجّع نفسي، ولكن كان وجهي وجسمي مزرقين بآثار الكدمات حينما قرّرت قوات حفظ النظام التدخّل لوقف الاشتباك.

قام الرئيس لوسيندير بزيارةٍ جديدة لنا.

- لقد حذّرتكم، يا أولاد! الكتمان، ثمّ الكتمان، ثمّ الكتمان. لكي نحيا سعداء، فلنحيا مختبئين. من الواضح أننا قد أزعجنا الكثير من الناس. يبعث البابا فقاعاتٍ علينا وشخصيات بارزة من كلّ الأديان والطوائف تغمرني باللعنات.

صرخت ستيفانيا:

- جميعهم من الأفظاظ. إنّهم يخافون الحقيقة، ويخشون أن يعرفوا حقيقةً الموت، وما الذي يوجد خلف كلّ هذه الجدران. هل تتخيّلون رأس البابا إذا ما صادفنا، في نهاية المطاف، إلهاً يُعلن أنّه يؤيّد الإجهاض وزواج القساوسة؟

- ربّما، يا ستيفانيا، ربّما. ولكن في الوقت الحالي، لا تنسي أنّنا لم نقابل الله بعد وأنّ الفاتيكان مؤسّسة قائمة منذ عام 1377 في حين أنّ الثاناتونوتية لا تمتلك بالكاد إلا بضعة أشهرٍ من الخبرة.

انتصبت الفتاة الإيطالية، فاتنةً وسخيّةً، وهي مستعدّة لأن تواجه الأصدقاء والخصوم.

- بربّك أيّها الرئيس، لن تجعلني أصدّق على أيّ حال أنّك على استعدادٍ لأن تنحني أمام حفنةٍ من المتعصبين!

- في السياسة، على المرء أن يجيد تقديم التنازلات، وأن يجد حلولاً توفيقية، و ....

قاطعته ستيفانيا قائلةً:

- لا تنازل، لا حلّ توفيقي. نحن هنا لكي نكافح الجهل وسوف نواصل استكشافاتنا. الإنسان لا يعرف حدوداً. وهذه هي ميزته الأولى!

رمش رئيس الجمهورية بعينيه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يواجه فيها ستيفانيا جيجيلي. لقد فهم على نحوٍ أفضل نوعية النتائج التي توصّلنا إليها. كَان على المرء أن يكون صاحب إرادة ثابتة حتى يُقارب الموت بانتظام، وهذه المرأة القصيرة والسمينة كانت تمتلك تلك الإرادة. لن يرغمها أحد، ولا أيّ سلطة عامّة، أخلاقية كانت أو دينية، على التراجع أبداً. حيّاها الرئيس باحترام.

كان للتدخّل الرئاسي نتيجة وحيدة وهي جعل ستيفانيا أكثر ثرثرةً مع

الصحافيين. من دون المزيد من التردّد، ذكرت بفظاظة الملذّات التي عرفتها في هذه المنطقة الثالثة التي تتجسّد فيها كلّ الرغبات والانحرافات.

استؤنِفَت المظاهرات واستمرّت بلا هوادة. حرم الكرسيّ الرسولي الثاناتونوتية على كلّ خدم الكنيسة الكاثوليكية، والبابوية، والرومانية تحت طائلة الحرمان من الكنيسة. داخل فقاعةٍ تُسمّى

«*Et mortis mysterium sacrum*»، أصدر البابا مرسوماً رسمياً حول الموت المحظور: كلّ رحلة لكائن حيّ نحو بلاد الموتى سابقة لوفاته سوف تُعتبَر من الآن فصاعداً خطيئة كبرى.

كانت الهتافات تتعالى تحت شرفات الفاتيكان: «الموت للهراطقة!»، وكان أنصارنا يردّون على مطلقي هذه الهتافات بعبارة: «فلنقضم تفّاحة المعرفة!»

كان كلّ هذا الهيجان سواء بالنسبة إلينا، ولكنّ الرئيس لوسيندير لم يستخفّ به. كانت الكنيسة لا تزال تحتفظ بتأثيرٍ كبيرٍ في البلاد، وكان يحتاج إلى كلّ الأصوات المحتملة من أجل إعادة انتخابه في المستقبل.

صرّحت ستيفانيا لمجلّة *المستكشف الصغير المُصوّر*، قائلةً: «أنا سعيدة إذا كان الموت يؤدّي إلى النشوة الجنسية، ولا يهمّني إن كان الكثير من الأفظاظ يعتبرون من الآن فصاعداً الموت على أنّه مكانٌ للدعارة!» لم تكن صديقتنا تسير في الطريق الخطأ، ومع ذلك لم نكن واثقين جدّاً من أنفسنا.

يخاف الناس دائماً ممّا هو جديد. وبالتالي، كانت ظاهرة الانكفاء أمراً لا رجعة فيه. وكنّا قد حظينا من قبل بفرصة القدرة على الذهاب بعيداً جدّاً من دون عقبات.

140. كتاب التاريخ المدرسي

كيف يمكن التخلّص من المسنّين

في بعض ثقافات العصور القديمة، كانت هناك ممارسات تهدف إلى التخلّص من الأشخاص الطاعنين في السنّ، وبالتالي غير صالحين للحياة

الاقتصادية أو الاجتماعية. عند سكّان الأسكيمو، كان يتمّ التخلّص من الجدّة العجوز من خلال أخذها بعيداً على طبقة جليدية حيث تقدّم نفسها طعاماً للدببة. وبشكلٍ عام، كانت تذهب إلى هناك بنفسها حين تعتبر نفسها زائدة في مجتمعها. وعند بعض الأسر النورماندية، كانوا يدعون المسنّين يتسلّقون سلّماً، ثمّ يقومون بنشر القضبان الأخيرة. وكانوا يردّدون الجملة الطقوسية التالية: «تعالي، أيّتها الجدّة، اصعدي إلى السقيفة». إلى السقيفة ...

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

141. لوسيندير يقترح فكرةً

في المرّة التالية، اختار لوسيندير أن يلتقي معنا في ملعبه. اعتقد أننا سنكون، في ضيافته، أكثر مرونةً، فدعانا إلى قصر الإليزيه. لم يكن وحيداً في مكتبه الرسمي الخاصّ بالعمل، بل كانت هناك أيضاً امرأةٌ ترتدي بزّة رسمية.

شرح لنا رئيس الدولة أنّه لا يريد الدخول في حربٍ مع الأديان. قال لنا:

– إنكم تخطئون في التقليل من شأن السلطات القديمة. لا تستطيع الحداثة أن تفرض نفسها بطريقة متسرّعة. علينا أن نتفاهم.

لم تتقبّل ستيفانيا تبريره. قالت:

– أنت لا تعرف ما رأيتُه، وبالتالي لا أرى ما الذي سيمكننا التفاهم عليه.

– من المؤكّد أننا لم نحظَ بفرصة النزول في البلاد الحمراء، ولكن، فلنقل إنّنا قادرون على فهم ما شعرتِ به هناك.

صاحت ستيفانيا:

– مغرور! من يستطيع أن يدّعي أنّه يفهم رغبات امرأة!

لم تستطع آماندين أن تكتم زفرة خفيفة تعبيراً عن الضيق.

لِم يكن لوسيندير يرغب في أن يدع نفسه ينجرّ إلى منحدر الاستفزاز، مهما يكن من أمر. كان يرى أنّ مواجهة الأديان لن تكون مفيدة في أيّ شيء. فهذه الأديان لم تكن لا جيّدة ولا سيّئة، إنّها لم تكن تفعل شيئاً سوى محاولة إنقاذ نفسها.

ذكّرنا راؤول بأنّ داروين كان قد نال شهرة عالمية فقط من خلال تهجّمه

على الأديان، وبأنّ الداروينية ما كانت لتشتهر بهذه السرعة الكبيرة لولا هذا الاستفزاز. أمّا لامارك، الذي لم يُدرك هذا الأمر، فقد اختفى في زنازين التاريخ المنسية.

قبل لوسينديو بالذريعة، ولكنّه مع ذلك ظلّ مصرّاً بثبات على التمسّك بطموحه في جمع الجميع حوله، من رجعيين وحداثيين.

– هناك وسيلة للتوفيق بين الجناح اليساري والجناح اليميني. يجب أن نعيد الثاناتونوتية إلى العقلانية. دعونا نجيب على الدين من خلال العلم. علينا الآن أن نُسكِتَ آخر المشككين وإلّا لن نستطيع أن نفعل ذلك أبداً، ومن هنا تأتي فكرتي في اللجوء إلى السيّدة.

قدّم لنا السيّدة ذات البزّة الرسمية. شرح لنا لوسينديو:

– البروفيسورة روز سولال عالمة فيزياء فلكية وعالمة فلك. وهي تعمل منذ زمنٍ طويل على مشروعٍ خاصّ، يُدعى «عَدَن». مشروع «عَدَن»، ومشروع «فردوس»، وكما ترون فإنّ أبحاثكم تقدّم بعض أوجه التشابه، إذ إنّ هدف مشروع «عَدَن» هو اكتشاف التموضع الدقيق للـ... فردوس في الفضاء. تحديد موقع الفردوس في الفضاء، هو هدفٌ يبدو لنا صعب الإدراك. لقد تحدّثنا بكلّ تأكيد على الدوام عن «قارة الموتى»، ولكن ذلك لم يكن بالنسبة إلينا سوى رؤية من العقل. كنّا ننظر إلى العالم الآخر كبعدٍ آخر، كواقعٍ مختلف يستقبل الروح لدى خروجها من جسدنا. إنّه كونٌ موازٍ بطريقة أو أخرى. تلك كانت فرضيتنا. لم يخطر في بالنا قط أنّه من الممكن أن يكون هذا البلد موجوداً بالفعل في السماء المرصّعة بالنجوم التي تطلّ فوق رؤوسنا. من المؤكّد أنّ عدداً من الشعوب في العصور القديمة كانت مقتنعة بذلك، ولكن الكثير من الصواريخ، والمكاكيك، وبعثات سبوتنيك أو آبولو المرسلة إلى الفضاء كانت قد أثبتت لنا أنّ السماء لم تكن مأهولة سوى بالمجرّات والنجوم!

كان الرئيس لوسينديو بالتأكيد رجلاً غير عاديّ ومميّزاً جداً، منفتحاً على التجارب الأكثر جرأةً. ومنذ صبيحة اليوم التالي، انضمّت روز سولال إلى فريقنا في محطّة إطلاق المستكشفين في بوت شومو، فأصبحنا خمسة أشخاص نعمل فيها معاً.

142. الجغرافيا السماوية

يُعدّ سفر التكوين أوّل نص قدّم موقعاً جغرافياً محدّداً للفردوس: ملتقى منابع نهري بلاد الرافدين دجلة والفرات. في عام 379، أصبح القديس باسيليوس رائداً في مجال علم الفلك من خلال وضعه للفردوس ما وراء سماء النجوم، في كونٍ أكثر قدماً من العالم المرئي.

غير أنّ دانتي، لكونه شاعراً، يعتقد مع ذلك أنّ الفردوس ينبغي أن يقع في مكانٍ ملموسٍ تماماً، وفي هذه الحالة، في «الغلاف» الذي يُحيط بالنجوم، حسب رأيه. أمّا اليسوعي الألماني جيريمي دريكسل (1581–1638) فقد انكبّ على إجراء حساباتٍ معقّدة لكي يؤكّد أنّ المختارين للفردوس ينصرفون إلى مسافةٍ تبعد بالضبط مسافة مئة وواحد وستين مليون ومئة وثمانمئة وأربعة وثمانين ألفاً وتسعمئة وثلاثة وأربعين ميلاً من الأرض. في حين أنّ توماس هنري مارتن (1813–1933) كان يتمتّع برؤية أوسع، فهو يقول: الفردوس موجود في كلّ الأجرام السماوية.

كان جيرمان بورتر (1853–1933)، مدير مرصد سينسيناتي (أوهايو) والطالب السابق في دراسة اللاهوت، يبحث في مناظيره المقرّبة عن الموقع الفلكي للفردوس. لقد كان مقتنعاً بأنّ العلماء، من كثرة استكشافهم لقبّة السماء، لن يتخلّفوا عن اكتشاف «أورشليم السماوية».

يؤكّد القس توماس هاملتون (1842–1925)، من خلال استخدام أعمال الفلكيين ميدلر وبروكتور، أنّ الفردوس يوجد على نجم ألسيوني، ضمن مجموعة «البلياد»، على بعد خمسمئة سنة ضوئية من كوكبنا. وكان عالم الفيزياء الفرنسي لويس فيغييه (1819–1863) قد وضع قبل ذلك ما كان يسمّيه «قصر الموتى» في الشمس. كان يؤكّد، وفق منطق عصره أنّه: «لا يمكن للفردوس أن يكون أبعد من هذا، وإلّا فسوف يقضي المختارون للفردوس الكثير من الوقت لكي يصلوا إليه».

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

143. الكمين

كنتُ نائماً في هدوء في شقّتي الواقعة في الطابق الثالث من مبنى محطّة إطلاق المستكشفين، حين أيقظني شيءٌ ما على حين غرّة. كان صوت خشخشة، صوتٌ خافت ... جلستُ في سريري، وقد استنفرت كلّ حواسي فجأةً. تحسّست بيدي طاولة سريري بحثاً عن نظاراتي، ولكنّها لم تكن عليها. يا لها من مشكلة! لا بدّ أنني كنتُ قد نسيتُها على طاولة مكتبي! والحال إن كان هناك لصٌّ في الغرفة، كان لا بدّ أن أنهض وأذهب بحثاً عن نظاراتي، وبالتأكيد، لن يترك المجرم لي فرصة القيام بذلك، وسيُطيح بي قبل أن أنجح في العثور على نظاراتي.

ما العمل؟ كنتُ أفكر بأقصى سرعة، وقرّرتُ أنّ خيرَ وسيلة للدفاع هي الهجوم. لا ينبغي أن يعلم الرجل أنني لا أستطيع أن أراه.

صرختُ وسط الظلام:

- هيا انصرف من هنا! ليس هناك أيّ شيء يهمّك في هذا المكان!

لم أتلقّ جواباً. وإذا كنتُ لا أرى شيئاً، فإنني كنتُ أشعر بوضوح بحضور أحدهم. كان شخصٌ غريب في غرفتي.

ردّدتُ وأنا أسعى لإشعال الضوء:

- اخرج!

قفزتُ من بين شراشف سريري، وقلتُ في نفسي إنّه من حسن حظّي أنني أرتدي منامةً، كما لو أنّ لهذا الأمر أهمية في هكذا لحظة حرجة. كنتُ أحفظ عن ظهر قلب مكان قاطع الكهرباء، فأسرعتُ إلى إنارة الضوء. لم يكن هناك أحدٌ في الغرفة. يبدو أنني كنتُ قد لمحتُ شبحاً، وإن كان غامضاً. ولكن الآن، لم يعد هناك أدنى شكّ: لقد كانت الغرفة فارغة. ومع ذلك كنتُ متأكّداً من أنّه كان هناك أحدٌ ما، وهو، علاوة على ذلك، عدوانيٌّ.

وقد حدث آنذاك شيءٌ رهيب. تلقّيتُ لكمةً في صدري. ضربةٌ مسدّدة من العدم، أو من الرجل غير المرئي!

انتهى بي الأمر إلى العثور على نظاراتي. فأمسكتُ بها ووضعتها بسرعة

على أنفي. ومع ذلك لم أرَ شيئاً. تُرى هل حلمتُ بهذه الضربة في نهاية كابوسٍ لم أعد أتذكّره، ولكنّه أيقظني من النوم؟

هززتُ رأسي يمنة ويسرة، ثمّ أطفأتُ الضوء وعدتُ إلى النوم، مُبقياً نظاراتي أمام عينيّ، تمدّدتُ في السرير وسحبتُ الشراشف حتى كتفيّ وانتظرت ...

وفي هذه اللحظة بالذات، تجلّى الأمر بالفعل. ولج إليّ حضورٌ متسرّبٌ من أصابع قدمي، ومجتاح جسدي. يا له من إحساسٍ فظيع! ليس مهمّاً أيّ لصٍّ كان مفضّلاً لهذا الإكتوبلازم وكان يهاجمني. ويتكلم!

- كفّ عن المسّ بالقوى التي لا تفهمها!

قاومتُ ولكن كيف لي أن أدافع عن نفسي ضدّ روحٍ تنصب لي كميناً؟ صرختُ:

- من أنت؟ من أنت؟

ولكنني كنتُ أعرف طبيعة عدوّي: إنّه بكلّ تأكيد رجل دينٍ يحرص على أن يُرغمنا على إيقاف كلّ تجربة ثاناتونوتية.

كافحتُ دفاعاً عن نفسي ولكنّه ظلّ يتقدّم نحوي. وصل الإكتوبلازم إلى ركبتيّ، ثمّ إلى بطني، وأصبح يخفق أحشائي من الداخل.

كانت القوى الخفية قد قرّرت بهذه الطريقة أن تُعلن الحرب علينا. بطريقتنا، وبطريقتها. من خلال التأمّل، ومن خلال الخروج من الجسد، ومن الخلال الهجوم الإكتوبلازمي. لقد كنّا قد قلّلنا من شأن خصومنا. كيف يمكننا أن ندافع عن أنفسنا في مواجهة أعداءٍ يعبرون كلّ الجدران وحتى كلّ حواجز أجسادنا؟ لم يعد جسدي ينتمي إليّ، فقد أصبح مسكوناً برجل دينٍ متعصّبٍ غدا مجنوناً حانقاً من جرّاء أبحاثنا حول الفردوس. لو كان خورياً، هل كان سيفرّ لو أنني جثوتُ على ركبتيّ وصلّيتُ لمريم العذراء؟

ولكن الركوع لا يليقُ بمقاتلٍ، والغريب في الأمر أنّ ما راود ذهني في تلك اللحظة الرهيبة، كان عبارة عن ذكرى درسٍ في رماية السهم بقوس زين البوذي. فلكي تنجح رمية الرامي، عليه أن يتخيّل الهدف في ذهنه، فيصبح المرء هو القوس ومركز الهدف، بل والسهم أيضاً. ويكون السهم على موعدٍ مع مركز الهدف.

نهضتُ من سريري، واتّخذتُ وضعية الاستعداد للقتال، وأغمضتُ عينيّ. وفي الحال، ظهر لي خصمي. كنتُ أتعامل مع إكتوبلازم كاهنٍ قصير القامة ونحيف، عندما أرفعُ أجفاني يختفي، وحينما أخفضهم يحضر واقفاً أمامي مستعدّاً لمبارزةٍ أجهل قواعدها. يا لها من مفارقة أن يضطرّ المرء لإغماض عينيه لكي يرى على نحوٍ أفضل! يتصرّف الأطفال بهذه الطريقة لطرد الخطر، لا البالغون!

أغمضتُ عينيّ بإحكام، وتصوّرتُ تماماً خصمي وقلّصته في ذهني، ثمّ وضعتُ قوساً شفّافاً بين يديّ واتّخذتُ وضعية الرامي الذي ينصب سلاحه.

توقّف الإكتوبلازم عن الضحك.

كنّا روحين في جسدٍ واحد. روحه وروحي. أخرج هو الآخر سهماً ووضعه على خدّي. أطلقتُ سهمي، وأطلقَ هو أيضاً سهمه في نفس اللحظة. أصاب سهمي الإكتوبلازم في جبينه. وسقطتُ أرضاً.

144. فلسفة فارسية

«لا أدري إن كان الذي
خلقني قدّر لي الجنّة
أو الجحيم.
كأسٌ، وفتاةٌ، وعودٌ على حافة حقلٍ،
أكتفي بها نقداً، وأترك لك فردوسك دَيْناً.
أيّها الجاهل، هذا الجسد المادي لا شيء،
وحلقة السماوات، ووجه الأرض لا شيء.
انتبه في هذا الصراع بين الموت والحياة،
نحن مربوطون بنفحةٍ وهذه النفحة لا شيء.
لا تتبع السعادة، فالحياة لحظة تنهيدة».

عمر الخيام
(1050–1123) الرباعيات.
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

145. استمارة شرطة

ملاحظة إلى الجهات المختصّة

سرت قلاقل بين ممثلي الحركة الثاناتونوتية. وددنا لو أننا اقتلعنا هذه التجارب من جذورها. لقد غدت الحركة الثاناتونوتية خطراً علينا جميعاً. وكان قد سبق لنا أن أشرنا في مرّات عديدة إلى ضرورة التدخّل، وطالبنا بمنحنا الإذن بالتصرّف.

جواب من الجهات المختصّة:

من الضرورة البالغة الانتظار. الوضع تحت السيطرة. هذا قلقٌ سابقٌ لأوانه.

146. استمرار المنافسة

كان الظلام والصمت سائدين.

وأخيراً فتحتُ عينيّ. كان الضوء خافتاً. ظهر شبحٌ ساحر ونحيل وسط هالة الضوء. لا بدّ أنّها ملاكٌ.

انحنت عليّ، فوجدتها تشبه على نحوٍ غريب امرأة، لكن امرأة جميلة، كما لم نرَ مثلها على الأرض.

كانت شقراء وذات عينين زرقاوين زرقة داكنة. وكانت رائحة عطرها من رائحة المشمش.

كان كلّ شيء من حولنا الآن أبيض اللونْ وصافياً.

تفوّهت بكلمات لا ترابط بينها وغير مفهومة:

- أوي... أون... ايو... جو... اي... او.

لا بدّ أنّ الملائكة تتكلّم بلغة خاصّة بها، لغة ملائكية غير مفهومة بالنسبة إلَى غير الملائكة.

- أوي... مون... ايو... جوتي... او.

ردّدت بأناةٍ ترنيمتها ومرّرت يداً ناعمة وباردة على جبيني الأملس.

- أنت بطلي. أحبّك.

نظرتُ من حولي، مذهولاً بشكلٍ ملحوظ.

- أين أنا؟ في الفردوس؟

- كلّا. في قسم الإنعاش في مستشفى سان لويس.

ابتسمت الملاك، مطمئِنَةً... كنتُ أعرف هذا الوجه. كنتُ سأتعرّف عليه من بين ألف وجه. آماندين. قفزتُ في مكاني. عاد كلّ شيء إلى ذاكرتي. كنتُ قد كافحتُ ضدّ إكتوبلازم متشدّد.

- هل أُغمي عليّ؟

- نعم، منذ ثلاث ساعات.

وضعت آماندين وسادة خلف ظهري في منطقة الكليتين لكي أستطيع الجلوس على نحوٍ أكثر راحةً. لم يسبق لي أن رأيتها قط وهي تهتمّ بأمري هذا الاهتمام البالغ.

كان راؤول، وستيفانيا، وعالمة الفيزياء الفلكية، بالقرب منها، يترقّبون ردود أفعالي. شرح لي راؤول أنّ ستيفانيا استيقظت على صوت صرخاتي، وقد أسرعت إلى شقّتي وحضرت اللحظات الأخيرة من المبارزة.

قالت الفتاة الإيطالية، متنهّدةً:

- كنّا سنعتقد أننا في فيلم *النزاع المسلّح في أو كيه كورال*[1]. لم أحظَ حتى بالوقت لكي أتدخّل قبل أن تقضي عليه.

- هل... هل... مات؟

- الإيكتوبلازمات لا تموت بهذه الطريقة. لا بدّ أن صاحبك قد عاد على الفور إلى غلافه الجسدي. دعونا نأمل أن يكون هذا الفضولي قد أخبر أصدقاءه بأنّ المنزل محميٌّ جيّداً.

عانقتني آماندين وقبّلتني، قائلةً:

- حبيبي! فلنفكّر بأننا كنّا في غالب الأحيان قريبين جدّاً بعضنا من بعض،

1- النزاع المسلّح في أو كيه كورال: فيلم سينمائي أمريكي يستند إلى واقعة تبادل لإطلاق النار بين مجموعة من رجال القانون ومجموعة من الخارجين عن القانون سُمّيت برعاة البقر، حدثت في 26 اكتوبر / تشرين الأوّل 1881 في أمريكا، ويُعتبَر أشهر تبادل لإطلاق النار في تاريخ الغرب الأمريكي المتوحّش. المترجم

وبأنني لم أشكّ أبداً في أنّك كنتَ الأفضل. لا بدّ أنّه كان يجب أن يحدث هذا الأمر الفظيع لكي أتحقّق من أنّك محاربٌ. محاربٌ حقيقي!

ألصقت نفسها بي، وشعرتُ بعذوبة ونعومة نهديها على ذراعيّ. وشقّ لسانٌ شرهٌ طريقه بين شفتي. من المؤكّد أنّ هذه القبلة لم تتركني لامبالياً. لقد انتظرتُ طويلاً هذه اللحظة...

147. ميثولوجيا يهودية

جيلغوليم: *الزوهار*، «كتاب الإشـراق»، الكتاب الذي يُعدّ مرجعاً للقبلانيين[1] اليهود، وهو يعزو العديد من الأسباب إلى عمليات التناسخ. (جيلغوليم تعني حرفيّاً «تحوّلات») من بين هذه التحوّلات: ألّا يكون المرء قد أنجب أطفالاً، وألّا يكون قد تزوج. وعلاوة على ذلك، إذا ما تزوّج أحدهم ولكنّه مات دون أن ينجب أطفالاً، فالزوج والزوجة سوف يمرّان بعملية تناسخ قبل أن يقترنا من جديد في حياتين أخريين. لأنّه بالنسبة إلى القبلانيين، يضمّ الاقتران بين رجلٍ وامرأة الأبعاد الثلاثة، الجسدية والعاطفية والروحية، ويشكّل طريقاً رئيسياً نحو اللانهاية.

تعتبر التقاليد اليهودية أنّه من الشائع، عموماً، أن يتعرّف أزواجٌ بعضهم على بعض في حيواتٍ أخرى.

امرأة بلا طفل: يروي نصٌّ من كتاب القبالة اليهودية أنّ رجلاً قد تأكّد من أنّه غير قادرٍ على الإنجاب. فشرح له حكيمٌ أنّ زوجته لم تكن في الواقع شريكته بالفعل. كان قد تلقّاها كملكيةٍ في حين أنّه لم يكن مالكاً. وبما أنّ روح زوجته كانت ذات طبيعة ذكورية بعمق، كان من الطبيعي ألّا تستطيع أن تمنحه ذرّية.

زواج: حسب كتاب *الزوهار*، يشكّل الزواج أرضية مهمّة للتجربة، وهو جَوهريٌّ للنماء الروحي. يقترن الأزواج من أجل حلّ النزاعات الضارّة بنموّهم الداخلي. لكلِّ رجلٍ، ولكلّ امرأة، الآخر الذي يستحقّه.

1- القبلانيون: نسبةً إلى القبالة اليهودية التي تعني تفسير اليهود للتوراة صوفياً ورمزياً حسب التقاليد كما كان القدامى يفعلون. المترجم

تربية طفلٍ: وعلى نحوٍ مماثل، اعتُبِرَت تجربة تربية طفلٍ عنصراً ضرورياً للوجود الدنيوي. إذا لم يكن المرءُ قادراً على أن يربّي طفلاً تربية سليمة خلال واحدةٍ من حيواته على الأقلّ، فسوف يستمرّ في عملية التناسخ إلى حين النجاح التامّ في عملية التربية.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

148. وأخيراً أصبحنا معاً

في اليوم التالي لمعركتي، وقد شُفيتُ بالكاد من كدماتي ورضوضي، دعتني آماندين إلى تناول العشاء في بيتها، في شقّتها الواقعة في الطابق الثاني. كانت قد أعدّت طاولة رومانسية، زيّنتها بالأزهار والشموع المعطّرة.

سألتني بغتةً:

– هل تعتقد، يا مايكل، أنّ بعض الأشخاص مقدّر لهم أن يعيشوا معاً؟

ازدردتُ بطريقة عرضية لقمةً من الخبز المحمّص بقطعة من السلمون النرويجي وشربتُ كأساً من الشامبانيا. وأجبتُها:

– نعم، من دون أدنى شكّ.

– ألا تعتقد أنّه على الرغم من العقبات العديدة، فإنّ أولئك المقدّر لهم اللقاء ينتهون إلى العثور بعضهم على بعض، لأنّ قدرهما مكتوب في مكانٍ ما بين دفّتي كتابٍ عظيم؟

وافقتُها الرأي مرّة ثانية، في حين واصلت حبيبتي حديثها:

– أنا على قناعة بأنّه حينما تعبر ستيفانيا، في العالم الآخر، الباب الثاني، سوف تكتشف كتاب الطلاسم ذاك الذي يحتوي على قائمة كلّ أزواج الماضي والمستقبل.

تأمّلتُ في الفكرة التي عرضتها، وسألتُها:

– هل سيكون هذا بالفعل أمراً حسناً؟

– بالطبع، لن يعود المرء يُضيّع وقته في التسكّع العبثي. هؤلاء المقدّر لهم أن يحبّوا بعضهم بعضاً سوف يحبّون بعضهم بعضاً منذ البداية وعلى الفور. لن تعود هناك حالات زواج مصلحة، ولن تعود هناك أخطاء في

التقدير، ولن تعود هناك خيانات زوجية، ولا حالات طلاق. سوف يجد كلّ مفتاح قفله الوحيد. أنا مقتنعة بهذا.

– ربّما.

– كلا، هذا ليس احتمالاً. لقاؤنا ليس مصادفةً، يا مايكل. كان علينا منذ البداية أن نصل إلى هذه اللحظة. كان هذا قدراً مكتوباً.

لم أجبها. حاولتُ أن أُلهيها. جاءت وجلست على ركبتيّ وطوّقتني بذراعيها الحسّاستين. لقد حانت أخيراً اللحظة التي حلمتُ بها كثيراً.

همست وهي تبثّ أنفاسها على رقبتي:

– أنت خجول، يا مايكل، ولكنني سوف أعرف كيف أشفيكَ من خجلك.

149. حفلة زفاف مزدوجة

بعد مرور أسبوع على تلك الليلة، تزوّجت.

سارت الأمور كلّها بسرعة كبيرة. كنتُ قد اتّخذتُ قراري، وراؤول أيضاً.

في حدائق الإليزيه الفخمة التي فتحها أمامنا الرئيس لوسينديير بطيب خاطر، احتفلنا بزفافٍ مزدوجٍ، بحضور كلّ نخبة عالم السياسة وصناعة الترفيه المدعوة إلى الحفلة.

في بزّته الرسمية السموكينغ النافرة حول كتفيه، كان راؤول يبدو أكثر من أيّ وقتٍ مضى في هيئة طيرٍ جارحٍ يتهيّأ للانقضاض على فريسته، وهي في هذه الحالة ستيفانيا، دجاجة صغيرة بين ذراعيه، في ثوبٍ ضيّقٍ وقصير يُبرز أكثر من ذي قبل مفاتن جسدها الجذّابة.

أمّا أنا، فقد كنتُ مرتاحاً جدّاً في بزّتي السموكينغ الزرقاء الداكنة التي استأجرتُها للمناسبة.

كانت امرأة حياتي ترتدي فستاناً طويلاً يصلُ إلى الأرض.

كانت روز تشعّ فرحاً وسعادةً. وخلفها، كانت آماندين تجهد لكي تبدو مبتهجة. جرى كلّ شيء بسرعة كبيرة!

تلقينا التهاني من المدعوين. تصافحنا، روز وأنا، وراؤول وستيفانيا،

مراراً وتكراراً. كنتُ قد اخترتُ بالطبع كشهود على زواجنا راؤول وآماندين، رفيقَيّ منذ البداية. فضلاً عن ذلك، كنتُ أدين بهذا الأمر لآماندين.

كانت هناك حاجة إلى تصريحها العاطفي لكي أكتشف خطأ تركيزي الغرامي وعمى رغبتي. كانت المرأة التي أحتاجها تُدعى روز.

150. فلسفة يهودية

«الأنا ليست نقطة خاصّة ولا هي نقطة تقاطع الفضاء. الأنا ليست هي نفسها بالنسبة إلى جميع البشر. وهي ليست متماثلة عند نفس الإنسان في المراحل المختلفة من نموّه. خلال المراحل الأولى من الحياة، تكاد الأنا تقتصر على حياة الجسد، في حين قلما تظهر أعلى درجات الذكاء والتعقّل، إلّا إذا كان ذلك لا شعورياً. حينما يكبر، يصبح كلّ كائن بشري، في حدود إمكانياته، أكثر إدراكاً للجوهر السامي لروحه.

هذا العلوّ يتمثّل في ارتقاء سلّم حياة الروح درجة بعد درجة. ننتقل من الروح الحيوانية لكي نذهب إلى المجال الحيوي الذي نحمله جميعاً في دواخلنا».

الوردة ذات الثلاث عشرة بتلة. القبالة اليهودية، أدين شتاينسالتس.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

151. مثل ضريرٍ

بعد أن انتهى الاحتفال، وانقضت ليالي الزفاف، استأنفنا رحلات الطيران. كانت ستيفانيا في قمّة لياقتها، ونجحت في الحال في القيام بثلاث عمليات إقلاع. حفظتُ بياناتها على برنامجٍ للمعلوماتية، يُعيد تصميم القارة الأخيرة. وبفضل هذا البرنامج، كنّا نستطيع أن نفحص من كلّ الزوايا كلّ قطعة أرض من بلاد الموتى. كان إجمالي هذه البلاد يشبه بوقاً واسع الفتحة على نحوٍ كبير. موخ 1، موخ 2، موخ 3، ***الأرض المجهولة***، كانت الرموز والإشارات تُظهر الطريق الذي سُلِكَ من قبل.

في محطّات إطلاق المستكشفين في العالم أجمع، كانت فرقٌ تنهمك في العمل، ولكنّ الإيكتوبلازمات التي كانت تنجح في التغلّب على ذكرياتها كانت تتعثّر في المنطقة الحمراء الخاصّة باللذّة وغالباً ما كانت تبقى فيها ولا تعود. على الأرض، في كراسيهم، كان مستكشفون راحلون يرسمون على شفاههم ابتسامات عريضة، بحيث بدأنا نعتبر أنّ موخ 3 كان في الواقع العتبة الخالصة والبسيطة للموت وأنّ لا أحد يستطيع أن يعبرها ويعود منها. سوف تحتفظ القارة الأخيرة بلغزها، المحفوظ بهالةٍ من الملذّات. ففي نهاية المطاف، كانت رعشة الجماع قد وُصِفَت في غالب الأحيان بـ «الموت الصغير». ومثل كلّ نقطة تحوّل جوهرية بالفعل، جمعنا راؤول في مقبرة بير لاشيز. خاطبنا، قائلاً:

– أصدقائي الأعزّاء، هنا تتوقّف من دون شكّ تجاربنا. حتى أكثر منافسينا الأجانب براعةً توقّفوا عاجزين أمام موخ 3.

رفع عينيه نحو ضوء النجوم كما لو أنّه ينتظر هبوط فكرة جديدة عليه من السماء.

احتجّت ستيفانيا على القرار، وقالت:

– وعلى الرغم من ذلك، سوف أبذل أفضل ما لديّ من جهد. ولكن حينما وصلتُ إلى الجدار الثالث، شُدّ حبلي السُرّي بشدّة بحيثُ شعرتُ بأنّه سوف ينقطع إذا ما جذبته أكثر.

ردّد صديقي راؤول:

– تلزمنا فكرةٌ جديدة.

اقتربت روز منّي، ثمّ همست في أذني:

– ربّما يكون هذا نوعاً من الحماقة، ولكنني لاحظتُ ذات يومٍ ظاهرةً غريبة.

– ما هي، يا عزيزتي؟

– كنتُ أحضرُ عملية إقلاع ستيفانيا، وأستمع إلى الراديو.

– نعم، وماذا بعد ذلك؟

– في اللحظة التي تباطأت فيها دقّات قلبها، حدث فجأةً ما يشبه صريراً في مكبّر الصوت.

نعم. في ذلك اليوم، اكتشفت روز، بمحض الصدفة، أوّل نظامٍ لكشف الهالة.

152. استمارة شرطة

الكنية: سولال

الاسم: روز

لون الشعر: أسود

الطول: 170 سم

علامات فارقة: لا توجد

ملاحظات: رائدة الحركة الثاناتونوتية. عالمة فلك، وعالمة فيزياء فلكية. زوجة وزميلة مايكل بينسون.

نقطة الضعف: عالمة.

153. ميثولوجيا ميزوبوتامية

«توجد نبتةٌ مثل الشوك
تنبتُ في أعماق المياه
سوف تغز شوكها في يديك
كما تفعل الوردة
إذا ما اقتلعت يداك
هذه النبتة، سوف تجد
الحياة الجديدة».

ملحمة جلجامش

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

154. يوريكا!

مع اكتشاف روز، نشطتْ كلّ أعمالنا. كنا ننطلق على طريقٍ جديد. كنا

قد علمنا سابقاً أنّ الدماغ يبثّ أمواجاً، على سبيل المثال ألفا أو بيتا، خلال أطوار النوم أو الأطوار القريبة من النوم. وبالتالي كان من المنطقي أن يتدخّل النشاط الإشعاعي للدماغ في لحظة عملية الخروج من الجسد.

جرت عملية الإقلاع التالية التي قامت بها ستيفانيا بالقرب من ترانزستور. وفي الواقع سُمِعَ صوتٌ ضعيف صادرٌ عن سلاشٍ، لقد تمّت عملية الخروج من الجسد بالفعل مرفقةً ببثّ الأمواج.

صمّم راؤول نظاماً حسّاساً للتوتّرات العالية والمنخفضة والمتوسّطة، بهدف اكتشاف طول الموجة التي تبدأ عندها بالضبط الإكتوبلازمات بالبثّ. غرقت ستيفانيا في تأمّلٍ قصير، ومن جديد، رنّ *السلاش* مصدراً صوتاً يشبه زمجرة النمر. تفحّصنا هذا «الأثر» على جهاز كشف الاهتزازات. كان الأمر يتعلّق بطول موجةٍ منخفضة جدّاً، لها ذروات متباعدة جدّاً.

نقر راؤول على العديد من المفاتيح والأزرار. ظهر خطٌّ تعلوه أعدادٌ على شاشة جهاز كشف الاهتزازات. دوّن الأرقام على لوحٍ للتردّدات... انطلقت إشعاعات غاما صغيرة لم تنفصل ذرواتها بعضها عن بعض إلّا بمقدار أنجستروم واحد، تلتها فوقها أشعّة إكس ومن بعدها الأشعة فوق البنفسجية. تجاوز طيف الألوان المرئية بالعين المجرّدة وكانت ذروتها تبلغ سنتيمتراً واحداً، والأمواج التلفزيونية البالغة متراً واحداً، وأمواج الراديو، ومن ثمّ وصل إلى شاطئ «الأمواج الدماغية». أجرى بعض عمليات الضبط والمعايرة الإضافية.

ثمّ أعلن:

– نحن نتعامل مع أمواج بالغة الطول تنفصل بعضها عن بعض لأكثر من كيلومترٍ واحدٍ. الأمر يتعلّق بتردّد راديو منخفضٍ جدّاً يبلغ حوالي ستة وثمانين كيلوهرتزاً.

أطلقنا صيحات الفرح. لقد امتلكنا أخيراً دليلاً علميّاً، مادّياً، على النشاط اللاجسدي لمستكشفي الموت. لن يستطيع أحدٌ أن ينكر بعد الآن حقيقة تجاربنا.

حالما أُبلغ رئيس الدولة بالأمر، قرّر لوسيندير أن يخصّص لنا ميزانية إضافية، أخذها من الصندوق الأسود للرئاسة.

وبوساطة الأدوات الأكثر تطوّراً، حدّدنا على نحوٍ دقيق بصمة ستيفانيا الإكتوبلازمية: ستة وثمانون فارزة أربعة كيلوهرتزات. صمّم راؤول كاشفاً للتحليق يسمح بمعرفة الثانية المحدّدة بدقّة التي سوف ينفصل فيها الجسد الحيوي لستيفانيا عن جسدها المادّي.

منذ ذلك الحين، كان سؤالٌ يفرض نفسه: أين تقع القارة الأخيرة جغرافياً؟ في الواقع، إذا كان الإكتوبلازم يسافر مع البقاء قابلاً للكشف بفضل نظامٍ لاسلكي، كان علينا أن نكون قادرين على متابعة تنقلّاته. وبالتالي، أين كانَ الفردوس، إذاً؟ أين كانت تقع هذه القارة غير الماديّة التي كنا نرسم خرائطها منذ زمنٍ طويل ونحن نجهل موقعها؟

وفي أعلى نقطة من مبنى محطّتنا لإطلاق المستكشفين، نصبتُ هوائياً مكافئاً[1]، أو بالأحرى مقراباً لاسلكياً، قطره خمسة أمتار. كان أشبه بزهرة أقحوان جميلة فوق سطح شقّتنا العلوية.

انفتحت لنا مرحلة جديدة من غزونا لقارة الموتى. لقد دخلنا في «الطور الفلكي».

علينا بالشامبانيا!

155. ميثولوجيا تبتية

تردّد: كلّ شيء يبثّ، كلّ شيء يهتزّ. التردّد يختلف حسب النوع.
النوع المعدني: 5000 هزّة في الثانية
النوع النباتي: 10000 هزّة في الثانية
النوع الحيواني: 20000 هزّة في الثانية
النوع البشري: 35000 هزّة في الثانية
الروح: 49000 هزّة في الثانية

1- هوائي مكافئ: الهوائي المكافئ يستخدم في مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية، ويمكن استخدامه في كل من الإرسال والاستقبال. المترجم

في لحظة الموت، ينفصل الجسد النجمي عن الجسد المادّي لأنّه لا يستطيع تحمّل انخفاض تردّدات غلافه الجسدي.

تعليم *باردو ثودول*.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

156. أين يقع الفردوس؟

استقرّت ستيفانيا في وضعية اليوغا على كرسي التحليق. كانت تعلم أنّ المقراب اللاسلكي سوف يكون موصولاً اليوم، وأنّنا سوف نحاول للمرّة الأولى متابعة تحليق روحها.

كنتُ أتساءلُ أيضاً كيف سنستطيع أن نتبيّن شيئاً يتنقّل بسرعة الفكرة.

ضبطت آماندين إعدادات أجهزة القياس الفيزيولوجي. أوصل راؤول نظام الاستقبال اللاسلكي خاصّته. أمّا روز وأنا، فقد نشرنا على طاولة كبيرة مخطّط مجموعات النجوم المحيطة بالكرة الأرضية.

إنّ الاعتقاد بأنّ واحدة من هذه المجموعات قد تكون هي الفردوس...

تُرى هل كان ذلك عملاً من أعمال الهرطقة؟ الكشف عن الموقع الفيزيائي للعالم الآخر، هذا ما كان سيُغضب الأديان. كانت قد ثارت حفيظتها ضدّنا أصلاً حينما رأتنا نمسّ برأسمالهم التجاري الرئيسي!

أخفضت ستيفانيا أجفانها، وكانت هذه طريقتها في سدّ الفتحات قبل أن تغرق في التأمّل. أصبح منخراها يهزان على نحوٍ أكثر بطئاً.

حينما أحسّت أن تركيزها أصبح كافياً ليبثّ فيها الهدوء الضروري لإقلاعها، أمسكت بكمثرى قاطع البوستيرات وتفوّهت بهدوءٍ:

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة،... اثنان... واحد. انطلاق!

أرسل جهاز الاستقبال اللاسلكي، الموصول على التردّد ستاً وثمانين فارزة أربعة كيلوهرتزات، نوعاً من الأنين. كان صوت «روحٍ تنطلق»!

في القاعة، كان التوتّر العصبي على أشدّه بحيث ضغطت روز على ذراعي بقوّة. وأخيراً بات من الممكن تقفّي أثر الموت. لم يشأ راؤول أن

يقوم بدعوة الصحافة، ولكنّه تحقّق من حسن سير عمل آلة تصوير الفيديو. حيث سيكون في متناولنا على الأقلّ فيلمٌ عن هذه الرحلة التي قمنا بمراقبتها ومتابعة أحداثها.

بقينا ننتظر، في حين كانت ستيفانيا تنسلّ بسرعة الفكرة، ولكنّ الأمواج الراديوية لم تكن تسير بنفس السرعة. فكلّما كانت تبتعد، كنّا نلمح الأمواج متأخّرةً عنها. بعد مضي ثماني دقائق، حصلنا على رسالة دقيقة تتيح لنا تحديداً دقيقاً للموقع في الفضاء.

بات عليّ الآن أن ألعب أنا دوري، فاقتربتُ من شاشة مراقبة المقراب اللاسلكي. وكنّا نلتقط على نحوٍ ممتاز إشارة روح ستيفانيا. قمتُ بضبط العديد من مفاتيح وأزرار الإعدادات لتحديد المسافة التي قطعتها والاتجاه الذي تسلكه، وسرعة تقدّمها. كانت روز تعمل إلى جانبي وتنهمك في القيام بمراقبتها الخاصّة. قالت:

- لقد نجح الأمر. أنا أيضاً التقطتُ الإشارة.

أمسكت بمسطرتين بلاستيكيتين وصالبتهما في المنطقة التي رصدت فيها الإرسال، وحددت موقعها بالنسبة إلى المحور القطبي.

- غاصت ستيفانيا نحو مجموعة الدبّ الأكبر. لقد تجاوزت لتوّها زُحَل. إنّها تسير بسرعة كبيرة بحيث لا بدّ أنّها تتجاوز النيازك.

كانت تسير بالفعل بسرعة الفكرة، بسرعة أكبر من سرعة الضوء بمئة مرّة!

- أين هي الآن؟

تحقّق راؤول، مثبّتاً عينيه على الشاشة:

- كأنّها تغادر المجموعة الشمسية.

كانت روز أكثر دقّة، حينما قالت:

- إنّها تتجاوز الأورانوس. إنّها...

- ماذا يحدث؟

- إنّها تسير بسرعة كبيرة جدّاً!

- أين هي؟

- إنّها على وشك الخروج من مجموعتنا الشمسية. أصبحت إشارتها تصلنا الآن في وقتٍ متأخّرٍ جدّاً.

- هل غادرت مجرّتنا؟

- كلّا. على العكس، يبدو أنّها تغوص نحو مركز درب التبّانة.

- مركز درب التبّانة؟ وماذا هناك؟

- مجرّتنا مشكّلة من كتلةٍ من ذراعين حلزونيتين بقطرٍ يبلغ مئة ألف سنة ضوئية. وفي داخلها كلّ شيء: كواكب، غازات، أقمار صناعية، نيازك. تضمّ مجرّتنا مئة مليار نجمة. ربّما ترغب روحها في زيارة واحدة منها على نحوٍ خاصّ...

- ما الذي قد تبحث عنه هناك؟

- الفردوس، الجحيم... ففي نهاية المطاف، لا تقع المجموعة الشمسية إلّا على المحيط الخارجي لذراعٍ من حلزون مجرّتنا.

كنّا جميعاً نصغي بانتباه إلى الأجهزة. وكان أدنى صريرٍ نسمعه بمنزلة أثرٍ لرحلة صديقتنا المذهلة والعجيبة.

سأل راؤول بقلقٍ:

- أين هي الآن؟

- لا تزال تسير نحو مركز مجرّتنا.

- وما معنى هذا؟

- إنّها تتّجه نحو برج القوس. وعلى نحوٍ أكثر دقّةً، نحو غرب هذه المجموعة. تُرى هل يقع الفردوس في برج القوس؟

كنتُ أساعد روز في حساباتها.

- من هنا. لقد تجاوزت هذه النجمة. إنّها تواصل سيرها بنفس الزخم.

- هل هي بعيدة؟

- نعم بكلّ تأكيد. إنّها على الأقلّ على بعد خمسين مليار كيلومتر. إلى جانب روح ستيفانيا، كانت صواريخنا ومركباتنا الفضائية كلّها تجول بالفعل مثل قواقع حلزونية.

- أين هي الآن؟

- إنّها تسير نحو...

- نحو أين؟

- لقد اختفت. لقد اختفت الإشارة.

سأل راؤول، فزعاً:

- كيف حدث ذلك؟

- لم يعد هناك إرسال.

تركت روز بقلقٍ وضيق مسطرتيها اللتين سقطتا على الأرض وأحدثتا رنيناً، وهي حائرة وسط هذا الصمت. تحقّقت آماندين، الممرّضة التي تحافظ على هدوئها في اللحظات الأكثر حرجاً، من حالة ستيفانيا الفيزيولوجية بمنتهى المهنية.

تمتمت:

- لا تزال على قيد الحياة.

قلتُ:

- كيف يمكن أن تزول الإشارة؟ كنتُ أعتقد أنّ أمواجاً طويلةً جدّاً كانت تنتقل سريعةً جدّاً ومن دون حدود في الكون.

اعترفت روز:

- هذا غير مفهوم.

157. القلق

كان جسد ستيفانيا لا يزال عديم الحركة وكنّا نجهل أين توجد روحها في هذه اللحظة.

- ماذا نفعل الآن؟ هل نحاول إيقاظها؟

تفحّصت روز كلّ الأجهزة. ثمّ قالت:

- انتظروا... ربّما يكون هناك تفسيرٌ لهذا الاختفاء للإشارة.

فعّلت روز أنظمتها واستعانت بحاسوبها كلّما أصبحت عملياتها معقّدة. ثمّ ابتسمت.

- يبدو لي أنّه...

انفرجت أساريرها أكثر فأكثر وبدا عليها الفرح، ثمّ اندفعت مسرعةً نحو الشاشة، وقالت:

- نعم، كلّ شيء يجري على نحوٍ متناسق ومناسب. هذا رائع.

سألتُها:

- ماذا اكتشفتِ؟

- لم تتوقّف ستيفانيا عن الإرسال.

- هل هذه نجمة؟

- ليس تماماً.

- كوكبٌ؟

- كلا، ليس كوكباً أيضاً.

- انفجارٌ نجمي، مجموعة نجمية؟

- لا شيء من هذا القبيل.

أشارت بإصبعها إلى خريطة القارة الأخيرة. نظرنا جميعاً إلى ذلك المخروط المتعدد الألوان الذي كان يضيق. أدركنا معاً ما دلّتنا عليه:

- ثقبٌ أسود!

وافقت روز بإشارةٍ من رأسها. هذا هو ما يُفسّر كلّ شيء. كان من السهل، الآن، فهم سبب اختفاء الإشارات اللاسلكية. فالثقوب السوداء هي عبارة عن شفّاطات عملاقة تبتلع كلّ ما يمرّ في نطاقها: مادّة، ضوء، أمواج... وحتى الأرواح، وهذا ما أصبحنا نعرفه الآن!

- ثقبٌ أسود...

بدا راؤول هو الآخر نهب الآلاف من الأسئلة. وقد طرح أحد تلك الأسئلة.

- هناك العشرات من الثقوب السوداء التي سبق أن تمّ توثيقها. لماذا تتوجَّه الأرواح، في لحظة الموت، نحو هذا الثقب بالذات وليس نحو سواه؟

شرحت روز:

- هذا الثقب الأسود ليس كأيّ ثقبٍ أسود آخر. إنّه يقعُ تماماً في موقع مركز مجرّتنا على نحوٍ دقيق.

158. كتاب التاريخ المدرسي

في عام 1932، أي في بداية القرن العشرين، درس عالم الفيزياء الفلكي يان أورت كتلة الكون. وللقيام بذلك، راقب السرعة المدارية للنجوم في درب التبّانة، المجرّة الحلزونية. وقد استنتج بذلك قوّة الجاذبية التي تدفعها، ومن ثمّ الكتلة الإجمالية. وقد فوجئ أيّما مفاجأة عندما تبيّن له أنّ مجرّة درب التبّانة لم تكن مكوّنة حتى ولو بنصف حجمها من مادة مرئية!

كان في السماء شيءٌ «ثقيلٌ» جدّاً، يعادل في وزنه كلّ النجوم المرئية، والذي لا يمكن لا رصده ولا رؤيته. وقد سُمّي هذا الشيء الغريب «المادة المظلمة».

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

159. ميثولوجيا يهودية

«المركز الذي يولّد الأصل ينتج الضوء الأكثر لغزاً. يكون هذا الضوء على صفاءٍ وشفافية ورقّة لا يمكن فهمها. وحينما ينتشر، تغدو هذه البقعة المضيئة قصراً يغلّف المركز. وهو الآخر شفّافٌ. هذا القصر، أصل النقطة المجهولة، هو أقلّ شفافيةً من النقطة الأصلية. ولكن من هذا القصر، ينتشر الضوء الأصلي للكون. وانطلاقاً من هناك، تشكّل كلّ طبقة كساءً للطبقة التي سبقتها، مثل الغشاء فوق الدماغ.

الزوهار، كتاب الإشراق.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

160. الصبر

هل الله كامنٌ في قاع ثقبٍ أسود؟ هل العالم الآخر ليس سوى ثقبٍ أسود؟ كنتُ قد تفحّصتُ ذات يوم صورة فوتوغرافية لثقبٍ أسود في مجلّةٍ علمية. كانت تمثّل حلقة باللون البرتقالي المتوهّج، في مركزها بقعةٌ صغيرة بلونٍ برتقاليٍّ أخفّ. وقد ذكّرتني الصورة بأحجية راؤول: كيف يمكن للمرء

أن يرسم دائرة ومركزها من دون أن يرفع قلمه عن الورقة. أصبحتُ أعرف الآن أنّ الأمر لم يكن مجرّد لعبة ذهنية.

دائرة ومركزها! أتكون هذه صورة الله، ونفس صورة الموت؟

لمّا عادت ستيفانيا، علمت، مذهولةً، أنّها كانت قد تجاوزت ثُلث قطر دائرة مجرّتنا لكي تندفع داخل ثقبٍ أسودٍ يقع في مركزها بالضبط.

رسم راؤول خريطة لتحديد موقع الثقب الأسود. لم يكن ذلك صعباً عليه، إذ كان يكفي أن يرسم بوساطة فرجارٍ الدائرة المتشكّلة من غصني درب التبّنة خاصّتنا ومن ثمّ وضع نقطةٍ في وسطها. ومع ذلك، ساعدته روز في ذلك. كانت معرفتها كعالمة فلك تُكمل معارفنا الخاصّة في مجال الطبّ، وعلم الأحياء، والعلم الروحاني من جميع جوانب الحياة.

شرحت لنا بأنّ الثقوب السوداء تُعتبَر المرحلة الأخيرة لنجمةٍ ميّتة وهي تتمتّع بكثافات استثنائية.

والضغط فيها شديد بحيث إذا ما شُفِطَت الكرة الأرضية إليها، سوف تنضغط لكي تتحوّل إلى كُريّة تعادل سنتيمتراً مكعّباً تزن نفس وزن مجموع كوكبنا!

قالت روز:

- إنّ قوّة جاذبية الثقوب السوداء شديدة جدّاً. لا يستطيع أيّ شيء أن يفلت منها، لا مادّة ولا إشعاع. بالإضافة إلى ذلك، من الصعب جدّاً اكتشافها وتحديد موضعها. لا نراها إلّا حينما تُبتَلَعُ نجمة. في تلك اللحظة، تبعَث النجمة أشعة اكس تسمح بتحديد موقع الثقب الأسود، مقبرة النجوم التي تُطلق عندها صرخة حشرجة الموت.

والحال أنّ مصدراً للأشعّة السينية كان قد لوحِظَ في مركز مجرّتنا تماماً. وقد أطلق عليه علماء الفيزياء الفلكية اسم منطقة الرامي أ غرب[1]. وكانوا قد حسبوا أنّ الثقب الأسود ضخمٌ جدّاً بحيث أنّ حجم كتلته أكبر من حجم كتلةَ الشمس بخمسة ملايين مرّة ويُقدّر قطره بسبعمئة مليون كيلومتر (2,5 سنة ضوئية، أي أنّ قطره أصغر من قطر مجموعتنا الشمسية بأربع مرّات).

1- منطقة الرامي أ غرب: هي منطقة من الهيدروجين المتأين تقع في برج القوس وتقع بالقرب من مركز درب التبّانة، في منطقة الرامي أ، مصدر الموجات الراديوية. المترجم

منطقة الرامي أ غرب! ربّما هكذا كانت التسمية العلمية لقارة الموتى!

هذا الركن من الكون كان غير معروفٍ، حتى وإن كان نقطة تقاطعه المركزية.

أفصحنا عن المعلومة دون أن نأخذ بالحسبان المشاعر التي سوف تُثيرها عند الناس. ربّما كان من المفترض أن تشكّل تجاربنا السابقة تحذيراً لنا، ولكن راؤول كان يعتبر أنّه علينا واجبات تجاه العلم غير مبالٍ بالمخاطر التي كنّا نتعرّض لها.

في المدينة الأكاديمية (أكاديمغورودوك)، في سيبيريا، حوّل فريقٌ من روّاد الفضاء الروس مسار مكوكٍ فضائي في محاولةٍ لزيارة الثقب الأسود - الفردوس خاصّتنا.

يا لها من حماقة، لأنّه إذا كانت روح مستكشفٍ تستطيع أن تجري أسرع من الضوء، فالحال لم تكن كذلك على الإطلاق بالنسبة إلى مركبة فضائية حتى وإن كانت من المركبات الأكثر تطوّراً!

كان قراصنة السماء هؤلاء سوف يحتاجون في الحدّ الأدنى إلى خمسمئة سنة، فقط للخروج من المجموعة الشمسية وإلى ألف سنة على الأقلّ من أجل الوصول إلى أقرب ثقب أسود! وحتى لو نجحوا في أن يصبحوا من ذوي الأعمار الألفية، وذلك من خلال وسائل بقاء غير معروفة حتى الآن، فإنّهم سوف يختفون في الحال، مبتَلَعين ومسحوقين في دوّامة الثقب الأسود.

وفي الوقت الحالي، لا يزال أولئك الروس يتجوّلون، وهم يرسلون من حينٍ إلى آخر إشارات تحديد الموقع التي يلتقطها جهاز استقبالٍ صغير، منصوب فوق سطح متحف الموت في معهد سميثسونيان في واشنطن.

وماذا لو أنّهم كانوا الوحيدين الذين انطلقوا هكذا في الفضاء دون مزيدٍ من التفكير مسبقاً! في الشهر الأوّل الذي أعقب اكتشافنا للقارة الأخيرة، اختفى أكثر من مئة وخمسين مستكشفاً من الهواة الراغبين في الوصول إلى الفردوس، ولم يعودوا قط.

وعلى نحوٍ أكثر جدّية، وعلى الرغم من جميع أشكال المنع وجميع المحرّمات، انطلق رجال الدين من كلّ المذاهب دونما هوادة لغزو موخ

3. وهؤلاء كانت لديهم ميزة امتلاك تقنيات الطيران المدرجة أصلاً في ممارساتهم الدينية، وكانوا يقومون بعمليات التحليق بصرامةٍ ودقّة، مستخدمين حتى النهاية كلّ الوصفات الواردة في ميثولوجياتهم. كان كلّ شيء مهيّأً لهم لكي يخترقوا أخيراً جدار الغيبوبة الثالث.

وجدنا عزاءنا من جديد، فالمتجر العائلي الواقع أسفل مبنى محطّتنا لإطلاق المستكشفين لم يعد يفرغ من الزبائن. وقد أصبحت روز رئيسة علماء الفلك لفريقنا، والآن أصبحت تواقيعها التذكارية هي المطلوبة من قبل الجمهور أكثر من تواقيع غيرها.

161. كتاب التاريخ المدرسي

ظلّ البشر لوقتٍ طويل يجهلون ما كان موجوداً في مركز مجرّتهم ذاته. كانوا يعلمون أن الكون الذي يحيط بهم يدور بسرعة مئتين وخمسين مليون سنة ضوئية في كلّ دورة، ولكنهم لم يكونوا يعلمون حول ماذا يدور.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

162. موخ 4

وسط الدهشة العامّة، كان فريق يشيفا الليبرالية في ستراسبورغ، تحت قيادة الحاخام فريدي ماير، أوّل من يتجاوز جدار الغيبوبة الثالث. كانت لدى المستكشفين اليهود فكرة عبقرية: العمل ليس منفرداً فقط، بل كمجموعة. كان الحاخام ماير قد لاحظ في الواقع أنّ أغلبية حالات الوفاة في صفوف المستكشفين ناجمة عن شدّ حبلهم السُرّي، الرفيع للغاية، الذي كان ينقطع قبل الاقتراب من موخ 3 بكثير. وكان السؤال هو: ما هو الأكثر متانة من خيطٍ وحيد؟ وكان الجواب هو: ثلاثة خيوط مجدولة. ومنذ ذلك الحين، لم يعد هناك سوى التحليق بوساطة العديد من الحبال الإكتوبلازمية المجدولة بعضها مع بعض.

المنهج: حلقة أولى من ثلاثة حاخامات تشدّ وتحمي الحبل السُرّي لحاخامين آخرين، يحميان، بدورهما، الحبل السُرّي لرئيسهم ماير الذي

يستطيع بهذه الطريقة أن يتقدّم على قارة الموتى دون أن يكون هناك خطر انقطاع حبله السُرّي.

كان استنتاج ماير براغماتياً: إنّ ستّة حبال بلاستيكية مجدولة بعضها مع بعض أكثر موثوقية من حبلٍ وحيد. وبالتالي، يمكن أن ينطبق الأمر نفسه على الحبال السُرّية.

من المؤكّد أنّه كان هناك خطرٌ: إذا ما حدث خللٌ وحيد، فإنّ كلّ البناء المشيّد سوف ينهار! ومع ذلك، نجح الستراسبورغيون.

في بثٍّ مباشر على القنوات التلفزيونية الأمريكية، أعلن الحاخام ماير أنّ سهلاً شاسعاً يمتد ما وراء موخ 3. وكان موتى يتقدّمون، في صفٍّ واحدٍ لا نهاية له، في منطقة لم يكن يعرفها.

صرخ راؤول:

- وماذا لو كان أبي لا يزال هناك ويقف في ذلك الصفّ؟

منذ ذلك الحين، فقد كلّ برودة أعصابه، وأراد أن يلتقي بأسرع ما يمكن مع الحاخام المستكشف وتلامذته. وافق الستراسبورغيون بطيبة خاطر على القيام بزيارتنا في محطّتنا لإطلاق المستكشفين في بوت شومو.

كان الحاخام ماير، الرجل البشوش القصير القامة، والأصلع، يضع زوجاً من النظّارات السوداء التي تمنحه هيئة غريبة. وكانت المفاجأة أنّ عينيه، خلف زجاج النظارات، كانتا مغمضتين. ولأنّه كان غائراً في أريكة في شقّتنا العلوية، اعتقدتُ في البداية بأنّه نائم، ولكن حينما شرع في الكلام، وأجفانه لا تزال مغمضة، أدركتُ أنّ رائد اللانهاية هذا كان أعمى. أعمى!

- ألا يُعيق هذا قيامك بالاستكشاف؟

- إنّ الإكتوبلازم لا يحتاج إلى عينين.

ابتسم، وقد أدار وجهه نحوي. كان يكفيه أن يسمع صوتي حتى يعرف موقعي بالضبط.

أمسك بيدي، وأدركتُ أنّه، من خلال تلك اللمسة، عَلِمَ كلّ شيء عنّي. لقد فهم شخصيّتي من خلال حرارة راحة يدي، ونداوة عرقي، وخطوط بشرتي، وشكل أصابعي.

قلتُ له، ملاحظاً:

- ليست لديك عصا بيضاء.

فأجاب:

- لا جدوى منها. ربّما أكون أعمى، ولكنني لستُ كسيحاً.

ضحك تلامذته. بدا واضحاً أنّهم يجلّون معلّمهم ويعشقون طرائفه. أمّا أنا، فقد عكّرت هذه الدعابة مزاجي، فالأشخاص المصابون بالعمى من المفترض أن يكونوا حزانى ومتعَبين، لا ضاحكين وفكاهيين. وعلاوة على ذلك، كان الأمر يتعلّق هنا برجل دين وبعالمٍ باحثٍ وعليم، وبالتالي برجلٍ جادٍّ بامتياز.

خامر الشكّ راؤول، فلوّح بيديه الطويلتين على بعد سنتيمتراتٍ من نظّاراته. احتجّ ماير، ببرود:

- كفّ عن تحريك أصابعك. فأنت تُثير بذلك تيّاراً هوائياً، وهذا يعرّضني لخطر الإصابة بنزلة برد.

- هل حقّاً لا ترى أيّ شيء؟

- نعم، ولكنني لا أشتكي من ذلك. كان يمكن لي أن أكون أصمّ أيضاً. وكان من شأن ذلك أن يكون صعباً عليّ بالفعل.

كان تلامذته سعداء جدّاً. استأنف حديثه على نحوٍ أكثر رزانةً:

- اعلم أننا نعثر على المعلومات المهمّة في الأصوات أكثر ممّا نعثر عليها في الصور. قبل أن أكون ضريراً وحاخاماً، كنتُ مصمّم رقصات، ومنذ البداية، كنتُ أحبّ العزف على البيانو. إنّ فوغا[1] موسيقية للموسيقار باخ هي التي ألهمتني فكرة جدل الحبال السُرّية.

توجّه الحاخام دون مساعدة نحو البيانو، وسحب الكرسي وجلس. تردّدت أصداء موسيقى شبه رياضية تحت سقف شقّتنا العلوية، بثّت روح الفرح في النبتات الخضراء لزينتنا الاستوائية.

1- فوغا: تعني الهروب في اللاتينية، وهو نمط من التأليف الموسيقي الغربي يعطي الانطباع للمستمع بمشهد هروب ومطاردةٍ عن طريق الدخول المتتالي والمتعاقب للأصوات وتكرار نفس المقطع. المترجم

- استمع إلى هذا المقطع. هل تميّز بين الصوتين؟

أغمضتُ عينيّ لكي أسمع على نحوٍ أفضل. في الواقع، مع التركيز بهذه الطريقة، تبيّنتُ صوتين كانا يتداخلان. علّق ماير، قائلاً:

- كان باخ عبقرية في التجديل. من خلال المزج بين صوتين، يوهمنا بخلق صوتٍ ثالثٍ منهما، لا يكون موجوداً، ولكنّه مع ذلك أكثر ثراءً من حاصل الصوتين السابقين. هذه التقنية تصلح لكلّ شيء، تصلح للموسيقى، وللكتابة، وللرسم، وماذا أيضاً؟ أبقِ أجفانك مغمضة جيّداً.

فكّرتُ في الاكتشاف الذي أتاح لي أن أقصم ظهر الكاهن - الإكتوبلازم. العيون تمنع الرؤية في بعض الأحيان. من خلال إخضاع نفسي للعتمة، فهمتُ على نحوٍ أفضل مغزى كلمات الحاخام. كان يجعل صوت النوتات الموسيقية مسموعة صوتاً تلو الآخر. كان هناك صوتان متلازمان ولكنّ النغمة التي كنّا نسمعها لم تكن تشبه أيّاً منهما. بالنسبة إليّ، لم تكن الموسيقى مكوّنة حتى تلك اللحظة سوى من خلفية الوجود، الممتعة أحياناً، والبغيضة في أحيانٍ أخرى. وكان تناولها على نحوٍ مفاجئ كعلم صرف اضطراباً بالنسبة إليّ. لم أفعل شيئاً قط سوى سماع الموسيقى، أما الآن، فأتعلّم الإصغاء إليها.

قهقه فريدي ماير دون أن يتوقّف عن العزف. وقال:

- اعذرني، حينما أكون سعيداً، لا أستطيع الامتناع عن الضحك.

وضعت آماندين كوباً من كوكتيل بلودي ميري على حرف البيانو. قطع الحاخام عزفه لكي يشربه. كنّا ننظر إليه جميعاً بنفس النظرة المنبهرة التي كان تلامذته ينظرون إليه بها. وبعد ذلك، بدأ يروي لنا رحلته.

بعد أن تجاوز موخ 3، وجد أنّ منطقة شاسعة جدّاً تمتدّ وهي مكتظّة بالناس. في سهلٍ فسيحٍ أسطواني، كانت تتكدّس جثث إكتوبلازمات حبالها السُرّية مقطوعة، وكان هناك المليارات من الموتى المنتظرين في سهلٍ برتقاليّ اللون بدا أنّهم كانوا قيد العبور. كانوا هناك مثل نهرٍ طويلٍ يجري ببطء. لم يعودوا يطيرون، بل كانوا يزحفون. كان من السهل التحليق فوقهم. في مركز النهر، كان الموتى يلتصقون بعضهم ببعض مثل عناقيد

وفيرة. وكانوا يتقدّمون على نحوٍ أسرعٍ بقليل عند المحيط، متجمّعين لكي يتناقشوا معاً حول حياتهم السابقة. علماء يتشاجرون حول أسبقية اختراعاتهم. وممثّلات يتعاركن حول نوعية أعمالهنّ التمثيلية. وكتّابٌ ينتقدون بلا تهذيبٍ بعضهم أعمال بعض. ولكنّ غالبية الموتى كانوا يكتفون بالتقدّم بهدوء. بدا بعضهم كأنّهم هنا منذ الأزل. بكلّ تأكيد، كما في كلّ الحشود، كان هناك أناسٌ يسعون إلى تجاوز الجميع مستخدمين في ذلك المرفقين لشقّ طريقهم!

نعم، بعد جدار الغيبوبة الثالث، كان هناك هذا الرتل العملاق. تُرى هل كان الموتى يخضعون لاختبار الزمن؟ تُرى هل كانوا يُعلّمون الصبر؟ كانت حركاتهم متباطئة، لا يفعلون شيئاً سوى الانتظار.

قلتُ:

– اختبار الزمن... ربّما هذا هو الجحيم.

– نعم، ولكن في كلّ الأحوال، ليس بالنسبة إلينا. ليس بالنسبة إلى مستكشفي الموت. فنحن قادرون على أن نحلّق فوق الأعداد الهائلة للموتى الذين تزدحم بهم الأسطوانة البرتقالية اللون. من جهة أخرى، كانت البقعة جميلة جدّاً، وتشبه بعض الشيء ما قيل لي عن صورٍ ملتقطة لكوكب المريخ.

هناك، حول النهر المركزي للموتى، ضفافٌ وهضاب، وفي البعيد يشرق ضوءٌ مثل شمسٍ مذهلة. شمس جذّابة للغاية وينصبّ نحوها سيل الموتى... ومع ذلك، لم أجرؤ على المغامرة في الذهاب بعيداً في هذه المنطقة الرابعة. كنتُ أخشى أن أغوص في أعماق الزمن في حين أنّ أصدقائي الحاخامات، المساكين، كانوا ينتظرونني في .... ممرّ الملذّات البرتقالي اللون.

كان راؤول رازورباك يسجّل أوّلاً بأوّل أقوال فريدي ماير:

– صف لنا على نحوٍ أكثر دقّة هذه المنطقة، أرجوك، أيّها الحاخام.

– كلّما كنّا نتقدّم، كان الجوّ يزداد حرارةً. وكانت جدران الأسطوانة تدور بسرعة أكبر. أحسستُ بشعورٍ كأنني محبوسٌ في طاحونةٍ صغيرةٍ تدور ببطء، وأنا أعرف تماماً أنني حينما أبلغ القاع سوف أُطحَن. هذا الإحساس بالسرعة يتناقض على نحوٍ غريب مع الصبر والبطء المطلوبين من الأرواح الموجودة

هناك. إنّ هذه الجدران التي تدور بسرعة كبيرة قد تُعطي على العكس الرغبة في الجري والتحرّك بأقصى سرعة، ومع ذلك، هذا مستحيل!

أشارت روز:

– هذا بسبب قوّة الطرد المركزي للثقب الأسود.

– هل إكتوبلازمك يستشعر بالفعل الحرارة والسرعة؟

– نعم بالتأكيد، يا آنستي. نحن لا نتألّم بهما، ولكننا نشعر بهما.

نهض الحاخام، ثمّ وضع القبّعة السوداء على رأسه، مظهراً هيئته الطفولية الدائمة. لمس كلّ شيء من حوله كما لو أنّه يلمس عدداً كبيراً من الخشخيشات. لا بدّ أنّه قد أحسّ، على نحوٍ أقوى منّي من دون شكّ، بنبرة الإغراء في صوت أماندين، ولكنّه لم ينبهر بها. كان هذا اليهودي القصير والنحيل يبتسم، فرحاً، مثل تمثال بوذا ضخمٍ.

سألت الحسناء الشقراء، وهي في غاية الذهول:

– ألم تتأثّر بمشهد كلّ هؤلاء الموتى؟

قال وقد شاب الحزن نبرته:

– أوه، بعد بضعة من المليارات الأولى، نعتاد على الأمر، مثل أيّ شيءٍ آخر.

أمسك راؤول بالخريطة. وبارتياح، مسح عبارة *الأرض المجهولة*، ليدفعها بعيداً، ودوّن ملاحظات الحاخام ماير.

تنتهي المنطقة الحمراء بموخ 3 مؤدّيةً إلى:

المنطقة رقم 4:

– الموقع: غيبوبة لمدّة سبع وعشرين دقيقة.

– اللون: برتقالي.

– الأحاسيس: مقاومة ضدّ الزمن، قاعة انتظار، «سماء» متحرّكة، سهل شاسع. منطقة تيارات هوائية، تكنّسها الرياح. المليارات من الموتى

المتقدّمين في رتلٍ أحادي في نهرٍ واسعٍ بلونٍ رمادي (وهذا أمرٌ طبيعي، لأنّه متشكّل من الإكتوبلازمات). يواجه فيها المرء الزمن. ويتعلّم فيها الصبر. ويمكن للمرء أن يجتمع فيها مع موتى مشهورين.

سألت آماندين، بقلق:

– أيّها الحاخام، هل «سمعتَ» قاع اللون؟

– ناديني فريدي، أرجوكِ. ولا تتردّدي في استخدام الفعل «رأى». لكوني إكتوبلازم، أنا أرى تماماً. حينما يخرج المرءُ من جسده، لا يعود يعاني من أيّ إعاقة. وأخيراً، للإجابة على سؤالكِ، نعم، لقد رأيتُ قاع اللون، مباشرةً أمام عدّة مئات من الأمتار، هناك جدارٌ آخر. هل هو موخ 4؟

سأل راؤول:

– هل كان أكثر ضيقاً من موخ 3؟

أبدى راؤول ملاحظةً:

– بالكاد. لا بدّ أنّ قطر موخ 4 يساوي ثلاثة أرباع قطر موخ 3.

قال راؤول:

– منحنى المخروط هو مماس، إذاً. كلّما تقدّمنا، يصبح البوق أنبوباً. هناك سؤالٌ آخر، يا حاخام...

– نادني فريدي.

– حسناً. أخبرني، يا فريدي، ألم تلمح في رتل الانتظار رجلاً في حوالي الأربعين من عمره، له خصلة شعرٍ مثل هذه، ويضع نظارات، وله قيافة مثل قيافتي، ويدسّ يديه باستمرار في جيبيه؟

هذه المرّة، لم يضحك فريدي.

– هل تتحدّث عن قريبٍ لك؟

تمتم راؤول بصوتٍ منخفضٍ جدّاً بحيث بالكاد سمعناه:

– أتحدّث عن أبي. لقد مات منذ قرابة ثلاثين عاماً.

تنهّد فريدي:

– ثلاثون عاماً... أعتقد أنك لم تُحسن فهم كلماتي. كان هناك المليارات من الموتى في الرتل. كيف سيكون بإمكاني أن أتفحّصهم فرداً فرداً؟ كيف سيكون بوسعي أن أميّز والدك بين هذا الجمع الغفير؟

قال راؤول وقد احمرّ خجلاً:

– هذا صحيح. سؤالي كان غبيّاً. ولكن والدي مات مبكّراً جدّاً، وكنتُ لا أزال صغيراً جدّاً... لقد رحل وأخذ معه سرّه.

قال الحاخام:

– وماذا لو كان هذا السرّ يشكّل بالتحديد ميراثك؟ لقد أورثك، من خلال تركك وسط الشكّ، القاطرة التي جرّت فيما بعد كلّ مشاريعك.

– هل حقّاً هذا ما تعتقده؟

– وكيف لي أن أعرف ذلك؟ في بعض الأوقات، أميل إلى خلط بعض التحليل النفسي بالقبالة! فالاثنان مرتبطان بعضهما ببعض أحياناً. لا بدّ أنّك أكثر معرفةً منّي بذلك.

تنهّد راؤول، قائلاً:

– كان هناك الكثير من الأشياء التي كنتُ سأسأله عنها... كان هو أوّل من راودته فكرة الثاناتونوتية.

بدّد التلامذة القلق الذي تنامى بسبب المطالبة بزيارة محطّتنا لإطلاق المستكشفين. لقد تفحّصوا باحترام عدّتنا الخاصّة بأنظمة الدفع. هم كانوا يكتفون بالتأمّل وبطباخة الجذور المرّة للنباتات. وقد أطلعناهم كيف نرصد اللحظة المحدّدة بدقّة للإقلاع بفضل نظامنا الخاصّ باستقبال أمواج غاما، وكيف نبرمج عمليات العودة بفضل موقّتٍ كهربائي يقوم أيضاً بوظيفة مكتب الأمن.

لقد كانوا متأثرين ومتحمسين. قال العجوز الحكيم:

– باستخدام أجهزة كهذه، سوف نحسّن أيضاً أداءنا!

تحقّق تآزرٌ آخر. إذ سوف تُضاف مهاراتنا المتبادلة بعضها إلى بعض لكي نتجاوز المجموع البسيط. لأنّه أصبح لدينا نموذجان مختلفان للتفكير. لحنان كانا يتّحدان لتأليف موسيقى جديدة.

163. استمارة شرطة

الكنية: ماير

الاسم: فريدي

لون الشعر: أبيض

لون العينين: أزرق

الطول: 160 سنتيمتراً

علامات فارقة: حاخام، يضع باستمرار قبّعة على رأسه.

ملاحظات: رائد الثاناتونوتية. مخترع تقنية الحبال المجدولة التي تتيح اجتياز موخ 3

نقاط الضعف: أعمى

164. العمى والبصيرة

هيّأنا السكن لحاخامات يشيفا ستراسبوغ الستة في شقق الطابق الأوّل. في الطابق الأرضي، تمرّنوا على تصاميم جديدة لكي يجدلوا على نحوٍ أكثر متانةً حبالهم المتعلّقة برحلات الطيران المقبلة.

وقد أقلعوا الواحد تلو الآخر، انطلاقاً من كرسيّ محطتنا الخاصّة بإطلاق مستكشفي الموت. وحينما أصبحوا متآلفين مع مناهجنا في العمل، نصّبنا كراسي إقلاع جديدة، واستأنفوا رحلاتهم الجماعية.

كانت ستيفانيا تغادر معهم في أغلب الأحيان، مشكّلة في بعض الأحيان قمّة الهرم الإكتوبلازمي. لدى رؤيتهم ينطلقون ويعودون معاً، كانوا يبدون أنّهم جميعاً يتسلّون جيّداً، هناك في العُلا. كان فريدي دائماً يضحك عند استيقاظه، كما لو أنّه قد أمضى وقتاً ممتعاً!

كانت فرحته تقلقني، إذ لم يكن فريدي حاخاماً فحسب، بل ضريراً وعجوزاً أيضاً. وهي ثلاثة أسباب كافية لكي يُبدي المزيد من الرزانة! ثمّ إنني لم أكن أفهم أنّ بوسع المرء أن يقوم باستكشاف الموت وهو يمزح.

فالموت، على أيّ حال، شيءٌ مروّع. بالنسبة إليّ، لطالما أخذتُ الموت والحبّ على محمل الجدّ. وكلاهما يتطلّبان الجدّية. فالنساء اللواتي كنّ في حالة النشوة أظهرن على الدوام أقنعة ألمٍ على وجوههن.

ذات مرّة، بعد عملية هبوطٍ، سمعتُ الحاخام يروي نكتة ماجنة جدّاً. «كان عجوزان يتذكّران فندقاً، حيث يحقّ للمرء فيه، بعد تناول العشاء، أن يحظى بمشهدٍ غير اعتيادي. أخرج فنانٌ ذكره، ومستخدماً إياه كمطرقة، كسر بضربة واحدة ثلاث حبّات من الجوز. عادا إلى الفندق بعد مضي بعض الوقت، كان المشهد لا يزال يُعرَض. كان الفنان قد شاخ ولكنّه لا يزال حاضراً. هذه المرّة، لم يعد يحطّم ثلاث حبات من الجوز العادي، بل ثلاث حبّات من جوز الهند. في النهاية، قرّر العجوزان الذهاب لرؤية الرجل في مسكنه وسألاه لماذا خضع لهذا التغيّر. وأجاب الفنّان عليهما، قائلاً: «آه! أنتما تعلمان أنّ النظر، مع التقدّم في العمر، يضعف»».

ضحك الآخرون، أما أنا، فقد كنتُ مصدوماً بعض الشيء.

كان يصدمني أن يأخذ الحاخام، رغم وظيفته، الموت على محمل الخفّة. أبديتُ له ملاحظة حول ذلك، فقال:

– هناك أحدٌ ما، في مكانٍ ما، أساء تفسير الكلام الربّاني. إنّ نبيّاً يعاني من خفّة السمع قد فهم «الله حبٌّ» بدل «اللّه مرَحٌ»! كلّ شيء مضحكٌ، بما فيه الموت. كيف كان لي أن أتقبّل فقدان بصري من دون المرح؟ علينا أن نضحك من كلّ شيء، ودون تحفّظ.

قلتُ لستيفانيا:

– هذا الرجل على شيءٍ من الغرابة.

لم تكن ستيفاني توافقني هذا الرأي. كان التأمّل التبتي قد أتاح لها أن تفهم على نحوٍ أفضل الحكيم الألزاسي. كان فريدي قد أنهى دورته في عمليات التناسخ. وستكون هذه حياته الأخيرة، ولن يعود بعد ذلك سوى روحٍ محضة، متحررة من كلّ ألم. وبالتالي لم يعد هناك ما ينبغي عليه أن يُبرهنه. كان قد هدأ، في الوقت الراهن. خلال عمليات هجرة سابقة لروحه، عرف الحبّ، والفنّ، والعلم، والشفقة. أما الآن، فهو يكاد يلامس المعرفة المطلقة. وهذه الطيبة

المُعدية التي تصل إلى حدّ السذاجة تنبعث من سكينته العميقة. أمّا بالنسبة إلى نكاته، فإذا كانت تصدمني، فذلك لأنّ رأسي أنا محشوٌّ بالمحظورات.

وكان بالفعل يطفو حول الحاخام ما يشبه هالةً من الأمواج المفيدة. لو كانت ستيفانيا على حق، لحسدته على ذلك، ووددتُ أنا أيضاً لو أنني أنتهي من دورة حيواتي، وفهمتُ كلّ شيء أبعد من المظاهر، وامتلكتُ روحاً تنعم بالسكينة. ولكن للأسف، كنتُ لا أزال شابّاً على هذه الأرض. ولم أكن قد شهدتُ على الأرجح إلّا تناسخي المئة أو المئتين. كانت الكارما خاصّتي لا تزال متعطّشة للمعرفة وللغزوات.

لحسن الحظّ أنّ فريدي لم يبخل في تزويدنا بمعارفه! في المساء، كنّا نتحلّق من حوله في الشقة العلوية في مبنى محطّة الإطلاق، وكان يروي لنا، برزانة وجدية هذه المرّة، قصص القبالة ويعلّمنا المعنى السري للكلمات والأرقام.

- حسب القبالة اليهودية، نحن جميعاً خالدون، والموت ليس سوى مرحلة من التنمية الداخلية التي سوف تحدّد الطور التالي من وجودنا. الموت ليس سوى عتبة. إنّه يفتح باباً على حياةٍ أخرى. وعلينا نحن أن نكون الأكثر صفاءً ونقاءً قدر المستطاع! الخوف والتشوّش الذهني ورفض الموت هي أسوأ الحالات التي قد نعرفها. كلّما كان الكائن في سلام أكثر، كان قادراً أكثر على أن يُنجز بسلاسةٍ انتقالاً ناجحاً نحو عالمٍ آخر. لقد كُتِب في كتاب *الزوهار*: «سعيدٌ منْ يموت وضميره مرتاح. الموت ليس سوى انتقال من منزل إلى آخر. إذا كنّا حكماء، سوف نجعل من مسكننا المقبل بيتاً أكثر جمالاً». وكان الحاخام إيليمليك دو ليزينسك، السعيد جدّاً دائماً، يكتب: «لماذا لا أستمتع، وأنا أعلم أنّني على وشك أن أغادر هذا العالم السفلي لكي أدخل إلى عالم الخلود العلوي؟»

كانت آماندين تلتهم بعينيها هذا المستكشف الذي كان، من بين الجميع، قد تقدّم إلى أبعد ما يمكن في القارة الأخيرة. وقد اندهشت من أنّ الإيمان بتناسخ الأرواح يشكّل جزءاً من الديانة اليهودية.

قال الرجل القصير الأصلع، وهو يهزّ قبّعته:

- يتعلّق الأمرُ بتعليمٍ سرّي. من جهة أخرى، إنّ الحاخامات الذين

يشاركونني أفكاري نادرون. أنا إصلاحي، وليبرالي، وقبلاني. بعبارة أخرى، أنا أبثّ الفوضى في ما يتعلّق بالديانة اليهودية.

ألحّت آماندين بالسؤال:

– على أيّ حال، هل في ديانتكم إجراءٌ من أجل الموت؟

– بكلّ تأكيد. لدى المحتضرين تعليمات بإغلاق أبواب حواسهم، والتركيز على المركز الذهني للقلب، والعمل على تنظيم تنفّسهم. وبالتالي، كما هو مكتوبٌ في كتاب الزوهار، فإنّ الروح سوف تسلك الدرب الأعلى من بين كلّ الدروب.

الدرب الأعلى من بين كلّ الدروب... سكتنا، ونحن نحاول أن نتخيّل ذلك الدرب.

سألت ستيفانيا:

– أنتم تستخدمون التأمّل للإقلاع في رحلة الاستكشاف. ما هي تقنيتكم في ذلك؟ هل هي تقنية خاصّة بكم أم تستخلصونها أيضاً من تعاليمكم؟

– لقد ورثنا منهجنا منذ أقدم العصور. ونحن نسمّيه تزمزوم. كان النبي حزقيال يستخدمه قبل يسوع المسيح بسبعمئة عام. ومن ثمّ دوّنه الحاخام آرون روث في كتابه: بحثٌ *حول اضطراب الروح*، وتابعه فيما بعد موسى بن ميمون وإسحاق لوريا. وكلمة تزمزوم تعني «انكماشاً». ولممارسة تزمزوم، وبالتالي التأمّل، على المرء أن يصبح لبرهةٍ غريباً عن جسده، وينظر إليه من بعيد ويُراقب كلّ ما يحصل له.

– وكيف تستطيعون القيام بذلك، من الناحية العملية؟

– نركّز على تنفّسنا وعلى نحوٍ أخصّ على تأثير الهواء على دمنا وتأثير الدم على جهازنا العضلي.

علّقت ستيفانيا، البوذية التبتية:

– منهجكم ليس مختلفاً جدّاً عن منهجي.

– نعم، ولكن إذا أردنا أن نكون معاصرين بحزم، يمكننا أن نخرج من أجسادنا بطرق أخرى كثيرة. ليس هناك ما يُضاهي ثمالة قويّة أو مضاجعة سعيدة في الهواء الطلق!

ساد برودٌ.

قالت آماندين في شبه احتجاجٍ:

- آه، يا فريدي! أنت لا تستطيع أبداً أن تكفّ عن المزاح.

قال في منتهى الجدّية:

- لا أبـداً. كلّ أفعال حياتنا هي أفعال مقدّسة: الأكل، والشرب، والتنفّس، وممارسة الجنس، كلّ هذه الأفعال هي عبارة عن أساليب لتمجيد الله والوجود الذي عهدنا به!

كيف يمكن تمييز تعبيرٍ في العينين الفارغتين خلف النظارات السوداء السميكة؟ أضاءت ابتسامة طفولية الوجه المجعّد للحاخام حينما روى بعض الأقوال المأثورة التي تعلّمها من معلّمه الروحي الحبر ناخمان بن براتسلافا، كما أوضح لنا:

- إنّه لواجبٌ عظيم أن نكون على الدوام في أجواء الفرح، وأن نبتعد عن كلّ قدراتنا الباعثة على الحزن والمرارة. كلّ الأمراض التي تنهال على الإنسان مصدرها في الحقيقة تقهقر الفرح. وهذا التقهقر ناجم عن تشوّهٍ في «الغناء العميق» (نيغون)[1] والإيقاعات الحيوية العشرة (ديفيكيوم). حينما ينطفئ الفرح والغناء، يسيطر المرض على الإنسان. الفرح هو أعظم الأدوية. وبالتالي، علينا أن نجد في أنفسنا نقطة إيجابية وحيدة ونتشبّث بها.

وعند هذه النقطة، طلب من آماندين مشروبه المفضّل، بلودي ميري، وشربه في جرعة واحدة، وأعلن أنّ الوقت قد حان بالنسبة إليه وإلى تلامذته لكي يخلدوا إلى النوم.

165. خروج الروح من الجسد

ذات مساء، قرّرنا، روز وأنا، أن نخرج من أجسادنا وفق تعاليم فريدي. بعد أن اكتفينا بتناول أطعمة خفيفة في وجبة العشاء، تمدّدنا على الأرض،

1- نيغون: تعني بالعبرية «الحن»، وهو نوع من الغناء الديني اليهودي، تغنيه مجموعات. المترجم

على البساط الصناعي مباشرةً. ركّزنا ذهننا على تنفّسنا، والدم المتدفّق في جهازنا العضلي.

ودائماً حسب تعليمات فريدي، كلّما حدث تشنّج عضلي، ابتلعنا ألمنا قبل أن ننساه، وكلّما شرد ذهننا، استجلبنا الفراغ إلى داخلنا من خلال عدم التفكير إلّا بالسيطرة على تنفّسنا.

أمضينا بهذه الطريقة نصف ساعة ونحن بلا حراكٍ على الأرضية، ونحن نعاني من آلام الظهر، قبل أن ننفجر معاً في ضحكة مجنونة. على ما يبدو، لم يكن التأمّل اليهودي مناسباً لنا.

عضّت روز في حركة مرحة أذني:

- لقد تحدّث فريدي أيضاً عن أكثر الطرق متعةً لخروج المرء من جسده.

داعبتُ شعرها الطويل، وقلت:

- لا أحبّ كثيراً أن أثمل. لا يجلب الخمر المسرّة لي، ولا شيء سوى الغثيان والصداع الشهير!

قالت وهي تسحب بشبقٍ أطرافها المتألّمة، قبل أن تهرع نحوي وترتمي بين ذراعيّ:

- بقيت لنا تقنية أخرى.

بحركة خفيفةٍ جرّدنا بعضنا بعضاً من ثيابنا.

ذكّرتني زوجتي:

- يُقال إنّه لكي نتأمّل بشكلٍ جيّدٍ، علينا التخلّص من كلّ ما يُثقل علينا.

أجبتُ:

- يُقال إنّه لكي يتأمّل المرء بشكلٍ جيّدٍ، يجب أن يشعر بالدم ينبض في صدغيه. وأنا أشعر به علمياً بطريقة لا رجعة فيها.

قالت روز، وهي تسحبني نحو مخدعنا الزوجي الوثير:

- يُقال إنّه لكي يتأمّل المرء بشكلٍ جيّدٍ، لا بدّ من أن يستلقي بارتياحٍ على سريرٍ.

تعانق جسدانا والتحما، وتوحّد ذهنانا تدريجياً نحو الفرح. انسحب

غلافانا الجسديان باستحياء إلى خارج هيكلينا المحمومين لكي يندمجا فوق رأسينا، خلال بضع ثوانٍ من النشوة.

166. فلسفة أوروفيلية

«التطوّر لا يتمثّل في أن يصبح المرء أكثر قداسةً أو أكثر ذكاءً أو أكثر سعادةً. التطوّر يتمثّل في أن يصبح المرءُ أكثر وعياً. يلزم الكثير من الوقت قبل أن يتمكّن المرء من تحمّل حقيقة الحيوات القديمة. كلّما نما الجسد المادي أكثر، غدت الذكريات الذهنية أكثر وضوحاً من حياةٍ إلى أخرى.

لم يعد الموت هو ذلك القناع العابس الذي يذكّرنا بأننا لم نعد موجودين، بل هو انتقالٌ هادئ من نمطٍ من التجربة إلى نمطٍ آخر، إلى أن نصل إلى اليوم الذي نكون فيه قد كبرنا بما فيه الكفاية لكي نبثّ ما يكفي من الوعي في هذا الجسد لكي يغدو روحنا الخالدة».

ساتبريم
سري أوروبيندو أو مغامرة الوعي.
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

167. خسائر

كان راؤول قد رسم المجرّة واضعاً في مركزها ما يشبه فوهة حوض مغسلة. القارة الأخيرة. ما هو أكثر إثارةً في هذا الموقع هو أنّه يستجيب للحاجة الطبيعية التي لطالما كانت حاجة البشر إلى معرفة مركز العالم. لقد اعتقدوا على التوالي بأنّ الأمر يتعلّق بمدينةٍ، ثمّ ببلدٍ، ومن ثمّ بالكرة الأرضية، وأخيراً بكوكب الشمس. أصبحنا نعرف من الآن فصاعداً أنّ هذا النظام ليس سوى عنصرٍ صغير، على محيط مجرّة واسعة، مركزه عبارة عن شفّاطة طاحنة لكلّ شيء، وحتى للأرواح.

هل يقيم الله هناك؟ هل يعني هذا أنّ هناك آلهة تتربّص في مركز ملايين المجرّات التي تشكّل الكون؟ كان التفكير في هذا الأمر يُدوخني. يا له من لغزٍ متعب!

جاء الرئيس لوسينديرِ ليتفقّد الترتيب الجديد لمحطّتنا. أصبحنا الآن نتوفّر على ثماني منصّات إطلاق، إحداها لستيفانيا، والبقية للحاخام ماير وتلامذته.

واضعاً الجمعية الوطنية أمام واقع اتّساع إنجازاتنا بشأن القارة الأخيرة، كان رئيس الدولة قد نجح في الإفراج عن ميزانية حرب حقيقية لمصلحة الثاناتونوتية. لن يعود مضطراً للتلاعب بالصندوق الأسود وميزانية المحاربين القدامى، وسوف نتمكّن من الحصول على هوائي لاسلكي فلكي بحجمٍ عملاق. وبهذه الطريقة، سوف نتمكّن أخيراً من رؤية عددٍ من الأرواح المنطلقة نحو العالم الآخر وليس إكتوبلازمات رفاقنا فقط.

ومن ثمّ، طلب لوسينديرِ، بدافع الفضول، أن يحضر عملية تحليق جماعية. رسم له فريدي صورة التصميم الذي سوف تشكّله مجموعته في العلا. لاحظ الرئيس أنّها تشبه حلقة مظليين يمسكون بعضهم بسيقان بعض. أقرّ فريدي بذلك، موضّحاً في الوقت ذاته أنّه يجب الحرص أكثر على تجديل الحبال السُرّية جيّداً.

– من الأفضل لو أنّك تأتي معنا، سيادة الرئيس.

أجاب حامينا:

– شكراً جزيلاً. لقد سبق أن ذهبتُ إلى هناك مرّة واحدة، ولكنني أعتقد أنني سأكون أكثر فائدة لقضية الحركة الثاناتونوتية كرئيسٍ للدولة من أن أكون إكتوبلازم.

أخذ أعضاء الفريق أماكنهم في الفقاعات الواقية. كانوا مؤثّرين جدّاً، وقد اتّخذ الجميع وضعية اليوغا وهم يرتدون زيّهم الموحّد الأبيض اللون.

– ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق!

ومضت ثمانية *سلاشات*، سلاشاً بعد آخر، في جهاز الاستقبال اللاسلكي. انطلقت ستيفانيا أوّلاً. وهذا طبيعي، فهي سوف تكون هناك في العلا على رأس المجموعة.

أطلقتُ ساعة التوقيت خاصّتي، ووضعتُ موقّتات الإنقاذ على «غيبوبة لمدّة خمسين دقيقة»، ثمّ تابعنا مسار فرقتنا الخاصّة من الأرواح، بفضل الهوائي المكافئ. كانت هناك قرابة ساعة من الانتظار. بدا الرئيس في مزاجٍ

رائق ومرحاً، واقترح أن نلعب الورق. أخذنا أماكننا حول طاولةٍ مستديرة لكي نلعب لعبة جن رومي، ونحن نلتفت في الوقت نفسه إلى شاشات المراقبة من حينٍ إلى آخر.

كان راؤول هو أوّل من نهض من كرسيه، وهو يكاد يقلبه.

صاح:

- لقد مات حاخامٌ!

سأل لوسيندير، مرعوباً:

- ماذا! كيف؟

اكتشفتُ بهلع أنّ مؤشّري جهاز تخطيط القلب الكهربائي وجهاز تخطيط الدماغ الكهربائي لأحد أفراد يشيفا ستراسبوغ كانا يسيران بخطٍّ مستقيم في إشارة إلى توقّف القلب والدماغ عن النشاط.

- لا بدّ أنّ كارثة قد حصلت، في الأعلى!

هززتُ رأسي، متسائلاً:

- أيكون قد تجاوز الجدار الرابع لكي يسقط في عالمٍ جهنّمي؟

- مستحيل. لم تبلغ الرحلة سوى «غيبوبة لمدّة سبع وعشرين دقيقة». إنّهم لا يزالون في المنطقة الثانية، البلد الأسود.

أسرعتُ نحو كلّ أجهزة المراقبة والتحكّم. كانت الأجسام كلّها متوتّرة. أيّ كارثة كانوا يواجهونها هناك؟ جسّت آماندين نبض المستكشفين السبعة الناجين. ارتجفت. لقد غادرنا حاخامٌ ثان!

قالت وهي تلوي يديها:

- لا أفهم شيئاً مما يحدث. لقد سبق لهم أن تجاوزوا مرّات عديدة هذه المنطقة من دون مشاكل. كان عليهم أن يجدلوا سريعاً حبالهم السُرّية...

لم يكن الجوّ في المختبر سوى مزيج من القلق والارتباك. كان راؤول ممَسكاً برسغ ستيفانيا لمراقبة نبضها. ركّزتُ على المستقبلات اللاسلكية. كان الأمر غريباً. كانت هناك كثرةٌ في الإشارات وهي لم تكن متوافقة كلّها مع إشارات أصدقائنا. تُرى هل نواجه أرواحاً طفيلية، أرواحاً مقرصِنة؟ أيّ سلطة عليا بوسعها أن تكون قد قرّرت قطع «طريق العالم الآخر»؟

سوف نتحقّق من هذه التخمينات فيما بعد. أمّا الآن، فالأمر الملحّ هو أن نوقف المذبحة وأن نُعيد بأسرع ما يمكن أصدقاءنا قبل أن يهلكوا جميعاً.

أسرعنا معاً لكي نُطلق الموقّتات. فتح ستة مستكشفين غاضبين أعينهم على التوالي. كانوا جميعاً يرتجفون غضباً. بدت ستيفانيا أنّها لا تزال تخوض صراعاً بطريقة إيمائية.

- ما الذي حدث؟ ما الذي حدث؟

ثمّ لفظت بصعوبةٍ اسماً:

- الحشّاشون!

168. حكاية الحشاشين

كان هناك في الماضي رجالٌ اعتقدوا أنّهم قد اكتشفوا الجنّة على الأرض: الحشّاشون.

إنّهم معروفون تحت تسمية «الحشّاشين»، وهم الإسماعيليون من أتباع الإصلاح الذي قام به الحسن بن الصباح، وقد لُقّبوا بهذه التسمية لأنّهم كانوا يستهلكون كميات كبيرة من الحشيشة قبل أن يقوموا بعملياتهم الانتحارية. وهم على شهرة كبيرة إلى درجة أنّ أصل كلمة «assassin» الفرنسية، التي تعني قاتلاً يعود إلى تسميتهم هذه.

وتنحدر الطائفة من فرعٍ من الإسلام الشيعي، ويزعم أفرادها أنّهم من أتباع حفيد محمد، الذي لم يعترف به من قبل مجموع المسلمين، لأنّه من ذرّية محمد من جهة النساء.

حسب شهادات الرحالة الإيطالي من مدينة البندقية، ماركو بولو (1323)، وكذلك العديد من المؤرخين الفُرس، كان الحشّاشون يعيشون في قلعة ألموت، على ارتفاع ألف وثمانمئة مترٍ، في مازندران، إلى الجنوب من بحر قزوين. ولأنّهم كانوا محصورين في جبالهم، ولا يتوفّرون على وسائل خوض حروبٍ تقليدية، فكّروا في إرسال فرق خاصّة مكوّنة من ستة رجال يُسمون (الفدائيين) مكلّفين بطعن الزعماء الأعداء، وفي غالب الأحيان حينما يكون هؤلاء الزعماء منهمكين في أداء صلواتهم في المساجد.

كان زعيم هؤلاء القتلة مقدّساً ويُطلق عليه لقب «شيخ الجبل». وكان أوّلهم بالطبع الحسن بن الصباح، مؤسس الطائفة.

وكان هؤلاء القتلة الذين يُختارون للقيام بأعمال الاغتيال يتخدّرون بفعل تناول مادة الحشيشة، التي كانت تُدسُّ في طعامهم على شكل عجينة ممزوجة بمربّى الورد. كان شيخ الجبل يتكلّم معهم مطوّلاً، وكان الرجال ينامون لأنّ الحشيشة مادة مخدّرة منوّمة، وليست مثيرة. وبعد أن يغالبهم النعاس ويغطّوا في النوم، يُنقلون إلى حديقةٍ سرّية، في قاع قلعة ألموت. وحينما يستيقظون، يجدون أنفسهم في الحديقة محاطين بالجواري والغلمان، الذين يسارعون إلى تلبية كلّ رغباتهم الجنسية. كانوا يصلون في ثيابٍ رثّة، ويكتشفون بعد استيقاظهم أنّهم يرتدون ثوباً من الحرير الأخضر الموشّى بخيوطٍ من ذهب، فيوحي كلّ ما حولهم بأنّهم في الجنّة: أوان قرمزية، وخمورٌ طيّبة بوفرة، وورودٌ بروائح زكيّة، وحشيشة حسب الرغبة. مخدّراتٌ، وجنسٌ، وكحول، وترفٌ، ولذّة! كانوا مقتنعين أنّهم في حدائق الله، لا سيما أنّ هذا المكان كان واحةً لا مثيل لها في منطقة قاحلة وجبلية.

ثمّ كان يجري تخديرهم من جديد بعجينة الحشيشة، ومن ثمّ يُعادون إلى نقطة الانطلاق في ثيابهم القديمة الرثّة. فيعلن لهم شيخ الجبل أنّهم قد سنحت لهم الفرصة لكي يتذوّقوا خلسةً من نعيم جنّة الله، وذلك بفضل قدراته، وأنّه عليهم هم أن يعودوا الآن إليها وذلك بأن يموتوا كمحاربين! فكان الفدائيون ينطلقون، والابتسامة على شفاههم، بكل طاعة لكي يغتالوا وزراء وسلاطين. وحينما يُقبَض عليهم بعد تنفيذهم لمهمّتهم، يسيرون إلى التعذيب، ووجوههم طافحة بالنشوة.

ولم يكن هناك من يعلم بسرّ حدائق الله الزائفة سوى الكهنة الحشاشين منَ الدرجة الرفيعة (الدرجة السادسة).

انشغلت الطائفة في البداية بمصالحها الخاصّة من خلال الترويج لرسالة الحسن بن الصباح. ومن ثمّ تبيّن لشيوخ الجبل أنّ أتباعهم المتعصّبين يستطيعون أن يجنوا ثروة ضخمة. فكانوا يؤجّرون خدماتهم لمن يدفع أكثر.

وكان القتلة يسارعون إلى التطوّع عندما يسألهم رئيسهم: «من منكم سوف يخلّصني من فلان أو علان؟» وبهذه الطريقة ماتت الشاعرة عصماء بنت مروان التي تجرأت على أن تهجو حلفاءه من أهل المدينة، الذين سرعان ما استدعوا المرتزقة الحشاشين.

احتُلّت قلعة ألموت في عام 1253 من قبل هولاكو خان المغولي، جنرال مونكو خان الصيني. طلب الحشاشون عبثاً مساندة السلاطين الذين كانوا قد ساعدوهم، فقد أحجم هؤلاء عن التدخّل، سعداء جدّاً بالتخلّص من هؤلاء المزعجين الخطيرين.

استطاع الحشاشون المذبوحون أن يتأكّدوا من أنّهم لم يعرفوا سوى فردوسٍ مصطنع. عالم مقدّس اصطناعي، مصنوع من قبل بشرٍ من أجل تضليلهم.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

169. مرتزقة العالم الآخر

شرحت ستيفانيا، وهي لا تزال تلهث، وثيابها مجعّدة تحت نهديها الثقيلين:

– لقد تعرّضنا إلى هجومٍ من قبل إكتوبلازمات قراصنة. كانوا قرابة عشرين قرصاناً، مختبئين خلف جدار الغيبوبة الأوّل. مستفيدين من عنصر المفاجأة، قطعوا بأسنانهم الحبلين السُرّيين لكلّ من لوسيان وألبرت.

كان فريدي قد اكتشف باندهاشٍ أنّ عالم الإكتوبلازمات يمتلك معايير خاصّة به. أثناء الحلم، يستطيع الناس أن يقاوموا جيّداً والدم ينزف منهم. وعلى غرار ذلك، في القارة الأخيرة، تستطيع إكتوبلازمات من نفس الطبيعة أن تتقاتل فيما بينها وأن تقطع حبالها السُرّية الأرضية. كان قد اكتشف ذلك للتوّ ولكنّه لم يكن يعرف تفسير هذه الظاهرة. تُرى هل يكفي أن يكون هناك بثٌّ للحقد أو العدوانية لإحداث العنف؟ في كلّ الأحوال، كان الحاخامان المسكينان قد شُفِطا بحدّ ذاتهما من قبل الضوء إلى عمق المخروط.

وكيف استطاع فريدي وستيفانيا بهذه السهولة أن يحدّدا أنّ الذين هاجموهما كانوا من «الحشّاشين؟» انتقال تخاطر الأفكار بين الأرواح. ظنّ ماير في البداية أنّ هناك معركة منظّمة من قبل بعض العرب. ردّ فعلِ مانوي: عربٌ ضدّ يهودٍ. لا بدّ أنّ ذلك كان بسيطاً للغاية. فهؤلاء العرب كانوا آخر سلالات الحشاشين، الذين كانوا يرون في هذا الهجوم على الحاخامات وسيلة ممتازة لإيقاظ الحرب المقدّسة ولتعيين أنفسهم كرأس رمح للإسلام الفاتح. وسوف يسعون إلى أن يشهد النزاع دعاية واسعة النطاق في العالم الإسلامي.

كانت ستيفانيا غاضبة.

– لقد انقضّوا علينا، وأمسكوا بنا. كانوا يحاولون أن يمزّقوا حبالنا من خلال شدّها أو لفّها على كعبهم. وإذ زال تأثير المباغتة، دافعنا عن أنفسنا!

زاد فريدي على كلامها:

– بل وبطريقة غريبة! وقد قمنا بدورنا بترحيل ثلاثة من هؤلاء القراصنة إلى العالم الآخر. وباتوا يعلمون من الآن فصاعداً، أنّنا لن ندعهم «يقتلوننا» دون أن يكون لنا ردّ فعل.

كانت المعركة قد جرت إلى حدٍّ ما بطريقة معركة تحت الماء بين ضفادع بشرية، باستثناء أنّ بدل قطع أنبوب وصول الهواء المضغوط، تُنسَفُ الحبال السُرّية الفضّية. وفي المحيط، كان القتلى الجدد يسعون إلى رؤية المستكشفين يقتلون بعضهم بعضاً!

أخذ الرئيس لوسيندير سيجارة من سجائر راؤول الملفوفة من ورق الأوكاليبتوس على الرغم من أنّه كان قد قرّر التوقّف عن التدخين منذ ثلاثة أيام خلت.

قال وهو يزفر سحباً من الدخان العابق بروائح الأوكاليبتوس:

– على المدى البعيد، لا بدّ أن تُعلَن القارة الأخيرة «منطقة منزوعة السلاح». وأيّ شخص يدخل إليها وهو يحمل نوايا عدوانية، سوف يُطرد منها مباشرةً.

سألت ستيفاني، ساخرةً:

-.من قبل كتائب الإكتوبلازمات الأممية؟

- في الوقت الراهن، نحن عاجزون، ويحقّ للجميع أن يصعدوا إلى الأعلى، بمن فيهم الحشاشون، ونحن غير قادرين على التحكّم بهم على الأرض. لا يمكننا أن نشعل فتيل نزاعٍ، حتى وإن كان محلياً، في سبيل حماية قارة أخيرة تخصّ إجمالاً العالم برمّته.

لم يكن قد سبق لي قط أن فكّرتُ بالجوانب الدبلوماسية لاستكشافنا. في العادة، كان المستكشفون الروّاد يرفعون علم بلادهم على الأرض التي كانوا اكتشفوها. وكانت المستعمرات تولد بهذه الطريقة. كان المستكشفون يصلون أوّلاً، ثم يأتي من بعدهم مستصلحو الأراضي، ويتبعهم التجار، وأخيراً الإداريون. نتيجة للحروب الإقليمية، كانت حدود جديدة تُرسم حسب الأهواء، وتُرسَم في بعض الأحيان بالمسطرة كما كانت الحال بالنسبة إلى العديد من البلدان الأفريقية. أمّا نحن، فلم نكن قد رسمنا بأيّ حال المناطق التي دخلنا إليها، وبالتالي فإنّ القارة الأخيرة ليست ملكية أيّ أمّة في الوقت الراهن. ومن الواضح تماماً أنّ أوائل من استخدموا القوّة للاستيلاء عليها كانوا يجازفون بأن يصبحوا أسيادها. وكما كانت الحال في الفار ويست، فإنّ الغلبة ستكون لمن يستلّ سلاحه على نحوٍ أسرع!

وبالسذاجة التي كنتُ عليها، تصوّرتُ على الدوام أنّ رجالاً ونساءً معتادين على التأمّل وقادرين على التضحية بحياتهم على أرائكنا الخاصّة بالتحليق لا يمكنهم إلّا أن يكونوا أناساً شجعاناً، يشغلهم اهتمامٌ وحيد وهو توسيع حدود المعرفة.

انتهت المغامرة، انتهى المجازفون، انتهى الروحانيون الحالمون! مع تعميم رحلات التحليق، سوف تحصل في العالم العلوي كلّ المشاكل التي كنّا قد استغرقنا الكثير من الوقت لحلّها هنا في العالم السفلي. في العالم الآخر، كانت أيّ طائفة، أيّ حفنة من المتعصبين، وأيّ عصبةٍ من الأشرار تظهر جميعاً قويّة مثل دولةٍ. كان بعض الحشّاشين الذين لا يمثلون سوى ما يقارب خمسين قاتلاً طائشاً يهدّدون بالاستحواذ على الفردوس، فقط لأنّهم كانوا الأوائل الذين راودتهم فكرة الاستيلاء عليه بالقوّة!

- كيف يمكن التصدّي لهم؟

بدا الرئيس لوسيندير محبطاً، فقال:

- التزموا الحذر، يا أصدقائي. من المهمّ تجنّب أي حادثة ديبلوماسية أو سياسية مع لبنان، وإيران، وكذلك المملكة العربية السعودية.

ردّت ستيفانيا، حانقةً:

- ولكن، لا إيران، ولا لبنان، ولا المملكة العربية السعودية تساند الحشاشين. فهم أعداء كلّ العرب.

أضاف حاخامٌ ناجٍ:

- حتى الشيعة الآخرون يكرهونهم ويحتقرونهم.

قال لوسيندير بشبه تأوّهٍ:

- منْ يعلم! يفكّر السعوديون في بناء محطّة عملاقة لإطلاق المستكشفين ليس بعيداً عن مكّة. تُرى إلى أيّ مرتزقة يمكنهم اللجوء لكي يتصدّروا السباق.

والحال أنّهم المزوّدون الرئيسيون لنا بالنفط ولا يمكننا أن نمنح أنفسنا ترف إغضابهم منّا، حتى بسبب بعض المشاكل الصغيرة الناجمة عن الثاناتونوتية.

قالت روزا، محتجّةً:

- ولكن الأمر يتعلّق بالحياة وبالموت.

- أنا آسفٌ، يا أطفالي، ولكن يجب عليّ أن أهتمّ أوّلاً بسبعة مليارات من الكائنات الذين يعانون على كوكبنا من عذاب الحياة، وعلى نحوٍ أخصّ، بستين مليوناً من المواطنين في بلدنا، نصفهم من الناخبين الذين يتنقّلون في سيارات تسير بفضل النفط، ويرتدون ثياباً منسوجة من النفط، ويتدفّؤون بالنفط، و ...

سألتُ بصورة عفوية:

- في هذه الحالة، ماذا لو عثرنا على أميرٍ سعوديٍّ مستعدٍّ لأن يتحالف معنا؟

قال رئيس الدولة وهو يفتح ذراعيه واسعاً:

- في هذه الحالة، لكم مطلق الصلاحية، وكامل الصلاحيات!

170. لاهوت قرآني

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

سورة النساء، الآية 95.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

171. لقد تعقّدت الأمور

لم يكن الحشّاشون سوى نُذر حربٍ دينية لم نكن قد توقّعنا وقوعها. بكلّ تأكيد، في بداية تجاربنا، كنّا قد رأينا رجال دينٍ ينافسوننا بشراسة لكي يكونوا أوائل الواصلين إلى عالم الموتى، لكننا لم نتصوّر قط أنّه يمكن لهذا النزاع أن يأخذ هذا الحجم الكبير والمنحى الخطير.

هندوس ضدّ مسلمين، بروتستانت ضدّ الكاثوليك، بوذيون ضدّ شينتويين، يهودٌ ضدّ إسلاميين: في البداية، كانت هذه هي الطوائف الرئيسية التي اشتبكت مع بعضها في محيط القارة الأخيرة. ومن ثمّ دخلت إلى هذه المنافسة جماعات منشقّة ومذاهب مهتمّة بالحكم الذاتي: الشيعة الإيرانيون ضدّ السنّة السوريين، الرهبان الدومينيكانيون ضدّ الرهبان اليسوعيين، الطاويون من أتباع خطّ تسو ضدّ أنصار تشانغ تسو، اللوثريون ضدّ الكالفنيين، اليهود الليبراليون ضدّ اليهود الأرثوذوكس المتشدّدين والمعادين للصهيونية، والمورمونيون ضدّ الأميشيين، وشهود يهوه ضدّ سبتيي اليوم السابع، أتباع طائفة مون ضدّ تلامذة السينتولوجيا!

كنتُ أجهل أنّ اللاهوت قد ضمّ كلّ هذه الاختلافات. واكتشفتُ أنّه يوجد الكثير من الانقسامات بين الأديان البشرية بحيث من العبث أن نأمل

في أنّ المؤمنين من كلّ الطوائف سوف يلتقون ذات يومٍ في العالم العلوي برغبة وحيدة وهي المسكونية.

بينما كانت الإكتوبلازمات تكمن بعضها لبعض وتقتل بعضها بعضاً باسم إيمانها، كنتُ أعيد قراءة الملاحظات التي كان راؤول قد سجّلها بدقّة حول كلّ الميثولوجيات والعقائد اللاهوتية وتبيّن لي في الواقع أنّ العديد من هذه الملاحظات كانت عبارة عن قواسم مشتركة بينها. بدا لي أنّ جميعها تسعى إلى سرد نفس القصّة وإلى نقل نفس المعرفة باستخدام أمثال وكلمات مختلفة.

لم تتأخّر عواقب هذا النزاع الذي سمّم السماوات في الظهور هنا في العالم الأرضي. لقد استهدف حشّاشون إرهابيون بسيارة مليئة بالمتفجرات محطّتنا لإطلاق المستكشفين. ولا ندين بنجاتنا من الهجوم إلّا لرعونة صانع القنابل الذي أساء ضبط قنابله، التي انفجرت معه على بعد ما يقارب مئة مترٍ من مبنى محطّتنا.

وببرودة دمه المعهودة، جمعنا راؤول في شقّتنا العلوية. فقد كان عددنا الآن كبيراً بحيث لم يعد بوسعنا أن ننتشر على بلاطات مقبرة بير لاشيز.

نشر خريطة للقارة الأخيرة.

– إنّه لأمرٌ طبيعي أن تسعى الأديان إلى غزو بلاد الموتى لأنّ الدين الذي يسيطر على العالم الروحي، سوف يصبح أيضاً سيّد العالم المادّي. تصوّروا لو أنّ المسلمين الباكستانيين انتصروا، كانوا سيوقفون دورة تناسخ الأرواح عند البوذيين الهنود!

كانت ستيفانيا قد أصبحت مختصّة بالصراع الإكتوبلازمي، وقد اتّخذت كلّ أنواع التدابير المخصّصة لحماية حبلها السُرّي الخاصّ، الفضّي اللون. قالت:

– لا ينبغي أن نهمل احتمالات التحالف، حتى أكثرها استبعاداً. لقد فقدنا حاخامين صديقين خلال رحلة تحليقنا الأخيرة، ولكننا استطعنا، بفضل مساندة المسلمين البدو، أن نقتل أكثر من عشرة أشخاص من الحشّاشين المسعورين. وبالتالي علينا ألّا نصعد إلّا في مجموعة قويّة جدّاً

لكي ندحر أعداءنا ونواصل استكشافنا. وفي نهاية المطاف، هذا هو الأمر المهمّ!

قال راؤول، وهو مطرقٌ في التفكير:

- بدل الانطلاق في مجموعةٍ من ستة أو سبعة مستكشفين، يجب الانطلاق في مجموعة من عشرة أو عشرين مستكشفاً ...

ردّت ستيفانيا وهي تنبض بالطاقة والحيوية:

- بالضبط. إنّ الأكثر عدداً هم من ينتصرون على الدوام. لماذا لا نحلّق في مجموعة تضمّ خمسين مستكشفاً أو حتى مئة مستكشفٍ؟

علّق فريدي:

- فكرة ممتازة، ولكن ليس هناك مئة حاخامٍ مستكشفٍ.

قلتُ:

- ولماذا نقتصر على الحاخامات؟ ربّما آن الأوان لأن نُجري بعض التسويات. فعلى سبيل المثال، لقد لاحظتُ أنّ القبالة والييكينغ تقدّمان الكثير من النقاط المشتركة.

صفّقت الفتاة الإيطالية للفكرة. وسوف تُفيدنا هذه الفكرة كسفيرة لنا، في العالم العلوي.

بعد مضي أسبوعٍ، كان ما يُقارب عشرين راهباً شابّاً، من الذين كانوا، للوهلة الأولى، يشبهون الكثير من قطرات الماء، يطرقون باب محطّتنا. كانوا ينتمون إلى معبد شاولين، المكان الذي يتعلّم فيه الرهبان، منذ آلاف السنين، بالضبط أنّ الدين والقتال يسيران جنباً إلى جنب. وكان رهبان معبد شاولين مشهورين بأنّهم الخبراء الأعظم في كونغ فو. وكانوا المؤسسين لعلم وممارسة الفنون القتالية. إنّهم يزاوجون منذ الأزل بين الحرب والتأمّل.

نظر فريدي بانبهار إلى التشكيلات الإكتوبلازمية الجديدة. إنّه لا يقود فرقة خاصّة فحسب، بل سرباً حقيقياً قادراً على أن يجتمع على شكل حصنٍ طائرٍ.

وقد أطلق على جيشنا السماوي اسم جيش التحالف، التحالف بين جميع الأديان ذات النوايا الحسنة.

172. حكاية حاسيدية[1]

نظر الطفل إلى الرجل العجوز الذي كان يرقص وبدا أنّه يرقص منذ الأزل.

– جدّاه، لماذا ترقص بهذه الطريقة؟

– ها إنّك ترى، يا بُني، الإنسان مثل لعبة البُلبل الدوّارة. ولا يبلغ الإنسان هيبته ونُبله وتوازنه إلا في الحركة. يصنع الإنسان نفسه من التفكّك. لا تنسَ هذا أبداً.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

173. حروب

لم نكن الوحيدين الذين يسعون للحصول على حلفاء، بل الحشّاشون أيضاً، الذين بدوا أنّهم يكرهوننا شخصيّاً، وجدوا لأنفسهم شركاء غير عاديين. وقد أطلقوا على جيشهم تسمية «الائتلاف» وجمعوه في محطّة إطلاق المستكشفين التي أقاموها في قلب حصنهم القديم، قلعة ألموت. تحالفوا في بداية انطلاقهم مع الرهبان الشينتويين لمعبد ياسوكوني. ها هنا، في هذا المكان القريب من طوكيو، تمّ تكريم أرواح مليونين وأربعمئة وأربعة وستين ألفاً ومئة وواحد وخمسين جندياً سقطوا خلال كلّ حروب اليابان الإمبراطورية.

مهما يكن من أمر، فإنّ الأعمال العدائية للحاخامات الليبراليين مع رهبان شاولين ضدّ المفتين الحشاشين مع رهبان ياسوكوني قد أبطأت على نحوٍ جدّي استكشاف القارة الأخيرة. حدثت معارك رهيبة، مثل معركة الخامس عشر من آب / أغسطس التي واجه فيها مئتا جندي من التحالف

1- الحاسيدية: من الحاسيديم، وهي حركة روحانية اجتماعية يهودية نشأت في القرن السابع عشر. يعد بعل شيم توف مؤسس الطائفة الرئيسي، حيث نشرها في أنحاء شرق أوروبا. الفكر الحاسيدي وخصوصاً في الأجيال الأولى تميّز بالدعوة إلى عبادة الرب وطاعته ومحبة إسرائيل وأتباعه الصالحين. المترجم

ستمئة جندي من أتباع الائتلاف. ارتجل فريدي، فريدي نصير السلام، بهذه المناسبة ما ينبغي أن نصفه بالفعل أوّل استراتيجية للكفاح الإكتوبلازمي.

أرسل مجموعة صغيرة من الطاويين ومن الحاخامات كمستطلعين في حين اختبأ القسم الأكبر من الجيش الحليف خلف جدار الغيبوبة الأوّل، في مواجهة فقاعات الذاكرة. كان الصراع حامياً جدّاً على حواف التاج إلى درجة أنّ الائتلافيين نسوا وجود موخ 1. ما إن اندفع التحالفيون فيه، حتى لحقوا بهم وهم يمسكون على نحوٍ متبادلٍ بالحبل السُرّي لكي يحموا أنفسهم. واللقاء السيئ الذي كان ينتظرهم لم يكن اللقاء الذي كانوا قد توقّعوه. في الواقع، لم يهاجمهم التحالفيون، بل فقاعات الذاكرة.

استفاد رجالنا من المفاجأة ليقطعوا أكثر ما يمكن من الحبال السُرّية. وبهذه الطريقة، غرِق في ذلك اليوم ثلاثمئة ائتلافيٍّ، على رأسهم حشّاشون، نحو النور.

ومن جانب التحالفيين، استسلمنا لتكبّد خسارة مجموعة صغيرة من مئة ممّن ينبغي أن نُطلق عليهم تسمية «موتى».

اعتبر فريدي أنّه إذا كان الانتصار عموماً سهلاً جدّاً، فذلك لأنّ ماضي الحاخامات ورجال شاولين كان من دون أدنى شكّ أكثر نقاءً من ماضي الحشّاشين. إنّهم لم يشجّعوا ارتكاب المجازر في لبنان، ولم يشنّوا أيّ نوعٍ من الهجمات الإرهابية، ولذلك لم يضطرّوا لتوخي الحذر من ضحاياهم السابقين وأعدائهم الحاليين في الوقت ذاته.

وكانت المفارقة هي أنّ هذه الحروب الإكتوبلازمية أعطت لغزو العالم الآخر رسائله النبيلة الحقيقية. عرفت الأديان عبر العالم تصاعداً في التشدّد في نفس الوقت، للأسف! وأصبح المتعصّبون أكثر عدداً. بل وسعى بعض الطوائف إلى استغلال الفرصة لكي ترتقي إلى مصاف دينٍ معترفٍ به. كان يكفي استخدام فرقة من المغاوير لكي تعرّض ممثّلي دينٍ متّبع للخطر. لحسن الحظّ، كان الناس يذهبون عراةً إلى القارة الأخيرة. وبالتالي لم تكن هناك أيّ إمكانية ليأخذوا معهم أسلحة عادية أو أسلحة رشّاشة أو بنادق أو حتّى خناجر. وإلّا لحدثت مجزرة لرجال الدين، نظراً لشراسة المشاجرات.

لعدم توافر الصور والأفلام، تحدّثت الصحف وقنوات التلفزة في البداية عن الحروب الإكتوبلازمية. ولكن مجلّة *المستكشف الصغير المُصوّر*، التي ظلّت في طليعة وسائل الإعلام التي نشرت المعلومات بشأن هذه الحروب، هي من راودتها فكرة إيفاد مراسلها مكسيم فيلان. كان هذا الصحافي راهباً ممتنعاً عن الكلام سابقاً، وظلّ صامتاً لوقتٍ طويل، ولذلك كانت لديه ذاكرة بصرية واسعة جدّاً ومذهلة. فإذا كان بعض الكائنات من المرسلين، فكان هو، الصموت دائماً، مستقبلاً. كان يلتقط كلّ شيء ومن ثمّ يعيد صياغته ويقدّمه لقرائه. وقد خربش، كأوّل مراسل إكتوبلازمي، لقرائه بعض الصور للمعارك الرهيبة التي جرت في العالم الآخر. وأخيراً هناك حربٌ نظيفة وبلا خطر بالنسبة إلى المواطن العادي. فكان هواةٌ مسالمون يجلسون بهدوءٍ وارتياحٍ في أرائكهم، ويهتمون بشغف بالنزاع غير المرئي.

ولكن هذا لم يغيّر من حقيقة أنّ النزاع كان يتطلّب أعداداً متزايدة باستمرار، ولذلك اضطُررنا، في محطّتنا لإطلاق المستكشفين في بوت شومو، أن نهجر شققنا الخاصّة لكي نفسح المكان لعددٍ من منصات الإطلاق. إذ يجب، من الآن فصاعداً، أن ينطلق خمسون رجل دين من التحالف على الأقلّ دفعة واحدة، إذا ما أردنا الانتصار على العدو.

كان المبنى قد تحوّل إلى برج بابل حقيقي. تتردّد فيه أصداء لغات أجنبية، وغالباً لم يكن المتحدّثون بهذه اللغات يفهمون بعضهم بعضاً، ولكن ممثّلي مختلف الأديان والطوائف، المتّحدين في إرادة غزو العالم الآخر نفسها، كانوا يتفاهمون على نحوٍ مذهل ويتدبّرون أمورهم لكي يتبادلوا تقنياتهم في التأمّلات والصلوات.

كان التحالف يصبح كلّ يوم أكثر تنوّعاً في العناصر. وقد أُضيف إلى الحاخامات الليبراليين، وإلى الرهبان الطاويين، وإلى الحكماء البوذيين الأوائل، مُرابطون إحيائيون إيفواريون، ومفتون أتراك، ورهبانٌ شينتويون من جزيرة هوكايدو (الأعداء التقليديون لرهبان الشينتو لمعبد ياسوكوني)، ودراويش دوّارون يونانيون، بل وثلاثة من الشامان الإينويت، وستة سحرة من السكان الأصليين في أستراليا، وثمانية سحرة من شعب البوشمن البدائي الذي يعيش في صحراء كالهاري بين بوتسوانا وناميبيا، وطبيبٌ ساحرٌ

فيليبيني، وأحد أفراد البيغمي الأقزام الذي لم نفهم قط معتقداته وكذلك حكيمٌ من قبيلة شايان، إحدى مجموعات السكان الأصليين من السهول العظمى. وكان جيشنا يضمّ بذلك أكثر من مئتي جندي ورع، يشكّلون أدلّة حيّة على أنّه من الممكن إقامة انسجامٍ تامّ بين جميع العقائد الأرضية.

كانت أجواء سلمية هادئة تسود في الشقّة العلوية، المكان الذي يلتقي فيه كلّ عالمنا الصغير. بعيداً عن تشدّد وصرامة أديرتهم، وكان مستكشفونا الورعون يتبادلون المزاح والنكات مثل طلبة المدارس الإعدادية. من جهتي، حاولتُ أن أظهر بمظهرٍ لائقٍ وأنا أطرح أحجيةً:

- هل تعرفون كيف يمكن للمرء أن يرسم دائرةً ومركزَها من دون أن يرفع قلمه عن الورقة؟

شغف الرهبان والحاخامات بهذا التحدّي للمنطق السليم.

انتهى بهم الأمر إلى القول:

- هذا مستحيل!

أجبتُ برباطة جأش قبل أن أحدّد لهم الحلّ:

- لا أكثر ولا أقلّ من الثاناتونوتية.

سمعتُ من الخلف راؤول، الذي دائماً ما يكون متقدّماً في حلّ أحجية، وهو يُلقي على جمهورٍ منتبهٍ أحجية فيكتور هوغو:

- كلمتي الأولى (بافار - ثرثار). كلمتي الثانية (وازو - طائر). كلمتي الثالثة (او كافيه - في المقهى). كلمتي الرابعة: (محل حلوى)[1].

كانت هنا مادّة للنقاش. وخاصّة لأنّ الحلّ كان يبدو بسيطاً. في حين كان فريدي يعزف معزوفة للمؤلّف الموسيقي الأمريكي جورج غيرشوين على البيانو، وكانت آماندين تعدّ خلطاتها المعقّدة، كنتُ أفكّرُ ملياً في أحجية

1- أحجية تؤخذ مقاطع من كل كلمة لتشكّل جملة:

Mon premier est bavard. Mon deuxième est un oiseau. Mon troisième est – .au café. Mon tout est une pâtisserie

وهنا الجواب هو:Bavaroise au café ، وتعني بافارية في المقهى. المترجم

هوغو: «كلمتي الأولى ثرثار؟ عقعق. ولكن العقعق هو أيضاً كلمتي الثانية، الطائر... ومنْ، ماذا، يوجد في المقهى: سكّيرٌ، نادلٌ، بيرة؟»

174. ميثولوجيا إسلامية

حسب التقاليد الإسلامية، فالفردوس واسعٌ ويتكوّن من ثمانية طوابق. وإذ يرويه أربعة أنهار، هو مكانٌ للملذّات. ومن المبشّرين به الخلفاء الراشدون الأربعة، وكذلك الرجال العشرة الأوائل الذين آمنوا بدعوة النبي، وكذلك ابنته فاطمة. ينال جميعهم سبعين سرداقاً مغطّى بالذهب والأحجار الكريمة. ويضمّ كلّ سرداقٍ سبعمئة سريرٍ مشغولٍ بسبعمئة حورية. كما وجدت سبعة حيوانات المكان في الفردوس: ناقةِ النبي صالح، وكبش إبراهيم، وحوت يونس، وبُراق النبي، ونملة وهدهد سليمان، وكلب أهل الكهف.

يقدّم النبي لكلّ ضيوفه ملذّات متنوّعة ولكن بشهوانية لامتناهية.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

175. معركة الفردوس

الجوّ المسكوني والطيّب لمحطّتنا الخاصّة بإطلاق المستكشفين لم يجعلنا ننسى حقيقة المعارك الضارية لنزاعٍ كان قد بدأ لتوّه.

لقد انخرط التحالف والائتلاف في حربٍ لا هوادة فيها. يستيقظ مستكشفونا كلّ يوم وهم ينضحون عرقاً، ويرتعشون بكلّ أعضاء جسدهم، ويعلنون عن خسائر جديدة. وقد قرّر فريدي ماير، حاخامنا المصمّم للتشكيلات القتالية الذي رُقيّ إلى رتبة قائد حربي، أنّ الوقت قد حان لكي نشنِّ هجومنا الكبير. وبالفعل وقعت «معركة الفردوس» الشهيرة في عام 2065 من عصرنا. وقد تابعناها، راؤول، وروز، وآماندين، وأنا، بأفضل ما لدينا بمساعدة هوائينا المكافئ ولكننا لم نستطع أن نرى شيئاً سوى ملاحظة الاضطراب الذي كان يسود الأرواح. وقد أعطى مكسيم فيلان فيما بعد سرداً بارعاً عنها. وها هو:

معركة في الفردوس

بينما كان الضباب الناجم عن النجوم المحتضرة يتكثّف في أطراف الدوّامة الفاغرة للثقب الأسود الذي يُسمى الفردوس، رأيتُ جيش الحاخام فريدي ماير يتقدّم، وهو قويٌّ برهبانه الصينيين الودودين، وببوذييه الهادئين، وبالسحرة الشايانيين المبهرين، وبالمرابطين الفرحين الأفارقة الإحيائيين. كانت مجموعتهم متماسكة بصلابة. وكانت فيالق التحالف قد اقتربت من إكتوبلازماتهم بحيث منعت ألدّ خصومها من التحرّك والتصرّف.

ظهرت قوات الائتلاف بعد ذلك ببضع دقائق. في الخطّ الأوّل، أخذ الرهبان الشينتويون مواقعهم مثل قاذفات رهيبة متأهّبة لتدمير الحبال السُرّية. متّخذين وضعية لاعبي الكاراتيه، دوّموا بحواف أياديهم على شكل عدد كبير من المناجل التي لا تُقهَر. ومن خلفهم، كان بعض الحشاشين على أهبة الاستعداد على الجناحين ويضحكون هازئين في حين كان بعض الدومينيكيين يرنّمون بالصلوات.

تعجّ السماء بالأرواح. وعلى الجانبين، وصلت تعزيزات من كلّ محطّات إطلاق المستكشفين في العالم. من جهة، قرابة ألف ومئتي حاخام، ووثني، وبوذي، وقبلاني، وطاوي. ومن جهة أخرى، ألفان وثلاثمئة راهبٍ شينتوي، وشاماني، وحشّاش ودومينيكاني.

أبلغ قائد التحالف، الحاخام ماير، عن طريق التخاطر، أوامره إلى قواته. أمّا عند الائتلافيين، فقد نقل الجنرال شيكو، الاستراتيجي الياباني الكبير، تعليماته بنفس الطريقة. وينبغي التنويه هنا إلى أنّ أرواحه، منذ هزيمتها في الخامس عشر من مايو / أيار، قد تعلّمت كيف تتحكّم بأصعب ذكرياتها لكي لا تصبح مباشرةً ضحايا حال وصولها إلى المنطقة السوداء.

مهما يكن من أمر، فقد قرّروا هذه المرّة أن يبقوا خارج الفردوس بغية التحكّم على نحوٍ أفضل بممرّ الحبال السُرّية للأعداء. أمّا بالنسبة إلى التحالفيين، فقد أخذوا مواقعهم بالقرب من الأبواب حتى يكون الضوء في ظهورهم، إذ كانوا يأملون في أن يجذب الضوء خصومهم ويُبهر أبصارهم ويعميهم.

أعطى الجنرال شيكو وشيخ الجبل إشارة الهجوم وهما يمسكان حبالهما

السُرّية بيديهما. انقضّ الحشّاشون على الجناح الذي كان يدافع عنه بشكلٍ أساسي السحرة الوثنيون الشايانيون. هبّ الحاخامات الليبراليون لنجدتهم ولكنّهم أوقفوا من قبل الرهبان الشينتويين الذين قطعوا بحافة راحة اليد حبالهم السُرّية مثل سويقات الزهور في حديقةٍ. انضمّ الرهبان الطاويون والدومينيكانيون إلى المعركة.

بدا أنّ الخطط الاستراتيجية جميعها قد اختفت، ولم يعد الأمر سوى بؤرة مشاجرات حقيقية بين النجوم. وفي الأطراف، كان القتلى الجدد يواصلون التدفّق ويمرّون، وهم بالكاد يهتمون بالأرواح التي تقاتل بمثل هذه الضراوة على حواف الفردوس.

لاحظ التحالفيون في لحظةٍ أنّه بسبب انخفاض عدد المقاتلين بدأوا بالانهزام في المعركة. اندفعوا نحو جدار الغيبوبة الأوّل. ودفع الجنرال شيكو بقواته في إثرهم خشية أن يتكرّر معهم التكتيك الذي استخدموه في الخامس عشر من مايو / أيار.

على أطراف العالم الثاني، التي أصبحت أكثر انحداراً على نحوٍ مطّرد، تواجه المقاتلون المتديّنون في نفس الوقت الذي تواجهت فيه ذكرياتهم الأكثر فظاعةً. ارتعشت الأرواح في هذا المكان الذي تفوح منه رائحة التراب والموت. انقطعت عدّة حبال سُرّية وسالت إكتوبلازمات محاربين قتلى نحو الضوء. أمسك ثلاثة حشّاشين بحاخامٍ ليبرالي حاول أن يتخلّص من حركاتهم المتقطّعة بخطواتٍ رقصة اليديش. وبفضل قفزات الكونغ فو، استطاع راهبٌ طاوي أن يقطع بحركة واحدة ستة حبال سُرّية دومينيكانية. وجد أحد الموهيكانيين نفسه وحيداً في مواجهة مجموعةٍ من الإيراكوايين. كان رهبانٌ من الكنيسة التوحيدية يُقاومون كالبنيان المرصوص سيونتوأوجيين. بدت الطوائف راغبة على نحوٍ خاصّ بالتماسك فيما بينها. لقد تشكّلت شراكات غريبة. فقد أنقذ مرابطٌ أفريقي شاماناً أندونيسياً، وهو سجينٌ تعويذةٍ كاثوليكية – رومانية تساءل عمّا يفعله هناك. تاهت زمرةٌ من الرهبان البوذيين في الكورنيش. لقد حضرنا هجمةً جميلة لشيوخٍ روحانيين هندوس، منتظمين في وضعية اليوغا، على دراويشٍ دوّارين مثل بارومةٍ.

فقد أقاموا خطّ دفاعٍ بالتناوب يسمح بإيواء الجنود الأكثر انهاكاً من معسكرهم. في حين حاصر حشدٌ من اليسوعيين مجموعةً من آيات الله الشيعة ليتعرّضوا بدورهم إلى هجومٍ من قبل الحشّاشين. ولم يدينوا بنجاتهم إلّا لفرقة من المغاوير من الدروز ومجموعة صغيرة من العلويين.

لقد قضي الأمر، إذ قُتِل آخر الموهيكانيين. وانتقم له بعض الشايانيين. وشنّ الدراويش الدوّارون هجوماً مضاداً بمساندةٍ من المرابطين. وتجمّع على شكل مثلّثٍ رهبانٌ بوذيون بهدف منع الشامانيين الإندونيسيين من الإسراع إلى إنقاذ اليهود الليبراليين.

انقطعت الحبال السُرّية مثل البلاستيك. قام الجنود بعضّ وسحب بعضهم بعضاً. غرسوا أنيابهم في السيقان وفي الحبال السُرّية. أنار الضوء الساطع من أعماق النفق هذه المبارزات بوميضٍ أبيض. وشحُبَتْ وجوهٌ مذعورة أو غاضبة كما لو أنّها معرّضة لضوء مصابيح النيون. لمحتُ من بعيد مجموعات مربوطة بحبالها السُرّية وهي تقوم بمناورات معقّدة وغالباً تبوء بالفشل. ثمّ لم يعد هناك مثقال ذرّة من الشفقة، ولم يعد هناك مثقال ذرّة من الرحمة. كان كلّ واحدٍ يقاتل لكي يقتُلَ أو يُقتَلَ.

كان التحالفيون يُبدون في البداية أنّهم الأكثر قدرةً على الانتصار، ولكنّهم خضعوا تدريجياً إلى الشراسة التي أبداها خصومهم. وكانت الحبال المقطوعة في معسكرهم هي الأكثر عدداً.

أرسل الحاخام ماير الإشارة التخاطرية بالانسحاب وهرب نحو جدار الغيبوبة الثاني. ولحق به الائتلافيون، الذين كان لا يزال الجنرال شيكو على رأس قيادتهم. ولكن حينما عبروا موخ 2، اكتشفوا المنطقة الحمراء، المليئة بالملذّات والمُتَعِ. بعد الذكريات الأليمة، اضطرّ المتديّنون الورعون لأن يواجهوا خيالاتهم الجنسية. يا له من كفاحٍ هائل هذه المعركة التي يحاول فيها رهبانٌ شفّافون أن يقطعوا الحبال السُرّية الفضية بعضهم لبعض وهم يقمعون في الوقت ذاته رغباتهم الجنسية الأكثر كبتاً!

لم نعد نعرف أين يتوقّف الرعب وأين تبدأ العربدة الجنسية. كان الدومينيكانيون والحشّاشون الأكثر صدمةً بهذه المشاهد الجنسية التي هاجمتهم

من كلّ حدبٍ وصوب. لا شكّ أنّهم كانوا أكثر إحباطاً من اليهود والبوذيين لأنّ خطوطهم أُبيدت في حين أنّ التحالفيين الذين يُتيح لهم دينهم الحصول على النساء وممارسة الجنس دون محظور، قاوموا مقاومة لا بأس بها.

في مواجهة غيشا[1] يابانية جسورة أرادت أن تفتّش بأيّ ثمن تحت حبليهما السُرّيين، لاذ الجنرال شيكو وشيخ الجبل بالفرار، يتبعهما ما تبقّى من مقاتليهما الإكتوبلازميين.

لمن آل النصر في معركة الفردوس هذه؟ من دون أدنى شكّ، للرؤى الجنسية!

مكسيم فيلان.

176. ميثولوجيا أزتيكية

كان الأزتيك مقتنعين بأنّ الدم البشري للقرابين يمنح الطاقة الضرورية لحسن سير الكون، ولسير الكواكب، ولعودة الفصول. كان الضحايا من ذوي الجذع الممزّق والأحشاء المتدلية بفعل نصال سكاكين القساوسة ينضمون إلى الآلهة التي باسمها تُزهَق أرواحهم لأنّ هذه الآلهة كانت، في السابق، قد ضحّت بأنفسها في سبيل إنقاذ العالم. كان موت البشر يشكّل إذاً محرّك الكون. ولم تكن الحرب سوى وسيلة لإيجاد وقودٍ، أي أسرى مخصّصين للتضحية. وكان كلّ فردٍ ينصاع طواعيةً لهذا المصير الذي تعدّ له تربية كلّ محارب أزتيكي.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

177. المسكونية

زَرعت معركة الفردوس القلق بين الغزاة الأشاوس للعالم الآخر. الكثير

1- الغيشا: أو الجيشا هنّ فنانات تقليديات في اليابان يمارسن دور مضيفات يمتلكن مهارات في الفنون المسرحية اليابانية المختلفة مثل الموسيقى الكلاسيكية والرقص والألعاب. المترجم

من رجال الله ماتوا دون جدوى... تساءل الدومينيكانيون، وهم يشعرون بالخزي، كيف استطاعوا أن يستسلموا للهزيمة على أيدي الحشّاشين المتعصّبين إلى درجة الانضمام إليهم. كانوا ينظرون باحتقارٍ إلى الناجين القلائل من الطائفة الملتجئين إلى حصنهم في الجبال وتقشعرّ أبدانهم لذكرى الأعمال الوحشية التي ارتكبوها بدورهم. تُرى هل تحدّوا الغضب البابوي فقط لكي يستحقّوا فعلاً نيران الجحيم؟

قاموا، كوفلِ، بزيارةٍ إلى محطّتنا في بوت شومو، مقدّمين المزيد من الاعتذارات ومتمتمين بصلواتٍ.

لن ننجح في كشف أسرار القارة الأخيرة من خلال إشعال الحروب. وقد أدرك معتنقو كلّ الأديان هذه الحقيقة. لقد أحدثت معركة الفردوس انعطافاً تاريخياً في علاقاتهم، وأعقب عهودَ المعارضات العنيفة عهدُ التفاهم الكبير.

أمام جمعٍ متنوّع الانتماءات الدينية والطائفية، وقف راؤول في شقّتنا العلوية، وألقى خطاباً:

- كونوا على قناعة بأنّ جميع الأديان خيّرة. وحدها نوايا بعض الأفراد الذين يزعمون أنّهم الوحيدون الذين يمتلكون الإيمان الحقيقي هي السيّئة. الزردشتيون، والعلويون، والمسيحيون، والأرثوذكس، والمسلمون، واليهود، والبروتستانت، والشينتويون، والطاويون، والشامانيون، والسحرة، والمعالجون بالسحر، والمرابطون، وحتى أتباع المذاهب، تمكّنت عقائدكم الدينية برمّتها من الوصول، في لحظة معيّنة، إلى المعرفة الجماعية. إلى معرفة مذهلة. إلى السرّ الكبير للموت. معاً، سوف نوحّد جهودنا لكي نعثر عليه، بشكلٍ صحيح، لأنّ سرّ الحياة يكمن فيه هو. معاً، سوف نكتشف سبب وجودنا على الأرض وكيف يجب أن يكون سلوكنا عليها. الأديان ليست سوى محاولات البحث عن طريقة الاستخدام الصحيحة للوجود الإنساني.

صفّق له رهبانٌ وسحرة وآخرون.

شرح راهبٌ يابانيٌّ بوذي أنّه، في السابق، في العصور الأكثر قدماً، لم تكن هناك أديان متعدّدة، بل دينٌ واحد فقط، ولا تعددية في اللهجات، بل لغة واحدة فقط. لم تكن هناك فلسفات متنوّعة، ولا ثقافات متنافرة، ولا

حكم مختلفة، بل فلسفة واحدة فقط وحقيقية. لقد نسي البشر ذلك. ومن خلال استخدامهم للغات غير مفهومة من بعضهم لبعض، لا يفعلون سوى وصف المعرفة القديمة ذاتها، المعرفة التي فقدت معناها الأصلي لكثرة التفسيرات المتتابعة لها. وبهذه الطريقة وُلدت العداوات. كلّ الاختلافات لم تكن سوى حالات سوء تفاهم.

سادت القاعة معانقات ومصافحات حارّة بين الحضور. لقد وُقِّعت اتفاقية مسكونية عالمية في محطّة بوت شومو، نصّت على أوّل وصيتين ثاناتونوتيتين.

المادة 1: الفردوس ليس ملكاً لأيّ أمّـة، ولا لأيّ دينٍ على وجه الخصوص.

المادة 2: الفردوس مفتوحٌ للجميع وليس لأحدٍ الحقّ في أن يعيق الوصول الحرّ إليه.

مع هذه التشريعات القانونية – الدينية، انتهت مرحلة الفوضى. كانت الرحلات إلى الفردوس من الآن فصاعداً منظّمة. لم يعد بوسع أحدٍ أن يسمح لنفسه القيام بأيّ شيء مهما كان تحت ذريعة انعدام أيّ رقابة.

لقد خلقت اتفاقيات بوت شومو جوّاً جديداً من التفاهم بين الأديان.

درّب الجنرال شيكو الحاخام فريدي ماير على شعائر حفلة الشاي. لم ينبهر ولم ينصدم بتفضيل الرجل الألزاسي الشاي بالليمون.

الآن وقد أصبحت محطّتنا لإطلاق المستكشفين ملتقى رجال الدين من العالم قاطبةً، أعددنا لهم قاعة لقاءات في الطابق السفلي. وعلى العكس من الشقّة العلوية ذات الزجاج المشعّ بضوء الشمس، كان المكان مظلماً ومليئاً بالقطع الأثرية والأختام والتمائم والتعويذات الأكثر تنوّعاً.

كان رهبانٌ، وأئمّة، وسحرة لدى مرورهم في باريس يودّون أن يلتقوا فيه لَكي يستقبلوا بعضهم بعضاً أو يتحاوروا فيما بينهم. ما لم ينجح أيّ نزاعٍ على الأرض في فرضه، نجحت معركةٌ وحيدة في الفردوس في فرضه على الجميع. وبدأت الأديان كلّها تتعاون في سبيل الذهاب على نحوٍ أسرع، وإلى أبعد مكان، حتى بلوغ نهاية أعماق قارة الموتى!

178. ميثولوجيا مسيحية

«أَفِي الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ، أَمْ خَارِجَ الْجَسَدِ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. اللهُ يَعْلَمُ. اخْتُطِفَ هذَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ...»

رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الثاني عشر، 2.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

179. كتاب التاريخ المدرسي

بعض التواريخ للذاكرة

14 مايو / أيار 2065: معركة الفردوس

18 يونيو / حزيران 2065: اتفاقيات بوت شومو

20 يونيو / حزيران 2065: المراسيم الثاناتونوتية الأولى

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

180. موخ 4

ثملاً بعض الشيء بالمبالغة في الاحتفاء باتفاقيات بوت شومو لمرّة أخرى، روى لنا فريدي، بلسانٍ ذلِقٍ، حكايته الشخصية.

لمّا كان تلميذاً في مدرسةٍ لرقص الباليه، كرّس نفسه لكي يصبح، علاوة على كونه راقصاً نجماً، مصمّماً للرقصات. وكان معجباً أيضاً آنذاك بكلّ الرياضات الهوائية. كان كلّ ما يعجبه هو وضعية الأرابسك في رقصة الباليه، وحركات الدومان، والإحساس بالتحليق نحو السماوات. والحال أنّه في أحد الأيام بينما كان يمارس رياضة الطيران الشراعي، انقطع حزامه البطني، ولم يكن الحزامان الكتفيان كافيين لإسناده، تحوّلت الطائرة الشراعية إلى مظلّة، فسقط على الأرض. في طريقه إلى الأرض، رأى سهلاً فسيحاً وشجرة واحدة. شجرة وحيدة لا غير. لم يستغرق النزول إلى الأسفل سوى بضع ثوانٍ، ولكنّ فريدي

حظي بالوقت لكي يُصلّي ويُقسم على أنّه إذا ما نجا من هذا القَدر، فسوف يُكرّس كلّ حياته لأحد الأديان. ودون تفكير مسبق، اختار الدين اليهودي.

هبط وحطّ فوق الشجرة، وبذلك نجا من الموت، لكن غصنين فقآ عينيه. لقد نجا ولكنّه بات من ذلك الحين ضريراً. ولم يخلف وعده الذي قطعه على نفسه عند السقوط. لم يكن يهوديّاً، ومع ذلك انضمّ إلى يشيفا ستراسبورغ حيث حظي بفرصة أن يصبح أحد الأبرار المخفيين[1] معلّماً له. ذات يوم، أقسم على أنّه هو أيضاً سوف يصبح أحد الأبرار المخفيين.

وماذا كان يعني البارّ المخفي؟

هو رجلٌ تناسخت روحه للمرّة الثانية بمحض الرأفة بالبشر على الأرض، في حين أنّه بعد أن أنجز كلّ شيء، أصبح حرّاً في أن يخرج من الغيلغوليم، الحلقة الجهنمية للعودة إلى الحياة.

كان الأبرار المخفيون الحكماءَ السرّيين للديانة اليهودية. تساهم طيبتهم ورحمتهم في تحسين وضع العالم. كانوا على علمٍ بحيواتهم السابقة، ويجيدون الكفاح ضدّ الجهل، وكانوا مجرّدين من الطموحات الشخصية.

أشارت ستيفانيا إلى أنّ شخصيات كهذه كانت موجودة أصلاً في البوذية التبتية. وكان يُطلق عليهم في هذه الديانة لقب البوداسف[2]، وهم أيضاً كانوا يعودون بصورة متعمدة إلى الحياة الأرضية على الرغم من أنّهم صادرون عن دورة التناسخات الروحية. لم يكن هناك عملٌ أعظم من الرحمة سوى العودة إلى الأرض، وذلك بدافع الحبّ الخالص والنقي لبقية البشر المكبّلين بالعجلة الكارماوية[3].

قال فريدي:

- لا بدّ أن يكون هناك في كلّ الأديان هؤلاء الحكماء الذين يختارون

1- الأبرار المخفيون: أو الصالحون المخفيون، هو مصطلح في الباطنية اليهودية يشير إلى 36 من الصالحين، وهي فكرة متجذرة في الأبعاد الأكثر باطنية اليهودية. المترجم

2- بوداسف: في البوذية اللقب الذي يطلق على أي شخص يشعر برغبة كبيرة لتحقيق العقيدة البوذية لمصلحة جميع الكائنات. المترجم

3- نسبة إلى كارما. وكارما تعني العمل أو الفعل. وهو مفهوم أخلاقي في المعتقدات الهندوسية والبوذية واليانيّة والسيخية والطاوية. المترجم

العودة رغماً عن التجارب الأليمة التي عاشوها أثناء تناسخهم. في ديانتنا، يُطلق عليهم التراثُ الحاسيديمي اسمَ الأبرار المخفيين، وهو ما يعادل الرقم 36. في كلّ جيلٍ، تُضحّي حفنة من هؤلاء الأبرار بأنفسهم سرّاً في سبيل إنقاذ كلّ البشرية. إنّهم يحتقرون الغرور ولا يرغبون في الشهرة. ونحن نحتفي بقدراتهم البدنية ومعارفهم بالحياة والموت. وأفكّر أحياناً بأنّ يسوع المسيح هو الآخر كان أحد هؤلاء الأبرار المخفيين.

سهرات الشراب هذه التي حرصت خلالها آماندين على ألّا يبقى كأس المستكشف العظيم فارغاً أبداً، لم تؤثّر في شيء على عمل فريدي. كان يواصل ابتكار تصاميم لتشكيلات سماوية جديدة لفرق المستكشفين. لقد تخيّل برج إيفلٍ إكتوبلازمياً، مبنياً من العديد من دوائر الروح التي تسند بعضها بعضاً على شكلٍ لولبي. سوف تُعقَدُ كلّ الحبال الفضية، وتُجدَل، وتوضَعُ في مركز المبنى لكي يحمي الجميعُ الجميعَ.

وكعلامة على التصالح، أسند الحاخام قمّة البرج لعدوّه السابق، شيخ الجبل، الذي ظهر عندنا ذات مساء، خجلاً، وتائباً، وتلامذته يُعدّون الآن على أصابع اليد الواحدة. قبل الزعيم السابق للحشّاشين بهذا التكليف

بامتنانٍ. كان يعلم أنّه بهذه الطريقة سوف يكون أوّل من يجتاز جدار الغيبوبة الرابع!

انطلقت فرقة الباليه الروحانية خاصّتنا في الحادي والعشرين من شهر يوليو / تموز. وقد تجاوز أعضاؤها، من دون مشقّة، الجدار الأوّل والثاني والثالث وحتى الرابع للغيبوبة. وقد رأوا ما كان موجوداً خلف هذه الجدران ورووه لنا. منذ لحظة عودتهم، أسرع راؤول في القيام بتحديث خريطتنا للقارة الأخيرة.

تنتهي المنطقة البرتقالية اللون بموخ 4. وهي تُفضي إلى:

المنطقة رقم 5:

– الموقع: غيبوبة لمدّة أربع وعشرين دقيقة.
– اللون: أصفر.

- الأحاسيس: عاطفة، قوّة، بل قوّة مطلقة. هناك، كلّ الأسرار التي لم تكن مفهومة في السابق تجد حلولها. يرى المسلمون الجنّة الحقيقية. ويعثر الكاثوليك على الفردوس الأصلي. ويكتشف اليهود أسرار القبالة. ويكتشف ممارسو اليوغا معنى شاكراتهم، ويرون ظهور عينهم الثالثة. ويجد الطاويون طريق الطاو[1] الواضح.

المنطقة الصفراء هي بلاد المعرفة المطلقة. كلّ ما كان يبدو حتى الآن عديم المعنى صار سبب وجوده مفهوماً الآن، وظهر كلّ معنى الحياة، من المتناهي الكِبَر إلى المتناهي الصِغَر.

وبات معلوماً أنّ المنطقة الصفراء تنتهي بموخ 5.

انبهر بعض المتديّنين باكتشافات البلد الذهبي انبهاراً شديداً إلى درجة أنّهم رغبوا في البقاء فيه، ولكن الحبال السُرّية كانت مجدولة بعضها مع بعض بمتانةٍ شديدة إلى درجة أنّهم لم يستطيعوا أن ينفصلوا عن رفاقهم، ولذلك عاد الجميع بسلام. فتحنا زجاجات الشامبانيا احتفالاً بعودتهم. ودعونا الصحافيين لكي يعرف العالم أنّ المسكونية المعمّمة قد سمحت بإنجاز خطوة جديدة إلى الأمام في اكتشاف الفردوس والمعرفة المطلقة.

181. فلسفة صوفية

«أنا محطّمٌ، وأجزاء جسدي قد رُميتْ
في هذه القبّة الزرقاء، التي هي موطني الأصلي
كلها ثملة، مبتهجة، عاشقة لخمر المحجوب خوفاً
من هذا السجن، الذي هو سجن نفسي
الزمن يجلب النهاية الخاطفة لهذه الحياة المضطربة
وذئب الموت سيمزّق عما قريب هذه الخراف المسكينة
شاهد، كم بفخرٍ يذهبون برأسٍ مرفوعٍ
حتى يأتي مصيرهم بضربة مفاجئة

1- الطاو: هو فكرة أساسية في معظم المدارس الفلسفية الصينية، ومعناها في الطاوية هو المبدأ الذي يكون مصدر ونمط ومضمون كل شيء موجود في الحياة. المترجم

تلقيهم أمواتاً».

رباعيات، جلال الدين الرومي (القرن الثالث عشر).

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

182. موخ 5

في ذروتها، أطلقت محطّة إطلاق مستكشفي الموت في بوت شومو في نفس اللحظة قرابة مئة وعشرين رجل دين ينتمون إلى كلّ الأديان. وقد اجتمعوا فيما بعد في المنطقة الصفراء لكي يحاولوا تجاوز موخ 5.

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق!

الطابق الثاني، المخصّص لمساندتهم.

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق!

الطابق الثالث، دعامة أخرى.

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق!

أساسات البناء.

في الأعلى، كان الجميع ينتظرون بعضهم بعضاً على حواف تويج الفردوس، ثمّ جدّلوا بطريقة منتظمة حبالهم السُرّية حسب الأشكال التي صمّمها فريدي. انضمّ اختصاصي في ربط العقد البحرية إلى الرجال الأتقياء لمساعدتهم في ربط عُقد محكمة ومتينة، وسهلة على الربط والحلّ. وقدّم مدرّب للقفز المظلّي نصائحه لكي يستطيع الجميع البقاء لأطول وقتٍ مجتمعين، وفق تقنيات الطيران في السقوط الحرّ.

ملتحمين بعضهم مع بعض في مسيرة مفصلية طويلة، اجتاز المستكشفون أوّلاً الجدران المختلفة. كان الموتى المنتظرون في المنطقة البرتقالية يحيّونهم لدى مرورهم لأنّهم اعتادوا الآن على رؤيتهم، الأمر الذي شكّل تسلية لهم. بل كانوا يشرحون للوافدين الجدد أنّه ليس هناك أيّ شيء يُخشى منه من هذه الفرقة التي كانت تتمدّد متجاوزةً الجميع دون أن تنقطع مع ذلك حبالهم السُرّية.

وهكذا نجحت القافلة الروحانية، معزّزةً بمئة وعشرين مستكشفاً،

في الوصول إلى المنطقة السادسة، بعد أن عبرت موخ 5. ومع ذلك، بدا المستكشفون، عند عودتهم، محبطين أكثر من أن يكونوا متحمّسين. لم يبدوا سعداء قط بإنجازهم هذا التقدّم الكبير معاً. بل على العكس تماماً، بدا أنّ صداقتهم قد تلقّت ضربةً، وكذلك المسكونية.

ولكنّهم مع ذلك امتثلوا طواعيةً لاستجوابنا لهم.

قالوا إنّ بعد المنطقة الصفراء، تأتي المنطقة الخضراء. خضراء بلون النبات وأوراق الشجر. كانت هناك أزهارٌ في غاية الجمال ونبتات مذهلة تنتهي بنجومٍ متعددة الألوان.

البلد الأخضر، إنّه بلد الجمال المطلق.

سأل راؤول:

- إذاً، وما المحنة؟

تمتم حاخامٌ:

- في الحقيقة، إنّها في غاية الجمال. جمال المنطقة الخضراء لا يُحتَمَل.

وافقه راهبٌ بوذي الرأي على مضض:

- إنّها رائعة.

لم أعد أفهم شيئاً. كيف يمكن للجمال المطلق أن يكون محنةً؟

شرح فريدي:

- إنّه من الرائع جدّاً أن يفقد المرء كلّ رغبة في أن يكون إنساناً لكي لا يعود يتمنى أن يصبح زهرةً فوّاحة. يصل الأمر بالمرء إلى حدّ أنّه يكره نفسه لشدّة ما يشعر بنفسه قبيحاً مقارنةً بالكثير من البدائع الفائقة الجمال. فيرغب المرء في أن يذوب في الغطاء النباتي البهي للمكان وألّا يعود موجوداً في أيّ شكلٍ آخر. لا شكّ في أنّه من الصعب جدّاً أن يواجه المرء المعرفة المطلقة، ولكنَ أن يصبح على نحوٍ مفاجئ على اتّصالٍ مع الجمال الأكثر مثاليةً، فهذا يشكّل محنةً قاسيةً جدّاً لا يمكن التغلّب عليها.

كان الحاخام الضرير يبدو في الواقع، للمرّة الأولى، مذهولاً تماماً. على آلة البيانو، عزف بحزن بعض الأنغام من مقطوعة للموسيقار شوبان.

قالت ستيفانيا بكآبةٍ:

- إنّه على حق. إنّ لقاء الجمال المحض بعد الخضوع للمعرفة، ينزع عنك كلّ رغبة في الهبوط مجدّداً. لقد كان صعباً جدّاً علينا أن نتخلّى عن ذلك. لحسن الحظّ، مرّة أخرى، كانت حبالنا السُرّية مربوطة بعضها ببعض بمتانة!

لم نستطع، راؤول وآماندين وروز وأنا، أن نفهم جيّداً في ماذا كانت رؤية الجمال محنةً محيّرةً جدّاً، ولكن مع ذلك تأمّلنا في خريطتنا للقارة الأخيرة، وهي تدفع لمسافة أخرى عبارة *الأرض المجهولة*.

المنطقة رقم 6:

- الموقع: غيبوبة لمدّة تسع وأربعين دقيقة.
- اللون: أخضر
- الأحاسيس: جمالٌ رائع، وأيضاً نكرانٌ للذات، وإحساس المرء بأنّه قبيحٌ جدّاً. رؤية الجمال هي محنة رهيبة.

تنتهي عند موخ 6.

ترك البلد الأخضر لدى الأتقياء الورعين ما يشبه مذاقاً مرّاً. لم يكونوا مهيّئين لرؤية الجمال. تذرّع بعضهم تلو بعضٍ بواجبات مختلفة وعادوا إلى بلدانهم. أرادوا أن يحتكروا هذه البدائع لمصلحة أبرشيتهم وحدها. لم يعد وارداً شنّ حربٍ كما كان الأمر في زمن الحشّاشين، ولكن أيضاً لم يعد الزمن زمن المسكونية، بل زمن عمل كلّ شخصٍ لنفسه. لقد بدأ السباق، وسيكون الفوز للأفضل!

كان فريدي وتلامذته الثلاثة الناجون من كلّ الحروب الإكتوبلازمية الوحيدين الذين ظلّوا أوفياء لنا ومكثوا معنا. لا بدّ من القول إنّه لفرط المثابرة، كانت آماندين قد نجحت في إغواء الحكيم العجوز الضرير. ولم يعد الثنائي يخفيان علاقتهما الغرامية. أمّا بالنسبة إلى الستراسبورغيين الآخرين، فقد اعتادوا على الحياة الباريسية ولم يكونوا مستعجلين على

العودة إلى البيشا خاصتهم، وخاصّة من دون معلّمهم. استؤنِفت عمليات الإقلاع على نحوٍ متقطّع وفي أوقات مختلفة. وكانت كلّ طائفة تعتمد على أبطالها. وكانت كلّ واحدة منها تأمل في أن تكون أوّل من يكتشف «الله»، حالما يتمّ تجاوز حاجز الجمال. كان يبدو للكثيرين أنّه من المؤكّد أنّ «الله» وحده يمكنه أن يكون هناك، في قاع النفق الأزرق، ثمّ الأسود، ثمّ الأحمر، ثمّ البرتقالي، ثمّ الأصفر، ثمّ الأخضر. كان الجمال عرضه الأخير، الحدود الأخيرة قبل الفردوس.

بعد أن يواجه المرء ذكرياته، بعد الخوف، مشمئزاً من المتعة، وقد نفد صبره، مأخوذاً بالمعرفة المطلقة، ومذعوراً من الجمال المثالي، منْ عساه أن يلتقي سوى البنّاء العظيم للكون؟

في محطّاتهم الخاصّة لإطلاق المستكشفين، كان رهبانٌ وسحرة وأئمّة وخوارنة وحاخاماتٌ يمدّون أياديهم نحوه. منْ سيصل إليه أوّلاً؟

183. كتابٌ مدرسي

فلنتعلّم إكرام الموتى

لا ينبغي أن نتحدّث أبداً بالسوء عن الموتى. وخاصّة الذين ماتوا حديثاً، لأنّ هؤلاء لا يزال بوسعهم أن يكونوا نشيطين في عالمنا. الأموات الذين كانوا ينتظرون في طابورٍ طويل في البلد البرتقالي اللون ليسوا عاطلين عن العمل. إنّهم يراقبون خلسةً الأحياء. إنّهم يحاولون دائماً التواصل مع الأفراد الذين كانوا يحبّونهم على الأرض. إذا ما بثثنا أمواجاً لمصلحة ذكرى جسدٍ غائب، يمكن لروحه أن تأتي لتساندنا في مشاريعنا. وعلى العكس من ذلك، إذا كنّا لا نكنّ له سوى مشاعر سلبية، لا يعود بوسع روحه أن تساعدنا.

هَناك في الأعلى، في البلد البرتقالي، بينما يكون الميّت خاضعاً لامتحان الصبر، يحاول أن يتّصل مع جميع الذين أحبّهم وأحبّوه. هذا الأمر يشغله، ولا يمكن لهذا الاتصال أن ينجح إلا إذا كان الحيّ لا يزال يشعر بالحبّ تجاه الميّت. وبهذه الطريقة نرى في بعض الأحيان الميّت يؤثّر على الشخص الذي

أحبّه إلى درجة جعله يفنى. ويُدعى هذا «الموت حزناً». وليس بالضرورة أن يكون هذا أمراً سيّئاً. وبهذا يمكن لروحي عاشقين أن تكونا معاً في حالة الانتظار في الطابور الطويل في البلد البرتقالي.

كتاب التربية المدنية المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

184. مسارات متنافسة

كانت جملة «ليربح الأفضل بالسباق القصير والسريع» متوسّطة الأهمية. وبما أنّ المستكشفين كانوا ينطلقون الآن في معظم الأحيان وحدهم أو في مجموعات صغيرة، ولم يعد يتوفّرون على دعم الهرم لانتزاعهم من أعاجيب المعرفة المحضة أو الجمال المثالي، مزّق الكثير منهم بأنفسهم حبالهم السُرّية لكي يظلّوا هناك في الأعلى.

ولأنّهم ظلّوا الأكثر وضوحاً، ربّما بسبب ضلالاتهم السابقة، كان الدومينيكانيون أوّل من وصلوا إلى موخ 6 من خلال استعانتهم بإحدى الشخصيات البهلوانية الراقصة التي دلّهم فريدي عليها. ومع ذلك، لم يستطيعوا أن يجتازوه.

وينطبق الأمر ذاته على فريقنا.

قلّ اهتمام الجمهور على نحوٍ مطّرد برحلاتنا، ولم نعد نشغل العناوين والصفحات الأولى في الصحف.

بالنسبة إلى عموم الناس، كان يبدو من الواضح الآن أنّ الثاناتونوتية لم تكن سوى سباقٍ لا نهاية له. موخ 1، موخ 2، موخ 3، موخ 4، موخ 5، موخ 6... لمَ لا يكون هناك لاحقاً موخ 124 أو موخ 2018 مع كلّ ألوان قوس قزح، وكلّ الاختبارات الممكنة، ولمَ لا تصبح الثاناتونوتية سباقاً ثلاثياً أولمبياً؟

سخرت صحيفة *أوبزرفاتور رومانو* (المراقب الروماني)، صحيفة الفاتيكان الرسمية من هؤلاء الرواد المزعومين الذين تجرّأوا على التشكيك بلانهائية السماوات. من جهتها، عنونت صحيفة *تايمز* البريطانية: «الثاناتونوتية هي الأفيون الأخير للشعب».

أصبحت الثاناتونوتية موضوع سخرية فناني الكاريكاتور، ورجال الاستعراض والرسوم المتحرّكة للتلفاز. وقد فقدت كلّ طابع مقدّس لتصبح رأسمالاً تجارياً من بين الرساميل الأخرى.

في المتجر العائلي، تراجعت المبيعات. كان أخي وأمي قد طرحا عبثاً ملصقات جديدة، وقمصاناً بأجمل ألوان العالم الآخر، وقبّعات مع شعارات نافرة، وخفافاً مجنّحة، وإعلانات صغيرة متوهّجة تُرى فقط في العتمة، وجرايات غذائية «خاصّة بالمستكشف»، لكنّ الزبائن كانوا نادرين. حسناً، بعد موخ 6، سيكون هناك موخ 7، وما أهمية ذلك؟

كان راؤول يثرثر:

– ومع ذلك، ليس الخطأ خطأنا إن كانت هذه المغامرة قد بدأت بتقديم أوجه متكرّرة. لسنا نحن من اخترعنا جغرافية القارة الأخيرة. نحن ننهمك فقط في اكتشافها وهذا يبقى على الدوام مشوّقاً.

لم يهدأ غضبه، فإذا كان الناس يسخرون من مشروعنا، فسوف تتقلّص الاعتمادات المالية. فالصندوق الأسود الرئاسي لم يكن عصيّاً على النضوب. ومع ذلك ظلّ لوسيندير ملتزماً بدعمنا. وإذا كان الجمهور لا يأسره شيءٌ سوى العروض، إذاً، فلنقدّمها له! اقترح سلسلةً من دروس التأمّل المعروضة على التلفاز، صباح كلّ يوم أحد، وذلك بدل الدروس التقليدية للأيروبيك. سوف يقدّم فريدي وستيفانيا شيئاً رائعاً. كان الرئيس قد وجد حتى عنواناً لعرضهما: «القرن الثاني والعشرون إمّا أن يكون روحياً أو لا يكون»، وكان سعيداً جدّاً بهذا العنوان.

سألت ستيفانيا، غاضبةً:

– هل يعتبرنا قردة عاقلة أم ماذا؟

قلتُ:

– يجب أن نفهمه. ففي نهاية المطاف، من الطبيعي أن يملّ الناس من جدران الغيبوبة هذه التي لا تنتهي. حتى أنا بنفسي، أشعر في بعض الأحيان بأننا لن ننتهي منها أبداً!

صرخ فريدي:

- هذا خطأ! سوف يكون موخ 6 الحدّ الأخير.

طلبنا منه أن يشرح لنا وجهة نظره. هادئاً، ومغمض العينين من دون نظّاراته السوداء، تكلّم الحاخام:

- في الكتاب المقدّس، في القبالة، كما في العديد من النصوص المقدّسة، مكتوبٌ أنّه توجد سبع سماوات. سبع سموات، أي سبع مناطق بعد الموت. كما أنّكم جميعاً تعرفون عبارة «الذهاب إلى السماء السابعة». سبع سماوات، دون زيادة أو نقصان. وقد ناقشتُ ذلك مع رجال دينٍ من المعتقدات الأخرى وقد تبيّن لنا جميعاً أن هذا العدد 7 يعود دائماً لوصف بلدان العالم الآخر. ولذلك سيكون موخ 6 على الأرجح هو الجدار الأخير.

سألتُ:

- وماذا عساه أن يكون خلفه؟

- مركز الثقب الأسود، الله، بطاقة يانصيب، يراعةٌ، طريقٌ مسدود ربّما... علينا نحن أن نذهب إلى هناك لنرى!

انحنيتُ على بوستيراتي، دون حماسة.

185. فلسفة مشرقية

«فأجابت الميترا:

- تودّ أن تعرف سرّ الموت. ولكن كيف ستعرف سرّ الموت ما لم تفتّش عنه في قلب الحياة، إنّ البومة العمياء في الليل، مبصرة في النهار، ولذلك لا تستطيع أن تكتشف سرّ النور.

إن أردّتَ فعلاً أن تتأمّل فكرة الموت، افتح واسعاً جسداً للحياة، لأنّ الحياة والموت واحدٌ، كما أنّ النهر والبحر واحد.

في أعماق آمالك ورغباتك تقبع معرفتك الصامتة بالعالم الآخر. ثق بأحلامك، لأنّ باب الخلود مختبئ خلفها».

جبران خليل جبران، *النبي*

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

186. حتى النجوم تتناسخ روحياً

كانت عينا روز شاخصتين إلى شاشة كاشف الإكتوبلازمات. كان ثمانية عشر راهباً طاوياً قد أقلعوا منذ بضع دقائق خلت. كانت على قناعة بأنّهم قد نجحوا في اختراق الجدار السادس. لا شكّ في أنّ زوجتي كانت على حقّ بما أنّه بعد مضي ساعة انقضت في تعذيبنا، تبيّن لنا أنّ أغلفتهم الجسدية لم تعد تعطي أيّ إشارة إلى الحياة البيولوجية. فلترقد أرواحهم بسلام.

كان فريدي يعتقد أنّه ستكون هناك حاجة إلى إعادة تشكيل قافلة من مئة وعشرين روحانياً من أديان متعددة لتحقيق النجاح، ولكنّ أصدقاءه القدامى رفضوا تلبية دعوة الحاخام، بما أنّ كلّ واحدٍ منهم كان يودّ أن يتصرّف بطريقة منفصلة لكي لا يشعّ المجد إلّا على دينهم فقط.

اقترحت زوجتي أن نتخلّى بعض الشيء عن انشغالاتنا الروحانية لكي نعيد توجيه أبحاثنا باتجاه علم الفلك وعلوم الفيزياء الفلكية. اتّفقتُ معها على هذا الاقتراح، ولكن ما الذي بوسعنا أن نتعلّمه أكثر عدا أنّ القارة الأخيرة كانت بالفعل ثقباً أسود، يقع في مركز درب التبّانة؟

كانت لدى روز فكرتها، فطرحتها:

– أنتم تسعون إلى معرفة ما هو موجود في قاع الثقب. والحال أنّه قد اتّضح أنّ علماء الفيزياء الفلكية يعرفون ذلك منذ زمنٍ طويل.

ردّ راؤول ساخراً، ومشكّكاً في الأمر:

– أجل!

سألتُ:

– وماذا يوجد فيه؟

– نافورةٌ بيضاء.

نافورةٌ بيضاء! غادر فريدي كرسي الإقلاع الذي كان يستلقي عليه لكي يجول في القاعة. على الرغم من انفعاله، كان الضرير يتدبّر أمره لكي لا يصطدم بأيّ من الأجهزة، على الرغم من أنّها كانت كثيرة العدد، ويزدحم مختبرنا بها.

أوضحت روزا:

- النافورة البيضاء هي نقيض الثقب الأسود. فالثقب الأسود يمتص النور، أمّا النافورة البيضاء، فتلفظه. الثقب الأسود يسحب المادّة، في حين تلفظه النافورة البيضاء. يعتقد بعض الناس أنّ الانفجار العظيم لن يكون سوى نافورة بيضاء، منتجة للمادّة والضوء. بل قد تكون النافورة البيضاء مصدراً لأكوانٍ جديدة.

حينئذٍ، انغمست روز في محاضرة شيّقة عن علم الفيزياء الفلكي. إنّ كلّ ثقبٍ أسودٍ سوف يُشير إلى موت مجرّةٍ بما أنّه عند ابتلاع النجوم يقوم بضغطها وتحويلها إلى طاقة نقيّة. إنّ مركز مجرّتنا مكوّنٌ من دوّامة تمتصّ المادة المحيطة بها وتجعلها تدور. بل من المتوقّع، من الآن وحتى عدّة ملايين من السنين، أن تستسلم الشمس لها، فتبتلعها الدوّامة. ومثلما يشرح علم الفيزياء جيّداً، فإنّ الأكثر سحراً في ذلك هو أنّ لا شيء يُخلَق، ولا شيء يموت، بل كلّ شيء يتحوّل. إنّ موت نجمةٍ يولّد طاقةً تلفظها النافورة البيضاء، التي لها شكلٌ يشبه إلى حدٍّ ما شكل بندقيّة من طراز (ترومبلونب) ذات فوهةٍ واسعة.

وبهذه الطريقة، حتى النجوم تتناسخ روحياً! فالثقوب السوداء والنوافير البيضاء قد لا تكون سوى جسورٍ نحو أكوانٍ موازية. أكّدت روز أنّه طالما أنّ كلّ مجرّة لها سطحها الخاصّ، أي إلهها الخاصّ، فإنّ كلّ واحدة منها سوف تتوفّر أيضاً على انفجارها العظيم الخاصّ وفتحتها الفضائية. بل يمكن لكلّ مجرّة أن تمتلك الزمكان الخاصّ بها. بالنسبة إلينا، سوف نجد أنفسنا إذاً في كون درب التبّانة، مع الإله، والزمن، والموت، والوعي الخاصّ بهذه المجرّة.

لقد أثّرت روز علينا جميعاً وأبهرتنا بهذه الفكرة عن الثقب الأسود الذي يناظر في كلّ مرّة نافورةً بيضاء، وبالتالي تناظر نهضةً في زمكانٍ آخر. استعاد فريدي هدوءه لكي يفهم الدرس على نحوٍ أفضل. سأل:

- ولكن ما الذي سيحدث للإكتوبلازمات، عند المرور بالنافورة البيضاء؟

كانت زوجتي تعرف حدودها.

– عندئذٍ، ينتهي دور العلم ويعود دور الدين. هل يمكن أن تكون الأرواح هي الأخرى قد لُفِظَت ثانيةً، وتناسخت بعد ذلك في عالمٍ آخر؟

اقترحت آماندين أن نصعد إلى الشقّة العلوية ونشرب بعض الكوكتيلات ونُريح أدمغتنا قليلاً. كانت الجلسة قد أنهكتنا، فوافقنا على اقتراحها بطيبة خاطر. هناك، ونحن نسترخي بين النبتات الخضراء، أعلن لنا العجوز الضرير والشقراء الفاتنة أنّهما ينويان أن يتزوّجا. أكّدت آماندين على أنّ فريدي هو رجلُ حياتها وأنّها على أتمّ الاستعداد لأن تعتنق الديانة اليهودية إذا لزم الأمر. ولكن خطيبها لم يطالبها بذلك. فقد كان ليبرالياً بما يكفي لأن يسمح لنفسه بزواجٍ مختلطٍ.

لقد اقترنا بعضهما ببعض إذاً، ومع تلامذة يشيفا ستراسبورغ، أقمنا الاحتفال بهذه المناسبة. لم يسبق لي قط أن رأيتُ آماندين على هذه الدرجة من التألق، وبينما كان زوجها يعزف أنغاماً تقليدية على البيانو، كنّا نرقص على شكل حلقة. كان فريدي يكبرها بعشرين سنة، وينقصها بعينين، ولكنّه يجيد تخفيف قلاقلها ويجعلها تضحك. وهل هناك ما هو أهمّ من هذا في حياةٍ زوجية؟

187. ميثولوجيا طاوية

بعيداً جدّاً إلى الغرب من بحر الصين، في المكان الذي تنفصل فيه السماء عن الأرض، هناك هوّة شاسعة، لا قاع لها، تُسمى «الملتقى الكوني». هناك، كلّ مياه الكرة الأرضية ومياه درب التبّانة (نهر جامع للمياه السماوية) تجري دون أن يزيد محتواه أو ينقص أبداً. بين هذه الهاوية والصين، هناك خمس جزر كبيرة، وهي تاي يو، ويوان كيو، وفانغ هو، وينغ تشو، وبينغ لاي. يبلغ طول محيط كلّ جزيرة من الجزر، عند قاعدتها، ثلاثين ألف غَلْوة[1]. أمّا عند قمّتها المسطّحة، فيبلغ طول محيطها تسعة آلاف غَلْوة. والمباني التي تغطّي الجُزر كلّها من الذهب وحجر اليشم الكريم. والحيوانات فيها أليفة، والنباتات فيها رائعة، وأزهارها ذات رائحة عطرة. وتناول فواكهها يحمي

1- غَلْوة: وحدة قياس قديمة من وحدات الطول. وهو مقياس يوناني الأصل، يساوي 185 متراً. المترجم

المرء من الشيخوخة ومن الموت. وسكّان هذه الجزر جميعهم من العباقرة والحكماء. ويزورون بعضهم بعضاً كلّ يوم محلّقين عبر الأجواء.

لي تسو
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

188. لا شيء سوى المتاعب

أردنا أن نذهب في مغامرتنا حتى النهاية ونتجاوز الجدار السادس الصعب للغاية. بيد أننا اضطررنا للخضوع لظروف دراماتيكية بما فيه الكفاية لكي نُرغم أنفسنا على كتابة الفصل الأخير من بحثنا.

في شهر يوليو / تموز من نفس السنة، حدثت ظاهرة غريبة. عاد المتديّنون المتشدّدون إلى مضايقتنا. وكُتِبَت عبارات على أبوابنا: «دعوا الله وشأنه»، وهي موقّعة باسم «حرّاس السرّ». وقد وصلتنا فيما بعد تهديدات بالقتل عبر الهاتف وعبر البريد الإلكتروني. وتدخّل الكرسي الرسولي من جديد في الأمر، من خلال التذكير بمنع إطلاق المستكشفين تحت طائلة الحرمان من الدخول إلى الكنيسة، وأصدر المرسوم الشهير «*Et mysterium mysteriumque*» الذي ينعت بالهرطقة كلّ من يحاول رؤية ما هو موجودٌ خلف الجدار السادس قبل أن يُستدعى إلى هناك من قبل ربّنا الأعلى.

ردّد صوتٌ على المجيب الآلي في هاتف المختبر: «الناس الفضوليون للغاية يموتون بغباء». تعرّض راؤول للضرب في وسط الشارع. وكما هي عادته، نسي الدفاع عن نفسه. وقد اتّحد خوارنة مسيحيون وأئمّة مسلمون للقيام بمظاهرات، محاطين بأتباعهم، أمام عمارتنا. وأُلقيت أطنانٌ من القمامة في محيطها. وتمّ تحطيم زجاج نوافذ المتجر العائلي، ولحسن الحظّ بعد إغلاق أبوابه. وكان متفرّجون، مذهولين بالكثير من الغضب، يتأمّلون بفضول المتجر المنهوب.

ولأننا بتنا من جديد في مركز الجدل، أصبحنا مرّة أخرى الحديث الشائع للناس. لدى الشباب، استعدنا وضعنا كأبطال وممثلي المغامرة الأعظم في الألفية. فقد كانوا يصطفون في طوابير لكي يحصلوا على توقيع المستكشفين

الشهيرين فريدي ماير وستيفانيا جيجيلي، ويقيمون طقوساً إحياءً لذكرى المستكشف الرائد فيليكس كيربوز. ولم يعد متجرنا، الذي سرعان ما تزيّن من جديد بعشرات المتطوّعين من دون مقابل، يفرغ من المرشّحين للقيام برحلات الاستكشاف. وبعد رسائل التهديد أصبحت تنهال علينا رسائل الدعم والمساندة. كانوا يناشدوننا بألّا ننحني أمام النزعة الظلامية والهواجس الموروثة من القرون الوسطى.

وفي تجمّعات غاضبة، وقعت مشاجرات بين أنصار الثاناتونوتية ومعارضيها.

وقد أصبح المعارضون لها أكثر عنفاً على نحوٍ مطّرد. ذات يوم، بينما كانت روز وحيدة في المتجر الذي أخذت فيه مكان والدتي، توقّفت شاحنة صغيرة أمام المبنى. نزل منها ثلاثة رجال ملثّمين ويرتدون سترات جلدية، وهم يلوّحون بمقابض فؤوسٍ. وقد بدأوا في الحال باقتحام المتجر، وأدركت زوجتي أنّ خلاصها في فرارها. ولكنّهم لاحقوها.

أطلقت ساقيها للريح وانسلّت نحو الشارع. لجأت إلى بوابة عربات في أسفل مبنى. اقترب الآخرون بسرعة، فاستأنفت جريها تحت أنظار المارة اللامباليين كما هي عادتهم دائماً. انعطفت إلى اليسار، ثمّ إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار مرّة أخرى لتجد نفسها محاصرةً في زقاقٍ مسدود. لم تكن أمام روز، الامرأة الشابّة الضعيفة في مواجهة ثلاثة رجال أقوياء البنية ومسلّحين، أيّ فرصة للنجاة. وقد تركوها، وجسدها مثخنٌ بالكدمات، والدم يسيل من جبينها.

مرّت ساعتان قبل أن يوافق مستأجرٌ في الجوار على أن ينحني فوق هذه المرأة الممدّدة على الأرض، في حين مرّ آخرون دون اعتراضٍ، مؤكّدين فيما بعد أنّهم اعتقدوا أنّها ليست سوى سيّدة مدمنة أسرفت في الشراب، وقد سقطت على الأرجح ثملةً.

في مستشفى سان لويس التي أُسعِفَت إليها، أخبرني أطباء بأسفٍ أنّها قد وصلت متأخّرة جدّاً وليس بوسعهم إنقاذها. كانت قد فقدت الكثير من الدم. لحسن الحظّ أنّ رجلاً عطوفاً أتاح لها أن تموت في سرير مستشفى،

فالكثير من الناس يحتضرون طيلة الليل على الأرض حتى دون أن يفكّر أحدٌ في إخطار الشرطة!

كانت روز ممدّدة، جامدة بلا حراك، في قاعة الإنعاش. وحدها الأجهزة تبقيها على قيد الحياة.

ما العمل من أجل إنقاذها؟ هرعتُ أنضمّ إلى أصدقائي، فنصحني راؤول أن أتوجّه إلى فريدي. في هذه الظروف الرهيبة، وحده الحاخام العجوز سوف يُحسن التصرّف.

احتضنني الحكيم الستراسبورغي بين ذراعيه وحدّق فيّ بنظرته العمياء:

- هل أنت مستعدٌّ لفعل كلّ شيء، هل أنت فعلاً مستعدٌّ لفعل كلّ شيء من أجل إنقاذها.

- نعم.

- إلى حدّ أن تجازف بحياتك من أجل الحفاظ على حياتها؟

- نعم، وألف نعم.

كان الربّان يتفرّس فيّ بروحه، وقد شعرتُ بذلك. كان يسعى بروحه إلى أن يتبيّن إن كنتُ أقول الحقيقة.

انتظرتُ، وقلبي يخفق بسرعة، أن يصدّقني.

- في هذه الحالة، ها هو الحلّ. حدّد ساعة محدّدة مع الأطباء لفصل الأجهزة. وسوف نحاول حينها أن نُقلِعَ في نفس توقيت إقلاعها. ومن خلال تعلّقنا بحبلها السُرّي وسعينا إلى الإبقاء عليه قبل أن ينقطع، ربما سننجح في إعادتها إلى الحياة. سوف تأتي معنا، وأنت سوف تنقذها بنفسك.

189. استمارة شرطة

ملاحظات إلى الجهات المختصّة:

عنفٌ من جهة محطّة إطلاق مستكشفي الموت في بوت شومو. هل علينا أن نتدخّل؟

جواب من الجهات المختصّة:

ليس بعد.

190. رحلة التحليق الكبيرة

كان ذلك ممكناً. كنتُ مقتنعاً بأنّ ذلك ممكنٌ. لن يقطف قابض الأرواح وردتي (روز). هرعتُ إلى المستشفى.

لم يفهم مسؤول قسم الإنعاش حقّاً لماذا كنتُ حريصاً إلى هذه الدرجة على أن أحدّد توقيت موت زوجتي في الساعة الخامسة بعد الظهر بالتحديد، ولكنّه أكّد لي أنني قد اتّخذتُ الخيار الصحيح. من الأفضل اللجوء إلى القتل الرحيم بدل أن نبقي على حياة كائنٍ بشريٍّ في حالة موتٍ دماغي. واستجاب بكلّ طيبة خاطر لطلبي. كانت أسرٌ مفجوعة قد قدّمت له حالات أكثر غرابة من ذلك. وعدني بأن يُراقب ساعته بدءاً من الساعة الرابعة وخمس وخمسين دقيقة.

لم أنم طيلة الليل. ولكن لا يحصل المرء على أحلام سعيدة من خلال ترديده أنّه سوف يموت غداً بمحض إرادته. وأنا يقظٌ تماماً، كنتُ أعاني بدل ذلك من كوابيسٍ، وأنا أحاول أن أتخيّل ما هي فقاعات الذكريات التي سوف تنقضّ عليّ لكي تقطّعني إرباً إرباً وما هي العيوب المخفية التي سوف يكشفها لي البلد الأحمر.

أرغمتُ نفسي على تناول فطورٍ ومن ثمّ وجبةٍ في منتصف النهار قبل أن أمضي فترة ما بعد الظهيرة مع فريدي لمراجعة الخطّة التي سوف نستخدمها لإنقاذ روز. ليس هناك هرمٌ هذه المرّة، بل هيكلٌ مسطّح، نوعٌ من الشبكة التي تمنّينا أن نستقبل فيها زوجتي.

سوف أكون في الوسط، ممسكاً بيدي حاخامين ستراسبورغيين، وبساقي راهبين طاويين من شاولين (عائدين إلى هنا لأسباب سياسية غامضة). لم أعرف قط ما الذي وعدهما فريدي به لكي يقبلا بالانضمام إلينا، ولكن في قاعة التحليق الكبيرة، اكتشفتُ ثمانية عشر حاخاماً آخر، وثلاثة عشر راهباً بوذياً تبتياً، وبالطبع ستيفانيا.

ولأنني لم أكن أثق من جهتي ثقة كبيرة بقدراتي التأمّلية، تحقّقتُ بعناية من بوستيراتي الكيميائية.

ارتدينا جميعاً ثيابنا البيضاء الخاصّة بالمستكشفين، وكلّ واحدٍ منّا يحدّق في الشاشة التي ترتسم عليها دقّات قلوبنا ونشاطنا الدماغي الكهربائي.

كان رفاقي قد أغمضوا أعينهم، جاهزين للضغط على مقبض الإقلاع عندما رنّ جرس الساعة. كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة وست وخمسين دقيقة. الساعة الرابعة وسبع وخمسون دقيقة...

كنتُ سأموت للمرّة الثانية ولكن ستكون هذه رحلة إقلاعي الطوعية الأولى. بعد كلّ هذا الوقت الذي أمضيته في إرسال الناس إلى قارة الموتى، جاء اليوم الذي أذهب فيه إليها بنفسي! كنتُ مقتنعاً بأنني سأفشل وأموت إلى الأبد، ولكن لم يكن لديّ الخيار. كان الحرص على إنقاذ روز يأتي قبل أيّ اعتبارٍ آخر.

الساعة الرابعة وسبع وخمسون دقيقة وعشر ثوانٍ. كانت يداي المبللتان بالعرق على الضاغط.

الساعة الرابعة وسبع وخمسون دقيقة وثلاث وأربعون ثانية. على جانبي من الجهتين، كان فريدي وستيفانيا هادئين جدّاً. لقد كرّرنا مرّات عديدة في حوض السباحة وضعياتنا لكي نشكّل التصميم المثالي الذي سوف يسمح لي بالذهاب بعيداً جدّاً إذا لزم الأمر. مع المخططات التي كان قد أعدّها، اعتقد فريدي أننا سوف نتمكّن من الوصول إلى جدار الغيبوبة الخامس. من جهتي، كنتُ أنوي أن أعترض روزِ قبل موخ 5. لم تكن لديّ أيّ خبرة في الطيران بين النجوم.

الساعة الرابعة وثمان وخمسون دقيقة وثلاث ثوانٍ. غرقت قاعة الانطلاق في ظلامٍ دامسٍ لكي نهدأ. تصاعدت أنغام تراتيل غريغورية بهدوء. وقد أدركتُ الآن مدى الأثر المهدّئ الذي يتركه هذا النوع من الموسيقى على المستكشفين المنطلقين.

الساعة الرابعة وثمان وخمسون دقيقة وأربع وثلاثون ثانية. فجأةً، انفتح الباب. ظهر شبحٌ على شكل خيال ظلّ. لقد تعرّفتُ عليه. إنّه راؤول. تُرى هل ينوي أن يصوّر تعميد موتي؟ كلّا، لقد غمزني، ثمّ ومن دون تردّد، ارتدى بزّة بيضاء وتوجّه نحو مقعدٍ للتحليق. أخذ مكانه مثلنا في وضعية اليوغا، وأمسك في يده مقبضاً للبوستيرات.

الساعة الرابعة وثمان وخمسون دقيقة وست وخمسون ثانية. انفتح الباب

من جديد. ظهر شبحٌ نحيل ذو شعرٍ أشقر غمره للحظةٍ الضوء من الخارج، وتوجّه بدوره نحو كرسيٍّ للإقلاع. مثل راؤول، ومثلي، لم تكن آماندين قد أقلعت قبل الآن. وسوف تفعل ذلك الآن من أجل روز. من أجلي.

ارتدت إحدى بزّاتنا البيضاء الخاصّة بالتحليق. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي أراها في ثيابٍ بيضاء، عدا يوم حفلة زفافها. أوصلت مختلف الأجهزة وغرزت في ذراعها الإبرة التي حقنتها بالسائل القاتل.

الساعة الرابعة وتسع وخمسون دقيقة وعشرون ثانية. ابتسمتُ. لدي بالفعل أكثر الأصدقاء وفاءً في العالم. إذا كان المرء يعرف أصدقاءه في الأوقات الصعبة، فها أنا أعرفهم هنا. منحني حضورهم قوّةً. يا له من حظّ أنني عرفتهم! *لدي بالفعل أكثر الأصدقاء وفاءً في العالم.*

الساعة الخامسة وثانيتان. الأنغام الأولى لإحدى معزوفات باخ. كان هذا بمنزلة دقّ الجرس الذي أذِنَ بفتح باب السماوات. دعونا لا نصطدم، في الأعلى، بجدارٍ لا يمكن عبوره.

الساعة الخامسة وخمس وعشرون ثانية. سأل فريدي الفريق من جميع الاتجاهات:

- جاهزون؟

ردّ ثمانية وعشرون صوتاً، من جميع الاتجاهات، وفي نفس الوقت:

- جاهز!

- ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... - لا تسأل نفسك: «ولكن ماذا أفعل هـ ...» ضغطٌ على الأسنان، ضغطٌ على الردفين. - اثنان... واحد. انطلاق!

ضغطتُ بيدي المبللتين بالعرق على مقبض البوستيرات. أحسستُ بالسوائل الباردة جدّاً تتدفّق في أوردتي، و... أموت!

191. فلسفة مشرقية

«ما أشبه خوفكم من الموت بالرعشة التي تصيب الراعي في حضرة

المليك الذي يربّت على كتفه تكريماً له. ألا تطيب نفس الراعي عن هذه الرعشة بما سيتقلّد من سمات المليك؟ ولكن ألا يكون أكثر التفاتاً إلى الرعشة من التكريم؟

وهل الموت إلّا أن نقف عراةً في مهبّ الريح، وأن نذوب في وقدة الشمس؟

وهل تنقطع من الأنفاس إلّا لكي تتحرّر من شهيقها وزفيرها المتعاقبين علّها تصعد وتنطلق ساعية إلى الله دون قيودٍ؟

سوف تغنون حقّاً فقط عندما تشربون من نهر الصمت. سوف تشرعون بالصعود فقط عندما تبلغون قمّة الجبل. وسوف ترقصون حقّاً، عندما تُطالب الأرض بأطرافكم».

هيهات أن تشدوا بالغناء حقّاً إلّا إذا ارتويتم من نهر السكون.

وهيهات أن تشرعوا في الصعود إلا إذا بلغتم قمّة الجبل.

وهيهات أن ترقصوا حقّاً إلّا يوم تضمّ الأرض أطرافكم.

جبران خليل جبران، النبي.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

192. في السماء

ستيفانيا على حق: طالما لم نمت، لا يمكننا أن نعرف ما هو الموت.

من المستحيل أن نصفه بالكلمات. ومع ذلك سأحاول أن أتقاسم معكم هذه المشاعر مثلما أحسستُ بها. ومع ذلك خذوا بالحسبان (إن لم تكونوا قد متّم سابقاً) أنّ كلماتي لن تعبّر إلّا عن النزر اليسير من حقيقة الموت.

بعض الأحاسيس يعجز اللسان عن وصفها، وهذه الأحاسيس، أحسستُ بها جميعاً، في ذلك اليوم، ذلك اليوم الذي غادرتُ فيه لأحاول إنقاذ زوجتي قبل أن تختطفها هذه القارة الأخيرة التي درستها كثيراً وكثيراً.

وحين ضغطتُ على زرّ الإقلاع، كان شعوري الأوّل هو أنّ شيئاً لا يحدث. حسناً، لا شيء البتّة. بل راودتني الرغبة في أن أنهض لكي أُعلن

لفريق الخبراء أنّ التجربة قد فشلت وأنّه يجب اختبار وسيلة أخرى. تردّدتُ، خشية من أن أجعل من نفسي أضحوكةً وقرّرتُ أن أصبر خمس دقائق إضافية في حال وقع حدثٌ في نهاية الأمر. بالنسبة إليّ، أنا مبتدئ، ولكن الآخرين علماء خبيرون. إذا كانوا لا يتحرّكون، فذلك لأنّ كلّ شيء طبيعي.

تثاءبت. لا شكّ أنّ تأثير المخدّر هو ما منحني الإحساس بأنني ثملٌ بعض الشيء. دار رأسي. حرصتُ على أن يبقى ظهري مستقيماً مثلما أوصت ستيفانيا بذلك على الدوام.

كان تفكيري الدائم منصبّاً نحو روز وردّدتُ في نفسي أنّه عليّ أن أنقذها. الآن، أعرف أنني سأموت. راودت ذهني ذكرى من الماضي. كنتُ لا أزال صغيراً جدّاً، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أصعد فيها إلى قطار ملاه. عند الانطلاق، كانت العربة تتسلّق المرتفع ببطء. ما إن وجدنا أنفسنا في القمّة، حتى قلنا في أنفسنا إنّه كان من الأفضل لو كنّا في مكانٍ آخر، وإنّه علينا أن ننزل قبل أن يفوت الأوان. بيد أنّ العربة كانت قد اندفعت مسرعةً إلى الأمام، تصرخ فيها فتياتٌ رعباً أو فرحاً، وأغمضنا عيوننا ونحن نصلّي لكي يتوقّف هذا الرعب بأسرعِ ما يُمكن. انتقلنا إلى اليمين، ثمّ مباشرةً انحرفنا نحو اليسار، وقد انقلب رأسنا نحو الأسفل، وكنّا على بعد إصبعين من أن نسقط في الفراغ، وقلنا في أنفسنا إنّ الأنكى هو أننا دفعنا نقوداً لكي نعاني من هذا الذعر!

حسناً، إذاً، نمتُ بهدوء. أحسستُ بأنني خفيف. خفيفٌ جدّاً. أحسستُ بأنّه، إذا أردتُ ذلك، سوف يمكنني أن أطفو مثل ريشةٍ، وتبيّن لي أنّني بالفعل... أطفو مثل ريشةً! على الأقلّ، كان جزءٌ من جسدي يجهد لفعل ذلك، كما لو أنّ الجزء الآخر يرفض، غريزياً، أن يغادر الحياة. ورغم أنني كنتُ أحبِّ روز من كلّ قلبي، فإنّ الموت جعلني أشعر بالذعر على نحوٍ رهيب. لم أرغب في أن أغادر هكذا شقّتي، وحيي، وحانتي، وأصدقائي. رغم أنّ أصدقائي، وخاصّة صديقي الرئيسي، كانوا جميعاً حاضرين، وهم يرافقونني في هذه التجربة المرعبة.

كلّ ما شعرتُ به، شعر به راؤول. لا بدّ أنّه تقاسم معي كلّ مخاوفي.

فجأةً، حدث شيءٌ غريب. ظهر نتوء في قمّة رأسي، ومدّت فروة رأسي إلى أقصى حدّ. كيف يمكن منع هذه الفظاعة؟ دقّ قلبي ببطءٍ شديد بحيث لم يعد بوسعي أن أتحرّك. شاهدتُ، عاجزاً، ولادة أنا آخرَ من قمّة رأسي، مجهولاً حتى هذه اللحظة. تردّد وعيي. هل سوف يبقى في الأسفل مع الأنا الجالس القرفصاء أم سوف يغادر مع الأنا الخارج من رأسي؟

كنتُ أنمو، ممتدّاً، ممتدّاً نحو الخارج.

انتابني شعورٌ بالدوخة. وأحسستُ بغشاوةٍ على عينيّ، وتلاشى لديّ مفهوم الزمن، فأصبحت أدنى حركة من حركاتي تستغرق قرناً من الزمن. في الواقع، لم يكن الأمر يتعلّق سوى بجزيءٍ من الثانية. دهمني انفعالٌ. كان قرنٌ يخرج من جمجمتي. وعلى نحوٍ أدقّ، كان قرنٌ ينتهي برأسٍ. رأسي أنا. رأس أنا «الآخر». كنتُ كما لو أنني منقسمٌ إلى نصفين. مزدوجٌ وفي الوقت نفسه أشعر أنني زائلٌ كلّياً. أموت بينما لا يتوقّف القرن عن النمو، جميلاً، أبيضَ، شفّافاً.

أصبح الآن يتوفّر على ذراعين يثقلان على قمّة رأسي لكي يتحرّر على نحوٍ أفضل من جمجمتي. في قمّته، انفتح فمٌ في أنينٍ هادئ. كان رأسي الثاني يبكي وهو يتحرّر من جسدي. كما لو أنّها عملية ولادة. كان جسدي الفيزيائي يولد روحي. وهجٌ. وخزٌ. ألم ولذّة. رأيتُ، بالتناوب، العالم بعينيّ القديمتين وبحدقتي روحي. راقبت روحي على نحوٍ أخصّ ما يحدثُ في ظهري.

لقد لاحظتُ، فزعاً، أننا شخصان في جسدي الماديّ. واصل «الآخر» الخروج. لم يعد قرناً، بل بالونٌ غامض، متمدّد. أراه ويراني.

إنّ آثار عملية خروجٍ من الجسد لا تُصدّق!

تردّد «أنا» بين البقاء في جسدي أو الذهاب نحو هذا البالون الذي تنمو له الآن ساقان.

«عُد»، كان يهمس جسدي بحنيّة لروحي. «غادر»، كنتُ أحثّ نفسي. فكّرتُ مرّة أخرى في روز، في كلّ أصدقائي من حولي، المجازفين بحياتهم لكي يهبّوا لمساعدتي، وبجهدٍ جهيدٍ من إرادتي، أرسيتُ وعيي في الكائن

الشفّاف المنبثق من أعلى جمجمتي. أنا آخَرٌ. آخَرٌ في جسدي الشفّاف الجديد.

وميضٌ.

إكتوبلازم، لقد أصبحتُ إكتوبلازم. نسخ البالون الخارج من جمجمتي شكل رأسي بدقّة متناهية، واستطال عبر رقبتي الشفّافة، وكتفيّ الشفّافتين، وجذعي الشفّاف، وذراعيّ الشفّافتين، وحوضي الشفّاف، وساقيّ الشفافتين، وقدميّ الشفّافتين. أصبحتُ كما لو أنني أُخرجتُ من قالب! مثل معيٍّ طويلٍ مجعّد وملفوف، يتدلّى حبلٌ شفّاف من سرّتي، يربطني مع شخصٍ بعيدٍ في الأسفل، جالسٍ على أريكةٍ في وضعية اليوغا. والأكثر غرابةً هو أنّ هذا الشخص الذي في الأسفل، هو أنا!

لقد أصبحتُ روحاً، ورأيتُ روحاً أخرى تنبعث من المحيط، متدفقةً من الجماجم والجباه. كنّا أربعين شخصاً نطوف تحت سقف محطّة إطلاق المستكشفين مباشرةً، والآن، لديّ رغبة شديدة في الذهاب إلى ارتفاعٍ أعلى.

فريدي، الذي كان مرتاحاً للغاية في دوره كخبيرٍ محنّكٍ في الفضاء، أشار علينا بأن نصعد. اتبعوا الأعمى! حسناً، ولكن السقف... لقد سبق له أن عبر من السقف، متبوعاً برجال دين، وفي إثرهم راؤول، وآماندين. أنا الآن وحيدٌ في تأمّل أربعين جسداً متصلّباً مثل عددٍ كبيرٍ من التماثيل المترهّلة. كيف أقلّد الآخرين؟ أنا لستُ عابراً للجدار، ولكنني أخشى أن أتأخّر بهذه الطريقة، بعيداً عن الجميع. متسلّحاً بكلّ شجاعتي، أغمضتُ عيني الشفافتين، وفجأةً، مررتُ عبر أسقفٍ، وأرضياتٍ، وصعدتُ طابقاً بعد طابق، ووصلتُ إلى شرفة السطح.

كان الآخرون هناك في انتظاري. معاً، نهضنا. يا لروعة باريس من الأعلى! كنتُ أتأمّل كاتدرائية نوتردام، حينما انقضّت علينا طائرة اخترقت حاجز الصوت. كان الأوان قد فات على تجنّبها، ولكن ما فائدة ذلك؟ اخترقت أجسادنا الأثيرية دون أضرار. وعلى نحوٍ عابر، تفحّصتُ مقابض وأجهزة التحكّم في قمرة القيادة وأحشاء طيارٍ. أمرٌ رائع، لقد نسختُ صورة طائرة نفّاثة!

انتزعني فريدي من انبهاري. علينا أن نستعجل إذا ما أردنا ألا نخسر روز. في الواقع، وصلنا متأخرين جدّاً إلى فوق مستشفى سان لويس. كانت روز قد مرّت ووجدت نفسها الآن بيننا وبين القارة الأخيرة.

إنّه خطأي أنا إذا ما فقدناها. من خلال تردّدي أمام السقف، أبطأتُ حركة الفريق بأكمله. وهو لا يزال في القيادة، أمرنا فريدي أن نندفع بكلّ قوّة أفكارنا. كنّا نسير بسرعة تعادل ثلاثة أضعاف سرعة الضوء، متجاوزين أشعة الشمس. هوووب... تجاوزنا كوكب المشتري، وزُحل، وبلوتون، وأورانوس، ونبتون، وهوووب... إنّه الفراغ الخارجي!

لحسن الحظّ، الإكتوبلازمات ليست حسّاسة لا لنقص الأوكسجين، ولا لقوانين الجاذبية، ولا تشعر لا بالجوع ولا بالعطش. نحن نعلم أنّه تسود هنا درجة حرارة مجمّدة، ولكن هذا لا يجعلنا نشعر لا بالحرارة ولا بالبرد. الإكتوبلازم، هو وسيلة نقل للمستقبل! لا تعرف الروح أي عقبة، وتحطّم كلّ الأرقام القياسية للسرعة ولا تجازف عملياً بالتعرّض لأي حادث (عدا استثناءات نادرة مثل حروبنا الدينية القديمة).

تسلّيتُ بمصادفة المركبة الفضائية الصغيرة التي قرصنها روّاد فضاء روس انطلقوا في سبيل اكتشاف الثقب الأسود مركز مجرّتنا، بعد أن اكتشفت روز الحياة فيها. كان الفريق يجهل في الحقيقة علامات تواطؤي.

أمامي، كان الحاخامات يحثّونني على أن أستعجل. حسناً، ولكن ما الذي عليّ فعله لكي أسرّع من حركتي؟ الأمر سهل، يكفي أن تفكّر في ذلك. كلّ شيء جديدٌ جدّاً، وغريبٌ جدّاً، ومجهولة جدّاً من قبل الجزر الضيّقة لخيالي.

ابتسمت لي ستيفانيا. ربّما كانت شفّافة، ولكن، مثلها مثل الآخرين، كنتُ أعرفها تماماً. كنا نسير جنباً إلى جنب، بين النجوم والكواكب. على يميني، كان هناك أيضاً راؤول وآماندين وفريدي. كان كلّ سربنا من إكتوبلازمات المستكشفين يطير، ويحوم وينهمر نحو القارة الأخيرة.

سريعاً، لمحتُ روز. إنّها هناك، بعيدةً جدّاً أمامي، وكانت بالفعل تتّجه مباشرةً وبشكلٍ مستقيم نحو... الموت. الموت، مجسّداً من خلال هالة كبيرة متعددة الألوان: مدخل الثقب الأسود. في الواقع، بالنسبة إلى ثقبٍ

أسود، كان المكان مضيئاً! من حول التاج تماماً، اصطدمت كواكب ونجومٌ ممتصّة بعضها ببعض مثل ألعابٍ نارية أسطورية على شكل مجرّة متلاطمة. النجوم التي لم تُبتَلَع تماماً بعد، وتحت تأثير السرعة التي كانت تسحبها إلى قاع الثقب الأسود، أصبحت وردية اللون، ثمّ بيضاء، ثمّ حمراء، وبنفسجية، وتبعثرت وروداً، وأزهاراً، وقطرات ندى لمّاعة. وكان الضوء، على الرغم من سرعته الفائقة، منحرفاً هنا. كانت الأشعّة تنحني، وتستدير، وترقص قبل أن تُختَطَف من قبل المغناطيس المطلق.

مشهدٌ ساحر، ولكنّه مرّ سريعاً.

كان الموتى الجُدد يهرعون، من حولنا، نحو الضوء الجذّاب، منتزعين بكلّ سرعة حبالهم السُرّية. كان الحبل السُرّي لروز يرتطم بالحبال الأخرى. للحظةٍ، قلتُ لنفسي إنّ كلّ شيء قد انهار. ولكن كلا، اعتقد فريدي أنّه من الممكن استرداده. أشار علينا أن نسهر جيّداً على الحفاظ على حبالنا السُرّية.

تجمّع سربنا بعضه على بعض لكي نتمكّن من تجديلها على نحوٍ أفضل، وفقاً لتعليمات فريدي. وقد طمأنني ذلك قليلاً. بدا أنّ سربنا ينهمك في صعودٍ شاقّ، ولكنه مزوّدٌ بحبل نزولٍ مناسب.

انزلقت مجموعتنا في تناسقٍ إلى الفم الفاغر للثقب الأسود. كان قطره واسعاً جدّاً، ويبلغ عدّة ملايين من الكيلومترات، على الأرجح!

كلّما اقتربنا بعضنا من بعض أكثر، كَبُرَت هالة النور أكثر، كاشفةً حلقات أخرى في الداخل. كان فيليكس على حقّ: هذا ليس تاجاً، بل مخروطٌ. ميّزنا جدراناً تغوص نحو ممرٍّ يمتدُّ إلى ما لا نهاية. مددتُ ذراعيّ الشفافتين باتجاه روز، إلى بعيد.

وصلنا إلى شاطئ. كان هناك، حوله وأمامه، ما يشبه بحراً من ضوء النيون الأزرق، بالكاد يُضاء بطبقة شمسية مشعّة. بسرعة تفوق مليون ميل في الساعة، لامستُ أمواج الشاطئ التي نقلت إليّ عرضاً شحنة كهربائية لطيفة أراحتني وقوّتني. كنتُ بخيرٍ في ذلك المكان، بل كنتُ أحسنُ حالاً ممّا كنتُ عليه في أيّ مكانٍ آخر سابقاً. راودتني حينئذٍ فكرةٌ مرعبة: روز على حقّ في ابتعادها، ونحن على خطأ في رغبتنا بالعودة إلى العالم الأرضي.

اهتززت. خرجت زوجتي عن حقل رؤيتي. أسرعنا سيرنا بفضل تفكيرنا. كان يكفي أن يفكّر واحدٌ فقط من بيننا، حتى يعرف الجميع ما يُراود ذهنه.

أسرعتُ أكثر. هذا البلد العملاق، كنتُ سأجوبه طواعيةً على مهلٍ خلال أيامٍ وأشهر. لم يسبق لي قط أن أحسستُ أحاسيس جنونية كهذه. سيارة سباق، درّاجة نارية، منصّة قفز الأعلى ارتفاعاً، لا شيء يُضاهي ثمالة النصر والسرعة هذه.

سرتُ، وغصتُ، وانزلقتُ، وتمدّدتُ نحو مصدر الإضاءة المركزية. اكتنفت قوّة مذهلة جسدي الشفّاف. كنتُ أسطع مثل البحر المحيط بنا. تلألأت أضواء باهرة على أظافري الشفّافة.

كان عدد الموتى الجدد كبيراً في مدخل الدوّامة. ميّزتُ روز بصعوبة بين الحشد.

دخلنا في أعقابها إلى تويج الزهرة النجمية. كانت كما رأيتها مرسومةً في مرّات كثيرة في إملاء المستكشفين السابقين. كلّ شيءٍ يدور، كلّ شيء يمتصّنا. اندفع فريدي مسرعاً على أمل الإمساك بروز قبل أن تجتاز جدار الغيبوبة الأوّل، لكنّها ذهبت بسرعة بالغة. لو لم يحتفظ تلامذة الحاخام بحبله السُرّي، لتحطّم.

اختفت روز.

أدرك راؤول أنّني كنتُ أشعر بالرعب، فأمسك بيدي لكي أعبر مع زمرتنا موخ 1. يا للهول!

ظهر وحشٌ عملاق في الحال. المرأة ذات الثوب الحريري الأبيض والقناع المصنوع من الهيكل العظمي لجمجمة طافت في الفضاء الأسود مثل منطادٍ في فيلم رعبٍ. أصَمَّت ضحكاتها المجلجلة أذنيّ. أصبحتُ مثل برغشةٍ أمام هذا الكائن الذي كان أكبر منّي بعشرة، ثمّ مئة، ثمّ ألف ضعف.

كان للمرأة ذات الثوب الحريري الأبيض جسدٌ رائع. رفعت ثوبها، كاشفةً عن ساقين طويلتين ذواتي تناسبٍ مذهلٍ مدّتهما بشهوانيةٍ. انتفخ صدرها النحيف وجعلَنا مقوّر فستانها نخمّن ولادة نهديها.

ظلّت تضحك، وهي تدعوني لأن أتوه في ثنايا ثوبها الحريري الأبيض.

حدّق فيّ القناع العظمي، مترقّباً ردود أفعالي في حين أنّها كانت تنكمش بعضها على بعض كما لو أنّها تريد أن تصبح في متناولي على نحوٍ أفضل.

ولمّا أصبحت بحجمٍ معقولٍ أكثر، استفدتُ من ذلك لكي أحاول نزع القناع عنها. امتدّت يداي نحو حواف القناع. ولأنّ الحواف كانت حادّة وقاطعة، جعلت أصابعي تنزفُ دماً شفّافاً ولزجاً. على الرغم من تقزّزي، لم أُرخِ عناقي، وسحبتُها بكلّ قواي. خلف هذا القناع، هناك شيءٌ أساسي ينبغي عليّ أن أكتشفه بأيّ ثمنٍ كان.

منْ يختبئ خلف القناع العظمي لهذه المرأة التي تشدّني بقوّة؟ أهي أماندين؟ روز؟ أمّي؟ راؤول؟ أهو موتي، هذا الموت الذي درسته لكي أعوّض نقصاً ما؟

ارتفعت ذراعٌ ببطء. ببطءٍ شديد، نُزع القناع...

بالكاد سُحِبَ القناع. ورأيتُ...

أمرٌ لا يُصدّق ما كان خلف القناع! أمرٌ غيرُ متوقّعٍ أبداً! ومع ذلك كان بسيطاً جدّاً...

193. فلسفة بوذية

«ها هي، أيّها الحاخامات، الحقيقة النبيلة حول إنهاء المعاناة: إنهاء هذا التعطّش يتمّ من خلال الإفناء التامّ للرغبة، من خلال تحريمها، والتخلّي عنها، والتحرّر منها، من خلال عدم ترك أيّ مكان لها. ها هي، أيّها الحاخامات، الحقيقة النبيلة حول الطريق المؤدّي إلى إنهاء المعاناة، إنّ هذا الطريق النبيل ذا الفروع الثمانية الحقّة التي تُسمى الإيمان السليم، الإرادة السليمة، الكلام السليم، الفعل السليم، المعيشة السليمة، السلوك السليم، الملاحظة السليمة، التركيز السليم».

بوذا، **موعظة بيناريس**

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

194. مواجهة الموت

تراجعتُ وأصبحتُ صغير الحجم تماماً.

تجمّد إيكتوبلازمي دهشةً. توقّف الدم عن الانبجاس من أصابعي.

خلف القناع العظمي، لم يكن هناك سوى هيكلٍ عظمي. رأسٌ آخر لميّت. نزعته المرأة ذات الثوب الحريري الأبيض لتكتشف عن رأس آخر، ثمّ آخر، وآخر أيضاً. وقد رمت بذلك أكثر من مئة رأس، كأنّها عروض متماثلة للموت.

الموت ليس إلّا هذا. الموت هو الموت هو الموت هو الموت هو الموت، ولا شيء سواه.

أصبح الكائن أو الشيء ضخماً جدّاً، وتحوّلت ساقاه إلى مخالب أمسكت بي وحجزتني، فبذلت كلّ ما بوسعي للإفلات من براثنه. أكافح بأفضل ما لديّ. أصبحتُ الآن أفهم تماماً رعب بريسون.

ضحك الهيكل العظمي من جديد مقهقهاً، وصرخ بي:

– سوف أجعلك تندم على صعودك إلى هنا!

ولمّا عاد وأصبح الهيكل العظمي امرأة مقنّعة، رأيتُ أصابعَ وردية تفسد، ولحماً يتعفّن، ويتحلّل. اخترقت السبابتان وجهي الإكتوبلازمي سعياً إلى اقتلاع عينيّ.

فجأةً، لم يعد أمامي سوى عنكبوتٍ مغطّى بالحرير الأبيض.

جرّبتُ بطريقة تخاطرية وصفات سحرية لكي أتخلّص منه. «*Vade retro Satanas*»[1]. ولكن عبثاً. خطرت ببالي صلاة التخلّص من الخوف. فبدأتُ أتمتم بها: «لن أعرف الخوف. الخوف هو الموت الصغير الذي يحمل في طياته الفناء التامّ. سوف أواجه خوفي. سوف أسمح له بأن يمرّ عليّ، أن يعبرني. وبعد عبوره، سوف أُدير عيني الداخلية نحو طريقه. ولن يعود له من أثرٍ في المكان الذي عبر منه. لن يعود هناك أيّ شيء سواي».

1- «Vade retro Satanas»: تعويذة كاثوليكية في العصور الوسطى لطرد الأرواح الشريرة. المترجم

أغمضتُ عينيّ، وردّدتُ ذهنياً كلّ جملة من التعويذة.

توقّف الضحك وانفجرت المرأة ذات الثوب الأبيض وتناثرت في فقاعات ضوئية.

ظلّت فقاعة واحدة. إنّه النور المركزي الذي يدلّنا على الطريق. من خلال هذا الضوء، لمحتُ أشباح رفاقي على شكل أخيلة ظلّ. انضممتُ إليهم. كان الجميع قد كافحوا وحشهم. وحشهم الشخصي.

أكّد فريدي ذلك: لقد تجاوزنا موخ 1. وروز لا تزال بعيدةً تتقدّم إلى الأمام.

بعد جدار الغيبوبة الأوّل، تغيّر اللون. تحوّل الأزرق إلى البنفسجي، ثمّ إلى البنّي. كانت هناك انعكاسات سوداء. أتكون هذه ألوان الجحيم؟

أبطأنا من سرعة سيرنا في حين كانت فقاعات الذكريات تنهال علينا مثل وابل عاصفةٍ غير عادية.

التوى الممرّ وتحوّل إلى قوّة دافعة. رحلتُ دائماً نحو نور الموت محاولاً ألا أعير اهتماماً للسعات تلك الفقاعات. يا له من شعورٍ بالقوّة! لم يمرّ سوى عشرين دقيقة على خروج روحي من جسدي، وها أنا الآن على بعد مئات السنوات الضوئية.

لم يكن هناك أيّ إحساسٍ باستنفاد قوّتي، ولا حتى بخسارة جزءٍ منها. ببساطة، لقد غادرتُ للتوّ درعاً صدئاً. كنتُ أعتقد أنّ هذا الدرع يحميني. في الواقع، كان يضغط على روحي، وأنفاسي، وذكائي.

مع هذا الدرع، كنتُ أتلقّى الضربات، مقتنعاً بأنّ جراحي ليست سوى خدوشٍ بسيطة. كان ذلك احتقاراً كبيراً للذات. لقد مسّ كلّ شيء جذوري الحسّاسة. تراءت لي كلّ الضربات التي تلقّيتها في حياة، ضربة بضربة. والمفارقة هي أنّ الضربات التي تلقّيتها تركت آثاراً أقلّ من تلك التي سدّدتها. كانت روحي أشبه بشجرةٍ حُفِرَت عليها بالسكين كلماتٌ وذكريات.

جرى كلّ شيء بسرعة. رأيت من جديد ولادتي، وأمّي تُطعمني بالقوّة، ووالدي يتسبّب لي بالدوّار وهو الوحيد الذي يتسلّى بإرغامي على اللعب بالطائرة، وأولى غزواتي للأزرار والخجل الذي سبّبته لي، وحادثة السيارة

التي تعرّضتُ لها، ومجزرة سجناء فلوري ميروغيس، وفيليكس المحاصر بالانتحار. وحشود الناس التي هتفت ضدّي وشتمتني في قصر المؤتمرات، ورسائل الشتائم والإهانات، ورسائل التهديد، وإحساسي الدائم بالذنب. «قاتل! سفّاح!» كانت هذه الهتافات تُطلَقُ في وجهي من قبل رجالٍ كنتُ قد نسيتُ حتى اسمهم. «قاتل، قاتل، قاتل، قاتل». كان صوتٌ داخلي يردّد عليّ هذا الهتاف. «أنت قتلتَ مئة وثلاثة وعشرين بريئاً». «أنا آسفة، يا مايكل، ولكنك لستَ أبداً نموذجي المفضّل من الرجال». امتزجت ذكرياتٌ سيئة مع كوابيس قديمة.

على وجه الإجمال، ما زلتُ أفضّل اللقاء مع المرأة ذات الثوب الحريري الأبيض. أيّاً يكن، أنا أواجه ماضيّ بأقصى درجات الصراحة.

روز هي الأُخرى أوقِفَت بفعل وابل فقاعات الذكريات. فحاولتُ أن أنتهز الفرصة لعلّني أُمسِكَ بها. اقتربتُ بصعوبة فائقة، مقاوماً عاصفة حياتي الخاصّة. ومع ذلك تقدّمتُ إلى الأمام. لقد نجح الأمر، وأوشكتُ أن ألحق بها.

بالتخاطر (إذ لطالما تعبّر الإكتوبلازمات عن رأيها بهذه الطريقة)، قلتُ لها: «لقد جئنا نبحثُ عنكِ لكي نُساعدكِ في الهبوط». لم تُعرني أيّ انتباه. لقد عثرت من جديد على حبّها الأوّل. إنّه رائد فضاء أمريكي. عندما تركها تسقط، سعت إلى أن تستردّه من خلال متابعة نفس الدروس التي اتّبعها هو. لم تكن روز قد حدّثتني عنه مطلقاً. الآن، أفهم على نحو أفضل مشاعرها.

تحدّثتْ مع ذكريات حبيبها. قال لها إنّه كان يشعر بالملل معها، وأخبرها أنّ الأمر الأهمّ في أيّ حياةٍ زوجية هو ألّا يشعر الزوجان بالملل أبداً. صارحها بأنّها كانت رقيقة ولطيفة، بالتأكيد، ولكنّها لم تكن تكنّ له أيّ شيءٍ متميّز، ولذلك تركها.

هربت روز، باكيةً. لم أحظَ بفرصة أن أقسم لها على أنّها ليست مملّة، وهي التي سبق لها أن تجاوزت جدار الغيبوبة الثاني.

لم أستطع الجري خلفها. أمسك بي فريدي من حبلي السُرّي الفضي. وقد ذكّرني بأنّ أحد أهداف هذه الرحلة هو أن يعود الجميع أحياء إلى الأرض،

وأنّه إذا ما أسرعتُ كثيراً، سوف أمزّق حبلي السُرّي ولن يعود بوسعي إنقاذ روز، والعودة على أعقابي إلى الأرض.

أمسك فريدي، وستيفانيا، وراؤول، وآماندين بيدي، وعبرنا معاً موخ 2.

من المؤكّد أنّ ستيفانيا أشادت غالباً أمامنا بملذّات البلد الأحمر ولكنني لم أتخيّل قط الكثير من التخيّلات والموبقات المتجسّدة! آماندين أخرى، آماندين التي لطالما رغبتُ فيها، تقدّم نفسها وهي ترتدي مشدّ خصر وجوارب شبكية شفّافة وتحاول أن تضمّني. وللهروب منها، بحثتُ عن آماندين الحقيقية، ولكنّها كانت قد ارتمت مستسلمة بين ذراعي فتى رقيقٍ ووسيم أسود البشرة، مفتول العضلات.

داعب فتيانٌ راؤول الذي لم أشكّ قط في أنّه ربّما كان يكبت ميولاً مثلية. مسكونة بالمكان، استغلّت ستيفانيا ذلك لكي تختلط مع زمرة من الفتيات اللواتي يعرفن أكثر الدوافع الحميمة لجسد امرأة. على المقعد الخلفي لسيارة من طراز رولز رويس، استسلمت روز لأميرٍ من الحكايات الخيالية.

رغبتُ في أن أسحبها من هناك، ولكنّ آماندين استيهاماتي التي كان عُرفُ شعرها الطويل الأشقر يتناقض مع ثيابها الجلدية السوداء، أمسكت بوجهي ودسّته بين نهديها الدافئين، وهي تضحك مثل شيطانةٍ.

من جانبه، أُحيط فريدي بحريمٍ من النساء العربيات، يضعن جميعهنّ ألماسةً متألّقة في سرّتهنّ. وقد رفع حجابهنّ الحريري حجاباً بعد آخر كما لو أنّه ينتزع بتلات زهرة أقحوان.

إلى أين كنّا سنذهب ونحشر أنفسنا؟ داعبت آماندين أحلامي رقبتي بأطراف رموشها التي حرّكتها بسرعة كبيرة. مثل فراشةٍ غاضبة تدغدغني بأجنحتها الحريرية الطويلة. هل كنتُ أتخيّل ذلك؟ إنّه شعورٌ لذيذ.

ابتسمت لي آماندين مع نظرةٍ مترعة بالإثارة والإغراء. ثمّ، بفمها، ... ني.

195. استمارة شرطة

ملاحظات إلى الجهات المختصّة:

لقد انطلقت مجموعة من مستكشفي الموت الخبراء هذا الصباح. ما زالت المجموعة عالقة في الإقليم الثاني. هل علينا أن نتدخّل؟

جواب من الجهات المختصّة
كلا، ليس بعد.

196. فلسفة بوذية

«إذا كانت لدينا حياةٌ تعيسة رغم قيمنا الفاضلة، فهذا يعود إلى كارمانا السابقة السيّئة.

إذا كانت لدينا حياةٌ سعيدة رغم نزعتنا الشريرة، فهذا أيضاً يعود إلى كارمانا السابقة السيّئة.

إنّ أفعالنا الراهنة أيضاً سوف يكون لها كلّ عواقبها عند أوّل فرصة ممكنة».

نارادا ثيرا، *عقيدة النهضة*.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

197. وسط السُحب

... عضّت أذنيّ. ظلّ ذلك سرّاً بيننا ولكنني أحببت ذلك كثيراً. بل أعشق ذلك. وخاصّة على الزاوية العليا، ومن ثمّ شحمة الأذن، والرقبة أيضاً، وليس العنق. في المقابل، كنتُ أحبّ كثيراً العضّ فوق قمّة الكتفين. كانت تعرف ذلك. كانت تعرف كلّ شيء عن شهوانيتي! وكانت تستفيد من ذلك، وتستغلّه. ثمّ آماندين حلمي، التي باتت أكثر جرأةً، ... ني.

ولكنّ فريدي، مبتعداً عن حور العين، أنذرنا وأمرنا بالتغلّب على شهواتنا الجنسية. انضممنا بعضنا إلى بعض كالبنيان المرصوص، يُمسكُ كلٌّ منّا بالحبل السُرّي للآخر. على مقربةٍ منّي، كان راهبٌ طاويّ غير مطمئنٍّ وقلقاً. كان يعلم أننا نتقدّم نحو مناطق في غاية الجمال ولكنّها محفوفة بالمخاطر.

حاولنا في مرّات عديدة أن نُمسك روز. ولكن عبثاً، إذ كانت قد عبرت موخ 3 وانضمت إلى حشد الموتى المنتظرين.

وكما فعلت هي، دخلنا نحن أيضاً إلى البلد البرتقالي. كان رتل الموتى يمتدّ طويلاً على مدى البصر. اندهش بعضهم لرؤيتنا ونحن لا نزال مزوّدين

بحبالنا السُرّية. لا بدّ أنّهم كانوا يتساءلون: ما الذي جعل هؤلاء السيّاح الأجانب يأتون من عالم الحياة لكي يزوروا قارة الموتى؟ ومع ذلك، لم يعر أغلبهم اهتماماً بنا.

بحثتُ عن روز بين الزحام.

كانت هناك كتائب كاملة من الجنود الذين قُتلوا في حروب غريبة، وضحايا الأوبئة الفتّاكة، وضحايا حوادث السير على الطرق التي تسودها فوضى عارمة. كان هناك الكثير الكثير من الموتى، من كلّ الأعراق، ومن جميع البلدان. كان هناك موتى بمرض الجذام، ومُعدَمون بالصعق الكهربائي، ومتجاوزون للإشارات الضوئية الحمراء، وسياسيون معذّبون، ونسّاك هندوسيون متهوّرون، ومصابون بالإمساك المزمن، ومستكشفون مسمومون بسهامٍ مسمومة بالكورار، وسبّاحون غوّاصون بالغوا في إغاظة أسماك القرش، وبحارة قُتِلوا رمياً بالرصاص، ومخموررون هائجون، ومصابون بالهلع هربوا من أعدائهم المتخيّلين برمي أنفسهم من نافذة الطابق التاسع، وممارسون للقفز بالحبال المطاطية والذين خانتهم حبالهم، وخبراء متخصصون في مجال البراكين بالغوا في فضولهم، ومصابون بقصر النظر لم يشاهدوا الشاحنة وهي تقترب منهم، ومصابون ببعد النظر لم يروا الوادي الذي سقطوا فيه، ومصابون بانحراف البصر لم يتعرّفوا على العنكبوت، وطلاب في المرحلة الثانوية لم يفهوا أنّ أفعى الناشر شديدة السمّية لا تشبه ثعبان العشب.

دفعنا الجميع في طريقنا وأبعدناهم.

ناديتُ بلغة التخاطر: «روز، روز».

التفتت العديد من النساء اللواتي اسزمهنّ روز. كنّ نساء يحملن اسمِ روز وهنّ ممتلئات بالأشواك، أو بالسنابل، أو بالهموم. ومثلهنّ مثل الآخرين، كانت إكتوبلازماتهنّ تروي قصصهنّ. بينهنّ ضحية زوجٍ غيور، وفلّاحة فوجئت بين كومة قشّ بأبٍ حقود، وامرأة عجوز ماتت من دون أن تنتفع بثرواتها التي بدّدها أحفادها...

تقدّمتُ بين موتى آخرين. كان هناك أعداد هائلة من الموتى في كلّ

مكان، مدمنون على المخدّرات تعاطوا جرعات زائدة، ونساء ضُربن بإفراط، ومتزحلقون على قشور الموز، ومصابون بنزلات برد خانهم الحظّ، ومدخّنون أُصيبوا بأمراض رئوية، أبطال فائزون بالماراتون، وسائقو سيارات في سباق فورمولا 1 أخفقوا في منعطف المضمار، وطيارون أخطأوا في النزول على المهبط، وسيّاح تصوّروا أنّ حي هارلم الشهير في نيويورك أكثر روعةً في المساء، وهواة الثارات العائلية، ومكتشفو فايروسات غير مسبوقة، وشاربو مياه العالم الثالث، وملتقطو الكرات الضائعة، وجامعو ألغام الحرب العالمية الثانية، ومبتزون صادفوا رجال شرطة في إجازة وبزيٍّ مدني، ولصوص سياراتٍ مفخّخة.

هناك أيضاً سائقو درّاجات نارية كانوا مقتنعين بأنّ هناك مجالاً ما كافياً لتجاوز شاحنة في قمّة مرتفع، وسائقو شاحنات قاموا بلفّة حادّة للمقود لتجنّب درّاجة نارية في أعلى المرتفع تماماً، ومستوقفو سيارات رأوا فجأةً، وفي أعلى المرتفع تماماً، درّاجة نارية تلامسهم وشاحنة تصطدم بهم.

أشخاص خضعوا لعملية زرع الكبد يتناقشون مع أشخاصٍ خضعوا لعمليات زرع القلب. أطفالٌ ينتقدون آباءهم الذين لم يعثروا عليهم بينما كانوا، وهم يلعبون لعبة التخباية، يختبئون ببساطة في الثلّاجة.

لم يكن هناك أيّ توتّرٍ بين الموتى. يسود في هذا المكان السلام العالمي. يتجاور بوسنيون بمودّة مع صربيين. وتتصالح قبائل كورسيكية. ويتحدّثُ غارقٌ في البحر مع غارقٍ في الفضاء.

ذكّرنا فريدي بأنّه لا وقت لدينا لنضيّعه في التسلية واللهو. اجتمعنا حوله، جاهزين للتشكيلة التي كررناها في المختبر. مساندينا بعضنا بعضاً من خلال الحرص على الحفاظ على حبالنا السُرّية، شكّلنا هرماً، يتربّع على قمّته فريدي، ويمسك راؤول وآماندين بكتفيّ.

أخبرتُ روز أنّنا هنا لكي نُعيدها إلى المنزل. أجابت: «من أجل ماذا؟». اعتبرت أنّ ساعتها قد حانت، وأنّه لا بدّ من إجادة التخلّص من الحياة، وأنّها راضية عن نهايتها لأنّها ماتت بعد أن نجحت في حياتها، ورحلت وهي سعيدة وقد أُنجِزَت مشاريعها. فماذا ستطلب أكثر من هذا؟

أجبتُها بأنّها قد ماتت قبل أن تُنجِبَ طفلاً وأنني أرغب في إنجاب طفلٍ منها. ردّت وهي تذكّرني بجملة كانت ستيفانيا تردّدها باستمرار: «المشكلةَ هي أنّ الناس يتصوّرون أنفسهم ضروريين على هذه الأرض ولا غنى عنهم وأنّهم غير قادرين على ترك كلّ شيء، يا له من غرور!»

اعتبرتْ أنّ العالم مأهولٌ بما فيه الكفاية لئلّا تكون متأسّفة على تركه من دون ذرية. وأخيراً، لكي لا تعود تسمع نصائحي، أطلقت ساقيها للريح واستخدمت مرفقيها لكي تتجاوز حشد الموتى المنتظرين.

وبهذه الطريقة، تجاوزنا، زوجتي ونحن في إثرها، جدار الغيبوبة الرابع ووصلنا إلى بلاد المعرفة.

ودون أن أسأل عن ذلك، عرفتُ لماذا ط = ك.س^2 (أي إن حاصل ضرب الكتلة في مربّع سرعة الضوء يساوي طاقته)، ووجدتُ ذلك باهراً. وفهمتُ لماذا تمزّقُ حروبٌ الإنسانية باستمرار. بل رأيتُ أين كانت مخبّأة مفاتيح سيارتي التي أبحث عنها منذ وقتٍ طويلٍ جدّاً.

حصلتُ على سيلٍ من الأجوبة على أسئلةٍ لم أطرحها على نفسي قط. فعلى سبيل المثال، كيف يمكننا أن نحتفظ بفقاعاتٍ في زجاجة شامبانيا فقط من خلال إدخال ملعقة فضّية في عنق الزجاجة. (وكان هذا دائماً بالنسبة إليّ لغزاً كبيراً!)

لقد أدركتُ أنّه يجب تقبلّ العالم كما هو، من دون شكوى، ومن دون الحكم على كائنٍ أياً كان. وأدركتُ أنّ الطموح الوحيد لكائنٍ بشري ينبغي أن يكون السعي المستمرّ إلى أن يصبح أفضل. لقد تمدّد ذكائي إلى درجة أنّه كاد يتسبّب في تفجير دماغي. أصبحتُ أفهم كلّ شيء، أفهم الحياة، والكائنات، والأشياء. – يا له من أمرٍ ممتع أن يفهم المرء كلّ شيء! مثلما كان آدم سعيداً بقضم تفاحة المعرفة وتلقّاها نيوتن على رأسه!

آه نعم، اللقاء مع المعرفة ربّما يكون الاختبار الأصعب من بين كلّ الاختبارات.

تقدّمتُ في المعرفة. المعرفة الكبيرة والمعرفة الصغيرة. المعرفة المطلقة والمعرفة النسبية. فجأةً، توقّفت، مصدوماً باكتشافٍ: لم يسبق لي أن أحببتُ

قط. بالتأكيد، شعرتُ بالشفقة، والإعجاب. كنتُ أشعر بالدفء بالقرب من أصدقائي، وبالقرب من الأشخاص الذين كنتُ أشعر بالسعادة لوجودي معهم والحديث معهم. ولكن هل أحببتُهم بالفعل؟ بل هل كنتُ قادراً على أن أحبَّ؟ أن أحبّ شخصاً عداي، شخصاً لا يكون أنا؟ قلتُ في نفسي إنّني بالتأكيد لستُ الوحيد في هذه الحالة وإنّه بالتأكيد هناك الكثيرون من البشر الذين لم يحبّوا قط في الحقيقة، ولكن هذا ليس سبباً. لا أرى في ذلك لا المبرّر ولا العزاء. إنّ تجربة الموت سوف تفتح على الأقلّ عينيّ على فكرة بدت لي على الدوام أنّها مشوبة بعاطفة سخيفة: يجب على المرء أن يحبّ لكي يكون سعيداً.

الحبّ هو السلوك الأناني الأكبر، الهدية الأجمل التي يمكن للمرء أن يقدّمها لنفسه. وحتى الآن، لم أكن قادراً على ذلك مطلقاً!

وماذا عن روز؟ ففي النهاية اعتقدتُ أنني أحبّها، طالما أنني أموت من أجلها. في الواقع، لا أحبّها بما فيه الكفاية. روز، إذا ما أخرجتُكِ من هنا، إذا ما خرجنا من هنا، سوف أهزمكِ بحبّي، بحبٍّ كبيرٍ وبلا مقابل! المسكينة، سوف تندهش بكلّ تأكيد لما يحدث لها. ليس هناك ما هو أكثر رعباً من حبٍّ كبيرٍ مبذولٍ على نحوٍ مفاجئٍ من شخصٍ جهد على الدوام لكي يكبت مشاعره. سوف يكون هذا مرعباً ولذيذاً في آنٍ واحدٍ! كم أتوق إلى أن أخبرها بذلك، أن أخبرها بأنني قادرٌ على أن أدرك ماذا يعني أن يحبّ المرء بالفعل!

أسرعت في حركة طيراني، وكذلك فعل الآخرون. كانت روز في نهاية النفق. بعد أن تزوّدت، مثلنا، بالمعرفة، عبرت جدار الغيبوبة الخامس ودخلت إلى بلاد الجمال المثالي.

هوب!

يا لها من صدمة!

بعد مواجهة الخوف، والرغبات، والمعرفة، ها هو البلد الأخضر المدهش، أزهاره، ونباتاته، وأشجاره البهيّة ذات الألوان الزاهية مثل أجنحة الفراشات. كيف يمكن وصف ما يفوق الوصف؟ لمحتُ وجهاً أنثوياً رائعاً، حلّقتُ فوق جسدها، فتحوّل إلى زهرةٍ ذات بتلاتٍ على شكل الزجاج

الملوّن للكاتدرائية. في بحيراتٍ شفّافة، ابتسمت لنا سمكاتٌ ذات زعانف شفّافة طويلة. وقفزت غزلانٌ بلون الرمّان فوق شفق القطب الشمالي.

هذه ليست هلوسات. إنّ الجمال المثالي يُخرج إلى السطح كلّ ذكرياتي عن الجمال ويجرّها إلى ذروتها. زملائي أيضاً لهم رؤاهم الخاصّة. رفرفت فراشات سوداء متوهّجة حول راؤول. ولعبت دلافين فضّية حول ستيفانيا. وحوصِر فريدي بغزلانٍ صغيرة خضراء وبيضاء ذات ظهورٍ مغطّاةٍ بالزبد. في مكانٍ ما، تردّدت أصداء معزوفة *مقدّمة ظهيرة جنّي الغابة* للموسيقار كلود ديبوسي. الجمال هو أيضاً الموسيقى. والعطورات. كنتُ أشمّ في كلّ مكانٍ ما يشبه روائح خفيفة ومنكّهة بالنعناع.

في الأمام، أبطأت روز سرعتها قليلاً، ثمّ انطلقت من جديد بلا هوادة نحو الضوء المركزي الجذّاب الذي أسرني أنا أيضاً لكثرة ما كانت أمواجه إيجابية.

وصلت زوجتي بهذه الطريقة إلى الجدار السادس. موخ 6. الجدار الذي لم ينجح أيّ مستكشف في العالم بعد في تجاوزه!

كما لو أنّها تُسرع في جريها نحو المجهول، وهي التي لم يعد أيّ حبلٍ سُرّي يعيقها.

هوب!

أصبحتْ على الجانب الآخر. أصبحت في *الأرض المجهولة*!

وجّهنا فريدي إلى أنّه علينا الآن أن نعدّل في وضعيتنا. طالبنا بتشكيل قاعدة واسعة تتبعها قمّة رفيعة. وأخبرنا بأننا، هو وأنا، فقط سنحاول العبور. هو، لأنّه خبيرٌ بيننا، وأنا، لأنني القادر الوحيد على إقناع زوجتي بالعودة.

شجّعني راؤول:

- هيّا! تقدّم بخطٍّ مستقيم، دائماً بخطٍّ مستقيمٍ نحو المجهول!

198. فلسفة صوفية

«أنا من هذه الروح التي هي أصل كلّ الأرواح

أنا من هذه المدينة التي هي مدينة كلّ من لا مدينة لهم
طريق هذه المدينة لا نهاية له، فاذهب، واخسر كلّ ما لديك،
هذا هو الكلّ.
وفي بحر العشق ذبتُ كالملح،
لم يبق لي كفرٌ ولا إيمان، لا يقين ولا شكّ،
يشعُّ في قلبي كوكبٌ،
وفي هذا الكوكب تختبئ السماوات السبع».

رباعيات، جلال الدين الرومي

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

199. ها نحن هنا

أثار فريدي إعجابي. تقدّم من دون تعقيد نحو تلك الحدود التي لم يسبق لأحدٍ أن عبرها. وإذ كان حبله السُرّي يُسحّب بصورة غير متناسبة، تقدّم بجرأةٍ، بينما كنتُ أجرجر قدميّ. كنتُ متعباً بعض الشيء من مفاجآت الموت. ومع ذلك، أحسستُ أنّ هناك في الخلف، يختبئ السرّ الأوّل، السرّ النهائي للموت.

سوف أعرف أخيراً السرّ الأكثر سريّةً. فمَن الذي تسبّب بالمزيد من الضحايا غير... الموت؟ هنا، خلف هذه الستارة، تنتهي كلّ قصص الإثارة، وروايات الحبّ. هنا، خلف هذه الستارة، ينضم الخيال العلمي إلى الخيال المحض وتندمج كلّ ميثولوجيات العالم مع العلم الدقيق.

تردّدتُ في البداية، ومن ثمّ اندفعتُ مسرعاً.

ها هي أخيراً، المنطقة الأخيرة من القارة الأخيرة.

أنا أراها الآن.

للحظةٍ، نسيتُ روز. لغز الألغاز، سرّ الأسرار، الذي لم يُكشَف قط للبشر، أنا أراك. أنا أراك، أشعر بك، أسمعك. هنا النهاية. هنا مقبرة الفيلة.

هنا يموت الضوء، تموت الأضواء كلّ الأضواء، الأصوات، كلّ الأصوات. الأرواح، كلّ الأرواح. الأفكار، كلّ الأفكار.

أنا في الفردوس.

انبعثت آلاف المقطوعات الموسيقية السماوية في رأسي. وجّهت لي شظايا نجومٍ تحيّات وداعٍ لطيفة. نجمةٌ ماتت ورجلٌ مات، سلكا نفس الدرب. إنّهما يذهبان إلى الفردوس.

سرتُ بين الضباب، وأنا أطأ بقدميّ الكبيرتين والمكتنزتين أرضاً نفيسة. وكانت ذراعاي الشفّافتان ترتفعان كما لو أنّهما تلقيان تحيّة. وانثنت ركبتاي من أجلِ ركوعٍ. قبّلتُ تلك الأرض الضبابية.

خطأً أو حبّاً، أنا في الفردوس. وكم هذا جميلٌ! أكثر جمالاً حتى من جميع مناظر الجمال المثالي للمنطقة السادسة. لم تكن تلك المناظر سوى تكرار وتقليد. الجمال الحقيقي للفردوس تفوّق عليها جميعاً.

الفردوس هو بلدي الوحيد، وطني الوحيد، الهدف الوحيد لشوفينيتي. أنا من هنا. بدا لي أنني عرفتُ على الدوام هذا المكان، وأنني عرفتُ أنّني جئتُ من هنا وعليّ أن أعود إلى هنا. على الأرض، هناك في الأسفل، في الأسفل جدّاً، لم أكن إلّا عابراً. في إجازةٍ. أنا إكتوبلازم، لم أكن على الإطلاق مايكل بينسون. لستُ إلّا محض إكتوبلازم. لم أكن قطّ ذاك الحزين، ذاك الغبي مايكل بينسون.

إنّ هذا الرجل في غاية الحماقة، في حين أنّ أناي الحقيقية خفيفة... جدّاً. الخفّة، هذه هي الفضيلة الأصلية. طموحي هو أن أبقى بخاراً مفكّراً. كنتُ متعلّقاً بالأرض وبجسدي. طيشُ شباب.

أرى الآن روز وأحبّها أكثر ممّا كنتُ أحبّها على الأرض. لماذا سوف ننزل من جديد إلى جلودنا الضيّقة، وأجسادنا الأليمة، وأدمغتنا المحشوّة بالمشاغل المروّعة؟ نحن الاثنين في أحسن حالٍ هنا. لم نعد نخاف من الزمن. لم نعد نخاف من أيّ شيء.

لا أكترث لمستكشفين ينتظرونني على باب الفردوس. إنّهم في غاية الحماقة في بقائهم هناك. أمّا أنا، فقد عثرتُ على بلدي وعالمي. إنّه اكتشاف

الاكتشافات. أنا الآن في مصدري الأصلي. أرى الشمس الحقيقية. وإلى جانبها، الشمس الأخرى، شمس سكان الأرض، تبدو لي شاحبة. الأبيض، الأبيض الحقيقي، الأبيض النقي لا يوجد إلّا في الفردوس.

أنا في الفردوس. وكنتُ قد جئتُ لكي أحمي روز منه، يا لها من سخرية!

تبدّد الضباب. ظهر تحتي رتل الموتى الطويل. إنّه يُشكّل ما يشبه نهراً يبدو، على مسافة أبعد، متفرّعاً. نزلتُ لكي أعاين الظاهرة عن كثب. كان نهر الأرواح يتفرّع في الواقع إلى أربعة فروع، ووسط الأرواح البشرية، أصبحتُ الآن أميّز أرواحاً حيوانية وحتى نباتية. لا شكّ أنّ للفردوس باباً ثانياً تلج الأرواح منه. هناك شقائق نعمان البحر، وطحالب، وشجر الثوم، وورود. النباتات أيضاً لها روح. وأعرف ذلك لكوني أفهم الآن كلّ شيء.

التوفيق المطلق بين الأديان. نحن جميعاً متضامنون بعضنا مع بعض، وعلى الأرض، عانينا جميعاً معاً. يجب أن نعيش متجنّبين كلّ عنف. عدم ممارسة العنف على الآخرين أيّاً كانت طبيعتهم، وكذلك عدم ممارسة العنف على أنفسنا. ولج قانون الوجود هذا إلى داخلي حتى بلغ أصابع قدمي. لم أكن إذاً إلّا هذا، كائناً بشرياً جاهلاً منذوراً لأن يصعد ذات يوم إلى الفردوس لكي يتفقّد جهله.

كان النهر الذي يفيض بأرواحٍ بشرية وحيوانية ونباتية يتفرّع إلى أربعة فروع. أيّ الكتب المكدّسة في مكتبة راؤول كانت قد ذكرت من قبل بلداً مرويّاً بأربعة أنهار؟ كان الهندوس يتحدّثون عن ذلك، واليهود أيضاً. عبرت جملٌ من ذاكرة راؤول ذهني: «الميثولوجيا العبرانية. يقع الفردوس في القبّة السماوية السابعة. يُفضي بابان إليه. يُدعى المرء للرقص والاستمتاع فيه. نرى أربعة أنهار. أحدها من الهواء، وأحدها من العسل، وأحدها من الخمر، وأحدها من البخور...» ويقول القرآن أيضاً إنّ «الفردوس مرويٌّ بأربعة أنهار».

من طرفٍ من العالم إلى آخر، كان الأقدمون يعرفون ويستخدمون الاستعارات لكي يصفوا نفس المشهد. أربعة أنهار. أربعة أنهار فرعية. أربعة أنماطٍ من الأرواح، وليس فقط الخير والشرّ، وإنّما أربع نغماتٍ مثل النغمات المنخفضة، والمتوسّطة، والحادّة، وفائقة الحدّة. أربع طرائق ليكون روحاً.

في أعقاب روز، صعدنا، فريدي وأنا، الأنهار الأربعة للموتى.
وعلى حين غرّة، لمحتُ الملائكة.

200. فلسفة مسيحية

«وسوف يرى الأبرار حينها بوضوحٍ حلّ الألغاز التي كان برهانها يؤكّد هنا في الأسفل على الحقيقة بخضوعٍ أليفٍ للإيمان. الثالوث، والتجسّد، والفداء، والقوانين المخفية للعناية الإلهيّة في حكم الأرواح، وفي حكم العالم وفي تأثيرها على الشعوب التي ظلّ تاريخها بالنسبة إلينا في معظم الأحيان إمّا لغزاً أو فضيحة طويلة الأمد. سوف يعرفون الاقتصاد الخارق لطرق الله من أجل تقديس من اصطفاهم والمعجزات اللامتناهية لجوهر الإله نفسه».

المونسنيور إيلي ميريك.
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

201. في الأقاصي

من بعيد، تخال لنا حشرات مضيئة.
ملائكة.
عرفتُ على الفور أنّها ملائكة.
ملائكة الفردوس.
كان العرض يستحقّ عناء الرحلة.

أمسكني فريدي من كتفيّ، وهزّني مثل شجرة خوخ. وصرخ فيّ قائلاً إنّنا أقسمنا على أن نُعيد روز إلى بلد الأحياء، لا أن نبقى معها في قارة الأموات. حثّني على ألّا أنسى مهمّتي. وقد أسر كلّ أفكاري باكراً. يتمّ التفاهم سريعاً جدّاً، بين الإكتوبلازمات!

تحدّث الحاخام وأعادني إلى رشدي. انتهى الهذيان. أيّها الموت، لقد سبق لي أن انتصرتُ عليك على هيئة امرأةٍ ذات فستانٍ حريريٍّ أبيض، لن تغويني أبداً، حتى لو ظهرت لي مثل فردوسٍ.

سُرّ فريدي لذلك. لقد أدرك أنّه قد أعاد الهدوء إلى روحي. حتى الفردوس سوف يكون أقلّ قدرةً من إرادتي. أنا أعرف منْ أكون. روحٌ نقيّة وجسدٌ شهواني، لم ينفصلا بعضهما عن بعض حتى هذه اللحظة. أنا روحٌ ومادّة، وينبغي للروح أن تبقى أكثر قوّةً من المادّة. عليّ أن أحافظ على التوازن بين القلب والعقل.

أنا أعرف منْ أكون. أنا أعرف منْ نكون. لسنا روحين بين أرواحٍ أخرى، بل مستكشفان في مهمّة. لسنا موتى، بل أحياء نستطيع أن نكتشفَ القارة الأخيرة ونعود منها. ونحن هنا لكي ننقذ روز.

اتّبعنا فرع «العسل» من نهر الموتى. اختلطنا بهم. كان الموتى ينظرون إلينا بانفعال لأننا كنّا لا نزال نحتفظ بحبالنا السُرّية. لا أعلم لماذا لم أقطعه حتى الآن، ولكن في كلّ الأحوال كان في حالةٍ جيّدة.

كانت الأرتال الأربعة طويلة جدّاً. سيكون بإمكاننا أن نتصوّر أنفسنا في مكتب مطارٍ مزدحمٍ في الفترة الصيفية.

صرختُ بصوتٍ عالٍ: «روز! روز!» وسمع عجوزٌ التهمته قططه الجائعة ندائي، وأشار إلى أنّها في الأمام، وأنّها بلا شكّ قد تجاوزت الرقابات، وهي تنتظر الآن أمام الميزان.

قال بلغة التخاطر، مستسلماً للقدر:

- إيه نعم. تلقى بعض الأرواح أحياناً التشجيع، فتقبض على أرواحٍ في حالة انتظارٍ في البلاد الخضراء منذ قرونٍ عديدة وتتجاوزها. لستُ أدري لماذا...

سألته:

- هل قلت إنّها تنتظر أمام الميزان؟

- نعم هذا صحيح. إنّها أمام الميزان ليتمّ وزن روحها. يريدون أن يفحصوا ما ارتكبته من خيرٍ وشرّ في هذه الحياة قبل أن يُتّخذ القرار بتناسخها الروحي المقبل.

- وأين يقع موقع هذا الميزان؟

- إلى الأمام بخطٍّ مستقيم مباشرة. لا يمكن أن تخطئ الطريق. اذهب دائماً بخطٍّ مستقيم.

202. فلسفة طاوية

«يحبّ الحكيم هذه الحياة طالما أنها مستمرّة، ثمّ ينساها من أجل حياةٍ أخرى. أمّا صاحب الروح الشاملة فيحتفظ بأناه أينما يذهب.

النار في حزمة الحطب كما الروح في الجسد. تنتقل النار إلى حزمة حطبٍ أخرى كما تنتقل الروح إلى جسدٍ جديد. تنتشر النار إن لم يتم إطفاؤها. الحياة تستمر دون توقّف».

جوانغ زي

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

203. استمارة شرطة

ملاحظة إلى الجهات المختصّة:

لقد رفضتم التدخّل من أجل توقيفهم. الآن، هم هنا. نأمل ألا يكون الأوان قد فات. عليكم أنتم أن تتدبّروا أمركم.

جواب من الجهات المختصّة:

سوف نتدبّر أمرنا.

204. ثقل روحٍ

تخبّطنا، فريدي وأنا، في الضباب الأبيض، بين الأرواح البشرية وغير البشرية. ذهبنا نحو وادٍ تلتقي الفروع الأربعة للنهر فيه. شاهدنا الموتى يتقدّمون دائماً نحو النور، تحيط بهم الملائكة عن قربٍ أكثر.

كانت الملائكة، سابقاً، إكتوبلازمات مثلكم ومثلي. لم تكن لها حبال سُرّية ولكنّها كانت مغلّفة بهالةٍ فوسفورية تعبرها أضواء متعددة الألوان. نَظرت إلينا وتلوّنت هالتها ببريقٍ جديدٍ ورائعٍ بألوان قوس قزحٍ، كما لو أنّها كانت قادرة على التعبير عن أفكارها مغيّرة ألوانها بكلّ بساطة.

حامت من الأسفل إلى الأعلى ومن اليسار إلى اليمين، مثل أجنّة في رحم الأمّ، وسألتنا عمّا نفعله هنا بحبالنا السُرّية السليمة.

– نبحث عن امرأةٍ.

أخبرني ملاكٌ بأنّه هو من يسمح بالعثور على المفقود.

وصفتُ له روز. أكّد أنّها قريبة من الميزان. دلّني على جبلٍ بعيدٍ مكوّنٍ من نورٍ مغطّى بالأبخرة، يطلّ على الوادي الذي تلتقي فيه الفروع الأربعة للنهر. ومن قمّة هذا الجبل ينطلق الوميض المركزي الذي يقودنا لحظة دخولنا إلى الفردوس.

تسلّقنا مع الموتى المسار الذي يؤدّي إلى النور. حلّقت فوق قمّة الجبل ثلاثة ملائكة ذاتِ هالات أكثر ضياءً من هالات الملائكة السابقة.

همس لي فريدي:

– هذه ليست ملائكة كسائر الملائكة، هذه ملائكة سامية.

في الواقع، كانت تشعّ نوراً، في حين كان حشد الموتى يقترب منها بصعوبة، بخطوات قصيرة.

دلّني الحاخام على روز، فوقنا، غارقةً في ضوء الجبل وبريق الملائكة السامية. وفي الأسفل، احتشد الموتى على منصّةٍ، وهم يمثلون أمام محكمة.

أعلن ملاكٌ سامي:

– إلى التالي.

التالي، هي روز.

حثّني حاخامنا:

– هيّا، أقنعها بأن تدعَها تغادر.

هو لم يعد بوسعه أن يتبعني. أمسك بحبلي السُرّي كما أمسك بحبله، مشدوداً جدّاً بحيث بدا أنّه على وشك أن ينقطع.

كنّا بالفعل نلعب بحيواتنا. كان عليّ أن أواصل وحدي، بينما سيحرص هو على الحفاظ على حبلينا السُرّيين.

طِرتُ نحو الملائكة السامية، وأنا أنادي صارخاً:

– انتظري! قبل أن تحاكمي هذه المرأة، عليّ أن أخبركِ بأننا، معشر الأحياء، لا نُريد لها أن تُحاكم أمامكِ.

نظر إليّ الملاك السامي دون أن يتفاجأ. كان صوته التخاطري هادئاً ومطمئناً. بدا أنّه منفتح على كلّ الآراء والحجج. لم يكن لوكيل الموت هذا ما يبعث على الخوف. بل بذل جهده لكي يُريحني في الوقت الذي كان الموتى يتجمّعون في الأنحاء من حوله.

– هيّا اشرح وجهة نظرك.

– ماتت روز، ضحيّة لعصابة من السوقيين، ولكن ليس لديها ما تفعله هنا.

كان الملاكان الساميان الآخران أيضاً لطيفين تماماً. وسط هذا الوضوح، ذكّروني إلى حدّ ما بالمخلوقات الفضائية الغريبة في فيلم ستيفن سبيلبرغ *لقاءات قريبة من النوع الثالث*.

سألتني بأيّ حقّ أسمح لنفسي بالتدخّل هنا. تفحّصَت الحاخام خلفي وحبالنا السُرّية السليمة.

– تُريدون أن تُعيدوها إلى الأرض، أليس كذلك؟

– نعم. نحن أربعون شخصاً من الأحياء صعدنا حتى نصل إليكِ لكي ننقذها.

اجتمعت الملائكة السامية الثلاثة لكي تجري مناقشة مكثّفة. أفرد أحدها خيطاً شفّافاً مليئاً بالعقد وبدا أنّه يقرأ فيه عدداً من المعلومات المهمّة.

أمعن النظر فيّ، وأمعن النظر في روز، ثمّ تحدّث مرّة أخرى مع الملاكين الآخرين وتحدّث أخيراً، قائلاً:

– أن يعرّض أربعون كائناً بشرياً أنفسهم للمخاطر دليلٌ على أنّ هذه المرأة لا تزال بالفعل ضرورية لعالمكم السفلي. إذاً، سوف نسمح لكم بأن تُنزلوها، ولكننا لن نُعيد إليها حبلها السُرّي إلّا إذا رغبت هي في ذلك وطلبته بنفسها.

تردّدت روز. من الآن فصاعداً، بات مصيرها بين يديها. لاحظتُ أنّ عقلها سوف يتخلّص طواعية من لعبة الحياة. تصوّرت أن هذا المكان هو بلدها الحقيقي، وطنها الوحيد، مثلما تصوّرتُ أنا أيضاً ذلك في وقتٍ سابق. وفي نفس الوقت، كان شيءٌ ما، ربّما الحبّ الذي تكنّه لي، يكافح ضدّ هذا الشعور.

كان موتى وملائكة ينتظرون من حولنا باهتمام ليروا إلى أيّ جانبٍ سوف تميل كفّة الميزان.

غمغم هارا كيري ياباني:

- يا له من حظّ أن تكون امرأةٌ محبوبة إلى هذه الدرجة من إنسانٍ!

أيّد طفلٌ شهيد ذلك.

أشار ملاكٌ إلى أنّ هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها موقفاً معقّداً كهذا.

وأشاد آخر بقرارهم بأن دعونا نصعد إلى هنا. كان الوضع مثيراً للاهتمام.

حدّقت روز في الملائكة السامية، لكنّها رفضت التدخّل في قرارها. إذا ما رغبت في ذلك، سوف تتمّ عملية حساب وزن روحها بالميزان. وإلّا، فهي حرّة في الالتفاف إلى الوراء وفي استئناف مسلسل حياتها، بأفراحها وأتراحها، بأفعالها الحسنة والسيّئة. فالمرء هو المسؤول الوحيد عن مصيره.

في مكانٍ أعلى قليلاً خلفنا، كان فريدي يراقب ما يحدث. من بعيد، كان يُخال للمرء أن مراسم زواجٍ تجري في كاتدرائية بيضاء رائعة. يقف زوجان، روز وأنا، وجهاً لوجه ويصطفُّ وخلفنا رتلٌ طويل فضيّ اللون من المدعوين، وينتصبُ أمامنا جبلٌ من النور.

تقدّمت روز خطوةً نحو الملائكة السامية، ثمّ خطت خطوة ثانية بنفس الاتجاه. حبستُ أنفاسي، وعلى حين غرّة، استدارت استدارة كاملة، وارتمت بين ذراعيّ.

قالت:

- اعذروني، ولكن لا يزال هناك الكثير من الأشياء التي عليّ أن أنجزها في الأسفل على الأرض.

أُصيب بعض الملائكة بالدهشة وتغيّر لونهم. وأصبح المشهد، الذي كان يمثّل حتى الآن مظهراً أصفر اللون فاتحاً، أكثر زرقةً. ابتسمت لنا الملائكة السامية، بحنانٍ. ظهرت ملائكةٌ صغيرة مثل اليعاسيب. برز حبلٌ سُرّي، لم أميّز طرفه، من بطن زوجتي ليمتدّ نحو مدخل الثقب الأسود. لقد أُعيد توصيل روز. من جديد، ربط حبلٌ سُرّي روحها بجسدها.

انضممنا إلى فريدي. وقد عرف أنّنا نجحنا.

حيّانا بعض الموتى:

- عودة سعيدة إلى العالم المادي، أيّها الصبيان!

تنهّد قاتلٌ مضطّربٌ نفسياً، أمريكي الجنسية، كان قد أُعدِمَ على كرسيٍّ كهربائي:

- سوف يحتاجان إلى ذلك العالم. أمّا أنا، فسوف أفضّل أن أُهلك على أن أعود إلى العالم الماديّ. إذا أردتم رأيي، الحياة ليست سوى وادٍ من الدموع.

لم نصغِ إليه. كان الإياب بالطبع أكثر متعةً من الذهاب. لم نعد نخشى من أن تنقطع حبالنا السُرّية. نزلنا الجبل الضوئي، وسرنا على طول الفروع الأربعة لنهر الموتى، ثمّ بمحاذاة النهر المتّحد. مثل أسماك السلمون، كنّا موتى نسبح بعكس التيار ونعود إلى المنبع ولا نبارحه إلّا لكي نعود إليه على نحوٍ أفضل فيما بعد.

خلف جدار الغيبوبة السادس، كان كلّ أصدقائنا هناك ويحيّون ذهنياً عودتنا. طيلة هذا الوقت، كانوا ينتظرون، قلقين من رؤية الشدّ الأقصى لحبالنا السُرّية، خائفين من ألّا يعود بوسعنا أن نستدير ونعود.

أتاح لنا راؤول، وستيفانيا، وآماندين، ورهبان صينيون، وحاخامات معرفة عمق الحياة وملامسة قاع الموت، ورفرفوا جميعاً بفرح. سوف نعبر من جديد المناطق والموخات.

سار بالتتالي الجمال، والمعرفة، والصبر، والمتعة، والخوف.

خرجنا تقريباً من الثقب الأسود. في الخارج، تلألأت النجوم بخفوتٍ، مقارنةً بالضوء الهائل في الأسفل، في القاع. كنّا نرفرف سعداء، عندما ظهرت فجأةً زمرةٌ من الإكتوبلازمات المخيفة.

205. فلسفة هندوسية

«الإنسان يشبه غطاء وسادة. غطاء قد يكون أحمر اللون، وآخر أسود وهكذا دواليك، ولكنّ الأغطية كلّها تحتوي على نفس القطن. هذا الأمر

ينطبق على البشر أيضاً: يكون أحدهم جميلاً، والآخر قبيحاً، والثالث ورعاً، والرابع شرّيراً، ولكن الله نفسه يسكنهم جميعاً».

راماكريشنا

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

206. خلل

تصوّرنا أنّنا قد تصالحنا مع شيخ الجبل، المحروم من الآن فصاعداً من حشّاشيه المقتولين وحلفائه الذين عادوا إلى رشدهم. ولكن الأمر لم يكن كذلك بتاتاً. بعد بعض المجاملات في محطّتنا لإطلاق المستكشفين، عادت طبيعته بأسرع ما يُمكن. ولعدم وجود مستكشفين مسلمين، في الوقت الحالي وقد عُقِدَ التحالف الكبير بين الأديان، أعاد جمع مجموعة صغيرة من المستكشفين المرتزقة.

أخبرنا تخاطريّاً بأنّ المسكونية ليست سوى فخٍّ لتنويم كلّ الأديان والمذاهب والسماح لليهود بأن يغزوا الفردوس على نحوٍ أفضل.

ردّ فريدي بأنّ لا أحد يمتلك القارة الأخيرة وأنّه من الطبيعي أن يتفاهم قساوسة لكي يدينوا كلّ عنفٍ. ردّ آخر الحشّاشين بأنّه يعرف كلّ الحيل الشفوية التي يُجيدها الحاخامات وبأنّه لن يدع نفسه يُخدَع بها مرّة أخرى.

استمتعتُ باكتشافي، بين مجموعته، مارتينيز الضخم، عدّونا في أيام طفولتنا، الذي كان قد تقدّم بطلبه ليكون مستكشفاً مرشّحاً في زمن المذابح، والذي رفضنا طلبه آنذاك دون أن يعترف بنا. كان يكرهنا الآن، لا سيما أننا كنّا قد أنقذناه من موتٍ محقّقٍ آنذاك. هذا أمرٌ غريب، ولكنّ الناس الذين أضرّوا بك يحقدون عليك لما فعلوه بك. وإذا ما أسديت لهم علاوة على ذلك خدمةً، يزداد حقدهم عليك ولا يعود يعرف حدوداً.

كان عدد المرتزقة أكبر من عددنا، وهذا ما جعلني أخاف كثيراً. سيكون من الحماقة أن نموت بهذه الطريقة بعد كلّ ما أنجزناه!

لكن فريدي يعرف أنّ شيخ الجبل لا يكره في الواقع سواه. بالضبط لأنّه

سعى إلى أن يفهمه ويتّخذه صديقاً بعد أن حاول هذا الأخير أن يقتله، يقتله هو وأهله. تصرّف الحشّاش بالضبط مثل أيّ مارتينيز آخر.

ولكي يحمينا، حلّ الحاخام عقدة حبله السُرّي وانفصل قبل أن نتمكّن من منعه من ذلك، حاول أن يقوم بمناورةٍ تمويهية.

أمرنا، قائلاً:

– اهربوا بسرعة. إذا ما بقينا معاً، لن يعود أحدٌ منّا.

تردّدنا في تركه ولكنّ حركاته التخاطرية كانت آمرة على نحوٍ صارمٍ بحيث انتهينا إلى الامتثال لأوامره، آخذين بالقوّة آماندين التي أرادت أنْ تُقاتل بأيّ ثمن إلى جانب زوجها.

صرخت آماندين:

– فريدي!

– ارحلي، دعيني وشأني، سوف أصبح بارّاً مخفيّاً.

وعلى طريقة حبلٍ إكتوبلازميّ ذي أنشوطة، دوّم بحبله السُرّي الفضّي، في حين انهال المرتزقة عليه.

– فريدي!

وجّه لنا العجوز الحكيم إشارات مطمئنة.

دوّت أصداء رسالة أخيرة في آذاننا:

– غادروا! سوف أولَدُ من جديد حالما يكون ذلك ممكناً. ترقّبوا ولادة طفلٍ سوف يحمل نفس الأحرف الأولى من اسمي. سوف يتعرّف على أشيائي المألوفة. اهربوا وتذكّروا: ف. م!

تلقّى ضرباتٍ، وردّ بمثلها. من خلال خبرته في حروب الفردوس، نجح الحاخام العجوز الأعمى في أن يقطع سريعاً الحبال السُرّية لبعض مهاجميه قبل أن يتمكّنوا من إخفائه.

حاولت ستيفانيا أن تتدارك الأمر، وأرادت أن تقتحم جمع المهاجمين، فلحقنا بها ولكن الأوان كان قد فات. فقد قطع شيخ الجبل حبل فريدي السُرّي.

بدرت حركة قدرية أخيرة من الحاخام ثمّ سُفِط من قبل النور. والتفت حينئذٍ المرتزقة نحونا للانقضاض علينا.

قال راؤول:

- أنت وأنا ضدّ الأغبياء.

بالأيدي المجرّدة، قاتلت آماندين ضدّ مارتينيز بشجاعة. وجابهت روز روحين عدوانيتين. وتولّى راؤول أمر بعض القتلة المأجورين. أمّا أنا، فلم أكن محظوظاً، ووجدتُ نفسي وحيداً في مواجهة شيخ الجبل شخصيّاً!

لم يرد الرجل لي الخير.

تحاشيتُ ما في وسعي بعض الضربات. وكان الآخر مرتاحاً مع خصمٍ ضعيفٍ جدّاً مثلي. لفّ حبلي السُرّي حول رقبتي كما لو أنّه يريد أن يخنقني. شدّ الحبل وتألّمت روحي. برم حبلي إلى أقصى حدّ. كنتُ أنتظر الفرقعة التي سوف ترسلني نحو الملائكة السامية عندما ارتخى الطوق. بعد أن تخلّصت بسهولة كبيرة من مارتينيز، وصلت آماندين من الخلف وقطعت الحبل السُرّي للحشّاش العنيد. ذُعِرَ الرجل ممّا حدث له: لقد هزمته امرأة.

من كثرة ما أرسل أناساً إلى الفراديس الاصطناعية، ظنّ أن الفردوس الحقيقي لا بدّ أن يكون أقلّ تسامحاً. حاول يائساً أن يعيد ربط أنسجة حبله الفضّي، وهو يُراكم العقد المزدوجة وعُقَد الأمان. ولكن في الموت، كما في الحياة، لا يوجد جوكر. ربّما للقطط سبع أرواح، ولكن البشر ليسوا كذلك. إذا ما فُقِدَ، فُقِد. لم يكن هناك جدوى من أيّ عقدة من عُقد الحشّاش.

هوب!

سُفِطَ شيخ الجبل من قبل النور مثل فتات طعامٍ ينسلّ من فوهة مغسلة. ولاذ المرتزقة الناجون بالفرار.

تنفّسنا الصعداء. ترجّتنا آماندين أن نحاول إنقاذ زوجها مثلما فعلنا من أجل روز، ولكننا كنّا نعلم جميعاً أنّ الأوان قد فات على فعل أيّ شيء من أجل فريدي.

غادرنا، متأسفين، دوّامة الفردوس. وصلنا إلى الحافة الواسعة للثقب الأسود حيث كانت نجوم متوهّجة تُرسل آخر أشعّة احتضارها قبل أن تُسفَط.

في طريق الهبوط، رأينا من جديد النظام الشمسي، وتعرّجنا بين الكواكب، وألقينا من جديد تحية الصباح على روّاد الفضاء الروس الذين لم يكونوا قد تقدّموا عملياً منذ مرورنا الأوّل. عبرنا حقلاً للنيازك، وكبحنا جماح تقدّمنا بالقرب من القمر. وقد ظهرت الكرة الفيروزية للأرض تحت بطوننا. ها هي أوروبا، ها هي فرنسا، ها هي باريس. من المستحيل أن نتوه. فحبلك السُرّي سوف يقودك على الدوام إلى نقطة انطلاقك.

حينما أصبحنا في أمانٍ فوق العاصمة، فككنا عقد حبالنا السُرّية ورافقنا إكتوبلازم روز إلى مستشفى سان لويس. اخترقت السطح كما لو أنّها تغوص في مستنقعٍ. تمنّيتُ ألّا يكون هروبنا الطويل جدّاً قد تسبّب لها بإصابات بالغة لا شفاء منها!

أمّا نحن، فقد عدنا إلى محطّة إطلاق المستكشفين. لم أستطع أن أصدّق أنّ شخصيّتي الثانية ظلّت هنا، جالسة بهدوء تامّ، في حين كنتُ أنخرط هناك في الكثير من الحركات البهلوانية الخارقة!

عبرنا مرّة أخرى السطح، والطوابق، والأرضيات، وعدنا إلى أجسادنا الأليمة.

أصبح إكتوبلازمي وغلافي الجسدي متقابلين وجهاً لوجه. الشفّاف والملوّن. الصلب والبخاري. الخفيف والثقيل. ومن المهمّ الآن أن نعيد لصقهما. دخلتُ إلى غلافي كما لو أنني أحشر نفسي في بدلة مبطّنة بالفراء خاصّة بالتزلّج على الثلج. لم يعلّمني أحد كيف يلج المرء جلده القديم، فارتجلتُ ذلك، وبمحض المصادفة، ولجتُ من أعلى جمجمتي لأنني كنتُ قد خرجتُ من نفس المكان.

ليس الأمر بتلك المتعة الكبيرة أن يستعيد المرء جسده المكوّن من لحمٍ ودم. وشعرتُ في الحال بمعاناتي من الروماتيزم، وبالدمامل التي في جَسَدي، وبالحكّة، وبتسوّس أسناني، باختصار بكلّ تلك الآلام البسيطة التي تلاحقك على الدوام.

هأنذا من جديد أتّحد مع نفسي. لم نعد سوى شخصٍ واحد، جسدي وروحي. وبدأ الوخز ينتاب أصابع قدمي.

رفعتُ ببطءٍ أجفاني. أعدتُ اكتشاف العالم «الطبيعي» وفي هذا العالم «الطبيعي»، كان أوّل ما رأيته شاشة جهاز تخطيط القلب الكهربائي وأذرعه الصغيرة. ازدادت سرعة نبضات قلبي تدريجيّاً.

عندما استعدنا جميعاً قوانا، سارعتُ إلى الاتّصال بالمستشفى. كانوا على وشك أن يتّصلوا بي من هناك. كان الأطباء متحمسين جدّاً. معجزة، لقد حدثت معجزة! لقد استيقظت روز على نحوٍ مفاجئ. وهي في كامل وعيها. كانت في حالة جيّدة.

انضممتُ إلى الآخرين، المجتمعين في حزنٍ حول الأريكة التي يرقد فيها فريدي، فاغر الفم، كما لو أنّه يريد أن يكرّر علينا على نحوٍ أفضل الأحرف الأولى من اسم الطفل الذي سوف يتناسخ روحياً فيه. ف. م.

كانت عيناه الزجاجيتان لرجلٍ أعمى مفتوحتين على وسعهما. اقتربت، وبكلّ لطف وحنان، أغمضتُ أجفانه.

إلى الأبد في هذه الحياة.

العصر الثالث

عصر المحترفين

207. تعليم لعبة التاروت

الموت هو الورقة الثالثة في لعبة التاروت. وهو يشكّل في الواقع انقطاعاً في سلسلة صور التاروت. الأوراق الاثنتي عشرة الأولى هي مثل الساعات الاثنتي عشرة الأولى من النهار. إنّها تمثّل «الأسرار الصغيرة».

بعد مرور الساعة الثانية عشرة، عند الظهيرة، يظهر الموت، والغوص في بعدٍ آخر، وهو بُعد «الأسرار الكبيرة»، أي الساعات الاثنتي عشرة الأخرى من النهار.

بالمعنى الخفي العميق، السرّ الثالث عشر يعني موت الدنيوي الذي سوف يُولَد من جديد مطّلعاً. الورقة ليست شرّيرة.

إذا لم يستطع المرء أن يجتاز مرحلة الموت، لا يمكنه أن يرتقي.

هذا هو معنى تاروت مرسيليا.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

208. كتاب التاريخ المدرسي

معتقدات أسلافنا

استطلاع للرأي أُجري في أوروبا، في عام 1981 (أواخر الألفية الثانية)

بشأن معتقدات السكان، مصنّفة حسب دياناتهم المختلفة. (المصدر: قيم الزمن الراهن، جان ستوتزل، دار المطبوعات الجامعية الفرنسية، 1983)

من أصل مئة شخص، يؤمن:	الكاثوليكيون	البروتستانتيون	غير المتدينين
بالحياة بعد الموت	52	38	13
بالفردوس	45	43	8
بالجحيم	30	16	3
بتناسخ الأرواح	23	21	12
بالروح المنفصلة عن الجسد	66	56	24
بالله	87	75	23

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

209. الإنجيلية

– الإيمان بوجود... الملائكة! ومن ثمّ ماذا أيضاً؟

نهر روبيكوني ذاك، كان أخي كونراد يرفض عبوره. كانت شكوكيته وماديّته الطبيعية قد أُخضِعَتا لامتحانٍ قاسٍ. رفض أن يتقدّم أكثر في هذا الهذيان المعاصر الذي أسميناه الثاناتونوتية.

بكلّ تأكيد، كان من الصعب بعض الشيء هضم فكرة وجود الملائكة. وفي الحقيقة، لو أنّ أحدهم قال لي سابقاً إنّه بعد الموت، سوف تستقبلك الملائكة، لابتسمتُ بلطف ساخراً من القائل. بكلّ صدق وصراحة، ما كنتُ لأستطيع أن أؤمن بمقدار مثقال ذرّة بكلّ هذه الأشياء التي عشتها بحواسي.

كان كلّ شيء «مدهشاً» للغاية.

بيد أنّ القبول بأنّ الموت قارةً كانت المرحلة الأصعب بالنسبة إلينا، وقد تجاوزناها. فقد أقررنا بأننا موهوبون بروحٍ قادرةٍ على الترحال. وكنّا قد أقررنا أيضاً بأنّ هذه الروح غير مادية. وأقررنا بأنّ حبلاً سُرّياً فضيّاً يربط هذه الروح بغلافنا الجسدي. وبالتالي، لمَ لا تكون هناك ملائكة؟ ففي نهاية المطاف، جميع الأديان ذكرت ذلك بطريقةٍ أو بأخرى.

ترجّانا الرئيس لوسيندير أن نحتفظ بالسرّ الأكبر حول اكتشافاتنا الحديثة. في هذه اللحظة، كان الأمر المهمّ هو أن نُخفي ما كنّا نعرفه حول القاع السحيق للفردوس.

– وهؤلاء الملائكة، يا لها من حكاية! لم يكن ينقصنا سوى هذا. ولماذا لم تكتشفوا الله، أثناء وجودكم في الفردوس؟

كان يعتبرنا أنّنا نحوز على قنبلة يجب تأخير تفجيرها وآثارها. ثمّ انتابت الرئيس نوبة غضبٍ حينما علم باغتيال الحاخام ماير من قبل شيخ الجبل ومرتزقته.

– من يكون هذا المعمّم الذي لا يعرف سوى لغة العنف والإقصاء؟ هل يريد أن يخوض الحرب ضدّ الكفرة، هناك في السماء؟ لن نسمح له بأن يُقرصن الفردوس.

قال راؤول:

– لقد مات. لقد حدثت مبارزة رهيبة، ولكن مايكل وآماندين تمكّنا منه وقتلاه.

صرخ لوسيندير، من خلف مكتبه المصنوع من خشب الأكاجو:

– أيّاً يكن، لقد ضقتُ ذرعاً بالحروب الدينية! نحن في القرن الحادي والعشرين، ولم نعد في القرون الوسطى. لن نتسامح أبداً مع التعصّب الديني. دعوني أتصرّف.

210. ميثولوجيا هندوسية

«يهدف الإنسان إلى الخلاص.

إنّ تكرار تعويذة *هاري كريشنا* خمسة وثلاثين مليون مرّة يسمح بالتحرّر من أسوأ الخطايا، وهي:

– قتل رجلٍ من الطبقة العليا من البراهمة؛

– سلب ممتلكات الآخرين؛

– تخزين واحتكار الذهب؛

- النوم مع امرأة من الطبقة الدنيا من الفئات المنبوذة.

حتى وإن ناقض المرء كلّ قوانين الدارما[1]، فسوف يحصل بهذه الطريقة على البراءة والخلاص.

كالي سانتارانا أوبانشاد

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

211. أمم متّحدة

منذ الأسبوع التالي، ألقى السيّد جان لوسيندير، رئيس الجمهورية الفرنسية، خطاباً أمام الجمعية العامّة للأمم المتّحدة. وقد شدّد في كلمته على ضرورة إشاعة السلام في القارة الأخيرة، في الوقت الراهن حيث أصبحت الثاناتونوتية أكثر شيوعاً وغدت جزءاً من العادات. بعد عصر الحرف اليدوية، وعصر الطبّ، وعصر الخوف، وعصر الرغبة، والعصر الاقتصادي، والعصر الفلكي، وعصر العنف، حان الآن وقت الدخول إلى العصر القانوني.

على المشرّعين أن يتحمّلوا مسؤولياتهم. يجب أن تخضع الثاناتونوتية إلى ميثاقٍ، بقوانينه، وتعديلاته، وشرعته في حسن السلوك الإلزامي. وإلّا، لن يكون هناك سوى فار ويست دائمٍ فوق رؤوسنا.

علّق مندوب غينيا الاستوائية، محبَطاً:

- لقد سبق أن صوّتنا على قانونين حول الثاناتونوتية، وماذا كانت النتيجة؟!

وأمام حضورٍ شارد الذهن، اقترح بقوّة مادتي قانونٍ سوف تُعرفان لاحقاً بالقانونين الثالث والرابع بشأن الثاناتونوتية.

المادة 3: يُمنَع قطع الحبل السُرّي لأيّ إكتوبلازم مهما كان.

المادة 4: سوف يكون كلّ جسدٍ مادّي مسؤولاً عن نشاطات إكتوبلازمه.

وكان يلي ذلك جدولٌ خاصّ بعقوبات السجن والغرامات المتناسبة مع الجرائم المرتكبة من قبل الإكتوبلازمات.

1- دارما: القانون الطبيعي، وهو مصطلح يشير إلى الترتيب الخفي في الطبيعة والحياة الإنسانية وسلوك المخلوقات والحياة التي تسير وفقاً لهذا النظام والترتيب. المترجم

كان رئيس الجمهورية الفرنسية حاسماً: يجب أن تبقى القارة الأخيرة منطقة محايدة، على غرار القارة القطبية الجنوبية. لا يجوز لأحد أن يسمح لنفسه بالقتال فيها أو بإطلاق حملات السيطرة عليها.

أيّده الأمين العام للأمم المتّحدة، وأضاف:

– الفردوس ملكٌ للجميع. وإذا قضت الضرورة، سوف نرسل إليه قوّات من القبّعات الزرق مكلّفة بالحفاظ على السلام وضمان حرية التنقّل للموتى والمستكشفين.

جرى همسٌ يعبّر عن الاندهاش في القاعة. رفع مندوب جزر فيجي رأسه عن صفيحته، وقفز ممثّل سورينام، خارجاً من سُباته.

واصل الأمين العام حديثه، قائلاً:

– أجل، ولـمَ لا؟ ففي نهاية المطاف، كان شيخ الجبل قد أعدّ جيشاً خاصّاً لكي يستولي على المكان. وبالتالي علينا جميعاً أن نفعل ما بوسعنا من أجل إرسال قوّة الفصل الخاصّة بنا، في إطار القبّعات الخضراء الإكتوبلازمية. قوات شرطة كارماوية، بشكلٍ من الأشكال.

تمّ تبنّي القانونين الثالث والرابع بأغلبية كبيرة من الأصوات. وقد صوّتت قرابة عشرين دولة ضدّ القانونين أو اختارت الامتناع عن التصويت لكي لا تخلق مشاكل لنفسها مع المملكة العربية السعودية التي يعرف الجميع أنّها كانت قد شجّعت وموّلت عمليات شيخ الجبل.

ومن جهة أُخرى، رُفِضَ مقترح تشكيل شرطة كارماوية. إذ لم يكن هناك في الوقت الراهن أيّ عنفٍ في الفردوس يُبرّر عملية كهذه تُجازف، في الواقع، بأن تكون مكلفة للغاية. بالإضافة إلى ذلك، كان هذا المقترح يطرح بعض المشاكل «الأرضية» الناجمة عن أيّ عملية إرسال قوات من القبّعات الزرق: هل ستكون هذه القوّات مخوّلة بأن تقتل في حال الضرورة، أم أنّ هذه القوات لن تكون هناك إلّا في سبيل منع القتل؟ وفي مكانٍ كهذا، يا لها من أحجية! وفي النهاية آثرت الوفود التخلّي عن هذا المشروع بشأن جيش إكتوبلازميٍّ تابعٍ للأمم المتّحدة.

كان لوسيندير محقّاً في نقل قضية المعارك الإكتوبلازمية إلى الميدان

القانوني. إنّ مثيري المشاكل في القارة الأخيرة سيكونون من الآن فصاعداً على هامش الإنسانية. وعلاوة على ذلك، من خلال القوانين الثاناتونوتية، نالت نشاطاتنا أخيراً اعترافاً رسمياً. كان الكثيرون يشكّكون في أننا قد تجاوزنا موخ 6، ولكن كنّا نقابل كلّ الأسئلة بالصمت المُطبق.

في المتجر الواقع أسفل محطّتنا، كانت أمّي تسوّق الآن مخطّطاً كاملاً للقارة الأخيرة، بأبوابها الستّة ومناطقها السبع المعروفة. كان إجمالي مخطّط القارة يشبه إلى حدّ ما بوقاً، مع قاعدة مفتوحة على نحوٍ واسع، وقمّة حادّة. وكانت الألوان ممدّدة بالترتيب: الأزرق، الأسود، الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأبيض. كانت الخريطة بالفعل جميلة وممتازة لتزيين الجدار من قبل عالمٍ ناشئ أو حالمٍ نادم.

وعلى سبيل الأسطورة، كان كونراد قد شطب بخطٍّ كلمتي *الأرض المجهولة*. ألم نكن قد اكتشفنا كلّ (فعلاً كلّ؟) هذه المنطقة البعيدة؟

بكلّ تأكيد، كنّا نشير إلى منطقةٍ بيضاء، ولكننا كنّا نمتنع عن الحديث عن الملائكة أو عن جبل النور. كان لا يزال من المبكّر جدّاً الحديث عن ذلك.

في الشقّة الواقعة على سطح محطّتنا في بوت شومو، كان فريقنا يعقد اجتماعه الألف.

وإذ لم يعد فريدي بيننا لكي يُدلي بشهادته، كان كلّ واحدٍ من الحاضرين ينهال عليّ بالأسئلة حول ما كان يُسمى «وزن الروح»، وبالطبع تناسخ الروح الذي يعقب ذلك.

رويتُ وأنا أُعيد مراراً وتكراراً كيف أننا لامسنا قاع الفردوس، والرتل اللامتناهي للموتى المنقسم إلى أربعة فروع، والسهل الفسيح الأبيض، وجبل الميزان، ورؤساء الملائكة – القُضاة الثلاثة.

– لقد رأيتُ ولكن لا يكفي أن نرى، بل يجب أن نفهم.

ولأنّ كلّ هدفي كان إنقاذ زوجتي، لم أفكّر في الاستعلام أو في طرح أسئلة على الملائكة. بدا لي ببساطة أنّه حينما نصل إلى هنا، يتم «وزن» أفعالنا الخيّرة والسيّئة قبل أن نتناسخ كلٌّ حسب حياته الماضية.

ردّ عليّ الرئيس لوسيندير بعنف:

- هل تتخيّل عاقبة هكذا ادّعاء؟

ملوّحاً بصورة رجلٍ بدا الشيب على سالفيه وذي نظرة عميقة يُبقيها دائماً عليه، سألني راؤول إن كنتُ قد لمحتُ والده.

عبستُ. كان هناك حشدٌ كثيفٌ جدّاً من الموتى، هناك في الأعلى. كلا، لم أرَ والده، مثلما لم أرَ والدي أيضاً. كان صديقي قد لاحظ بنفسه كم كان نهر الموتى يتضخّم منذ الوصول إلى المنطقة البرتقالية. كانت أرواحنا تهجر ببطء وعلى شكل قطيعٍ مضمومٍ بعضه إلى بعض. وكان من المستحيل التعرّف على أحد وسط هذه الأمواج المتلاطمة لملايين الأرواح العابرة.

فسألت آماندين التي كانت فساتينها السوداء المعتادة تُظهر هيئة الحداد:

- هل أنت مقتنع فعلاً بأنّ النهاية تكمن هناك؟ وبأنّه ليس هناك أيّ شيء آخر بعد ذلك المكان؟

تنهّدتُ. كيف يمكن التأكّد من ذلك؟

- في العمق، هناك جبلٌ من النور. إنّه جبل وزن الأرواح الذي يبعث هذا الوميض الذي يجذبنا منذ وصولنا إلى الباب الأوّل. ومن ثمّ، بعد تجاوز حكم الكارمات، لا أتخيّل ما يمكن أن يحدث أيضاً. في الواقع، لم أرَ أيّ شيءٍ خاصّ خلف الجبل لسببٍ بسيطٍ ووجيه وهو أنّ هذا الجبل مشعٌّ جدّاً بحيث يحجب كلّ أفقٍ محتمل.

قالت زوجتي التي لم تكن خلال رحلتها مهتمّة أبداً بتفحّص الأمكنة لكونها كانت في حيرتها بين العودة إلى الأرض من عدمها:

- إذاً، ربّما كان هناك شيءٌ آخر خلف الجبل...

راغباً على نحوٍ خاصّ في العثور على والده، اقترح راؤول رحلة طيرانٍ جماعية جديدة من أجل استكشافٍ أوسع. بالنسبة إليّ، لم أكن متحمّساً للقيام برحلة جديدة إلى الأعلى، ولكنّ الآخرين كانوا بالتأكيد متحمّسين لفكرة اللقاء مع الملائكة، وفهم معنى حياتهم، ورؤية نهاية الإدراك، وكلّ هذا، وكلّ هذا.

رفعت آماندين وستيفانيا وروز على الفور أياديهنّ، متطوّعاتٍ. زعمت

زوجتي أنّها قد تعافت تماماً وأصبحت في كامل لياقتها. حرصت على أن تعود إلى الأعلى لكي تتحقّق إن كانت فرضيتها عن النافورة البيضاء على الجانب الآخر من الثقب الأسود فرضية منطقية. أما فيما يخصّ آماندين، أعتقد أنّه على الرغم من موت فريدي، فإنّ «معموديتها» للانطلاق قد أفرحتها كثيراً بحيث كانت مستعدّة لكلّ مغامرة جديدة.

وافقتُ على أن أعمل دليلاً لهنّ، على مضضٍ.

أقلعنا جميعاً معاً في أحد أيام الجمعة، الثالث عشر من الشهر. أتذكّر ذلك جيّداً، كان ذلك يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر مايو / أيار. يومٌ عاصفٌ للغاية. في الخارج، كانت الأشجار ترزح تحت الأعاصير وكانت الغيوم تجري خلفها. أنا لا أحبّ الرياح كثيراً، ولكن لا بأس!

اصطففنا نحن الخمسة على مقاعد الانطلاق، وملابسنا الرياضية الخاصّة موصولة إلى أجهزة الكومبيوتر. همهم جهاز الفيديو.

ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق...

ضغطتُ على زرّ الإقلاع. إلى الأمام نحو بلاد الملائكة.

212. ميثولوجيا يهودية

ثلاث أرواح تتطابق مع ثلاثة أدمغة:

– تحت المهاد: *رواخ*[1]. مستوى حاجاتنا للبقاء: الطعام، الشراب، النوم، التناسل.

– الجهاز الحوفي: *نيفيش*[2]. مستوى أحاسيسنا: الخوف، الشهوة، الرغبة، العاطفة.

– القشرة: *نيشاماه*[3]. مستوى عقلنا: المنطق، الاستراتيجية، الفلسفة، الجمالية، وقدرة التحكّم بالدماغين الآخرين.

1- رَواخ: الروح الوسطى، وتحتوي على الفضائل الأخلاقية والقدرة على التميز بين الخير والشر. المترجم

2- نيفيش: الجزء السفلي، أو «جزء الحيوان» من الروح. ترتبط بالغرائز والرغبة الجسدية. المترجم

3- نيشاماه: ارتفاع الروح، وهذا يفصل الإنسان عن جميع أشكال الحياة الأخرى. المترجم

حسب القبالة اليهودية، تحدث عدّة تغيّرات ذهنية وفيزيولوجية في نفس لحظة الموت الجسدي. يشرح كتاب الزوهار أنّ النيفيش، أو طاقتنا الحيوية، تتحلّل مع تلف جسدنا. أمّا رواخ، المرتبط بتيار الطاقة الحيوية فتبقى لوقتٍ أطول بعض الشيء، ولكنّه في النهاية يتلاشى. والنيشاما يغادر كلّياً الشكل الجسدي. هذا الجزء العلوي من الذات يُستقبَل حينئذٍ من قبل أرواح أولئك الذين أحبّوه خلال وجوده الدنيوي.

يجتمع والده وأفراد عائلته الذين سبق لهم أن ماتوا من حول نيشاماه وهو يراهم، ويتعرّف عليهم مثل كلّ الذين عرفهم هنا على الأرض ويرافق الجميع روحه إلى هناك حيث ينبغي لها أن تبقى.

في لحظة الموت، من المسموح للمرء أن يرى ذويه وأصدقاءه في الآخرة. إذا كان المتوفى فاضلاً، يستمتعون ويتمنّون له قدوماً سعيداً. وعدا ذلك، لا يتمّ التعرّف عليه سوى من قبل أولئك المرميين في جيهينوم (المَطهَر)، حيثُ تُغسَل الأرواح من أرجاسها.

والجيهينوم لا يُكتَشَف إلى بعد الموت الجسدي. ويُمكن لضرورته أن تُقارَن بضرورة مرشّ حمّامٍ جيّد بعد مباراةٍ مُرهقة أو، بالمناسبة، بغرفة تخفيف الضغط لِغوّاصٍ للبحار العميقة قبل أن يصعد إلى سطح المياه.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

213. عند الملائكة

جرت رحلتي الإكتوبلازمية الثانية على نحوٍ أقلّ نجاحاً من الأولى. أثناء تحليقي الأول، لم أكن أفكّر إلّا بإنقاذ روز، والتفكير بالآخرين يسمح للمرء بأن ينسى مخاوفه الخاصّة.

هنا، كنتُ أفكّر في الكثير من الأشياء على الطريق. تُرى هل هناك مرتزقة لحشّاشٍ آخر أو بعض عبدة بعل زبول في كمينٍ، مستعدين للهجوم علينا على نحوٍ مباغت وقطع حبالنا السُرّية؟

كنتُ خائفاً.

كنتُ أخفي خوفي.

في سربٍ مضموم، تسللنا إلى الفضاء بسرعة الفكرة. عبرنا كوكب الشمس الذي كان، بسبب الدوران الأرضي، يوجد حينئذٍ مباشرةً فوق الطريق المؤدي إلى مركز المجرّة.

كبتتُ سؤالي الدائم المشوّش («ولكن في الواقع، ماذا أنا ...»). أعني، أنتم تعلمون عن أيّ سؤال أودّ التحدّث.

حتى إنّ رؤية روّاد الفضاء الروس مجدّداً لم تضحكني. والمرور من بين النيازك جعل شعر جسمي يقف، والاقتراب من كلّ كوكب جديد بدا لي فرصة مناسبة لإراحة إكتوبلازمي.

كنتُ أنظر إلى المجرّة المجاورة. كم كانت ضخمة! ونجومٌ لا تُعدّ ولا تُحصى. سيكون على أحدهم أن يصعد ويرتّب الفوضى بين كلّ هذه النجوم التي تجوب وسط مجرّة درب التبّانة. درب التبّانة! كان اليونانيون يُطلقون عليها هذا الاسم لأنّ دفقة النجوم هذه كانت تذكّرهم بدفقة حليبٍ خارجة من نهد الإلهة هيرا، زوجة زيوس.

مغمورين بحليب الأمّ، أبحرنا كسيّاحٍ نحو بلاد الموتى.

ولكي أنسى مخاوفي، استمتعتُ بالمشهد المتجدّد دون توقّف للعالم الخارجي. في نفس الوقت الذي كان إكتوبلازمي يطير فيه، كان يرى كلّ شيء.

كان سديم كوكبة الجبّار يشبه قوقعة محار في طريقها للذوبان. وقد ميّزتُ فيه سحابة النجوم المسماة سديم رأس الحصان الذي يشبه في الواقع نوعاً من رقبة تنتهي بزاوية. أبعد من ذلك على يساري، هناك الخطّ المرتدّ من كوكبة صليب الشمال، ومن ثمّ النجوم المتغيّرة لسحابتي ماجلان، الشبيهتين بمملحة مقلوبة. ثمّ يأتي المُستعر الأعظم لنجم النسر الواقع. ظهرت كلّ هذه الأسماء في ذهني على نحوٍ طبيعي، ولكن، في الواقع، كانت روز هي التي تهمس لي بها عن بعد. لقد أدركتْ أنّ هذا العرض النجمي يسحرني ونقلت إليّ من معرفتها. يا لها من امرأة مذهلة!

انعطفنا، فرأينا أمامنا من بعيد، إلى اليمين، مجرّة المرأة المسلسلة

(أندروميدا). إنّها شقيقة مجرّتنا، وبالكاد تبعد عنها مسافة مليوني سنة ضوئية. حول محورها المركزي، نجوم المرأة المسلسلة أكثر اصفراراً من نجومنا. وذلك بلا شكّ لأنّها أصغر سنّاً منها. ويمكننا أن نستنتج من ذلك أنّ عجوزتنا الطيّبة درب التبّانة هي أكبر سنّاً من قريبتها المرأة المسلسلة.

درسٌ في علم الفلك في وسط الفضاء، هذا مذهل! إنّه أكثر إثارةً من أيّ رحلة سفاري.

ولكن هنا أيضاً، هناك حيوانات متوحّشة. في كوكبة السلوقيان (بمحض الصدفة)، كانت مجرّتان على وشك أن تتلامسا. المجرّة الأصغر حجماً، على شكل قنفذ البحر، جُذِبَت من قبل الأكبر حجماً، على شكلٍ حلزوني.

شرحت لي روز تخاطرياً:

- إنّها المجرّة الدوّامة إم 51، وهي مجرّة مفترسة. وهي ضخمة جدّاً بحيث تبتلع كلّ المجرّات الأخرى التي تمرّ في نطاقها. هنا هي على وشك أن تلتهم المجرّة إن جي سي 5195. حينما تصبح الكتلتان قريبتين بعضهما من بعض بما فيه الكفاية، تتقدّم إحدى الأذرع الحلزونية للمجرّة إم 51 الدوّامة لتمسك بالمجرّة إن جي سي 5195.

- و«ستأكلها» ؟

- كلا. إنّهما تتّحدان لتشكّلا مجرّة أكبر، وبالتالي أكثر جذباً، وأكثر افتراساً.

إنّ الافتراس موجودٌ في كلّ مكان. حتى المادّة الجامدة تعيش مآسيها.

سرنا باستمرار نحو هدفنا المركزي. عبرنا منظومات كوكبية غريبة، سحبٌ من الأتربة الحمراء والبيضاء، نيازك متجمّدة مع بوادر للحياة جاهزة للبروز على كوكبٍ سوف يسمح لها بالوجود. تتوالى مناطق مجموعات نجمية بمساحات شاسعة وفارغة حيث لا يعود هناك سوى السواد، والبرد، والعدم.

ها هو أخيراً تويج الثقب الأسود للموت. تتصادم نجومٌ على حافته، محاصرةً مدخل النفق العملاق بحلقة فائرة.

عقدنا حبالنا السُرّية الفضية الخمسة في عقدة أمانٍ مشدودة جيّداً، وباستخدام أحد التصاميم الإكتوبلازمية لفريدي، انطلقنا من جديد لاقتحام المنطقة الأخيرة.

المنطقة الأولى: تمّ امتصاصنا إلى داخل الدوّامة، تماماً مثل «العصارة المُضيئة» للنجوم المجاورة وكلّ أنواع الأمواج والجُسيمات. وصلنا إلى شاطئ القارة الأخيرة. اهتزّ غشاء جدار الإغماء الأوّل مثل غشاء الطبل في أذنٍ عندما يُصطدَم به أو يتمّ اجتيازه. إذاً، عالم الأموات يشبه أيضاً أذناً بشرية. شلوف! عبرتُ الجدار الرخو.

المنطقة الثانية: من جديد الخوف من الماضي، والكفاح ضدّ وحوش لا تتعب. سوف يكون هؤلاء السيربيروس هناك ينتظرونني في بلد النهاية.

المنطقة الثالثة: أيضاً تخيّلاتي، التي تزداد احمراراً، وتزداد سواداً. أحبّ كثيراً أن أستعيدها. كم ستكون الحياة مرعبة، من دون تخيّلات! ومع ذلك لم أدع نفسي أقع في الشرك، لا من قبل رغباتي، ولا من قبل ملذّاتي.

المنطقة الرابعة: الصبر. يجري نهر الموتى بهدوء في السهل البرتقالي. حلّقتُ فوق الكتلة المحتشدة وأنا أعير هذه المرّة اهتماماً أكبر بالذين يشكّلونها. وحدثت معجزة، فقد تعرّفتُ على الكثير من الشخصيات التي حلمتُ بلقائها! مارلين مونرو، فيليب ك. ديك، جول فيرن، رابليه، ليوناردو دا فينشي. كما تجمّع بعض الشخصيات الأسطورية من كتبي التاريخية: شارلمان، فيرسينجيتوريكس، جورج واشنطن، ونستون تشرشل، ليون تروتسكي.

كان هذا الحشد متنوّع العناصر جدّاً. كان هناك أيضاً جيمس دين، فريد أستير (الذي لم يستطع الامتناع عن القيام ببعض الخطوات من الرقص النقري لتزجية الوقت)، موليير، غاري كوبر، الملكة مارغو، ليليان غيش، لويز بروكس، زولا، هوديني، ماو تسي تونغ، آفا غاردنر، آل بورجيا (مجتمعين كأسرة حول لوكريتيوس).

كان الأكثر افتقاراً للصبر يبذلون جهودهم للبقاء في وسط النهر تماماً لكي يصلوا إلى النور بأسرع ما يمكن. بينما كان الأكثر افتقاراً إلى الانضباط

يتجوّلون على الأطراف. كان كثيرون يستفيدون من هذا التوقّف من أجل لقاءات غير عادية.

كانوا يتناقشون في العائلة حول آخر قيصرٍ لروسيا، يعاتبُ كلٌّ منهم الآخرين بعدم توقّع قيام الثورة. حاول لويس السادس عشر أن يُصلح بينهم: هو أيضاً أُخِذَ على حين غرة. التفت لكي يُناقش علم الخرائط مع ماركو بولو. كان الشغف الحقيقي لهذا الإكتوبلازم الملكي الودود هو التالي: علم الخرائط. كان يهتمّ أيضاً بعض الشيء بمجال الأقفال، ولكن رسم أنهار كندا وتحريك كلمات الأرض المجهولة كانا بالفعل الهواية المفضّلة والمجهولة لدى لويس السادس عشر.

الفردوس، كان هذا بالفعل آخر صالون أنيق يجري النقاش حوله! اكتشفتُ من الأعلى فيكتور هوغو بلحيته الغزيرة وهو يُغازل ديان شاسيريس. راؤول لطيفٌ ولكنّه يطرح دائماً ألغازاً دون أن يُعطي الحلّ. جثمتُ بالقرب من فيكتور هوغو واستغللتُ ذلك لكي أطلب منه حلّ أحجيته حول محل الحلوى. في البداية، تضايق لأنني أفسدتُ له مغازلته، ولكن حينما شرحتُ له أسبابي، انفجر ضاحكاً وفسّر لي الأحجية.

«كلمتي الأولى (بافار – ثرثار)، هي ثرثار. كلمتي الثانية (وازو – طائر)، هي طائر. كلمتي الثالثة (او كافيه – في المقهى)، هي مقهى. الحلّ: محل الحلوى هو (بافارواز او كافيه – بافارية في المقهى). في الواقع كانت سهلة جدّاً بحيثُ لم أكن قد فكّرتُ فيها».

يا له من حظٍّ أن تستطيع طرح الأسئلة على الأشخاص الأفضل درايةً. لو كنتُ أتوفّر على المزيد من الوقت، لبحثتُ عن ستراديفاريوس لمعرفة سرّ الغراء الذي كان يستخدمه في صنع آلات الكمان النفيسة، ولحاولتُ أن أعرف أين اختفى سانت إكزوبيري ولماذا نرى من الأعلى رسومات عملاقة فوق تشيلي والبيرو.

اكتشفتُ فجأةً وجهاً معروفاً. والدة جدّتي آغلاي! أسرعتُ نحوها. تعرّفت عليّ في الحال وفهمتْ على الفور لماذا اقتربتُ بهذه السرعة. نعم، لقد كانت قد رأت كيف تصرّفتُ عند موتها، ولكنّها لم تكن تحقد عليّ لأنّها

كانت قد قرأت في قلبي مشاعري الحقيقية. لم يكن الكثير من الآخرين الذين بكوا آنذاك سوى منافقين جشعين لجذب الانتباه!

كنتُ سعيداً جدّاً لدرجة أنني رغبتُ في البحث عن والدي لكي أروي له ذلك. ولكنّ والدة جدّتي آغلاي أخبرتني بأنّها سبق لها أن أعلمته بذلك، وأنّه الآن ذهب بعيداً جدّاً إلى الأمام.

استأنفتُ تحليقي، وقد غدت روحي أكثر خفّة.

في الأسفل، بحث راؤول بالفعل عن والده مجدّداً، وصادفت آماندين في طريقها فيليكس، وتظاهرت بأنّها لم تتعرّف إليه، على الرغم من النداءات اليائسة التي أطلقها أوّل المستكشفين. حامت ستيفانيا بهدوء فوق حشد الموتى، متابعةً طريقها نحو الضوء. كانت زوجتي الفلكية على رأس مجموعتنا، مستعجلةً على التحقّق مما إذا كان قاع الثقب الأسود يطلّ بالفعل على نافورةٍ بيضاء.

المنطقة الخامسة: المعرفة. تتالت مشاتل البنفسج باللون الأرجواني والأمغر والأحمر والأصفر، وكذلك صور كسورية تتوهّج إلى ما لا نهاية. تفرّ فراشات قزحية الألوان من مناقير طيور السنونو الوردية. ضفادع زرقاء وسوداء وبيضاء تفرد أجنحة يعاسيب. ووحيدٌ قرنٍ ذهبي ينتصب على قائمتيه الخلفيتين. إنّ الجمال متعدد الأشكال، مثل الخوف.

المنطقة السادسة: مكانٌ للجمال. اكتشفت بالصدفة، ومن دون أن أطلب ذلك، وصفة المقادير الداخلة في فطيرة أربعة أرباع. ربع زبدة، وربع طحين، وربع سكّر، وربع بيض. هذا أيضاً جزءٌ من المعرفة. لا ينبغي أن أنسى الوصفة قبل العودة إلى الأرض.

المنطقة السابعة: وصلنا معاً إلى أمام موخ 6، ولا تزال حبالنا السُرّية مربوطة جيّداً.

ربّما كانت هذه الرحلة أقلّ إثارة لكونها لا تعد الأولى، ولكن عمليات الإقلاع لن تصبح روتينية على الإطلاق. ألم ينفجر مكوك الفضاء تشالنجر بعدما بدأ الناس يعتقدون، لكثرة الإنجازات، أنّ الرحلات الفضائية أصبحت بمنجى عن الخطر بشكلٍ نهائي؟ لا شيء من دون خطر، حتى إذا كانت

عملية الخروج من الجسد توفّر منهجاً لاكتشاف الكون *مرناً* بالفعل. لا ينبغي لنا التخلّي عن حذرنا، في أيّ لحظة كانت. كنا قد ذهبنا بعيداً وبعيداً جدّاً، وسريعاً، وسريعاً جدّاً. بهذا الإيقاع، كان يمكن لأبسط حادثٍ أن يأخذ أبعاداً مأساوية.

ما اكتشفناه الآن، لن نستطيع أبداً التصريح عنه، وإن كان ذلك بوساطة أفضل تلسكوب منقول على متن القمر الصناعي! كنّا وسط النجوم، في مركز المجرّة، في قاع الثقب الأسود ومع إمكانية الخروج منه. أيّ فلكيّ سيمكنه تغذية الطموح الأكبر؟

بالنسبة إلينا، نحن الفرسان الخمسة للموت، كانت الرحلة الآن في بدايتها. كنّا قد وصلنا إلى الستارة الضخمة التي تغطّي آخر مظهر للوفاة. تقدّمتُ في حين كان الآخرون يتردّدون في اللحاق بي. كانوا يرون جيّداً أنّ نهر الموتى يشفّ عن غشاء موخ 6، لكنّ القبض على الوجه الأخير للحياة يملأ بالخوف كلّ كائن عاقل. هززتُ كتفيّ. ففي نهاية المطاف، كنتُ قد ذهبتُ سابقاً إلى هناك. رفعتُ جزءاً من الستارة المرعبة ودعوت أصدقائي إلى اللحاق بي.

ضربَنا النور المتوهّج، عدوانياً وجاذباً في آنٍ واحد. من جهتي، اكتشفتُ، متفاجئاً، أنّني سعيدٌ بالعودة إلى هذا السهل الفسيح الأسطواني الأبيض وستائره الضبابية. في الأسفل، كان نهر الموتى يتفرّع إلى أربعة أذرع.

ظهرت أولى هالات الملائكة، ملوّنة فاقعة، ومتوهّجةً جدّاً مقابل إكتوبلازماتنا الباهتة جدّاً! إذا ما سُئلتُ يوماً ما هو أجمل طموح إنسانٍ، أعرف الجواب من الآن فصاعداً: الطموح الأجمل هو جعل روحه جميلة بجمال روح ملاكٍ لطيفٍ. ولكن كيف السبيل إلى تحقيق إنجاز كهذا؟

حلّق ملاكٌ له قوامٌ رياضي نحونا وسألنا عن أسباب حضورنا إلى هنا، مع حبالنا السُّرّية السليمة. أهو الفضول؟ أهي الرغبة في تحقيق تقدّمٍ في العالم؟ حتى ستيفانيا ذات اللسان الذي لا يهدأ عادةً ظلّت صامتة دون أن تتفوّه بكلمة. وكان «هو» من أجاب نيابةً عنّا:

– أنتم مطّلعون كبار، أليس كذلك؟

سأل راؤول مندهشاً:

- نحن ماذا؟

أجاب الملاك بأناة:

- مطّلعون كبار.

على ما يبدو، لم يدهشه تسللنا كثيراً. «مطّلعون كبار»، «هم» كان لهم مصطلح للإشارة إلى «الأحياء» الذين يتقدّمون حتى الوصول إلى هنا. وكان هذا يعني أنّ آخرين كانوا قد سبقونا إلى هنا وحافظوا على المعلومة السرّية. هل هم مستكشفون آخرون؟ هل هم رهبانٌ، شامانات، حاخامات، حكماء كرّسوا أنفسهم، سرّاً ومن دون الاستعانة بالتقنيات الحديثة، لرحلة كهذه منذ فجر التاريخ؟

ابتسم الملاك. ففهمتُ لماذا لم يخلق لي هو وزملاؤه مشاكل أثناء عبوري الأوّل إلى الفردوس. كان «مطّلعون كبار»، قد اعتادوا منذ الأزل على أن يُستقبلوا هناك، حتى وإن كانت زياراتهم غير متكررة، كما علمنا ذلك لاحقاً.

214. ميثولوجيا سيبيرية

في الديانة الشامانية السيبيرية، ينعكس كلّ شيء بعد الموت. يدخل الميت في بلدٍ حيث يصبح كل ما في الأعلى إلى الأسفل، ويصبح كلّ ما هو مضيء مظلماً.

يحدث أحياناً أن يدخل المرء في بلاد الموتى أثناء طقوسٍ شامانية، أو أثناء مرضٍ، أو أثناء حالة تسمّمٍ، أو أثناء حلم. ويحدث في بعض الأحيان أن يقوم المرء بتسللٍ إلى بلاد الموتى دون أن يُكشَف.

ولهذا السبب لا بدّ أن يعرف المرء بعض العناصر المحدّدة.

في بلاد الموتى، تنمو الأشجار مقلوبةً رافعةً جذورها إلى الأعلى، والأنهار تجري نحو الجبال، والليل يكون منيراً تحت الضياء الأسود للقمر، في حين يكون النهار معتماً تحت الانعكاس الشاحب للشمس.

هذه بعض التفاصيل الصغيرة التي تتيح للمرء أن يعرف على وجه اليقين أنّه لم يعد في دار الأحياء.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

215. أصاليا

كان مُضيفنا يُدعى القديس جيروم باللغة الفرنسية، أصاليا باللغة العبرية، الذي يعني «منْ يدلّ على الحقيقة». ولكن كانت له تسمية في الكثير من اللغات الأخرى. كان اسمه بتاح بالنسبة إلى المصريين، وإنكي بالنسبة إلى السومريين، وأبولون بالنسبة إلى الرومانيين، ومابانوس بالنسبة إلى الغاليين، وديانسيت بالنسبة إلى السلتيين الإيرلنديين، وفراير بالنسبة إلى الجرمانيين، وسفاروغ بالنسبة إلى السلافيين، وسافيتر بالنسبة إلى الهندوس، وخوشيبيلي بالنسبة إلى الآزتيك، وإيلابا بالنسبة إلى الإنكا....

كانت مهمّته هنا الكشف عن الحقيقة ومساعدة الأرواح في الارتقاء روحيّاً. بكلّ طيبة خاطر، أجاب على أسئلة راؤول حول تنظيم الفردوس. كان هناك اثنان وسبعون ملاكاً رئيسياً وسبعمئة ألف ملاك ثانوي. كانت التراتبية بسيطة. كان ثالوثٌ أوّل يضمّ الفئات الثلاث من الملائكة السارافيم، والكاروبيم، والعروش، وثالوثٌ ثان يضمّ القوات، والسلاطين، والسيادات. أمّا الثالوث الثالث والأرفع، فيضمّ الرياسات، ورؤساء الملائكة، والملائكة. ثلاثة رؤساء ملائكة رئيسيين: رئيس الملائكة جبرائيل (رسول، ومعلّم)، وميخائيل (قاتل التنانين)، ورئيس الملائكة رافائيل (دليل الأطبّاء والرحّالة).

كانت لدينا خيارات عديدة: كان بوسعنا أن نعتبر الملائكة قديسين، أو أبراراً مخفيين، أو بوذاسف، أو بوذويين، أو مختارين، أو صديقين. تتنوّع تسمياتهم حسب الأديان. إنّهم كانوا مثاليين نجحوا في حياتهم واستطاعوا أن يخرجوا من دورة التناسخ ولكنّهم فضّلوا رغم كلّ شيء أن يكرّسوا أنفسهم لتدبير الأرواح العابرة. ولكي لا نضيع في ذلك، اخترنا تعميم «ملاك».

عند هذه النقطة، اعتذر جيروم - بتاح - زوشيبيللي عن عدم مرافقتنا. فبوجود هذا الحشد المتقاطر في الأسفل، لم يكن العمل هو ما ينقصه. ولذلك واصلنا وحدنا زيارتنا.

كنتُ أتساءل إن كان هناك، فوق هذه الأفواج، أيضاً إله أو آلهة. يقول اليهود إنّ الله واحد ومع ذلك، كان فريدي قد أخبرني بأنّه في اللغة العبرية، يُسمى الله *إلوهيم* وأنّ هذا الاسم جمع. ما معنى ذلك إذاً؟

اثنان وسبعون ملاكاً رئيسياً... هذا العدد كان يذكّرني أيضاً بشيءٍ ما.

ذكّرني راؤول تخاطرياً:

- إنّه عدد درجات سلّم يعقوب.

216. ملائكة رئيسية

هذه بعض الأمثلة على تسميات الملائكة الرئيسية، المستخرجة من الكتاب المقدّس ولكن يمكنها أيضاً أن تكون إغريقية، أو صينية، أو هندية، إلخ.

الملاك الأوّل: **فيهويا**، وهو رئيس التأمّل والتنوير الروحي.

الملاك الثاني: **جليال**، وهو الذي يخفّف النزاعات الجائرة.

الملاك الثالث: **سيتائيل**، هو الذي يحمي من الخصوم.

الملاك الرابع: **إيلميا**، وهو الذي يسمح بالكشف عن الخونة.

الملاك الخامس: **ماحاسيا**، وهو الذي يسمح للمرء بالعيش في سلامٍ مع محيطه.

الملاك السادس: **ليحاحيل**، وهو الذي يُشفي من الأمراض.

الملاك السابع: **أشعيا**، وهو الذي يُساعد على إفشاء أسرار الطبيعة وبناء التكنولوجيات الجديدة.

الملاك الثامن: **كائل**، وهو الذي يطرد الأرواح الشريرة.

الملاك التاسع: **حيزائيل**، وهو الذي يساعد في نيل دعم الكبار واحترام الوعود.

الملاك العاشر: **علاديا**، وهو الذي يحمي الذين يخشون أن تُكشَف أسرارهم.

ومن بين الأكثر نفعاً، بالجملة، هناك أيضاً:

الملاك الثاني عشر: **حاحيا**، وهو الذي يسيطر على عالم الأحلام، ويكشف في بعض الأحيان، على شكل حلمٍ، الأسرار المقدّسة.

الملاك الثالث عشر: **عيزائيل**، وهو الذي يتحكّم بالصداقة، والتصالح، والإخلاص الزوجي.

الملاك الرابع عشر: **ميحاحيل**، وهو الذي يحمي الثروة من الغاصبين.

الملاك السادس عشر: **حاكاميا**، وهو الذي يحمي من الأشرار والخونة.

الملاك السابع عشر: **لوحيا**، وهو الذي يُبعد الحزن وأهوال الليل.

الملاك الثامن عشر: **كاليئيل**، وهو الذي يجلب النجدة السريعة أثناء الكوارث غير المتوقّعة.

الملاك العشرون: **باحاليا**، وهو الذي يحمي القساوسة والسحرة.

الملاك الثالث والعشرون: **ميلاحئيل**، وهو الذي يتيح السفر من دون التعرّض للحوادث.

الملاك السادس والعشرون: **حايا**، وهو الذي يُتيح كسب الدعاوى القضائية.

الملاك الثامن والثلاثون: **حاميا**، وهو الذي يساعد في اكتشاف الكنوز.

الملاك الثاني والأربعون: **ميخائيل**، وهو الذي يحمي رجال السياسة والحكّام.

الملاك الخمسون: **دانيئيل**، وهو الذي يمنح الإلهام للذين يتردّدون بين عدّة خيارات.

الملاك الثالث والخمسون: **نانائيل**، وهو الذي يساعد العلماء.

الملاك التاسع والخمسون: **حارائيل**، وهو الذي يُقنع الأطفال بأن يكونوا أكثر احتراماً لوالديهم.

الملاك التاسع والستون: **روشيل**، وهو الذي يساعد في العثور على الأغراض المفقودة أو المسروقة.

الملاك الثاني والسبعون: **موميا**، وهو الذي يساعد المشاريع على النجاح والبشر على العيش لعمرٍ أطول.

ملاحظة: في حالة ظهور مشاكل محدّدة، على النقيض من المثل الشعبي «من الأفضل التوجّه إلى الله الكريم بدل التوجّه إلى قدّيسه»، يوصى بالمناداة على الملاك المختصّ بهذه المشكلة، بدل اللجوء إلى شمولية إلهية.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

217. مع صحبة طيّبة

رست ستيفانيا، التي بدت في مزاجٍ رائقٍ، إلى جانب ملاكٍ بدا أنّه رجل وامرأة في نفس الوقت. لم يكن رفقاؤه يوجّهون له الكلام وهو بنفسه لم يبدُ أنّه راغبٌ في صحبتهم.

- ما اسمك؟

هو الآخر لم يكن متفاجئاً برؤيتنا هنا. أجاب بطيبة خاطر:

- سامائيل. ولكن، في عالمكم، غالباً ما يسمّونني شيطان أو ملاك الموت أو هاديس أو المخنّث العظيم، ونرغال بالنسبة إلى السومريين، وشيث بالنسبة إلى المصريين. ولا بدّ أنني معروفٌ أيضاً بعددٍ كبيرٍ من الأسماء الأخرى، ولكن للأسف لا تخطر كلّها في ذهني الآن.

كان يشعّ نوراً غريباً... نوراً أسود! يشبه إلى حدٍّ ما تلك المصابيح التي تمنح، في علب الليل، تلويناً ساطعاً للثياب البيضاء.

كبحت ستيفانيا حركة تراجع.

- وهل يتمّ التساهل معك هنا، في الفردوس؟

- بالطبع. الفردوس، الجحيم، إنّه الشيء نفسه. يتمّ التساهل معي هنا كما في الأسفل، في عالمكم. أنا في الواقع الملاك الأكثر ضرورة من بين جميع الملائكة. أنا أُغري الجهلاء، وأدفعهم في ميولهم السيّئة لكي أُبرهن لهم على نحوٍ أفضل على جهلهم. بكلّ تأكيد، أنا لا أجهل أنّ لي، على الأرض، صورة سيئة، ولكن مع ذلك لا يمكن أن نجعل الجهلاء يتطوّرون إلّا من خلال إظهار جهلهم لهم!

بفضلي أنا، يستطيع الخطّاؤون أن يعودوا إلى رشدهم. ألا تقول حكمتكم الشعبية أنّ على المرء قبل أن يصعد أن يلامس القاع؟ أنا أساعد الناس على ملامسة القاع قبل الصعود.

فجأةً، لم يعد لتعبيره أي جانبٍ «شيطاني».

- في الواقع، أنا في خدمة الخير، ولكن ربّما بطريقة مبتكرة للغاية بحيث يصعب عليكم فهمها.

كانت ستيفانيا لا تزال تفكّر، في حين كنتُ قد أدركتُ سابقاً أنّ المرء لا يتسبّب بالكوارث ولا يشعل الصراعات القاتلة لا من خلال الإفراط في تناول الطعام، ولا من خلال ممارسة الزنا، ولا من خلال السُكر والثمالة! بل إنّ أكبر الحروب شُنّت على الدوام باسم الخير، ولم تُشنّ قط باسم الشرّ. ألا تؤكّد نفس هذه الحكمة الشعبية المذكورة من قبل سامائيل بأنّه قد ينتج خيرٌ من شرٍّ؟

ولمّا كان يبتعد، جاء ملاكٌ يقدّم نفسه على أنّه القديس بطرس - هرمس - آنيل - ميركوريوس، ملاك الإيضاحات، وشرح لنا أنّ الشياطين ليسوا سوى ظلال الملائكة.

صرخت ستيفانيا، الإيطالية التي لم تكن قد نسيت تعاليمها المسيحية:

- أنت القديس بطرس! أأنت القديس بطرس حارس مفاتيح الفردوس؟

قال:

- نعم. هكذا سمّاني مطّلعون كبار سابقون لأنني غالباً ما أكون الملاك الوحيد الذي يتأنّى في إخبار القادمين الجدد.

- لقد سبق أن تكبّد القديس جيروم - زوشيبيللي عناء تزويدنا ببعض الشروحات.

- إذاً، لقد حالفكم الحظّ.

- ماذا تعني عبارة «مفاتيح الفردوس؟»

- ليست هناك مفاتيح بالمعنى المادّي للكلمة. هذه صورة. في الواقع، أنا أهب المفاتيح التي تُتيح فهم الفردوس.

هنا، عاد إلى الحديث عن الاثنين والسبعين ملاكاً رئيسياً. ومثل كلّ ملاك، لهم أخيلتهم المظلمة، وبالتالي، اثنان وسبعون إبليساً رئيسياً. ولكلٍّ منهم قصره الخاصّ الذي يُسمّى هنا فلكة. إجمالاً، يكون هناك مئة وأربعة وأربعون فلكةً.

كان القديس بطرس - هرمس مهذاراً. فتح أقفالاً أخرى. وكان جبرائيل، رئيس الملائكة العظيم، انعكاساً للشيطان بذاته، والعكس صحيح. يناظر

ثلاثة رؤساء ملائكة ثلاثة أمراء شياطين كبار: بعل زبول، والشيطان، ويوغ سوتوث، أو ما يُسمى الفوضى الزاحفة الموصوفة في سفر الرؤيا.

- مذهلٌ ذاك الملاك، أليس كذلك؟

دلّنا على ملاكٍ أسود شعيريٍّ بالكامل، يتزلّج سريعاً فوق نهر الموتى. وبالقرب منه، ترتعش الصفوف كما لو أنّها تحت تأثير ريحٍ غربية باردة جدّاً. سألتُ:

- هل يمكن التواصل مع الملائكة من دون الصعود إلى هنا؟

- بالطبع. لكلّ كائنٍ بشري ملاكه الحارس وشيطانه الشخصي.

بهذه الطريقة، ومنذ الأزل، لم يفعل التصوير الشعبي الذي كان يبدو لي في غاية السذاجة سوى كشف «الحقيقة» الحقّة. ملاكٌ حارس، وشيطانٌ شخصي...

كان المطّلعون الكبار قد نقلوا معرفتهم بالشكل الأكثر إتاحةً، ومن جرّاء ذلك، لم يكن «الناس» يأخذونهم على محمل الجدّ، واصفين كلّ هذه المعتقدات بمحض خرافة. ومع ذلك، كان «الناس» يعرفون. على الأقلّ، كان الكثير من الناس يعرفون. ومنذ زمنٍ طويلٍ. منذ الأزل.

- الملاك الحارس والشيطان الشخصي يُمنحان في يوم الولادة. ومن ثمّ يحضران هنا لكي يتدخّلا لمصلحة الروح حينما يقوم رؤساء الملائكة بحساب وزنها. هناك وسيلة بسيطة لاستدعائهما. يكفي أن يصلّي المرء أو إحداث انفعالٍ يتناسب مع اختصاص واحدٍ منهما. فيهزّ اهتزازٌ حينها خطّ طول فلكته. ينزل الملاك لكي يحكم إن كان التدخّل قد حدث. نحن نشتغل فقط على نمطٍ عمودي، من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى. إنّ كلّ واحدٍ منّا مرتبطٌ بخطّ طولٍ شعوري، يؤدّي وظيفة آلة رافعة، وهو الخطّ الذي لا يكون مبرمَجاً إلّا لحالة وحيدة: الغضب، السلام، الانسجام... وليست إرادة حرّة. من المستحيل تغيير السجلّ. أنا، على سبيل المثال، لا أساعد سوى الذين يريدون أن «يفهموا»، بما أنني القديس بطرس - هرمس، ملاك مفاتيح التفسيرات.

نعم، كان الأمر بسيطاً إلى هذه الدرجة، و«آلياً» إلى هذه الدرجة. كان

يكفي التفكير في الأمر حتى يتدخّل ملاكٌ. لقد فهمتُ أخيراً قدرة ونجاعة الصلاة. إنّ صلاة تعني طلب تدخّل ملاكٍ محدّدٍ.

قال معلّمنا:

- بالطبع، هناك ثمنٌ ينبغي دفعه.

قطّبتُ حاجبيّ الإكتوبلازميين. كيف ذلك، ألم تكن خدمات الملائكة مجانية؟ كيف أصبحت مدفوعة الثمن إذاً؟

- من خلال الكارما. إنّها مقايضة. على المرء أن يكون مستعدّاً للتخلّي عن جزء من طاقاته لتحقيق أمنية، على الأقل أن يحظى بحالة من الصفاء الداخلي تمكّنه من تلقي المساعدة الملائكية بلا مقابل. ولكن هذا أمرٌ نادر.

مقايضة؟ نعم. شيءٌ يشبه، إلى حدٍّ ما، ما يحدث في مسرحية *فاوست*. على المرء أن يبيع روحه لكي يمتلك سلطة. دوّنتُ ذهنياً المفاتيح المقدّمة من قبل القديس بطرس - هرمس:

1. الاحترام الدائم للملائكة وعدم السماح للذات بأدنى فكرة سلبية حيالها.
2. المرور دائماً عبر تراتبيتها: ينبغي أن يُنقَلَ الالتماس إلى الملائكة المختصّة ذات الرتب الدنيا من خلال الملائكة العامّة ذات الرتب العليا.
3. كلّ التماس يُدفَع ثمنه من خلال خسارة جزء من الطاقة، عن طريق تقويض الكارما، وعن طريق التضحية شخصيّاً، ما لم يتمتّع بسلوك قدّيسٍ.
4. كما يمكن للمرء أن يقدّم التماساً لملاكٍ مثلما يمكنه أن يقدّمه لشيطانٍ. ففعاليتهما متماثلة، ووحده الثمن الذي ينبغي دفعه يختلف. ولتحقيق انتقامٍ، من الأفضل الاستعانة بملاك عدلٍ بدل الاستعانة بشيطان غضبٍ.
5. لا يمكن للمرء أن يطلب من ملاكٍ إلّا شيئاً واحداً في المرّة الواحدة. يُضاهي كلّ ملاك مهمّةً واحدة ولمدّة محدّدة.
6. بعد إنجاز المهمّة، يعتق المرءُ الملاكَ وهو يقول في نفسه: «لم تعد

لي حاجةٌ بك». لا ينبغي لملاكٍ أن يبقى لوقتٍ طويلٍ على الأرض، فمن شأن ذلك أن ينشر الفوضى. عليه أن يعود بأسرع ما يمكن إلى قصره. إذا ما بقي القصر فارغاً لوقتٍ طويلٍ جدّاً، هناك خطر أن تصعد طاقات سلبية من الدوائر السفلى المناظرة.

يهزّ الحقد الدائرة المناظرة لتراتبية الأحقاد، وهو الحقد الذي يثيره من دون شكّ شيطانٌ من العوالم السفلية. الحبّ هو الذي يحفّز دائرةً من العوالم العلوية. تنشط الملائكة البيض من خلال حبّ الخير، أمّا الملائكة السود، فتنشط من خلال حبّ الشرّ. ومهما يكن من أمر، فالصلوات جميعها مستجابة.

فجأةً، أصبح الوجود واضحاً جدّاً بالنسبة إليّ. في الحياة، نحصل دائماً على ما نرغب فيه. وعندما لا نحصل عليه، فهذا لأننا لا نرغب فيه بالفعل. أمّا الملائكة، فهي تميّز الرغبات الحقيقية عن النزوات الطفولية. وهي لا تلبّي سوى الأولى.

عند هذه الكلمات التخاطرية الطيّبة، قلتُ في نفسي إنّه لو علِم الناس جميعاً بأنّه من الممكن أن يحصل المرء على كلّ ما يرغب، لما انتهينا من المشاكل. كان المطّلعون الكبار لكلّ العصور على حقٍّ في إحاطة أسرارهم بالكتمان على الدوام.

فزّ القديس بطرس – هرمس من مكانه كما لو أنّه تلقّى للتو نداءً، وغادرنا. على الأرجح، كان أحدٌ ما على الأرض يصلّي لكي يهبّ الملاك لنجدته.

واصلنا، آماندين وستيفانيا وراؤول وروز وأنا، التجوال في الأماكن بقدر ما أتاحت لنا ذلك حبالنا السُرّية المعقودة. كانت ملائكة سارافيم تتشاجر مثل الكثير من الطيور الطنّانة الصغيرة في هيئة بشرية. أمسكتُ بواحد منها ولاحظت حينها أنّه مزوّدٌ بستة أجنحة، شبيهة بأجنحة اليعاسيب.

– لماذا لديك ستة أجنحة، أيّها الملاك الصغير؟

نظر إليّ بازدراء:

– هذا مكتوبٌ في كلّ الكتب المقدّسة. لديّ جناحان لكي أغطّي بهما وجهي، وجناحان آخران لكي أغطّي بهما أعضائي الجنسية، وأخيراً، جناحان لكي أطير بهما.

أمام هذا الملاك الصغير النحيل الذي سخر من جهلي، تجرأتُ على طرح السؤال الكبير الذي كان يحرق شفتي طيلة حديثنا مع القديس بطرس - هرمس. ولكنني أدركتُ أنّ المزوّد الكبير للمفاتيح لن يقبل أن يعطي سوى تلك المفاتيح التي يريد أن يستأمنها جيّداً. وكان ملاكي السارافيم بالتأكيد أقلّ خبرةً في هذا المجال.

- أخبرني، أيّها الملاك الصغير الطيّب، لقد رأيتُ هنا موتى، وملائكة، ورؤساء ملائكة، وشياطين... ولكن هل هناك إله، إلهٌ يعلوكم؟

بدرت منه حركة صغيرة باتجاه ما وراء الجبل.

قال:

- وكيف لي أن أعرف ذلك؟ لم نلمح قط إلهاً هنا، ولكن مع ذلك يعتقد بعض الملائكة أنّ الله موجودٌ وأنّه حاضرٌ في كلّ مكان. من جهتي، أنا ملحد. أنا مثل القديس توما الذي سوف تصادفونه ربّما، أنا لا أؤمن إلّا بما أراه.

وبدرت منه ضحكة ملائكية خفيفة.

ألححتُ عليه بالسؤال، متأملاً أنا بدوري جبل النور للمحاكمة الأخيرة.

- وهناك خلف الجبل، هل يستمر نفس لون الفردوس؟

قال بمكرٍ:

- ومنْ يدري؟ ربّما يكون كذلك وربّما يؤدّي إلى الله. أما أنا، فمكاني هنا. وأنت، مكانك في الأسفل.

رفرف بأجنحته وفرّ.

كانت روز تدفعنا إلى أن نذهب ونرى خلف الجبل إن كانت هناك بالفعل نافورة بيضاء توازن الثقب الأسود، ولكنّ حبالنا السُرّية كانت أصلاً مشدودة جدّاً بحيث كانت تمنعنا من المغامرة في الذهاب إلى مسافة أبعد. وعلاوة على ذلك، كانت ستيفانيا تلحّ علينا لكي نعود بأسرع ما يمكن إلى أغلفتنا الجسدية. كنا قد غادرنا منذ زمنٍ لا بأس به وكان علينا أن نستعجل العودة إن كنّا لا نُريد أن نتعرّض لخطر العثور فقط على أكوامٍ من اللحوم المنخورة.

وعلى مضضٍ، أسرعنا في العودة نحو محطّتنا لإطلاق المستكشفين.

218. ميثولوجيا عربية

حالما يصبح المتوفى نزيل القبر، ينزل عليه ملكان يقومان بمحاسبته: منكر ونكير. وحسب قرارهما، يتحوّل القبر إلى جحيمٍ ويُستقبل بنزلٍ من حميم، أو إلى روضة من رياض الجنّة. وتستطيع الملائكة فيما بعد أن تشفع عند الله لإنقاذ المُدانين. وبفضلها، سوف يخرجون من الجهنّم محروقين مشويين، وسوداً. ومن خلال الاغتسال في ثلاثة أنهر على التوالي، تبيضّ أجسادهم بياضاً على بياض الثلج.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

219. الهموم الأولى

منذ عودتنا، قفز راؤول من كرسيّه. كان متهيّجاً للغاية. انبعثت بروقٌ من نظرته البائسة وحامت يداه حول جسده مثل عنكبوتين خبيثين.

– ماذا هناك؟ هل رأيتَ والدك؟

– كلّا، ولكنّ ملاكاً روى لي حكايته.

– القديس بطرس – هرمس؟

– كلّا، لقد رفض، ولكنّ الشيطان استجاب بطيبة خاطر لصلاتي.

كانت رغبة راؤول في المعرفة شديدة للغاية منذ البداية بحيث كان لا بدّ من أن تُثير اهتزازاً قويّاً. ولكن هل كانت الحقيقة فظيعة إلى هذه الدرجة بحيث وحده ملاكٌ أسود يستطيع أن يكشفها له؟ ارتجفتُ حتى قبل أن يشرع صديقي بسرد روايته.

كان الشيطان قد قال إنّه في أواخر أيامهما، لم يعد السيّد والسيّدة رازورباك يتفاهمان قط. كان فرانسيس يترك زوجته ويكرّس نفسه بالكامل لكتابة أطروحته، *الموت ذلك اللغز*. وكلّما كان يتقدّم في أبحاثه، كانت هي تبتعد عنه. بل اتّخذت عشيقاً. رجلاً يُدعى فيليب.

وقد حدث ما لا مفرّ منه. باغت الأب راؤول ذات يوم العاشقين بالجرم المشهود. استشاط غضباً، وتشاجر معها، وهدّدها بالطلاق. ردّت عليه

السيّدة رازورباك باستعلاء وعجرفة وأكّدت أنّها سوف تقاتل حتى النهاية. وإذا ما حصل الانفصال، لن يكون على حسابها، بل لمصلحتها، بحصولها على نفقة كبيرة وحضانة راؤول.

في مساء نفس اليوم، شنق رازورباك نفسه، معلّقاً بسيفون الحمام. بالنسبة إلى ابنه، لم يكن ذلك انتحاراً، بل اغتيالٌ. كانت أمّه، بارتكابها للخيانة الزوجية، قد دفعت والده، الحسّاس جدّاً، إلى أقصى درجات التطرّف. وبهذه الطريقة، لا بدّ أنّها قد حصلت بهدوء على الميراث واستمتعت على هواها بعشيقها.

لم يكتشف أحدٌ هذه الخدعة. كان من المنطقي أن يصل الأمر بأستاذ فلسفة شغوفٍ بالموت إلى أن يهب نفسه له لكي يكتشف على نحوٍ أفضل الجانب الآخر من المرآة. حتى راؤول صدّق ذلك! من دون مساعدة الشيطان، لما عرف الحقيقة أبداً.

الحقيقة هي الأسوأ من بين كلّ الأسلحة، والملاك المظلم لم يبخل في سرد التفاصيل والدوافع. في الواقع، هكذا كان الأمر، للمرّة الأولى، أُجري تحقيقٌ بوليسي في الفردوس. كم من الإمكانيات قدّمها اكتشاف القارة الأخيرة!

في الشقّة العلوية فوق السطح، أمام كوكتيلات آماندين، حاولنا أن نخفّف عن صديقنا. ولكن كلّ نصائحنا له بدت أنّها تحدث مفعولاً عكسياً عليه. كلّما كنّا نكرّر عليه أنّ كلّ هذه المسألة أصبحت من الماضي، وكلّما كنّا نترجّاه أنّ يوازن بين الأمور، وأن يدع الموتى وشأنهم وأن يترك الأحياء يعيشون حياتهم، كان راؤول يغوص في غضبه وحنقه أكثر.

صرخ، وهو يمسك رأسه بين يديه:

– لقد قَتَلته، لقد قَتَلت أبي!

– كلّا، لقد انتحر. لا يمكنك أن تعرف ما الذي كان يدور في ذهنه حينما مرّر رأسه داخل سلسلة سيفون الحمّام.

– أنا لا أعرف، ولكن الشيطان يعرف. كان والدي يحبّ زوجته، وهي خانته، هذا كلّ ما في الأمر.

كرّرتُ عليه:

- الشيطان لا يفعل سوى دفع الجهلاء إلى الإيغال في جهلهم.

ولكنّ راؤول لم يعد قادراً على أن يفكّر بهدوء. كما لو أنّ كلّ شيء من حوله قد تشوّه بفعل هذه الفكرة التي استحوذت عليه.

في ذروة غضبه وحنقه، نهض، وهو يقلب الكرسي والكأس، وراح ينزل بسرعة طوابق محطّة إطلاق المستكشفين. وإذ خمّنتُ ما الذي ينوي القيام به، اتّصلتُ برقم هاتف والدته لكي أحذّرها. أخبرتها بأنّ ابنها، المقتنع الآن بأنّها قد تسبّبتْ بموت والده، سوف يحضر للانتقام له. أقسمت لي على أنّه مخطئ، وقالت إنّها سوف تبرّر موقفها بسهولة، لكنها أسرعت في إغلاق سمّاعة الهاتف.

كانت قد ألقت سريعاً ببعض الأغراض في حقيبةٍ، وغادرت المنزل عندما حضر راؤول، طافحاً بالحقد، وحطّم باب بيتها.

عاد، وهو في حالة سيّئة. وإذ أخفق في العثور على والدته، هرع إلى منزل فيليب الشهير، عشيق والدته في تلك الفترة. انقضّ عليه، ولكنّ الآخر، الأضخم والأقوى منه، هو من أسقطه أرضاً. كان كلّ ما حدث مضحكاً! فقد عاد مستكشف الموت الفخور بنفسه وأصبح صبيّاً غاضباً، يركل بقدميه ويرغب في تحطيم كلّ شيء!

كم من السهل أن يدع المرء نفسه ينغمر بالحقد!

للمرّة الأولى في حياتي، أدركتُ أنّه من الأفضل، غالباً، ألّا يعرف المرء الحقيقة. من الأفضل أن يظلّ يلحق بها، لا أن يُمسكَ بها، وكان هذا هو السبب الذي سكت القديس بطرس - هرميس من أجله. ألم يقل فريدي أنّ «الحكيم يبحث عن الحقيقة، بينما يكون الغبيّ قد عثر عليها»؟

حينما عاد راؤول إلينا، قال وقد استشاط غضباً:

- أمّي أسوأ الساقطات.

انفجرت ستيفانيا غاضبةً وهي تضع قطعة من القماش الأبيض المبلّل على كدماته:

- منْ أنتَ حتى تحكم عليها؟ ففي النهاية، كانت لوالدك أيضاً أخطاؤه. لقد أهملها ولم يهتمّ سوى بكتبه. وقد اعترفتَ لي بنفسك بأنّه من الناحية العملية لم يهتمّ بك أنت أيضاً على الإطلاق. وأمّكَ، هي التي ربّتك!

ولكنّ راؤول كان في حالة من الغضب والهياج بحيث كان من المستحيل تهدئته وإقناعه.

ردّد، قائلاً:

- كان والدي عالماً وفيلسوفاً. كان قد كرّس نفسه للعلم. وقد فتح الطريق أمام الأبحاث حول الموت. وأمّي قتلته!

وضعت روز يدها الباردة على جبينه الساخن.

غمغمت بصوتها الموسيقي:

- لا شيء بسيط يا راؤول. في الواقع، ربّما عليك أن تشكر والدتك. من خلال «التسبّب بانتحار» والدكَ، خلقت في داخلك تعطّشاً إلى المعرفة، وهي رغبة كانت بحاجة إلى أن تتمّ تلبيتها. بفضلها هي، أتممت على نحوٍ جيّد دراستك في البيولوجيا، وتخصّصت في مجال سُبات المراميط، وأصبحت رائداً في مجال الثاناتونوتية وانتهيتَ إلى اكتشاف القارة الأخيرة.

تمتم راؤول:

- واكتشفتُ الحقيقة أيضاً.

- إذا كان هذا يعزّيك، فتذكّر أنّها سوف تُحاسَب بقسوة، هناك في العلا. مثلها مثل سواها، سوف توضع روحها في الميزان. فالملائكة تتوفّر على كلّ عناصر القضية، بما فيها شهادة والدك. وسوف تتحقّق العدالة. وحدها غطرستنا البشرية تجعلنا نتصوّر أنّنا نستطيع أن نحقّق العدالة هنا على الأرض. العدالة وهم.

أضفتُ إلى الحديث:

- نعم. ثق بالملائكة وبالقدر. هناك في العلا، سوف يُعاقبونها كما تستحقّ.

أردفت آماندين لكي تخفّف عنه:

- وهل يمكن أن يجعلوها تولَدُ من جديد على شكل ضفدع؟

شرب في رشفة واحدة كأس الكونياك الذي قدّمته له وطلب كأساً أخرى، ثمّ زأر:

- هناك بالتأكيد خنافس سعيدة. أتمنى أن يتمّ استنساخها على هيئة خنفساء لكي يتمّ سحقها بدعسةٍ من كعب القدم.

أنا أيضاً طلبتُ زجاجة من الكحول. ثمّ قلتُ متنهّداً:

- أتعلم يا راؤول، أعتقد أنّه عليك أن تجري تحليلاً نفسياً جيّداً، لأنّه في الحقيقة لم تكن مستعداً لأن تسمع ما كشف عنه الشيطان.

أبدت آماندين ملاحظة:

- ثمّ دعونا لا ننسى أنّ الشيطان في النهاية هو ملاك الشرّ.

- تذكّر أننا كافحنا معاً ضدّ عبدة الشيطان وها أنت الآن تستعين به لكي تحلّ مشاكلك الشخصية الصغيرة! أنت لست سوى فاوست في مسرحية غنائية.

لقد تفاجأتُ به كثيراً لدى رؤيته يتخبّط هكذا وسط الغضب، إلى درجة أنني تمنّيتُ لو أنني هززتُ مثل شجرة خوخٍ هذا الحطام المخمور الحزين. صرختُ، قائلاً:

- اسمعني جيّداً! سوف نحتاج إليك أيضاً في محطّة إطلاق مستكشفي الموت، كلّ يوم، وفي كلّ دقيقة. إذاً، دع أمّك وشأنها. ليس لدينا وقتٌ نضيّعه.

انفجر راؤول في ضحكة شريرة.

- ما بال هذا السيّد الذي يعرف كلّ شيء يلقي عليّ المواعظ؟ أخبرني إذاً، هلا نظرت إلى نفسك قليلاً، يا مايكل؟ لقد عرفتُ منه أيضاً بعض الأسرار عنك أنت.

هززتُ كتفيّ، ثمّ قلت:

- هذا مستحيل. لقد أسرّ لك الشيطان ببعض الأسرار حول والدك لأنّك كنت تتمنّى ذلك من كلّ قلبك. ولكن لماذا ستكون قد تحدّثتَ عنّي؟

- صديقي، صديقي العجوز، يا أقدم أصدقائي... لقد اهتززتُ بقوّة كبيرة لكي يخبرني بحقيقتين عنك.

عرفتُ على نحوٍ غريزي أنّ هاتين الحقيقتين سوف تلحقان بي الأذى. وحدهم أصدقاؤك الحقيقيون يعرفون أين يوجّهون ضرباتهم لكي يؤلموك. رغبتُ في أن أصرخ «هيّا، أيّها الثعبان، انفث سمومك!»، ولكنّ الخوف غالبني. سددتُ أذنيّ بينما كان يتلفّظ بأسراره المكتشفة. من خلال الملامح التي ارتسمت على وجوه النساء الثلاث، أدركتُ أنّ الأمر كان خطيراً. وكانت المعلومة الثانية هي التي أثّرت أكثر على روز.

بالكاد رفعت يديّ عن أذنيّ، حتى تلعثم راؤول:

- ألم تسمع جيّداً؟ هل تريدني أن أُعيد عليك ما قلته؟

صرختُ:

- لا أريد أن أعرف شيئاً.

ولكن قبل أن أحظى بالوقت لكي أُعيد أصابعي إلى تجويفي أذنيّ، صرخ فيّ، قائلاً:

- كان والداك عقيمين! أنت وكونراد لستما سوى طفلين متبنّيين! هذه هي الحقيقة الأولى.

انتابني شعورٌ بأنّ شاحنةً ضخمة صدمتني. كانت تلاحقني منذ وقتٍ طويل، وقد هرستني للتوّ. انهار كلّ شيء من حولي. لم يعد ماضيّ هو ماضيّ. لم تكن عائلتي قط عائلتي. والدي لم يكن والدي. والدتي لم تكن والدتي، ولا أخي هو أخي. وكذلك والدة جدّتي آغلاي...

تفرّسني راؤول بتلذّذ. حان دوري في التألّم! ارتسم تعبيرٌ ساديّ على وجهه في حين كان يستعدّ لإطلاق صاروخه الثاني.

- الحقيقة الثانية!

إنّه من الفظاعة أن تسحقك شاحنة. وبالتالي، ليس من الوارد أن تدع شاحنة أخرى تمرّ على أحشائك التي لا تزال ساخنة وسابحة في الدم. دفعتُ بقوّة كبيرة أصابعي في تجويفَي أذنيّ نحو صدغيّ. لا ينبغي أن

أعرف. كلا، لا ينبغي أن أعرف الحقيقة الثانية. رأفةً بي، دعني أهضم أوّلاً الحقيقة الأولى. ولكن الأمر كان قد قضي، ولا بدّ أنّ راؤول كان قد أفصح من جديد عن الحقيقة الثانية. كان القلق يُقرأُ في نظرات آماندين، وستيفانيا، وخاصّة روز. حانقاً، أخرجتُ يديّ لكي أسدّد لكمةً إلى ذقن الرجل الذي كان صديقي الأعزّ.

وهو يجسّ بلطف وجهه، أظهر وجهاً سيئاً ومبتهجاً.

قال:

– شكراً. أحبّ كثيراً أن أتلقّى لكمة قويّة... وخاصّة من يد «أعزّ أصدقائي».

كان لا بدّ أن أردّ عليه بشيءٍ ما لكي أُفحمه نهائياً. لم أحظَ بالوقت الكافي للتفكير في ردٍّ سريعٍ ودقيق. تلفّظتُ بجملة لم تكن تحمل أيّ معنى، كما لو أنني ألفظ حكمةً.

– الكلام مردودٌ على قائله!

220. ميثولوجيا يهودية

«(...). سوف يرون العالم الذي بات الآن غير مرئيٍّ لهم، وسوف يرون الزمن الذي بات مخفيّاً عنهم الآن. علاوة على ذلك، لن يجعلهم الزمن يشيخون. لأنّهم سوف يبقون في مرتفعات ذاك العالم هناك، سوف يكونون أمثال الملائكة وأشباه النجوم، سوف يتحوّلون إلى كلّ الأشكال التي يتمنّونها، من الجمال والبركة، من النور في بهاء المجد. لأنّ فضاءات الفردوس سوف تمتدّ أمامهم. سوف يُعرَض عليهم الجمال السامي للأحياء الذين يقعون تحت التاج بالإضافة إلى كلّ جيش الملائكة، الممنوعة الآن بكلَماتي من أن تظهر للعيان والمرغمة من قبل القيادة على الالتزام بأماكنها إلى أن تحين لحظة ظهورها».

باروخ، ل ي، 8–11

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

221. استمارة الشرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة:

لقد نُقِلَت معلومات سرّية إلى موتى من قبل ملائكة تفتقر إلى المصداقية. هناك خطر أن تكون لذلك عواقب وخيمة. إنّ التدخّل ضروريٌّ من أجل وضع حدّ لهذه المغامرة الخطيرة.

جواب من الجهات المختصّة:

أنتم تبالغون دائماً بشأن ترّهات. نحن نسيطر تمّاماً على الوضع. وكلّ شيء يسير على أفضل ما يُرام. ليس هناك أيّ سبب ليكون الأمر مختلفاً هذه المرّة.

222. كتاب التاريخ المدرسي

من الضروري أن يكون المرء قويّاً جدّاً لكي يواجه الحقيقة. كم شخصاً من بيننا استطاعوا أن يسمعوا الحقيقة ويحافظوا على هدوئهم؟ ما إن أُدرِكَت الآثار المنحرفة للثاناتونوتية، حتى أقامت وزارة التربية الوطنية دروساً تحت عنوان A.S.V. أي (المواجهة الهادئة للحقيقة). لم يُقرّ هذا التعليم في صفوف الدراسة العليا فحسب بل امتدّ سريعاً في صفوف المرحلة الابتدائية أيضاً. وقد أصبح منذ فترة جزءاً من اختبارات الشهادة الثانوية.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

223. يتيم

وفور عودتنا إلى غرفتنا، مارسنا، روز وأنا، الحبّ. وكانت هي من تمدّدت نحوي. همست في أذني بأنّها تريد طفلاً منّي بأسرع ما يُمكن. وقد جاء ذلك في الوقت المناسب. أنا أيضاً كنتُ أريد طفلاً منها منذ وقتٍ طويلٍ.

حتى هذه اللحظة، لم يكن لدينا سوى حيوانات ونباتات. وكنّا قد تقدّمنا في ذلك تدريجياً. في البداية، اقتنينا نبتة خضراء (مملّة)، ثمّ شجرة برتقال (كانت تُعطي ثماراً غير صالحة للأكل)، ثمّ اقتنينا سمكة حمراء (اللوياثان الذي عثرنا

عليه ذات يوم وقد نفق، من دون سبب)، ثم اقتنينا السلحفاة البحرية زوزو (المنشغلة دون توقّف بتناول ديدان صغيرة بنهم)، ثمّ كابياء خنزيرية (المُسمّاة بوي - بوي لأنّها كانت تئنّ طيلة الوقت «بوي، بوي، بوي» لكي تُشعرنا بأنّها جائعة)، ثمّ اقتنينا قطّاً فأكل الكابياء الخنزيرية، ثم اقتنينا كلباً (انتقم هذا الكلب للكابياء الخنزيرية من خلال تعذيب القطّ دون توقّف).

إذا ما أنجبنا الآن طفلاً، فسوف يكون محلّ ترحيبٍ، لا لشيء إلّا لكي ينتقم بدوره للقطّ، من خلال شدّ أذني الكلب وذيله وقوائمه ورموشه وخطمه. الأطفال موهوبون بالفطرة لكي يحقّقوا المساواة.

ولأنّ روزا كانت تفكّر دائماً بطريقة علمية، راجعت مفكّرةً، وأعلنت:

- ربّما يكون التوقيت مناسباً.

أبديتُ ملاحظة:

- بقليلٍ من الحظّ، سوف يمكننا حتى أن ننجب نسخةً من فريدي.

كان فريدي قد قال إنّه سوف يغوص في البلد البرتقالي لكي يحاول أن يُخلَقَ من جديد خلال عامٍ واحد. والآن كانت ثلاثة أشهر قد مضت على ذلك... ولكن بقليلٍ من الحظّ، ربما ننجح في ذلك رغم كلّ شيء.

في كلّ الأحوال، انبهرت روز بالفكرة. سوف يكون أمراً رائعاً أن نخبر الوالدين بالولادة الجديدة لفريدي.

مرّة أخرى كنّا نصبح روّاداً. فمن فكّر في إنجاب طفلٍ كوعاءٍ لروحٍ مختارة مسبقاً؟ كان الأمر كما لو أننا نصنع مزهرية لكي نضع فيها زهوراً مخزّنة مسبقاً.

قلتُ بفرح:

- هيّا إلى العمل.

كان عناقنا مبهجاً، ومع ذلك تفاجأتُ بمسحة حزن على وجه روز حينما وضعت رأسها على الوسادة.

سألتها ما الذي ضايقها فجأةً. تنهّدت وجعلتني أقسم على أن أسدّ أذني دائماً عندما يحاول راؤول أن يصفعني بالحقيقة الثانية.

قلتُ:

– إنّها مرحلة وسوف يتجاوزها. يشعر راؤول بالمرارة لأنّه حزين بمعرفة أنّ أمّه قد قتلت والده، وأنا أتفهّم ذلك.

احتجّت، قائلةً:

– ولكن، لا علاقة لك في شيءٍ بهذا الأمر. لا أدري لماذا، ولأيّ متعة مرضية، يريد الآن بأيّ ثمنٍ أن يكشف لك عن الأسرار السيّئة التي كشفها الشيطان. في كلّ الأحوال، لقد أحسنتَ لكمه. كنتُ أجهل أنّ زوجي يمتلك هذه الموهبة في الملاكمة!

قالت هذا وهي تضمّ نفسها إليّ من جديد.

عبستُ مبدياً امتعاضي.

– هذه هي المرّة الأولى التي أضرب فيها أحداً بهذه الرغبة في إلحاق الأذى به... وهنا، خسرتُ أعزّ أصدقائي.

صرّحت بثقة:

– كلّا. ليس لدى راؤول أيّ شيء ضدّك. مثلما كان عمّي غيوم يردّد: «حينما يكون أحدٌ ما غاضباً منك، لا يكون بالفعل غاضباً منك، إنّه فقط غاضبٌ من نفسه».

مارسنا الحبّ مرّة ثانية. طردتُ من ذهني عبارة «في الواقع، ماذا أفعل...» المتطفّلة دائماً، لكي أستبدلها سريعاً جدّاً بأفكارٍ، ومن ثمّ بمشاعر أكثر لطفاً بكثير.

بعد ذلك، انحنت روز، الساحرة في قميص نومها، على الشرفة لتتأمّل الليل المتلألئ بالنجوم. كان القمر بدراً مكتملاً، وكانت النجوم من حوله تجذب الانتباه.

همهمتْ:

– أتساءل أحياناً إن كنّا لا نلعب دور السحرة المتدربين. انظر كيف رمى بنا اكتشاف المنطقة الأخيرة من الفردوس بعضنا ضدّ بعضٍ.

– ومع ذلك لن تساندي الظلاميين الذين يريدون أن نوقف اكتشافاتنا، أليس كذلك؟

– كلّا، بالتأكيد. بل وضع ضوابط وموازين فقط لكي نتجنّب اللطخات الشنيعة. ربّما تكون حكاية راؤول عبارة عن إنذار. تخيّل لو أنّ أيّ فرد عاد إلى الأسفل وصادف ملاكاً ليُخبره بحقائق غير مرغوبٍ فيها!

– يكفي أن يحافظ على هدوئه. أخبرني راؤول بأنني يتيم، وماذا في ذلك؟ هذا لم يغيّر أيّ شيء في سلوكي. على العكس من ذلك، أنا الآن أكثر امتناناً لوالديّ بالتبنّي على استقبالي وتربيتي.

كنتُ راغباً في أن أسأله عن الحقيقة الثانية لكي أرى إن كنتُ قادراً على تحمّلها. رفضت روز ذلك، وجعلتني أَعِدُها بألا أطلب منه أبداً أن يخبرني بذلك. قرأتُ في نظرتها أنّها مقتنعة بأنّ الحقيقة الثانية سوف تحدثُ أضراراً أكثر من الأولى.

مع ذلك، لم أكن أرى ما الذي قد يمكنه أن يكون أكثر فظاعةً من أن نعلم أنّ الوالدين اللذين لطالما اعتقدنا أنّهما والدانا لم يكونا في الحقيقة والدينا الحقيقيين.

نمنا أحدنا بين ذراعي الآخر.

في الصباح، لم يعد راؤول حاضراً. لقد اختفى في مكانٍ لا أحد يعرفه.

ظللتُ وحدي في محطّة إطلاق المستكشفين مع النساء الثلاث «خاصّتي»: روز، وآماندين، وستيفانيا. كانت زوجتي قد ثبّتت على أحد جدران الشقّة العلوية على السطح ملصقاً كبيراً يمثّل المجرّة وفي مركزها نبع الفردوس الذي لا نهاية له. كنتُ أراقب غالباً هذه الصورة، وهي ثمرة كلّ جهودنا. كان كلّ شيء يبدأ من هنا ويعود إلى هناك. كلّ الطاقات، كلّ الأنوار، كلّ الأفكار، كلّ الأرواح. كانت عبارة عن حاوية وخزّانٍ. إنّه معنى حيواتنا.

الفردوس.

كَان فريدي هناك... وليس فريدي فقط، بل كلّ مستكشفينا الأوائل: مارسيلان، هيوغ، فيليكس، راجيف... بعض سجناء سجن فلوري ميروغيس في حالةٍ من الفوضى...

كنتُ أجلسُ أحياناً في المساء أمام مُستقبل الهوائي الكبير الذي كنّا قد

نصبناه فوق قمّة مبنى محطّة إطلاق المستكشفين، وأنظر على شاشة المراقبة إلى الموتى وهم يحلّقون مثل أسرابٍ كثيرة من الحمام. رحلة سعيدة، أيّها المعاصرون الأعزّاء.

كانت نقطة خضراء اللون ترمز إلى كلّ ميّت. يندفع بعضهم على نحوٍ أسرع من الآخرين. لا شكّ في أنّ حاجتهم إلى مغادرة هذا العالم كانت أقوى. نادراً جدّاً ما كنتُ أراقب روحاً عائدة إلى الأرض. كنتُ أتساءل تُرى هل هي روح ناجٍ من الطبّ، أو مستكشفٍ معزول، أو عاشقٍ لم يشأ أن يغادر حبيبته الحسناء، أو قتيلٍ يرغب في الانتقام لنفسه على هيئة شبحٍ، أو راهبٍ في حالة تأمّل، أو ملاكٍ قام سرّاً بزيارة الكائن البشري الذي التجأ إليه؟

فيما يتعلّق بأمر راؤول، اعتقدنا أنّه يتوه في مكانٍ ما من هذه الأرض المادّية تماماً، بحثاً عن أمّه التي من لحمٍ ودم. في الواقع، لم يكن بعيداً. فبعد أن عجز عن العثور عليها، وندم على مواجهتنا، كان ينتقل من حانةٍ إلى أخرى، ويزعم أنّ شرب المشروبات الكحولية يتيح له عند اقتضاء الضرورة تحسين تقنيته في الطيران.

ذات يوم، بعد أن أفاق، تبيّن له أنّه قد شرع بجدال كبيرٍ مع نفسه حول العدالة. عاد إلى محطّة إطلاق المستكشفين، ودقّ بابي، واعتذر منّي عن إلحاقه الأذى بي، ووعدني وأقسم على أنّه لن يحاول أبداً أن يكشف لي الحقيقة الثانية التي، لحسن الحظّ ،لم أكن قد سمعتها.

شكرته على مبادرته دون أن أكون مقتنعاً كثيراً. إذ لم يكن يروق لي كثيراً أن أعرف أنّ هناك معلومة بوسعها أن تقلب حياتي رأساً على عقب وأن أبقى طواعيةً غارقاً في جهلي بها.

في المساء، زارتني أمّي وأخي بالتبنّي. ربّما لم يكونا سوى غريبين، ولكنني مع ذلك قدّرتُ الأهمية التي كانا يشغلانها في حياتي. لقد عاملني والداي على الدوام كفردٍ من أسرتهما، دون أن يسمحا بتسريب أي دليل يناقض ذلك. لقد دلّلاني، واحتفظا بالسرّ. لقد صرخا في وجهي ومنحاني الرغبة في التمرّد عليهما كما لو أنني ابنهما الحقيقي. واستطعتُ أن أتخلّص من عقدة أوديب خاصّتي مع والدي الزائف والفاشل، واستطعتُ أن أقع لا

شعورياً في حبّ والدتي البائسة، كما استطعتُ أن أدخل في منافسةٍ مع أخي المثير للشفقة. ولكلّ هذا، ألف شكرٍ لهما.

ربّما هذه هي العدالة الحقيقية: أن تكون قادراً على أن تقول شكراً لمن أحسنوا إليك، وعدم تقبيل يد الذين آذوك. هذا يبدو بسيطاً بهذه الطريقة، ولكن غالباً ما نجد أنفسنا نفعل بحماقةٍ عكس ذلك ولا نعود نعلم حتى لماذا.

عانقتهما كما لم أعانقهما قط من قبل، قائلاً في نفسي إنّه مهما كانت الظروف، لن أقبل بأن أتناقش هناك في العلا مع والديّ الحقيقيين، اللذين تخلّيا عني كما يتخلّيان عن كتلةٍ من الخِرَق. لم أرغب في معرفة الأسباب (الوجيهة جدّاً بكلّ تأكيد) التي دفعتهما، بل ولم أشأ أن أرى وجهيهما. إذا كانا قد تخلّيا عنّي، فأنا تخلّيتُ عنهما بدوري، أمّا بالنسبة إلى الوالدين اللذين تبنّياني، فأنا تبنّيتهما.

لم تكن لدي سوى أسرة واحدة: أمّي المزعجة، وهذا المعتوه كونراد. لقد أتاحت لي حقيقة راؤول أن أفهم حقيقةً أغلى بكثير ولا تُقدّر بثمن.

لا يختار المرء أصدقاءه قسراً، ولكن... يمكن للمرء مع ذلك أن يختار عائلته!

224. ميثولوجيا مسيحية

«ولكن إن كان المسيح يُكرَزُ به أنّه قام من الأموات، فكيف يقول قومٌ بينكم إنْ ليس قيامةُ أمواتٍ؟ فإن لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام. وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم

[...]. إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح، فإننا أشقى جميع الناس [...]. إن كان الأموات لا يقومون، فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت».

رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس الفصل الأوّل، الإصحاح الخامس عشر

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

225. مؤتمرات

مستغلين فرصة أنّ السرّ قد بقي، حتى اللحظة، محفوظاً جيّداً، ضاعفنا من عدد رحلاتنا لكي نستكشف على نحوٍ أفضل، وإذا أمكن حتى النهاية، البِرْكة الأخيرة للفردوس.

كانت الملائكة قد اعتادت على زيارات فريقنا الصغير من المستكشفين، وكانت تُسمّينا «المطّلعين الكبار لفترة قصيرة» خاصّتها. وكانت توافق، إن طوعاً وإن كرهاً، على الردّ على أسئلتنا، كما لو أنّ هذه الأحاديث تندرج في عمليةٍ معروفةٍ جيّداً من قبلها.

عندما نتعرّف على الملائكة بعض الشيء، تتجلّى ودودة وحكيمة للغاية. ومع ذلك يتعلّق الأمر بالبوداسف المتفوّقين، بنخبة الأبرار المخفيين، وبأقدس القديسين.

لقد اكتشفنا شيئاً فشيئاً على نحوٍ أفضل معنى الحياة، ولكننا بقينا وحيدين في معرفة ذلك. ارتأى لوسيندير ذات يوم أنّ هذا الوضع قد استغرق وقتاً طويلاً. كان مقبلاً على الترشّح لولاية رئاسية ثالثة. كانت حصيلة سنوات رئاسته كارثية على كلّ الصعد السياسية والاقتصادية والدبلوماسية. لم يكن قد تبقّى لديه سوى ورقة رابحة واحدة ليلقي بها في المعركة الانتخابية: الثاناتونوتية. كان الحديث عن الملائكة والفردوس أكثر حذراً من ذكر مؤشرات الركود الاقتصادي، وأرقام البطالة التي كانت في تزايد مرعب، وعن عجزٍ مُحبطٍ تماماً في الميزان التجاري.

وبالتالي، كان لوسيندير يعتمد علينا لكي نبني له صورةَ منتصرٍ. ففي نهاية المطاف، كان الرجل الذي أطلق حملة استكشاف القارة الأخيرة، وهو مشروعٌ جريء تُسجّل له مشاركته فيه. إنّ الجمهور سوف يرغب بكلّ تأكيد في معرفة المزيد عمّا يحدث بعد الموت. وكيف يمكن النجاح في ذلك سوى من خلال دسّ بطاقة تصويتٍ باسم الرئيس المنتهية ولايته في صندوقٍ انتخابي؟

لكلّ شيءٍ ثمنه: إنّ صوتاً واحداً يعادل خطوةً إضافية نحو تفسير موتك. كان هذا جوهر البرنامج الانتخابي لصديقنا.

من جهتي، لم أكن مقتنعاً بأنّ الوقت قد حان لكي نكشف للناس أنّ هناك بلداً أبيض يتجاوز موخ 6، وهو مأهولٌ بالملائكة، حيث على الموتى تقديم الحساب عن كلّ الأعمال الطيّبة وكلّ الأفعال السيّئة التي أقدموا عليها خلال مرورهم من هنا في العالم السفلي. كنتُ في موقعٍ يُتيح لي تقدير حجم أضرار الحقيقة.

وما الذي لا يمكننا أن نعلمه هناك في العلا؟ مَنِ الذي أمرَ باغتيال كينيدي، ومن الذي دبّر موت مارلين مونرو، ومن وضع السلاح في يد فرانسوا رافاياك ليقوم باغتيال هنري الرابع؟ من كان ذو القناع الحديدي؟ أين كان مخبّأً كنز القرصان ذي اللحية السوداء؟ هناك في العلا، إذا ما رغبنا في ذلك رغبةً قويّة، لأمكننا الوصول إلى كلّ الحلول، إلى كلّ الأجوبة. هل كان ذلك بالفعل شيئاً جيّداً؟

علاوة على ذلك، حينما يعلم كلّ فرد أنّه يكفي أن يدعو من كلّ قلبه الملائكة لكي تتحقّق كلّ أمنياته، ستكون هناك فوضى عارمة في المنظور! سوف تتناقض رغبات بعضٍ تناقضاً تامّاً مع أمنيات آخرين. سوف يطمع بعضٌ في السلطة، بينما يطمع آخرون في الميراث، ولن يحلم بعض سوى بالسلام، بينما سيحلم آخرون بسفك الدماء. كيف سيمكن إرضاء جميع سكان الأرض في آنٍ واحدٍ؟

إنّ عالماً تتحقّق فيه كلّ الرغبات بناءً فقط على التماس الملائكة، ألن يكون جحيماً حقيقيّاً؟ كان فريدي يقول: «دعونا نكون حذرين من رغباتنا، فربّما نخاطر بأن نملّ كثيراً، إذا ما تحقّقت». أتذكّر أنّني كنتُ قد تمنّيتُ موت مدرّسٍ للجغرافيا سريع الغضب للغاية. وأتذكّر أنني تمنّيتُ أن أحظى بحرملكٍ من النساء المستعبدات. وأتذكّر أنني تمنّيتُ أن أموت. ولحسن الحظّ، لم تحقّق الملائكة أمنياتي، تماماً مثلما لم تحقّق أمنيات الكثير من الطغاَة الذين تمنّوا أن يصبحوا أسيادَ العالم!

أكّدتُ بقوّة:

– كلّا. لا ينبغي الكشف عن وجود الملائكة. البشر ليسوا مهيّئين بعد لإعلان كهذا.

قال الرئيس مع ابتسامة مرحة:

- اهدأ، اهدأ. عزيزي مايكل، لقد تمّ إعلامك بأنّك لست سوى طفلٍ متبنّى ولم تُبالغ في ردّ فعلك هكذا!

بالتأكيد. ولكن حقيقة ثانية، وهي المجهولة بالنسبة إليّ، كانت تستولي على تفكيري وتُطاردني... دون أن أجرؤ على الاعتراف بهاجسي، فتقدّمتُ وقلتُ ببساطة:

- ربّما، ولكن انظروا إلى راؤول وأمّه!

- يحتاج رازورباك إلى الراحة. يُفرط رازورباك في شرب المشروبات الكحولية. لقد أقنعته بأن يتّبع علاجاً للتخلّص من سموم المشروبات الكحولية. وقد وعدني بأن يأتي لكي يمدّ لنا يد المساعدة في حملتي الانتخابية حالما يصبح أفضل حالاً.

- ولكنّ والدته، ألا تزال مضطرّة لأن تختبئ على الدوام؟

- لقد غفر لها.

- كيف نجحت في الحصول على قراره بالعفو عنها؟

فرك الريس يديه بعضهما ببعض، مبتهجاً:

- من المؤكّد أنّ هؤلاء الملائكة عمليون جدّاً. لستُ أنا من أقنعته، يا راؤول، بل ستيفانيا هي من نجحت في ذلك. كان الملاك الأسود الشيطان قد تسبّب بكلّ هذه الأضرار، وهي لجأت إلى رئيس الملائكة جبرائيل، بديله الأبيض، وهو أصلح تلك الأضرار. ها أنت ترى، عزيزي مايكل، يمكننا أن نثق بالفردوس. فالشرّ الذي يولّده، من الممكن تحويله إلى خير.

ما الجواب على هذا؟ ثمّ من أنا حتى أخالف رئيس الدولة؟ كان بوسع راؤول أن يقدّم اعتراضات ولكنّه لم يكن موجوداً معنا، ولأسبابٍ وجيهة! أمّا ستيفانيا، وروز، وآماندين، فلم يجدن أيّ مبرّر لعدم الكشف عن السرّ الأعظم للجميع، وبالتالي خضعتُ للإرادة العامّة.

وبهذه الطريقة دخلنا مرحلتنا المسمّاة «شو بيز». عقدنا سلسلة من المؤتمرات عبر العالم، ونحن نتحدّث في كلّ مكان تقريباً عن مقابلاتنا مع

الملائكة، ورؤساء الملائكة، والملائكة السارافيم، والجنّ، بل والشياطين. في بداية انطلاقنا، كنّا نعقد هذه المؤتمرات كلّنا معاً، ستيفانيا، وآماندين، وروز، وأنا. ولكن، على نحوٍ تدريجي، تبيّن لنا أنّ آماندين وحدها كانت موهوبة جدّاً للقيام بهذا النوع من النشاط.

أصبحت الممرّضة الفاتنة، الصامتة في البداية، ثمّ المتحفّظة، تتوفّر فجأةً على موهبة خطابية مؤكّدة. غالباً ما يتبيّن أنّ الأشخاص الأكثر صمتاً هم الخطباء الأفضل ما إن تُمنَحَ لهم الفرصة.

كانت آماندين تجيد إيصال شغفها بالثاناتونوتية. تذكر بإعجاب الفردوس، حيث كانت تعود على نحوٍ متزايدٍ في سبيل البحث (عبثاً حتى الآن) عن فريدي والتحدّث مع القديس بطرس. علاوة على ذلك، كان ترمّلها الذي حدث مؤخّراً يمنحها مصداقية إضافية، إذ إنّ أرملة لن تستطيع أن تكذب بشأن موضوعٍ يمسّها عن كثب، وخاصّةً عندما يكون زوجها أفضل مصمّم لتشكيلات رحلات الطيران الثاناتونوتية!

لقد تحوّلت مؤتمرات آماندين إلى عروض مسرحية حقيقية. كانت تظهر وهي مرتدية ثياباً سوداء بالكامل وسط بياض الأضواء الكاشفة، في حين كانت جوقة الفرق الموسيقية تبدأ الافتتاح بعزف معزوفة كارماوينا بورانا للملحّن كارف أورف التي تعتمد على أربع وعشرين قصيدة وجدت في القرون الوسطى. كانت ملاكاً أبيض في جسد غرابٍ أسود، وتشبه على نحوٍ متزايد تلك التي كنتُ أصادفها في كلّ واحدة من غزواتي التي أشنّها خارج العالم الأرضي.

ذات مساء، في حين كانت تُنهي عرضها، رفع صحافيٌّ يده.

- يبدو لي أنّ حكاية «وزن الأرواح» هذه غير مفهومة، هل تقصدين حقّاً أنّهم، هناك في العلا، يحتسبون النقاط مثل العديد من أنظمة منح الدرجات وفقَ مبدأ المكافأة والمعاقبة؟

أخذت آماندين وقتها قبل أن تجيب:

- نعم. الحياة تشبه، إلى حدٍّ ما، البكالوريا. نكرّر الامتحان إلى أن نحصل على الدرجات المطلوبة.

تابع الرجل:

- وفي هذه الحالة، كم درجة تلزم حتى تجد الروح حلّاً لدورة تناسخها؟

لا بدّ أنّ القديس بطرس لم يكن بخيلاً مع مفاتيحه. قدّمت آماندين أرقاماً دقيقة:

- ستمئة نقطة. حسب المقياس المفروض من قبل رؤساء الملائكة - القضاة الثلاثة، يحتاج المرء إلى ستمئة نقطة لكي لا يعود مضطرّاً لأن يخضع لامتحان الحياة مجدّداً.

سادت جلبةٌ في القاعة. ألم تكن الحياة سوى قاعة درس يتلخّص فيها كلّ شيء بالحصول على أكثر الدرجات الإيجابية قدر الإمكان من خلال تجنّب المرء بأفضل ما يمكنه الدرجات السيئة ودرجات الرسوب؟

هذه الرؤية «المدرسية» للمصير كان فيها ما يخيّب الأمل كثيراً. ولكنّها كانت تحظى على الأقل بميزة كونها متماسكة.

أوضحت آماندين:

- إنّ فعلاً مفيداً وحيداً يمكنه أن يجلب ستمئة نقطة دفعة واحدة.

ساد همسٌ ينمّ عن الارتياح. إذاً، يكفي أن يُحسن المرء التصرّف مرّة واحدة في حياته لكي يحظى بالخلاص!

بيد أنّ المُحاضِرةَ أكملت شرحها:

- ... ولكن، بنفس الطريقة، يمكن لفعلٍ ضارٍ وحيدٍ أن يُفسد حياةً بأكملها. لقد أسرّ لي ملاكٌ بأنّه يمكن للمرء أن يخسر نفسه أو ينقذها من جرّاء الأفعال التي تبدو للحظة تافهة. إذ إنّ عملية الوزن دقيقة جدّاً وينهمك القضاة في عمليات حسابية طويلة جدّاً. في الواقع، ليس هناك ميّتٌ واحدٌ من أصل عشرة آلاف ينجح في الحصول على ستمئة نقطة، والتحوّل إلى روحٍ طاهرة. إنّ الغالبية من الموتى يفشلون، وبالتالي يتمّ تناسخهم.

طُرِحَت أسئلة أخرى.

- هل هناك حيوات أيضاً في العالم العلوي؟

– نعم، وحينما تكون قد أحسنت التصرّف في حلقتها الحيوانية، يتمّ تناسخها في هيئة كائنات بشرية. ويكون البشر في أعلى سلّم تناسخ الروح لأنّهم الوحيدون الذين يتوفّرون على وعي مجرّد.

– هل هذا يعني أنّنا كنّا جميعاً حيوانات قبل أن نصبح بشراً؟

– بالتأكيد. لقد بدأ التطوّر من المعدني إلى النباتي، ومن النباتي إلى الحيواني، ومن الحيواني إلى البشري، ومن البشري إلى الروح النقيّة. هذا هو مغزى الحياة.

كانت آماندين تكشف الآن عن كلّ أسرار العالم، ومع ذلك، ظلّت الأسئلة تنهمر عليها:

– هل يمكن أن تحدث عملية عكسية؟

– بالطبع. إذا ما تصرّف المرء على نحوٍ سيئ للغاية خلال حياته، سوف يسقط من جديد في شكلٍ من أشكال الحياة السابقة. سوف يتحوّل المرء من إنسانٍ إلى حيوان. ولكنّ الأمر يتعلّق هنا بحالات نادرة جدّاً.

– وما الذي يحدث لأناسٍ سيئين ولكنّهم ليسوا أشراراً بما فيه الكفاية لكي يعودوا إلى الطور الحيواني؟

– يتم تناسخهم ككائنات بشرية سوف تكون حياتهم غير مريحة للغاية وسوف يضطرون فيها إلى أن يُظهروا رغم كلّ شيء أفضل ما فيهم. في الواقع، الجحيم موجودٌ هنا في العالم السفلي، على الأرض. وأولئك الذين أساؤوا التصرّف في حياتهم، سوف يتمّ تناسخهم في بلدان تعاني من الحروب أو المجاعات المزمنة. وسوف يكونون فقراء ومرضى ومعاقين... في هذه الظروف المزرية، سوف يحظون أيضاً بفرص التكفير عن ذنوبهم. سوف يمكنهم أن يُضحّوا بأنفسهم في سبيل الآخرين بطريقة أكثر لفتاً للانتباه. وسوف يكون من الأسهل عليهم أن يُظهروا حسن نيّتهم.

رفع الصحافي يده في الحال.

– هل تقصدين بهذا أنّ الذين ولدوا في أُسر ثريّة غربية هم جميعاً أناسٌ أحسنوا التصرّف في حياتهم السابقة؟

تنهّدت آماندين.

- سوف يكون الأمر في غاية البساطة. يمكن للمرء أن يكون تعيساً، بل وتعيساً غاية التعاسة، في حضن عائلة ثرية غربية ويمكنه أيضاً أن يكون سعيداً، بل وسعيداً غاية السعادة، وسط دفء وتكافل أحد الأحياء الفقيرة في العالم الثالث. ففي نهاية المطاف، إنّ بلداننا التي يُزعَم أنّها الأكثر تطوّراً هي التي تشهد أعلى نسب الانتحار.

توجّه الحضور، في حيرةٍ، نحو مخرج القاعة.

226. ميثولوجيا مسيحية

«هكذا أيضاً قيامةُ الأمواتِ: يُزرعُ في فسادٍ ويُقامُ في عدمِ فسادٍ. يُزرَعُ في هوانٍ ويُقامُ في مجدٍ. يُزرَعُ في ضعفٍ ويُقامُ في قوّة. يُزرَعُ جسماً حيوانياً ويُقامُ جسماً رُوحانياً».

رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح الخامس عشر، 42-44.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

227. سُرّة

انطلق راؤول من جديد في البحث عن أمّه التي كانت لا تزال تختبئ منه، لأنّها كانت تجهل عدوله عن رأيه في الانتقام منها لأبيه. أصبح مقلّاً في الكلام، ولكنّه بدا أنّه لا يزال مسكوناً بالغضب. وإذ بات محروماً من الآثار المخدّرة للكحول، كانت المرارة التي يشعر بها تزداد يوماً بعد آخر. بعد أن حاول كثيراً أن يلحق بأبيه، لم يعد بوسعه الآن أن يعثر على أمّه. وفي نهاية المطاف، لم يكن هذا إلّا بحثاً شائعاً في التحليل النفسي. مرّة أخرى، كانت عقدة أوديب تغدو عقدته هو. لولا أنّ راؤول هو الذي قلب كلّ شيء رأساً على عقب. كان يحبّ أباه، ويودّ قتل أمّه.

بذلت ستيفانيا جهدها لكي تريحه بأفضل ما لديها، وخاضا معاً أحاديث

مطوّلة. كان راؤول يلتزم الصمت معي كما لو أنّه يخجل من سلوكه السابق.

لقد أصبحت آماندين الآن نجمة مشهورة. وقد غدت مستكشفتنا الأولى في المحطّة، تنتقل ذهاباً وإياباً بين بوت شومو والفردوس، حيث تلتقي مع القديس بطرس الذي تعلّقت به كثيراً، وأصبح يناديها «مطّلعتي العزيزة»، حسبما ادّعت.

كان لوسيندير يصعد على سلّم استطلاعات الرأي قُبيل الانتخابات في حين كنّا، روز وأنا، نهتمّ على نحوٍ خاصّ بالجغرافيا الكاملة للفردوس. ما الذي يوجد بعد منطقة وزن الأرواح؟ لقد اقتربنا من تلك المنطقة مرّاتٍ عديدة، ولكننا لم ننجح قط في الالتفاف على جبل النور لنكتشف ما كان موجوداً خلفه، إذ اكتشفنا أنّ حبالنا السُرّية قصيرة جدّاً. ولمّا كانت روز علاوة على ذلك حاملاً، لم يرغب أيٌّ منّا في أن نخاطر بحياتها في سبيل المعرفة.

كانت زوجتي كرائدة فضاء لا تزال تعتقد أنّه يوجد في نهاية الثقب الأسود نقيضه، أي نافورة بيضاء تُطلق الأرواح على طريقة بندقية ذات سبطانة واسعة الفوهة. يتمّ امتصاص الموتى من جهة، ومن ثمّ لفظهم من الجهة الأخرى نحو تناسخهم. وبانتظار الذهاب إلى هناك لرؤيتها، عكفت بطريقة عمليّة أكثر على دراسةٍ حول أشعّة غاما، المحمّلة بالطاقة أكثر من الأشعّة السينية أو الأشعة فوق البنفسجية. لقد ابتكرت جهاز استشعارٍ جديدٍ لأشعّة غاما يتيح لنا أن نراقب على نحوٍ أفضل، من الأرض، أطراف الفردوس ومركز مجرّتنا.

حينما انتهيتُ من الاستحمام، بقيتُ ذات يوم أحدّق في الماء الذي يجري مبقبقاً إلى داخل البالوعة. كان كلّ سرّ علم الفلك يكمن هنا، في هذه الدوّامة، مثل ثقبٍ أسود حيث ينصبّ هذا الماء المستعمَل. حلقة في المركز المليء بالطاقة. فكّرتُ في لغز راؤول القديم: كيف يمكن رسم دائرة ومركزها من دون رفع القلم؟

سال الماء نحو المجاري. ولكن إلى أين تخرج أرواحنا؟ في كلّ شيء، لا ينبغي البحث عن الرأس، بل ينبغي التركيز دائماً على المركز. كانت ستيفانيا تؤكّد أنّ الأنا الحقيقية تكمن في الممرّ القديم الذي يربطنا لبعض

الوقت بأمّنا. سُرّة البطن. من هناك، تلقينا الغذاء والدم والقوّة، ومن ثمّ، عند الولادة، انغلق الباب. ولكن، حسب رأي ستيفانيا، تبقى السُرّة مع ذلك نقطة مهمّة. مركز جاذبيتنا، وبالتالي مركزنا الحقيقي.

ولأنّها على اتّصالٍ مع كلّ المناطق التي سبق لها أن غذّتها، يكفي أن تُدفّأ في حالة المرض، لكي تبثّ الدفء في كامل الجسد.

من خلال سُرّة بطننا، نبدأ بالحياة. وفي سُرّة المجرّة، نموت.

حدّقتُ في مغطس الحمّام الذي بات الآن فارغاً، وارتديتُ رداء حمّامٍ فوق جلدي الندي.

228. ميثولوجيا مصرية

في مصر القديمة، خلال حكم الأسرة المصرية الثامنة عشرة، كانت معاملة الفراعنة وبعض الموتى النبلاء تخضع لطقوس تحنيطٍ دقيقة وصارمة جدّاً. تبدأ بتمديد جثّة الميت على الظهر. يكون رئيس المراسم عموماً أحد كهنة الإله أوزيرس، يرتدي زيّاً شبيهاً بزي حورس. يكون مصحوباً بأربعة مساعدين يرمزون إلى الاتجاهات السماوية الأربعة. يقوم هؤلاء بإزالة الشعر عن الجثّة ثمّ يشقّون البطن في الجزء الأيسر على مستوى حجاب الحاجز. يدسّ كاهن أوزيرس يده إلى داخل الجرح ويبدأ بإفراغ الأعضاء الرئيسية المعرّضة للتفسّخ، مثل الكبد والطُحال والرئتين، والأمعاء والمعدة. ما إن يتمّ تنظيفها، حتى تُعاد إلى مكانها، بعد أن تُعالَج بمحاليل من مواد حافظة مستخلصة من مركّبات نباتية. يقوم المساعدون بدهن القفص بالقطران لمنع تفسّخ الأنسجة، ثمّ يحشون الجسم بالزيت ولفائف الكتّان لكي يمنحوا البطنَ شكله الطبيعي من جديد. ويفعلون الشيء نفسه بالنسبة إلى الجمجمة. يُدخلون في منخري المتوفّى إزميلاً صلباً لثقب التجويفين الأنفيين. وبذلك يتمكّن المحنّط من إدخال أداة معقوفة يهرس بواسطتها الدماغ الذي يتمّ إخراجه من الجمجمة من خلال النفخ في المنخر الآخر. ما إن يتمّ قذف الدماغ خارجاً، يضع رئيس المراسم القطران في تجويف الجمجمة. يُمرّره بشكلٍ متّسق على كامل الوجه الداخلي وهو يُدير الرأس

في كلّ الاتجاهات لكي يغطّي القطران جيّداً كل المناطق. ثمّ يُغطّى الجسم أخيراً بأشرطة رقيقة من نسيج الكتان بالزعفران الأصفر. وتوضَع على الوجه زوجٌ من العيون المُستعارة المصنوعة من الخشب، ثمّ يوضعُ قناعٌ جنائزيّ من الورق المقوّى رُسِمت عليه صورة وجه المتوفّى. يجب أن يكون الوجه المرسوم نضراً وسليماً.

حسب بردية بولاق رقم 3 (القاهرة).

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

229. قصّة حيوانات

كانت المؤتمرات التي تعقدها آماندين تستقطب على نحوٍ متزايد أعداداً كبيرة من المهتمين الذين يحضرونها. في متجر والدتي، كانت إعلاناتها التي تظهر فيها دائماً بثيابٍ مثيرة جنسياً ولكن دون أن تظهر عاريةً، تُباع مثل الكعك. وقد أثرى نجاحها المذهل المشروع العائلي الصغير. ولكن لم تكن هذه هي النتيجة الأكثر أهمية لإنجازات آماندين المبهرة للغاية. في البداية، كانت هذه المؤتمرات لا تجذب سوى مثقّفين، متعطّشين إلى الإبداع، وفضوليين، شرهين للاطلاع على شتّى أنواع العلوم الخفية. ثمّ أدّى تناقل كلام الناس عن هذه المؤتمرات إلى استجلاب العلماء. ثمّ عرضت قناة تلفازية فكرة بث أحد عروض مستكشفتنا.

انهالت عليها الأسئلة من كلّ حدبٍ وصوب، فلم يعد مقسمها الهاتفي قادراً على تحمّل هذا الفيض الهائل من الأسئلة. فجأةً، بدأ الناس يهتمّون بكارماواتهم..

أرادوا أن يعرفوا كلّ شيء: من كانوا قبل حياتهم الحالية، وماذا سيصبحون فيما بعد؟ وكانت الأسئلة الدائمة: من أين أتيتُ؟ منْ أكون؟ إلى أين سَأذهب؟

ذات مساء، بعد الانتهاء من عقد مؤتمرٍ، بينما كنّا مجتمعين في المطعم التايلندي، جرى الحديث حول حالات التناسخ الحيوانية. هل من الممكن أنّ كلّ الجالسين على هذه الطاولة كانوا سابقاً عبارة عن ذبابة، أو ضفدع أو

حلزون؟ وهو يحمل إلينا مقبّلات تفوح برائحة الورد والجمبري، جاء السيّد لامبيرت وزجّ نفسه في أحاديثنا التي استطردنا فيها.

اعترف بأنّه كان يرتاح أحياناً واقفاً على ساقٍ واحدة. وكانت هذه الوضعية تمنحه راحة لا تُصدّق. وقد استنتج من ذلك أنّه كان في السابق بلشوناً، وأظهر لنا كيف أنّه، في الواقع، كان يحافظ على توازنٍ تامّ بدعامةٍ وحيدة. و«افترضت» أماندين أنّها كانت أرنباً. وهي أيضاً قدّمت برهانها الصغير. إذ كانت تجيد تحريك أذنيها بطريقة مثيرة بما فيه الكفاية. كانت تحرّكهما من الأمام إلى الوراء وكنّا نميّز تماماً العضلة التي كانت تعمل على جانب خدّيها. وكان أنفها يرتعش أحياناً مثل خطم أرنبٍ وذكّرتنا، ضاحكةً، بأنّها علاوة على ذلك، تعشق الجزر.

ومن خلال التفكير في ذلك جيّداً، بدا لي أنّني، من جهتي، أمتلك ذكريات ثعلبٍ. أهي بدعة أم وهم؟ شعرتُ في أعماقي بأحاسيس نشعر بها حينما نركض هرولةً، على القوائم الأربعة بين الأعشاب. كنتُ أعرف ما الذي يعنيه أن يثني ومن ثمّ يبسط ثعلبٌ عموده الفقري عند كلّ قفزةٍ، من خلال الحفاظ على توازنه بذيله الطويل المُغطّى بالفراء. ركّزتُ تفكيري أكثر وتذكّرتُ أشتيةً طويلة، وأنا ألتجئ إلى دفء وجاري مع أنثاي وجرائي. لم تكن هناك راحة أفضل من هذه في العالم.

وفي الربيع، كنتُ أستمتع برحلاتٍ طويلةٍ في الغابة، ثملاً برائحة الطحالب والصعتر التي كانت تلفح خطمي حينما كنتُ في ذروة العَدْو. كيف استطعتُ أن أعرف ما هو الجري على أربعة قوائم؟ كيف استطعتُ أن أعرف الإحساس بحرارة الوجار خلال فصل الشتاء؟ كلّما كنتُ أفكّر في ذلك أكثر، كانت ذكريات حياتي كثعلب تصبح واضحة أكثر. لم أكن أركض بسرعة بما فيه الكفاية لكي أنجح في الصيد على نحوٍ فعّال. تذكّرتُ لقاءات مؤلمة مع القنافذ. رائحة الغابة. حينما كنتُ ثعلباً، وأنا أتنفّس هكذا باتجاه الريح، كان بوسعي أن أمتلك خارطة كاملة عن المناطق المحيطة. هذا ما تذكّرته. كيف أصبح ذلك ممكناً؟ والآخرون أيضاً استغربوا ذكريات خارجية. شَغِف جميعُ منْ في المطعم بالموضوع. وسرعان ما أصبح النقاش عامّاً. وخصّ رجلٌ ضخم ذو أنفٍ طويل نفسه بذكريات فيلٍ، واعترفت سيّدة

قصيرة القامة وخجولة بأنّها كانت سابقاً طائر السمّان، وتذكّر رجلٌ بسيطٌ ومنزو حياته كديناصور من فصيلة التيرانيسور وهو يُبرز أسناناً حادّة جدّاً بكلّ تأكيد. بعد الحيوات الحيوانية، نأتي إلى الحيوات البشرية. تفصيلٌ غريب: الكثير من الأمراض تجد، بفضل الكارما، تفسيرات منطقية. فالذين يعانون من حنجرة ضعيفة كانوا غالباً من المستنسخين عمّن تمّ إعدامهم بالمقصلة إبان الثورة الفرنسية. أمّا المصابون بالربو فكانوا غرقى سابقين. والذين يعانون من داء الانتصاب الدائم هم من المشنوقين السابقين. والذين يُعانون من رُهاب الأماكن المغلقة كانوا من الذين تُركوا في السجون المنسية. أمّا المصابون بداء البواسير فكانوا ممّن تعرّضوا للخازوق. والذين يعانون من داء الباركنسون كانوا ممن تعرّضوا للصعق الكهربائي. والذين يعانون من حالات قصور وظائف الكبد هم من الذين تعرّضوا لحالات تسمّم. والذين يعانون من القرحة المعدية هم من الذين مارسوا هارا كيري (قطع الأحشاء) في حياتهم الأخيرة. والمُصابون بداء الصدفية هم الذين تعرّضوا لحروق. والذين يعانون من الصداع هم الذين انتحروا بطلقة مسدّس في الجمجمة. والذي يعاني من قصر النظر كان جاسوساً. تذكّر كلُّ واحدٍ من الحاضرين بدقّة تقريباً حيوات غريبة وشاذّة. في المطعم، كان هناك حتماً الكثير من الفرسان القروسطيين السابقين، وثمانية فراعين سابقين، والكثير من الخوارنة السابقين والعاهرات السابقات. كان لكلٍّ منهم ذكريات عن حيوات غريبة. والأكثر ترجيحاً من المشاهد المرئية... في التلفاز في الأفلام الهوليوودية. وبقدر ما كنتُ أرغب في أن أصدّق تماماً منْ كانوا يعتبرون أنفسهم قرويين، كان من الضروري أن أخبر منْ يعتبرون أنفسهم إنديانا جونز أو بارباريلا أو تان تان أو أستيريكس أو هيركيول بوارو أنّ هذه الشخصيات لم تكن موجودة أصلاً. كانت لحظة ممتعة رغم كلّ شيء.

جاءِ لوسيندير وانضمّ إلينا في المطعم. بدا هو الآخر في مزاجٍ جيّد. تناول بشهيّة طبق المعكرونة بالريحان، ثمّ تحدّث لنا في الشأن السياسي. قال إنّ استطلاعات الرأي، بعد الصعود في المرحلة الأولى، تشهد ركوداً. كان لوسيندير يشعر بأنّ اللحظة قد حانت لخلق الحدث الذي سوف يؤثّر على نحوٍ حاسم على رأي عام لا يزال متقلّباً. وقد أكّد أنّه إذا ما استطاعت

آماندين أن تتحدّث عن ميزان حقيقي للأرواح بدل الاكتفاء بصدم الناس بمفاهيم فلسفية وأخلاقية، سوف يكون أفضل بكثير. وقد تمّ تدبير كلّ شيء خلال هذا الحوار النهائي المُبشِّر بتناسخ الأرواح. كان ينبغي أن نعرف بالتفصيل نظام المكافأة والمعاقبة هذا.

وهكذا وُلِدَت فكرة *مقابلة مع ميّتٍ*.

من المستحيل إرسال كاميرا إكتوبلازمية إلى العالم العلوي لتصوير مشهدٍ لم نكن نحن بأنفسنا سوى لمحة عنه. سوف يمكننا بكلّ تأكيد أن نحفظ التفاصيل وأن نردّد الجمل. ولكن مَنْ مِن بيننا كان يتمتّع بذاكرة فعّالة بما فيه الكفاية لكي يُسجّل ومن ثمّ يُعيد الحوارات التخاطرية بين رؤساء الملائكة - الحكّام والروح التي في طريقها إلى التناسخ؟

صرخت روز:

- مكسيم فيلان! المراسل الإكتوبلازمي، الصحافي في *المستكشف الصغير المصوّر*. إنّه نابغة في الذاكرة. إنّه الرجل المناسب لهذه المهمّة.

صاح لوسيندير:

- ممتاز! بل إنّه قادر على أن يصوّر المشهد من خلال الرسم. وبهذه الطريقة، سوف يكون في متناول ناخبيّ صور الجنة حتى من دون أن يُغادروا أرائكهم.

وقد بدأ بحساب عدد الأصوات الإضافية التي سوف تجلبها له هذه الشهادة!

كنتُ أعرف بنفسي أنّ الإكتوبلازمات تتمتّع برؤية ممتازة لأنّها لا تنظر إلّا بقلبها وليس بعيونها. ألم يكن فريدي الضرير الأفضل من بين المستكشفين؟ مع ذلك، كلّما كنتُ ألتقي مكسيم فيلان، كنتُ أتساءل كيف يستطيع أن يتدبّر أمره في العالم العلوي من دون نظاراته السميكة. كان مكسيم فيلان، قصير القامة والأحسر والسمين، يذكّر بلحيته الصغيرة بالرسّام تولوز لوترك.

منذ اليوم التالي، جعلناه يأتي إلى محطّة إطلاق المستكشفين.

حينما قبل دعوتنا، قالت آماندين بغنجٍ:

– يا لك من محظوظٍ أن تكون لك ذاكرة كهذه. بالنسبة إليّ، إن لم أدوّن كلّ شيء في نفس اللحظة، أنسى في الحال.

مطّ الصحافي شفتيه الغليظتين في ابتسامةٍ حزينةٍ. ثمّ قال:

– أمّا أنا، فمشكلتي بالضبط هي أنني أمتلك ذاكرة مفرطة. كنتُ أُفضّل أن أنسى قليلاً من وقتٍ إلى آخر.

ولأنّ المرأة الشابّة أفرجت عن إيماءة تعبّر عن دهشتها، شرح أكثر:

– حينما تدخل معلومة إلى دماغي، فلا تعود تخرج منه. ذهني مليءٌ بالمعلومات التي لا فائدة منها. ثقافتي واسعة جدّاً بحيث أصبحت عبئاً ثقيلاً عليّ. لقد بدأت عشر مرّات بكتابة كتاب لكي أتوقّف بعد بضع صفحات لإحساسي بأنني أقوم بسرقة أدبية بسبب مراجعي الأدبية التي لا تُعدّ ولا تُحصى. حتى تؤلّف كتاباً شخصياً، من المهمّ أن تنسى أوّلاً كلّ الكتب الأخرى. وأنا غير قادرٍ على ذلك.

أنا الذي لطالما حسدتُ ذاكرته الموسوعية، اكتشفتُ أنّها تشكّل بالنسبة إليه إعاقة. صحيح أنّ النسيان ممتعٌ جدّاً في بعض الأحيان... فقط لو أنني استطعتُ أن أدسّ هذه الحقيقة الثانية الملعونة في قاع نهرٍ متعرّج!

من جرّاء ذلك، سمح لوسيندير لنفسه، ممازحاً، أن يصوّر قدرته «على النسيان» الهائلة كميزة استثنائية.

وبذلك في حلٍّ من اتّخاذ تدابير مقترَحة من قبل أسلافه من الرؤساء كان قد أدانها حينما كان بنفسه في صفوف المعارضة. وقد عفا بطيبة خاطر عن كلّ الذين أهانوه، الأمر الذي أكسبه سمعةً حسنة لشهامته وساهم كثيراً في زيادة شعبيته.

يا له من مسكينٍ، مكسيم! لا يجيد النسيان. لذلك سوف يبقى صحافياً ولن يحقّق أبداً طموحاته ككاتب!

والآن ربّما نستفيد من إمكانياته. بدأنا بإعداد معدّات مهمّته. فوضعنا الخطّة التالية: سوف نقوم، ستيفانيا وروز وآماندين وأنا، بالتمويه من خلال التحدّث مع الملائكة في حين سيقوم مكسيم، من جانبه، بتسلّق جبل النور من أعلى نقطة ممكنة لكي يتمكّن من الإصغاء إلى الأحكام النهائية.

كان من العبث الانتظار لزمنٍ أطول. بعد مضي ثلاثة أيام، بدأت مجموعتنا بالتحليق من أجل إعداد تقرير إكتوبلازمي أكثر جوهريةً من حكايات الفردوس هذه التي كانت قد أكسبت فيلان شهرةً فريدةً من نوعها.

خزّن مكسيم كامل الحوارات في دماغه. ومع الرسوم المرفقة بها، نُشِرَت في *المستكشف الصغير المصوّر* وفيما بعد في *مقابلة مع ميّتٍ*، وهو العمل الثاني الذي ألّفته آماندين بالوس. والمخطوطة الأصلية، وهي وثيقة ذات قيمة تاريخية، توجد حالياً داخل الزجاج في متحف الموت في معهد سميثسونيان في واشنطن.

230. كتاب التاريخ المدرسي

لقد أظهر مستكشفو الموت على الدوام أكبر قدر من الاحترام حيال الملائكة.

على أيّ حال، يكفي أن يرى المرء ملاكاً، ملاكاً حقيقياً، حتى يُدرك أنّه يجب احترامه. ربّما ستصبح الملائكة بشراً عام 100000. إنّها أكثر تطوّراً وبراعةً منّا بمليون مرّة. ولديها تصوّرٌ مختلف للزمن. إنّ البشر عالقون بين ماضٍ عليهم أن يتكيّفوا معه ومستقبلٍ يُخيفهم. أمّا الملائكة، فتسمو فوق الحاضر والماضي والمستقبل. إنّها تقدّم لنا مفهوماً جديداً تماماً، ألا وهو مفهوم «الحاضر – المستقبل». يُميّز الملاك باستمرار بين النتائج القصيرة المدى، والمتوسّطة المدى، والطويلة المدى لكلّ عملٍ من أعماله ويختار أن يتصرّف ضمن مفهوم «الحاضر – المستقبل»، مثلما نتناول وجبةً في مائدة مفتوحة. فإذا ما اخترنا الجزر المبشور، نعرف مسبقاً المذاق الذي سيكون له في فمنا، مثلما حينما يُنجزُ الملاكُ أيّ عملٍ، يعرف مسبقاً نتائجه.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

231. سيرة ذاتية موجزة لمكسيم فيلان

عندما كان صغيراً، كان مكسيم فيلان طفلاً طبيعياً، مع فارقٍ وحيد: حينما كان يتكلّم، لم يكن أحدٌ يُصغي إليه. يبدأ بجملة، ثمّ يكون هناك أحدٌ

على الدوام، كما لو أنّ الأمر مصادفة، يُقاطعه في الحال. على مائدة الطعام في المنزل، يقاطعه أحدهم بعبارة «ناولني الملح». في المدرسة الابتدائية، كان المعلّم يقول: «لننتقل الآن إلى الدرس التالي». كان يكفي أن يفتح فمه حتى ينجذب اهتمام الآخرين إلى أيّ شيءٍ كان أو يعطس أحدهم. وكان مكسيم يشعر بالخزي من ذلك، لا سيما أنّه كان، من جهته، يُصغي بانتباه إلى كلّ متحدّثٍ ويستطيع أن يبقى صامتاً لساعات دون أن يتفوّه بكلمة وهو يقوم بتخزين كلّ المعلومات التي تُنقَل إليه. منبهرين بانتباهه، ضاعف مكسيم بذلك عدد الأصدقاء الذين نقلوا إليه بالتناوب اهتماماتهم ومعارفهم في مجالات متنوّعة مثل التنويم المغناطيسي والإسعافات الأوّلية والأدب الفيكتوري والمعلوماتية والصراع الإغريقي - الروماني وعلم الفلك الفيزيائي واستراتيجية الحروب النابليونية والرياضيات والموسيقى ذات الاثنتي عشرة نغمة وغير ذلك الكثير أيضاً. كان كلّ شيء مناسباً له لكي يملأ خزانه بالمواد الفكرية. بيد أنّ مكسيم لم يتحمّل أن يظلّ يأخذ المعلومات على الدوام دون أن يتمكّن من تبادل أيّ حديثٍ مع أحد. في البداية، حاول أن يبذل قصارى جهده لكي يبقى مستمعاً. ففي نهاية المطاف، لم يكن يتوسّل سوى القليل من الاهتمام. ولكنّ ما إن يكاد يشرع في إعداد خطّة حتى يضجر والداه ويُغيّرا الحديث أو يقول أساتذته سهواً: «هذه فكرة مهمّة جدّاً ولكنّها خارج موضوع درسنا». وكذلك الحال مع أصدقائه. تُرى هل كان صوته، الخفيض والناعم، هو المزعج والمُضجر؟ إنّ الأصوات الخفيضة، بوقوعها على القلب والصدر، تُهدهد وتنوّم. أمّا النبرات الحادّة، فعلى العكس من ذلك، فتُثيرُ وتسترعي الانتباه لأنّها تتوجّه مباشرةً إلى الدماغ. كان مكسيم يقول في نفسه أنّ صوتاً عالياً وحادّاً يروي شيئاً تافهاً لديه الفرصة لأن يكون مسموعاً أكثر من صوتٍ خفيضٍ ينطق بأشياءٍ مثيرة. ولذلك حاول أن يعدّل صوته، دونما أن يتوصّل إلى نتائج. وبعد أن أحسّ بإحباطٍ شديد، جعل من نفسه راهباً صموتاً. وقد أحسّ أخيراً بأنّه يحظى بالقبول والتقدير بين هؤلاء الرجال الذين نذروا أنفسهم للصمت والذين لم يكن له حوارٌ ممكنٌ معهم. وقد حظي هنا بكلّ الوقت للتفكير في وضعه وانتهى إلى القبول به كما هو. كان قد وُلِدَ متلقيّاً. ولن

يصبح أبداً مُرسلاً. غادر بهدوء معبده وواصل مراكمة المعارف من خلال الإصغاء إلى الآخرين.

بالتأكيد، ظلّ لا ينقل شيئاً من معارفه طالما أنّه ظلّ لا يحظى باهتمام أحد، ولكنّه أصبح بنكاً كبيراً للبيانات البشرية، واسعاً إلى ما لا نهاية. مع كلّ ما جناه من معارف، والذي قد يُعتبَر الكثير منها بلا فائدة تماماً، كان من شأنه أن يحقّق مكاسب ضخمة في أيّ مسابقة تلفزيونية تكون أسئلتها من الثقافة العامّة. ومع ذلك، لم يكلّ ولم يملّ مكسيم فيلان من الاطّلاع في كلّ المجالات. وقد اكتشف أنّ الصحافة تسمح له بأن يُشبع على نحوٍ أفضل شغفه. وقد مرّ على كلّ الأقسام في الصحف: قسم الحوادث، العلوم، الشائعات، السياسة، الثقافة. وحينما كان يكتب، لم يكن هناك ما يقلقه بصوته: بين جماهير المشتركين بالصحيفة، لا بدّ أن يجد على الأقل قارئاً نبيهاً. ولكي يوصل أفكاره على نحوٍ أفضل، ويجذب انتباه هذا القارئ الأسطوري، بدأ بالرسم أيضاً. لقد اعتقد «أنّ الكلمات لا تكفي دائماً. ستكون الصورة ضرورية غالباً لإتمامها». بات يُسلّم من الآن فصاعداً كلّ مقالاته مصحوبةً برسمةٍ. وبذلك أصبح الكاتب الصحافي النجم في صحيفة *المُستكشف الصغير المصوّر*. في البدء، لم تكن الكتابة بالنسبة إليه سوى وسيلة للخلاص. أدرك سريعاً أنّ هياكل صارمة كانت ضرورية لبناء رواية. وقد بدأ شغفه بالكتابة منذ اللحظة التي اعتبرها علماً دقيقاً. بدأ مكسيم فيلان يأمل في كتابة نصّ يكون حافزه أو حوافزه قويّة جدّاً بحيث ما إن تُقرأ أوّل كلمة منه، حتى يغدو القارئ مفتوناً ومستحوذاً ذهنياً إلى درجة لا يكون قادراً على تركه ومضطرّاً لأن يقرأه حتى النهاية. وسيكون ذلك النصّ انتقامه من كلّ أولئك الأشخاص الذين لم يصغوا إليه قط. كان مكسيم يقول: «في قانوني الخاصّ بالقيم، أضع الأدب في مكانٍ رفيعٍ جدّاً. أعرف أنّ هدفه النهائي ليس صياغة جمل جميلة، ولا اختيار شخصيات جميلة، ولا حتى نسج حبكة جميلة. الهدف النهائي للأدب هو جعل الناس يحلمون على نحوٍ أعمق! جعل الناس يحلمون على نحوٍ أعمق... مع هذا، رغم كلّ مشاريعه الطموحة، ظلّ مكسيم صحافياً دون أن ينجح أبداً في إنجاز أيّ كتاب. ربّما كان يضع الحاجز عالياً جدّاً.

232. ميثولوجيا يهودية

«حينما تحين الساعة ليغادر إنسانٌ العالم، يكون هذا اليوم رهيباً. تضعه الاتجاهات السماوية الأربعة موضع الاتهام، ويأتيه العقاب من الاتجاهات الأربعة في آنٍ واحدٍ. تتنازع العناصر الأربعة (الماء، التراب، النار، الهواء) في جسد الإنسان، ويجذبه كلّ منها إلى جانبه. فيتقدّم حينها رسولٌ يُسمَع بيانه في العوالم السبعين. إذا ما تبيّن الإنسان جديراً بهذا البيان، يستقبله بغبطةٍ في كلّ العوالم ويغدو موته عيداً تحتفل به كلّ العوالم. ولكن إن ذهب مذهباً مختلفاً، وإن كان غير جديرٍ، فالويل له!»

كتاب زوهار.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

233. استمارة شرطة

الكنية: فيلان

الاسم: مكسيم

لون الشعر: بنّي

الطول: 162 سم

علامات فارقة: لا توجد

ملاحظات: رائد الحركة الثاناتونوتية

نقطة الضعف: ضعيف الشخصية

234. مقابلة مع ميّت

نصّ *مقابلةٍ مع ميّت*، كما أُرسِل موضّحاً بالرسومات من قبل الصحافي مكسيم فيلان.

يجري المشهد في أقاصي حدود الفردوس، عند سفوح جبل النور حيث يقيم كبار رؤساء الملائكة، الذين يحكمون مصائرنا. الممثّلون: الملائكة الرؤساء الثلاثة بالإضافة إلى شارل دوناهو، وهو شخصٌ توفّي للتوّ. لم

يستطع الملاك الحارس لشارل دوناهو المجيء، الأمر الذي لن يغيّر شيئاً في معنى وقيمة الحكم الصادر.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: طاب نهارك، السيّد دوناهو.

الروح: أين أنا؟

نظر المتوفّى من حوله ومسّد منطقة إكتوبلازمه حيث كانت ذراعه اليسرى قد بُتِرَت حديثاً. رفع رأسه وعاين تلّة الحكم النهائي ورؤساء الملائكة - القضاة الثلاثة وهم يتلاعبون بخيوط رفيعة شفّافة، مليئة بالعُقد.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: أنت هنا في مركز توجيه الأرواح، ونحن سنضع حياتك السابقة في الميزان.

الروح: تزنون حياتي؟

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: محاكمة. سوف تخضع حياتك للاختبار لكي نستطيع أن نحكم على سلوكك ونقرّر إن كانت هناك ضرورة للتخلّص من دورة تناسخ روحك على الأرض أم لا.

الروح: كنتُ ممتازاً.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل (وهو يتفحّص الوثائق): أنت مَنْ تقول ذلك.

الروح: قصدتُ أن أقول، في رتل الانتظار، أنّ ليَ الحقّ في ملاكٍ حارسٍ لكي يدافع عنّي كمحامٍ. أليس هنا؟

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: بالفعل لك الحقّ في وجود ملاكك الحارس، ولكن أيضاً في وجود شيطانك الشخصي. وقد تبيّن أنّ كليهما منهمكان الآن في النشاط في العالم السفلي. أنت تعلم أو ربّما لا تعلم أنّ الملاك الحارس قد حدّد لك يوم ميلادك. والحالة هذه، يحتاجُ شخصٌ وُلِد في نفس يوم ولادتك إلى إرسالٍ عاجلٍ وإلى ملاكه الحارس وإلى شيطانه. إنّها مسألة تسريحٍ تعسّفي صعبة. إنّها الظروف الاستثنائية، ولكن دعنا لا نخوض في هذا الأمر. لا تقلق: سوف تُحاكم بكلّ إنصاف. إنّ ضميري ملاكك الحارس وشيطانك يحومان فوق هذا الجبل وسوف نسمعهما على نحوٍ متزامن.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: سوف ننظر في حالتك بأقصى درجات الموضوعية. أنت هنا في مكان العدالة للجميع. نحن نعرف مسبقاً كلّ شيء عنك. ونعرف حتى النوايا التي أدّت إلى كلّ أفعالك.

الروح (بنبرة حازمة): ليس هناك أيّ شيء يؤخَذُ عليّ. كنتُ ممتازاً. لقد تزوّجت، وأنجبتُ ثلاثة أطفال. وقد تركتُ إرثاً كبيراً لعائلتي قبل أن أموت. وفي الوقت الحالي، لا بدّ أنّهم فوجئوا مفاجأةً سارّة، إذا أردتم رأيي.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل (في حين كان جبرائيل يلوّح بخيطٍ رفيعٍ شفّاف، مليءٍ بالعقد): ليس هذا هو معيار «التصرّف بطريقة سليمة». هل تُرى هذه العُقَد؟ كلّ واحدة منها تتطابق مع عملٍ من أعمال حياتك. كلُّ واحدة منها تضجّ بفقاعات ذاكرة شبيهة بالفقاعات التي تستقبل المتوفين، لدى عبور جدار الغيبوبة الأوّل.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: لقد تحدّثت عن زوجتك. لقد تبيّن لي هنا أنّك غالباً ما أبكيتها. كنتَ تخونها، أليس كذلك؟ وعلاوة على ذلك، مع امرأة غبيّة.

الروح (قَدَرياً): الأخلاق متحرّرة كثيراً، في أيامنا...

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل (بجفاءٍ شديد): خيانة زوجية بسيطة. حسم 60 نقطة. (دَرَسَ فقاعات ذاكرة أخرى). لقد ذكرت أطفالك، أيضاً. ولكن هل اهتممتَ بهم بالفعل؟ أرى هنا أنّك كنت ترتّب أمورك دائماً لكي تخرج في عطلةٍ، في لحظة ولادتهم، وأنّك كنت تتذرّع فيما بعد بأسفار عمل لكي تتهرّب من بكائهم في الليل، بحيث كانت زوجتك تجد نفسها هنا أيضاً وحيدة على الدوام في الوقت الذي كانت فيه بأمسّ الحاجة إليك.

الروح: لقد كنتُ على الدوام مشغولاً جدّاً بالعمل، وكنتُ أُنهك نفسي من أجل تأمين رغد العيش لعائلتي. وعلاوة على ذلك، لدى كلّ عودة إلى البيت، كنتُ أغمر أبنائي بالألعاب.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: هل تتصوّر أنّ الألعاب تعوّض حضور أبٍ؟ أنا آسف. حسم مئة نقطة.

الروح: وما حكاية النقاط والحسم هذه؟

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: لكي يتخلّص المرء من دورة تناسخ روحه ويصبح حكيماً، يجب عليه أن يحصل على مكافأة من ستمئة نقطة خلال مروره الأخير على الكرة الأرضية. حتى هذه اللحظة، تعرّضتَ لحسمٍ من مئة وستين نقطة. دعونا نواصل. (مرّر خيطه وتوقّف عند سلسلة من العُقَد البيضاء الناصعة). لقد حبستَ والديك المسنَّين في مأوى من الدرجة الثالثة حيث لم تزرهما فيه إلّا بالكاد مرّة واحدة في العام.

الروح: لقد كانا خرفين. ثمّ إنني كنتُ بالفعل مشغولاً للغاية بسبب عملي...

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: حينما ربّياك، كنتَ أنتَ أيضاً «خرفاً»، على حدّ قولك. وعلاوة على ذلك، مصاباً بسلس البول. وكثير الصراخ، وفوضوياً وقذراً، وسائل اللعاب، وغير قادرٍ على أن تقف على ساقيك بشكلٍ سليم. ومع ذلك كان والداك يتحلّيان بالصبر لكي يتحمّلا نزواتك.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: ثمّ، لندع عملك جانباً! لنتحدّث بدل ذلك عن سكرتيرتك!

الروح (متفاجئاً): آه، أنتم على علمٍ بهذا الأمر أيضاً؟

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: هنا، نحن نعرف كلّ شيء، ونرى كلّ شيء، ونحسب كلّ شيء. كان والداك يائسين من عدم رؤيتهما لك. كانا يشتاقان إليك بالفعل. فضلاً عن ذلك، في دور الرعاية الاجتماعية، كلّما تلقّى العجائز زيارات أكثر، عاملتهم الممرّضات على نحوٍ أفضل. أمّا بالنسبة إلى أولئك الذين تُركوا دون اهتمامٍ من ذويهم، تقول الممرّضات لأنفسهنّ إنّ لا أحد سوف يأبه لهم في كلّ الأحوال، وبالتالي سوف يقمن حتماً بإهمالهم.

الروح: ولكن أيضاً أرسلتُ إليهم عدداً لا بأس به من الهدايا.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: تُكرّر دائماً نفس النغمة. وهم أيضاً لم يطالبوك بالهدايا. كانوا يتمنّون حضورك، مثل زوجتك كمثل أطفالك.

الروح: ألا تبالغون بعض الشيء؟ لم يكونا على هذه الدرجة من التعاسة،

في المأوى. في كلّ مرّة كنتُ أذهبُ فيها لمقابلتهما، كانا يؤكّدان لي أنّ كلّ شيء يسير على ما يُرام...

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: لأنّهما فضلاً عن ذلك كانا يحبّانك ولم يرغبا في أن يجعلاك تشعر بالذنب حيالهما. أيضاً حسمٌ بمئة نقطة! كلّ هذا ليس بالأمر الرائع! لقد وصلنا إلى النقطة ناقص 260.

الروح: انتظروا. الأمر سهلٌ بعض الشيء. تتمّ محاكمة الناس وإدانتهم. جلّ ما يمكنني ملاحظته هو أنّكم منحازون ولا تأخذون في الاعتبار سوى الجوانب السيئة. في حين أنني قمتُ أيضاً بأعمال جيّدة في هذا العالم السفلي.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: ما الذي يدور في خلدك؟

الروح: لقد قمتُ بإقامة مصنعٍ للقوارير! ووفّرتُ عملاً لعاطلين عن العمل، وأطعمتُ أسراً، وأنتجتُ أدوات ساعدت الناس في تحسين ظروف معيشتهم. آه...

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: فلنتحدّث في أمر مصنعك لإنتاج القوارير! لقد لوّث كلّ المنطقة.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: وأيّ ظروف للعمل في داخله! لقد خلقت جوّاً من الصراع الدائم بين موظفيك وعمالك. كنتَ تؤلّب بينهم لكي تستغلّهم جميعاً.

الروح: إنّ قانون فرّق تسد هو قانون علم الإدارة الحديث. لا يمكنكم أن تأخذوا عليّ قيامي بدراسات تجارية!

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: بالنسبة إلى المصنع، حسم: 60 نقطة. أصبحت الآن تحت مستوى التسامح بـ 320 نقطة. والآن سنضيف إليها بالجملة «الدرجات المتفرّقة».

الروح: الدرجات المتفرّقة؟ وما هذه أيضاً؟

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: طيلة حياتك، ارتكبتَ، وهنا أقتبس: 8254 كذبة ألحقت ضرراً بالمحيطين بك؛ و567 حالة جبن بسيطة؛ و789

حالة جبن خطيرة؛ و45 حيواناً صغيراً سُحق تحت عجلات سيارتك. علاوة على ذلك، كان السيّد يصوّت كيفما كان في الانتخابات، ويشارك السيّد في ألعاب القمار بأموال الملكية المنزلية، ويسير السيّد في سيارة صاخبة، وكان السيّد...

الروح (وقد بدا الذهول على إكتوبلازم دوناهو): يبدو أنّكم تعتبرونني سافلاً بالمطلق!

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: لم أقل هذا قط. (عاين مرّة أخرى خيوطه الرفيعة المليئة بالعُقَد والتي باتت الآن تنبعث منها فقاعات الذاكرة مثل فقاعات الشامبانيا الفائرة والمعلّقة في الهواء): كنت تتبرّع بدمك إلى المستشفيات بشكلٍ منتظم: مكافأة: 20 نقطة. أنقذت سائقاً على طريقٍ سريعٍ حينما كانت سيارته على وشك الاشتعال. مكافأة: 50 نقطة. كنت تمنح رفاقكَ من النزلاء في جمعية إيمايوس[1] ثيابكَ القديمة بدل رميها في حاوية القمامة. مكافأة: 10 نقاط.

الروح: ولا تنسوا على نحوٍ خاصّ ظروف موتي.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل (وهو لا يزال ينظر إلى خيوطه الرفيعة): بالفعل، إنّها تستحق الاهتمام. لقد صدمت شجرة دلبٍ لكي تتحاشى صدم راكب درّاجة هوائية في حين كانت شاحنتان كبيرتان تقبلان مسرعتين في مواجهتك وهما تحاولان تجاوز بعضهما. كما أنّ السائقين كانا خلفك تماماً في انتظار...

التفت الإكتوبلازم دوناهو واكتشف خلفه ميتين وقد عيل صبرهما.

الروح: آه!

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: لمرّة واحدة، كان لديك ردّ الفعل الصحيح، وعليّ أن أعترف لك بذلك. لك عشر نقاط مكافأة، ولكن كان بوسعك أن تنال أكثر من ذلك لو أنّك تجنّبت، علاوة على سائق الدرّاجة، شجرة الدلب أيضاً.

1- جمعية إيمايوس: جمعية تشرف على إدارة مركز لجوء في شمال باريس، وكذلك مراكز الإيواء في حالة الطوارئ. المترجم

الروح (مستاءً): ماذا؟

رئيس الملائكة – القاضي ميخائيل: أجل، لقد كانت شجرة دلبٍ فتية لم تكن تطلب أكثر من أن تواصل النمو وأن تظلّل الطريق، وأنت جئتَ وكسرتها إلى نصفين! في المرّة القادمة، تدبّر أمرك لكي تتجنّب الشاحنات والدرّاجة الهوائية وشجرة الدلب لتسقط بكلّ بساطة في الحفرة. وبهذه الطريقة قد تشتعل النيران في سيارتك وأنت تموت متفحّماً. يُرى الموت بالنار من هنا بوضوحٍ تامّ.

الروح: هل لأنّ هذه طريقة مروّعة للموت؟

رئيس الملائكة – القاضي رافائيل: كلّما كان الموت مؤلماً أكثر، اقترب من درجة الشهادة. إنّ الموت حرقاً سوف يُكسبك مكافأة من 100 نقطة!

الروح: ما الذي أردتَ أن تقوله بعبارة في المرّة القادمة؟

رئيس الملائكة – القاضي جبرائيل (صبوراً جدّاً): هناك حاجة إلى 600 نقطة لكي يتمّ التخلّص من دورة تناسخ الأرواح، وقد أوضحنا لك ذلك منذ بداية عملية الوزن. والحال أنّك أنهيت هذه الحياة بمئتين وثلاثين نقطة تحت الصفر. ولكن كلّ هذا ليس أمراً فظيعاً.

رئيس الملائكة – القاضي ميخائيل: وخاصّةً إذا ما كان من الملاحظ أنّ السيّد المحترم كان قد وصل مع ذلك إلى تناسخ روحه المئة والثالثة والتسعين في شكلٍ بشري. لا يمكننا سوى أن نعيد إرسالك إلى جسدٍ آخر. حاول أن تنجح على نحوٍ أفضلٍ من خاسرٍ بمئتي وثلاثين نقطةً تحت الصفر، في الاختبار القادم.

الروح (فزعاً): جسدٌ آخر؟

رئيس الملائكة – القاضي ميخائيل: جسدٌ آخر، حياةٌ أخرى. حياةٌ سوف تختارها.

الروح (وهو يزداد ذهولاً على نحوٍ متصاعد): لأنّ المرء يستطيع أن يختار حياته؟

رئيس الملائكة – القاضي جبرائيل: طبعاً، في الحياة، ينال المرء دائماً ما يختاره.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: ثمّ إننا هنا في خدمة الأرواح. نحن هنا لكي نساعدك على أن تتحسّن. وسوف نقوم باستنساخ روحك من أجل مصلحتك، لكي نتيح لك أن تقوم بإصلاح نفسك.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: سوف نمنحك الفرصة لإصلاح أخطاء حيواتك السابقة. اختر بنفسك أوجه قوّتك وأوجه قصورك منذ البداية من أجل حياتك الجديدة. لنرى ما لدينا في المخزون بمئتين وثلاثين نقطة تحت الصفر.

استدعى رؤساء الملائكة الثلاثة اثنين من ملائكة السارافيم لم يكفّا عن التحليق فوقهم طيلة جلسة المحاكمة. وقد حمل لهم هذان الأخيران في الحال حبالاً رفيعة ذات فقاعات صور غنيّة بالمعلومات.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: لدينا هنا القائمة الجديدة تماماً للآباء والأمّهات المستقبليين الذين يمارسون الحبّ بحلول هذا الوقت.

الروح: هل سيمكنني أن أختار والديّ؟

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: كمّ مرّة سيكون عليه أن يكرّر لك أنّ المرء يستطيع أن يختار حياته؟ ولكن انتبه على نحوٍ خاصّ إلى ألّا يخدع نفسه! إذاً، هل تفضّل والدين قاسيين أم والدين مرنين؟

الروح (حائراً): همم... وما الفرق؟

عرض ملاكُ سارافيم صورةً تخاطرية. كان سيّد بدين وسيّدة بدينة عاريين في السرير، ويبحثان عن وضعية لا يختنق فيها أحدهما شريكه بثقله. بعد أن حاولا عبثاً، وأصبح هو فوقها، وهي تحته، ثمّ قلبا الوضعية على نحوٍ معاكس، تراكبا، ممدّدين على جنب، مثل ملعقتين صغيرتين. رنّ الهاتف ولكنّ المرأة أشارت على الرجل بألّا يردّ على الاتّصال. كان الرجلّ قد احمرّ بالكامل ويتصبّب عرقاً، ويلهث بصخب. في حين كشّرت المرأة ولفّت شعرها.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: إنّ السيّد والسيّدة دورنيه زوجان لطيفان. زوجان ظريفان وحاميان وعاشقان. ثمّة عيبٌ وحيد: مهنتهما. إنّهما يعملان في مجال المطاعم، والمطعم الذي يعملان فيه يرتاده القليل من الزبائن. وفي

المساء، سوف يرغمانك على أن تأتي على كلّ بقايا الطعام؛ وأطباقهما المفضّلة هي يخنة كاستلنوداري وحلوى البروفيترول بالشوكولا. ومثلهما، سوف تصبح بديناً بسرعة. إذاً، هل يهمّك أمر الزوجين الوالدين دورنيه؟

الروح (وهو يتأمّل باشمئزاز الزوجين وممارستهما غير المريحة للجنس): حتماً كلا.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: لكلّ الآباء والأمّهات مزاياهم وعيوبهم. بالدرجات التي حصلت عليها، لا تستطيع أن تسمح لنفسك بممارسة ما هو صعب. تمّ إرسال صور تخاطرية جديدة.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: عائلة بوليه. يُدير الأب متجراً لبيع التبغ، ويدخّن كثيراً، ويُفرط في الشراب. الأمّ أميّة وخاضعة مثل كلبة. في المساء، يعود السيّد بوليه غالباً في حالة سكر، ويضرب الجميع، بمن فيهم الزوجة والأطفال. معه، سوف تُمطر ضربات الحزام غزيراً، يمكنني أن أؤكّد لك ذلك. على نحوٍ دقيق، المدعو بوليه يُمسك الآن بردفي زوجته ويصفعهما إلى حدّ الإدماء. وبعيداً عن التشكّي، تُطلق أنيناً مثيراً.

الروح: ولكنّهما ساديّان - مازوشيّان! أنا أشعر بالرعب من هذا. إلى الصور التالية، من فضلكم!

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل (متشكّكاً): مع مئتين وثلاثين درجة تحت الصفر...

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: الزوجان دي سورناش. من الطبقة الغنيّة. زوجان شابّان، رياضيّان، مشاركان دائماً، والدان كصديقين حميمين. لديهما الكثير من الأصدقاء، ويذهبان غالباً إلى الملاهي. ويسافران عبر العالم.

تأمّل الجميع زوجين شابّين جميلين يتعانقان بفرحٍ ومرحٍ تحت الأغطية.

الروح (مهتماً جدّاً): وأخيراً، تعرضون عليّ شيئاً مختلفاً عن الوحوش!

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: ليس الأمر بهذه البساطة. سيكون كلّ شيء في سبيل سعادتهما، سوف يدعانك أن تفعل كلّ ما تُريد ولكنّهما حيويّان جدّاً بحيث ستكون دائماً، إلى جانبهما، ضعيف الشخصية، فزعاً.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: في البداية، سوف تغار منهما، ومن ثمّ سوف تكرههما. من جانبهما، إنّهما طائشان جدّاً بحيث لن يمنحاك سوى القليل من الحنان. سوف تكون طفلاً عبوساً وسريع الغضب. بالنسبة إليهما، حتى وهما في الستين من العمر، سوف يبدوان على الدوام شابّين. أمّا أنت، فلما تبلغ الثانية عشرة من عمرك، لن تكون سوى عجوزٍ صغير. وبما أنّه من الصعب تقبّل فكرة أن يكره المرء والديه، سوف تحقد سريعاً على الأرض برمّتها.

الروح: حسناً، لقد فهمت. ومنْ سواهما أيضاً؟

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: نحن علينا واجب أن نعرض عليك الجانب الإيجابي والجانب السلبي للأمور، حتى وإن أصبح اختيارك من بينها أكثر صعوبةً.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: لننظر في أمر الزوجين غوميلان. زوجان مسنّان يعتقدان أنّه لن يعود بوسعهما إنجاب طفلٍ. بفضل التقنيات الجديدة للإخصاب الأنبوبي، سوف تستطيع هذه السيّدة التي بلغت سنّ اليأس أن تلد طفلاً. سوف تصل إلى هذه العائلة مثل هديّة غير منتظرة. سوف يدلّلانك دلالاً لا حدود له. سوف تحبّهما، بل سوف تعشقهما.

الروح (وهو يزداد ارتياباً): وأين يكمن الفخّ، هذه المرّة؟ سوف يجعلانني بديناً لكثرة السكاكر؟ سوف يضربانني عند كلّ علامة سيئة لأنّهما سوف يريدان أن يكونا فخورين بنتائجي المدرسية؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: كلا. صحيحٌ أنّهما عجوزان، ولكنّهما لطيفان.

الروح: إذاً، هذا ممتاز بالنسبة إليّ.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: هل تصدّق؟ سوف تحبّهما حبّاً جمّاً إلى درجة أنّك سوف تصبح غير قادرٍ على الخروج من الشرنقة العائلية. سوف تبقى على الدوام في المنزل، حبيساً، غير قادرٍ على الانفتاح على الآخرين. سوف تُعجبُ بوالدتكَ غاية الإعجاب بحيث لن تُقارَن بأيّ امرأة في العالم في نظرك. ولن يكون هناك أيّ رجلٍ في العالم قادر على أن يُضاهي والدك، الحكيم جدّاً والمتفهّم للغاية.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: والحال أنّهما مسنّان وسوف يموتان قريباً، وبالتالي سوف يتركانك يتيماً وحيداً. وسوف تجد نفسك مثل فرخٍ سقط من العشّ قبل أن يتعلّم الطيران. وسوف تعيش على الدوام بحسرة غيابهما.

الروح (حزيناً): مَنْ هناك سواهما في الاحتياط أيضاً؟

زوجان يتعانقان على سجّادة صالونٍ فخمٍ.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: الزوجان شيروبل. ربّما يمارسان الحبّ الآن ولكنّهما سوف ينفصلان من الآن وحتى بضعة أيام.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: والدان منفصلان. سوف تودَع لدى والدتك. وهي لديها عشيقٌ سوف يكرهك. سوف يحتجزانك في خزانة لكي يمارسا الحبّ بهدوءٍ أكثر. وسوف تضربك كلّما بكيت، لأنّها سوف تخشى أن يهجرها عشيقها بسببك. سوف يأخذك والدك في بعض الأحيان خلال عطلات نهاية الأسبوع، ولكنّه هو الآخر سوف يهتمّ بعشيقاته أكثر من أن يهتمّ بك.

الروح: من سيئ إلى أسوأ...

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: لا أبداً، يقدّم هذان الوالدان بعض الفوائد. سوف يتنامى في داخلك غضبٌ بحيث سوف ترغب في الانتقام من الحياة. سوف تكره كلّ النساء لأنّهنّ سوف يذكّرنك بوالدتك. وهذه اللامبالاة سوف تجعلك رجلاً لا يُقاوَم في إغرائه وتجعل منك زير نساء كبيراً. وسوف تكره أيضاً كلّ الرجال بسبب والدك، وسوف تصبح، من جرّاء ذلك، متعطّشاً إلى السلطة لكي تُسيطر عليهم على نحوٍ أفضل. وبطفولة تعيسةٍ كهذه يصبح المرء رئيس مؤسسة حيويّاً أو رجل دولة شديد القبضة.

رئيس الملائكة - **القاضي ميخائيل**: فضلاً عن ذلك، سوف يكفيك أن تذكر فتوتك المرعبة لكي يُشفق عليك الجميع ويغفروا لك شرورك.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: وإذا ما كتبت سيرتك الذاتية، سوف تُباع مثل الكعك، وسوف يتنازع المنتجون على حقوق تحويلها إلى فيلمٍ سينمائي. يعيش الناس حكايات الطفولة البائسة.

تردّد الإكتوبلازم دوناهو لبرهةٍ. كان هذان الزوجان للوهلة الأولى ساحرين وبديا أنّهما يستمتعان كثيراً على السجّادة. ولكنّه مع ذلك تمالك نفسه.

الروح: لا أرغب في أن أكون كوزيت أو غافروش. أعرضوا عليّ شيئاً مختلفاً.

رئيس الملائكة – القاضي جبرائيل: ناقص 230 درجة، أنا آسف، هذا كلّ ما لدينا لنعرضه عليك. كبار العاملين في مجال المطاعم، وبائعو التبغ السكارى، وأبناء الطبقة الثرية الديناميكيون، والآباء والأمهّات المسنّون – الخرفون، والمطلّقون الشريرون. اختر من بينهم وبسرعة، لأنّه سوف يكون عليك أن تقرّر بعد ذلك بشأن إعاقاتك الصحّية.

الروح: ولكنّكم تطلبون منّي أن أختار بين الطاعون والكوليرا!

رئيس الملائكة – القاضي رافائيل: كان يجب التفكير في ذلك مسبقاً. لو أنّك كنت قد تصرّفت على نحوٍ أفضل مع والديك وزوجتك وأطفالك، ولو أنّك حصلت على معدّلٍ أفضل، لعرضنا عليك بكلّ تأكيد عروضاً أفضل. الميّت الذي حاسبناه قبلك لم يكن لديه سوى ناقص 20 نقطة لا أكثر ولا أقلّ، واستطعنا بذلك أن نمنحه أسرة لطيفة من تجّار النبيذ. أناسٌ رائعون سوف يمنحونه تربية ممتازة وسوف يوفّرون له من دون شكّ فرصة أن يصبح عاقلاً بما فيه الكفاية لكي لا يعود يتمّ تناسخ روحه.

رئيس الملائكة – القاضي جبرائيل: هناك أيضاً احتمال أن تولَد في بلدٍ من العالم الثالث. لن تأكل ما يسدّ رمقك، ولكنّك سوف تتمتّع ببيئة دافئة.

الروح: إذا كنتُ سأعاني، وأعيش حياةٍ شاقّة ومعيشةً سيّئة، أفضّل ألّا أغيّر البلد أيضاً.

رئيس الملائكة – القاضي ميخائيل: إذاً، دون أن أرغب في التأثير عليك، أنصحك بالمطلّقين الشريرين. كلّما عانيتَ أكثر في هذه الحياة، أُتيحت لك فرصة الحصول على نقاطٍ لمصلحة حياتك التالية. عليك أن تنظر على المدى البعيد. فالحياة تمضي سريعاً.

من حولهم، عرضت الملائكة السارافيم صور كلّ الأزواج المقترحين.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: برأيي أيضاً، هذا خيارٌ جيّد. سوف يتيح لك التقدّم. سيكون هذا صعباً في البداية، ولكنّ سنّ الرشد سوف تحمل لك بعض التعويضات.

الروح (متوجّهاً إلى جبرائيل): وأنت، ما رأيك؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: لو كنتُ في مكانك لاخترتُ آل بوليه، مع بائع التبغ السكير والعنيف. أنا على قناعة بأنّه لا ينبغي التردّد في اختيار طفولة مأساوية بالفعل. وبعد ذلك، لا يمكن للأمور أن تسير إلّا نحو التحسّن. ومن ثمّ سوف يأتي اليوم المُفرح الذي لن يعود والدك يجرؤ فيه على ضربك لأنّك ستكون قد أصبحت أقوى منه، وسوف يأتي أيضاً اليوم الأكثر فرحاً الذي سوف تُغادر فيه البيت مُصفقاً الباب خلفك، متخلّصاً من طغيانهما...

الروح: ولكنّكم أخذتم عليّ إهمالي لوالديّ في حياتي السابقة!

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: كلّ حياة مختلفة عن الأخرى. ليس هناك قانون مطلق. من الطبيعي السعي إلى الإفلات من تأثير والدين شريرين. مع احتمال أن تغفر لهما فيما بعد، الأمر الذي سيمنحك بعض نقاط المكافأة على حسن ممارساتك!

فكّر الإكتوبلازم شارل دوناهو مطوّلاً وهو يُعاين بانتباهٍ وتركيز عروض كلّ زوجين.

الروح (متنهّداً): حسناً، هيا فلنتقدّم إلى الأمام بالنسبة إلى اختيار المُطلّقين الشريرين.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: لا أزال أرى أنّ هذا خيارٌ جيّد. خلال تسعة أشهر، إذا أردت ذلك فعلاً، سوف يتم تناسخ روحك في عائلة شيروبل.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: لننتقل الآن إلى المشاكل الصحيّة. هي الأخرى، يمكنك أن تختارها. برصيدك البالغ ناقصاً 230 نقطة، عليك أن تختار مشكلتين من ضمن القائمة التالية: الروماتيزم المؤدّي إلى الشلل، القرحة المعدية، الآلام الدائمة للأسنان، التهاب الأعصاب المزمن، نوبات

هستيريا دائمة، قصر نظر شديد قريب من العمى، الصمم، الحول الإنسي، الحول الوحشي، رائحة الفم الكريهة الدائمة، داء الصدفية، الإمساك، مرض الزهايمر، شلل الساق اليسرى، التأتأة، التهاب القصبات المزمن، الربو.

الروح: أوه...

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: هيّا أسرِع، وإلّا سوف أقرّر نيابةً عنك. هناك أناسٌ ينتظرون خلفك!

الروح: إذاً، بشكل عشوائي: القرحة والربو.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل (وهو يدوّن): لا بأس. السيّد خبير.

الروح: هذا لأنني سبق أن عانيتُ، في حياتي السابقة، من التهاب القصبات المزمن ومن آلام الأسنان الدائمة. كانت آلاماً لا تُطاق. دعونا نغيّر.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: يبقى هناك إجراء شكليّ صغير. هل تُريد أن تُولد رجلاً أم امرأة؟

الروح: وما الفرق؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: إذا ولدتَ رجلاً، سيكون عليك أن تؤدّي واجباتك العسكرية وسيكون متوسّط عمرك ثمانين عاماً. أمّا إذا ولدتَ امرأة، فسوف تُعاني من آلام الولادة وسوف تعيش حوالي تسعين عاماً.

الروح: لحظة من فضلك، إذا ما وُلِدتُ امرأة، لن يعود بوسعي أن أصبح الرئيس المُهيب وزير النساء، مثلما وعدتموني.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: ها هو رأي مسبقٌ ذكوري. أنت مخطئ، فالمستقبل سيكون للطغيان النسوي. سيكون المستقبل «للطاغيات». يكفي أن يتمّ قلب الأدوار. جميع الرجال سوف يكونون عند قدميك ولا شيء سوف يمنعك من ممارسة سلطاتك في الهيمنة. أضف إلى ذلك أنّ الأخلاق لا تتوقّف عن التطوّر. نحن نرى عدداً متزايداً من النساء على رأس دولٍ أو شركات.

الروح: عملية ولادة، لا بدّ أنّ هذا مؤلمٌ للغاية على أيّ حال، أليس كذلك؟

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: أقترح عليك أن تخضع للتخدير حول الجافية أثناء الولادة. ثمّ إنّك تعلم أنّ النشوة الجنسية عند الأنثى هي تسعة أضعاف النشوة الجنسية عند الذكر. وحدهنّ النساء يعرفن اللذّة الحقيقية.

الروح: لا شكّ أنّك تمتلك المعلومات أفضل منّي في هذا الشأن.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: لماذا برأيك تولد فتياتٌ أكثر بكثير من الصبيان؟ لأنّ الناس يستعلمون قبل أن يختاروا.

الروح: إذاً، أنا موافق على الجنس الأنثوي.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: لنأتِ الآن إلى مهمّتك الشاملة. لا شكّ أنّك لا تتذكّر ذلك، ولكن روحك ظهرت قبل الآن بسبعمئة ألف سنة من أجل مهمّة إنجاز عملٍ أحدث ثورة بالكامل في فنّ الرسم. ولكن ما الذي أراه في سجلّك؟ لا شيء سوى بعض الخربشات الواعدة بعض الشيء على هامش دفاترك المدرسية. لم تستفد من أيّ من حيواتك السابقة لكي تنجز مهمّتك.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل (محبَطاً): وهذا هو السبب الذي جعل البشرية تبقى متخلّفة عن الركب في الكثير من المجالات... يكفي ألّا ينجز أحدهم مهمّته المقدّرة له على الأرض حتى لا يتقدّم مجالٌ فني أو علمي بأكمله!

الروح: مع كلّ عملي في العالم السفلي، لم يكن لديّ من أوقات الفراغ حتى دقيقة واحدة.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل (مستاءً): هل تسخر منّا؟ لقد تبيّن لي هنا أنّك، في حيواتك السابقة، كنتَ صيّاداً لفيلة الماموث، وسائق عرباتٍ، وحاجباً في قصرٍ، ومستكشفاً في أفريقيا، وصيادَ لؤلؤ، وممثّلاً سينمائياً، ومع كلِّ هذا، لم تعثر أبداً على وقتٍ قصير لكي ترسم على الأقلّ لوحةً واحدة؟

الروح: أخشى أنني لم أفكّر في ذلك قط.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: الآن سيكون عليك أن تفعل ذلك. الإنسانية بأسرها تنتظر إسهامك التصويري. بسبب تكاسلك، لا يزال فنّ الرسم في حالة بحثٍ عن زخمٍ ثانٍ. المئات من الفنانين والرسامين

ينتظرونك لكي يعبّروا عن مواهبهم على نحوٍ أفضل، ويُساهموا في إثراء رسالتك. مات بعضهم من دون أن يرسموا شيئاً.

الروح: حقّاً أنا آسف. سوف أبذل جهدي لكي أقدّم أفضل ما لدي هذه المرّة. ومع ذلك، فإنّ الرسم مهنة الفقراء التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع. يضطرّ المرء غالباً لأن ينتظر حتى يبلغ الخمسينيات من عمره لكي يتمّ الاعتراف به أخيراً.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل (ساخراً): إذاً، السيّد مستعجل، هل لديه موعد قطار؟ سوف يكون أمامك تسعون عاماً للتفكير وشراء فُرَش الرسم، ألا يكفيك هذا الوقت؟

الروح: فضلاً عن ذلك، وبصفتي امرأة، سوف يكون هناك المزيد من المصاعب التي ستُفرَضُ عليّ...

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: إنّ المصاعب سوف تنمّي مزاياك. إذا كان عملك تغييرياً بالدرجة التي نتوقّعها، وإذا ما أنجزت لوحة الموناليزا خاصّتك، أتعهّد بأن أمنحك سبعمئة نقطة كمكافأة في مرورك القادم أمامنا. وهذا ما يُتيح لك مئة نقطة من الحسم! الأمر الذي سيجعلك تعيش حياةً قصيرة من الفجور بين لوحتين.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: إذا كان السيّد مستعجلاً، يمكننا أن نرتّب له خدعة موزارت.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: فكرةٌ حسنة، خدعة موزارت!

الروح (باهتمام): وما هي خدعة موزارت هذه؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: سوف تنجز سريعاً تحفتك الفنية، وسوف يتمّ الاعتراف بك على نحوٍ متوسّط، وسوف تحصل فقط على ما يكفيك للبقاء والاستمرار في أن تُنتِج بكمية كبيرة ولكن أيضاً بجودة عالية ومن ثمّ، فجأةً تنتهي! سوف تموت شابّاً. في الخامسة والثلاثين من العمر، مثل فولفغانغ أماديوس موزارت. بل يمكننا أن نذهب إلى حدّ التاسعة والثلاثين، إذا كان هذا يناسبك.

الروح (باهتمام): هذا مغرٍ. أوافق عليه بطيب خاطر. شكراً.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: تمهّل، لم ننته من الأمر بعد. بقي علينا أن نختار موتك.

الروح: موتي! ولكنني ميّت!

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: أنا أتحدّث عن موتك القادم. يجب أن نتّخذ القرار في كلّ شيء مسبقاً.

الروح: هل تقصد أنني، في المرّة الأخيرة، اخترتُ بغباء شجرة الدلب؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: أجل! ماذا تُريد الآن؟ حادثاً آخر بالسيارة، أم جرعة زائدة من الكوكايين، أم أن تُغتال من قبل أحد معجبيك أو أحد عشاقك المرفوضين؟ لدينا كلّ أشكال الموت المحتمَلة: وحشية الشرطة، أصيص زهورٍ يسقط من شرفة بالصدفة، الغرق، الانتحار. وكلّما كان الموت مؤلماً أكثر، كانت المكافأة أكبر. بفضل نقاطهم الخمسمئة من المكافأة، استطاع الكثير من الكاثاريين المرميين في النار أن يتخلّصوا من دورة تناسخ روحهم. كان الحرق بالنار موضة آنذاك. ولكن هناك الآن ما هو أكثر حداثةً: 300 نقطة مكافأة لمن يموت محكوماً بالإعدام على كرسيٍّ كهربائي وهو بريء أو يكون ضحية لسرطان متفشٍّ في الجسم.

الروح: بئس النقاط الإضافية. أتمنى لو أموت بسرعة، دون أن أشعر بذلك وفي سريري. أن أنام حيّاً وأستيقظ ميّتاً.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: أنا آسف، يا إكتوبلازم داناهو، ولكن مع رصيدك البالغ ناقصاً 230 نقطة، لا يمكننا أن نقدّم لك طرائق موتٍ مريحةً إلى هذه الدرجة. انتقالك من الحياة إلى الوفاة لا يمكن له إلّا أن يكون عنيفاً. وفي الحقيقة أنّ هذا سوف يمنح عملك هالة إضافية. فكّر في فان غوغ! ها هو رجلٌ أجاد الرسم، وقد عانى كثيراً ومات ميتةً مؤلمة. ومن جرّاء ذلك، استحقّ نقاطه الستمئة واستطاع أن يتخلّص من دورة التناسخ خاصّته. لقد أصبح روحاً خالصة. اتّخذه مثلاً أعلى.

الروح (متشكّياً): ولكنني لا أريد أن أتألم!

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: في كلّ الأحوال، لا يكون المرء على الأرض لكي يتسلّى. فضلاً عن ذلك، مع الوالدين اللذين اتّخذتهما لنفسك، لن تكون بداياتك وردية!

الروح: يا له من جرح! حسناً، سأختار الانتحار. ولكن على أن يكون انتحاراً سريعاً، سريعاً ومن دون ألم.

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: أَلْقِ بنفسك من نافذة.

الروح: هذا مستحيل. لطالما كنتُ أعاني من الدوار.

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: اِقْطع شرايينك في مغطس حمّامٍ دافئ. ولكن اِحْذر، إذا أردت ألّا تخفق في محاولتك، يجب أن تقطعَ رسغيك عميقاً. وإلّا لن تنجح المحاولة. اِحْرص على أن تشحذ جيّداً شفرة الحلاقة خاصّتك.

عبس الإكتوبلازم دوناهو مشمئزاً.

الروح: حسناً، أختَار الانتحار باستخدام شفرة الحلاقة...

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل (وهو يملّس عقد الخيوط الرفيعة): إذاً، سألخّص الأمر. لقد اتّفقنا تماماً: سوف تولد امرأةً مع قرحة معدية ونوبات ربو. ووالداك المطلّقان سوف يشبعانك ضرباً. وسوف تستعجل في رسم هذه اللوحة اللعينة. سوف تموت، بقطع شرايينك في مغطس حمامك. بالنسبة إلى ما تبقّى من تفاصيل، لك الحريّة في التصرّف. هل نذهب إلى الميّت التالي؟

رئيس الملائكة - القاضي رافائيل: ليس بعد. بقي علينا أن نحرّر استمارة البيانات.

الروح: ما هذه الاستمارة أيضاً؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: لا تقلق بشأنها. يتعلّق الأمر بتحديد بعض مزاياك. ولكن هنا، ليس لك رأي تبديه في الأمر، بل نحن من نحسب.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: سأحدّد لك: القوة البدنية: مستوى أدنى من المتوسّط. الجمال: أعلى من المتوسّط. كثافة النظر: أعلى من المتوسّط. رنين الصوت: مستوى متوسّط. الكاريزما: مستوى رفيعٍ جدّاً. مهارة الألعاب الذهنية: مستوى متدنٍ.

الروح: ماذا يعني هذا؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: يعني أنّ السيّدة سوف تواجه صعوبة في نيل إجازة القيادة خاصّتها أو أنّها سوف تكون غير قادرة على أن تُصلح وحدها غسّالتها. هذا كلّ ما في الأمر.

الروح: لا يهمّ! منذ اللحظة التي أصبحُ فيها امرأة جميلة وذكيّة، سوف أجد على الدوام من يُصلح لي ما يتعطّل من أدوات.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: أواصل التحديد: الذكاء: متوسّط المستوى. القدرة على الإغواء: عالي المستوى. قوّة التحمّل: مستوى متدن. الإصرار: عالي المستوى. مهارات الطهي: مستوى متدن. التهيّج العام: مستوى عال.

الروح: هل سأكون سريعة الغضب؟

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: إلى حدٍّ ما، نعم.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل (منزعجاً من كونه يُقاطع دون توقّف): القدرة على عزف آلة موسيقية: مستوى متدن. القدرة على الرمي بالمسدّس: مستوى عال. الذوق في النشاطات الرياضية: مستوى متدن. الرغبة في إنجاب طفل: مستوى متوسّط.

الروح: آه، الإرادة الحرّة هي مسؤولية: ما الذي ستخبرونني به أيضاً؟ ماذا لو أصبحتُ بارعة في حلّ الكلمات المتقاطعة؟ بالنسبة إلى تناسخٍ مُختارٍ، هناكَ على أية حال الكثير من العناصر المحدّدة مسبقاً والمستقلّة عن إرادتي. أنا أحتج.

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: ها أنت ترى، أنت بالأساس سريع الغضب! دعونا ننتهي من هذا: القدرة على الشجار: مستوى عال. الأنين: مستوى عال. حبّ المغامرة: مستوى متدن.

هيّا، لننتقل إلى الشخص التالي!

الروح: لا يزال هناك سؤالٌ. هل سأتذكّر كلّ هذا؟

رئيس الملائكة - القاضي ميخائيل: كلا طبعاً. لن تتذكّر أيّ شيء، ولا حتى مرورك من هنا. سوف يكون الأمر سهلاً للغاية!

رئيس الملائكة - القاضي جبرائيل: ومع ذلك، سوف يبدو لك، في بعض الأحيان، أنّه تنتابك أحاسيس باطنية، ويراودك حدسٌ. هذا كلّ ما سيبقى لك من هذه المحادثة. وسوف يكون عليك أنت حينها أن تثق بأحاسيسك الباطنية. ولكننا تحدّثنا بما فيه الكفاية. أسْرعْ لكي تنزل قبل أن ينتهي والداك من ممارسة الحبّ وإلّا سوف تتخلّف عن قطارك. هيّا، هوب!

الزبون التالي!

235. ميثولوجيا مسيحية

«سوف نكون أخوة الملائكة. حينما ندخل إلى المحكمة السماوية، يا له من انبهار أمام روعة الجوقات الملائكية. وخلال كلّ الخلود، يا لها من فرحة بالتآخي مع هذا العدد الذي لا يُحصى من الأرواح السعيدة! الملائكة أرواحٌ جليلة لا يغدو فنانونا وعباقرتنا أمامها سوى أقزامٍ».

شانوان ج. بانيتون
مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

236. كتاب التاريخ المدرسي

الخارطة الكاملة لأرض الأموات

انطلاق.

إيقاف علامات الحياة. بث إشارة راديو تردّد 86 كيلو هرتز.

غيبوبة.

الخروج من العالم.

طيران عبر الفضاء. المدّة: ثماني عشرة دقيقة تقريباً.

ظهور حلقة واسعة من النور الدائر تُسمى القارة الأخيرة. متاهات. شاطئ أزرق.

الرسو على المنطقة رقم 1.

المنطقة رقم 1

المنطقة: غيبوبة لمدّة ثماني عشرة دقيقة.

اللون: أزرق.

الأحاسيس: جاذبية، ماء، فضاء. رياح منعشة وابتهاج.

انجذابٌ بنورٍ ساطع.

توصية بالمتابعة: عدم الخشية من عبور الجدار الأوّل للموت.

ينتهي بموخ 1.

المنطقة رقم 2

المنطقة: غيبوبة لمدّة إحدى وعشرين دقيقة.

اللون: أسود.

الأحاسيس: خوف، اشمئزاز، برد، ذعر.

على تسع طرق ساحلية تزداد انحداراً تدريجياً، مواجهة مع أصعب الذكريات.

نورٌ حاضرٌ دائماً ولكنّه يخفت بالذكريات.

توصية بالمتابعة: أن يفهم المرء ماضيه ويكون قادراً على أداء كلّ فعلٍ من أفعاله.

ينتهي بموخ 2.

المنطقة رقم 3

المنطقة: غيبوبة لمدّة أربع وعشرين دقيقة.

اللون: أحمر.

الأحاسيس: متعة، نار، حرارة، رطوبة.

مواجهة المرء مع أكثر عيوبه انحرافاً وأكثر نزواته طيشاً. وهنا تطفو على السطح الرغبات الأكثر كبتاً.

التصدّي لها من دون الاستسلام للتورّط. في حالة الإهمال، هناك خطر البقاء ملتصقاً بالجدار اللزج.

توصية بالمتابعة: قبول المرء بنزواته دون التورّط فيها.

ينتهي بموخ 3

المنطقة رقم 4

المنطقة: غيبوبة لمدّة سبع وعشرين دقيقة.

اللون: برتقالي.

الأحاسيس: صراعٌ ضدّ الزمن، تيارات هوائية، رياح قويّة.

رؤية رتلٍ من الموتى يمتدّ إلى ما لا نهاية، متوجّهٍ ببطء عبر سهلٍ شاسعٍ وأسطواني.

مواجهة مع الزمن، تعلّم الصبر مع دقائق متحوّلة إلى ساعات ومن ساعات إلى أشهر. إمكانية لقاءات ومحادثات مع موتى مشهورين.

توصية بالمتابعة: تحرّر المرء من الخوف من خسارة وقته أو من الرغبة في كسبه.

القبول بالجمود. تصرّف المرء كما لو أنّه خالدٌ لا يموت.

ينتهي بموخ 4

المنطقة رقم 5

المنطقة: غيبوبة لمدّة اثنتين وأربعين دقيقة.

اللون: أصفر.

الأحاسيس: عاطفة، قوّة، القوة المطلقة. حلول لكلّ الأسرار غير المفهومة حتى اليوم. اكتشاف معنى الشاكرات وظهور العين الثالثة لممارسي اليوغا. اكتشاف طريق الطاو الطاهر للطاويين. حلّ أسرار القبالة بالنسبة إلى اليهود.

ظهور جنّة الله بالنسبة إلى المسلمين وجنّة عدن بالنسبة إلى المسيحيين.

مكان المعرفة المطلقة. يجد كلّ شيء علّة وجوده. اكتشاف معنى الحياة، من الأشياء المتناهية الكبر إلى الأشياء المتناهية الصغر.

توصيات بالمتابعة: عدم استسلام المرء للانبهار بالمعرفة. الاستسلام

للامتلاء بالمعارف دون الرغبة في التهامها جميعاً مثل العديد من الحلويات بالنسبة إلى العقل.

ينتهي بموخ 5

المنطقة رقم 6

المنطقة: غيبوبة لمدّة تسع وأربعين دقيقة.

اللون: أخضر.

الأحاسيس: جمالٌ عظيم، اكتشاف مناظر أخّاذة، رؤى حالمة ومثالية، زهورٌ في غاية الجمال، نباتات مذهلة تنتهي بنجوم متعددة الألوان. البلاد الخضراء، بلاد الجمال المُطلق.

ولكنّه أيضاً مكان اختبار غير متوقّع. إنّ رؤية الجمال المطلق تجلب نكران الذات. يشعر المرء بأنّه قبيح، عديم الفائدة، فظّ، أخرق.

لم يعد هذا إحساساً بالتواضع، إنّه شعورٌ بنكران الذات.

توصيات بالمتابعة: قبول المرء بقبحه.

ينتهي بموخ 6

المنطقة رقم 7

المنطقة: غيبوبة لمدّة إحدى وخمسين دقيقة.

اللون: أبيض.

مكانٌ مأهولٌ بالملائكة والشياطين. في الوسط، النهر الطويل للموتى. في العمق، الجبل المُضيء للمحاكمة الأخيرة. هنا تنتهي هجرة الأرواح نحو عمليات تناسخ جديدة. سوف يقوم ثلاثة رؤساء ملائكة بوزن مزايا تلك الأرواح.

توصيات بالمتابعة: أن يكون المرء مستعداً لدفع ثمن أفعاله السيّئة. المطالبة تلقائياً بتناسخٍ يتيح بتصحيح الأخطاء والأضرار الناجمة خلال حيوات سابقة.

ينتهي بجبل النور.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

237. توجّس

مع أنّها نُشِرَت من قبل الصحيفة المتواضعة: *المستكشف الصغير المصوّر*، فإنّ مقابلة شارل دوناهو حظيت بصدى عالمي. لقد تُرجِمت إلى جميع اللغات، وتمّت الكتابة عنها من قبل كبار علماء النفس، والفلاسفة، والمحللين النفسيين، والسياسيين.

وبالطبع أظهر صديقنا الرئيس أنّه الأكثر ثرثرةً حول الموضوع.

لقد استنفر كلّ القنوات التلفزيونية لتغطية خطابه الذي أعلن فيه الدخول إلى عصرٍ مسيحي. لقد أكّد أنّ من شأن الثاناتونوتية أن تفتح جميع الأبواب التي كانت موصدة حتى الآن. ومن الآن فصاعداً، سوف يكون هناك ما قبل اكتشاف القارة الأخيرة وما بعده. ونحن نُصغي إليه، خمّنّا أنّه كان يتمنىّ لو أنّ هذا العصر الجديد يوصف بالعصر اللوسينديري. لن تعود هناك مفكّرة مسيحية مع التأريخ بقبل الميلاد أو بعد الميلاد. كنّا في العام الثامن والستين بعد ميلاد جان لوسيندير.

لو لم يحصل لوسيندير على دعم الجميع لشخصه، لما فهم أحدٌ أنّ أمراً أساسياً قد حدث للتوّ. كان بابٌ كبير يُفتَح، تاركاً عاصفةً تضرب حجرةً ظلّت مغلقة لزمنٍ طويل.

يا له من تغييرٍ عظيم أن نعلم أنّ الموت هو بلدٌ، وأنّ هذا البلد مأهولٌ بالملائكة، وأنّ رؤساء ملائكة يحاكموننا فيه على حيواتنا السابقة... كما أنّ *مقابلة مع ميّت* قد علّمتنا علاوة على ذلك أنّنا كنّا نعيشُ في عالمٍ أخلاقي.

كانت هناك طرائق صحيحة وأخرى خاطئة للتصرّف هنا في العالم السفلي. لم يعد البشر على الأرض سوى تلاميذ مكلّفين بتعلّم دروسهم جيّداً، أي المحبّة، السخاء، سمو الضمير.

كان الأمر بسيطاً جدّاً، طفولياً جدّاً، أخلاقياً جدّاً. وحدها كتب التعليم المسيحي من جميع الأنواع كانت قد اعتقدت بذلك، وعلى مرّ القرون، كفّ العدد الأكبر من الناس عن الإيمان بذلك. كم من رجال دين من كلّ الأديان والمذاهب ردّدوا مع ذلك منذ الأزل أنّ المستقبل سوف يكون للناس اللطفاء!

كان الأوان قد فات حينما أدركتُ مخاطر إفشاء سرّ كهذا، بات الجميع يعرفه الآن. كان ينبغي على المرء غسل كارماه من كلّ أوخامها، وتجنّب تشويه حياته بأدنى شرٍّ. أن يعيش، ويعاني، ويموت: لم يعد هناك من أهمية لأيّ شيء، ولم يعد الأمر برمّته سوى دورة إلى حين الوصول إلى قمّة الروح الطاهرة.

تأمّلنا العالم العلوي هناك في شقّتنا العلوية على السطح. عبر المناور، المضاءة بألسنة لهب صغيرة للشموع، كنّا نلمح ضياء النجوم.

كانت النجمة آماندين تتصرّف في هيئة كاهنة. إذ لم تعد ترتدي سوى أثواب طويلة سوداء صينية ذات ياقات مرفوعة وتنّورة فيها شقٌّ طويل. وكانت قد نزعت كلّ المصابيح لتستبدلها بشمعدانات. كنّا نغطّ وسط ضوءٍ برتقالي.

كنتُ أوّل من كسر هذا الصمت:

– إنّ الوقت حرج. لقد تجاوزتنا الأحداث. لم نعد نسيطر على أيّ شيء. لقد أفلتت الثاناتونوتية من بين أيدينا.

قالت آماندين بصوت ممثّلة تراجيديا:

– كان يجب توقّع ذلك، فهي تمسّ بالكثير من النقاط الجوهرية. باكتشافنا للموت، أعطينا الحياةَ معنى.

تدخّلت ستيفانيا، العصبية المزاج، وقالت غاضبةً:

– بالنسبة إلى كريستوفر كولومبوس، كان الأمر سواء. ربّما استطاع أن يكتشف أمريكا، ولكنّه فشل في عودته. كان يتصوّر أنّه يؤثّر على الناس من خلال ببغاواته وشوكولاه. لقد سخر منه الناس. سوف نستحق تماماً أن يُسخَر منّا!

لا يزال كولومبوس...

علّقت روز:

– لقد مات هذا المسكين كولومبوس بائساً ومنسيّاً. أمّا نحن، فلسنا كذلك على أيّ حال.

استشاطت السيّدة الإيطالية مرّة أخرى غضباً، وقالت:

– ولكن الأسوأ من ذلك، هو أنّ اكتشافه أفلت منه تماماً. والدليل هو أنّه إذا كانت أمريكا تُسمّى بهذا الاسم، فذلك بسبب أمريكو فسبوتشي، المستكشف الوحيد الذي تمّ الاعتراف به آنذاك من قبل البلاط الإسباني. ونحن أيضاً، نُحرَم الآن من صنيعنا!

مُبدياً موافقتي، ضربتُ بقبضتي على الطاولة الخفيضة، وقد كدتُ أن أُسقط أكواب كوكتيلات آماندين. كان ذلك مضحكاً، ولكن منذ رحيل راؤول، كنتُ أشعر بأنني مرغمٌ على التعبير عن سخطي بضرباتٍ من قبضتي نيابةً عنه. وبهذه الطريقة، كانت هناك بالضرورة، ضمن كلّ المجموعة، حاجة إلى شخصية سريعة الغضب ودموية!

صحتُ متذمّراً:

– علينا أن نحافظ على تحكّمنا بالثاناتونوتية. نحن كنّا روّداها، والسيطرة عليها من حقّنا.

قالت روز متنهّدةً:

– يا عزيزي المسكين، منذ نشر *مقابلة مع ميّت*، تمّ تجاوزنا.

قالت ستيفانيا، منفعلةً:

– هل سمعتَ ما يقولونه في الأخبار؟ لقد انخفض عدد الجرائم والجُنَح على نحوٍ مفاجئ. لم يعد هناك من يرتكب جرائم القتل سوى المجانين!

سألت آماندين، العملية:

– ما الذي سنفعله؟

قالت روز:

– لا شيء. سوف نواجه موجة من اللطف العارم. لم يعرف العالم بعد هذا. سوف نرى ما سيجلبه هذا الأمر.

وفي صمت، شربنا، ونحن متضايقون، مشروباتنا المحلّاة بإفراط، وغير المشبعة بالكحول بما فيه الكفاية. يا للقرف!

238. ميثولوجيا هندية أمازونية

سابقاً، كان الهنود الغوارانيون يعيشون في السماء مع الآلهة. كان

انشغالهم هناك يتمثّل في إذكاء نار النجوم وضوء الكواكب. والحال أنّ محارباً شابّاً أخرقَ قد اخترق، ذات يوم، القبّة السماوية وهو يطلق سهاماً من قوسه. فبدت له الأرض بكلّ ثرواتها. بدت له الماشية والغزلان وخلايا النحل المليئة بالعسل والأسماك والثمار شهيّة جدّاً بحيث أشرك أخوته في هذا الاكتشاف. مستغلاً لحظة من السهو لدى الآلهة، أطلق الغوارانيون داليةً لكي يهبطوا بوساطتها على الأرض. وقد وصلوا بذلك إلى نهر أورينوكو العظيم، في قلب الغابة. استمتعوا بأطعمة أرضية، ولكن سرعان ما أصبحت الحيوانات الفزعة نادرة من حولهم. وغمر المطر الفاكهة، ففسدت. مرتجفين بسبب الحمّى، طلب الهنود العودة إلى الإقامة مع الآلهة. ولكن كان الأوان قد فات. كانت القبّة السماوية قد انغلقت وحُكم على الغوارانيين العيش على هذه الأرض الصعبة التي كانوا قد طمعوا فيها كثيراً.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

239. عالمٌ من الطيبة

غدا العالم تدريجياً أكثر لطفاً. لم يعد من الوارد أن يدنّس المرء كارماه بالأفعال السيّئة، لأنّ في ذلك مجازفة بأن يجد نفسه يموت جوعاً في أفريقيا، أو مشرّداً بلا مأوى في نيويورك أو ممّن يتلقون دخلاً من الضمان الاجتماعي في باريس.

ما كان لأيّ عملٍ من الخيال العلمي أنّ يتخيّل واقعاً بهذه الطيبة. كان اللطف يغزو كلّ مكانٍ على الأرض، مثل مرضٍ معدٍ.

أصبحت الأعمال الخيّرة تئنّ تحت وطأة التبرّعات الهائلة. كان على المرء أن يقف في صفّ الانتظار لساعات طويلة لكي يسلّم صكّه المصرفي أو أفضل ثيابه للتبرّع. وتفتح المستشفيات المكتظّة قوائم انتظار لتغطية الأعَداد الهائلة من المتبرّعين بالدم الذين لديهم القدرة على ذلك.

خمدت صراعات مزمنة عبر العالم من تلقاء نفسها، مرغِمة تجار سلاح سعداء على إغلاق باب تجارتهم المسبّبة بخصم النقاط. وبات كلّ ما يُجازف، من بعيدٍ أو قريب، بأن يُعتبَر عملاً سيّئاً، محكوماً من الآن فصاعداً

بالازدراء الشامل. ولم يعد متعاطو المخدرات يجدون تجاراً للحصول على المخدّرات منهم. وبناءً على أبسط طلب، كان أصحاب المصارف يقدّمون قروضاً بأدنى نسب الفائدة، ولم يعودوا يستعلمون عن قدرة زبائنهم على تسديد هذه القروض. وأصبحوا على قناعة بأنّ إفلاسهم بسبب سخائهم سوف يُعوّض عليهم بكلّ تأكيد برخاءٍ في العالم الآخر.

وكانت الأرواح الطيّبة تتجمّع أمام آنية الصدقات للمتسوّلين. وقد تزوّد هؤلاء المتسوّلون بأجهزة تقبل بطاقات الائتمان ولم تعد تقبل الشيكات المصرفية إلّا بإبراز وثيقة إثبات الشخصية.

لم تعد هناك حاجة إلى إقفال الأبواب، وتمّ إبطال العمل بأنظمة الإنذار. وبات بالإمكان من الآن فصاعداً ترك أبواب الشقق والسيارات وخزائن الأموال مفتوحة على مصاريعها. السرقة! لم يعد أحدٌ يفكّر في القيام بها.

لم تعد هناك حقارة، ولا عمليات سطو، ولا مشاجرات واشتباكات، ولا أعمال شغب، ولا أعمال عنف. وبالمقابل، ازدهرت التجارة. وتجنّباً لارتكاب الآثام بسبب البخل، كان الجميع يُكثر من الهدايا للجميع. ما إن يظهر ضريرٌ راغبٌ في قطع شارعٍ، حتى تمتدّ إليه عشرات الأيادي، وبسبب هذه الحماسة في المساعدة من قبل الناس، كان الكثير من الأشخاص المصابين بالعمى يجدون أنفسهم ضائعين على الأرصفة المقابلة من دون أن يرغبوا في الانتقال إليها.

تلقّى العالم الثالث معونات هائلة. فإذا ما رسب الميّت في الامتحان واضطرّ أن يولَد من جديد في بلدٍ فقير، يكون متأكّداً من أنّه سوف يغتني آنذاك وأنّ حياته المقبلة سوف تكون أكثر راحةً. كان من المصلحة العامّة أن يتمّ على نحوٍ كبير تخفيض عدد الأماكن البائسة التي يولد المرء فيها من جديد.

وأصبح الناس يفرجون عن ابتسامات خفيفة أو عريضة، متجنّبين إزعاج قريبهم بعبوسٍ أو تكشيرةٍ أو كلمة سوء.

وسجّل كلّ شخصٍ القوانين والقواعد حسب الأصول: إنّ دورة تناسخ الأرواح ستسمر إلى ما لا نهاية إذا لم يصبح المرء طيّباً بما فيه الكفاية وحكيماً

بما فيه الكفاية لكي يكون جديراً بأن يتحوّل إلى روحٍ طاهرة. ولذلك كان الجميع يبذلون أفضل ما لديهم من جهود.

كانت ورشات الرسم والموسيقى وصناعة الفخّار وحتى المطبخ مزدحمة بالناس. من يدري إن لم يكن هناك، على غرار إكتوبلازم دوناهو، منْ يمتلك موهبة دفينة ينبغي تحقيقها بأسرع ما يُمكن؟ أضف إلى ذلك، حتى الأعمال الأكثر قبحاً كانت تجد من يقتنيها. كان رعاةٌ للأنشطة الفنية ومتبرعون متلهّفون لمساعدة الفنانين الفقراء يعرضونها بشجاعة في صالوناتهم.

بات هاجس الناس امتلاك العلم والتقدّم والمعرفة والتطوّر. كانت دعايات المدارس من خلال المراسلة تقول: «حافظ على جمال روحك. اعتنِ بها مثل حديقة».

وكان أرباب العمل يتوسّلون إلى موظفيهم لكي يقبلوا بزيادة الرواتب التي كان الموظّفون يرفضونها، راغبين بدل ذلك في الحصول على وقتٍ فارغٍ لكي يكتشفوا مواهبهم. كانت النقابات ترفع شعار: «مكتبات كتب، لا قروش المال». وراح بنّاؤون متطوعون يبنون المكتبات بكثافة.

وبالتزامن مع ذلك، بالطبع، شهدت الثاناتونوتية تصاعداً في الاهتمام بها. من ذا الذي لا يتمنّى أن يصعد إلى العالم العلوي ويلتقي هناك مع «موتاه الأعزّاء» أو على الأقلّ، الاطلاع مرّة واحدة وإلى الأبد على كارماه؟

240. ميثولوجيا هندية نافاجوية

إنّ هنود أمريكا، وعلى نحوٍ خاصّ شعب نافاجو، لديهم خوفٌ مرضي من الموت. إلى درجة أنّهم غير قادرين على الاقتراب من جثّة إلّا بجهدٍ جهيد. فحين يموت شخص، يقومون بدفنه بسرعة وبنفورٍ شديد واتّخاذ كلّ التَدابير الاحترازية حتى إنّهم يلمسونه بأقلّ ما يمكن. وتُدفن الجثّة في مكانٍ سرّي، وفي أبعد نقطة عن القرية. ولا يعود أحد يلمس أغراض الميّت، ولا يقتربون من خيمته، ويعتبرون أنّ كلّ ما يمتّ إليه بصلة قد بات قذراً بعد وفاته.

في ميثولوجيا شعب نافاجو، هناك توأمان بطوليان، كانا قد استوليا سابقاً على أسلحة الشمس لإبادة الوحوش التي أرادت أن تقتل النافاجويين.

وهذه الوحوش هي الشيخوخة والقذارة والبؤس والجوع. وحقيقة أنّ هذه الوحوش لا تزال حيّة ما هي سوى تشوّشٍ بسيطٍ لدى التوأمين البطوليين، لا ينبغي إعارة أيّ أهمية له.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

241. بحثاً عن ف. م

منهمكاً في الشرب، لم يُلاحظ راؤول أيّاً من هذه التغيّرات. لم يكن علاجه من الإدمان ناجحاً في الحقيقة. كان لا يزال يشرب، حتى وإن كان يجدُ على نحوٍ أقلّ نُدلاً يقبلون بتقديم الشراب له، حينما يصبح في حالة متقدّمة من الثمالة.

في محطّة إطلاق المستكشفين، لم يكن هناك على الدوام سواي أنا والنساء الثلاث (خاصّتي): روز، وستيفانيا، وآماندين. خلال هذه الفترة، كانت تسليتنا المفضّلة تتمثّل في الانكباب بنهم على كلّ أعمدة الولادات في الصحف، بحثاً عن تناسخ روح فريدي ماير. ف. م.، ف. م.، ف. م...

وقد وجدنا فيها أطفالاً تبدأ أسماؤهم بالحرفين الأوّلين ف. م. ! فرانسوا مورلون، فاطمة ماويش، فرانك مينيار، فيليسيتي مونان، فيرناند ميليسيه، فلوران موشينيار، فابيان ميركانتوفيتش، فيرمان ماغلوار، فلورانس ميروان... وفي كلّ مرّة، كنّا نضرب موعداً مع الوالدين السعيدين، ولكن حينما كنّا نقدّم للطفل الصغير، من بين عشر ساعات يد وأقلام وميداليات أخرى، ساعة وقلم وميدالية فريدي، لم يكن أحدٌ يمدّ يده نحو الأشياء المألوفة لصديقنا المفقود.

واستنتي روز:

– لا يزال الوقت مبكّراً جدّاً. هل تتذكّر صفّ الانتظار؟ لا بدّ أنّ فريدي لا يزال عالقاً في ازدحام موتى المنطقة الصفراء. كان هناك حتى فيكتور

هوغو في انتظار تناسخ الروح، وإذا كان هو لم يمرّ بعد رغم أسبقيته بقرون، فما بالك بفريدي!

– لا يسير الموتى جميعهم بنفس السرعة. إنّ فيكتور هوغو، بما عليه من ثرثرة، يتلكّأ كثيراً في النقاش. بينما يستعجل آخرون في ذلك. انظر كم كان الإكتوبلازم دوناهو مستعجلاً على الولادة من جديد!

ذكّرتني روز:

– يوصى بأن يتحلّى المرء بالصبر وقد عرف فريدي على الدوام أن يُظهر نفسه صبوراً.

في الواقع، ظننتُ أنّها تتأمّل في أن تكون هي من تلد المُستنسَخ المقبل لحاخامنا – مصمّم تشكيلات فرق التحليق – . بعد الكثير من المناقشات، اخترنا في الحقيقة مسبقاً اسماً لوليدنا المستقبلي فريديريك مارسيل بينسون. ولكن فيما بيننا، كنّا نناديه فريدي جونيور، أي فريدي الصغير.

حضرتُ الولادة. كم كان ذلك جميلاً! قبلةٌ، وممارسة للحبّ، وبعد تسعة أشهر، تحوّل الكثير من الحبّ إلى 3,2 كيلوغرام من كرة وردية صغيرة وناعمة، متعطّشة إلى الحنان. لم يسبق لي قط أن تأثّرتُ بهذه الدرجة من التأثّر. حتى رؤية قارة الموتى لم تكن تشكّل شيئاً مقارنة بهذه المعجزة البسيطة جدّاً التي تتكرّر لمليارات مليارات المرّات: ولادة حياةٍ.

قبل ذلك ببضعة أيام، كنّا شخصين في شقّتنا ضمن محطّة إطلاق المستكشفين في بوت شومو. الآن، أصبحنا ثلاثة أشخاصٍ فيها. هل هناك سحرٌ أروع من هذا؟ إلى جانب هذا السحر، لم تكن الثاناتونوتية وكارماي سوى تفاهات. كان وحده هو المهمّ. طفلنا «فريدي جونيور».

242. استمارة شرطة

ملاحظة إلى الجهات المختصّة

نحن نعتبر أنّ هناك ازدراء واسعاً. ثمّة خطأ في ترك الثاناتونوتية تتطوّر. نسجّل حالياً أكثر من عشر عمليات إطلاق مستكشفين في اليوم. وتصبح

التقنية آمنة أكثر فأكثر. الكاروبيم، وسارافيم، وملائكة، وشياطين متضايقين في عملهم.

جواب من الجهات المختصّة:

دعونا لا نبالغ في شيء. الثاناتونوتية، كما نعلم جميعاً، تندرج في إطار تقليدٍ طويل. تقليد منذ آلاف السنين. لطالما تركنا من يجيدون الدخول إلى ذلك العالم أن يدخلوا. حتى الآن ليس هناك ما يُبرّر أيّ تغييرٍ في الموقف.

243. فلسفة طاويّة

«كلّ حياة هي مثل حلم. من غير المناسب أن يؤرقنا الموت الذي ليس سوى تغيير في الشكل. لماذا نتحسّر على منزلٍ مسكونٍ ليومٍ واحدٍ فقط؟»

لاوتزه

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

244. جونيور

انتظرنا عاماً كاملاً قبل أن نخضع فريدينا الصغير لاختبار الأشياء الشخصية للراحل فريدي الكبير. كانت تلك تقنية تبتية للإقرار بعمليات تناسخ الأرواح. في أفريقيا، كانت توجد عادة مماثلة عند بعض القبائل. كانوا يقطعون سُلامية إصبع للميّت بهدف تحديد هويّة الجنين الذي سوف يُولَد من دون نفس هذه السلامية. كان احتفال الامتنان التبتي يبدو أكثر ملاءمةً.

ونحن، روز وآماندين وأنا، نجثو على أطرافنا الأربعة على السجاد، راكعين بالقرب منه، نظر الطفل إلى هذه الساعات والأقلام والميداليات الكثيرة مثل الكثير من الخشخيشات الجذّابة والمُبتَكرة. عادةً، كنّا نُبعد هذا النوع من الأشياء عن متناوله، خشيةً من أن يتلفها، أو، أسوأ من ذلك، أن يبتلعها.

اهتمّ الطفل في البداية بساعات اليد، وهزّ بمرحٍ بعضها، وحطّم اثنتين منها (مبرّراً بذلك كلّ مخاوفي بشأن أغراضي الخاصّة) وأمسك أخيراً بحنيّة بساعة حاخامنا العزيز.

كنّا مستعدين مسبقاً لكي نُهرع بعضنا نحو بعض ونتعانق. لقد عاد فريدي ماير إلى الأرض في ملامح ابننا!

هدّأت روز اللعبة. فبينما كان الطفل يواصل التلوّي بلا توقّف بين غابة الأواني المبعثرة على السجّاد، همست، قائلةً:

- دعنا لا نستبق الأمور.

قفزتُ من مكاني من جديد عندما لوّح بافتخار بقلم فريدي. لقد ميّزه من بين جميع الأقلام ومن ثمّ أمسك به.

لم يعد هناك مجالٌ للشكّ، في تلك اللحظة أصبحتُ مقتنعاً بأننا قد استعدنا فريدي ماير الطيّب. إلّا إذا كان هو من استعادنا، هناك في العالم العلوي، في لحظة اختياره لوالديه. لم يكن حكيمُنا غبيّاً. كان يعلم جيّداً بأننا سوف نتعرّف إليه! في كلّ الأحوال، كنتُ متأكّداً من أنّ فريدي ماير وفريديريك مارسيل بينسون لم يكونا يمتلكان سوى كارما واحدة وهي نفسها.

مع كلّ المعارف التي يحملها هذا الطفل مسبقاً في داخله، ما الذي كنّا سنكسبه من وقت!

قالت آماندين، متحمّسةً:

- بمجرد أن يبلغ من العمر ما يكفي، سوف أسجّله في دورة للرقص وفنّ تصميم الرقصات.

أكملتُ من جهتي:

- سوف يذهب أيضاً إلى مدرسة تلمودية. بالإضافة إلى ذلك، إذا ما تحدّثنا عن حياة فريدي الكبير لفريدي جونيور، سوف يسمح له ذلك بأن يُحقّق قفزة رائعة إلى الأمام في دورة تناسخ الأرواح.

- سوف يستفيد من خبرةٍ تمتدّ على مدى ستين عاماً. وسيكون أوّل كائن بشَري يمتلك ذكريات عن حياتين.

لم تخفِ روز المطامح الكبيرة التي كانت تحتفظ بها من أجل طفلنا المعجزة.

- في سنّ العشرين، سيصبح حكيماً كبيراً. تُرى هل هذا هو ما حدث

مع موزارت؟ كان استنساخاً من موسيقيٍّ بارعٍ آخر وأدرك والداه ذلك منذ البداية.

أكثرنا، فرحين ومنبهرين، من الاقتراحات بشأن مستقبل الطفل.

كنّا قد صرفنا اهتمامنا عن الطفل عندما أصابنا فريدي جونيور بإحباطٍ شديد من خلال تركه قلم الحبر الأسود خاصّة فريدي الكبير لينجذب بدلاً عنه إلى قلم تلوين فوسفوري برتقالي اللون.

تابعناه، وقد حبسنا أنفاسنا، في حين واصل رحلاته وتنقّلاته بين الأشياء. رمى بعيداً ساعة وميدالية الراحل ستراسبورغي لكي يُمسكَ بدلاً عنهما بولّاعة غير صالحة للاستخدام لونها أزرق بحري وبلوحٍ من الشوكولا مغلّفٍ بورقته الذهبية. لقد انتهى كلّ شيء. فجأةً، نظرنا إلى ابننا المحبوب كما لو أنّه غريب. إنّه امتدادٌ لشخصٍ لم نكن قد قابلناه قط!

حاولت روز أن تواسينا وأن تُريح نفسها، وأكّدت أنّ الأمرّ لا بدّ أنه يتعلّق بشخصٍ خيّرٍ حتى ينزل في أسرة مثل أسرتنا.

ولكن مع ذلك، لم يكن الطفل فريدي، وبدا لنا على نحوٍ مفاجئ، كيف أشرح ذلك؟ ... غريباً. أصبحنا في غاية الإحباط. لم نكن قد أنجبنا سوى طفلٍ عادي، وُلِد من كارما شخصٍ لا نعرفه. لم يكن نتاج حياة رجلٍ قدّيس، بل مجرّد رجل عادي.

انتابنا إحساسٌ بأننا قد تبنّينا طفلاً كورياً أو أنّنا خُدعنا بالبضاعة.

يا لها من خيبة أمل! ومع ذلك سمحنا للطفل بأن يأكل لوح الشوكولا خاصّته. وقد لطّخ كلّ وجهه بالشوكولا، ونظّفته روز وهي تكاد تشعر بالاشمئزاز.

في ذلك المساء، ونحن في السرير، نشب شجارٌ عائلي بيننا. فقد لامتني زوجتي على استخفافي الكبير في تسمية الطفل باسم فريدي. الآن وقد عرفنا أنّه لا يمتُّ إليه بصلة، سوف يجرّ التسمية معه مثل كرة حياةٍ لا تخصّه!

وبسوء نيّة لم أكن قد اعتدتُ عليها حتى تلك اللحظة، رددتُ بخبث بأنّها هي منْ تتحمّل مسؤولية هذا الخطأ. ففي نهاية المطاف، بطنها هي صنع هذا «الفلان»، وليس بطني أنا. بقليلٍ من حسن التنفيذ، كانت ستحقّق نجاحاً

أفضل لطفلها! استشاطت غضباً وألقت اللحاف بعيداً وردّت بأننا كنا نعلم على الدوام أنّه لم تكن هناك سوى فرصة واحدة من أصل مليارات الفرص لكي ينجح الأمر. فقلتُ منزعجاً: وفرصة واحدة من أصل مليارات الفرص أيضاً من أجل أن نعثر على «الحقيقي».

كانت هي الأخرى مرتبكة وحائرة ولكن مع ذلك لا ينبغي أن ننسى أنّ هذا الطفل هو طفلنا، وهو ناتجٌ من جيناتها، وجيناتي. فلماذا لن يصبح فيما بعد شخصاً جيّداً؟

قلتُ، ساخراً:

- ربّما يجب أن نجعله ضريراً لكي يحظى بالفعل بنفس الفرص ونفس المواهب التي كان فريدي الآخر يتّسم بها.

كادت روز تنفجر غضباً. ففي نهاية المطاف، كنّا نتحدّث عن ابنها، ومثلها مثل أيّ أمّ، سوف تدافع عنه بضراوة. لم يكن قد سبق لي على الإطلاق أن رأيتها على هذه الدرجة من الحنق. ألقت بالجملة بكلّ أنواع الأحقاد القديمة في وجهي. أخذت عليّ غياب روح المبادرة لديّ، وخضوعي الدائم لراؤول، وضعف شخصيتي، وعجزي عن منع والدتي وأخي من غزو شقّتنا، وبكلمة نعم وكلمة لا، يدعوان نفسيهما دون سابق إنذار إلى العشاء، دون أن يباليا بما إذا كان لديها الوقت لشراء المستلزمات ودون أن يجلب البخيلان معهما ولا مرّة واحدة باقة زهورٍ!

رددتُ عليها بأنّها لم تكن في كلّ الأحوال طبّاخة بارعة، وأنّها مشغولة للغاية بأعمالها الفلكية بحيث إنّها بالكاد تهتمّ بطفلها العزيز فريدي جونيور في حين أنّها، في نهاية المطاف، هي الأمّ.

وقد جرّت جملةٌ جملةً أخرى دون أن نرغب، لا أنا ولا هي، في أن ننطق بها. وفي النهاية، ارتدت روز ثيابها كيفما كان وهربت من البيت لتلجأ إلى بيتَ أمّها.

وجدتُ نفسي وحيداً، مثل غبيٍّ، برفقة فريدي جونيور الذي، حين سمع ما جرى بيننا، أطلق العنان لبكائه الصاخب. حرّكتُ دون جدوى ألعابه المفضّلة وانتهيتُ بحمله إلى سريري. غفا ابني، فتسلّلتُ إلى الصالون

وسعيتُ إلى القليلِ من الراحة في قراءة قصّة رعبٍ. إنّ قراءة قصص مرعبة بالفعل تخفّف نسبياً من وطأة المشاكل الصغيرة للمرء، ولكن هنا، لم أستطع أن أنسى تصرّفي التافه بالمطلق حيال زوز والفواحش التي قلتُها لها.

كانت تلك هي اللحظة التي اختارها راؤول لكي يعود دون سابق إنذار إلى محطّة إطلاق المستكشفين ويدخل إلى شقّتي، وهو ثملٌ للغاية.

كان بالكاد يقف منتصباً على قدميه ولكنّه مع ذلك أدركَ أنني كنتُ مُحبَطاً تماماً. رويتُ له ما جرى بيننا، زوجتي وأنا، فبدا عليه تعبيرٌ غريب، ومن ثمّ، وبثقة رجلٍ ثمل، اقترب منّي وقال:

- مايكل، لقد آن الأوان لكي أكشف لك عن السرّ الثاني.

لو كان الأمر عادياً، لأسرعتُ إلى سدّ أذنيّ أو سدّدت إليه لكمة لكي أُسكته. ولكن هنا، لم أكن في وعيي. متناسياً كلّ الوعود التي كنتُ قد قطعتها لزوجتي، وعلى العكس من ذلك، استعجلته في أن يتحدّث:

- هل في هذا شيءٌ يخصّ روز؟

- أوه، إذا شئنا، نعم.

- هيّا، تكلّم.

ارتمى على السجاد الذي كان قد أصبح الآن نظيفاً من كلّ آثار فريدي جونيور. تمدّدتُ على بطني بجانبه. ضحك راؤول بغباء، ولعابه يسيل على سجّادتي. تمالكتُ رغبتي في أن أهزّه. كان هناك خطر أن يتقيّأ ويترك بقعاً حمراء على السجّادة، ولن تسامحني روز أبداً على الأضرار الناجمة عن ذلك.

سألتُ بعصبيّة وأنا أرفع صديقي عن الأرض لأجلسه في أريكةٍ:

- إذاً، ما هي هذه الحقيقة الثانية؟

حوْزَق، وهو يقول:

- إنّ لهذا... علاقة... بالحبّ.

سألتُ، متعجّباً:

- بالحبّ؟

- نعم. هناك امرأةٌ تحبّك، وتنتظركَ في مكانٍ ما.

غمغم عدّة مرّات أخرى، ثمّ تفوّه راؤول أخيراً بسردٍ متماسك. في حياتي السابقة، كنتُ قد عرفت الحبّ العظيم. الحبّ العظيم جدّاً. لحظات عاطفية للغاية مع امرأة رائعة. للأسف، في حياتنا السابقة، كانت هذه المرأة عاقراً ولم نستطع أن ننجب طفلاً. وقد عانت من جرّاء ذلك حزناً هائلاً، وأنا كذلك. ذات يوم، وهي في طريقها إلى عملها، لم تأخذ حذرها وهي تعبر شارعاً وصدمتها سيارة. اعتقدت الملائكة أنّ هذا كان شكلاً من أشكال الانتحار. على أيّ حال، أنا تألّمتُ كثيراً لفقدانها بحيثُ إنني متُّ حزناً عليها في الأشهر التي تلت مقتلها.

بعد أن صحا من سكرته، شرح لي صديقي أنّه حينما يعيش زوجان حبّاً عاصفاً من دون أن ينجبا طفلاً رغم ذلك، يكون من حقّهما أن يجتمعا في تناسخ روحيهما التالي لسدّ هذه الثغرة.

إذاً، كان عليّ أن أعثر على هذه المرأة طالما أنّها زوجتي الحقيقية. كان راؤول يعرف كلّ شيء عنها تقريباً. كان الشيطان قد أخبره بالكثير عنها.

في هذه الحياة، هنا، كانت زوجتي تُدعى نادين كينت. كانت أمريكية ولكنّها تُقيم في باريس. لا شكّ أنني التقيتُها عدّة مرّات مصادفةً في بعض الشوارع، ولكنني لم أتعرّف إليها بسبب انشغال ذهني تماماً بالثاناتونوتية.

ردّدتُ، حالماً:

- نادين كينت!

- نعم، هذا هو الاسم الذي ذكره لي الشيطان.

- الشيطان هو ملاك الشرّ.

قال راؤول:

- ولكنّ عمله يمتدّ إلى الأرواح الضائعة أيضاً، وهو مغوٍ مثل محدّثه الغامض.

كان قد أجرى بحثه حولها. كانت نادين كينت على جمالٍ فائق، ومع ذلك لم تكن قد عرفت سوى القليل من الرجال في حياتها. وحينما كانت تُسأل

لماذا كانت تصرّ، وهي رائعة الجمال، أن تبقى وحيدة، كانت تُجيب بابتسامةٍ بأنّها تنتظر الأمير الوسيم. كانت تبلغ الآن من العمر التاسعة والعشرين، وكان والداها يخشيان أن تبقى عانساً إلى الأبد.

- ولكن هذا الأمير الوسيم...

- إنّه أنت، أيّها الغبيّ، أيّها الدبّ الأسترالي العفن! أتساءل كيف استطاعت امرأة بهذا الجمال أن تجدك، حتى في إحدى حيواتك السابقة!

قطعت نوبةٌ سعالٍ ضحكته المجنونة.

- عليك أن تدرك، يا عزيزي مايكل! أنّ إلهةً ساحرة تنتظرك منذ ولادتها. هي لا تُريد سواك، وجميع الآخرين يبدون لها تافهين. أنت محظوظ! أنت لم تعش حبّاً كبيراً من قبل فحسب، بل ولديك حبٌّ آخر في الاحتياط!

الحبّ، الحبّ... ليس لأنني لم أكن أريدُ أن أحبّ وإنّما لأنّه ها هو يُشار إليّ بالبنان على المرأة التي كان عليّ أن أحبّها على نحوٍ خاص. امرأة تُدعى نادين كينت ولم أكن أعرف أيّ شيءٍ عنها، بل كنتُ أجهل وجودها حتى هذه اللحظة.

أدركتُ فجأةً لماذا عانيتُ، أنا أيضاً، دائماً الكثير من الصعوبة في إغراء امرأةٍ، ومن ثمّ التأقلم مع حياة زوجية. في الواقع، منذ البداية، كنتُ مبرمَجاً لكي أُنجب طفلاً من نادين كينت هذه. لم يكن روز وفريدي جونيور سوى خطأ وانحراف... على الأقل، كان هذا ما اعتقدته في تلك اللحظة.

وسط قلقي واضطرابي، أمسكتُ بدليل الهاتف وبحثتُ في الأسماء المبتدئة بالحرف كاف عن اسم كينت نادين، وعثرتُ على رقمها المدوّن بالأحرف الصغيرة بالحبر الأسود على الصفحة البيضاء، ودون المزيد من الانتظار، أمسكتُ بسمّاعة هاتفي.

245. ميثولوجيا يهودية

«هناك في الجنة بوابتان من الألماس، وبالقرب منهما، سبعون ألف خادمٍ من الملائكة. فإذا وصل واحدٌ من أهل الجنّة (إنسانٌ صالح)، نزعوا عنه الكفن

الذي يحمله في قبره وألبسوه ثمانية أثوابٍ من سُحب المجد، ووضعوا على رأسه تاجين، أحدهما من الأحجار الكريمة واللآلئ، والآخر من الذهب، ووضعوا في يده ثمانية أغصان من الآس بأطيب الروائح، واقتادوه إلى مكانٍ تجري فيه ثمانية جداول ماء بين ثمانمئة نوعٍ من الورود والرياحين. ولكلّ إنسانٍ صالحٍ بمفرده قبّة عرشٍ تخرج منه أربعة أنهار، واحدٌ من الحليب، وواحدٌ من الخمر، وواحدٌ من الرحيق، وواحدٌ من العسل. ويقف ستون ملاكاً أمام كلّ واحدٍ من أهل الجنّة ويقولون له: «اذهب وتذوّق العسل بفرحٍ لأنّك اهتممت جيّداً بقراءة الكتاب».

يالكوت، التكوين 2.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

246. نادين

ردّ صوتٌ أنثوي لامرأة مسنّة:

– مرحباً؟

تُرى هل أدخلتُ رقماً آخر، في عجلةٍ منّي؟

قلتُ بصوتٍ غير واثقٍ:

– هل يمكنني التحدّث إلى نادين؟

كان الوقت متأخّراً. لاحظتُ تردّداً على الطرف الآخر من الخطّ. لا بدّ أن تكون هذه والدتها.

قلتُ بنبرة متوسّلة:

– من فضلك!

وافقت بشيءٍ من الريبة، وبصوتٍ أجشّ:

– سأخبرها.

في الانتظار، سمعتُ وقع خطى خفيفة، ثمّ أمسكت يدٌ ناعمة بالهاتف، واقترب فمٌ من السمّاعة.

سأل صوتٌ ناعم ومألوف على الأقلّ منذ ثلاثمئة عامٍ من تناسخ الأرواح.

- مرحباً؟ من يطلبني؟

من دون أدنى شكّ، كانت هي.

- مرحباً!

ساد صمتٌ.

أجبتُ، متلعثماً:

- هذا أنا.

سمعتُ من الطرف الآخر للخطّ ما يشبه نحيباً. نحيب فرحٍ. معاً، وبصوتٍ تقطعه الدموع، بدأنا بالتحدّث. تبادلنا الحديث في أمورٍ عبثية لا معنى لها. تحدّثنا عن أسرارٍ ما كان لشخصين لم يسبق لهما أن التقيا قط أن يتجرّآ على البوح بها بعضهما لبعض.

سبق لي أن عشتُ مع الثاناتونوتية لحظات عصيبة، ومحفوفة بالخطر، ولكنني لم أعش قطّ شيئاً مؤثّراً إلى هذه الدرجة، مؤثّراً ومرعباً، مثل هذا التعاقب للجمل الواثقة واللطيفة. وكنتُ أعلم أنّها تشعر بنفس الشعور.

قالت نادين بلطف ورقّة:

- منذ زمنٍ طويل وأنا أنتظر مكالمتك.

قلتُ، متنهّداً:

- أعرف ذلك.

ساد الصمت مرّة أخرى.

سألتُ بفزع:

- هل أغلقتِ السمّاعة؟

- كلّا، لم أغلق السمّاعة. أنا هنا. من أجلك، سوف أكون دائماً حاضرة.

كنتُ أكاد أختنق.

وكانت هذه هي اللحظة التي اختارها فريدي جونيور لكي يستيقظ، وآثارُ النوم على وجهه. بالإضافة إلى صراخه بكلمته الأولى:

- بابا!

بدأت يدٌ صغيرة ومكتنزة بمسح دموعي من على لحيتي الخفيفة. أخذتُ ابني بين ذراعيّ وحملته إلى غرفته. ولأنني وضعته بعناية في سريره، أغلقتُ

الباب المزيّن بالغيوم البيضاء المزرقّة، الذي كانت زوجتي قد صبغته. لم أعد أرغب في سماع كلمات «ألو!، ألو!» اليائسة التي كانت تنبعثُ من سمّاعة الهاتف.

لقد تمّ الأمر بنجاح. كنتُ أعرف هذه الحقيقة الشهيرة! الشيطان الملعون! لماذا أخبرني بذلك؟ كنتُ سأدفع غالياً ثمن جهلي إلى الأبد بوجود نادين كينت هنا في العالم السفلي.

لعنتُ راؤول، ولعنتُ الملائكة عموماً والشيطان خصوصاً، ولعنتُ الثاناتونوتية. قبّلتُ طفلي الذي كان قد أغمض جفنيه على عينين زرقاوين كزرقة عيني أمّه.

في الصالون، كان راؤول يضحك مثل إبليسٍ. بينما كان الهاتف لا يزال يبكي عبارات «ألو!، ألو!». أسرعتُ إلى الإمساك بسمّاعة الهاتف. لم أعد أحتمل.

وددتُ لو لم أكن أنا. لو لم تكن لي امرأة قدرية. أحسستُ بأنني غير قادرٍ على تحمّل عقدٍ قديمٍ موقّع في حيواتٍ سابقة.

أردتُ أن أسلخ هذا الجلد الذي يغطّي روحي. حككتُ يدي بأظافري إلى حدّ الإدماء. لماذا فُرِضَ عليّ وضعٌ خارج السيطرة إلى هذا الحدّ؟ لم يكن بوسعي أن أهرب إلى أيّ مكان، ولا إلى أيّ بلدٍ، فهذا الوضع سوف يلاحقني في كلّ مكان.

أوقفوا الكوكب، أريد النزول منه.

أوقفوا الكوكب، أريد النزول منه.

تمالكتُ نفسي وهمستُ بقلقٍ لا يمكن السيطرة عليه.

– اِنْسيني يا نادين. أرجوكِ، انسيني في هذه الحياة.

اعثري لنفسكِ على رجلٍ آخر، وأنا أتوسّل إليكِ، يا نادين، كوني سعيدة!

ثمّ، ومن دون مراعاة، أمسكتُ بياقة راؤول وألقيتُ به نحو الباب.

247. ميثولوجيا مصرية

تعويذة لكي لا يموت المرء أبداً (ينبغي تردادها ثماني وعشرين مرّة كلّ يوم قبل النوم):

«أنا روح رع الخارجة من
نون، روح الإله التي خلقت هو.
رجسي هو سلوكي السيئ.
لا أهتم به.
أنا أؤمن بماعت وأعيش منها.
أنا هو، التي لا تستطيع أن تُفنى في
قريبي هذا الذي يُدعى الروح.

أنا جئتُ من الحياة بنفسي، مع نون، في قريبي هذا الذي يُدعى خِبري الذي آتي به إلى الحياة كلّ يوم.

أنا سيّد النور ورجسي هو الموت. أنا نون، الذين يفعلون الشرّ لا يستطيعون الإضرار بي.

أنا الابن البكر للآلهة الرئيسيين؛ وروحي هي روح الآلهة، الخلود، وجسدي هو البقاء لأنّ مظاهري هي الخلود مثل سيّد السنوات ووصيّ البقاء.

لقد أزلتُ ذنوبي، ورأيتُ والدي، سيّد المساء، الذي جسده موهوبٌ للهليوبوليس.

لديّ، كغسقيّ، مسؤولية سكان الغسق، على الهضبة الغربية، هضبة إيبس».

كتاب الموتى المصري.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

248. مجتمعٌ آخر

كان اكتشاف السماء السابعة يحمل كلّ يوم تغيّرات جديدة. أصبحت المعابد فارغة من الناس. إذ لماذا سيشارك الناس في الاحتفالات الدينية إذا كان سرّ الموت قد تبخّر؟ حتى القساوسة فقدوا الإيمان. وإذ اختلطت كلّ الأديان، أكّد الأحبار الرئيسيون أنّه إذا كنّا قد اكتشفنا الملائكة، فإننا لم نعثر على أيّ شيءٍ بشأن الله، وهذه كانت نهاية التقوى والتصوّف.

تحوّلت بعض المعابد إلى متاحف، وأخرى إلى مسارح، بل تحوّلت أخرى إلى بيوت خاصّة. وكانت الخاتمة بناء مسبحٍ في كنيسة. تنعكس الأضواء المتعددة الألوان المنبعثة من زجاج النوافذ متلألئةً في مياه المسبح وتتردّد أصداء موسيقى الأرغن أثناء الغطس والسباحة.

وكلّما أفلت الأديان أكثر، تطوّرت الثاناتونوتية أكثر. ونمت محطّات إطلاق مستكشفي الموت الخاصة كالفطر في كلّ مكان. كان بعضها مكاتب سياحية حقيقية، تنشر إعلانات من قبيل: «عطلة نهاية الأسبوع في العالم الآخر. زيارة برفقة دليل. تأهيل روحي متسارع. تقديم بوستيرات. مرافقة من قبل كاهن مجاز في الثاناتونوتية. لقاء محتَمَل مع الملائكة».

بالطبع كانت غالبية هذه الإعلانات مضلّلة، إذ كانت الرحلات تتوقّف عموماً في المنطقة الثالثة أو الرابعة. وكنّا قد دفعنا الثمن غالياً حتى عرفنا مدى الخطورة في المغامرة بالذهاب إلى أبعد من ذلك.

ربّما كان راؤول قد تخلّى عن فكرة العثور على والدته، ولكنّه لم يبق بسبب ذلك أقلّ إدماناً على الكحول وأقلّ إحساساً بالمرارة. بعد مكالمة نادين، أصبح الأمر بالنسبة إليّ سواء، ولم تعد لديّ الرغبة في الانشغال بها.

في محطّة إطلاق المستكشفين، أخذت النساء زمام المبادرة وتولّين المسؤولية. كانت آماندين وروز (التي تصالحتُ معها سريعاً) في كامل اللياقة في حين كنّا، راؤول وأنا، نبدو في صورة محاربين متعبين ومحبطين. كانتا تستمتعان بتربية فريدي جونيور، الذي بات تعويذة المكان. لا بدّ من القول إنّ الصبي كان ضحوكاً وفضولياً يرغب في معرفة كلّ شيء وسهل المعشر. تُرى هل يُحتَمَل أن يكون الأطفال، في الجوهر، هم أكبر العقلاء وأنّ بلاء الحياة هو الذي يجعل الكبار غير عقلانيين؟

إذا لم يكن فريدي جونيور تناسخاً من فريدي الكبير، فإنّه بكلّ تأكيد تنَاسخٌ من إنسانٍ خالٍ من الهموم، سعيدٍ ورياضيّ، نظراً لنزوعه الطبيعي إلى الجري في كلّ مكان وفي كلّ الزوايا.

كانت آماندين تمسك به لتحتضنه، وكانت الكلمات الأربع التي يودّ أن يلفظها بشكلٍ دائم وعلى التوالي هي: «بابا»، «ماما»، «بيبي»، «كاكا».

فيما بعد، سوف يحتاج إلى محلّل نفسي بارع لكي يعلّمه الفصل بين هذه المفاهيم الأربعة بشكلٍ منفصل وبوضوح.

مع ابني، استمرّت الحياة، وتطوّرت الإنسانية، وترسّخت جيناتي في خلايا جسمه.

كان كونراد يقول ساخراً:

- ما زلت تلعب مع هذا الصبيّ! لا بدّ أنّه يتضايق من البقاء فوق رأسك، أيّها الأب اللصوق! أمّا أنا، فأترك أطفالي وشأنهم.

سأل جونيور بصورة عفوية:

- بابا - بيبي؟

انفجر أخي ضاحكاً، وأجاب:

- كلا: بابا - كاكا.

كنت أشكّ في أنّ كونراد مربّ سيئ.

أنشأ أخي شركة خاصّة بالثاناتونوتية، وبدأ ببناء محطّات إطلاق المستكشفين في أيّ مكانٍ من العالم، حسب الطلب. وكمتعهّدٍ نبيه، أبدع في هذا المجال عبر منح قاعات الإقلاع ديكورات ميثولوجية أو روحانية، وذلك حسب رغبة الزبائن. مع تصاميمه، كان بوسع المستكشف أن ينطلق من نموذجٍ لهرم خوفو أو نسخة من كنيسة سيستينا. وكان يقترح على الأشخاص الأقلّ ثراءً تشييد محطّات إطلاق فردية، وهي عبارة عن أكواخ خشبية شبيهة بحمامات الساونا، ولكنّها مجهّزة بكلّ الأدوات والأجهزة الضرورية لإنجاح عملية إطلاق المستكشف. وكان يقدّم، لقاء سعرٍ إجمالي من مئتي ألف فرنك، نظاماً لمكبّرات الصوت وزيّاً خاصّاً بالمستكشف مماثلين لنظامنا وأزيائنا.

بلغت أعمال أمّي أيضاً قمّة ازدهارها. افتتحت داراً للنشر لكي تقوم بنشر الأعمال الكاملة لآماندين بالوس: *الدليل المرجعي للمحتضر*، *بعض الأفكار لعطلة نهاية الأسبوع في الفردوس*، *الثاناتونوتية في عشرة دروس*، *المصابون بالربو والأمراض القلبية والصرع: بعض الإجراءات الوقائية التي يجب اتّخاذها قبل الموت*...

كانت كلّ هذه الأعمال ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، ومع ذلك كانت المنافسة قاسية. والكراريس العملية للثاناتونوتية، مثل الروايات - الشهادات كلّها، اشتهرت هي الأخرى.

أصبح التحليق في العالم الآخر من الآن فصاعداً في متناول الجميع. وبالنسبة إلى أولئك الذين لم يكن بحوزتهم الموارد الكافية لشراء كلّ خردة كونراد، كان بوسعهم دائماً أن يغادروا أجسادهم من خلال التأمّل!

249. فلسفة هندية

«إنّ الحالة الذهنية في لحظة الموت تحدّد الصيغة المقبولة من أجل الحياة التالية. ولكن كيف يمكن لرغبة فاضلة أن تنمو في اللحظة الأخيرة في روح الشخص الذي نذر نفسه، في كلّ حياته، للشرّ؟ ويحدث مع ذلك أن تؤدّي ميولٌ طيّبة مكبوتة أو متراكمة خلال الحيوات السابقة، إلى أن تغيّر، في لحظة الموت، جذرياً روح إنسانٍ أمضى كلّ حياته في الضلال».

ما أناندا ماي

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

250. لقد تعقّدت الأمور

لم تكن الحياة سوى ممرّ. سواء شئنا أم أبينا، كلّما انتشرت معرفة القارة الأخيرة أكثر هنا على الأرض، شقّت الفكرة طريقها بين المجتمعات البشرية. كانت هناك حيوات من قبل، وسوف تكون هناك حيوات من بعد، وكانت الروح تحيا في الجسد. إذا كان الفردوس غير ملموسٍ، فإنّه يمتلك على الأقلّ مكاناً محدّداً جغرافياً في الكون، ألا وهو الثقب الأسود الواقع في مركز مجرّتنا. بات الآن كلّ واحدٍ تقريباً يعرف أنّ هناك قارة «فضائية» مكوّنة من سبع سماوات، تُقيم في السماء الأخيرة منها ملائكة تستطيع حلّ كلّ المشاكل.

وكان أوّل من عانى وتضرّر من هذه التسريبات هو رئيسنا لوسيندير.

لم يكن يفصلنا عن الانتخابات سوى شهرٍ واحدٍ، عندما أكّد أحد منافسيه، ويُدعى ريشار بيكبوس، أنّه قد صعد إلى الفردوس وعرفَ فيه من ملاكٍ أنّه تناسخٌ من يوليوس قيصر.

وخلال مناظرة بين الرجلين، سأل لوسيندير منافسه:

- أيّ ملاك؟

ردّ الآخر بدون أن يبدو عليه الانزعاج:

- موميا، الذي يساعد في نجاح مشاريعنا، بالطبع.

حاول لوسيندير، الذي كان يوليوس قيصر يمثّل بالنسبة إليه مثلاً أعلى وبالتالي يعرف كلّ حياته ويحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، أن يوقع منافسه في الفخّ، ولكن عبثاً. فقد وصف بيكبوس، أمام الصحافيين المذهولين، بالتفصيل منتدى روما القديمة وتحدّث عن المشاكل الصحية التي كان يعاني منها قاهر فيرسينجيتوريكس، إلى درجة أنّ لوسيندير نفسه ذُهل لوصفه الدقيق.

الكذب المرضي، أو الذاكرة الموسوعية، بعد بيكبوس - يوليوس قيصر، جاءت ترشيحات روبير مولان الذي أكّد أنّه تناسخٌ من نابليون بونابرت، وفيليب بيلوم الذي أقسم على أنّه الإسكندر الأكبر. ولكننا كنّا نعرف أنّ الملائكة مقلّةٌ في الكلام وكنّا نشكّ في مصداقية تأكيدات هذا العدذ الهائل من المتقدّمين الجدد.

كان بوسع لوسيندير الاستفادة من كونه أوّل رئيس دولة اكتشف أسرار الفردوس، بيد أنّ قيصر ونابليون والإسكندر كانوا قد شيّدوا إمبراطوريات مهيبة. كان كلّ واحدٍ منهم يؤكّد أنّه قادرٌ لا على أن يمنح فرنسا إشعاعاً دولياً فحسب، بل على غزو القارة الأخيرة بصورة دائمة أيضاً.

يا له من فخّ! لقد وجد لوسيندير «فردوسياً» أكثر منه. دعانا إلى اجتماعٍ عاجل لكي نبحث معاً عن سبيلٍ لكيفية إخراجه من هذا المأزق. إذا ما أقنع قيصر ونابليون والإسكندر الزائفون هؤلاء الناخبين، فإنّ المعارك سوف تُستأنف، وسوف تخرج المجرّة سريعاً عن السيطرة مرّة أخرى!

كانت روز هي من اقترحت فكرة اللجوء إلى المؤرّخين. ففي نهاية

المطاف، لم يكن لهؤلاء الرجال المشهورين حيوات نموذجية! لقد كانوا زناة وطغاة، أجل! لقد دمّروا قارات بأكملها وتسببوا بقتل أعدادٍ لا حصر لها من البشر. أخرجنا الملفّات القديمة. وكشفنا أنّ يوليوس قيصر وحروبه الأهلية قد قضوا على الجمهورية الرومانية، وأنّ نابليون كان حفّارَ قبر الثورة الفرنسية وأنّ صراعاته العبثية أغرقت أوروبا في الدماء، وأنّ الإسكندر الأكبر كان ذا أخلاقٍ مشكوك بها، وأنّ إمبراطوريته الشهيرة لم تدم إلا خلال فترة حياته القصيرة...

وقد قدّمت لنا شخصيات غريبة دعماً غير متوقّعٍ. ذكر أحد متقمصي شخصية فيرسينجيتوريكس في التلفاز كيف أن يوليوس قيصر لم يتردّد في تجويع الناس خلال حصار أليسيا. خلال ساعة واحدة، سرد أهوال الحرب الغالية - الرومانية. والحال أنّ الضحايا الغاليين في هذا الصراع كانوا أجداد الناخبين الحاليين.

ونشرت متقمّصة غير منتظَرة لشخصية جوزفين في الصحافة النسوية بعض الفضائح حول العلاقات غير الشرعية للإمبراطور. وأشارت إلى مجازر الحرب الإسبانية، واندحار حملة روسيا، وخطأ معركة سهل واترلو.

خرج الإسكندر من هذه المسألة على نحوٍ أفضل من سابقيه لأنّه لم يكن هناك سوى الاختصاصيين في العصور القديمة يعرفون جيّداً التفاصيل القذرة لحياته. ومع ذلك كانت هناك روايات جميلة عن المجازر التي ارتكبها وحفلات العربدة الـتي كان يُقيمها.

في مواجهة هذا المدّ، التزم لوسيندير بأقصى درجات الصمت حيال حيواته السابقة. قال إنّ حاضره فقط سوف يكفي للعمل لمصلحته، وأنّ حاضره فقط سوف يحدّد مستقبله. ولأنّ الغالبية العظمى من الناخبين لم يكونوا قد اقتربوا قط من الملائكة ولا بشكلٍ من الأشكال، ولم يكونوا قادرين على التباهي بحياةٍ مشهورة، فقد وجد تكتّمه قبولاً منهم. كان موقفه محلّ تقدير لا سيما أن لا أحد يجهل أنّ المرء سوف يُحاسبُ لاحقاً على الأعمال التي ارتكبها في هذه الحياة. لم يكن هناك ما يدعو للتباهي بمجرّد أنّك أصبحت بيكبوس بعد أن كنتَ يوليوس قيصر!

بيد أنّ الإسكندر الأكبر ووجهه الملائكي كانا ينالان إعجاب الجماهير. كان فخوراً، راضياً تمام الرضا عن نفسه، ومتعجرفاً، ولكن لم يكن لكلّ هذا شيءٌ من الأهمية، طالما أنّه بالنهاية يحظى بإعجاب الجماهير. قبل أسبوعٍ من سير الانتخابات، كانت استطلاعات الرأي تمنحه 34% من نوايا المصوّتين، وكان مرشّحنا يأتي خلفه بعيداً بنسبة 24%. بينما يأتي يوليوس قيصر ونابليون في ذيل قائمة مجموعة المرشحين بنسبة 13 و9% على التوالي.

تنهّد المرشّح لوسيندير، قائلاً:

- سوف نحتاج إلى معجزة في اللحظة الأخيرة!

غمغمت آماندين، حالمةً:

- لديّ فكرة.

251. فلسفة هندوسية

«إذا كان منظور حالات التكرار المستمرة ينتج نوعاً من التعب لدى المفكّرين الهنود، وإذا كانوا يأملون في وضع حدٍّ لهذه اللعبة الصعبة لتناوب حالات الموت والولادة، فإنّ الجمهور، على العكس من ذلك، يقبل به بفرح».

ألكساندرا ديفيد نيل، *الهند حيث عشت*.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

252. انتخابات، متابعة

كانت لدى آماندين بالفعل فكرة، وهي فكرة حسنة. عشية الانتخابات تقريباً، انضمّ مكسيم فيلان «الصحافي الإكتوبلازمي» إلى فريقنا المعدّ للانتخابات. وقد حصل لوسيندير على «معجزته».

عقد فيلان مؤتمراً صحافياً أعلن فيه بهدوء أنّ الملائكة أعلنت عن موقفها الداعم للمرشّح لوسيندير. لماذا؟ بكلّ بساطة لأنّها هي، وهي وحدها، كانت مطّلعة على كلّ حيواته، الأمر الذي جعلها تثقُ به.

كانت هذه الضمانة حاسمة. كان عددٌ قليل من الناخبين مستعدّين للمخاطرة بنيل نقطة سيّئة من جرّاء التصويت لمرشّحٍ يُعتبَرُ غير مرغوبٍ فيه من قبل السماوات. وحدهم المرضى والمعاقون لم يذهبوا إلى صناديق الاقتراع. وقد أُعيد انتخاب لوسيندير بنسبة 73% من الأصوات.

أحسنت، يا مكسيم! بفضل علاقاته المرموقة مع الملائكة وبفضل نزاهته الأسطورية، ظلّ لوسيندير رئيساً مرّة أخرى! وما كان لأحدٍ أن يشكّك في أقوال فيلان الذي كان قد دوّن بأمانةٍ فائقة ***مقابلة مع ميّت***.

بيد أنّ الرجل العزيز كان قد حمل على ظهره عبئاً ثقيلاً من العقاب بحسم النقاط من رصيده. فقد كذب بكلّ تأكيد. لم تبدِ الملائكة قطعاً أيّ رأي حول هذا الاقتراع. في حقيقة الأمر، كانت لا تبالي بانتخاباتنا.

وكتعويضٍ أرضيٍّ له عن إثمه، تلقّى مكسيم فيلان ميدالية الثاناتونوتية من الرئيس.

سألته، ضاحكاً، أثناء حفلة تقليده الميدالية:

– ألن تكون بالصدفة تناسخَ ميكافيلي؟

ابتسم الرجل القصير القامة ابتسامةً خفيفة، وقال:

– كنتُ أفضّل لو أنّك قارنتني مع دانتي أو شكسبير.

– لقد كذبتَ.

– هل أنت متأكّدٌ من ذلك؟ لا أدري حتى إذا كان من الممكن أن يكذب المرء. الحقيقة تتغيّر حسب المكان والزمان. هل انتُخِبَ لوسيندير؟ حسناً، هذا لأنّهم، هناك في العالم العلوي، يرون الأمر بصورةٍ إيجابية.

وغمزني، هو أيضاً.

253. استمارة شرطة

ملاحظة إلى الجهات المختصّة:

لقد حذّرناكم. وقد فات الأوان. سوف تبدأ المصاعب.

جواب من الجهات المختصّة:

لا يزال الوضع تحت السيطرة تماماً. دعونا لا نقلّل من شأن أنفسنا.

254. ميثولوجيا يهودية

«قَبْلَ مَا يَنْفَصِمُ حَبْلُ الْفِضَّةِ...»

سفر الجامعة 12، 6.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

255. الماضي المُفسَّر

بعد إعادة انتخاب لوسيندير، تحوّلت الثاناتونوتية التجريبية إلى الثاناتونوتية الجماهيرية. أصبح الناس ينطلقون على نحوٍ متزايدٍ ويصلون حتى قاع الفردوس.

ولم يكن هذا الأمر من دون عواقب.

بات بوسع أيّ فرد أن يزعم أنّه قد تحدّث مع ملاكٍ ويجلب من العالم العلوي سبقه الصحفي على شكل صاعقة رعدية. وبهذه الطريقة أُعلن في نشرة الأخبار التلفزيونية أنه عُثِر على أثرِ أدولف هتلر. وسيكون قد استُنسِخ على شكل شُجيرة بونساي.

أبدت روز اندهاشها:

- على شكل شُجيرة بونساي! كنتُ أعتقد أنّ الإكتوبلازمات البشرية لا يعود بوسعها أن تعود في هيئة نباتية.

قالت آماندين:

- حسب ما شرحه لي القديس بطرس، يبدو أنّ ذلك قد يكون ممكناً في بعض الحالات. يتمّ استنساخ الروح عموماً بحيث يتمّ تحسين المستنسَخ، ولكن إذا ما تبيّن أنّ أحدهم، خلال الحياة البشرية، كان بنفس درجة غباء حيوانٍ، يبدأ كلّ شيء بالمستوى الحيواني. وإذا ما كان الكائن البشري أكثر شراسةً من أشرس الحيوانات، يعود المرء إلى النبات، وربّما أكثر من ذلك إلى المعدن.

كنتُ مذهولاً. هتلر على شكل شُجيرة بونساي التي تزيّن الصالون!

لقد عُثِرَ على شُجيرة بونساي في العنوان المحدّد من قبل ملاكٍ فضولي. كان مُستنسَخ الفوهرر يخصّ صبيّاً من أسرة ميسورة. لم يستطع الصبي أن يفهم ما الذي يجعل حياةَ شُجيرة بونساي عقاباً. فهو كان يعتني بشُجيرته اعتناءً ممتازاً ويحرص عليها كثيراً.

فكّرتُ في الأمر وقفز الدليل إلى عيني. إنّ حياة شُجيرة بونساي عبارة عن عذابٍ دائم. توضعُ شتلةٌ في أصيصٍ صغيرٍ جدّاً بالنسبة إليها وتُقطع تفرّعاتها بشكلٍ مستمر. إنّه تعذيبُ نباتٍ يرقى إلى مستوى فنٍّ. من دون ماء، والأطراف تُقطَع دون توقّف، ومن دون مكان، ومن دون غذاء، لا تكون شُجيرة بونساي سوى ألمٍ.

وإذ تُرغَم على عدم النمو، تبقى الشجرة قزمة إلى الأبد، في حين أنّ كلّ منْ يعيش على هذه الأرض يحظى بأكثر الحقوق بساطةً ألا وهو الحقّ في النمو.

بالتأكيد، اعتبر الصينيون لزمنٍ طويل أنه من المبرّر حصر أقدام بناتهم في أربطة ضيّقة لمنعها من أن تكبر، تحت ذريعة أنّ الأقدام الصغيرة أكثر جمالاً. لكن الأمر كان أسوأ بكثير في حالة شُجيرة بونساي! لم يكن الأمر يتعلّق بالأقدام فقط. كان يتم قطع أغصانها، وأطرافها العلوية، وجذورها، وأطرافها السفلية. ويجري ذلك كلّ يوم.

إنّ العقاب الأكثر مكراً بالنسبة إلى مجرم حربٍ بغيض كان استنساخه في هيئة شُجيرة بونساي اليابانية. سرت في جسدي قشعريرةٌ حينما تذكّرت كم كنتُ تعيساً حينما كان والداي يرغمانني على ارتداء الثياب الضيّقة جدّاً لأخي كونراد، فقط لكي يوفّرا ثمن شراء ثياب خاصّة لي.

الفكرة الحسنة، تُرفع لكم القبّعات، أيّها الملائكة الرؤساء! كان هناك مع ذلك رجالٌ اعتقدوا أنفسهم أكثر ذكاءً من الملائكة الرؤساء وأكثر دقّة منهم في تَطبيق القانون وإنزال القصاص! لقد طالبوا من خلال عرائض وطلبات التماس كثيرة بأن يتمّ الحكم بالإعدام على شُجيرة البونساي. وفي النهاية، نبشوا تحت الشُجيرة إلى أن حصل الموت المُنقِذ، واضعين بذلك (مع أسفي الشديد، في الحقيقة) حدّاً لتعذيبها الأبدي.

وبعد ذلك انهمر مطر «الاكتشافات» التي يمكن التحقّق منها بدرجاتٍ متفاوتة. من جهتي، لم أستطع أن أصدّق أنّ الملائكة ثرثارة إلى هذه الدرجة لكي تتحدّث إلى الكثير من الناس، وكنتُ أدقّق في المزاعم في كلّ مرّة بأقصى درجات الحيطة والحذر. وحسبما ذهب إليه بعض سُيّاح العالم الآخر، كان فرانسوا رافاياك بريئاً من قتل هنري الرابع. وكانت الأخت السرية للويس الرابع عشر هي في الحقيقة صاحبة القناع الحديدي. وأنّ راؤول فالنبرغ، الدبلوماسي السويدي الشجاع للغاية في إنقاذ يهود المجر حينما كانت تحت الاحتلال النازي، كان قد قُتِلَ من قبل الاستخبارات السوفيتية **KGB**، تماماً مثلما كان قد تمّت الوشاية بالشهداء المقاومين للملصق الأحمر[1] من قبل «أصدقائهم» في الحزب الشيوعي الفرنسي. وأنّ جون لينون قد اتّصل بنفسه مع قاتله لكي ينتحر. وأنّ فارس إيون كان مخنّثاً. وأنّ نيكولاس فلاميل قد حقّق ثروته من عمليات السطو المسلّح ومن خلال اغتيال بعض البرجوازيين، ومن ثمّ علّل ثراءه المفاجئ بالاكتشاف المزعوم لسرّ تحويل المعادن. وأنّ جاك السفّاح كان في الحقيقة وليام غول، طبيب الأسرة الملكية.

وقد اكتشفنا أنّ الطغاة الدمويين، إجمالاً، قد تلقّوا عقاباً كافياً. فقد تمّ تناسخ ستالين في فأر تجارب، وموسوليني في كلب سيرك، وماو في بطّة للشوي، أمّا بالنسبة إلى الجنرالات الفاشيين لأمريكا الجنوبية، فقد تمّ تناسخ غالبيتهم في هيئة الإوزّات التي يتمّ ذبحها لإعداد وجبات كبد الإوزّ في احتفالات عيد الميلاد وأعياد رأس السنة.

ولكن، خارج هؤلاء «الأشـرار»، استفاد أشخاصٌ آخرون من هذه التسريبات السماوية المريبة للتباهي والتفاخر.

سواء كان صحيحاً أو خطأً، نشر بعض الأذكياء سير حياتهم السابقة لكي يحصلوا على بعض الامتيازات في هذه الحياة الراهنة. زعم بقّالٌ آسيويّ

1- المُلصق الأحمر: هو ملصق دعائي شهير، وزّعته فرنسا الفيشية والسلطات الألمانية في ربيع عام 1944 في باريس المحتلة، بهدف تشويه سمعة ثلاثة وعشرين مقاتلاً من مجموعة مانوشيان في المقاومة الفرنسية. المترجم

باريسي أنّه تناسخٌ من الرسّام الإيطالي أميديو موديلياني وأقام دعوى قضائية على ورثة تجّار لوحاته السابقين لكي يسدّدوا له المبالغ الطائلة لأرباحهم. وقد أقسمت أستاذة فاتنة للأيروبيك المتلفز على أنّها تناسخٌ من الرسام ساندرو بوتيتشيلي. واستطاعت أن تُقيم على حسابه بفضل بيع العديد من لوحاته، التي تمّت استعادتها من المتاحف، في مزادٍ علني.

لم يعد أحدٌ يحسب منازعات ومتطلبات التعويضات من كلّ الأصناف! وحسبما ذهب إليه بعضٌ، يحتاج التاريخ البشري بأكمله إلى أن يُراجَع، ويوضّحَ، ويُفسّرَ، ويُزال عنه الغموض واللبس.

256. ميثولوجيا مسيحية

«هناك حاجة إلى الطبيعة لكي تتطهّر الروح وتُشفى. إذا لم يكن لروح المرء ذلك في حياته الأرضية، سوف يتمّ الشفاء في الحيوات المستقبلية واللاحقة».

القديس غريغوريوس أُسقف نيصص

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

257. التزلّج

كان فريدي جونيور يكبر ويتضاءل اهتمامنا بالثاناتونوتية، في حين كان اهتمام الجماهير، على العكس منّا، لا يكفّ عن التوسّع. كنتُ أكرّس نفسي على نحوٍ متزايد لعالم أسرتي الوحيد. كان العالم ينفتح وأنا أنغلق على نفسي. في تلك المرحلة من حياتي، كنتُ مقتنعاً بأنّ الأمر الجوهري في أيّ حياة هو أن يتزوّج المرء، وأن يُنجب أطفالاً وأن يبني خلية أسرية متينة بما فيه الكفاية لكي تستمرّ هذه الحالة إلى أطول وقتٍ ممكنْ. إنّ حياةً أسرية صحّية وسليَمة سوف تستمرّ حتى تصبح متوارثة وبذلك يتمّ تجنّب ظهور أطفالٍ صعبي المِراس أو مستبدّين أو غير مبالين.

كنتُ سعيداً. وكنتُ أحبّ روز. وكان استيقاظ فريدي جونيور يُبهجني. ثقّفته على حبّ الكتب مثلما تثقّفتُ أنا بنفسي على يدي راؤول. علّمته روز

أن يرصد ويراقب النجوم. فيما مضى، كان تأمّل النجوم يهوّن من المشاكل الإنسانية. وبسببنا، تغيّر هذا الأمر كثيراً.

بدا لي أنني من خلال نقلي لشغفي بالقراءة إلى فريدي، كنتُ أقدّم له الحرية في أن يتربّى فيما بعد بنفسه.

كلّ مساء، كنتُ أروي لابني كلّ ما يبدو لي الأكثر أهمية بالنسبة إلى طفلٍ في الثالثة من عمره: أساطير وحكايات وقصص خيالية وقصص قصيرة مع رسومات جميلة.

ولكن ما وراء جدران شقّتنا الدافئة والمريحة، وعلى نحوٍ متأخّرٍ بكلّ تأكيد، كان المجتمع لا يكفّ عن تلقّي أمواج صدمة الحركة الثاناتونوتية التي كنّا نحن روّادها الأوائل.

عادت ستيفانيا ذات يومٍ إلى البيت وهي في غاية الغضب. كان قد اقترب منها شخصٌ مجهول في الشارع لكي يقدّم لها مبلغاً كبيراً من المال، لا لكي يُغريها، وإنّما فقط هكذا من دون سبب سوى القيام بفعلِ خير! وقد جهدت لكي ترفض تلقيه. قالت:

- لقد سئمتُ كلّ هؤلاء اللطيفين، كلّ هؤلاء الطيبين، كلّ هؤلاء المتصنّعين.

سألت روز:

- هل كنتِ ستفضلينيه العنف، ربّما؟ أنتِ تَهذين!

احمرّ وجه ستيفانيا من الغضب. قالت:

- كلّا، أنا لا أهذي. في السابق، حينما كان أحدهم يُظهر لطفه، كان ذلك نابعاً من رغبته. كان لديه الخيار بين أن يكون لطيفاً أو شرّيراً، وكان يختار بحريّة اللطف. الآن، جميع الناس لطفاء بدافع الخرافة المحضة! يخافون جميعاً من الرسوب في الامتحان في العالم الآخر. هذا مقرف.

في هذه الأثناء، ظهر متسوّلٌ يرتدي ثياباً تُظهر بوضوح وضعه في الباب الذي لم يعد من اللازم إغلاقه. دخل بكلّ هدوء وتوجّه إلى ثلاجتنا، وأخذ منها شطيرة من السلمون المدخّن وعلبة من البيرة الباردة، وجلس براحةٍ، بقصد المشاركة في حديثنا.

انقضّت ستيفانيا عليه، وقبل أن أتمكّن من التصرّف، انتزعت الشطيرة وعلبة البيرة من يديه.

قالت بصوتٍ صاخب:

- أنتم لا تخجلون، لا تخجلون أبداً!

حدّق الرجل، مذهولاً، في الفتاة الإيطالية التي كانت في غاية الغضب. منذ أن فُتِحَت جميع الأبواب، كان الرجل قد اعتاد، مثل كلّ أقرانه، على أن يدخل إلى أيّ شقّة كانت ويأخذ منها ما يشاء.

قال، متلعثماً:

- ولكن... ولكن... أنتِ مجنونة.

- أيّها الغبي السمج، ألم يعلّموك أن تطرق الباب قبل أن تدخل إلى بيوت الناس؟

قال المتشرّد، حانقاً:

- أتجرئين على رفض تقديم صدقة لي؟

- ليس الأمر أننا نرفض تقديم صدقة لك، وإنّما لا نُطيق أن تُدنّس المنزل بقذارتك وبثيابك الملوّثة بالشحوم.

اتّخذ الفقير المسكين منّا، روز وأنا، شاهدين.

- هذه السيّدة الطيّبة تعاني من مشكلة في مخّها! إنّها لا تُدرك... إذا ما رفضت أن تقدّم لي صدقةً، سوف يكلّفها ذلك الكثير من النقاط السلبية بالنسبة إلى كارماها!

نظرنا إلى ستيفانيا بقلقٍ.

صرخت فيه بصوتٍ عاصف:

- لا يهمنّي ذلك! اغْرُب عن وجهي، يا حشرة!

- حسناً، سوف أنصرف، ولكن بعد ذلك، لا تستغربي إذا ولدتِ ثانيةً... (بحث لبرهةٍ عن أسوأ ما يمكن) إذا ولدتِ ثانيةً مصابةً بالسرطان.

قرّبت ستيفانيا وجهها من وجهه، غير مبالية برائحة فمه الكريهة.

- هل يمكنك أن تكرّر لي ما قلته؟

ابتسم، ساخراً، وعاد وأكّد بقوّة:

– سوف تولدين ثانيةً مصابةً بالسرطان.

لم أر يد الفتاة الإيطالية وهي تنطلق، ولكن أقداحاً ارتجّت على الطاولة حينما تردّدت أصداء كفّين قويّين.

كان الرجل مندهشاً أكثر منه غاضباً. فقد تجرّأت هذه المرأة على أن تتورّط في عملٍ عنفي ضدّ متسوّلٍ. حكّ خدّيه المتألمين.

قال بعينين واسعتين:

– ضربتِني؟

– نعم. ولا داعي لن أُقدِم مرّة أخرى على لا أدري أي لعنة. السرطان؟ ممتاز. فلأتسلّى إذاً قليلاً في هذه الحياة، ريثما يحدث ذلك. أمّا أنت، فلديك كلّ المصلحة في أن تخرج من هنا بأسرع ما يمكن قبل أن أركلك بقدمي حيثما أشاء.

قال بلهجةٍ تكاد تكون غنائية:

– لقد ضربتْني، لقد ضربتني.

لقد تبيّن له فجأةً أنّ هذا الزوج من الصفعات قد رفعه إلى مصاف الشهداء. أن تكون ضحية امرأة سليطة اللسان عنيفة وعدوانية، من المؤكّد أن هذا سوف يمنحك عدداً لا بأس به من نقاط المكافأة.

عبر عتبة الباب، ووجهه يشعّ فرحاً.

التفتت ستيفانيا نحونا، ووضعت يدها على جبينها، ثمّ قالت:

– يا إلهي، سوف نجنّ جميعاً!

لم نعرف بماذا نُجيبها. في الواقع، في تلك اللحظة، كنّا، روز وأنا، نرتجف خوفاً على صديقتنا. تُرى هل سوف تولَدُ بالفعل مصابةً بالسرطان؟

بدأتُ بالقول:

– ما كان عليكِ أن تخاطري بضربه. لا أحد منّا يعرف أبداً...

قاطعتني بفظاظة:

– يا إلهي، أنت لا تدرك أنّ عالمنا لم يعد مأهولاً سوى بالبدائيين والخَرِعين! لم تعد هناك مشاعر، ولا مخاوف، ولا نزاعات! لم يعد هنا في العالم السفلي سوى كائنات رخوة ومؤمنة بالخرافات. ليسوا طيّبين.

إنّهم أنانيون. لا يهتمون سوى بكارماهم. لا يسعون إلى فعل الخير إلّا لكي يضمنوا لأنفسهم وضعاً جيّداً في حياتهم المقبلة. يا له من ملل!

أدركتُ فجأةً أنني أنا أيضاً، في الجوهر، كنتُ دائماً لطيفاً بدافع الأنانية. وبدافع الكسل أيضا، ولكي لا أُعقّد حياتي. أن يكون المرءُ شريراً يُرغمه على الاهتمام بالآخرين، وبدفاعاتهم، وتخيّل عبارات مسيئة. ولكن أن يكون المرء لطيفاً، هذا يسمح له بأن لا يمسّ بأحدٍ ولا أن يمسّ به أحدٌ. اللطف هو مجرّد راحة ليكون المرء هادئاً.

جالت ستيفانيا في صالون شقّتنا كما لو أنّها لبوة حبيسة في قفص.

- لقد ضقتُ ذرعاً بكما! لقد ضقتُ ذرعاً بالمشاعر الطيّبة. ضقتُ ذرعاً بهذا المجتمع منذ أن كشفنا له ما كان عليه أن يبقى مخفياً. تحية لكم أيّها المستكشفونّ! سوف أنصرف.

وقد انصرفت دون رسميات. أخذت أغراضها وغادرت مبنانا في بوت شومو دون وداع راؤول، الذي كان لا يزال زوجها، حتى وإن أصبح سكيراً.

258. ميثولوجيا يهودية

هل يتساوى الجسد والروح أمام الحساب الإلهي؟

سوف يكون بوسع الجسد أن يتّهم الروح بارتكابها للإثم طالما أنّها منذ أن غادرته، يرقد، هو، جامداً في قاع القبر. بماذا يمكن للروح أن تردّ على ذلك سوى أنّها نابعة عن الجسد الآثم، وهي تحوم بهدوء في الأجواء مثل طائرٍ.

هل يمكن للروح والجسد أن ينجوَا بهذه الطريقة من الحساب الإلهي؟ طُرِح السؤال على حكيمٍ. وككلّ الحكماء، أجاب بسرد قصّة ذات مغزى، وهي قصّة الملك الذي اختار لحراسة بستانه رجلين؛ أحدهما ضرير والآخر مُقعَدَ مبتور الساقين.

لم يتأخّر المُقعدُ في الافتتان بما لذّ وطاب من الفاكهة، فعرض على الضرير، قائلاً: «دعني أعتلي ظهرك لكي أقطفها، وبعد ذلك، سوف نتناولها معاً». تبيّن للضرير أنّه عاجز عن مقاومة الإغراء، وعند عودة الملك إلى

بستانه، رأى أنّه لم يعد هناك شيءٌ من الفاكهة، فاستجوب الحارسين. ردّ الضرير على الملك المندهش أنّه لم يرَ شيئاً، وكان المُقعَد بالتأكيد عاجزاً عن تسلّق شجرة لكي يقطف ثمرة واحدة.

لم يستغرق الملك طويلاً في التفكير. أمر المُقعد بأن يعتلي ظهر الضرير. وقد ضُرِبا معاً ضرباً مبرّحاً بالعصا كما لو أنّهما شخصٌ واحد.

بنفس الطريقة، سوف يمثل الروح والجسد معاً أمام العدالة. وبنفس الطريقة، سوف يُحكمان معاً.

التلمود البابلي (سنهدرين 9 آ/ ب)

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

259. كتاب التاريخ المدرسي

بفضل الثاناتونوتية، شهد العالمُ السلامَ والازدهارَ والسعادةَ. وحقّقت البشرية أخيراً طموحاً قديماً عمره أكثر من ثلاثة ملايين سنة منذ ظهورها على الأرض. إلى هذه اللحظة، كان الموت يُعتَبَرُ عقاباً وعذاباً. مع اكتشاف القارة الأخيرة، أُزيلت المخاوف من الموت. فإذا ما أحسن المرء السلوك والتصرّف في الحياة الدنيا، سوف يُكافأُ في الحياة الآخرة في العلا.

وبفضل مستكشفي الموت، في نفس اللحظة التي اختفت فيها الحروب والأحقاد والغيرة من على وجه الكوكب، بدأ ميلادُ عصرٍ جديد. واقترح عالم الحفريات الأمريكي توندر إلغاء مصطلح (هومو سابينس – الإنسان العاقل) لاستبداله بمصطلح أكثر حداثةً ألا وهو (هومو ثاناتونوتيس – الإنسان المستكشف للموت). هومو ثاناتونوتيس – الإنسان المستكشف للموت هو إنسانٌ يتحكّم من الآن فصاعداً ليس بحياته وموته فحسب، بل وبكلّ حيواته السابقة واللاحقة.

يا له من تقدّمٍ هائل للإنسانية!

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

260. زيارة إلى المتحف

استمرّت الحياة، حتى من دون ستيفانيا.

قرّرنا روز وأنا أن نستفيد من عطلة عيد العنصرة لكي نصطحب فريدي جونيور معنا إلى واشنطن ونزور متحف سميثسونيان الشهير حيث تُحفَظ كلّ آثار مغامرتنا. كانت الرحلة متعبة. ففي هذا البناء الإسمنتي الضخم، اكتشفنا مرّة أخرى كرسي إقلاعنا الأول، وقرأنا بتأثّر وانفعال قائمة المتطوعين الأوائل الذين كانوا ضحايا على مذبح الثاناتونوتية، وأطلنا الوقوف أمام تماثيلنا، وهي شخصيات من الشمع تمثّل الأنشطة اليومية لمستكشفي الموت.

شخصياً، وجدتُ نفسي قليل الشبه بتمثالي الذي بدوتُ فيه وعلى شفتيّ تلك الابتسامة الغريبة وفي يدي ذلك المحقن الكبير.

كان تمثال آماندين، على هيئة نجمة مشهورة، أكثر نجاحاً في ثوبها الأسود الضيّق.

في زاويةٍ من المتحف، كان الغلاف الجسدي للمستكشف الهندي راجيف بينتو، الذي تمادى في عالم الملذّات، لا يزال تحت الأمصال. وإذا ما راودته الرغبة ذات يومٍ في العودة، فإنّ جسده سيبقى في حوزته، محفوظاً في هذه المادّة المجمّدة الشفّافة. وكانت إلى جانبه لوحة توضّح في كلّ الأحوال أنّ حبله السُرّي لا يزال سليماً.

كان هناك أيضاً مجسّمٌ هندسي لمنزل بريسون الخشبي، مع نبذة تروي مغامرته الحزينة. وكانت دمى متحرّكة تحلّق حسب مختلف أشكال تصاميم المجموعات الثاناتونوتية المركّبة من قبل الحاخام ماير من أجل الانطلاق في مجموعات. وكانت لوحة جدارية عملاقة بطول ثلاثين متراً وعرض 10 أمتار تُذكّر بدقّة متناهية بمعركة الفردوس. من خلال الضغط على زرٍّ، كانت تنطلق حتى أصوات المعارك وتسمع عبارات من قبيل «أوه» و«خذ هذه، أيّها الوغد» و«أيّتها الكلاب الخائنة» و«انتبه، أنا أموت»، وكذلك ضجيج الأجساد وصوت نسيجٍ ممزّقٍ من المفترض أنّه يُحاكي الضجيج الناجم عن الحبال السُرّية حينما تنقطع. في الواقع، هذا الإخراج كان غبيّاً، لأنّ

الإكتوبلازمات، حتى وإن كانت لمستكشفين، لا تُصدر أيّ ضجيجٍ، وحتى إذا فعلت ذلك، فهي لا تنتقل عبر الفراغ بين المجرّات.

كان متحف سميثسونيان شاسعاً. وتنتشر في كلّ أنحائه أجهزة توزيع آلية موضوعة بشكلٍ مناسب وتُعطي الزوّارَ إحساساً فردوسياً من خلال السماح لهم بالإفراط في تناول الفشار والهوت دوغ والمشروبات الباردة والمرطّبات. يُجيد الأمريكيون على الدوام صنع الأشياء.

في وسط صالة العرض الرئيسية، كان هناك تمثالٌ يُظهر فيليكس كيربوز وهو يشدّ عبر قرونٍ من الزمن على يدّ كريستوفر كولومبوس. ولا داعي للقول إنّ الفتى طويل القامة، المبتسم، المنتصب مثل تمثالٍ لم تكن له أيّ علاقة مع الوحش الفظّ الذي كنّا قد عرفناه.

تخيّلتُ كثيراً في المستقبل صورته اليونانية الجديدة منقوشة على قطع نقدية مترافقة مع شعارنا الذي كنّا نردّده: «بخطٍ مستقيم، دائماً بخطٍّ مستقيم نحو المجهول!».

بالنسبة إليّ، كنتُ سأفضّل شعارنا القديم: «جميعنا معاً ضدّ الأغبياء»، الذي لا يزال سارياً.

وكانت استراحة تمثيل مشهد مقابلة الإكتوبلازم دوناهو مسليّة. كان أربعة رجال مسنّين مصنوعين من الشمع ولهم لحى بيضاء طويلة يجثمون على مرتفعٍ شفّاف مصنوعٍ من الزجاج الشبكي ومُضاء بمصابيح نيون (وهو يمثّل من دون شكّ جبل النور الخاصّ بيوم الحساب)، وكانوا يردّدون بأفواههم النشيطة دون كلل أو ملل: «هنا سوف نزن كلّ الأعمال الحسنة والسيّئة لحياتك الماضية».

كان هناك على نحوٍ أبعد جهازٌ كاشفٌ للتحليق الإكتوبلازمي (من ابتكار زوجتي روز)، وهوائي مكافئ كبير، وشاشة مع بقع خضراء مقلّدة. يظنّ المرء نفسه في بوت شومو!

ولوضع اللمسات الأخيرة على العرض، كان مسؤولو المتحف قد صمّموا مجسّماً هندسياً رائعاً مناراً بالأضواء على أساس أنّه يصوّر الفردوس. وكان مخروطٌ مصمّم من الورق المقوّى بارتفاع ثلاثين متراً في

الجزء الواسع من قاعدته يطول من ممرّ يمتدّ وهو يضيق تدريجياً لينتهي بقطر مترين. وكان يكفي أن يتقدّم المرء على حزامٍ ناقلٍ لكي يدخل إليه وينزلق ببطء عبر ممرّات ذات ألوانٍ متغيّرة. وكان يُرمَزُ إلى كلّ جدار للغيبوبة برداءٍ تمنع شرائحه البلاستيكية السميكة رؤية ما هو خلفه.

عند كلّ موخ بلاستيكي يتمّ عبوره، سمعنا ضجيج الامتصاص ثمّ وجدنا أنفسنا في المنطقة السوداء، والحمراء، والبرتقالية، إلخ. من حولنا، كانت تُضيء بالتتالي شرائح تُنير حكاياتنا عن قارة الموتى. في مكانٍ ما، كان مذيعٌ يُعلّق: «تأمّلوا هنا بعض النماذج من الشياطين الذين اعتقد المستكشفون الأوائل أنّهم قد لمحوهم عندما عبروا موخ 1». كانت صور شيطانية لا تُذكّرنا في شيء بصاحبنا الشيطان الحقيقي.

فيما يخصّ منطقة الملذّات، لم يشأ المنظّمون أن يصدموا الأطفال. كانت بعض الشخصيات تكتفي ببعض القبل على الفم. بالنسبة إلى منطقة الصبر، كان الحزام الناقل يبطئ في حركته على نحوٍ مباغت جدّاً بحيث يتصوّر بعضٌ أنّ عطلاً قد حدث. في منطقة المعرفة، كان المذيع يقدّم معلومات من نوع نظرية فيثاغورس، a2 + b2 = c2، وهو درسٌ قصير حقيقي لتعويض ما فات تلاميذ المدارس. وبمنزلة قمّة الجمال، كانت بعض الفراشات الهزيلة تجاور دلافين ضاحكة.

كانت العائلات تلتقط الصور بكثافة وتفرح غاية الفرح وتتحمّس أشدّ الحماسة عند أدنى تعليق.

أكّد أبٌ لابنه:

- إذا كنتَ عاقلاً، سوف تزور أنت أيضاً الفردوس، ذات يوم.

من جهتي، تحفّظتُ على قول أمور كهذه لابني فريدي جونيور!

في نهاية الحزام الناقل، كان يأتي بكلّ بساطة المخرَج. بعد الاحتجاز لعدّة ساعات في المتحف، كان الخروج إلى ضوء النهار يقوم بدور المنطقة البيضاء! شكراً. ليس هناك ما هو أفضل من هذه المكافأة بالنسبة إلى الزوّار المتعبين بعض الشيء. في قاعة فسيحة، كانت تتجاور سلسلة من المقاهي التي يمكن للمرء أن يجلس فيها ويرتاح، وكذلك بعض متاجر التذكارات

التي كانت أفضل من متجر والدتي من حيث البضائع المعروضة فيه: قمصان، نماذج مقلّدة من كراسي الإقلاع، مجسّمات للشياطين، مجسّمات للملائكة، كتب مصوّرة برسومات ملائكية أو شيطانية، أطباق وجبات خاصّة من أجل عمليات إطلاق سهلة.

تناول فريدي جونيور غزل بنات وطالب بالعديد من حمالات المفاتيح التي تحمل أسماء الملائكة التي كانت لا تزال تنقص مجموعته المقتناة. من جهتي، تردّدتُ أمام أسطوانة فيديو بصور تركيبية تتعهّد بجعلك تعيش كلّ مشاعر تحليقٍ ثاناتونوتي «كما لو أنّك تعيشها بالفعل».

ولكنني تخلّيتُ عن فكرة اقتنائها. وفي النهاية، أثار كلّ هذا الاستعراض اشمئزازي بعض الشيء. فاختصرنا زيارتنا في ما وراء الأطلسي.

261. ميثولوجيا يهودية

«إنّ ولادة الإنسان هنا في العالم السفلي وكذلك موته لا يُحدثان انتقالاً للروح التي تُنزَع من مكانٍ وتنتقلُ نحو آخرٍ. هذا ما نسمّيه غيلغوليم، هجرة الأرواح».

كتاب زوهار

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

262. مصوّر الكارما

لقد أصبحت الثاناتونوتية بالفعل رياضة جماهيرية. كان عدد الناس الذين يندفعون إلى العالم الآخر في العلا، لكي يتذوّقوا طعم رحلتهم الأخيرة، مهولاً. فالموت في نهاية المطاف يعني حقّاً الجميع.

نظراً للازدحام في الفضاء، كان الموتى الجدد يُضطرّون لأن يشقّوا طريقهم بصعوبة بين «السيّاح» ذوي الحبال السُرّية السليمة، الشرهين لأحاسيسٍ لم يسبق لها مثيل.

كان اليابانيون يشكّلون الجزء الأكبر من المشاركين. بالنسبة إليهم، كانت

الثاناتونوتية وسيلة للبحث عن أجدادهم الذين يؤمنون بهم إيماناً راسخاً لا يتزعزع. وبالتالي ليس من المثير للدهشة أن تكون شركة يابانية هي الأولى في تصميم «أجهزة إكتوبلازمية». كان متأمّلون من طائفة الزِن يتكفّلون بإلقائها إلى الفردوس مستخدمين قوّة فكرهم.

وفكّرت شركات كبيرة في أن تزجّ بنفسها في السوق الإكتوبلازمية. في عام 2068، انجذب انتباه الموتى والمستكشفين للمرّة الأولى إلى إعلانٍ معروضٍ على طريق التناسخ الروحي. إعلانٌ من قبل شركة كوما كولا يقول: «مع كوما كولا، أنعش روحك».

وأسرعت شركاتُ تأمينٍ الخطى إلى شركة أتلانتا. «أنت هنا؟ لقد ارتكبت إذاً فعلاً متهوّراً. لا تفعلها ثانيةً. منذ تناسخك المقبل، توجّه نحو شركات التأمين العامّة اللندنية. فالتأمينات العامّة اللندنية AGL تعني الأمان في كلّ الحيوات!»

اقتصرت الإعلانات في البداية على التويج الخارجي، ولكنّها سرعان ما نُصِبت أمام، ومن ثمّ خلف جدار الغيبوبة الأوّل.

رأت وكالات متخصّصة النور، واستولت دون أن تطلب شيئاً من أحدٍ على المساحات والمواقع التي كنّا قد رسمناها على خرائطنا. تدرّب رهبانٌ وتأهّلوا، ومن خلال التركيز عبر الصلاة، عرضوا بوضوح في المنطقة المرغوبة الرسائل الموجّهة لكي تُقرأ في القارة الأخيرة.

كانت تعرفة الأسعار تختلف حسب المساحات. وكانت القياسات من مترٍ واحدٍ عرضاً ومترين طولاً وحتى عشرة أمتار عرضاً وعشرين متراً طولاً. في السماء، ليست هناك قيود مفروضة، وينطلق كلّ شيء من قدرة التحمّل الروحية.

لم يكن هناك نقصٌ في عدد الزبائن. وظهرت شركات بالجملة، فبعد كوما كوَلا و AGL، كانت هناك إعلانات شركات تنظيم الرحلات الإكتوبلازمية («مع شركة إيرمور، ذهاب وإيابٌ مضمونان»)، وحفاظات («من أجل راحة بشرتك كطفل رضيع مع حفاظات أمبيرميبليكس، الحفاظات التي تربط العجائز السابقين المصابين بسلس البول مع الأطفال الرضّع المستقبليين

المصابين بالسلس البولي الذين سوف يصبحونهم»)، ومنتجات الألبان («بفضل لبن ترانسيت، انطلقوا دون أثقال نحو الفراديس الطبيعية»)، وفرش («فرشة سومنيس، سرّ التأمّلات الناجحة»)، وأرائك الإقلاع لأخي كونراد («عروش الإمبراطور: مجانيق لإطلاق المستكشفين نحو العالم الآخر، يبقى كلّ الأموات محتارين مذهولين»)، وفرق الروك («موسيقى ديد ستوري، حتى الملائكة تحبّها»)، وحتى إعلانات المشروبات الكحولية، مثل إعلان («لوسيليوس، الكوكتيل الفاتح للشهية بنكهة الفواكه القويّة جدّاً بحيث سترغبون في شربه مع ملائكة السارافيم»).

وقد نجح بعض الوسطاء الموهوبين على نحوٍ خاصّ حتى في جعل رسائلهم الإعلانية وامضة. لدى الوصول إلى الثقب الأسود في الفردوس، ينتاب المرء حينئذٍ الإحساس بأنّه يجد نفسه على أطراف متجرٍ كبيرٍ جدّاً. بغضّ النظر عن رأي راؤول، كانت القارة الأخيرة تُباع الآن إلى تجار المعبد.

شكّلت منظّمة الأمم المتّحدة على الفور لجنة أخلاقية دولية لوضع حدّ للتجاوزات. وقد منعت الدعاية لدواءٍ منشّط للذاكرة («مع ميموريكس، سوف تتذكّر كلّ حماقاتك») على أطراف المنطقة السوداء للذكريات السيّئة. لا إعلانات لدمى قابلة للنفخ في المنطقة الحمراء للنزوات، ولا لساعات اليد في بلد الصبر، ولا للموسوعات في منطقة المعرفة، ولا أيضاً لمعرض فنون في منطقة الجمال المطلق. ومع ذلك، ما كان ينبغي المبالغة!

وكانت الكتب المتخصّصة تتراكم على رفوف المكتبات: *الموت وإجراءاته*، *الفردوس، أرض التناقضات*، *الموت وماذا بعده؟ كراس آداب السلوك لاستخدام اللقاءات مع الموتى الآخرين*، *وأسلافه والملائكة*، *طريق تناسخ الأرواح: خطّة كاملة ونصائح لعدم الضياع*، *بعض النماذج من التصميم الإكتوبلازمي*.

على الأرض، أصبح كلّ شيء بسيطاً وصافياً. كانت التجارة رائجة والناس يتحابون، والفقر يختفي. لم تعد هناك أديان، ولم تعد هناك أحقاد قديمة ومتجذّرة بين الشعوب. وانتظم العالم برمّته تحت راية الأعمال الصالحة.

أين ذهب المتهكّمون والساخرون والهازئون؟ حتى الفكاهة اختفت. تستند الفكاهة إلى الاستهزاء، وكانت الرحلات إلى قارة الموتى قد برهنت على أنّ لا شيء جدير بالاستهزاء وأنّ لكلّ شيء ولكلّ تصرّف ثمنه مهما بلغت تفاهته، وأنّ كلّ شيء مراقبٌ ومحسوبٌ في المكان الأعلى.

كانت هناك مشكلة أخرى: القدرية الكليّة التي استولت على المجموعات البشرية. كان الناس يقولون في أنفسهم: «ما الفائدة من أن أقوم بأيّ شيء، طالما أنّ حيواتي السابقة قد حدّدت في كلّ الأحوال قَدري، فأنا لا أفعل سوى العيش على تجربة مكتسبة على مدى عدّة آلاف من السنين. فلماذا أبذل جهوداً لا جدوى منها، إذا كان قدري قد كُتِبَ مسبقاً في العالم الآخر، في الفردوس؟» من جرّاء ذلك، استبدّ الكسل بالبشرية في نفس الوقت الذي ساد فيه اللطف على سلوكها. ولماذا سيكلّف المرء نفسه العناء طالما أنّه يكفي الدخول إلى متجرٍ أو محلّات متخصّصة للحصول على الترفيه؟

من دون دوافع مادية، ما الذي يمكنه أن يحثّ الناس على الانخراط في مشاريعٍ أو التفكير في مشاريع جديدة؟

لطالما كنتُ نهب الشكوك بالنسبة إلى التسريبات حول القارة الأخيرة. وقد تفاقم قلقي عندما شاهدتُ ذات يوم مشهداً غريباً. كان طفلٌ يعبر الشارع حينما ظهرت سيارة رياضية. بالسرعة التي كانت تسير بها، ما كان بوسع السائق أن يدوس على المكابح، ويتوقّف في الوقت المناسب. وأنا أفكّر في الحادثة الأولى التي تعرّضتُ لها، أسرعتُ إلى القول: «احذر!»، فتوقّف الصبي ونظر إليّ، ثمّ نظر إلى السيارة المسرعة التي كانت تقترب، وقال بهدوء:

– هه! إذا كان قدري هنا، فلا شيء يستطيع إيقافه.

وظلّ هناك في مكانه، مكتوف اليدين، في انتظار أن يُسحق تحت عجلات السيارة دون أن يُدرك أنّ تحذيري كان أيضاً جزءاً من قدره! فقفزتُ إليهِ وأنقذته في الوقت المناسب.

قلتُ له:

– أيّها الأحمق الصغير، لقد كدتَ تموت بغباء!

نظر إليّ بازدراء وعجرفة، ثمّ قال:

- ليس تماماً، طالما كان مقدّراً لي أن أُنقَذَ من قبلك. اليوم، على أيّ حال...

استأنف سيره وهو يلعب ويمرح كما لو أنّه يرغب في أن يتسبّب في مقتله في مكانٍ أبعد، فقط لكي يُثبت لي أنني مخطئ!

263. استمارة شرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة:

أوقفوا هذا في الحال. الثاناتونوتية تمثّل أخطاراً جسيمة. لقد أصبح البشر يضعون إعلانات عنها على طريق تناسخ الأرواح. هناك تضاعفُ في الشهادات غير المعقولة حول الفردوس. نرجوكم أن تتدخّلوا في الحال.

جواب من الجهات المختصّة:

نعم. لقد سلك الوضع منحى غير متوّقعٍ. نحن نفكّر في الأمر بكلّ جدّية.

264. اللامبالاة

تُرى هل حقّاً لم تنفع كلّ مغامراتنا إلّا في أمرٍ وحيد، ألا وهو جعل البشرية لامبالية بالكامل، وقدريةً، وفاقدة للحماس؟

في هذه الحالة، أكون قد ارتكبتُ إثماً هائلاً، وسوف أحتاج إلى كميّة من عمليات تناسخ الأرواح لكي أُصلِح هذا الخطأ المشؤوم. لم أعد أستطيع تحمّل القفز في الشارع فوق أناسٍ مستلقين بهدوء في انتظار أن تنقضي حياتهم الحالية. لم تعد هذه المسألة حتى قدريةً، بل كانت بمنزلة تنازلٍ عن الحياة!

لمّا تذكّرتُ الصبي اللامبالي بكلّ شيء، شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي.

في محطّة إطلاق المستكشفين في بوت شومو، لم يعد الجوّ ممتعاً مثلما كان من قبل. أصبحنا، روز وفريدي جونيور وأنا، ننغلق أكثر فأكثر على خليتنا الأسرية في حين كانت آماندين تواصل جولتها في عقد المؤتمرات.

أمّا راؤول، بخسارته لزوجته ستيفانيا، في أعقاب خسارته لوالديه، فقد

وجد سبباً وجيهاً جديداً لشرب الكحول. بدا كأنّه يبحث في الكحول عن عالمٍ ثالث، عن عالمٍ يقع ما بعد الحياة والموت. ففي نهاية المطاف، ربّما يكون الكحول هو خاتمة جميع المساعي. في هذه الحالة، ربّما سيكون من الأفضل أن أغضب في وقتٍ مبكّرٍ من راؤول حتى لا أدع نفسي أنزلق إلى هذا المنحدر.

ذات مساء، بقيتُ أستمع إلى موسيقى الجاز في الشقّة العلوية على السطح. كنتُ معجباً على نحوٍ خاصّ بعزفٍ منفردٍ على الساكسوفون يبثّ حزناً وشجناً، من نوع الموسيقى التي لم يعد أحدٌ يستمع إليها.

لدى العودة من أحد عروضها، انضمّت آماندين إليّ. بالكاد نظرتُ إليها. أزاحت زريعة خضراء، وتهاوت على أريكةٍ من الأغصان بالقرب مني.

سألتني:

– هل أنت متعب؟

– كلا. أعاني من مرض تعكّر المزاج.

– تعكّر المزاج؟ ومَنْ لا يعاني منه؟

وهي تُشعل واحدة من سجائر بيدي الملفوفة التي كان راؤول يتركها على الدوام متناثرة في كلّ مكان، أضافت:

– هل تتذكّر ما كان فريدي يقوله؟ «يبحث الحكماء عن الحقيقة، بينما يكون الأغبياء قد عثروا عليها».

ـ وها قد وجد العالم بأسره حقيقته.

– إذاً، العالم بأسره أحمق.

– نعم، ولكن هذا خطأنا نحن.

التزمتُ السكوت، وأنا مليءٌ بالندم والتحسّر. فكّرتُ من جديد بذلك اليومِ الذي سألتُ فيه أمّي عن معنى كلمة «الموت». تراءت لي مرّة أخرى اليد الباردة لوالدة جدّتي آغلاي وهي خارجة عن الغطاء. وتراءت لي أيضاً الصورة المدهشة، التي انحفرت إلى الأبد في ذهني، لأولئك الملائكة الرؤساء الثلاثة المشعّين بالنور والمجتمعين هناك في العالم الآخر لمحاكمتنا.

في الواقع، لم يكونوا رؤوفين، بل كانوا مرعبين، على الرغم من ابتسامتهم. بدأتُ أفهم ستيفانيا.

إنّ الطيبة المفروضة هي أيضاً مقزّزة مثل حساء الماشميلو بالعسل، وبعصير الرمان.

ظهرت روز في الشقّة العلوية وهي تصفّق بيديها.

- إذا كنتما جائعين، أسرعا بالنزول. الوجبة جاهزة وقد أوشك جونيور على أن يلتهم كلّ شيء. ولن يعود هناك قريباً سوى بعض الفتات.

265. تعليم اليوغا

هناك خمسة عناصر ينبغي توفّرها لكي يبقى المرء قويّاً في حياته:

- الصحّة. ينبغي أن يبقى الجسد في صحّة جيّدة إذا أردنا الاحتفاظ بضميرٍ مرتاح. يجب أن يكون المرء نظيفاً، ولا يملأ أبداً معدته إلى حدّ الشبع.

- القناعة. أن نكون شاكرين على النعم التي نحظى بها.

- المثابرة. عدم الاستسلام لأن تغمرنا المشاعر الأكثر سخفاً: الخوف ممّا هو غير متوقّع، الخوف من الاستياء، الانغماس في اللذة السريعة.

- الدراسة. التقدّم نحو المعرفة من خلال قراءة النصوص المقدّسة ومن خلال التأمّل.

- تقديم القرابين لله. لا نعيش من أجل أنفسنا، بل من أجل شيءٍ فينا يتجاوزنا. وقبل كلّ شيء، أن نبقى متواضعين.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

266. الحساب

كنّا نعلم مسبقاً، منذ *مقابلة مع ميّت*، أنّ ستمئة نقطة كانت ضرورية للمرء من أجل وضع حدّ لدورة تناسخ روحه وجعله روحاً طاهرة. قدّم نقاشٌ جديد مع القديس بطرس لآماندين مفاتيحَ أكثر دقّةً. نقلت إلينا الجدول الرسمي.

المعاقبة بحسم النقاط

الكذب: من – 10 إلى – 60 نقطة

النميمة: من – 10 إلى – 70 نقطة

الإهانة: من – 100 إلى – 400 نقطة

عدم مساعدة شخص في خطر: من – 100 إلى – 560 نقطة

التخلي عن طفل: من – 100 إلى – 820 نقطة

التخلّي عن الوالدين: من – 100 إلى – 910 نقاط

ارتكاب فعل قاس على حيوان: من – 100 إلى – 370 نقطة

ارتكاب فعل قاس على إنسان: من – 500 إلى – 1450 نقطة

جريمة تؤدّي إلى مقتل شخصٍ آخر: من – 500 إلى – 1510 نقاط

عقاب تكرار الجريمة: تُضرب النقاط بـ 1.5.

(عدد النقاط التي يتمّ حسمها تختلف حسب الحالة، مع الأخذ بالاعتبار نية الإيذاء، اللذة المستمدّة من القيام بالإيذاء، عدم الإحساس بالمسؤولية، والأنانية التي كانت حافزاً لارتكاب الأفعال أو عدم ارتكابها.)

المكافأة بإضافة النقاط

المنحة المعنية: من + 10 إلى + 50 نقطة

المنحة غير المعنية: من + 10 إلى + 90 نقطة

منح الفرح للمحيطين: من + 10 إلى + 100 نقطة

مساعدة حيوان في خطر : من + 50 إلى + 120 نقطة

مساعدة شخص في خطر : من + 100 إلى + 270 نقطة

إنتاج عمل فنّي: من + 100 إلى + 410 نقاط

فكرة خلّاقة تسمح بتحقيق تطوّر: من + 100 إلى + 450 نقطة

التضحية بالنفس في سبيل الآخر: من + 100 إلى + 620 نقطة

حسن تربية طفل: من + 150 إلى + 840 نقطة
يُضاعف ثواب المحسن بعدد نقاطه مضروباً بـ 1.2.

جعل الإكثار من التوضيح الناس أكثر حذراً. فبدل المخاطرة بارتكاب إثمٍ، كان بعض الناس يفضّلون الانتحار على الفور بغية إعادة مؤشّر العدّادات إلى الصفر، كما كان يُقال آنذاك. والعبارة لم تكن في الحقيقة سوى تعبير مجازي. وكانت شركة يابانية قد عرضت بالفعل في الأسواق آلة حاسبة للحسنات والسيئات، أسمتها: *حاسبة الكارما*. كان الجهاز عبارة عن ساعة يد صغيرة ذات شاشة فيها بلورات سائلة ولوحة مفاتيح رقمية. كان الناس يرتدونها في معصم يدهم اليمنى، في حين يبقى معصم اليد اليسرى مخصّصاً لمعرفة الوقت. كان يكفي أن يدوّن المرء كلّ مساء قبل النوم الأفعال التي ارتكبها خلال النهار ليعرف إلى أين وصل بالضبط مع كارماه. وفي حال لم يكن هناك ما يكفي من النقاط الإيجابية في الرصيد، كان حصانٌ يظهر على شاشة حاسبة الكارما. وكانت هذه أولى علامات سلّم تدهور الكارما الذي كان ينحدر إلى كلبٍ، ثمّ إلى أرنبٍ، ثمّ إلى حلزونٍ، ومن ثمّ إلى أميبيا. وكانت الحالات الأكثر خطورةً تتمثّل بسويق بقدونس أو فطر.

بوساطة حاسبة الكارما، بات بوسع المرء أن يموت بهدوء وهو يعلم بالضبط ما هو موقعه في قائمة الحساب، دون أن يخشى بعد الآن من مواجهة حكم الملائكة الرؤساء. وبالطبع، كانت عملية إجراء العد والفرز تتطلّب الكثير من الصراحة والصدق مع الذات.

في محطّة إطلاق المستكشفين، راجعنا الجهاز. اكتشفت روز أنّ لديها مكافأة من أربعمئة نقطة. أمّا أنا، فقد كان رصيدي أكثر تواضعاً يتراوح ما بين + صفر و+ خمس نقاط. لم أرتكب الكثير من السيّئات في حياتي، ولكنني لم أكن قديساً أيضاً. في النهاية، كان راؤول محقّاً: لم أكن بطلاً، كنتُ شخصاً محايداً. حتى في مقدار كارماي، كنتُ متوسّط الحال.

أمّا فريدي جونيور، فقد كان منبهراً بآلته. فقد أعلنت حاسبته شبه العذراء

بطريقة لطيفة عن رصيد 25+ نقطة. أصبح الصبي بدوره مهووساً بحساب أفعاله. لا يكاد يشدّ جديلة إحدى صديقاته في الساحة، حتى يراجع حاسبة الكارما في الحال ليعرف إن كانت فعلته هذه خطيرة.

كان الجهاز قد حلّ بنجاح محلّ الاعتراف بالخطايا في الكنيسة.

267. خارج اللعبة

لم يستطع كونراد أن يحصل على حقوق استنساخ حاسبة الكارما. فقد كان اليابانيون حذرين وحريصين، وكانت براءة الاختراع خاصّتهم محمية. فاتّجه أخي بحزم نحو تجارة أخرى مختلفة تماماً، ألا وهي تجارة أقراص «خارج اللعبة»، أي أقراص «انتحار خاصّ من دون ألم». كان شعاره: «إنّ حياةً جديدة أفضل من حياةٍ فاشلة». كان الشعار بسيطاً ويعني ما يُريد قوله.

والآن أصبح كونراد، الذي لطالما أظهر الشكّ والريبة حيال الثاناتونوتية، أوّل من يشجّع الناس على القيام بالقفزة الكبرى، فالأعمال أوّلاً وقبل كلّ شيء!

ومن سخرية القدر أنّه سرعان ما عدّ من بين زبائنه ابنه، ابن أخي غوستاف، الذي يئس من فشله في مجال الرياضيات. وبمنزلة رسالة وداع، كان الفتى المراهق قد خربش: «لا تقلقوا. سوف أقوم بجولة قصيرة وسريعة في بلد الموتى وسوف أعود في جلدٍ آخر».

كان والداه مقتنعين بأنّه كان على حقّ، بيد أنّهما لم يكونا يعلمان أين سيتم تناسخ روح الصبي. كان كونراد الذي تساءل في نفسه إن كان عليه أن يبكي موت ابنه أم لا، يقول شاكياً، متذمّراً: «لقد أُفسِد الكثير من الجهود المبذولة، والتربية المبرمجة بعناية، فساداً مدوياً من خلال علامة متدنيّة في الرياضيات، إنّه لأمرٌ يدعو إلى شدّ الشعر!»

كنّا، روز وأنا، نشعر بالقلق. ماذا لو حاول فريدي جونيور القيام بذلك أيضاً؟ وسرعان ما دهم القلق والضيق أيامنا. على الرغم من أننا كنّا قد عرفنا الفردوس، فإننا لم نكن نرغب في أن يغادر طفلنا إليه مبكّراً، من خلال السماح لنفسه بقطع حبله السُرّي.

ولثنيه على نحوٍ أفضل عن الهروب إلى هذه الدُرجة التي انتشرت في المدارس والثانويات، استبدلنا خلسةً أقراص السيانيد «خارج اللعبة» التي كان قد اشتراها لنفسه بنقود مصروفه الخاصّ بسكاكر غير ضارّة مصنوعة من السكر المسحوق المجمّد. ولكي لا يستسلم لرغبة مفاجئة في القفز في الفراغ، ركّبنا شبكات معدنية لكلّ النوافذ.

وقد بذلت روز قصارى جهدها لكي تُريحه في كلّ الظروف. فإذا ما عاد مع دفترٍ مدرسيٍّ مليءٍ بالدرجات المتدنيّة، قدّمنا له بعض الهدايا لكي نواسيه. لم نكن نؤنّبه قط، وكنّا نغمره بالحنان والعاطفة، ونؤكّد له باستمرار دعمنا ومساندتنا له.

كان من الجوهري أن يحبّ ابننا حياته إلى درجة الاقتناع بأنّه لن يجد أبداً أبوين على هذه الدرجة من الروعة واللطف في تناسخٍ آخر للروح.

ولكن لم يكن جميع الآباء والأمّهات فعّالين مثلنا. لقد تضاعفت أعداد الأطفال المنتحرين، تماماً مثل أعداد البالغين في الواقع.

كان يكفي أن يشعر أحدهم باستياءٍ أو بعدم الرضا، فيُقْدِم على الانتحار في الحال! كان الأكثر حساسية يتجوّلون وقد احتفظوا بقرصٍ من السيانيد مزروعٍ على الدوام في سنٍّ محفورٍ في فمهم، وعند أصغر مشكلة، كانوا يضعون حدّاً لحياةٍ يعتبرونها فاشلة. وإذا كانوا يعتبرون الحياة لعبةً، فللكفّ عن المشاركة فيها يكفيهم القول: أنا أستسلم، ويضعون أنفسهم «خارج اللعبة» بفضل القرص الذي يوفّره أخي كونراد في عملية بيعٍ حرّة.

ونتيجة لذلك، لم يعد يُرى عملياً سوى المسنّين في الشوارع (ما إن تظهر أوّل تجعيدة كعلامة على التقدّم في السنّ، حتى يتطلّع المرء إلى شبابٍ جديد قبل أن يعيش إهانة السنوات التي يتعذّر تجنّبها)، كما لم يعد أحدٌ يرى أناساً مهمومين أو حسّاسين. لم يبقَ سوى كائنات غير ناضجة مهووسة بفعل الخير، من جرّاء الكسل أو من جرّاء الخرافة.

وبذلك كانت هناك مشكلة اجتماعية حقيقية. كان قادة البشر والمبدعون في غالبيتهم هم الذين عاشوا طفولة صعبة وتخلّصوا منها بقوّة قبضتهم من خلال اكتساب صفات فولاذية لكي يعيشوا على نحوٍ أفضل. أما الآن وقد

أصبح الانتحار يبشّر بإعادة أرقام الحاسبات إلى الصفر عند أصغر مشكلة، فإنّ النخب المستقبلية كانت تختفي قبل أن تحظى بالوقت الكافي لكي تتقدّم في العمر.

أدرك لوسيندير وحكومته المشكلة. في الإدارة، لم يعد يخالطون سوى بعض الضعفاء والأغبياء غير القادرين على اتّخاذ أيّ قرارٍ حاسمٍ لخشيتهم الشديدة من الإضرار ببعض الأشخاص. كان من المهمّ جدّاً التصرّف بأسرع ما يمكن لكي يكفّ الأكثر ذكاءً والأكثر حساسية من بين الشباب عن الانتحار.

أصبح الموت عادياً، ولذلك كان من المهمّ أيضاً تشجيع الحياة والنهوض بها هنا والآن، وليس في مكانٍ آخر وفي مستقبلٍ لا نعرفه. لم يكن الأمر واضحاً وجليّاً. لم يعد أحدٌ يتمسّك بالحياة كثيراً إلى درجة الكفاح من أجلها أو الكزّ على الأسنان في حالة الخصومة. والأنكى من ذلك أصبح كلّ شخصٍ يأمل أن يرى الشخص الذي سوف يتناسخ فيه، إلى حدٍّ بات الأمر كما لو أنّه يلعب لعبة الروليت أو اللوتو. ما كان ينبغي أن تكون هذه هي الأرقام المناسبة الناقصة في العالم الآخر!

وبهذه الطريقة ولِدت الوكالة الوطنية لتنمية الحياة ANPV. استعان لوسيندير بأفضل مصمّمي الإعلانات لكي يبتكروا شعارات وأفكاراً ومفاهيم لكي يتمسّك الناس بحياتهم بدل الرحيل بأعدادٍ هائلة.

من كان عساه أن يصدّق هذا قبل العقد الأوّل من الألفية الثانية؟ كنّا بالتأكيد سوف نموت ضحكاً لفكرة أنّه سوف ينبغي ذات يوم اللجوء إلى الإعلانات لكي يقدّر الناس ما هو أكثر جوهرياً وطبيعياً وبساطة في العالم، ألا وهي الحياة.

268. إعلان

الحياة، لحظة غنيّة بالمشاعر. سوزان م. عشرون سنة، طالبة، شهادة:

«بادئ ذي بدء، أنا لا أحبّ الحياة كثيراً. بل أجدها مبتذلة. كان والداي على قيد الحياة، وكان عمّي وجدّاي وكلّ الفاشلين في عائلتي على قيد الحياة، وأنا كنتُ أتساءل في نفسي كيف يتدبّرون أمورهم لكي يظلّوا هنا ويتحمّلوا الشيخوخة والتعفّن على أقدامهم مثل خرقٍ. يا لهم من أغبياء!

نعم، كنتُ أجد الحياة تافهة لا معنى لها. حتى إنني حاولتُ أن أهرب منها بالمخدّرات والكحول. ولكنّ المخدّرات جعلتني مريضة وكذلك الكحول. وحينها رغبتُ في أن أخرج من الحياة. ومن ثمّ خطرت لي فكرة. قبل أن أرحل، لماذا لا أقوم بجولةٍ حول العالم؟ وهنا، تبيّن لي كم أنّ الحياة رائعة. السهول تعيش، والحيوانات تعيش، وحتى الأحجار تعيش. فقلتُ عندئذٍ في نفسي: ولماذا لا أعيشُ أنا أيضاً؟

الآن، لستُ نادمة على خياري وعندما أرى كلّ هؤلاء الشباب المتردّدين، أقول لهم: هيا، يا أولاد، قوموا أنتم أيضاً بجولة حول العالم. سوف ترون أنّ الحياة شيءٌ سوف يبقى رائجاً إلى زمنٍ طويلٍ جدّاً!»

كانت هذه رسالة من الوكالة الوطنية لتنمية الحياة ANPV.

269. استمارة شرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة:

لقد تحوّل الأمر إلى محض جنونٍ! مهما كنتُم أقوياء، لا تدعوا أنفسكم تستسلموا للغرور. لا ترفضوا الإقرار بأخطائكم. إنّ تساهلكم ضارٌ. ضارٌ جدّاً. وللجميع.

جواب من الجهات المختصّة:

لقد أعماكم الخوف. القليل من الهدوء، من فضلكم. ولا ترتكبوا حماقة. لنكن حذرين ويقظين دائماً.

270. ميثولوجيا يابانية

«نحن لسنا سوى حبّات رمل، ولكننا معاً.

نحن مثل حبات الرمل على الشاطئ، ولكن من دون حبّات الرمل لا وجود للشاطئ».

قصيدة بلغة ياماتو (اليابانية القديمة).

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

271. الانتحار، يا له من خطأ شنيع

بذلت الوكالة الوطنية لتنمية الحياة قصارى جهدها ولكنّها لم تحقّق سوى نتائج هزيلة. كانت هناك حاجة إلى حادثٍ مأساوي، مثل قضية لامبيرت، من أجل وضع حدّ للحركة الانتحارية.

حدث هذا في أحد أيام الأحد في محطّتنا لإطلاق المستكشفين في بوت شومو. كنّا نسمح في بعض الأحيان لأصدقائنا باستخدام كراسينا الخاصّة بالإطلاق. كان السيّد لامبيرت، صاحب مطعمنا التايلاندي المفضّل، قد طلب منّا أن يجرّب أحد الكراسي. لم يكن لدينا أيّ سبب لكي نعترض على ذلك لا سيما أنّ السيّد لامبيرت كان بمنزلة صاحب مطعمنا الشخصي، وكنّا نحرص على الحفاظ على أفضل العلاقات معه.

جلس على الكرسي. قمنا بضبط وتعيير أجهزتنا. بدأ بالعدّ «ستة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، انطلاق» وضغط على زرّ الإقلاع وفق القواعد.

لم يكن هنا أيّ شيء غير طبيعي حتى الآن. ولكن الأمر الغريب وقع أثناء العودة. حينما فتح السيّد لامبيرت عينيه، انتابني شعورٌ بأنني أمام جان بريسون آخر. كان محموماً، متوتّراً، بل إنّ وجهه أيضاً لم يعد يشبه وجه صديقنا الهادئ صاحب المطعم التايلاندي. كان أمامنا رجلٌ ذو نظرة ثابتة وقاسية. رجلٌ مختلف تماماً. ربّما أمام السيد هايد الذي لا يزال حتى الآن يُخفي الدكتور جيكيل - لامبيرت؟

سألتُ:

- هل تشعر بأنّك بخير، يا سيّد لامبيرت؟

- أووه نعم! في الذهاب، سارت الأمور جيّداً، بل سارت على نحوٍ ممتاز. لم يسبق لي قط أن ذهبتُ بهذا اليسر وبهذه السهولة.

سألت آماندين بلهفة:

- هل استطعت أن تزور القارة الأخيرة؟

- أووه نعم! بالنسبة إلى الزيارة، لقد زرتها. إنّه حقّاً مكانٌ مثيرٌ للاهتمام، مثيرٌ للاهتمام جدّاً.

كان صوته هو صوت لامبيرت القديم، وكذلك ملامح وجهه، ومع ذلك، كنتُ سأقسم بأننا لم نعد نتعامل مع نفس الشخص.

وفيما بعد، تحوّل إلى شخصٍ تهكّمي، مع انحرافٍ غريبٍ في حدقة عينه. كان قد نسي كلّ ما يتعلّق بفنّ الطبخ وحتى وصفته العزيزة للمعكرونة بالريحان. في الحقيقة لم يعد يهتمّ بالطبخ في الوقت الراهن. وقد عرض مطعمه على نحوٍ مفاجئ للبيع. وليذهب زبائنه، الذين كانوا فيما مضى يحظون برعاية فائقة، ويتناولون الطعام حيث يحلو لهم! لقد غسل يديه منهم. ثمّ غادر المدينة ولم نعد نراه بعد ذلك.

هذه الحكاية أقلقتني للغاية وجعلتني مضطرباً. تحدّثتُ عنها مع الزملاء في محطات الإطلاق الأخرى. وقد أكّدوا لي أنّهم قد واجهوا سابقاً حالات مماثلة. وقد أخبروني أنّهم، مثلي تماماً، قد فكّروا في متلازمة الدكتور جيكيل. وقد ظلّ هذا المصطلح سارياً.

قرّرنا عقد مؤتمر عبر تقنية الفيديو لمناقشة هذه المشكلة. كان لدى السيّد راجاوا، مسؤول محطة الإطلاق الهندية، تفسيراً لعرضه على المشاركين في المؤتمر. كان تفسيراً روحانياً غامضاً، ولكنه مع ذلك ظلّ تفسيراً.

حسب رأيه، كان المنتحرون هم أصل الظاهرة. حينما يقتل أحدهم نفسه بصورة متعمّدة قبل أن يُنهي مدّة الحياة المقدّرة له خلال المحاكمة الأخيرة، يتحوّل إكتوبلازمه إلى روحٍ هائمة، تبقى هناك، وتحوم فوق الأرض، في حالة بحثٍ عن جسدٍ لتتجسّد فيه لكي تعيش ما بقي لها من الوقت الذي ينبغي لها أن تعيشه. والحال أنّه من الصعب جدّاً العثور على أجساد شاغرة، والكثير من المنتحرين يظلّون يهيمون على وجوههم هكذا منذ آلاف السنين بهذه الأرواح الهائمة، وغالباً ما يُطلق عليهم الأحياء صفة «الأشباح». وبما أنّ هذه الأرواح بائسة ونادمة، تقوم بإخافة البشر لكي تتأكّد من أنّها لا تزال تتوفّر على بعض القدرة. تقوم بإخافة الفزعين والسُذّج من خلال النقر على الجدران في الليل، محدثةً بذلك ارتجاجاً في الأرضيات الخشبية أو اهتزازاً في الثريّات. وفي أسوأ الأحوال، يمكنها أن تتسبّب في هطول أمطارٍ وحدوث عواصف عشوائية، ولكن

هنا تتوقّف حدود قوّتها. إنّ تصرّفاتها تافهة وزهيدة وهي تُثير الشفقة أكثر مما تُثير الفزع.

وأشار مدير محطّة داكار لإطلاق المستكشف إلى الظاهرة، قائلاً:

- هذا ما نسمّيه الأرواح الشريرة.

وأوضح مسؤول محطّة أبيدجان:

- ونحن نقول عنهم بلولوس، بلولوس بيانس بالنسبة إلى الرجال، وبلولوس بلاس بالنسبة إلى النساء.

تنهّد زميله المسؤول عن محطّة لوس أنجلوس، قائلاً:

- ربّما، ولكن مع هذه الدُرْجة الجديدة للانتحار، لا بدّ أنّ الأجواء مشبعة بالأشباح بحثاً عن غلافٍ جسدي.

واصل السيّد راجاوا تفسيراته:

- حينما يتأمّل أحد الأحياء أو يلجأ إلى الثاناتونوتية، يتخلّى لبعض الوقت عن جسده. يكفي أن تمرّ روحٌ هائمة من هناك لكي تندسّ فيه.

بقينا هناك في صمتٍ مطبق ونحن ننظر بعضنا إلى بعض. يا لها من أخطار عرّضنا أنفسنا لها جميعاً خلال رحلاتنا العديدة! والأنكى من ذلك أيضاً، بسبب كلّ «السيّاح» الذين، بفضلنا، كانوا ينطلقون إلى العالم الآخر، كان حشدٌ من الأشباح يمتلكون الآن مجموعة جميلة من الأجساد لكي يرتدوها. يا لها من مفارقة! هؤلاء المنتحرون الذين كانوا يعتقدون أنّهم يحلّقون من أجل حياةٍ أفضل، كانوا ينسلّون إلى أوّل حياة قادمة! ومرّة أخرى، إذا ما حالفهم الحظّ! لم يكن الأمر من السهولة بمكان أن يجد المرء نفسه هنا في الوقت المناسب، أمام غلافٍ جسديٍّ شاغر.

كان لكلّ واحدٍ حالة «القهر» خاصّته لدى العودة. حيث يعاني من تغيّرات مفاجئة في المزاج وفي التصرّفات على نحوٍ واضح.

قلت:

- يجب أن نُعطي الإنذار. يجب أن يتوقّف الناس عن الانتحار وحتى عن ممارسة الثاناتونوتية. لقد بات الأمر في غاية الخطورة!

كلٌّ منّا في بيته، نظّمنا مؤتمرات صحافية. لم يصدّقنا الجميع. كان هناك

مشكّكون وقالوا إنّنا نريد أن نمارس رياضتنا فيما بيننا حكراً، في حين أنّها كانت تتحوّل إلى رياضة ديمقراطية، وأنّه قريباً سيكون حتى بوسع العمال أن يمارسوا الثاناتونوتية في أيام الأحد. وبماذا كان بوسعنا أن نجيب على هذا؟ على الرغم من تحذيراتنا، واصلت وكالات الرحلات الإكتوبلازمية أعمالها. سوف يكون هناك على الدوام متهوّرون ومهووسون للانطلاق في نزهة في القارات الأقصى، اعتقاداً منهم أنّ الحوادث لن تقع إلا للآخرين.

ومع ذلك، ثبّطت فكرة وخز الجسد أثناء عملية انطلاقٍ عزيمة بعض المشاركين. لم يكن من المستساغ التفكير في أنّ أيّ شخص سوف يقرّر، في حالة يأس، أن يحلّ محلّك ويندسّ بين عائلتك وينام حتى في سرير زوجتك من دون أن يكون بوسع أحدٍ أن يصنع فارقاً.

بالنسبة إلى المرشّحين للانتحار، كانت الأمور تسير بشكلٍ مختلف عن سيّاح العالم الآخر. كان بعضهم يسعى إلى الاكتشاف، بينما يسعى الآخر إلى الأمان والسعادة. على الرغم من أنّ كونراد أجرى تخفيضاً على أسعار مخزونه من أقراص «خارج اللعبة» غير المباعة، ولكن كان ذلك دون جدوى، إذ لم يعد هناك مشترون. لم يكن التحوّل إلى روحٍ هائمة بحثاً عن جسد، وهذا قد يكون لقرونٍ قادمة، مستقبلاً باعثاً على الحماسة.

لقد أدرك الناس أنّ الانتحار لا يُعيد مؤشّر العدّاد إلى الصفر، وأنّه لا بدّ للمرء أنّ يعيش حياته حتى النهاية. فتعلّم الناس من جديد أن يعتادوا على مآسٍ صغيرة.

كان لتفسير زميلي الهندي فائدة أخرى: كان يُريح والديّ الأطفال الرضّع أو المراهقين الذين ماتوا مبكراً جدّاً، من جراء المرض أو الحوادث. كان يمكن للأمر أن يتعلّق بالمنتحرين الذين كانت لهم، بعد تناسخ أرواحهم في غلافٍ جسديٍّ غريب، بضعة أعوامٍ إضافية لكي يعيشوا خلالها. فإنّ رجلاً انتحر في سنّ الستين في حين كان من المفروض أن يموت في سنّ السادسة والستين سوف يولَدُ من جديد في جلد طفلٍ كان مقدّراً له أن يموت في سنّ السادسة.

لا شكّ أنّ تولّي المرء لأمر كارماه كان علماً كاملاً يحمل كلّ يوم مجموعته من القوانين الجديدة.

كان راؤول متقوقعاً على ذاته وأحاط نفسه بجدارٍ من الصمت. كنتُ أعلم أنّه يفكّر دون توقّفٍ بستيفانيا. كنا نحصل على أخبارها من خلال الصحف. وكانت قد جمعت من حولها زمرة من «الأشرار». كانت الفتاة الإيطالية البوذية التبتية التي أحببناها كثيراً تُجاهر بالقول في كلّ مكانٍ تقريباً أنّه ينبغي للخير أن يتوازن مع الشرّ. كما كانت تؤكّد أنّ الرغبات في الانتحار، مهما كانت معارفنا الآن، سوف تعود إلى الانتشار في مواجهة عالمٍ تفهٍ وممِلٍّ جدّاً.

تحت رعايتها، كان حشدٌ من الأشرار في سترات جلدية سوداء، وهم يمتطون دراجات نارية، يبذلون قصارى جهدهم لنشر الأعمال الأكثر قدماً في نمطها مثل السرقة أو القتل أو الاغتصاب أو السلب. ولكن الخشية من إفساد كارماها ظلّت قويّة للغاية. كانت ستيفانيا تعاني من صعوبة في ضمّ مساعدين إليها وظلّت مبادرتها معزولة.

كانت ستيفانيا تُعتبرُ إلى حدٍّ ما نموذجاً في الفضول الوطني، وحتى حينما كان بوسع رجال الشرطة توقيفها هي أو توقيف أحد أقربائها، كانوا يمتنعون عن الإقدام على ذلك. كانوا يخشون من أن تُعدّ العملية نوعاً من الاعتداء، وكانوا يقولون في أنفسهم إنّ أفراد هذه العصابات سوف ينالون، في كلّ الأحوال، العقاب المناسب خلال عمليات تناسخ أرواحهم.

مع ذلك، بالنسبة إلى راؤول وبالنسبة إليّ أيضاً، أصبحت ستيفانيا همّاً كبيراً. بتجسيدها الشرّ، كانت تبرهن على أنّه كانت لا تزال هناك مخاطر يمكن التعرّض لها في هذا العالم السفلي. كانت تُبرز الخير وتركّز عليه. ومن خلال التضحية بكارماها في سبيل تعافي المجتمع، انخرطت أخيراً في فعلٍ ينمّ عن إيثارٍ وتفانٍ محضين.

كنا نشعر جميعاً، وبارتباك، بأنّ ستيفانيا الملعونة كانت في الحقيقة قديسة. لم نعد نعرف ما الذي ينبغي علينا فعله. وفي النهاية، قرّرنا أن ننطلق من جديد إلى العالم الآخر في العلا لنرى ما الذي كان يحدث فيه.

272. إعلان

السيّد فانستاك، اثنان وأربعون عاماً، أعزب، يُدير وكالة لعارضات الأزياء. إنّه يحبّ الحياة ويُخبرنا عن السبب:

«بالنسبة إليّ، الحياة هي النساء. جميعهنّ مختلفات. إنّهنّ بفمٍ وعينين وساقين ونهدين وعطرٍ ومشية وقصّة شعر ورقبة مختلفة. لن يتوفّر ليَ الوقت مطلقاً لكي أعرفهنّ جميعاً. ولهذا السبب أنا سعيدٌ بأن تكون الحياة إجمالاً طويلة بما فيه الكفاية. أنا الآن في زواجي الثاني عشر من النساء. أودّ أن أعيش مئة سنة لكي أعرف أقصى عددٍ من النساء. وبما أنّ النساء غير موجودات إلّا في الحياة، أقول شكراً للحياة، وأقول شكراً للنساء».

هذه رسالة من الوكالة الوطنية لتنمية الحياة ANPV

273. لقد تعقّدت الأمور أكثر

دائماً هناك الكثير من التهوّر على طريق الفردوس! آه! نعم، لم تعد لعمليات الإقلاع أيّ علاقة مع أولئك المستكشفين الأوائل عندما كنّا نتنقل، وحدنا، بين المتوفين.

في الوقت الراهن، لا نكاد نغادر الأرض حتى نجد أنفسنا ملتصقين وسط حشدٍ من السيّاح الإكتوبلازميين، من ذوي الحبال السُرّية المعقودة إلى الحبل السُرّي لدليلهم السياحي، وهو راهبٌ أُعيد تأهيله ليكون خبيراً في الرحلات الثاناتونوتية.

وقد ظلّ هناك الكثير من الإعلانات، إن لم يكن أكثر من ذي قبل! إعلانات لأفلامٍ لا تُفوّت عن الحيوات المقبلة، وإعلانات عن وجبات طعامٍ جاهز تماماً، وعن أطعمة للقطط والكلاب الأليفة، وعن سجائر، وعن رحلات غير عادية... وبالطبع، لوحة كبيرة للوكالة الوطنية لتنمية الحياة، تتباهى بمزايا العودة إلى الحياة!

بذل لوسيندير جهوده لإرساء أكبر قدرٍ من الأمن على القارة الأخيرة. منذ المدخل، كانت لوحة معروضة من قبل محترفٍ تركيٍّ لرقصة الدراويش تفتتح المشهد:

«الفردوس يرحّب بكم. أنتم هنا على بعد ألف سنة ضوئية عن الأرض. احذر، خطر! ممنوع السفر منفرداً. يرجى ربط حبلكم السُرّي الإكتوبلازمي بعناية بالحبل السُرّي لدليلكم السياحي».

ثمّ تأتي بعد ذلك القوانين المختلفة المنصوص عليها بمساندة من الأمم المتّحدة:

المادة 1: الجنّة لا تتبع لأيّ بلد، ولا لأيّ دين.

المادة 2: الفردوس مفتوحٌ أمام الجميع، وليس لأحد الحقّ في إعاقة الوصول الحرّ إليه.

المادة 3: ممنوع قطع الحبل السُرّي الإكتوبلازمي للآخرين. إنّ فعلاً كهذا هو فعلٌ جرمي وسوف يُلاحق مرتكبه بهذه الصفة.

المادّة 4: سوف يُعتبَر كلّ جسم مادّي مسؤولاً عن أنشطة إكتوبلازمه.

المادة 5: يُرجى من السيّاح المستكشفين ترك هذا المكان نظيفاً مثلما يتمنّون أن يكون أثناء موتهم الفعلي.

المادة 6: ممنوع إزعاج الملائكة في عملهم.

المادة 7: ممنوع حفظ الذكريات أو التخيّلات التي تخصّ الآخرين. كلّ فرد هو مالكٌ حرّ لتجاربه الخاصّة، في الفردوس كما في العالم الأرضي.

المادة 8: ممنوع وضع رسومات أو كتابات إكتوبلازمية على الإعلانات التي تزيّن الممرّات.

المادة 9: ممنوع الاختباء خلف أبواب الغيبوبة بهدف مخادعة الموتى العابرين.

المادة 10: ممنوع التحدّث مع الملائكة الرؤساء أثناء قيامهم بعملية وزن روحٍ أحدٍ.

المادة *11: ممنوع التدخّل لمصلحة أو ضدّ روحٍ في لحظة حساب الوزن. إذ لن تؤثّر أيّ شهادة خارجية على الملائكة الرؤساء.*

المادة 12: الفردوس ليس منتزهاً ترفيهيّاً. يُرجى من الآباء المصحوبين بأطفالهم أن يمسكوا بهم جيّداً بسلسلة من خلال حبلهم السُرّي الإكتوبلازمي.

كان كلّ شيء مخطّطاً له في سبيل راحة وأمن السيّاح. وقد كُتِبَت على سطح باب الغيبوبة الأوّل العبارة التالية:

«موخ 1. انتباه: ذكريات عدوانية. على الأشخاص الحسّاسين الامتناع عن الدخول. يُرجى من الأشخاص غير القادرين على تحمّل مسؤولية ماضيهم فصل حبلهم السُرّي عن الحبل السُرّي لدليلهم السياحي والعودة إلى أجسادهم».

ولكن على الرغم من هذا التحذير، لم يقلّ اندفاع الموتى الجدد والمستكشفين بشكلٍ جماعي. كان بعضهم يحاولون مكافحة ذكرياتهم الأليمة بطريقة المصارعين. وكم كان هذا غير لائقٍ! وقد مارس بعض السيّاح دور المتلصّصين من خلال تفحّص فقاعات ذاكرة لا تخصّهم في شيء.

في الأنحاء، كانت إعلاناتٌ تُفاخرُ بإنجازات المحلّلين النفسيين والمحقّقين الخاصّين، لفائدة الذين لا يزالون يمتلكون إمكانية إصلاح أخطائهم.

ومثل كلّ مرورٍ في البلد الأسود، وجدتُ من جديد حادث السيارة الذي وقع لي، ومشاجراتي مع أخي، وموت فيليكس كيربوز، والحب الجنوني السابق الذي كنتُ أكنّه لآماندين، علاوة على كمية كبيرة من الأحداث الصغيرة التي لم أهضمها في الواقع قط. لكنني بدأتُ أعتاد عليها.

موخ 2 والعودة إلى المنطقة الحمراء للملذّات. كان لبعض السيّاح تخيّلات مقرفة تماماً. أمّا أنا، فقد كنتُ أعتقد أنّ هذا المكان يشبه على نحوٍ متزايد جوف الفرج الدافئ والرطب لامرأة. وربّما كانت آماندين تتخيّل نفسها مع العضو الذكري لرجلٍ...

في هذه المنطقة، كانت الإعلانات تخصّ متاجر الأدوات الجنسية وعروض التعرّي وفيديوهات الأفلام الإباحية، على الرغم من التعديلات. مطلقةً تخيّلاتها عن حفلات العربدة وشباب مثيرين عمالقة، شدّتني آماندين كي لا أصطدم من جديد بشبيهتها التي ترتدي ثياباً من الجلد الأسود. لحقت بي امرأة وهي تصرخ بأنّها تُدعى نادين كينت. صرختُ بها تخاطرياً أن تدعني وشأني، وقلتُ لها إنّني متزوّج وربّ أسرة. فتغيّر خيال نادين لكي يتوافق مع قوام ستيفانيا العامر.

«من المؤكّد أنني كنتُ أحلم بكلّ النساء من محيطي. وسط الشكّ، أمسكت آماندين بيدي وقادتني حتى وصلنا إلى موخ 3.

انتباه. هنا موخ 3. أنتم على وشك الدخول إلى البلد البرتقالي. فليتراجع فاقدو الصبر ويعودوا طالما لا يزال لديهم الوقت لفعل ذلك».

لم يستغرق العبور سوى دقيقتين أو ثلاث دقائق ولكنّه بدا لنا كما لو أنّه امتدّ لمدّة أربع أو خمس ساعات. كانت إعلانات صانعي الساعات تنتشر في كلّ مكان. بالتأكيد، لم يكن هناك داعٍ لإصدار القوانين لو كانت مُحترَمة ويتمّ التقيّد بها.

لم يعد يدهشني اللقاء مع نجوم أو رجالٍ مشهورين. كنتُ ببساطة مستعجلاً على الخروج من هناك. يملّ المرء من كلّ شيء. الوقت، يا له من عدّوٍ مرعب!

المنطقة الصفراء. «انتباه، موخ 4. أنتم على وشك الدخول إلى بلاد المعرفة. تغيّبوا عن هذه المنطقة إن لم تكونوا في وضعٍ يمكنكم فيه تعلّم كلّ حقائق العالم».

صاح بعض السيّاح اليونانيين تخاطرياً، وهم في غاية الحماس:

- يوريكا! يوريكا! موخ 6، وأخيراً.

قال المحترف الرسمي لرقصة الدراويش:

«أهلاً وسهلاً بكم في السماء السابعة. هنا تُختَتم الأقدار. أنتم في القاع المضيء للثقب الأسود. بالنسبة إلى الذين سوف يمثلون أمام القضاة، نتمنّى لهم تناسخاً ناجحاً للروح. أمّا بالنسبة إلى الآخرين، فنذكّرهم بعدم إزعاج الملائكة أثناء عملهم».

تقدّمنا إلى الأمام في المنطقة البيضاء الخاصّة بحساب وزن الأرواح. كانت الملائكة قد بدأت تعرفنا جيّداً. لم تولِ أي اهتمامٍ بالسيّاح، ولكن في المقَابل، اقترب ثلاثة منها من راؤول وآماندين ومنّي.

طرح بعض اليونانيين أسئلةً تظاهرت الملائكة بأنّها لم تسمعها.

قال الهيلينيون:

- حسناً، هنا جبل أولمب، ولكن أين زيوس؟

لم يكن هؤلاء الأغبياء يفهمون أيّ شيء. ليس هناك زيوس أو جوبيتير أو كيتزالكواتل (الثعبان ذو الريش) أو ثور أو إيزيس. ليس لدى الملائكة رئيس مباشر. بالإضافة إلى ذلك، ليس للملائكة اسم محدّد، إنّها تحمل كلّ الأسماء. وليست للملائكة جنسية محدّدة، لأنّها تحمل كلّ الجنسيات، ولها كلّ الأديان وكلّ الفلسفات. يا لحماقة هذه الشوفينية التي تحمل على الاعتقاد بأنّ آلهتها أكثر أهمية بكثير من آلهة الآخرين!

لم أفهم على الفور أنّ الصرخة التخاطرية التي أطلقها على نحوٍ مفاجئ أحد اليونانيين لم تكن بدافع الدهشة بل بدافع الذعر. أصبح كلّ شيء أكثر وضوحاً عندما صاح بلغته التي فهمناها جميعاً، تخاطرياً:

- لقد انقطع حبلي السُرّي!

ردّ دليله السياحي بهدوء:

- هذا مستحيل! إنّه لا يزال مربوطاً إلى جديلة مجموعتنا.

قال الآخر منتحباً:

- كلا. لقد قُطِع في الأسفل!

وكان هذا يعني أنّه بينما يتنزّه الإكتوبلازم هنا، اغتيل جسده على الأرض. ولمّا كان حبله السُرّي معقوداً بالفعل إلى الحبل السُرّي للآخرين، فقد ظلّ مربوطاً إليهم. وحالما تحلّ المجموعة عقدها فإنّ الرجل التعيس، الذي بات ميّتاً الآن، سوف يُسفَط نحو تناسخه الروحي المقبل. وكان من المرعب أن يعرف المرء أنّه قد مات بهذه الطريقة، بعيداً، في مكانٍ آخر.

ما كدنا نتحقّق من الوضع حتى صرخ آخرٌ بكلمة جريمة! وراح السيّاح اليونانيون الثمانية عشر، واحداً تلو الآخر، يبدون نفس الملاحظة المحزنة. كانت لفّة حبالهم السُرّية بالفعل سليمة، ولكن لم يعد أيّ شيء يربطها بالأرض. كان الجميع قد فقدوا جسدهم المادّي! معاً، انطلقوا للانضمام إلى نهر الموتى.

نعم، إنّ الأغلفة الجسدية هشّة في كلّ لحظة ودائماً من الخطر التخلّي عنها. راودتنا الخشية، فقطعنا، راؤول وآماندين وأنا، بأسرع ما يمكن رحلتنا لكي نعود على وجه السرعة إلى تلك الدروع المريحة التي هي أجسادنا.

أشارت صحف المساء إلى مرتكبي الإثم السماوي: ستيفانيا وعصابتها. كانت الفتاة الإيطالية قد وجّهت بياناً إلى وكالات الأنباء الرئيسية لتعلن أنّها سوف تتصدّى من الآن فصاعداً لمحطّات إطلاق المستكشفين وأنّها سوف تقتل مجدّداً هواة الرحلات الفضائية إلى القارة الأخيرة. كانت تنوي أن تُعيد بهذه الطريقة إلى الموت خوفه وسرّه. إنّه برنامجٌ ضخم!

صرخ راؤول:

– ستيفانيا على حقّ! لقد ذهبنا بعيداً.

اعترضتُ على ذلك:

– ولكنّك كنتَ أوّل من أراد أن يعرف كلّ شيء عن الموت! والآن وقد اكتشفنا أسراره، تندم؟

من المؤكّد أنّ صديقي كان قد تغيّر تغيّراً جذرياً. وهو يمشي في أرض الشقّة العلوية، أعلن:

– كان يجدر بنا أن نظلّ في جهلنا. لقد ندم أوبنهايمر أيضاً على تصميم القنبلة الذرية.

غمغمتُ:

– لقد فات الأوان على العودة إلى الوراء.

صرّح راؤول:

– لا يفوت الأوان أبداً على فعل الصواب.

هززنا، أماندين وروز وأنا، رؤوسنا. وفجأةً أصبح صوت راؤول نفس صوت زوجته:

– حسناً، لقد نجحنا في وضع حدّ لحالات الانتحار. ولكن انظروا من حولكم قليلاً لتروا كم أصبح الناس متصنّعين وباهتين! لم يعد يحدث أيّ شيء. لم تعد هناك لا حرب ولا جريمة ولم تعد هناك لا خيانة زوجية ولا عاطفة أصلاً. وحدها ستيفانيا أظهرت شجاعةً.

بالتأكيد، أصبح العالم لا يُطاق. لقد جئتُ إلى عالم الثاناتونوتية لأكافح ضدّ مللي وضجري، بيد أنّ الثاناتونوتية جعلت العالم بأسره مملّاً!

من خلال زجاج السقيفة، لمحتُ فتى كان يُعلّق خلسةً إعلاناً بسرعةٍ.

كان الإعلان يحمل صورة شخصية لستيفانيا بالأبيض والأسود، وقد كُتِبَت عليه بأحرفٍ حمراء كبيرة عبارة: «معاً من أجل إعادة تنظيم الشرّ!»

274. فلسفة جماعة الصليب الوردي[1]

«من خلال رغباتكم، تجذبون حياتكم. حول وجودكم، هناك غلاف جويّ عقلي يجذب كلّ شيء ولكنّه لا يجذب كلّ الأشياء بلا تمييز. هذا الغلاف الجوي العقلي مصنوع من رغباتكم. غلافكم الجوّي ورغباتكم وجهان لعملة واحـدة. علاوة على رغباتكم المدركة، هناك رغباتكم ومخاوفكم غير المدركة. وبهذه الطريقة تجذبون الأشخاص والأحداث الذين يشكّلون نسيج حياتكم. الفعل هو ليس سوى رغبة متصلّبة.

لا يمكننا أن نحرّر أنفسنا إلّا من خلال حلّ العقد العاطفية للأوضاع الماضية والحالية».

ماكس هينديل، *القوانين الكونية للصليب الوردي*

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز.*

275. سارقة الأرواح

كانت صرخات فريدي جونيور هي التي جعلتنا نهرع، روز وأنا، إلى الوقوف أمام التلفاز. فقد انقطع فجأةً بث فيلم الرسوم المتحرّكة البورتوريكي الذي كان يتابعه بانتباهٍ وشغف. تعرّجت خطوطٌ بيضاء وسوداء مهتزّةً على الشاشة الصغيرة.

- بابا، هناك عطلٌ في التلفاز.

لم يكن ذلك عطلاً. لقد أخلت الخطوط البيضاء والسوداء مكانها لصورة ستيفانيا.

1- الصليب الوردي: أو روسيكروسيانيسم، هو نظام أُنشئ وعرف بالقرن السابع عشر، من خلال ثلاثة أهداف مقصورة على فئة معينة من الناس الغربيين، ويعتبر هذا النظام المحكم مدرسة، تهدف لمساعدة التطور الروحي للبشرية. المترجم

صرخت روز، وهي في غاية الإعجاب:

- لقد نجحت في قرصنة بث القناة الثالثة والخمسين، القناة الأكثر شعبية، وفي ساعة ذروة المشاهدة!

أسكتنا ابننا، الغاضب جدّاً بسبب خسارته لبرنامجه المفضّل، ورفعتُ الصوت لكي نسمع على نحوٍ أفضل كلمات صديقتنا.

في مكانٍ وسط غابةٍ، كانت ستيفانيا، وهي جالسةٌ على تلّة معشوشبة، تخطب في حشدٍ صغيرٍ من الناس. ظهرت على الشاشة لقطة مقرّبة لوجهها الذي كان يشعّ بهجة في الماضي ويغزوه العبوس الآن.

قالت:

- شكراً للجميع على مجيئهم إلى هنا. أنا أعلم إلى أيّ شجاعة يحتاج المرء لكي يقطع على نفسه عهداً بأن يتوجّه إلى الشرّ مع تعريض نفسه لخطر تدنيس كارماه. ولكنّنا نعمل لمصلحة البشرية جمعاء.

ضجّ الحضور صياحاً بالموافقة على رأيها. انتقلت لقطة الكاميرا إلى صبيانٍ يرتدون قمصاناً بلا أكمام، سوداء اللون وذوي عضلات موشومة وفتياتٍ ذات شعرٍ طويلٍ متناثر على سراويلهنّ الجينز الممزّقة. توجّهت ستيفانيا إلى أنصارها في نفس الوقت الذي كانت تتوجّه فيه إلى ملايين المشاهدين.

- العالم بذاته ليس جيّداً ولا سيّئاً. الطبيعة أو الربّ أو أيّ من المُثل التي ننسب إليها وجهة وجودنا، لا تقدّم لا المكافأة ولا العقاب. يقع على عاتقنا نحن أن نستخلص الدروس من تجاربنا. ليس هناك سوى خطأ واحد ألا وهو الجهل.

«كلّ تاريخ الإنسانية مليء بالفظائع والأعمال الوحشية. ويقع على عاتقنا أيضاً أن نستخلص الدروس من ذلك. إنّ تعليماً يتمّ تلقّيه وسط الألم يكون على الدوام أكثر فاعليةً من درسٍ يتعلّمه المرء وسط الفرح.

«والحال أنني أستطيع أن أؤكّد لكم أنّكم في يوم الحساب سوف تعيشون من جديد كلّ الملذّات وكلّ الآلام التي نلتموها من أخيكم الإنسان. كلّ تجاربكم. لأنّ الأرض هي مكان التجارب. كلّ أعمالكم هنا على الأرض،

سوف تدركون أهميتها في لحظة موتكم. في الواقع، وأؤكّد لكم ذلك، حينما يحدّد لكم رؤساء الملائكة نطاق أفعالكم الأكثر سلبية، لن يتصرّفوا لا بدافع الغضب ولا بدافع السخط. سوف يسخرون فقط من غبائكم.

«إنّ هدف أيّ حياةٍ ليس الطيبة. إنّ هدف أيّ حياةٍ هو تحقيق الذات. إنّ هدف أيّ حياةٍ ليس أن يكون المرء لطيفاً، بل أن يكون واعياً باستمرار. إنّ هدف أيّ حياةٍ هو القضاء على الجهل.

«في إيطاليا، خلال ثلاثين عاماً من حكم بورجيا، عرفت البلاد الحرب، والإرهاب، والقتل، والتسمّم، ولكنّها أيضاً أنجبت ليوناردو دا فينشي، ومايكل أنجلو، وكلّ التيار الروحي لعصر النهضة. في سويسرا، كان لديهم الحبّ الأخوي، على مدى خمسة قرونٍ من السلام والديمقراطية، وماذا أنتجوا مقابل ذلك؟ ساعات يد لكي يستطيعوا أن يحسبوا بدقّة زمن مللهم الذي لا نهاية له.

«منذ فجر التاريخ، يكافح الخير ضدّ الشرّ، الجمال ضدّ القُبح، الصحّ ضدّ الخطأ، اليانع ضدّ اليبن، ومن هذه المواجهة المستمرّة تنبعث دائماً المعرفة والتقدّم لأنّه لا يتحقّق أحدهما من دون الآخر.

«والحال مع معرفة القارة الأخيرة، مع هذا الميل الإنساني جدّاً إلى الرغبة الدائمة في تبسيط كلّ شيء، قلّص الناس هدف الوجود إلى مطلبٍ وحيد وفريد: الطيبة! يا له من خطأ! في الحقيقة، وأؤكّد لكم ذلك، الشرّ ضروريٌّ لتوازن الأشياء هنا على الأرض».

كان ما يقارب خمسين فتاةً وصبيّاً، أحدهم أكثر إثارة للخوف من الآخر، يزمجرون من حولها:

– سوف نجلب الشرّ! سوف نجلب الشرَّ!

– شكراً، أصدقائي. شكراً. في أوّل محاولةٍ لإحالة الإنسانية إلى مجرّد رؤية للواقع، أرسلنا إلى العالم الآخر مجموعة من السيّاح اليونانيين، وهم مستكشفون طارئون، ولم يكن هناك ما يفعلونه في الفردوس. هذه ليست سوى البداية، وسوف نواصل كفاحنا. في الحقيقة، لن نتوقّف عند هذا الحدّ، وهذا ما أؤكّده لكم.

كانت عينا ستيفانيا السوداوان تقدحان شرراً. بدت كأنّها قد تجلّت بأكملها في إرادتها بإقناع الشباب بقضيتها.

قفز شابٌ ملتح وأشعث الشعر بجانبها، وتوعّد، قائلاً:

– بالتهديد وبالعنف، سوف نُرهب مستكشفي الموت، وسوف نحقّق إغلاق محطّات إطلاقهم. وأيّ شخصٍ يقرّر الإقدام على الانطلاق في رحلة لاستكشاف الموت، سوف يُحكَم عليه مسبقاً من قبلنا بالموت. هذا إنذارٌ أخير، يا سيّاح الموت!

ضجّ المكان بالضحكات والتصفيق. وتصاعد هدير محرّكات الدرّاجات النارية.

تقدّمت فتاة حليقة الرأس على طريقة البانكي بعينين مكحولتين وبشفتين قرمزيّتين، وصرخت بصوتٍ عالٍ طغى على الصخب:

– ليست محطّات إطلاق مستكشفي الموت فقط! بل يجب أنّ ينتشر الشرّ في كلّ مكان! وينبغي التخلّص من هذه التفاهة السائدة! وفي سبيل تحقيق ذلك، هناك أفعال بسيطة جدّاً!

سأل صوتٌ جهوري:

– ماذا تقترحين؟

– لماذا لا نُطلق موسيقى هارد روك؟ لم نعد نسمع سوى الموسيقى الكلاسيكية أو سبيس ميوزيك في المتاجر وعلى المحطّات الإذاعية. لقد سئمنا بالفعل منها. أريدُ حفلات روك صاخبة!

هتف أنصار الشرّ بصخبٍ:

– روك، روك!

قال فتى آخر:

– هل تريدون الاستماع إليها؟ لديّ منها.

رَكّزت الكاميرا على عاشق موسيقى الروك. معتلياً درّاجته النارية، والسيجارة بين شفتيه، ظهر شخصٌ غير حليق، يعصب جبينه بعصابة، ولوّح بأسطوانة كما لو أنّها لقى أثرية عثر عليها. كان مكتوباً عليها اسم فرقةٍ، و AC / DCK، وعنوان، وكان قديماً جدّاً رغم أنّه واعد ومشجّع، *Highway to Hell*

(الطريق السريع إلى الجحيم). كانت درّاجته مزوّدة بجهاز لبثّ الأسطوانات. ودسّ في الجهاز الأسطوانة التي كان جميع المحيطين به ينتظرونها بلهفة.

رفع درجة صوت الموسيقى إلى أقصاها وامتلأ الجوّ بصوتٍ تزايد عنفاً وصخباً.

قفز الجميع في الحال وانخرطوا في نوعٍ من الرقص البدائي القبلي، محيطين بزعيمتهم ستيفانيا ومقلّدين لحركاتها المثيرة والشهوانية.

سيطرت عليهم نفس الإثارة. بأنفسهم وحدهم، سوف يوقظون العالم.

صرخت ستيفانيا:

- إذا كنّا نعيش، فهذا لأنّ الله يشاء ذلك!

صاح الفتى الملتحي:

- إذا كنّا نقتل، فهذا لأنّ الله يشاء ذلك!

زعقت الفتاة ذات الشعر البانكي:

- إذا كنّا نحبّ موسيقى الهارد روك، فهذا لأنّ الله يشاء ذلك!

استأنفت ستيفانيا حديثها، لاهثةً:

- الله هو الخير ولكنّ الله هو الشرّ أيضاً، لأنّ الله كلّ شيء. هناك في العالم الآخر، في العلا، قابلتُ الشيطان، وفي الواقع، وأؤكّد لكم ذلك، هو شخصٌ محترم للغاية! أوقف الموسيقى، يا بيللي جو.

امتثل سائق الدرّاجة النارية لطلبها في الحال. لم يحتجّ أيّ راقصٍ على ذلك، لا سيما أنّهم كانوا جميعاً في حالة نشوة، مثل راقصي رقصة الدراويش. كانت ستيفانيا، على ما بدا، تحظى بالتبجيل في قبيلتها من عبدة الشرّ وكانوا يطيعونها حرفيّاً من أوّل إشارةٍ.

- ليست موسيقى الهارد روك هي الوحيدة التي اختفت. هناك أيضاً الكحول. لم يعد الناس يجرؤون على شرب المشروبات الكحولية لأنّهم يخشون أن يُسيئوا التصرّف تحت تأثير الكحول. إنّ معامل تقطير الكحول قد اختفت بأكملها من الناحية العملية من على سطح الأرض. فلنعد فتح معامل سرّية للتقطير، ولنوزّع قوارير الخمور في كلّ مكان.

فكّرتُ في سرّي بأنّه لا بدّ أنّها ترى من حينٍ لآخر زوجها السابق. هناك شخصٌ واحدٌ على الأقل لم يستسلم! ومن الواضح أنّه كان يعلم من أين يجلب قوارير المشروبات الكحولية.

وجد مشجّعو الشرّ أنّ الفكرة ممتازة. كانت فكرة تعميم السُكْر فكرة ملائمة لهم. إنّ من شأن الإدمان على الكحول أن يُعِدّ رجالاً يوسعون النساء والأطفال ضرباً، وسائقي سيارات ثملين يدهسون أناساً طيّبين وحتى حالات اغتصاب، وكلّ الرغبات المنفلتة! حجرٌ ممتاز في حديقة اللطافة!

- صحيح. أحسنت أيها الكحول!

- وبعد الكحول، هناك أيضاً...

اقترح بيللي جو الذي بدا أنّه قد فهم المغزى سريعاً:

- المخدّرات.

وافقت ستيفانيا على اقتراحه:

- المخدّرات! لنعد تشكيل شبكات تجّار المخدّرات ومروّجيها. كما ينبغي أن تكون هناك بعض المخزونات منها في الضواحي. سوف يكفي أن نطلب بكلّ تهذيب من الزعماء السابقين لشبكات الإتجار بالمخدّرات. سوف يسرّبون إلينا بعض الكوكايين من دون مشاكل إذا ما تأكّدوا من أنّهم يقومون بعملٍ صالحٍ من خلال هبّتهم لمساعدة مدمنين محرومين.

دوّت أصوات أسطوانة AC /DC من جديد كخلفية صاخبة قبل أن توجز ستيفانيا حديثها:

- أصدقائي، تعلمون جميعاً الآن ما عليكم القيام به: تجنيد أنصار جدد، اغتيال مستكشفي الموت، نشر المشروبات الكحولية والمخدّرات. معاً، وفي الحقيقة أنا أؤكّد لكم ذلك، سوف ننجح في استعادة التوازن المقدّس بين الخير والشرّ.

ثمّ، وهي تحدّق مباشرةً في الكاميرا وتتوجّه إلى جمهورها التلفزيوني، ختمت حديثها بهدوء:

- إنّ الشرّ على وشك أن يولَد من جديد. أنتم جميعاً، إمّا أن تخافوا أو تأتوا وتنضموا إلينا!

غزا نوعٌ من الضباب والرذاذ الشاشة الصغيرة ثمّ استطاع فريدي جونيور أن يستأنف مشاهدة فيلم الرسوم المتحرّكة خاصّته.

276. استمارة شرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة:

لسنا مسؤولين في أيّ شيء عمّا جرى. حركة إنسانية عفوية. لم نكن في حاجة إلى ستيفانيا لكي نوقف مستكشفي الموت. إنّه ردّ فعلٍ طبيعي على التهاون الذي استغرق وقتاً طويلاً.

جواب من الجهات المختصّة:

لا أهمية أبداً لأن تكونوا على صلة بالأمر من عدمه. مازلنا نتمسّك بسياسة الانفتاح القديمة.

277. ميثولوجيا زرادشتية

إنّ خمس المتوفّين سوف ينبعثون من الأرض، مزوّدين بأجسادٍ ولهم نفس المظهر في لحظة وفاتهم، من المكان الذي غادرت منه الأنفاس جسدهم. سوف يظهرون مثنى مثنى، الأب والابن، الزوجة والزوج، المعلّم والتلميذ، مَنْ يأمر ومَنْ يُطيع.

أيّها الجسديون، انهضوا، أنتم مَنْ احترمتم (الياسا)، أنتم مَنْ توفّيتُم على هذه الأرض!

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

278. الحصيلة

على الرغم من كلّ حماستها وبلاغتها وفصاحتها، فشلت ستيفانيا في إحياء قوى الشرّ. لم تنجح قطّ في جمع أكثر من قرابة مئة شخصٍ من اللصوص الأشرار ممن انخرطوا في الإجرام وسط اللامبالاة العامّة.

وزّعت الفتاة الإيطالية آلاف المناشير التي كان الناس يلتقطونها عن

الأرض من دون قراءتها ليلقوا بها في أقرب حاوية للقمامة. وكانوا يساهمون بذلك في نظافة المدينة، وهي مكافأة من السهل الحصول عليها.

أعادت بعض الصحف نشر النصّ ولكن من دون تحقيق أيّ نتائج. ومع ذلك، لم تعدم المسألة بعض الاهتمام:

«ما هي الخطايا بامتياز؟ القتل؟ والحال إذا كان هناك إلهٌ، أيّاً كان، فهو لم يمنع قط الشعوب من إبادة بعضها بعضاً. على العكس من ذلك، لقد أصبحت الحروب وسيلة مثل غيرها لتجنّب الاكتظاظ السكّاني وبذلك منعت الكائنات البشرية من سحق الأنواع الأخرى.

السرقة؟ من نحن حتى نزعم أنّ أيّ شيءٍ يخصنّا نحن وحدنا ولا يخصّ آخرَ؟ السرقة ليست خطيئة، بل رفض منح الآخرين سيكون خطيئة.

عدم احترام اسم الربّ؟ ولكن إذا كان هناك إله، فالأمر يتعلّق بالتأكيد بكائنٍ حكيمٍ جدّاً وذكيٍّ جدّاً، وبالتالي مجرّدٍ من الغطرسة والادّعاء. فالإله، إن كان هناكَ إلهٌ، يسخر أيّما سخرية، من الذين يبجّلونه، ومن الذين يذمّونه.

عدم احترام المقدّسات؟ ولكن لا شيء مقدّس. إنّ القساوسة الذين يزعمون أنّهم مترجمو إلهٍ لا يفعلون شيئاً سوى أنّهم يرتكبون هم بأنفسهم خطيئة الغطرسة. من بوسعه جرأة التأكيد أنّ المكان الفلاني أو الشيء الفلاني مقدّس؟ إنّه ادّعاء، إنّه مجرّد ادعاء لا أكثر.

الملائكة ليست على علمٍ بكلّ شيء. هناك سلطة تعلوها. سمّوها الله، إن شئتم، ولكن اعلموا أنّ هذا الله لا يهتمّ مطلقاً بالأعمال الحسنة وباللطف.

يا شعوب العالم، استيقظي! ليس هناك ما هو أسوأ من اللطف».

في لجّة غضبها، تخلّت صديقتنا عن *كتاب الموتى التبتي*، كتابها القديم للأدعية، لتنكبّ على *الكتاب الأحمر الصغير* لمؤلفه ماو تسي تونغ. كانت تتحمّس غاية الحماس لروح العمل عند هذا الرئيس الصيني.

كانت، مثله، تعتبر أنّ في التناقض تظهر الطبيعة الحقيقية للحياة وكانت تقارن نفسها عن طيب خاطر بالقائد الأكبر متحدّثةً عن ثورةٍ مستمرّة ومهيّئةً نفسها، هي أيضاً، لمسيرة طويلة. كان ماو يقول: التناقض هو محرّك الفكر. وكانت ستيفانيا جيجيلي تُكمل بالقول: ثورة الشرّ ضرورة من أجل الإنسانية.

كان لدى ماو جيشه الأحمر، أمّا هي فكان لديها جيشها الأسود. كان جنودها يتلهّون كثيراً في فسقهم وفجورهم. وكان المكسب لهم دائماً. بقدر ما سيدفعونه ثمناً لخطاياهم في العالم العلوي، بقدر ما يستمتعون أوّلاً بمتعة فعل القليل من الشرّ هنا في العالم السفلي.

من الصعب التراجع إلى الوراء من أجل عالمٍ تغزوه الطيبة! كان يُقال في كلّ مكان إنّ «الفقراء» يشفقون على هؤلاء المروّجين للشرّ من ذوي الكارما المتضرّرة للغاية!

ومع ذلك، بفضلهم همّ، أصبح العالم أقلّ تفاهةً. كان يتمّ ترصّد عملهم السيئ المقبل الذي قد يُضفي القليل من الإثارة على الحياة اليومية التافهة جدّاً. كما أصبح لديهم في الحقيقة معجبون يمدحون إيثارهم وشجاعتهم. ثمّ إنّه يمكن أيضاً من خلال هؤلاء «الأشرار» الحصول على بعض النقاط كمكافأة من دون مقابل يُذكَر.

الآن وقد أُعطيت كلّ الثياب المُتاحة للرفاق من نزلاء مأوى جمعية إيمايوس، ما إن يجد أحدهم بالصدفةِ مخدّرات أو مشروبات كحولية أو أسلحة في مخزنٍ، يرسلها في الحال إلى هواة الشرّ. وعلى الرغم من أنّ هؤلاء قتلوا بالجملة سيّاح الفردوس، فإنّ ذلك لم يمنع أعمال الوكالات المتخصّصة في مجال الإزدهار والترويج. فأن يُغتال المرء فهو من دون أدنى شكّ وسيلة مناسبة ليموت شهيداً.

279. لم يتحسّن الوضع

وفي هذه الفترة، قرّر لوسيندير أن يضع حدّاً لأيّامه. وقد اكتشف متسكّعون جثّته ممزّقة الأشلاء أسفل برج مونبارناس. كان الرئيس قد قفز من المتراس في يومٍ ماطرٍ جعل الطريق المعبّد لامعاً.

إنّ القفز في الفراغ يتطلّب الكثير من الشجاعة. وخاصّة في الطقس السيّئ. وعلاوة على ذلك، الكثير من الذين يلقون بأنفسهم من النوافذ ينجون من الموت. ولا بدّ من القول هنا إنّهم يختارون بشكلٍ عامّ الطابق الرابع أو الخامس. وبالتالي، إمّا يهبطون بهدوء فوق غطاء محرّك سيارة، وإمّا فوق

كومةٍ من القمامة، أو يجدون أنفسهم وقد تهشّمت سيقانهم، وأصابهم الشلل وأصبحوا مقعدين في كرسيٍّ متحرّك.

أمّا لوسيندير، فلم يترك أمامه أيّ فرصة للنجاة. كان قد قفز من الطابق الثامن والخمسين. وبحيويته الدائمة، اتّخذ وضعية المظلّي نازلاً على رأسه لتكون العملية مضمونة وسريعة.

تُرى لماذا أقدم على الانتحار في حين كانت كلّ المؤشّرات السياسية تبدو لمصلحته؟ وبالنظر إلى الوراء، تساءلتُ إن كان هو الآخر، مثل ستيفانيا، قد شعر فجأةً بالقرف من هذا المجتمع المترهّل الذي كان قد ساهم بنفسه في خلقه. تُرى هل كان عليه أن يلوم نفسه في الحكم على نفسه بهذه الطريقة في تحويل نفسه إلى روحٍ هائمة؟

وقد عثرت عاملة نظافة على الوصية التي كان المتوفّى قد تركها على طاولة مكتبه. كان صديقنا قد كتب:

«لقد أدركتُ أخيراً أنّه لا جدوى في شيء من أن يكون المرء مشهوراً. الخلود هو أمرٌ مزعجٌ ومملّ. أريد أن يرفعوا اسمي من كلّ كتب التاريخ والقواميس. أريد أن يتمّ تحطيم كلّ تماثيلي. أريد أن تتمّ إزالة كلّ لوحات الشوارع التي تحمل اسمي. أتمنّى أن تُقام لي مراسم الدفنِ الأكثر بساطةً، دون موسيقى جنائزية ودون موكب رسمي. لا أريد أن أُدفَن في تابوتٍ منجّدٍ تحت بلاطةٍ من الرخام. لا أريدُ لا زهوراً، ولا تيجاناً، ولا دموعاً، ولا قدّاساً، ولا صلاة جنائزية. أطلب أن أُدفَنَ تحت شجرةٍ. ودون شاهدة تدلّ على وجود قبري. أُريد أن أعود مباشرةً إلى الأرض، وأن تغزوني جذور الشجرة، وأن تلتهمني البزّاقات والديدان والحشرات. رغم انتحاري، هل يمكن أن أتناسخ بهذه الطريقة على شكل مادة الدبال العضوية الخصبة؟ إذا كان جسدي لم ينفعني إلاّ في الشيء القليل أثناء حياتي، فليصبح على الأقل سماداً عضويّاً مفيداً بعد مماتي.

لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أدركتُ ذلك، ولكنني الآن استشعر معنى الحياة. سواء كنّا رؤساء أو متشرّدين، ملوكاً أو عبيداً، نحن جميعاً متشابهون. لسنا سوى حبّات رملٍ صغيرة ضائعة في الكون. أطالبُ بأن

تمنحوني هذا الامتياز وهو ألّا أكون سوى حبّة رملٍ من أجل الإنسانية. لم أكن سوى حبّة رمل، بالتأكيد، ولكنني أعلم جيّداً أنّه من دون حبّات الرمل، لن تكون هناك أبداً شواطئ».

بالطبع، قرّر وزير الداخلية أن يحرق في الحال نصّاً هدّاماً إلى هذه الدرجة.

كان من شأن موت الرئيس لوسيندير أن يوجّه ضربة جديدة للحركة الثاناتونوتية ويُصيبها بتباطؤٍ حادّ. ولكن هذا لم يحدث. بعد مراسم جنازته المهيبة، وعلى النقيض من الأمنيات التي يجهلها الجميع في الواقع، خُصِّصَت فصول كاملة له في كتب التاريخ المدرسية، وأُقيم له تمثالٌ عملاق في ساحة قصر بلدية باريس. وأصدرت الحكومة بالوكالة مرسوماً ينصّ على أن تُسمّى محطّة إطلاق المستكشفين في بوت شومو، التي كان قد أنشأها بنفسه، من الآن فصاعداً محطّة لوسيندير لإطلاق مستكشفي الموت، كما أنّ ميدالية الثاناتونوتية سوف تُسمّى الآن بميدالية لوسيندير. ولم يعد بوسعنا أن نُحصي المدن والقرى التي أطلقت اسمه على الجادات والشوارع والساحات.

يمكن للمرء في بعض الأحيان أن يختار حياته، ولكنّه من الصعب جدّاً أن يختار موته!

انتُخِبَ ريشار بيكبوس رئيساً بسهولة. وكان خطابه الأوّل عبارة عن تأبينٍ للراحل لوسيندير. وقد أكّد أنّ هدفه الوحيد هو مواصلة عمل «مؤسّس» الثاناتونوتية العظيم.

وفي نهاية هذه المراسم، أسرّ لي راؤول بنيّته في أن يتزوّج ثانيةً. لقد ابتعدت ستيفانيا عن حياته كثيراً بحيث بات يعتبر نفسه حرّاً.

280. إعلان

على شاشة التلفاز، ظهر رجلٌ يرتدي بلوزةً بيضاء، وهو في الأربعينيات من عمره، مبتسماً، أمام شاشة سوداء.

«صباح الخير، أنا البروفيسور فيليبيني. أنا عالم. وقد أجريتُ لزمنٍ

طويلٍ أبحاثاً عن الحياة. انظروا إلى هذه الصيغة (رفع البروفيسور مسطرةً نحو اللوحة)، إنّها صيغة الهيدروجين. ذرّة، وإلكترون، لا شيء أبسط من هذا.

انظروا إلى الأسفل (استقرّت المسطرة على اللوحة). هذه هي صيغة الحمض النووي الصبغي DNA. الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين. إنّه في غاية التعقيد، أليس كذلك؟ حسناً إذاً، هذه هي الحياة، ومنها القليل جدّاً في الكون. يتشكّل الكون من 99% من الهيدروجين الفقير ولا يوجد فيه سوى 0,0000000% من الحمض النووي الصبغي DNA ولذلك الحياة معقّدة جدّاً. حتى الإنسان غير قادرٍ على صنع الحياة.

ولذلك لا تهدروا حياتكم. كلّ حياة ثمينة. إذا لم تحترموا أنفسكم بذاتها، احترموا على الأقلّ الحياة الكيميائية الكامنة فيكم».

الصوت الأنثوي العذب للمذيعة: «هذه رسالة من الوكالة الوطنية لتنمية الحياة ANPV».

281. ميثولوجيا ميزوبوتامية

«أمّا أنت يا جلجامش
فلتكـن بطنـك مملـوءة دائمـاً وكـن فرِحاً
مبتهجاً ليلاً ونهاراً
وأقم الأفراح في كلّ يومٍ من أيام حياتك
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحمّ في الماء
وارعَ الطفل الذي يمسك بيديك
ولتبتهج زوجتك في حجرك
فهذا هو نصيب البشرية».

ملحمة جلجامش.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

282. حفلة زفاف

كانت آماندين هي منْ اختارها راؤول. لم أكن أتوقّع ذلك. إذ لم نكن، لا روز ولا أنا، قد تفاجأنا بالنظرات اللطيفة، ولمس اليدين، والقبلات الخاطفة المسروقة في الشقّة العلوية. لم نكن قد سمعنا صوت إغلاق الأبواب أثناء الليل بين الشقتين. علاوة على ذلك، خلال حفلات سكره اللامتناهية، لم يتوقّف راؤول عن البكاء على ستيفانيا.

أخيراً، ظهرت الحقائق وتزوّجا وأصبحا عروسين متألقين.

بعد تسعة أشهر، أنجبت آماندين طفلة، أسمياها بامبرينيل. غيّر الحدث شخصية راؤول رأساً على عقب، فهو الذي كان قد عاش مطوّلاً تحت ظلّ والديه، ها هو يجد نفسه أباً بدوره وانتقل إلى الجانب الآخر من الحاجز. الآن، أصبح يرى رؤيةً مختلفة تماماً لوالديه البيولوجيين.

أجرينا نقاشاً مطوّلاً في صالون شقّته. وإذ أصبح صافي الذهن على نحوٍ مفاجئ وبات يفكّر بوضوح، أدرك راؤول كيف استطاعت والدته أن تتخلّى بدورها عن رجلٍ تخلّى عنها ليصبّ جلّ اهتمامه على فكرة الموت. من المؤكّد أنّها قد حقدت على والده، وخانته، ولكنّها مع ذلك لم تقتله بيدها. كان هو بنفسه قد اتّخذ قرار شنق نفسه بعد أن تبيّنت له عزلته في عالمٍ انشغل عنه وأهمله، مركّزاً جلّ اهتمامه على العالم الآخر. لم تكن زوجته هي التي علّقته على سيفون المرحاض!

كان يتكلّم وكانت بامبرينيل تصرخ بعصبية. كانت هذه طريقتها في التواصل مع العالم. ما إن تفقد الاهتمام الذي تتمنّاه، ولا تُقدّم لها بأسرع ما يمكن اللعبة التي تطالب بها، حتى تصيح وتصرخ بعصبية.

تحت ضجيج الصيحات العالية للطفلة، أسرّ لي راؤول بأفكاره الأخيرة:

– ليست هناك سوى طريقة وحيدة لكي يحبّ المرء والديه: أن يغفر لهما، مهما فعلا. ومن ثمّ، لن يعود هناك سوى أن يغفر المرء لنفسه لكونه لم يغفر لهما باكراً.

تذكّر صديقي الأمور التافهة التي أنتجت أحقاداً طفولية كبيرة. وهكذا، حينما

كان صغيراً، لم يكن يتحمّل أن تقوم والدته بجلي الأطباق بدل الاعتناء به. كانت تقول له: «انتظر ثلاث دقائق». فكان يحقد عليها لإهمالها له وعدم الانصياع في الحال لطغيانه. كان ينغلق على حبّه لكي يعاقبها، حارماً نفسه في الوقت ذاته.

بعد إعادة تفكير، بدت علاقاته بوالديه شبيهة بعلاقاتي بوالديّ!

كانت بامبرينيل لا تزال تصرخ، فأسرع راؤول نحوها. حينما أصبحت بين ذراعيه، نشفت دموعها تدريجياً. تُرى هل يمكن لها هي الأخرى، ذات يوم، أن تغفر له على أنّه لم يهبّ لنجدتها بشكلٍ أسرع؟ تُرى هل يمكن لها ذات يوم أن تغفر له عدم منحها كلّ الحبّ وكلّ ألعاب العالم؟

283. إعلان

ظهر صبيٌّ طويل القامة مخلّع المشية، منكوش الشعر، ويرتدي سروالَ جينز، وجلس في أريكةٍ جلدية صهباء اللون.

«مرحباً. اسمي توماس فريلينو. أنا أحبّ كثيراً أن أمضي حياتي مع زمرة من الأصدقاء. من الممتع أن نعيش الحياة وحدنا، ولكن مع الأصدقاء تصبح أكثر مرحاً ومتعةً. ماذا نفعل في حياتنا معاً؟ أوه، حسناً نلعب بالورق ثمّ... آه، نلعب أيضاً بالورق. وبالنسبة إليّ، أنا أحبّ الزملاء والورق. والحياة أيضاً، بكلّ تأكيد. لأنّه من دون الحياة، لن يكون هناك لا الورق ولا الأصدقاء، أليس كذلك؟ إذاً، تحيا الحياة، يا رفاق!»

صوت المذيعة العذب: «هذه رسالة من الوكالة الوطنية لتنمية الحياة، ANPV».

284. فلسفة فيدية

«للإنسان ألف رأس
له ألف عين، وألف قدم
يغطّي الأرض من جهة إلى أخرى
ويتجاوزها أيضاً بعشر أصابع.
ليس الإنسان إلّا هذا الكون
إنّه ما مضى، وما هو قادم.

إنّه سيّد الأرض الخالدة
لأنّه يؤمن بما وراء الغذاء».

ريغ - فيدا

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

285. الأمور تسوء أكثر

في تلك الليلة، راودني حلمٌ.

كان الحلم واضحاً جدّاً، وواقعياً جدّاً، ومنطقياً جدّاً، ومتماسكاً جدّاً ومرعباً جدّاً في الوقت ذاته، بحيثُ أسرعتُ عند استيقاظي إلى تدوينه بأدقّ تفاصيله. وها هي الحكاية، كما كتبتها في ذلك الصباح.

نزل رئيس الملائكة جبرائيل على الأرض لكي يتوجّه إلى الجمعية العامّة للأمم المتّحدة. كان خطابه بسيطاً ومباشراً. قال إنّه طالما أنّ البشر لا يكفّون عن التناسل، فإنّ أقسام الحساب عنده تمتلئ تماماً بالمتوفين في كلّ يوم. سبعة مليارات من البشر، هذا كثيرٌ للغاية! كيف سيتمّ حساب وزن كلّ هذه الأرواح بالميزان بوجود ثلاثة رؤساء ملائكة فقط، حتى إذا عملوا على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم! كان البلد البرتقالي مزدحماً بالأرواح المنتظرة، والملفّات مهمَلة، وهناك أخطاء. فقد تمّ تناسخ حكماء في رجال عصابات بينما أصبح لصوصٌ وأشرارٌ بالمطلق أرواحاً طاهرة، مع دورة تناسخ قُطِعت قبل أوانها وعلى نحوٍ جائر.

فقدّم رئيس الملائكة جبرائيل خياراً للبشر: إمّا تنظيم الولادات على نحوٍ مناسب، أو إرسال مؤازرة إلى السماء. ففي النهاية، طالما أنّ إكتوبلازمات خارجة عن أجساد حية قد وصلت حتى القارة الأخيرة، لماذا لا تبقى لكي تساعد في إحصاء ومراقبة الاستمارات الكارماوية؟

أدرك زعماء دول الكوكب، المجتمعون في جلسة طارئة، المشكلة تماماً. اعترفوا بأنّه من المستحيل بالنسبة إليهم فرض رقابة صارمة على الولادات. فاختاروا بالتالي الحلّ الثاني: إرسال موظفين إكتوبلازميين إلى الفردوس.

رأت طبقة جديدة من الموظفين البيروقراطيين النور. كان موظفون معتادون على الأعمال الورقية يتحوّلون كلّ صباح إلى موظّفين إكتوبلازميين، ويجلسون على كراسيهم الخاصّة بالإطلاق مثل الآخرين تماماً، في نفس التوقيت، وهم يستقلون قطار الأنفاق أو قطارات الضواحي خاصّتهم. هناك في العالم الآخر، كان الموظّفون قد جهّزوا لهم مكاتب عمل يقومون فيها بدراسة استمارات زبائنهم بكلّ سهولة وارتياح.

بالطبع، كان كلّ هؤلاء الموظّفين الدوليين محلّفين. ومع ذلك، ارتكب أحدهم أوّل مخالفة من خلال تحذير ابنه، بعد معاينة استمارته، من أنّه ما لم يتوقّف عن ترهيب زملائه في المدرسة، فسوف يتمّ تناسخه في حلزون.

يبدو هذا أمراً هامشيّاً لا ضرر منه، ولكنّه مع ذلك تمّ الحنث باليمين.

لا شيء كامل، والإدارات التي تنصرف دائماً لتنمية نفسها بوساطة نموّ السكان، والإكتوبلازمات المحلّفة سرعان ما تزداد عدداً مثلما تتزايد الحوادث.

على سبيل المثال، بالنسبة إلى الصبي الذي أصرّ بعناد على أن يلعب لعبة الطباع السيّئة، ينتهي الأمر بوالده إلى أن يُرخي له الحبل بعض الشيء بقصد تنظيم كارما خَلَفِه. يُضيف مئة نقطة إلى رصيده على وجه السرعة دون أن يرى أحدٌ ذلك أو يعلم به.

ولكن ليس هناك فقط العائلة، بل هناك الأصدقاء، وأصدقاء الأصدقاء... وهؤلاء الذين دائماً ما يكونون على دراية جيّدة بالمعلومات، والذين، وهم يعلمون أنّ الموظّفين وحتى المحلّفين منهم، لا يتقاضون أجوراً جيّدة أبداً، يرتّبون أمورهم لكي يكتشفوا هويّتهم ويرسلوا إليهم غلافاً مناسباً وفعّالاً. بعض الأوراق النقدية، ويحدث تناسخٌ مضمون!

شيئاً فشيئاً، أُنشئت سوقٌ سوداء حقيقية لعمليات التناسخ الحميدة. يدفع الأغنياء أموالاً ليعرفوا أين تكون بالضبط كارماهم وكم من الذنوب لا يزال بوسعهم أن يرتكبوها. وكانوا يضمنون لأنفسهم مسبقاً الولادة من جديد في كنف أسرٍ ميسورة وفي صحّة ممتازة. بحيث يبقى الأثرياء أثرياء وفي صحّة سليمة في حياتهم التالية. ويبقى الفقراء فقراء ومرضى في حياتهم التالية.

لم يعد هذا حلماً، بل كابوسٌ. وظهرت برجوازية جديدة: الثاناتوقراطيون.

أيّاً كان سلوكه هنا على الأرض، أصبح من المستحيل أن يتمّ تناسخ المرء على نحوٍ أفضل ما لم يتوفّر على الموارد المالية لإرشاء موظّف إكتوبلازمي. في السابق، كان ارتكاب الآثام أكثر ما يُرعب الناس، أمّا الآن، فإنّ أكثر ما يُرعب المرء أن يكون فقيراً، لأنّه يعلم أنّه سيبقى كذلك إلى الأبد، في كلّ عمليات تناسخ، دون أي إمكانية للخروج من الحلقة المفرغة للإخفاق.

لقد عُدِّلَت كلّ قوانين اللعبة. لم يعد المرء يعيش إلّا من أجل المال، وباتت كلّ الوسائل مبرّرة للحصول عليه: السرقة، والدعارة، والاحتيال، والجريمة، وتجارة المخدّرات. إنّه نقيض عصر الفضيلة. لم يعد من هدفٍ لأيّ فعل سوى الحصول على المال.

تعرّض ابني فريدي لهجومٍ من قبل بعض المبتزين لدى خروجه من المدرسة. وانتُشلت محفظة نقود زوجتي روز منها في المتجر.

انبعثت المافيا من رمادها. ولم يعد أحد يتردّد في تجنيد قتلة محترفين للاستيلاء على ثروات الآخرين أو التخلّص من منافسٍ تجاري. كان الحصول على المال يسمح بترميم العذرية الكارماوية، وبالتالي لماذا يُزعجُ المرء نفسه؟

أصبح العالم برمّته رهينة للمال الذي هيمن عليه. وأطلقت بقايا الأديان المختلفة حملةً لكي يكفّ البشر عن التدخّل بشؤون الفردوس.

ولكنّ التخلّي عن العالم الآخر من شأنه إعادة كلّ المسؤوليات من جديد إلى الملائكة، والحال أنّ الملائكة لم تعد قادرة على إدارة شؤون سبعة مليارات من البشر على سطح الكوكب. فأصبح العالم أكثر توحّشاً وأكثر جهلاً يوماً بعد آخر...»

استيقظتُ وأنا أرتعش وأتصبّب عرقاً غزيراً. هل فعلاً من الممكن أننا انحرفنا وأوغلنا في الضلال إلى هذه الدرجة؟

تشكّلت لديّ القناعة بأنّ الملائكة قد وجّهت لي رسالةً من خلال قناة الاتصال المعتادة خاصّتها: الحلم. وكان مضمونها واضحاً: إيقاف كلّ شيء قبل أن يتطوّر الوضع إلى نقطة لا يعود بعدها من الممكن السيطرة عليه.

استحممتُ سريعاً جدّاً، وارتديتُ ثيابي ونزلتُ لكي أتناول الغداء مع الآخرين في المقهى. لم أجد هناك سوى راؤول.

كان جونيور قد غادر إلى الروضة. وكانت آماندين وروز قد ذهبَتا للتبضّع.

نظرتُ إلى هرّ الحانة، فبدا هادئاً. كان قطّاً من النوع الذي يفهم كلّ شيء ولا يفعل سوى الاسترخاء مستمتعاً بتناسخه. إنّه حيوانٌ سعيد. من الأرجح أنّه سوف يولد ثانية في هيئة شخصٍ هادئ جدّاً.

وفي تلك اللحظة بالذات قفز شرطيٌّ إلى داخل المقهى وهو يصرخ. كان من الصعب فهم ما كان يصطرخ به، ولكنّه في الجوهر كان يعني التالي: «محطّتكم لإطلاق مستكشفي الموت. إنّهم على وشك تخريب ونهب محطّتكم لإطلاق مستكشفي الموت!»

286. فلسفة يهودية

«مثلما أنّ جسد الإنسان يتكوّن من أعضاء وأجزاء من مستويات مختلفة بينها أفعالٌ وردود أفعال بحيث تشكّل جسماً وحيداً ومماثلاً، كذلك يتشكّل العالم الفسيح من تراتبية من الأشياء المخلوقة التي تشكّل حرفيّاً جسماً عضوياً وحيداً حينما تكون لهذه الأشياء أفعالها وردود أفعالها المناسبة».

كتاب الزوهار.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

287. هجومٌ على فور بوت شومو

إنّهم أتباع الشرّ. لا بدّ أنّ ستيفانيا كانت قد أمرتهم بتدمير محطّتنا لإطلاق مستَكشفي الموت. من خلال نوافذ الطابق الأرضي والمتجر، رأيناهم يحطّمون كلّ شيء بضربات مضارب البيسبول وسلاسل الدرّاجات.

ضربني راؤول بمرفقه، وسألني:

– أنت وأنا على الأغبياء؟

أغرقتني هذه الجملة على نحوٍ مفاجئ في الماضي. حينما كنّا لا نزال، راؤول وأنا، أوفى صديقين في العالم وحينما كان يؤثّر عليّ كثيراً مستخدماً صوته ضدّ أتباع بعل زبول. كان الرهان صعباً ومع ذلك نجحنا فيه. هنا أيضاً، بدا الانتظار خارج متناولنا. ولكن أثارني منظر متجر مخزن والدتي وهو يُدمّر ويُنهَب، وفقاعات الذاكرة الحاوية على الثلج وهي تنفجر، تاركة سائلها الجميل يسيل أرضاً، وملصقات الفردوس وهي تُمزّق، والقمصان وهي تُلطّخ وتُلوّث، وصور آماندين الشخصية تُرسم لها شوارب أو رسومات خليعة أخرى.

عبرنا الباب. في البداية، لم يعرنا أحدٌ الانتباه. بل استطاع راؤول أن يُمسك بقضيبٍ معدنيٍّ طويل وحمى به ملصقاً عملاقاً وناولني إياه.

لقد سلّمني القضيب المعدني. فجأةً، نسيتُ كيف كنّا قد تشاجرنا، وكيف أصبح مدمناً على المشروبات الكحولية.

شدّدتُ قبضتي بقوّة على السلاح البدائي.

كنّا معاً. هو وأنا ضدّ الحمقى. هو وأنا ضدّ العالم أجمع.

أمسك هو أيضاً بقضيبٍ من الألمنيوم. كان هناك مجرمان شريران مخيفان للغاية. ارتسمت على وجهي الرجلين، بشعرٍ أشعث ورائحة كريهة وجسمٍ موشومٍ بجماجم وإشارات جهنمية، تكشيرة الغضب والوحشية.

كان أحدهما منهمكاً في شقّ مناديل الرقبة التي تمثّل خارطة الفردوس في الوقت الذي كان الآخر يهشّم بأسنانه دمى الملائكة الأكثر شعبية.

صرخ راؤول فيهما:

- كفّا عن هذا في الحال!

أذهلهما اقتحامنا للمكان. كانا مقتنعين بأنّه، في عالمٍ لطيفٍ جدّاً، لم يعد أحدٌ يجرؤ على الاعتراض على غارتهما. كان قد سبق لهما أن تحدّيا بنجاح رجال شرطة وجنوداً، وكانا يشعران بأنّهما لا يُقهران.

توقّفا لبرهةٍ، مُنذهلين، ولكنّهما استأنفا غارتهما سريعاً. اقترب الأطول قامّة منهما منّا، وهو يكاد يبتسم. مدّ يده كما لو أنّه يريد أن يصافح يد أحدنا،

ثمّ حينما أصبح بالقرب منّا، سدّد ركلة قويّة إلى أسفل بطني. كان عليّ أن أحافظ على حذري واحتراسي. كنتُ قد نسيتُ أن أتباع الشرّ لا يحترمون شيئاً وليس لديهم أيّ ميثاق شرف.

سقطتُ منهاراً على الأرض، ملتوياً على نفسي. حظيتُ فقط بالوقت الكافي لرؤية راؤول وهو يثب لكي يعاقب الشرير الماكر بضربة قويّة من القضيب الألمنيومي على رأسه. في حين انقضّ الثاني علينا.

تحوّل المشهد إلى مشاجرة. نهضتُ وشاركتُ في العراك بأفضل ما استطعت. ووسط دهشتي الكبيرة، اكتشفتُ أنني لم أكن سيّئاً جدّاً في القتال. ربّما كانت حروب الفردوس قد منحتني المزيد من الثقة. في نهاية المطاف، ألم أستطع هزيمة زعيم الحشاشين، بمساعدة آماندين، بكلّ تأكيد؟

أمسكتُ بتمثالٍ من الجبس يمثّل فيليكس وحطّمته على رأس الرجل الطويل القامة، فخرّ على الأرض. شكراً يا فيليكس. لم يسعَ الثاني إلى الانتقام لنفسه بل فرّ نحو الطوابق العليا سعياً لاستقدام تعزيزات. لحقنا به.

في الطابق السادس، باغتنا أربعة رجال ضخام مسلّحين بفؤوسٍ كانوا يتسلّون بتحويل كلّ شيء إلى فتات. حطّموا الأرائك وهشّموا واحدة تلو الأخرى شاشات المراقبة، وكاشفات الذبذبات التي تتيح مراقبة رحلات التحليق.

كان وجه من بدا أنّه زعيمهم مألوفاً بالنسبة إليّ. للمرّة الأولى، كان التعارف متبادلاً.

قال:

– أهلاً، أهلاً، منْ أرى أمامي؟

تعرّف إليه راؤول أيضاً. كان مارتينيز الضخم. عدوّنا في المدرسة الذي كنّا قد أنقذنا حياته خلال الرحلات الثاناتونوتية الأولى. تذكّرتُ درساً كنتُ قد تعلّمته من ماير: «إذا ما ألحق أحدهم بك الأذى ولم تنتقم لنفسك منه، سوف يكلّفك ذلك ثمناً باهظاً. وإذا ما ألحق أحدهم بك الأذى ولم تنتقم لنفسك فحسب، بل وعلاوة على ذلك أنقذت حياته، وأسديت له معروفاً، سوف يكرهك ويحقد عليك حقداً رهيباً. ولكن ينبغي أن يحبّ المرء أعداءه، لا لشيء سوى لأنّ ذلك يُغيظهم».

كانت هذه هي الحالة بالفعل. بدل أن يكون ممتنّاً لنا لإنقاذ حياته من التجارب الاعتباطية المحفوفة بالمخاطر التي كان يقوم بها فلوري ميروغيس، كان مارتينيز يحقد علينا لأننا حرمناه من الشهرة التي حظي بها فيليكس. انقضّ علينا بفأسه التي حاول راؤول بطيشٍ أن يصدّها بقضيبه الألمنيومي. ولكن هذا الأخير انكسر وانقسم إلى قسمين.

بالتزامن مع ذلك، انقضّ مهاجمان ضخمان عليّ.

أمّا راؤول، فقد أصاب بركلة قدمٍ محكمة أصابع مارتينيز المتشبّثة بالفأس. سقط السلاح القاطع من يده على الأرض.

قال زميلنا السابق في الصفّ:

- أيّها الوغد السافل، سوف أقتلك!

أمسك برأس راؤول وبدأ يضغط عليه ويحصره. لكنّ صديقي النحيل والرشيق تحرّر منه ليمسكه من خصره. لم يعد لديّ الفرصة لأتابع مبارزتهما، فقد تكاثر خصومي عليّ. تقاتلنا مثل الصبيان، فشددتُ شعرهم وهم خدشوا رقبتي بأظافرهم الطويلة المتّسخة. تدحرجنا على الأرض. كان الآخرون على وشك أن يصبحوا فوقي حينما دوّى صوتٌ على نحوٍ مفاجئ.

- أنا هنا، أيّها الرجال!

كان مكسيم فيلان يجري سريعاً لنجدتنا وإنقاذنا، متسلّحاً بننشاكو[1]. مع هذا السلاح الشرقي، كان مضحكاً جدّاً، ولكن نجدته جاءت في الوقت المناسب. يبقى من المفيد دائماً أن يكون للمرء رفاقٌ.

صرختُ:

- يجب استدعاء الشرطة!

أجاب فيلان:

- لن يفيد ذلك في شيء. لن يجرؤوا على القتال، فحتى رجال الشرطة يخافون من أن تفسد كارماهم!

1- ننشاكو: هو عبارة عن سلاح خاص بمحافظة أوكيناوا اليابانية، ويتسم بأنه تقليدي ويتألف من عصوين متصلتين تربطهما من نهايتيهما سلسلة أو حبل قصير. وفي العصر الحديث، شاع استخدام الننشاكو من جانب الممثل بروس لي في أفلامه. المترجم

أصبح الصخب شديداً، وتطايرت الأشياء مستهدفةً الوجوه، وشقّت مضارب البيسبول الهواء مثل السياط، تخلّلتها ضربات قويّة من القبضات على الأجساد. كنّا جميعاً منهمكين جدّاً في ضرب بعضنا بعضاً وخنق بعضنا بعضاً بحيث لم نعر انتباهاً إلى هدير محرّكٍ تلاه وقع أقدامِ صاحبٍ صعد سلالم المبنى.

ظهر طيفُ شخصٍ في المدخل.

إنّها ستيفانيا.

صرخت بلهجةٍ آمرة:

- كفى!

أشهرت مسدّساً آلياً ضخماً عيار 9 مم. فرفعنا أيدينا إلى الأعلى.

كانت الإيطالية القصيرة والسمينة قد نحفت كثيراً في غاباتها. فحبّات الكستناء والسناجب لا تغذّي بما فيه الكفاية. كانت فاتنة وسيمة بعباءتها السوداء الكبيرة ذات الأشرطة الحمراء اللون. كانت تبدو بذلك شبيهةً إلى حدّ ما بشبح المرأة التي رأيتها في المنطقة الثالثة. نظرت إلينا بانبهار.

قالت:

- أنا أنتظر هذا اللقاء منذ زمنٍ طويل.

ردّ راؤول، متهكّماً:

- كان يكفي أن تتّصلي هاتفياً حتى نحدّد موعداً للقائنا.

بدا واضحاً أنّها لم تستسغ فكاهة زوجها السابق. كان أتباعها يهرّون بتذمّرٍ من خلفها.

قالت، مستخدمةً نبرة قائدة الحرب التي أصبحتها:

- كفّ عن التفوّه بهذه التخاريف، يا راؤول.

- ولكنني أُصغي إليكِ يا ستيفانيا، كلّي آذانٌ صاغية.

- اعلم إذاً أنّنا قد جئنا إلى هنا، رجالي وأنا، لكي ندمّر محطّة إطلاق مستكشفي الموت. لقد فكّرتُ كثيراً، كثيراً، يا راؤول. لقد خدعنا أنفسنا وأخطأنا. لقد ضللنا طريقنا منذ البداية. يجب أن ندمّر الوحش الذي بنيناه.

تقدّم مارتينيز، الذي كان ينزف من فمه، واقترح اقتراحاً، وهو يمسّد خده:

- وما رأيكِ أن نبدأ بتحطيم هؤلاء الرجال؟

قالت بحزم:

- كلا. هؤلاء أصدقائي.

ثمّ توجّهت إلينا، وقالت:

- أنتم أصدقائي، يا مايكل، وراؤول، ومكسيم. لن ألحق الأذى بكم أنتم، على الإطلاق. ولكن من الضروري أن نزيل كلّ هذا.

ثمّ أمرت:

- هيّا!

واستأنفت عصابتها تخريب كلّ شيء، وتحطيم كلّ شيء.

قاموا بتقطيع أذرع كراسي الإطلاق، وحطّموا الأجهزة، وسحقوا القوارير.

كانت ستيفانيا تتوسّل وهي تُبقي في الوقت ذاته سلاحها الناري مسدّداً على خدودنا:

- راؤول، أرجوك أن تضع حدّاً للثاناتونوتية، وإلّا سوف تسير الأمور من سيئ إلى أسوأ.

أنزل راؤول يديه واقترب منها. كنتُ مقتنعاً بأنّها سوف تُطلق النار عليه، ولكن لم تخرج أي طلقة من فوهة المسدّس حينما أمسك بشفتيها.

كان ماير على حقّ حينما كان يردّد: «ينبغي أن يحبّ المرء أعداءه، لا لشيء سوى لأنّ ذلك يُغيظهم». تعانقا، وكان لهذه اللحظة من العنف المعلّق بقبلةٍ شيءٌ أسطوري. أسطوريٌّ للغاية. لم يستطع مارتينيز أن يتحمّل ذلك. مستفيداً من الذهول العام، التقط فأسه وغرسها في ظهر راؤول.

حدث كلّ شيء سريعاً جدّاً بحيث لم يحظَ أحدٌ بالوقت ليتصرّف ويمنع ذلك.

فتح راؤول عينيه واسعتين من المفاجأة، ثمّ، وإذ أدرك أنّه قد اغتيل للتوّ، ابتسم وعاود معانقة ستيفانيا وتقبيلها بشغف. كانت هي المرأة التي يحبّها أكثر من سواها وأراد أن يغادر الدنيا بقبلة منها. كان قد اكتشف الموت، المعنى النهائي للحياة، ومع ذلك، عند اقتراب موته، لم يفكّر إلّا بلحظة

أخيرة من المتعة. أن يحب أيضاً بعض الشيء على هذه الأرض قبل أن يغادر إلى مكانٍ آخر.

ثمّ خرّ على ركبتيه، والفأس لا تزال مغروسة في ظهره.

صرختُ:

– بسرعة، لم يفت الأوان بعد، يجب إعادة تشغيل كرسي للإقلاع الإكتوبلازمي، سنستعيده قبل أن تصل روحه إلى عالم الأموات!

قالت ستيفانيا، والعبرات تخنق صوتها:

– كلا! كلا، دعوه يموت بهدوء.

أعطت إشارة إلى أتباعها، فقاموا بتقييدنا.

وأنا مكبّل اليدين، أسرعتُ إلى الأمام لكي أقترب من راؤول. لم يكن قد رحل تماماً بعد. فتح عينيه، وتعرّف عليّ، وابتسم وغمغم بشيءٍ ما، كنتُ الوحيد الذي فهمته:

«لقد انحلّ الوثاق

لقد ألقيتُ على الأرض كلّ الشرّ الذي في داخلي.

يا أوزيرس العظيم

ها أنا ذا أولَدُ أخيراً

انظر إليّ، أنا أولَدُ للتوّ».

زحف لكي يصل إلى ساقي المرأة الإيطالية ويقبّلهما، ثمّ بدرت منه الرعشة الأخيرة.

كنّا نضيّع وقتنا، وكنتُ في غضبٍ جارف. ولكن ستيفانيا كانت قد اتّخذت قرارها النهائي: يجب أن يموت راؤول «موتاً طبيعياً». كما كانت الحال في الماضي، دون أن نسعى إلى الاحتفاظ به. أتذكّر أنّ الناس، في السابق، كانوا يموتون ولم نكن ننشغل سوى بدفنهم والتأسّف عليهم. أمّا في أيامنا هذه، بات مَن الشائع جدّاً أن يتمّ التمسّك بالمحتضرين بحيثُ نسيتُ ذلك.

لقد غادرت روح راؤول مع قبلةٍ كذكرى أخيرة عن هذا العالم «السفلي».

كان موتاً جميلاً في الحقيقة! لقد وددتُ لو أنجح مثل هذا النجاح في موتي. فكّرتُ في راؤول وكيف عرف أن يحبّ. لقد أحبّ والده إلى درجة

أنّه لحق به في مغامرته. وأحبّ والدته إلى درجة أنّه غفر لها عدم محبّتها له بما فيه الكفاية. وأحبّ الكتب. وقد أحبّني إلى درجة أنّه جرّني إلى طريقه. أحبّ آماندين. وأحبّ ستيفانيا. كان ماير يقول: «من الصعب جدّاً أن يحبّ المرء حبّاً حقيقياً. بشكلٍ عامّ ليس لدينا سوى حياة وحيدة لذلك، ولا ينبغي أن نفوّتها».

كانت جثّة راؤول ترقد بين ذراعي ستيفانيا. تغبّشت عيناه. من حولنا، لم يعد أنصارها يعلمون تماماً ما الذي عليهم القيام به. قالت زعيمتهم والدمع في عينيها: ها هو من كان يتعارض مع كلّ تعاليم ومفاهيم أتباع الشرّ! ظلّوا هناك مكتوفي الأيدي.

قالت:

- هيّا، فلنغادر.

هدرت أصوات الدراجات النارية صاخبةً. واختفى أتباع الشرّ مثلما ظهروا.

أمعنتُ النظر في جثّة صديقي. كان الغلاف الجسدي قد فرغ على الأرجح من الروح. تُرى هل سيمكن وضع روحٍ من جديد في كومة اللحم هذه؟

لقد فات الأوان الآن، إذ لا بدّ أنّ روح راؤول قد أصبحت الآن في المنطقة البرتقالية، مختلطة بمليارات الأموات. لن نجده مرّة أخرى أبداً. حينما اقتنعتُ بأنّه قد مات بالفعل، مات من دون رجعة، أدركتُ أنّ راؤول كان أخي. أخي الكبير الحقيقي الوحيد.

راودتني الرغبة في أن أعوي باتجاه القمر مثل ذئاب الصحراء. *أووووو*. ولكن ما كان لأحدٍ أن يفهم أنّ هذه هي طريقتي الطبيعية الوحيدة للتعبير عن ألمي. حينما يموت أعزّ أصدقاء المرء، لا ينبغي له أن يعويَ نحو القمر مثل ذئبٍ، بل يجب أن يبكي. يعرف الجميع هذا الأمر.

288. كتاب التاريخ المدرسي

كان ذلك في عام 2068 حينما تحدّث مكسيم فيلان، أحد معلّمي الثاناتونوتية، قائلاً:

«طالما أنّ الإنسان سيموت، يمكنه أن يكون مرتاح البال».

كان هذا هو الجواب عبر قرونٍ على الفيلسوف الأمريكي وودي آلن.

في الواقع، هل هناك ما هو أكثر فظاعةً وهولاً من الخلود في الحياة؟ هل تتخيّلون حياةً لا تنتهي، تستمرّ، وتتكرّر، وتمتدّ إلى ما لا نهاية؟

سوف يسأم المرء سريعاً من كلّ شيء ويغدو حزيناً، فاقداً للهمّة والعزيمة، حادّ الطبع. لن يعود هناك هدفٌ للمرء في الزمن، ولن يعود هناك أملٌ، ولا حدود، ولا خوف. وسوف تسير الأيام وتتعاقب بطريقة تلقائية دون أن نقدّر ذلك. وسيكون بوسع الحكام الموهوبين البقاء في السلطة بلا نهاية. وسيكون كلّ شيء في كلّ مكانٍ مجمّداً من قبل الأشخاص الأكثر قوّةً الذين لن يشيخوا أبداً. ولن تعود هناك فرصة لأحدٍ في أن يضع نهايةً لحياته.

الخلود في الحياة أسوأ بألف مرّة من الموت.

إنّه لمن حسن حظّنا أنّ أجسادنا تشيخ، وأنّ زمننا على الأرض محدود، وأنا كارماواتنا تتجدّد، وأنّ كلّ حياة جديدة مليئة بالمفاجآت والإحباطات، بالأفراح والخيانات، بالسخافات وبالكرم والسخاء.

الموت ضرورة لا غنى عنها للحياة. حقّاً، دعونا نكون مرتاحي البال... لأنّه، لحسن الحظ، سوف نموت ذات يومٍ!

كتاب التاريخ المدرسي للمرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

289. إكتوبلازم رازورباك

استقبل رئيس الملائكة جبرائيل إكتوبلازم راؤول رازورباك باحترامٍ جديرٍ بمطّلعٍ كبيرٍ.

أقرّ بكلّ بساطة:

- هذه المرّة، الأمر حقيقيّ.

بعَد مناقشة قصيرة، تذكّر رؤساء الملائكة - القضاة الثلاثة أنّه ليست هناك أي حاجة إلى حساب الوزن أو مساومة بشأن حياة مستقبلية بالنسبة إلى مطّلعٍ كبير. فهذه الروح كانت مطّلعة مسبقاً على كلّ شيء. وبالتالي، كانت الإجراءات مختلفة اختلافاً جذرياً.

شرح رئيس الملائكة رافائيل باقتضاب لراؤول أنّ حسناته في حيواته السابقة هي التي أكسبته فرصة هذا الموت السريع بضربة فأس في الظهر. كما أنّ حسناته هي التي أكسبته فرصة الوصول إلى كلّ المعارف التي رغب فيها، وخاصّة رغبته في أن يصبح مطّلعاً كبيراً. ومع ذلك، لم يكن الوقت قد حان بعد لروحه لكي تتحوّل إلى روح طاهرة: كان قد أذنب كثيراً من خلال الغطرسة، واستسلم للانقياد إلى السُكْر، واحتفظ برغباتٍ ونزعاتٍ في الانتقام.

ومع هذا، كانت الأعـراف تتطلّب أن يتخلّى رؤساء الملائكة عن صلاحياتهم كقضاة أمام مطّلعٍ عظيم، وأخذاً بالحسبان المزايا التي أتاحت له الوصول إلى هذه المرتبة. وبالتالي، كان على إكتوبلازم راؤول رازورباك أن يقرّر بنفسه تناسخ روحه القادم.

شكرتهم روح صديقنا بامتنان. لقد كان أوّل من يعلم أنّه لا داعي لأن تكون في حوزته النقاط الستمئة الضرورية لوضع حدٍّ لدورة تناسخ الروح.

صرّح إكتوبلازم رازورباك:

- أريد أن أتناسخ في هيئة شجرة.

سأله رئيس الملائكة جبرائيل، فزعاً:

- في هيئة ماذا؟

ردّد راؤول بلهجة حازمة:

- في هيئة شجرة.

حاول رئيس الملائكة ميخائيل أن يقنعه بالعدول عن قراره.

- حسناً، أنت لا تجهل أنّ الوعي يتطوّر من المعدني إلى النباتي، ومن النباتي إلى الحيواني، ومن الحيواني إلى البشري. نحن نحتفظ بهذا النوع من الارتداد إلى الوراء للأوغاد والأشرار الواضحين. من غير اللائق بك أن تتحوّل إلى شجرة.

- ربّما، ولكنني متعبٌ جدّاً! وأنا أرجوكم بذهنٍ صاف وبكامل قواي العقلية أن تمنحوني فرصة هذا الارتداد إلى الوراء. لقد سئمتُ من الحركة

الدؤوبة لعالم البشر. حتى الحيوانات تتحرّك كثيراً. أُريد أن أستعيد سكون النباتات. بالنسبة إليّ، لن يكون هذا ارتداداً إلى الوراء، بل سكينةً.

تنهدّ رئيس الملائكة جبرائيل ثمّ قال:

– ليكن ذلك وفقاً لإرادتك!

قالت الروح، متجددةً تماماً:

– ممتاز. أروني إذاً ما الذي تقترحونه عليّ كجسدٍ نباتي. لا بدّ أن يكون هناك في مكانٍ ما زوجٌ من النباتات يتزاوجان الآن، مثل غبار الطلع لزهرة أقحوان يدخل في علاقةٍ مع المياسم الذكورية لزهرة من نفس النوع. أدخلوني إلى بذرةٍ، إلى عسقلٍ، إلى بصلةٍ! سوف أنبثق لاحقاً من التربة لأعيش حياة ساكنة سليمة تماماً. سوف أنعم بالسكينة، سوف أنعم أخيراً بالسكينة.

قال رئيس الملائكة رافائيل، متعجّباً:

– ولكنّ النباتات لا تحظى دائماً بحياة هادئة! فالرياح تضربها، وآكلات العشب ترعى منها، والأمطار تغرقها، والحيوانات والبشر يسحقونها دونما توخٍّ للحذر.

– نعم، ولكن بما أنّ النباتات لا تملك جهازاً عصبياً، فهي لا تتألّم من جرّاء كلّ هذا.

ألقى سارافيم العديد من فقاعات الحبّ النباتية. كان المشهد شاعرياً جدّاً. معاً، تفحّصها راؤول ورؤساء الملائكة ببراءة.

صرخ ميخائيل:

– هيه، انظروا إلى هناك! إنّ بذرة من عنب كروم سوتيرن للنبيذ تتلقّح الآن في فرنسا. إنّه نبيذٌ من نوع شاتو ديكيم، وهو نبيذٌ فاخر. انظروا إلى هذه الكرمة! إنّها معرّضة لشمسٍ لطيفة، وتتمتّع برطوبةٍ كافية، ويعاملها منتجو النبيذ بحبّ. سيكون من الرائع أن يصبح المرء شتلة صغيرة لكرمةٍ.

نظر راؤول بإعجابٍ ومودّةٍ إلى النبات الذي سيكون والده. لقد وجد والده المستقبلي ملتوياً بعض الشيء، ولكنّه لطيفٌ جدّاً. فقرّر أن يكون عنباً.

290. فلسفة هندوسية

لكلّ شخص «كتاب الحياة» الخاص به. يسمّيه المشرقيون «السجلّات المشرقية». وعلى صفحاته مدوّنةٌ أفعال وأفكار الحيوات السابقة لكلّ فرد، والحيوات المستقبلية الضرورية لتنقية كارماه. يمكن للعقل أن يختار البدء بهذه أو تلك، وبتسديد الديون المقترَضة في حياةٍ عاشها المرء في القرن السابع عشر بدل ديون حياته الأخيرة. والشرّ المفروض في التناسخ الأخير قد يُعوّض بالخير الذي فعله المرء خلال حياةٍ سابقة.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

291. استمارة شرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة:

والآن ما رأيكم؟

جواب من الجهات المختصّة:

كنتم على حقّ. لقد حان الوقت للتدخّل.

292. تسلسل أحداث مترابطة

ماءت قطّة مثارة جنسياً على الرصيف في الساعة الثانية وإحدى عشرة دقيقة صباحاً. أزعج المواء رجلاً جافاه النوم، فأطلق شتيمةً، وفتح نافذة غرفته وألقى بخفٍّ منزلي باتجاه الهرّة. أخطأ المقذوف هدفه وسقط على الزجاج الأمامي لسيارة. دعس سائق السيارة على المكابح فوراً. وبقدر ما كان هذا مفيداً للقطّة التي عبرت الشارع جرياً، بقدر ما كان سيّئاً للسيارة الثانية التي كانت تسير في الخلف، والتي لم يحظَ سائقها بالوقت الكافي لينتبه إلى ما كان يحدث، فصدم السيارة الأولى.

تسبّبت الصدمة بتسرّب الوقود من المخزن. نزل الجميع من السيارة. بينما كانت تتمّ مناقشة محضر الحادث ومسألة التأمين، أسقط أحد المارّة قليلاً من جمرة سيجارته في بركة الوقود المتشكّلة من التسرّب. اشتعل

الوقود، وانفجرت السيارتان. وتطاير رفرافٌ مشتعلٌ من إحدى السيارتين ليسقط في حاوية للقمامة كانت القطّة قد لجأت إليها. ذُعِرت وفرّت نحو جدارٍ وقلبت بطريقها علبة محفوظات فارغة كان يختبئ فيها جرذٌ ضخم. اضطرب الحيوان القارض وأسرع منزعجاً نحو أرضٍ بور.

كان رجلان قويّا البنية يتمرّنان على تسديد الكرة في سلّة لكرّة السلّة على ضوء عمودٍ لإنارة الشارع. حينما لمح أحدهما الجرذ، قفز وقذف كرته بعيداً فوق الجدار. متابعةً مسارها بسرعةٍ كبيرةٍ، ارتدّت على زجاج نافذةٍ حيث كانت امرأة تتحدّث عبر الهاتف مع زوجها. تحت تأثير تحطّم الزجاج وتشظّيه، أطلقت المرأة صرخةً حادّة. والحال أنّ زوجها كان مراقباً للرحلات الجوّية، وكان يتحدّث مع زوجته أثناء عمله. وعلى وقع صرخة زوجته الفزعة التي دوّت في السمّاعة، بدرت منه حركة جانبية، وكان ذلك كافياً لدفع لولبٍ دون إرادته.

واتّضح أنّ هذا اللولب كان يحدّد لطائرةٍ ركابٍ مقتربة موقعها الدقيق بالنسبة إلى مدرج الهبوط.

293. توضيح

تشير الساعة إلى الثانية وثلاث عشرة دقيقة صباحاً على ساعة يدي. لقد قلتُ كلّ شيء.

آه كلا! لقد راجعتُ ملاحظاتي وتبيّن لي أنّني قد نسيتُ أن أشير كيف يمكن للمرء أن يرسم دائرة ومحورها دون أن يرفع قلمه عن الورقة.

يكفي أن نثني زاوية من الورقة. ضعوا نقطة ضخمة على الحافة، منفرجة على الوجه الخلفي والوجه الأمامي للورقة. ثمّ انطلقوا من هذه النقطة لرسم نصف دائرة على الطرف المطوي. حينما تصلون إلى حدود حرف الورقة، توقّفوا. ولا يعود هناك سوى نشر الورقة للانتهاء من رسم الدائرة حول النقطة التي تُستخدَم محوراً، دون رفع القلم. لقد ساعد الوجهُ القفا.

ستكونون قد استخدمتم بذلك توغلاً في بعدٍ آخر لكي تحقّقوا على نحوٍ أفضل شيئاً يبدو مستحيلاً. استخدام بعدٍ آخر...

كان راؤول محقّاً، لحلّ بعض المشاكل، يجب الإقرار بأننا نستطيع الدخول إلى نمطٍ مختلفٍ من الفضاء حيث لنا كلّ الحقوق فيه. وهذا الأمر يتعدّى كلّ العالم الروحاني. إنّه فقط للتوسّع في التفكير. الاستمتاع بالتوسّع في التفكير. كما كان يقول مكسيم فيلان، إنّ الهدف الوحيد للكتّاب يجب أن يكون هنا: «جعل المرء يحلم بآفاق أبعد». جعل المرء يحلم بالجانب الآخر من الورقة. جعل المرء يحلم بالجانب الآخر من الموت. كلّ شيء ممكن في الكتابة، فلمَ لا تتمّ الاستفادة من ذلك؟

في بعض الأحيان، فقط من خلال الكتابة أو القراءة، ألج بالفعل إلى أبعادٍ أخرى.

أعتقد أنّ الشيء نفسه يحدث مع الأقدار. فلكي تكون كاملة، يجب أن تبدأ في كونٍ وتنتهي في آخر.

لو أنني أعدتُ الآن طرح أسئلتي المألوفة على نفسي وهي: «من أين أتيت؟»، «من أنا؟»، «إلى أين أذهب؟»، أعتقد أنني سأتمكن من محاولة الردّ عليها.

أنا أعرف أنني كائنٌ بشري، يعيش هنا والآن. لماذا؟ لكي أشارك في اكتشاف الثاناتونوتية. أعلم أنّ الفكر الإنساني يستطيع فعل كلّ شيء: الطيران وعبور المادة بسرعة الخيال، الاختزان في كتبٍ، وصنع كلّ شيء، وتعديل كلّ شيء، وقتل كلّ شيء. أعلم أنّ الزمان والمكان والمعرفة والجمال، كلّ شيء في الداخل. كلّ شيء في المركز. في الخارج، لا شيء سوى انعكاسات هذه الأشياء.

أعلم أنني لستُ سوى جثّة مع *وقف التنفيذ*.

لقد أعدتُ قراءة ما كتبتُه. لقد قلتُ كلّ شيء. كتبتُ كلّ شيء، ويمكنني أن أنسى كلّ شيء.

شكراً للملائكة على منحي الوقت لكي أروي حكاية غزو القارة الأخيرة. ولكن هل ينبغي عليّ أن أنشرها؟ هل هذه المساهمة سوف تكون خيراً للبشرية أم شرّاً عليها؟

قرّرتُ أن ألجأ إلى اختبار الطرّة والنقش. طرّة، سأنشر. نقش، لن أنشر.

تفكيرٌ دائم حول وجهي العملة. ألقيتُ بالقطعة النقدية في الهواء، فسقطت وتدحرجت تحت أريكةٍ. نزلتُ على أطرافي الأربعة، ونظرت. كانت طرّة.

جملة أخيرة أيضاً لكتابي: «حتى اللحظة الأخيرة، خشيتُ أن يمنعوني من كتابة هذا العـ...»

294. خبرٌ مقروءٌ في صحيفة يومية

«لقد مات مايكل بينسون وآماندين بالوس وروز بينسون، الرواد الرئيسيون للثاناتونوتية، البارحة مساءً في ظروفٍ غامضة. لقد تحطّمت طائرة من طراز بوينغ 787 فوق محطّتهم لإطلاق مستكشفي الموت. الكارثة ناجمة عن خطأ بشري، يتحمّل مسؤولية ارتكابه مراقبٌ جوّي لحركة الطيران. ويبحث خبراءٌ الآن بين الأنقاض عن العلبة السوداء للطائرة التي سوف توفّر المزيد من التوضيحات حول ملابسات الحادث المأساوي.

يبدو أنّ الضحايا قد لقوا حتفهم على الفور. وقد توصّل المحققون إلى أنّ مايكل بينسون كان في لحظة موته منهمكاً في الكتابة على طاولة مكتبه. ولأنّ جميع الأوراق احترقت خلال الفاجعة، سوف نجهل إلى الأبد أيّ رسالة كان رائد الثاناتونوتية يسعى إلى إرسالها.

وفي الوقت الحالي، همْ بكلّ تأكيد في ذلك الفردوس الذي ساهموا كثيراً في اكتشافه. السلام لأرواحهم».

(في الأسواق بدءاً من الأسبوع القادم: عددٌ خاصّ حول حياة وعمل مستكشفي الموت الفرنسيين.)

295. ميثولوجيا هندية

تؤكّد أسطورة هندية قديمة أنّ البشر جميعاً كانوا آلهةً في أحد العصور الغابرة. ولكنّهم أساءوا استخدام ألوهيتهم كثيراً بحيث قرّر براهما، سيّد الآلهة، أن ينزع منهم السلطة الإلهية ويخفيها في مكانٍ بحيث يكون من المستحيل عليهم العثور عليها مجدّداً. وكانت الصعوبة تكمن في العثور على المخبأ المناسب.

دعا الآلهة الصغيرة إلى اجتماعٍ لمناقشة حلّ هذه المشكلة، فاقترحت عليه الاقتراح التالي: «دعونا ندفن أُلوهية الإنسان في الأرض». أجاب براهما: «هذا لن يكون كافياً لأنّ الإنسان سوف يحفر الأرض ويعثر عليها».

فاقترحت الآلهة الصغيرة: «في هذه الحالة، فلنلقِ بالألوهية إلى أعمق أعماق المحيطات. رفض براهما ذلك أيضاً: كلا، لأنّه عاجلاً أم آجلاً، سوف يكتشف الإنسان أعماق المحيطات ومن المؤكّد أنّه سيأتي يوم يكتشف فيه الإنسان الألوهية هناك ويرفعها إلى السطح من جديد».

ختمت الآلهة الصغيرة اقتراحاتها: «لا نعرف أين نخبّئ الألوهية بما أنّه لا يوجد مكانٌ لا على الأرض ولا في أعماق البحر لا يمكن للإنسان الوصول إليه، ذات يوم».

فكّر براهما في الأمر وأصدر مرسومه: «هذا هو ما سوف نفعله بألوهية الإنسان: سوف نخفيها في أعمق أعماقه هو بنفسه لأنّه هذا هو المكان الوحيد الذي لن يفكّر أبداً في البحث فيه».

ومنذ ذلك الوقت، حسب ما تقول الأسطورة، قام الإنسان بجولة حول العالم. لقد اكتشف، وصعد، وغطس وحفر دون أن يكتشف على الإطلاق ما يوجد في داخله هو.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

296. كتاب التاريخ المدرسي

اختبارات

لكي تستعدّ لتقديم اختبارات البكالوريا، اختبر معارفك في الثاناتونوتية من خلال الإجابة في غضون أقلّ من خمس دقائق، والساعة في يدك، على الأسئلة التالية:

1. ما هو اسم وكنية أوّل مستكشف للموت نجح رسمياً في رحلة إكتوبلازمية؟

2. اذكر الجملة الشهيرة للفيلسوف الأمريكي وودي آلن.
3. كم هو عدد جدران الغيبوبة في القارة الأخيرة؟ (يرجى الانتباه! جدران، وليست مناطق...)
4. ما هي التقنيات الثلاث الرئيسية التي تتيح خروج الروح من الجسد؟
5. ما هو تاكيون؟
6. ما اسم أوّل مستكشف للموت عبر جدار الغيبوبة الثاني؟
7. أين بُنيت محطة إطلاق مستكشفي الموت الكبيرة في باريس؟
8. ما هو الدليل الملموس الوحيد على رحلة تحليق إكتوبلازمية؟
9. أين يوجد الفردوس؟
10. ما الذي قدّمه فريدي ماير للحركة الثاناتونوتية؟
11. متى وقعت معركة الفردوس؟
12. ما هي الأسماء المسيحية لرؤساء الملائكة - القضاة الثلاثة المكلّفين بمصائرنا؟
13. كيف يمكن إجراء تأمّلٍ من أجل تحقيق عملية خروج الروح من الجسد؟
14. لماذا تحوّلت ستيفانيا جيجيلي إلى متمرّدة؟
15. كيف يحمي المرء حبله السُرّي خلال تحليق روحه؟
16. ما الذي حدث للجهلاء؟
17. ما الذي حدث للعقلاء؟

كتاب التاريخ المدرسي، للصفّ الثاني عشر.

297. استمارة شرطة

رسالة إلى الجهات المختصّة:

تحت أمركم. نحن مستعدّون.

جواب من الجهات المختصّة:

هيّا إلى العمل.

298. زمن النسيان

ها أنا أحلّق من جديد نحو الفردوس برفقة أصدقائي. ولكن هذه المرّة، انقطعت حبالنا السُرّية وعرفنا أنّ هذه الرحلة سوف تكون الأخيرة في حياتنا هذه.

لقد لقينا، روز وآماندين وأنا، حتفنا في شققنا الكائنة في محطّة إطلاق مستكشفي الموت في بوت شومو، ضحايا لطائرة بوينغ طائشة. وتعثّر فيلان في مطبخ منزله وارتطم بشدّة بالزاوية الحادة لآلة جلي أواني المائدة. وقد أقلعنا جميعاً في نفس اللحظة، من دون أجهزة، ومن دون ثياب خاصّة، ومن دون كراسٍ، ومن دون ضغطٍ على لولب الإطلاق. ومن دون العدّ التنازلي الشهير الذي كنّا نقوم به عادةً: «ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد. انطلاق».

لم نعد مستكشفين للموت. بل أصبحنا في عداد الموتى الجدد، سعداء مع ذلك بكوننا معاً في هذه الرحلة الأخيرة.

عبرنا بأقصى سرعة النظام الشمسي ومحيطه. لقد حلّقنا تقريباً قبل التسلّل نحو مركز المجرّة.

لم نعد نشعر بأيّ خوف على أبواب الموت. في القارة الأخيرة، أصبحنا من الآن فصاعداً في بيتنا. لقد تنزّهنا فيها غالباً، مثلما كان آخرون يتنزّهون في منتجع بالافاس لي فلو الشاطئي أو في تروفيل.

لم أعر انتباهاً لغمزات المرأة المرتدية للساتان الأبيض ذات القناع المصنوع من الهيكل العظمي لجمجمة. منذ زمنٍ طويل لم أعد أخاف من محجريها الفارغين وفكّيها المنزوعين من الأسنان.

لقد مررنا بكلّ ألوان موتٍ عاديّ. الأزرق، والأسود، والأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأبيض. وقد بدا مع ذلك أنّ القابعين في المكان العالي مستعجلون لرؤيتنا. اندسسنا بين حشد الموتى المنتظرين كما لو أننا ما زلنا من مستكشفي الموت.

سوف نصل قريباً إلى جبل النور. وفي الحقيقة لم نكن مخطئين، فقد

وجدنا رؤساء الملائكة في انتظارنا هناك. ولكي يتحدّثوا إلينا بطريقة أفضل، قطعوا نهر الموتى، دون الاكتراث باعتراضات الإكتوبلازمات المستعجلة.

بدا القديس بطرس حزيناً ومتأسّفاً. وكما هي العادة، هو من تكفّل بتقديم الشروحات. منذ أقدم العصور، كان هناك على الدوام مستكشفو الموت، وذلك رغبةً في استكشاف القارة الأخيرة. كانت الملائكة تستقبل زوّارها النادرين بلطف وتفشي لهم بطيب خاطر أسرار الفردوس. أراد بعضهم بعد العودة إلى الأرض أن ينقلوا هذه «الأسرار التي تمّ إفشاؤها» إلى بقية البشر. وقد قدّم إبراهيم، ويسوع المسيح، وبوذا، ومحمد وآخرون كثر شهادتهم. وبهذه الطريقة وُجِدَ الكتاب المقدّس، و*كتاب الموتى التبتي*، والإنجيل، والقرآن، وكتاب تاو تي – تشينغ الصيني... وكلّ الكتب المقدّسة في العالم.

كانت الملائكة قد جعلت من هؤلاء البشر مطّلعين كباراً ولم يُظهر هؤلاء أنفسهم ناكرين للجميل. لقد سعوا إلى أن يُفيدوا بمعارفهم كلّ الأجيال المقبلة لكي تتطوّر هذه الأجيال، وتتحسّن وتتقدّم بسرعة أكبر نحو الحالة الذهنية الصافية. لقد قدّم المطّلعون الكبار بهذه الطريقة مساهمتهم للبشر وللسماوات.

ولكنّهم مع ذلك أحاطوا «اكتشافاتهم» بالسرّ، وبالتصوّف، وبرموز مبهمة للغاية. لقد قاموا بإخفائها تحت غطاءٍ كتيمٍ من الخرافات والأساطير العجيبة. ولكن ما الذي فعلناه نحن؟ لقد حطّمنا السرّ، وخُنّا، وفي الوقت ذاته، وخدعنا أقراننا، وزرعنا الاضطراب على الكرة الأرضية.

كانت الملائكة لطيفة على الدوام حيال المطّلعين الكبار لأنّ الجميع كانوا من الحكماء إلى أن وصلت إلينا. أمّا نحن، فقد كنّا غير واعين. لقد علّمنا الجميع معنى الحياة ومعنى الموت. لقد نشرنا هذه المعاني بشكلٍ عشوائي، ودعونا أيّ شخص مهما كان إلى أن يتبعنا. وقد قدنا سيّاحاً في حالَة من الفوضى إلى هناك حيث يجب أن يبقى اللغز لغزاً، والسرّ سرّاً.

«يبحث الحكيم عن الحقيقة، بينما يكون الغبيّ قد عثر عليها».

تحدّث رئيس الملائكة جبرائيل المنزعج إلينا عن «عملنا». معارك خيضت من أجل امتلاك الفردوس، لوحاتٌ إعلانية في ممرّات الموت،

مقابلة مع ميّت منشورة في كبريات الصحف، رسومات للكارما بكميّات كبيرة... آه! يا لها من فوضى! كان قد حان الوقت بالفعل لوضع حدٍّ لتصرّفاتنا الحمقاء.

قالت روز:

– ممتاز. سوف نعاود الهبوط على الأرض ونخرّب كلّ ما فعلناه!

قال الشيطان، ساخراً:

– لم يعد هناك داعٍ لذلك. لم تعد هناك حاجة إليكم في الأسفل. لقد استغرقنا بعض الوقت، ولكننا قرّرنا في النهاية أن ندع شرطة الملائكة تتدخّل. انظروا ما الذي يحدث في هذه اللحظة.

ألقى ملاكٌ صغير فقاعات صور. كانت صور محطّات إطلاق مستكشفين، كبيرة وصغيرة، رسمية وغير رسمية، تتعرّض للانفجار من جرّاء ضربها بصواعق البرق. كانت كراسي الإطلاق تتطاير متفكّكة. وكانت كراريس التاريخ الخاصّة بالثاناتونوتية تتمزّق متناثرة كالغبار. وكان متحف الموت في معهد سميثسونيان في واشنطن نهب ألسنة النيران، وكذلك متجر والدتي. وكانت الإعلانات الإكتوبلازمية تذوب تحت أنظارنا. مرّ إعصارٌ على العالم السفلي، كانساً في طريقه كلّ ما له، من قريبٍ أو من بعيد، علاقة بالثاناتونوتية، ماسحاً إيّاها إلى الأبد من ذهن البشر. وأعاد كلّ عمل حياتنا السابقة إلى العدم.

قال رئيس الملائكة جبرائيل، بصوتٍ راعدٍ:

– لقد أردتم أن تلعبوا لعبة الآلهة. ولكن على البشر أن يُدركوا الحقيقة بأنفسهم. لا ينبغي للمعرفة المقدّسة أن تُعمّم.

تساءلتُ فجأةً:

– ألهذا السبب قتلتم راؤول؟

– نعم. لقد كان الأوّل والأخطر من بينكم.

وصل الغضب إلى سارافيم ساحر.

– ببعض الوقت الإضافي، ومع هوسكم بوضع الضوء حيث ينبغي أن يسود الظلام، كانت ستكون هناك مصابيح إنارة ومومسات على طريق تناسخ الأرواح.

حاولتُ أن أدافع عن أنفسنا، بخجلٍ واستحياء:

- لسنا سوى بشرٍ بسطاء، وككلّ البشر، نرتكب أخطاء.

زمجر رئيس الملائكة ميخائيل:

- كلا. أنتم مطّلعون كبار. وبدل أن تستمتعوا بالصمت، نشرتم معنى الحياة، وبذلك دمّرتم محرك الوجود نفسه: الفضول، الرغبة في التعلّم وفي التقدّم على طريق المعرفة.

- ولكن هذا هو بالضبط ما كان يريده راؤول!

- وهذا بالضبط ما أكسبه الفرصة في أن يكون مطّلعاً. ولكن معرفتنا لا تسمح بأن تتمّ إساءة استخدامها. حتى أفراد الطوائف الأكثر غرابةً، حتى أصحاب الرؤيا ليومٍ واحد أدركوا على الدوام أنّ عليهم أن يلتزموا الصمت وأن لا يعبّروا عماً يرغبون في قوله إلّا من خلال المجازات. ولكنكم اعتقدتم أنّكم أكثر ذكاءً من الآخرين. أردتم أن تجعلوا «الموت» أمراً شعبياً، لقد أفسدتم كلّ شيء...

استأنف رؤساء الملائكة ذكر سلسلة أخطائنا.

قال رئيس الملائكة رافائيل بنبرة حزينة ومتأسّفة:

- لقد رسمتم وبعتم خرائط جغرافية للفردوس.

- لقد نشرتم... كراريس سياحية.

- لقد أعددتم آلات للموت.

- لقد ردّدتم أقوالنا.

- لقد أثرتم الآلاف من الأرواح من خلال تشجيع الانتحار.

- لقد نظرتم إلينا دون خوف.

- لقد قللتم من احترامنا.

- لقد اعتبرتمونا كخدمٍ لكم لا كأسياد.

لقد كفّ الموتى المنتظرون عن التململ ليتابعوا باهتمامٍ ما يجري بيننا. منذ طيلة فترة وجودهم هنا، لم يكونوا قد رأوا بعد على الإطلاق رؤساء الملائكة يفقدون هدوءهم لكي يثوروا بهذه الطريقة ضدّ إكتوبلازمات مسكينة.

- خونة، أنتم لستم سوى خونة!

كان سؤالٌ يلحّ عليّ ويزعجني منذ بداية هذه التوبيخات، فقاطعتهم لأطرحه.

– حسناً، ولكن في هذه الحالة، لماذا تركتمونا نفعل كلّ هذا؟

أظهر بعض الملائكة تعبيراً ساخراً. ربّما كانوا هنا بمنزلة «رجال الشرطة السماويين» الذين تدخّلوا ضدّنا. على ما يبدو هؤلاء هم الذين أرادوا توقيفنا منذ البداية. والآخرون، الذين يغضبون الآن، هم الذين سمحوا لنا بمواصلة ممارساتنا.

لم يكن رئيس الملائكة جبرائيل مطمئناً وبدا محرجاً.

– كنّا نريد أن نعرف إلى أين ستذهبون في جرأتكم.

أضاف رئيس الملائكة ميخائيل، خجِلاً:

– نحن أيضاً، كنّا نشعر في بعض الأحيان بالفضول حيال البشر. لديهم في بعض الأحيان عقل مراوغ جدّاً... بالنسبة إلى والد راؤول، كانت هناك بالأساس أسرار. من خلال أطروحته *الموت ذلك اللغز*، تجاوز الحدود. وكان من شأن نشرها رفع الكثير من الستائر.

– ومن ثمّ، عندما استلم ابنه الراية، تساءلنا عما يمكننا أن نفعله بهؤلاء المستكشفين الذين كانوا يعتبرون اكتشاف الموت بمنزلة رياضة. كان هناك الفضوليون مثلي، وبالتالي أنصار القبول بذلك. وبالمقابل، كان هناك أنصار رفض ذلك و«الشرطة السماوية» الذين لم يكفّوا عن إطلاق صفّارة الإنذار. ومع ذلك، في الأعلى، كانت الملائكة البيضاء الاثنان والسبعون الرئيسة، في غالبيتها، ونظيراتها السوداء الاثنان والسبعون تعتقد أنّه كان عليها أن تنتظر وترى. وقد نصحوا الملائكة التي في الأسفل، شرطتنا، بأن لا ترتعب. كنّا نعتقد أنّ الثاناتونوتية سوف تدمّر نفسها بنفسها. وأنّ بشراً عاديين لن يكون بوسعهم أن يركّزوا بما فيه الكفاية لكي يضطّلعوا بنجاح بتجربة حاسمة وجوهرية بهذا القدر. ولكنّكم لم تكونوا بشراً عاديين. لقد وصلتم إلينا واستحْققتم أن تصبحوا مطّلعين كباراً. وفقط بعد ذلك، تسببتم بالكثير من الأضرار. آه! وكالات الرحلات الإكتوبلازمية تلك... حتى مع أفضل النوايا الطيّبة، لم يعد بوسع الملائكة التسامح مع غزوات كهذه في

عالمهم السرّي. ولا مع بشرٍ يؤكّدون: «أنا أعرف كلّ شيء». كان يجدر بكم أن تتأمّلوا في الحكاية الإنجيلية عن آدم وتفاحة المعرفة. لا ينبغي أبداً الوصول إلى المعرفة المطلقة، بل فقط السعي إليها...

قال رئيس الملائكة رافائيل بلهجة حاسمة:

– على أيّ حال، فيما يخصّكم، لقد انتهت الفُكاهة. فقد ماتت الثاناتونوتية في لحظة موتكم نفسها.

قالت روز، شاكية:

– ولكن لقد فات الأوان. فقد قرأ عددٌ هائلٌ من الناس كتبنا. والاهتمام بالكارما دخل إلى أخلاق الجميع.

قاطعها رئيس الملائكة رافائيل بحركة ازدراء.

– أنتم ترتكبون من جديد إثم التشكيك في قدرتنا، نحن الذين سبق أن أرسلنا طوفاناً يُغرق كلّ ذنوب البشرية. بعد كلّ هذه الصور التي عرضناها عليكم، أما زلتم تعتقدون أننا غير قادرين على زرع النسيان في الذاكرات؟ في *كلّ* الذاكرات؟

صرّح القديس بطرس:

– لا أحد سوف يتذكّر عملكم. لن تكونوا سوى أسطورة أخرى من هذه الأساطير الغامضة التي لا يؤمن بها أحدٌ بالفعل، مثل أسطورة وحش لوخ نس، أو أسطورة يتي هيمالايا، أو مثلث برمودا. لا شكّ أنّ بعض الأساطير سوف تذكر مستكشفي الموت، ولكن اسمعوني: *لا أحد سوف يتصوّر أنّ الثاناتونوتية قد وجِدَت في الحقيقة. أقسم لكم على ذلك قسماً رسمياً.* لن تعود سوى فكرة مبطّنة في ذهن الناس الذين لديهم حساسية خاصّة.

سألتُ:

– وماذا عن ستيفانيا؟

– ستيفانيا أيضاً سوف تنسى. ولكن على العكس منكم، سوف تنال العفو لأنّها حاولت أن تواصل عمل الشيطان في أوقاتٍ كان يحتاج فيها بالفعل إلى مدّ يد العون، مع كلّ هؤلاء المتكلّفين واللطفاء والمؤمنين بالخرافات.

بدا الشيطان سعيداً.

سألت الوالدتان بقلق:

- وماذا عن فريدي جونيور؟

- وماذا عن بامبرينيل؟

- سوف ينسيان أيضاً. لا تخشيا شيئاً بشأنهما. لن يُعاقبا على آثام والديهما.

299. ميثولوجيا ميزوبوتامية

«ستة أيام وسبع ليالٍ مرّت
لا تزال عواصف الطوفان تهبّ
عواصف الجنوب غمرت الأرض
في اليوم السابع
عواصف الطوفان
التي كانت مثل سلاحٍ
قد أبادت كلّ شيء في طريقها
هدأت من شدّتها.
هدأ البحر
وخفّت الريح
وصمت صخب الطوفان.
نظرتُ إلى السماء، كان الصمت مخيّماً.
رأيتُ البشر وقد عادوا وأصبحوا صلصالاً
والمياه الراكدة تشكّل سقفاً.
فتحتُ كوّة صغيرة.
سقط الضوء على وجهي
جثوتُ على ركبتيّ وبدأتُ بالبكاء.
ها قد انتهى كلّ شيء».

ملحمة أوم نابشتم، التي تُدعى أيضاً... نوح، في الكتاب المقدّس.

مقتطفات من أطروحة فرانسيس رازورباك، *الموت ذلك اللغز*.

300. ميثولوجيا يهودية

حسب القبالة اليهودية، الجنين حكيمٌ كبير. وهو لا يزال في بطن أمّه، يعرف كلّ أسرار العالم. ولكن قبل ولادته بالضبط، ينزل ملاكٌ لكي يُسكته. يضع إصبعاً فوق فمه ويقول له: «اسكت»... ومنذ تلك اللحظة، ينسى الجنين كلّ شيء. لا يعود هناك سوى لاوعيه يتذكّر على نحوٍ غامض «أسراراً كبيرة». وبسبب هذا الاتصال الملائكي لدينا تجويفٌ صغير تحت أنفنا وهو: «مزراب الشفتين».

فريدي ماير، *ملاحظات العمل*.

301. الحلّ

ما زلنا أمام جبل النور.

لم يفكّر أيّ ملاك في الدفاع عنّا، روز وآماندين وفيلان وأنا. لم يعد الجميع يبعث سوى ضوءٍ ثابتٍ يدلّ على قرارهم النهائي وغير القابل للاستئناف. استأنف رئيس الملائكة جبرائيل الكلام.

– وعلى الرغم من هذا، سوف يظهر فيما بعد، بعد زمنٍ طويل، ربّما بعد آلاف السنين، مطّلعون كبار آخرون هنا، مطّلعون حقيقيون لأننا لن نقبل أبداً المزيد من السيّاح. سوف نروي لهم مغامرتكم وبهدوء، بهدوءٍ جدّاً، سوف يكتشفون استكشافاتكم.

عزاءٌ هزيل! وسوف يكتبون لنا، لا أدري متى، *أوديسا* أخرى، كتاباً مقدّساً، روايةً، أو ما شابه! كان راؤول على حقٍّ في اعتقاده أنّ كلّ هذه «الميثولوجيات» المزعومة كانت تخفي الحقيقة.

سألت آماندين بقلق:

– ماذا ستفعلون بنا؟

– سوف تتبعون الطريق المشترك. وبما أنّ كلّ الموتى الآخرين لا يمتلكون ستمئة نقطة، سوف يتمّ تناسخ أرواحكم، وبالطبع لن يتذكّر تناسخكم أيّ شيء عن حياتكم السابقة.

كنتُ أردّد في ذهني: «كنتُ مستكشفاً للموت، كنتُ مستكشفاً للموت، كنتُ مستكشفاً للموت». إذا ما أشبعتُ روحي بهذا التأكيد على أنّ الثاناتونوتية قد وجِدَت بالفعل وأنني لم أكن سوى أحد الروّاد، فربّما سوف تتذكّر مع ذلك بعض الشيء في تناسخها المقبل.

أمر رئيس الملائكة جبرائيل:

– تقدّموا. كنتُم ترغبون في معرفة ما يُقنّع جبل النور للمحاكمة، أليس كذلك؟

ابتسمَ.

– تقدّموا بضع خطواتٍ أخرى وسوف تعرفون ذلك.

سألت روز بدهشة، وهي فرِحة:

– هل وافقتم أخيراً على أن تُطلعونا على قاع الفردوس؟

– بالطبع، طالما أنّكم لن تعودوا إلى الكرة الأرضية لتتحدّثوا للجميع عمّا رأيتموه.

تقدّمت زوجتي كما لو أنّها في حلم. حتى في هذه اللحظة الأخيرة، كانت عالمة الفلك التي في داخلها سعيدة بإرضاء فضولها. كانت تكاد تركض لكي تكتشف ما كان موجوداً على الجانب الآخر من الثقب الأسود.

– إليكَ، يا ميخائيل.

– ألن أُخضَعَ للمحاكمة؟

– لا محاكمة بالنسبة إلى المطّلعين الكبار. لقد سبق أن شرحتُ ذلك لراؤول. ولكن ثقي بنا. ما زلتِ شابّة. لم تعرفي سوى مئة وثلاثة وخمسين شكلاً من البشر. لقد اعتمدنا لكِ تناسخاً صغيراً لطيفاً.

اقتربتُ، فنظرت إليّ روز بقلق.

أفهمتها تخاطرياً:

– أنتِ وأنا، معاً ضدّ الأغبياء.

أسرعت نحوي وقبّل إكتوبلازمها فمي مطوّلاً. لم تشعر شفتاي بشيء ولكنّ روحي انفعلت.

ردّدت بدورها:

- معاً.

بدوري، عبرتُ جبل النور وما رأيته خلفه كان رائعاً بالفعل. كان ذلك يتجاوز كلّ ما كنّا قد رأيناه في كلّ المناطق الأخرى من الفردوس.

فجأةً، فهمتُ كلّ شيء. وبما أننا كنّا بعيدين عن النقطة، ما كان بوسع أحدٍ أن يتوقّع هذا، بالتأكيد. مذهلٌ، إنّه ببساطة مذهلٌ.

لقد رأيتُ أعماق أعماق الثقب الأسود وبكلّ بساطة ذُهِلت. لم يكن هذا ما اعتقدته على الإطلاق. لقد ارتعشتُ من الانفعال والتأثّر. الآن، عرفت.

على الجانب الآخر من الموت، هناك...

كتاب التاريخ المدرسي

بعض التواريخ للحفظ

1492: أولى الخطوات على القارة الأمريكية.

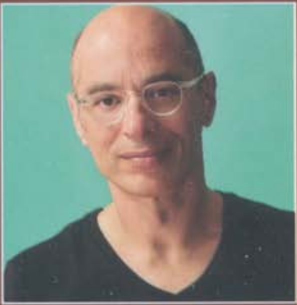
1969: أولى الخطوات على سطح القمر.

كتاب التاريخ المدرسي، المرحلة الابتدائية، الصفّ الثاني.

المحتويات

فيما مضى، كان جميع البشر يخافون الموت. الموت مثل ضوضاء دائمة لا ينساها أحدٌ للحظة واحدة، ويعرف كلّ واحدٍ أنّه في نهاية كلّ أعماله، سوف يَفنى. وكان هذا القلق المقيم يُفسد كلّ المسرّات.

لدى وودي آلن، وهو فيلسوفٌ أمريكي من نهاية القرن العشرين، جملة لوصف الحالة الذهنية المهيمنة في هذه الأزمنة: «طالما أنّ الإنسان سيَفنى، لن يسعه أن يكون مرتاح البال حقّاً».



برنار فيربير كاتب روايات خيال علمي، صاحب ثلاثية «النمل» الشهيرة، ولد في 18 أيلول عام 1961 في مدينة تولوز الفرنسية، وبدأ فيربير الكتابة في عام 1990، يمزج في أسلوبه بالكتابة بين عدّة أنواع أدبية مختلفة، كالأسلوب الملحمي، أسلوب الخيال العلمي والأسلوب الفلسفي. في معظم رواياته، قام برنارد باستخدام نموذج البناء القصصي نفسه، حيث يستعمل النص النثري بالتناوب مع الأسلوب العلمي. كما أن هناك العديد من أشكال الترابط في رواياته، فنجد شخصية إدمون ويلز في ثلاثيته الشهيرة «النمل»، موجودة أيضاً في بعض رواياته الأخرى.

9 789933 617400